هَلاوِس معروف الرصافى فى كتابه :

"الشخصية المحمدية"

تحت المجهر

هَلاوِس معروف الرصافى فى كتابه :

"الشخصية المحمدية"

تحت المجهر

د. إبراهيم عوض

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

كلمة

انتهيت منذ شهور من وضع هذا الكتاب الذى أرد فيه على كتاب الشاعر العراقى: "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس". وفكرة تأليفه هى من اقتراح الصديق والابن العزيز الأستاذ ژيوار المدرس، وهو عراقى كردستانى وحفيد علامة العراق الإمام عبد الكريم المدرس رحمه الله، إذ ظل يغرينى بتأليفه مرات ومرات ولفترة غير قصيرة حتى تركت عملى فى تفسير القرآن، الذى كنت قد كتبت منه ألفى صفحة وأنا منعزل أنا وزوجتى وابنتنا الصغيرة فى شقتنا بالقاهرة تجنبا للإصابة بالكورونا اللعينة، وعكفت على تأليفه راجيا أن أكون قد قدمت فيه شيئا نافعا وأن يتقبله الله بالقبول الحسن كرما منه ورحمة وفضلا.

ولم يتوقف فضل الصديق والابن العزيز ژيوار المدرس عند هذا الحد بل زاد فأمدنى بطائفة من المصادر والمراجع والمعلومات المهمة التى لا تتوفر هنا فى مصر ولا فى المشباك (الإنترنت) مما كُتِب عن الرصافى وعن كتابه المذكور، وظل يحمّسنى ويتصل بى بين الحين والحين ليطمئن أن الأمور تسير فى طريقها نحو إنجاز الهدف. فله الشكر والدعوات الطيبة كفاء ما اقترح وتعاون.

التعريف بالمؤلف والكتاب وتحقيق نسبته إليه

وُلِد معروف عبد الغنى البغدادى الرصافى (١٢٩٤- ١٣٦٤هـ/ ١٨٧٧-١٩٤٥م) ونشأ فى بغداد فى أسرة فقيرة تتألف من أبٍ كرديٍّ هو عبد الغنى محمود وأمٍّ يقال إنها عربية تدعى: فاطمة جاسم. وكان والده شرطيا يتغيّب عن المنزل بحكم وظيفته، فتعلّق بأمّه وارتبط بها. وقد تلقى دروسه الابتدائية فى المدرسة الرشيدية العسكرية، ولكنه لم يستمر فى الدراسة بها، ومن ثم لم يحرز شهادتها. وتتلمذ لمحمود شكرى الآلوسى فى علوم العربية وغيرها اثنى عشر عامًا، وهو الذى أطلق عليه لقب "الرصافى" نسبة إلى الرصافة فى بغداد. واشتغل الرصافى بالتعليم، ونَظَم أشعارا كثيرة فى السياسة والاجتماع والثورة على الظلم قبل الدستور العثمانى وفى التأملات الكونية والمديح والهجاء. ثم سافر بعد الدستور إلى الآستانة، فعين معلمًا للعربية فى المدرسة الملكية هناك، وانتخب نائبًا فى مجلس "المبعوثان" العثمانى. وارتحل إلى دمشق سنة ١٩١٨م، ثم إلى القدس، وعين مدرسًا للأدب العربى فى دار المعلمين هناك. وأصدر جريدة "الأمل" اليومية سنة ١٩٢٣م، لكنها لم تعمَّر ثلاثة أشهر، ثم انتخب فى مجلس النواب ببغداد. ولما قامت ثورة رشيد عالى الكيلانى كان من خطبائها. وكان قد تزوج بالآستانة امرأة تركية عاش معها فترة غير قصيرة، لكنه لما رجع إلى العراق لم يصطحبها معه ولم يهتم بالعودة إليها، وانتهى ما كان بينهما وكأنها لم تكن زوجته يوما. وهناك من يشكك فى زواجه أصلا ويرى أن مثله فى انفلاته الذى كان يسير عليه فى تركيا لا يمكن أن يفكر فى الزواج بله أن يتزوج فعلا. وتوفى ببيته فى الأعظمية ببغداد.

واستأثرت حياة الشاعر العراقى معروف الرصافى باهتمام الباحثين والدارسين ولم يتركوا شاردة ولا واردة فى حياته وشخصيته إلا سجلوها، وذلك لما صبغ حياة

الشاعرفى نصفها الثانى من تحرر واضح فى السلوك والتصرف وغشيان الكثير من المحظورات. وللدكتور يوسف عز الدين كتاب بعنوان "الرصافى يروى سيرة حياته" يسجل حياة الرجل الاجتماعية والسياسية والفكرية بكل جراءة وصراحة.

وللرصافى ديوان شعر، وله أيضا "الأناشيد المدرسية"، وعدد من الكتب منها "دفع الهجنة فى ارتضاخ اللكنة"، و"نفح الطيب فى الخطابة والخطيب"، و"محاضرات فى الأدب العربى"، و"دفع المراق فى لغة العامة من أهل العراق"، و"رسائل التعليقات"، و"على باب سجن أبى العلاء"، و"الرؤيا"، وهى رواية صغيرة للأديب التركى نامق كمال ترجمها إلى العربية. وأهم كتب الرصافى وأخطرها كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس"، الذى يتمحور حوله كتابى هذا الذى فى يد القارئ الآن.

وتتلخص قصة كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس" فى أن الرصافى قد ارتحل من بغداد عام ١٩٣٣م إلى مدينة الفلوجة ونزل فى ضيافة آل عريم بعدما ضاقت به الحياة فى العاصمة، وهناك ألف هذا الكتاب الذى ظل مخطوطًا منذ ذلك الحين إلى أن نُشِر فى مدينة كولون بألمانيا عام ٢٠٠٢م عن دار "الجمل". وفيه ينفى الرصافى عن محمد صلى الله عليه وسلم النبوة، ويرى أنه إنما كان عظيما من عظماء العرب أراد النهوض بقومه وبإصلاح العالم. وهو كلام قاله فى بداية الكتاب، لكنه كان يتراجع عنه فى كل سانحة تتاح مع الهمز واللمز والانتقاد والعيب والشماتة. وعلى نفس الشاكلة نراه يدعى أن القرآن من تأليفه عليه السلام لا وحى إلهى، وأنه كانت تأتيه حالات صَرْعِيّة يقوم منها ويتلو كلاما يزعم أنه تلقاه من السماء. وثم هجوم شديد على كثير من عبادات الإسلام وشعائره وتشريعاته ودعوة إلى تغييرها.

ولدن صدور الكتاب انقسم القراء والكتاب حول نسبته إلى الرصافى: فمنهم من تقبل الأمر ولم يخطر له أن يكون المؤلف شخصا آخر غير الرصافى وأن هناك مؤامرة يراد من ورائها إيلام المسلمين بالزعم بأن شاعرا وكاتبا عربيا مسلما مشهورا قد خرج عن الإسلام وألف هذا الكتاب، فالمؤلف عندهم هو فعلا معروف الرصافى. ومنهم من ارتاب ورأى أن الرصافى، الذى قرأوا له أشعارا فى الدفاع عن الوطن والإسلام، لا يمكن أن يكون هو صاحب هذا الكتاب الذى استباح كل شىء وتجاوز جميع الخطوط وشكك فى كل شأن من شؤون الدين.

ومن بين من شكوا فى الأمر وشككوا فيه التهامى الهانى، الذى كتب ما يلى تحت عنوان "حول "الشخصية المحمدية" المنسوب لمعروف الرصافى. من يكون وراء هذا الكتاب المزور؟" ونشره فى "ملتقى أهل الحديث" و"منتدى المربد" وغيرهما: "يروج فى بعض المكتبات التجارية كتاب ضخم يتشكل من ٧٧٠ صفحة من الحجم المتوسط. على الغلاف الخارجى كان عنوانه: "كتاب الشخصية المحمدية"، وفى داخله أردف العنوان ما يلى "أو حل اللغز المقدس"، ونُسِب للشاعر العراقى الشهير معروف الرصافى، الذى عاش ما بين ١٨٧٥م و١٩٤٥م.

هذا الكتاب كما ورد فى الإشارة المسجلة على الصفحة الرابعة هو نسخة من الأصل، مع الوثائق الملحقة، محفوظة فى إحدى مكتبات جامعة هارفارد الأمريكية، التى تأسست سنة ١٦٣٦، وهى لعمرى من الجامعات الأمريكية العريقة. وتم طبع هذا الكتاب ونشره بـ"دار منشورات الجمل" سنة ٢٠٠٢ بألمانيا. وعلى الصفحة الخامسة ثم السادسة قدمت دار النشر وصفًا للمجلدات المصورة. إثر ذلك كانت المحتويات، وقائمتها طويلة، وتضمنت محاور تستفزك بسرعة لما فيها من عناوين مثل "هل محمد

صادق فيما أخبر به وادعاه؟" أو "فكرة النبوة كيف حصلت لمحمد؟"، وأيضا "هل لمحمد كلام بعد النبوة؟". والعناوين التى تشى بخفايا صاحبها هى "اقتران الدعوة بالسيف" و"حروبه الدينية" و"العيون والجواسيس" و"جواسيسه السرية الخاصة" و"الجواسيس العلنية العامة" و"خزاعة كلها جواسيسه" و"العباس صاحب استخبارات محمد". والذى تشمئز النفوس النبيلة بالإسلام منه هو حديثه عن القرآن، مثل الادعاء بأن القرآن هو من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

وسوف نرجع بالتفصيل للرد على ما ورد من تُرَّهات فى هذا الكتاب الذى يمكن أن نحوصل ما يستنتجه القارئ بعد الاطلاع عليه فيما يلى: الشك فى كل محطات السيرة النبوية وفى صفات الرسول وإنكار الدين الإسلامى وخلط سور القرآن ودمج المفردات القرآنية لتغيير الآيات. وأخيرا نقول: هو تخريب للسيرة النبوية وإنكار للدين الإسلامى بالتشكيك فى كل شىء. والسؤال الذى يلقى بكل تلقائية هو "هل أنّ هذا الكتاب (كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس") هو من تأليف الشاعر العراقى معروف الرصافى؟ وإذا لم يكن هو المؤلف من يقف وراء هذا التأليف؟ هل كان معروف الرصافى صاحب هذا الكتاب؟ بكل هدوء نتفحص هذا الكتاب ونبرز ما يساعدنا على كشف الحقيقة بكل موضوعية منتهجين فى ذلك سبيل العقل وإحكام الفكر حتى نقنع القارئ بما نعتبره حجة للمنطق، وقوة لطبيعة الأشياء والأحداث. لذلك نسجل الملاحظات التالية:

١ – طيلة صفحات هذا الكتاب، وعددها ٧٧٠ صفحة، لا نعثر على عبارة "صلى الله عليه وسلم" حذو اسم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا غريب على مؤلف يعتنق الديانة الإسلامية. ٢– لم تكن المراجع والمصادر مثبتة بالطرق المعهودة فى

كل بحث أكاديمى رصين، بل نجد أحيانا وفى كثير من المرات إشارات مبهمة تنم على أن الكاتب تعمدها لإخفاء ما يريد "تمريره" من أفكار غريبة وآراء أغرب، مثل "ذُكِر فى بعض كتاب السيرة... إلخ". ٣- هذا الكتاب (كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس") تم تأليفه سنة ١٩٣٣ فى حين أن المراجع والمصادر المذكورة فى آخر الكتاب نجد بعضها قد طُبِع بعد هذا التاريخ رغم أن الاعتماد عليها كان بعد الطبع وليس قبله... من ذلك كتاب "المصاحف" لأبى حاتم السجستانى، الذى صدر بمصر سنة ١٩٣٦، وتحديدا بالمطبعة الرحمانية. كتاب "الكشاف عن حقائق التنزيل" لجار الله الزمخشري- مطبعة الحلبى بمصر سنة ١٩٦٦. ذكرنا هذا للتدليل على أن المؤلف ذكرها وكأنه اعتمد عليها، أى هذه الكتب، وهى مطبوعة، ونظرا لكونها طبعت بعد تاريخ تأليف كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس"، وهذا ما لا يستقيم. كما أن القول بأن كتاب "الكشاف عن حقائق التنزيل" لمؤلفه جار الله الزمخشرى، وهو خطأ، والصواب هو أن هذا الكتاب هو من تأليف أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى الذى عاش ما بين ١٠٧٥م- ١١٤٤م، والذى خلَّف عددا من الكتب مثل "أساس البلاغة" و"المفصَّل" و"الفائق فى غريب الحديث" و"أطواق الذهب" و"نوابغ الكلم" بالإضافة طبعا لكتابه المشهور: "الكشاف عن حقائق التنزيل". وأيضا نشير إلى خطإ آخر، وهو خاص بمرجع اعتمد عليه المؤلف كثيرا، وهو "السيرة الحلبية"، أى "إنسان العيون فى سيرة المـأمون" لصاحبه على بن برهان الدين الحلبى. والحقيقة هى أن عنوان الكتاب هو "إنسان العيون فى سيرة النبى المـأمون" لمؤلفه نور الدين الحلبى. فالخطأ واضح فى عنوان الكتاب واسم المؤلف أيضا. وهذا المؤلف له كتاب آخر بعنوان "زهر المُزْهِر"، الذى اختصر فيه "المُزْهِر" للسيوطى. كما أن مؤلف كتاب "الشخصية

المحمدية" ذكر اسم السيوطى بـ"عبد الرحمان السيوطى" عوضا عن جلال الدين السيوطى، وهو المشهور. فالأخطاء كثيرة يطول حصرها.

٤- معروف الرصافى، حسب هذا الكتاب، ألفه، أى "الشخصية المحمدية"، فى "الفلوجة" بالعراق سنة ١٩٣٣. وهنا نقطة استفهام. لو تصفحنا حياة الرصافى لوجدنا أنه من عشيرة "الجبارة" القاطنة فى كركوك، ويقال إنها علوية حسب ما ذكره أحمد قَبَّش فى كتابه: "تاريخ الشعر العربى الحديث"، وولد الرصافى من أب كردى الأصل وأم بدوية عام ١٨٧٥، وعاش فى الرصافة فى بغداد. كان تعليمه متواضعا حيث إنه دخل المدرسة الرشدية العسكرية ولم يحرز على شهادتها. تتلمذ على محمود شكرى الآلوسى طيلة سنوات حيث تمكن من علوم العربية. تم تعيينه مدرسا بالمدارس الابتدائية ثم بالمعاهد الثانوية. رحل إلى الآستانة، وفى سنة ١٩١٨ انتقل إلى دمشق، وإثر ذلك عاد إلى بغداد، فتم تعيينه "نائبا لرئيس لجنة الترجمة والتعريب"، وأصدر صحيفة يومية بعنوان "الأمل" سنة ١٩٢٣، ولم تدم الجريدة سوى بعض الشهور، وتقلَّب فى الوظائف: عين مفتشا فى المعارف ثم مدرسا للعربية وآدابها، ورئيسا للجنة الاصطلاحات العلمية. وفى سنة ١٩٢٨ استقال من الأعمال الحكومية ثم انتخب عضوا بمجلس النواب خمس مرات فى مدة لا تتجاوز ثمانى سنوات. زار مصر سنة ١٩٣٦، وانضم إلى ثورة رشيد عالى الكيلانى ونظَم أناشيدها، وفشلت الثورة، فعاش منزويا، وهذا فى أوائل الحرب العالمية الثانية. وتُوُفِّيَ بالأعظمية فى بغداد، ودفن فى مقبرتها حذو قبر جميل صدقى الزهاوى سنة ١٩٤٥.

سردتُ محطات حياة معروف الرصافى لنوضح للقارئ "تزوير الحقائق الموجودة" فى كتاب "الشخصية المحمدية". فالرصافى أثناء سنة ١٩٣٣ وما قبلها وما بعدها فى

مرحلة نشاط سياسى ومهنى وثقافى لا يسمح له بالانزواء فى مكان لا صلة له به، أى الفلوجة. ولماذا ذُكِرَت الفلوجة دون غيرها من المدن العراقية؟ ألها صلة بواقع العراق اليوم؟ ثم إذا كان الأمر فيه شك يجرنا ذلك إلى الشك فى تاريخ صدور الكتاب، أى ٢٠٠٢، وحينها نميل إلى الاعتقاد بأن كتاب "الشخصية المحمدية" قد تم إصداره بعد الاحتلال الأمريكى للعراق وجعل المكان والتاريخ للاستفزاز والتهكم...

أما مؤلفات الرصافى التى خلَّفها مطبوعة ومخطوطة هى حسب ورودها فى كتاب "تاريخ الشعر العربى الحديث" وغيره من المراجع: -"ديوان الرصافى". طبع عديد المرات، وفى اكثر من بلد عربى، إذ طبع الجزء الأول منه سنة ١٩١٠، ثم كاملا، وهو الذى يوجد بين يدى، لكنه لا يحمل تاريخا، إنما المقدمة الخاصة بالطبعة السادسة والتى حررها عبد الصاحب شكر البادرانى مذيلة بهذا التاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩٥٧، ولا شك أنّه طبع بعدَ ذلك. -"دفع الهجنة فى ارتضاخ اللكنة"، وهى عبارة عن رسالة فى الألفاظ العربية المستعملة فى اللغة التركية وبالعكس. نشر فى مجلة "لسان العرب" فى الآستانة سنة ١٣٣١هـ. -"دفع المراق فى لغة العامة من أهل العراق". نشر متسلسلا فى مجلة "لغة العرب". -"رسائل التعليقات فى نقد كتاب النثر الفنى وكتاب التصوف الإسلامى"، وهما للدكتور زكى مبارك. طبع للمرة الثانية فى بيروت سنة ١٩٥٧. -"نفح الطيب فى الخطابة والخطيب". طبع سنة ١٩١٧. -"محاضرات فى الأدب العربى" أو "دروس فى تاريخ آداب اللغة العربية"، وهو جزءان ألقاهما فى دار المعلمين ببغداد، وطبع بها عام ١٩٦٠. -"ديوان الأناشيد المدرسية لطلبة المدارس". جمعها خليل طوطح مدير دار المعلمين بالقدس، وطبعها هناك سنة ١٩٢٠. -"تمائم التربية والتعليم". شعر لا نعلم عنه شيئا. -"على باب سجن أبى العلاء". طبع ونشر بعد

وفاته. -"آراء أبى العلاء". مخطوط. "الآلة والأداة". مخطوط. -"الأدب الرفيع فى ميزان الشعر وقوانينه". طبع بغداد سنة ١٩٥٦. -"مع الرصافى الثائر". طبع سنة ١٩٦٢. -"مختارات من معروف الرصافى". جمعها الشاعر بنفسه، وطبعت فى بيروت سنة ١٩٥٤. -"المنهل الصافى من شعر الرصافى"، وهو عبارة عن مختارات فى المجالات الأدبية والأخلاقية والاجتماعية والتاريخية التى جمعها الشاعر بنفسه، وطبعت ببغداد سنة ١٩٦٤. -"نظرة إجمالية فى حياة المتنبى" حققه إبراهيم العلوى. طبع ببغداد سنة ١٩٥٩. -"رواية الرؤيا"، وهى ترجمة لرواية نامق كمال الشاعر التركى، وطبعت ببغداد سنة ١٩٠٩.

تلك هى مؤلفات الرصافى المطبوعة والمخطوطة والتى لا تتضمن هذا الكتاب (كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس"). إذن فالكتاب لم نعثر على إشارة إليه فى أكثر من عشرة كتب. لكن السؤال: لماذا تم إسناده لمعروف الرصافى دون غيره؟ لذلك نتفحص عقيدة الشاعر.

٥- عقيدة الرصافى: كان الرصافى مسلما سنيا، وهو اشتراكى النزعة السياسية يفضل أحكام العقل، ويرفض العادات والتقاليد البالية، وكان ثائرا على ما يراه فى قومه من ظواهر تقديس القبور وزيارتها والتبرك بها. وهو فى شعره جرىء لأنه شديد التعلق بالتقدم والنهوض بالمجتمع وحرية المرأة إذ يقول:

يقولون فى الإسلام ظلما بأنّه ... يصد ذويه عن طرق التقدمِ
فإن كان ذا حقّا فكيف تقدمت ... أوائله فى عهدها المتقدمِ؟
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله ... فماذا على الإسلام من جهل مسلمِ؟
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعُلَى ... بصائرَ أقوام عن المجد نُوَّمِ

وأطلـق أذهـان الـورى مـن قيودهـا   فطـارت بأفكـار عـلى المجـد حُـوَّمِ

فهو يرى أنّ الإسلام لا يعوق التقدم بل يساعد عليه لأن الأجداد تقدموا به فى الماضى. فشِعْر الرصافى نارى ثائر يرجّ كل سكون فى المجتمع، إذ يقول مستنهضا العرب بسخرية واضحة فى قصيد بعنوان "الحرية فى سياسة المستعمرين". يقول:

يـــا قـــوم، لا تتكلمـــوا   إن الكـــــلام محـــــرَّمُ
نـــاموا ولا تـــستيقظوا   مـــا فـــاز إلا النُّـــوَّمُ
وتـــأخروا عـــن كـــل مـــا   يقـــضى بـــأن تتقـــدموا
ودعـــوا الـــتفهُّم جانبـــا   فـــالخير ألا تفهمـــــوا
وتثبَّتـــوا فى جهلكـــم   فالـــشر أن تتعلمـــــوا

إلى آخر القصيد. المهم أن الرصافى شديد الحماس للثورة على كل شىء حتى إنه قال رادًّا عن الذين اتهموه فى دينه لثورته التى أشرنا اليها سابقا، فهو يقول:

رمـــانى القـــوم بالإلحـــاد جهـــلا   وقـــالوا: عنـــده شـــك مريـــبُ
فمـــن ذا منكمـــو قـــد شـــق قلبـــى؟   وهـــل كُـشِفَتْ لكـم فى الغيـوبُ؟
فعنـــد الله لى معكـــم وقـــوفٌ   إذا بلغـــت حناجرَهـــا القلـــوبُ
يقينـــى شر فـــريتكم يقينـــى   بـــأن الله مطلـــع رقيـــبُ

وسبب الخدش فى تدينه ما ورد مثلا فى قصيد بعنوان "فى حفلة الميلاد النبوى" والذى يبدؤه بمطلع:

وضـــح الحـــق، واســـتقام الـــسبيلُ   بعظـــيمٍ هـــو النبـــى الرســـولُ
قام يدعو إلى الهدى بكتابٍ   عربـــى قرآنـــه ترتيـــلُ

يتحدث فى هذا القصيد عن "طموح الرسول وذكائه وحب الوصول إلى المراتب العالية" رغم تمجيده للإسلام كثورة عربية وعالمية. وإذا ربطنا هذا النوع من الفلتات الشعرية مع كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس" عرفنا ما قام به الذين وقفوا وراء إصدار هذا الكتاب وما تضمنه من آراء تخرِّب الدين الإسلامى وتشك فى كل شىء. إذن من هو مؤلف هذا الكتاب (كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس")؟ المهم أن الرصافى كما بينا أعلاه لم يكن مؤلف هذا الكتاب. ولكن لماذا تم اختيار الشاعر معروف الرصافى كمؤلف لهذا الكتاب (كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس")؟

وللإجابة عن ذلك نقول: الأسباب كثيرة منها ما عُرِف به الشاعر من مجون واستهتار ولهو يجسد تمهيدا لمثل ذلك الانفلات العقائدى. ومنها شدة حماسه للثورة على واقع العرب والحث على طلب الحرية والعلم لنيل التقدم والازدهار. وهذا ما يجعل الذين يقفون وراء تأليف هذا الكتاب يعتقدون أن "ثورة الشاعر يمكن أن تفرز مثل تلك الكتابات" - تحديد موقع التأليف، وهو الفلوجة. وهذه المدينة هى رمز الصمود والتحدى فى سبيل استقلال العراق وحريته. وهذه طعنة موجهة إلى أهل السنة لأن الشاعر كان سنيا. ومكان التأليف هو الفلوجة، وتخريب الدين من أهل السنة ومن هذه المدينة - ما يلفت الانتباه هو ذاك "الإيضاح عن النسخة الاصلية"، وقد ورد فى سطرين، وهما "اطلعتُ على هذه النسخة من كتابى: "الشخصية المحمدية" فرأيتها صحيحة كاملة خالية من الأغلاط فى النسخ. فلذا أجيز روايتها والنقل عنها. كتبتُ هذا إعلاما بذلك". وكان الإمضاء فى الأسفل باسم معروف الرصافى. وهنا نسأل: لماذا كتب هذا التوضيح؟ وكيف أخذت هذه النسخة منه؟ ومن هو الذى قدمها له؟

ومتى كان ذلك؟ وإذا كانت النسخة قدمت للرصافى حبا كما يظهر من خلال هذه الجمل لماذا يتم طبع هذا الكتاب سنة ٢٠٠٢، أى بعد وفاته؟ وعادة تنقّل نسخ مخطوط ما لا تكون بمثل هذه الطريقة التى ترى فى تراتيبها وأحكامها، إذ كنت أعتقد أننى سأعثر على بعض الصور لصفحاتٍ كتبت بخط المؤلف. وما أشير إليه فى الصفحات الأولى من الكتاب "أن هذه النسخة الأصلية مع بعض الوثائق الملحقة بها"، ولكن أين هى تلك الوثائق؟ فالنسخة مزورة بلا شك، ونسبت إلى الشاعر معروف الرصافى ظلما وتعسفا على شاعر تقدره الأمة، التى طالما تغنى بأمجادها، وطالما نادى بتطويرها وطالب بتقدمها.

لكن هل كان مؤلفها يهوديا، وبالتحديد صهيونيا يرغب فى تشويه سيرة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم؟ إذا تصفحنا الكتاب وجدنا أن مؤلف كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس" يعتبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم "لم يكن عادلا"، حسب زعمه، فى التعامل مع مشركى قريش من ناحية، ويهود المدينة من ناحية ثانية. فهذا المؤلف يعتبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعامل مع مشركى قريش بعطف، ومع اليهود بقسوة، إذ جاء فى الكتاب (ص٣٢): "ولو أن محمدا استعمل عشر هذا العطف وهذه الرأفة "بأهله من قريش" قسوة، مع أن هؤلاء كقريش فى عداوتهم له". أما الحديث عن المسيحية فهو الذى يبين لنا إن كان المؤلف يفضل أى الديانتين: اليهودية أم المسيحية؟ فيقول المؤلف فى الحديث عن "الفرق بين قول اليهود وقول النصارى فى صلب المسيح" (ص ٦٨٩): "معلوم أن المعترفين بصلب المسيح هم فريقان: اليهود والنصارى. وبين الاعترافين بون بعيد وفرق عظيم. فأما اعتراف اليهود فهو من قبيل اعتراف القاتل بجنايته، إذ كانوا هم الذين صلبوا. وإن كان الذى

صلبه غيرهم فهو من قبيل الاعتراف بصلب العدو للتشفى لأنهم أعداؤه... إلخ". وفى موضع آخر من الكتاب ورد أيضا (ص٦٨٩) "من تتمة قصة عيسى ما يعترف به اليهود والنصارى من صلبه وما يدعيه النصارى والمسلمون من رفعه إلى السماء. فالنصارى يقولون بالصلب والرفع معا، واليهود يقولون بالرفع دون الصلب. ولا ريب أن الصلب فى حقيقته مصيبة فاجعة من المصائب التى أوجدتها الهمجية البشرية، فإيقاعه من قِبَل عتاة متمردين على شخصية مقدسة ممتازة بالنبوة لله ينافى بحسب الظاهر قدسيتها ويحط من قدر منزلتها الرفيعة المقدسة... إلخ".

فمن خلال ما ذكرنا من استشهادات نسجل ما يلى: تعاطف مع اليهود فى تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم ضد اليهود فى مسألة صلب المسيح عليه السلام. المسلمون لا يقولون بـ"بنوة المسيح لله"، أى المسيح ابن الله. الاستخفاف بالرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم وما ورد من أفكارٍ تُنْكِر الرسالة المحمدية حسبما ورد فى الكتاب سوف نتعرض له فى موضع لاحق. هذا كله يجعلنا نعتقد أن مؤلف الكتاب (كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس") هو مسيحى الديانة لإيمانه بالله وتقديسه للمسيح عليه السلام وإنكار الإسلام والوقوف ضد اليهود فى مقارنتها بالمسيحية.

ومما يؤكد يقينا هذا الاعتقاد التقاءُ أفكار مؤلف هذا الكتاب بما ورد فى كتابَىْ: "صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمى" لصاحبه صموئيل هنتنغتون، و"نهاية التاريخ والإنسان الأخير" لمؤلفه فرانسيس فوكوياما. بين كتاب "الشخصية المحمدية" ونظريات المسيحيين الجدد قبل أن نقدم مقارنة بين ما ورد فى الكتاب المنسوب زورا إلى الشاعر معروف الرصافى (كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس") وما ورد

فى كتابات منظرى "المسيحية الجديدة" وأطروحاتها حول "صدام الحضارات" و"نهاية التاريخ"، وأساسا "إيديولوجيا الليبرالية الديمقراطية"، ونحرص على تقديم بعض الملاحظات:

أولا اعتمد مؤلف كتاب "الشخصية المحمدية" على مرجع واحد، بل قل إنه تم الاستناد اليه بصفة تكاد تكون مطلقة، وهو كتاب "إنسان العيون فى سيرة النبى الأمين المأمون" المشهور بعنوان "السيرة الحلبية" لصاحبها على إبراهيم بن أحمد الحلبى المتوفى سنة ١٦٢٤م/ ١٠٤٤هـ. وهذا بدوره قد اعتمد على كتب مثل "سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد" لمحمد بن يوسف الدمشقى الشامى المتوفى سنة ١٥٣٣م، وكذلك كتاب "عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير" للإمام الحافظ فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد المعروف بابن سيد الناس المتوفى سنة ١٣٣٣م. وللمزيد راجع كتاب "أضواء على كتب السيرة النبوية" لصاحبه على العريبى. وهذه الكتب حرصت على تقديس الرسول، و"السيرة الحلبية" اختار صاحبها جمع الأحاديث والأخبار الضعيفة والروايات الأسطورية من أجل إضفاء القداسة على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلّم من أجل الحصول على الأجر والثواب دون مراعاة الموضوعية والحقيقة حتى بات من يقرؤها يستخف بها خصوصا إن كان من غير المسلمين. وما يهم هو أن ما نتج عن الخطأ هو الخطأ بالتأكيد. كما أن التحليل والتأويل الذى أجهد المؤلف نفسه فيه هو كاللاهث خلف السراب: ينال التعب دون نيل المنى. كان الكتاب الذى يتظاهر بغزارة فى المعلومات التى استقاها من الأخبار الضعيفة والروايات التى لا يُوثَق بصحتها يحوى الكثير من الأخطاء فى النحو والصرف والتصريف مثل وظائف الأسماء الخمسة، المضارع الجمع المسبوق بأداة جزم... إلخ. وهذا لا يدخل فى باب الأخطاء

المطبعية التى نعلم متى تكون فى النص وأين تكون فى الكلمة. ثانيا أن مؤلف أو مؤلفى كتاب "الشخصية المحمدية" يتحدث عن "المسلمين" مثل القول: "كان المسلمون" أو "للمسلمين"، فكأنه ليس منهم. ثالثا السخرية من الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن القرآن وجبريل عليه السلام، ومن الصحابة، ومن محطات فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم... رابعا هذا الكتاب يندرج ضمن الحملة التى يشنها الغرب ضد الإسلام والمسلمين. وسوف نقدم لاحقا بعض هذه المحاولات التشويهية التى تنطلق من أكثر العواصم الغربية مثل باريس وروما ولندن وواشنطن وبون وغيرها من العواصم.

والآن نقدم للقارئ صلة هذا الكتاب المنسوب زورا للشاعر العراقى معروف الرصافى (كتاب "الشخصية المحمدية") بما ورد فى كتابات أمثال صموئيل هنتنغتون وفرانسيس فوكوياما وبرنارد لويس وغيرهم، وحتى نثبت أن هذا الكتاب هو محاولة، التى تحرص الدوائر الصهيونية والاستعمارية على نشرها للتشويه والإساءة للإسلام:

١-التشكيك فى الرسالة المحمدية: يقول فرنسيس فوكوياما فى كتابه: "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" (ص٧١) إن "الإسلام يشكل نظاما إيديولوجيا آخر متماسكا شأن الليبرالية والشيوعية، وله نظامه الأخلاقى الخاص وعقيدته الخاصة فى العدالة السياسية والاجتماعية. فدعوة الإسلام هى ذات طابع شمولى، وهى تتوجه إلى جميع الناس كبشر، ليس فقط باعتبارهم أعضاء فى مجموعة إثنية أو قومية خاصة... إلخ". فالإسلام، فى رأى فوكوياما، هو توجه حزبى لمجموعة بشرية ذات تنظيم جماهيرى. وورد فى الكتاب المنسوب للرصافى ما يلى (ص٢٠) "إن الغاية التى يرمى اليها محمد من الدعوة إلى الله أو من النبوة ليست بدينية محضة"، ثم يواصل فى موقع آخر: "إن الغاية ليست بدينية محضة. إنما الغاية التى يرمى إليها محمد هى إحداث نهضة عربية

دينية اجتماعية سياسية تكون عربية المبتدإ، عالمية المنتهى، أى يقوم بها العرب فى بدء الأمر ثم تعم وتشمل الناس جميعا فى النهاية". فالشك فى الديانة واضح، وتكرار عبارة "ليست بدينية محضة" دليل على القصد الذى يريد إبرازه مؤلف الكتاب. وهذا الاستنتاج الذى أراد المؤلف أن يقنع به القارئ خاطئ لأن من كان غرضه سياسيا ويريد تحقيق شيء من طموحه عليه أن تظهر بوادر لتحقيق ذلك منذ سن الشباب. أى لا يمكن أن ينتظر إلى سن الاربعين. فالرسول محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن يهتم بأمر القيادة والزعامة طيلة عمره. بل أكثر من ذلك كان منكفئا على نفسه يحبّ العزلة والابتعاد على الناس. ولا أعتقد أن من كان هذا دأبه يكون سياسيا يبحث عن الزعامة أو القيادة السياسية. ٢-الدعوة الإسلامية انتشرت بالسيف والحروب والعنف. وفى هذا الصدد يقول صموئيل هنتنغتون فى كتاب "صدام الحضارات" (ص٤٤٩ وما بعدها): "الإسلام منذ البداية كان دين السيف، والإسلام انتشر بالسيف، ويثمِّن ويعظِّم القيم والفضائل العسكرية". وفى موقع آخر يقول: "وهذا الأصل العنيف طبع فى تأسيس الإسلام. محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نفسه يُذْكَر ويُشَار له كمقاتل صعب وقائد عسكرى ماهر". ومما ورد فى الكتاب المنسوب للشاعر معروف الرصافى (كتاب "الشخصية المحمدية") وتحت عنوان فرعى موسوم بـ"اقتران الدعوة بالسيف" (ص٢٨٤): "ولكنه لما هاجر إلى المدينة بعد بيعة العقبة الكبرى قويت شوكته، واشتد جناحه بالأنصار الذين بايعوه، والمهاجرين الذين تابعوه. وعندئذ قرن دعوته بالسيف ليقاتل خصوم دعوته من الكافرين، إلا أنه جريا على ديدنه فى جميع أمور الدعوة تدرج قرار القتال تدرجا منطبقا على مقدار ما عنده من قوة حربية". فحِرْص

المؤلف على ربط الدعوة بالسيف والعنف واضح، وهو ما ورد فى كتاب "صدام الحضارات".

لهذا نقول إن كتاب "الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس" المنسوب زورا وبهتانا للشاعر معروف الرصافى هو تكرار ممجوج لما ورد على ألسنة المستشرقين وأعداء الإسلام أمثال برنارد لويس وجون كلود بارو، الذى يقول فى ١٩٩٠ بعد أن انهار العالم الشيوعى: "بدا أن الغرب الليبرالى بقى وحده سيد العالم فى ١٩٩١، وآثار هذا الانهيار الكبير لم تنته بعد، وإذ بأصوات غريبة ترتفع فى جنوب وشرق البحر المتوسط مرددة: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر". فى الوقت الذى كان المفكرون يحتفلون بذبول الإيديولوجيات ونهاية التاريخ ها هى إيديولوجية قوية وديانة وحشية تنبعث من عمق ثلاثة عشر قرنا. أية مفاجأة؟ بالسفر فى الدول الشيوعية يعثر الأوروبى من جديد على الغرب، غرب فقير ومتخلف، ولكنه الغرب على أية حال. فى الدول الإسلامية على العكس من ذلك المسافر الغربى يجد نفسه اليوم فى كوكب آخر".

الخاتمة: ما كان هذا المقال ردا على ما ورد فى كتاب " الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس" المنسوب زورا للشاعر معروف الرصافى، وسوف يكون الردّ بالتدقيق والتفصيل فى موضوع آخر. لكن الأهم أننا كشفنا زيف هذا التأليف. واختيار معروف الرصافى ومكان التأليف، وهو الفلوجة، ما كان إلا "دسا" للسم فى الدسم، وما كان أيضا إلا طفرة من الحقد الذى يكنه الغرب للإسلام والمسلمين. فالكتاب تشويه للسيرة النبوية واعتداء على شخصية الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، واختيار "الفلوجة" هو تشويه لأرض الصمود والبطولات التى أظهرها أهل الفلوجة الأشاوس فى مقاومة الاحتلال الأمريكى للعراق الشقيق".

وتعليقا على هذا الكلام نقول إن هناك رواية تمد الفترة التى أُلِّف فيها كتاب "الشخصية المحمدية" إلى سنة ١٩٤٤م ولا تقف به لدن سنة ١٩٣٣. ومع هذا فإن الكلام عن انتهاء الرصافى من تأليف الكتاب أو اكتفائه بتسجيل بعض الملحوظات مضطرب: فمرة نسمع هذا، ومرة نسمع ذاك (انظر فى الرأى الأخير كتاب "الرصافى يروى سيرة حياته" للدكتور يوسف عز الدين/ ٢٤٤). وبناء على الثانية ألفينا بعض المنكرين لعَزْو الكتاب إلى الرصافى يقولون: كيف يقول الرصافى إنه لم يُتِمّ كتابَه خلال عشر سنوات تقريبا فى الفلوجة فى حين أتمَّه بعد ذلك خلال السنتين الباقيتين من عمره فى بغداد حيث الصخب والمشاكل الكثيرة الكفيلة بتصعيب التأليف على من يزاوله؟ لكننا سوف نقدم فى هذا الفصل أدلة حاسمة تبين أن الرصافى هو فعلا وحقا مؤلف هذا الكتاب، وأنه انتهى منه فى بدايات أربعينات القرن الماضى وليس فى بدايات ثلاثيناته. أما دفاع الرصافى تهمة الإلحاد عن نفسه فهو أمر طبيعى حتى لو أُمْسِك والدماء تلطخ يديه، فضلا عن أن الإلحاد مصطلح يمكن التلاعب به واستعماله فى معان متعددة. وأما الشعر الذى أورده كاتب المقال للبرهنة على حسن إسلام الرصافى وغيرته على دينه ورسوله وكتاب الله فلقد مر الرصافى بمرحلة من حياته كان فيها شديد التمسك بدينه وورعا عظيم الورع، ثم تلت مرحلة انخلع فيها من كل ذلك ولم يعد يبالى بحلال أو حرام، وقال من يعرفونه إنه كان يزنى ويشرب الخمر ويطأ الغلمان. وأتوا هم أيضا من شعره ومن وقائع حياته بما يدل على ما يقولون. وسوف أشير إلى ذلك فى مواضعه وأذكر أسماء المراجع التى اعتمدت عليها فى هذا الأمر.

وقد كتب لى صاحب فكرة كتابى هذا الأستاذ ژيوار المدرس عن الكاتب الفلسطينى د. رائد السمهورى أنه قال: "كنا نزور أستاذنا الشيخ على الطنطاوى كل

أربعاء فى التسعينيات من القرن الماضى فى بيته بجنوب جدة فى السعودية، وكان الحديث يتتناول موضوعات مختلفة أدبية وفقهية وغيرها، وأذكر أنه ذُكِر اسم "معروف الرصافى" مرارًا، وكان الشيخ يذكر أن سيرته لم تكن حسنة، وقال إنه حين كان يدرّس بالعراق فى ثلاثينيات ذلك القرن اصطحب تلاميذه ليزوروا الرصافى، فاستأذنوا بالدخول، فخرج لهم الخادم وقال: الأستاذ معروف مشغول. عنده فد بمبونى (أى غلام صغير) بس يخلّص منه يستقبلكم". سألنا الشيخ: ما معنى هذا الكلام؟ فقال وهو غاضب: "عنده ولد عَمْ يسخّمه (كناية عن أنه "يفعل به" بالشامية)"! ثم قال: كان الرصافى إذا نزل دمشق ينزل عند أشهر بغاياها! هذا وهو القائل:

هى الأخلاق تنبت كالنباتِ = إذا سُقِيَتْ بماء المكرماتِ"

وبالنسبة لعدد المصادر والمراجع التى اعتمد عليها الرصافى يُنْسَب إليه القول بأنه لم يكن معه حين ألف الكتاب سوى أربعة منها فقط هى "السيرة الحلبية" و"سيرة ابن هشام" و"كشاف" الزمخشرى و"معجم البلدان" لياقوت الحموى بينما نجد فى آخر الكتاب ثلاثين مصدرا ومرجعا، وإن كانت كلها تخلو من ذكر تاريخ النشر، اللّهم إلا اثنين منها فقط هما "الكشاف"، وتاريخ نشره ١٩٦٦م، أى بعد الانتهاء من تأليف الكتاب بأكثر من عشرين عاما، وهو ما يثير مشكلة كبيرة، إذ كيف يرجع الرصافى إلى كتاب مطبوع بعد تأليف الكتاب بل بعد موته هو بأكثر من عشرين عاما؟ أما الكتاب الثانى فهو "المصاحف" للسجستانى"، وتاريخ نشره هو ١٩٣٦م، أى أنه لم يكن قد طبع بعدُ هذه الطبعةَ التى يفترض أن الرصافى قد اعتمد عليها ما دامت مذكورة فى مصادره ومراجعه حسب دار الجمل، التى نشرت الكتاب عام ٢٠٠٢م، إن أخذنا بالرواية التى تقول إنه انتهى من تأليف كتابه عام ١٩٣٣م. وهذا الإهمال الواضح

لتواريخ النشر يثير العجب بل يثير الرِّيَب، وبخاصة حين نعرف أن كثيرا من دور النشر التى طبعت هذه الكتب لم تكن قد برزت إلى الوجود إلا بعد موت الرصافى بوقت بعيد. ليس هذا فحسب بل إننا نجده فى صلب الكتاب ذاته يذكر كتبا كان ينظر فيها وهو يكتب كتابه رغم تأكيده قبل ذلك أنه، وهو فى الفلوجة، لم يكن بين يديه وهو يؤلف كتابه سوى أربعة مراجع ليس غير حسبما رأينا.

ومن هذه الكتب التى ذكر فى درج الكتاب أنه رجع إليها "تاريخ الطبرى" وكتب الأحاديث وشروحها وكتب السير (ص٢٧، ٢٩- ٣٠، ٣٦)، وليس "السيرة الحلبية" فقط كما قال وأكد، و"زاد المعاد" (ص٥٨)، و"الجامع فى الجرح والتعديل" (ص٥٩)، و"الناسخ والمنسوخ" لأبى جعفر النحاس (ص٦٢)، وتفسير الفخر الرازى والآلوسى (ص٦٤) وتفسير القمى والقرطبى، وتاريخ ابن الأثير (ص٦٥)، و"بحار الأنوار" (ص٦٦)، و"نثر الدر" للآبى، و"نوادر الأعراب"، و"أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزى (ص٧٦)، وكتب الجرح والتعديل، و"روضة المحبين" و"ذم الهوى" لابن الجوزى (ص٧٠- ٧١)، وديوان المتنبى (ص٩٣)، و"حياة محمد" لمحمد حسين هيكل (ص٤٠٦)، و"الإتقان فى علوم القرآن" للسيوطى (ص٥٥٣، ٥٦٩، ٥٧١- ٥٧٣)، و"تاريخ الخلفاء" للسيوطى (ص٦٠٨)... ومع هذا نلفيه عند كلامه عن حديث الإفك وتعرضه لموقف عليٍّ السلبى من عائشة يعتذر بأنه ليس عنده من المراجع ما يساعده على معرفة السبب الذى حمل عليا على ذلك، وبالتالى فهو يترك البحث فى الأمر لفرصة أخرى تتوافر له فيها المراجع المطلوبة أو يتركها للباحثين الأحرار ليتناولوها هم (ص٣٧٦).

ويمكن الرد على هذا بأن الرصافى ربما أراد أن يظهربمظهر العبقرى الذى يكتب مثل هذا الكتاب معتمدا فقط على ذهنه وذاكرته وما فى رأسه من المعارف والعلوم، وإن كتب فى أكثر من موضع بالكتاب أنه محتاج إلى كتب ليست تحت يده لكى يحرر المسألة الفلانية أو الموضوع العلانى. وربما كان قد قصد هذا لسبب أو لآخر. وربما أراد أن يربك القارئ لغرض فى نفس يعقوب. وربما كذب عامدا متعمدا لهذا الأمر أو ذاك. وأذكر فى هذا السياق أن د. طه حسين قد كتب فى مقدمة كتابه عن "المتنبى" أنه، حين عزم على أن يكتب عن الشاعر الكبير فى إجازته الصيفية بفرنسا، لم يصطحب معه فى سفرته إلى هناك سوى ديوان الشاعر، لنفاجأ داخل الكتاب أن مؤلفه قد رجع إلى عدد من الكتب غير الديوان، وبعضها فرنسى. ولم يحاول أن يوضح لقرائه هذا التضارب ما بين القول والفعل. وهذا ما قاله فى ذلك الموضوع: "لا أريد أن أدرس المتنبى، فأنا لم أترك القاهرة ولم أعبر البحر ولم آوِ إلى هذه القرية للبحث والدرس، وإنما اصطنعت هَذَا كله طلبًا للراحة، وإيثارًا للفراغ الذى أخلو فيه إلى نفسى، فقد طالما شُغِلْتُ عنها فى القاهرة بأحداث الحياة الخاصة والعامة، وقد طالما اشتقت إلى أن ألقاها وجهًا لوجه، وأدير بينها وبينى ألوان الحديث وأفرّ فيه من نفسى. فأنا كثير السأم لها والضيق بها كما قلت فِى غير موضع. لا أكاد أقبل عليها حَتَّى أنصرف عنها وأفزع منها إلى كتاب من هذه الكتب التى تدعونى وتُلِحُّ فِى الدعاء، فلا أكاد أستجيب لها إلا حين أدع مصر وأعتزل المصريين.

لا أريد إذن أن أدرس المتنبى، فإنى قد فررت بنفسى وأهلى من الدرس والبحث والتحصيل، ولقد صحبت المتنبى طوال العام الجامعى أدرس شعره مع الطلاب وأتحدث عنه إلى جمهور الناس حَتَّى سئمت درسه والتحدث عنه. وكما أكره لابنى أن

يُقْبِلا أثناء الصيف على ما كانا يقبلان عليه فِى عامهما الدراسى فأنا أكره لنفسى أن أَمْضِى فِى درس المتنبى بعد أن أنفقت فيه ما أنفقت من الليالى والأيام.

ومع ذلك فقد طلبت إلى صاحبى حين كان يجمع ما ينبغى أن نحمله من الكتب ألا ينسى ديوان المتنبى. ولم أطلب إِلَيْهِ أن يحمل ديوانًا آخر من دواوين الشعر القديم أو الحديث، وإنما طلبت ديوان المتنبى وحده. وأراد صاحبى أن يحمل ما فِى مكتبى من الشروح التى كتبها القدماء والمحدثون يفسرون بها هَذَا الديوان، وأراد أن يحمل ما فِى مكتبتى من البحوث التى تناول بها القدماء والمحدثون حياة أبى الطيب وشعره، فأبيْتُ عليه هَذَا كله، وتقدمت إِلَيْهِ فِى أن يكتفى بأيسر طبعة من طبعات المتنبى لأنى لا أريد درسًا ولا بحثًا وإنما أريد صحبة ومرافقة ليس غير...

لا أريد أن أدرس المتنبى إذن. فالذين يقرأون هذه الفصول لا ينبغى أن يقرأوها على أنها علم ولا على أنها نقد، ولا ينبغى أن ينتظروا منها ما ينتظرون من كتب العلم والنقد، وإنما هُوَ خواطر مرسَلة تثيرها فى نفسى قراءة المتنبى فى قرية من قرى الألب فى فرنسا، قراءة المتنبى فى غير نظام ولا مواظبة وعلى غير نسق منسجم. إنما هى قراءة متقطعة متفرقة أقصد إِلَيْهَا أحيانًا لأنى أريدها، وأقصد إِلَيْهَا أحيانًا أخرى لأن نفسى تنازعنى إلى كتَّاب الأدب الفرنسى، فأعاندها وأمانعها وأُكرِهها على أن تسمع للمتنبى أو تتحدث إليه".

بل إن الرصافى، حين فضح أمين الريحانى فى كتابه: "قلب العراق" موضوع كتاب "الشخصية المحمدية" بناء على ما قاله له الرصافى ذاته عنه، وبناء على اطلاعه بنفسه على ما كان قد أُنْجِز من الكتاب، سارع مكذبا الريحانى واتهمه باختراع الأقوال والأحداث وشكك فى قيمة كل ما يكتبه انطلاقا من ذلك. ثم عاد الرصافى بعد ذلك فى

مذكراته فاعترف بأنه اضْطُرَّ إلى الكذب والتكذيب خوفا من بطش الجماهير. وعلى كل حال فقد بعث الريحانى إليه برسالة يجدها القارئ فى كتاب "الرسائل المتبادلة بين الرصافى ومعاصريه" تهكم فيها على تكذيبه له، فخَرِسَ الرصافى ولم ينبس بشىء بعد أن أدى التكذيب ما يراد منه وسكتت الجماهير وانطوت صفحة الموضوع.

وأيًّا ما يكن الأمر فقد اعتمدنا على النصوص والوثائق والوقائع الصحيحة فى تمحيص هذه المسألة، وتبين لنا أن الكتاب هو للرصافى فعلا. وقد ورد فى مذكرات الرصافى التى حققها ونشرها د. يوسف عز الدين وفيها كتبه أصدقاء الرصافى وتلاميذه أنه فعلا كتب الكتاب فى الفلوجة، وعلل هو ذلك بأن المال القليل الذى كان يحصل عليه شهريا لم يكن من الممكن أن يقوم بحاجاته فى بغداد، فلذلك تركها إلى الفلوجة، التى لا تقتضيه مالا كثيرا. وهذا الكلام مكتوب قَبْل الاحتلال الأمريكى وطَبْع الكتاب بعشرات السنين. أما الأخطاء النحوية والصرفية فى الكتاب فقليلة جدا جدا، والأسلوب فيه هو أسلوب الرصافى فى كتاباته النثرية الأخرى بوجه عام فى انسيابيته وإحكام نسجه فى نفس الوقت.

وأما بالنسبة لما قيل عن توافقه مع بعض أفكار كتاب "صدام الحضارات" فمن السهل رده إلى أفكار المستشرقين والمبشرين الذين يتوارثونها عبر القرون وليس إلى "صدام الحضارات" بالذات، إذ إن الأفكار المنتشرة فى الكتاب هى أفكار استشراقية وتبشيرية بوجه عام، وقد نبهتُ مرارا على ذلك، بل قد ذكرت أحيانا اسم من قال به من مشهورى المستشرقين والمبشرين. وهناك حوليات المستشرق الإيطالى كايتانى، التى كتب الرصافى نفسه أنه قد اطلع عليها فى اللغة التركية، وهى لا تختلف كثيرا عن معظم الكتابات الاستشراقية من حيث إنها تعادى الإسلام ولا ترى فى محمد نبيا حقيقا ولا فى

القرآن كتابا سماويا، وإن أراد المدافعون عن الرصافى استعمال ردوده على بعض ما جاء فيها فى كتابه: "رسائل التعليقات" إلى القول بأنه يخالف كايتانى ولا يرافئه على ما قاله فى حق الرسول، متجاهلين أن تلك الردود لم تغط من الحوليات إلا جانبا ضئيلا، وهو جانب تاريخى لا علاقة له بالاعتقاد فى نبوة محمد وإلهية المصدر القرآنى وما إلى ذلك. كما أن الرصافى قد أعلن فى كلامه عن كايتانى إعجابه الشديد به وبعلمه. ثم، وهذه داهية الدواهى، قد اختتم رده على كايتانى بنقل نص من كتاب ذلك المستشرق يدعو فيها المسلمين إلى تطوير دينهم وعدم إبقائه على ما ورثوه عن نبيهم حتى يستطيع التماشى مع العصور المستجدة وأن يقوم أحد المسلمين بمثل ما صنعه بولس، أى أن يَقْلِب المصلح المنشود كل ما فى الإسلام والقرآن والحديث رأسا على عقب ويفسد كل شىء فى الإسلام عقيدة وشريعة ويُعْمِل فيه يد العبث والتشويه والتحريف حتى يرضى عنا كايتانى. وقد أورد الرصافى هذا الكلام إيراد المعجب به. ليس ذلك فحسب، بل إنه قد دعا أكثر من مرة إلى إدخال تغييرات فى الصلاة والصوم والحج تخرج بها عما جاءنا عن القرآن وعن النبى عليه السلام. وقد فصل فى بعض هذه المواضع عبادات غير المسلمين عليها.

ومع هذا فإن المكايدة والشماتة التى كان الرصافى حريصا على إظهارها نحو الإسلام والنبى والقرآن هى شىء غريب على أى كاتب مسلم فى ذلك الوقت مهما كان نافرا من الإسلام، فلم يكن أحد آنئذ يبدى مثل هذه المشاعر فى كتاباته المعادية لدين الله، اللّهم سوى اثنين فيما نعرف: أولهما منصور فهمى فى الرسالة التى حصل بها على الدكتورية من فرنسا قبل أن يبدأ الرصافى العمل فى كتابه المذكور بأكثر من عشرين عاما والتى يفترض أن يكون قد كتبها بقلمه لا كتبها سواه ثم نسبت إليه. أقول هذا لأن

المرحوم محمد لطفى جمعة قد أكد أنها قد كتبت له حتى يكون الهجوم على الرسول والإسلام صادرا من دارس مسلم لا من كاتب غربى، وذلك أقوى فى التأثير على العقلية الإسلامية وأكثر إيلاما للمسلمين وأشد تجريئا لهم على الخروج من دينهم والتكلم فى حق نبيهم بما لم يكن من الممكن لأى منهم التكلم به قبلا. والثانى هو طه حسين فى كتابه: "فى الشعر الجاهلى"، الذى تخطى فيه الحدود فى الكلام عن النبى والقرآن كما هو معروف. لكن الكتاب الذى يحمل اسم معروف الرصافى كتاب كبير لا رُسَيِّلَة كرُسَيِّلة منصور فهمى ولا كُتَيِّب ككُتَيِّب طه حسين، وقد تناول كل شىء يخص النبى والقرآن والإسلام والصحابة والعلماء القدامى والحوادث الكبيرة فى أوليات الإسلام، ونفى نفيا تاما وواضحا منذ السطور الأولى من الكتاب أن يكون محمد نبيا من عند الله بل مجرد رجل عظيم قام فى ذهنه من تلقاء نفسه أن ينهض بأمته وأن يصلح العالم كله. هذا ما بدأ به الرصافى كتابه، لكنه كان فى كل مرة يتناول فيها النبى من أحد جوانب شخصيته أو حياته سرعان ما يتجاهل ذلك الذى قاله عن عظمته وتفرده فينهال عليه انتقادا له وتشكيكا فى نياته وحرصا على عَزْو إنجازاته فى كثير من الحالات إلى سيئ الغايات.

ويعضد نسبةَ الكتاب للرصافى ما نقرؤه فى كتاب "الشخصية المحمدية" من أشعار للرصافى بين الحين والحين فى نفس الموضوع الذى يكون مؤلفه بصدده فى الكتاب مستعملا ضمير المتكلم: كأبياته فى ضلال التاريخ (ص١٥) و٣ أبيات له فى الكلام عن الأرض وكيف أننا لو كنا فى كوكب آخر لبدت لنا فوقنا كأنها سماء (ص٥٨٤) وبيتين له من قصيدة رائية (ص٥٨٨) وإشارة إلى رسالته فى آراء أبى العلاء المعرى فى العقيدة مع نقل عنها (ص٥٩٥- ٥٩٦) وبيتين (أوثلاثة أبيات) عن صعوبة

التعبير عما فى النفس (ص١٩، ٦٠٢، ٧٤٣) وبيت فى تشبيه الملوك بالأصنام من حيث إن الناس يصنعونهم بأيديهم ثم يعبدونهم (ص٦١٤) وبيتين عن الفقراء الكادحين المحرومين والأغنياء المتمتعين بكدح الفقراء دون عمل (ص٦٦٤).

كذلك تطالعنا فى ديوان الرصافى أشعار فى الفلك والعلوم الطبيعية كقصيدته النونية: "أَلِكْنِى يا ضياء" وقصيدته: "الأرض"، التى يتحدث فيها عن الأرض وأخواتها من الكواكب السيارة وما اعترى البسيطة من تطورات مذ صارت كوكبا، وهو ما يتسق مع ما فى كتابه المذكور من كلام فى هذه الموضوعات. وبالمثل ففى قصيدة له دالية نقرأ ما يلى:

ومـذ قـام ابـن عبـد الله فـيهم … أقـام لكـلّ مَكْرُمـة عمـودا
وأنهـضهم إلى الـشرف المُعَـلَّى … وكـانوا عنـه قبلئـذٍ قعـودا
فأصـبح واريًـا زَنْـدُ المعـالى … وقـبلًا كـان مَقْدَحُـه صَـلُودا
فهـم فتحـوا الـبلاد ودوّخوهـا … وقـادوا فى معاركهـا الجنـودا
وهـم كـانوا أشـد النـاس بأسًـا … وأمنـع جانبًـا وأعـمّ جُـودا
وأرجحهـم لـدى الجُلَّى حُلُومًـا … وأصلبهم لـدى الغَمَرات عودا
ولكـن، أيهـا العربـى، أنّـى … أراك لغـير مـا يُجْـدِى مُرِيـدا؟
ومـا يجـدى افتخـارُك بـالأَوَالِى … إذا لم تفتخـر فخـرًا جديـدا؟

لكنه لم يقل إنه نبى بل مدحه مدحا عاما كأنه مجرد بطل قومى. وفى قصيدته الرائية التى أنشدها "فى حفلة شوقى" يقول هذا البيت الذى ينكر فيه الجنة أو على الأقل: يرفض متعها ويسخر منها ويرى أن أساورها لا تصلح أن تكون إلا للمخانيث:

ومن أجل مَقْتِى للمخانيث أنكرتْ … يـدى أن تُحَـلَّى فى الجنـان أسـاورا

والعجيب أنه مع ذلك كان يطأ المخانيث! أما قصائده التى يبدو فيها متمسكا بالإسلام وغيورا عليه ومدافعا عن الرسول والقرآن دفاع المؤمنين بنبوة محمد وتلقيه الوحى من الله وما إلى ذلك فتنتمى إلى مرحلته الأولى حين كان متدينا ورعا. ومع ذلك فله قصيدة نونية يقول فيها:

لـو أسـكر الإنـسانَ باطـلُ أمـره   لم تلـق غـير معربِـد سـكرانِ
لـو قـاس كـلّ فتـى سـواه بنفسه   فـيما أراد لما تعـادى اثنـانِ
لو أنصف الخصمان ما اصطاد الرِّشا   أهـلُ القضاء بـما ادّعـى الخصمانِ
لـو أخلـص الإنـسان فى إحـسانه   لم يـرجُ أن يُجْـزَى عـلى الإحسانِ
لـو لم يـشكّ بربّـه متفلـسفٌ   فى الـدين لم يحـتجّ بالبرهـانِ
لـو أن عقـل المـرء يغلـبِ حبّـه   للـنفس لـن يلجـا إلى الأديـان
لـولا جمـود فى الـشرائع مهلـك   لتغـيّرت بتغـيّر الأزمـان
لو كان قصد الدين غير سعادة الد   دنيـا لكـان الكفـر كـالإيمان
لـو أخلـص الرجـل التقـى بدينـه   مـا كـان ذا طمـع بِحُـورِ جِنَـانِ
لا خير فى تقـوى امرئ لـو لم يَخَفْ   نـار الجحـيم للـجّ فى العـصيان
لـو كـان أمـر الحـجّ معقـولًا لما   كـان اسـتلام القـوم للأركـان
لـو حكّـم العقـلَ الحجيجُ بحجّهـم   أبَـوُا الطـواف بـتلكم الجـدران
لـو أخلـص الغُـزَّى بنُـصرة ديـنهم   مـا حـلّ سَـبْى حرائـر النـسوانِ
كـذبت قـريشٌ. لـو تقـادم عهـدها   فى المجـد مـا خـدعت أبـا غبـشان
لـو كـان للـشيطان معنًـى غـير مـا الْـ   إنـسان مـا آمنـتُ بالـشيطان
لـو يجعـل النـاس التعـاون دأبهـم   لتمتّعـوا بـسعادة العمـران

لــو أنّ أخــلاق الرجــال تهــذّبت لتكــشّفَتْ حُجُــب عــن النِّــسوانِ
ومحبّـــة الأوطـــان لولاهـــا لمـــا عَــرَف الأنــامُ عــداوةَ الأوطــان
لــو كــان خــير فى المجــرّة لم يكــن فى الأرض شرٌّ دائـــم الغَلَيـــانِ
لــو تَــمَّ فى فلــك الثريّــا ســعدُها لم تُمْـــنَ بـــالعَيّوق والـــدَّبَران
لــو لم يكــن فَزِعًــا ســهيلٌ لم يَبِــتْ فى أفقـــه متتـــابعَ الخفقـــانِ

وله أيضا هذه القصيدة:

أُحِــبّ صراحتــى قــولًا وفعــلًا وأكـــره أن أميـــل إلى الريـــاءِ
فــما خادعــتُ مــن أحــدٍ بــأمرٍ ولا أضــمرتُ حَــسْوًا فى ارتغــاءِ
ولــستُ مــن الــذين يــروْن خــيرًا بإبقـــاء الحقيقـــة فى الخفـــاء
ولا ممّـــن يـــرى الأديـــان قامــت بـــوحى مُنْـــزَلٍ للأنبيـــاءِ
ولكـــنْ هـــنّ وضـــعٌ وابتـــداعٌ مـــن العقـــلاء أربـــابِ الـــدهاء
ولــست مــن الأُلَى وَهَمُــوا وقــالوا بـــأن الـــروح تعـــرُج للـــسماءِ
لأن الأرض تـــسبح فى فـــضاء ومــا تلــك الــسماء ســوى الفــضاء
ولــست مــن الــذين يَــرَوْن فخــرًا لمفتخـــرٍ بـــإهراق الـــدماءِ
ولا ممّـــن قـــد ارتبطـــوا بـــماضٍ فعاشـــوا ينظـــرون إلى الـــوراء
ولا ممّـــن يـــرى للنـــاس حكـــمًا ســـوى الحكــام أربــاب القــضاءِ
ولا ممّـــن تـــودّد فى حـــضور وعنـــد الغيـــب جـــاهر بالعـــداء
ولا ممّـــن يـــرى الأنـــساب ممّـــا يمـــتّ بـــه الأنـــامَ إلى العـــلاءِ
ولا ممّـــن إذا وُبِئـــوا اســـتعاذوا بتمتمـــة الـــدعاء مـــن الوبـــاء
ولا مــن معــشر صَــلَّوْا وصــامُوا لمــا وُعِــدوه مــن حــسن الجــزاءِ

ولا ممّـــــن يـــــروْن اللهَ يجــــزى　　　عــلى الــصلوات بــالحور الوِضَــاء
ولا ممّـــن يـــرى الأشـــياء تَفْنَـــى　　　بحيـــث تكـــون مـــن عَـــدَمٍ هـــواءِ
ولكـــــنْ هُـــــنَّ فى جمـــعٍ وفـــرقٍ　　　تبــــدّلُ مــــنهما صــــور البقــــاء
ولــست مــن الــذين يــرون فــضلًا　　　كبـــيرًا للرجـــال عـــلى النـــساءِ
ولكــــن دالـــت الأيـــام حتـــى　　　تهــــــاوَنَ هــــــؤلاء بهــــــؤلاءِ

وهما غنيتان عن القول بأنهما تنبئان عن كفر بالأديان وبالإسلام وبالنبى وبالقرآن وبالعبادات وبالجنة والنار... وهذا ما سوف نجده فى "الشخصية المحمدية". فالكتاب ليس غريبا عن الرجل، والرجل ليس بغريب عن الكتاب. كل ما هنالك أنه قد مر من مرحلة التدين والورع إلى مرحلة الإلحاد والتمرد والكفر. لقد بدأ كتابه بالثناء الجميل على النبى، ولكن ليس بوصفه نبيا مرسلا من لدن رب العالمين، بل بوصفه مصلحا قوميا وإنسانيا داهيةً اتخذ سبيل الكذب من أجل المصلحة العامة التى كان يتغياها، وكان يخطط لكل شىء يعمله، ولم تكن له أية علاقة بالسماء، وضحك على الناس حين أفهمهم أن هناك حياة آخرة وحسابا وجنة ونارا، إذ الواقع أنه ليس ثمة شىء من هذا على الإطلاق فى نظره وأن كل ما قاله محمد مجرد أوهام كان يخترعها، وكانت تعتريه نوبات صَرْع، فكان كلما ألمت به نوبة نهض وهو يقرأ ما يزعم أنه قرآن نزل عليه مع جبريل. كما زعم أن القرآن قد سقطت منه نصوص، وأن فيه آيات ركيكة، وآيات خاطئة، وآيات سخيفة، وآيات ينبغى أن تحذف لأنها لا تليق. ويا ليته وقف عند هذا الحد، بل دعا إلى تغيير العبادات من صلاة وصيام وحج واقترح صورا أخرى لتأديتها وسخر من شعائرها.

وهو يقصد من كل هذا تحطيم القداسة التى للعبادات حتى تخلو قلوب المسلمين من احترامها وينظروا إليها على أنها أشكال اخترعها محمد للضحك عليهم، وآن الأوان للعودة إلى عقولهم وترك هذه البدع الخرافية والأوهام السخيفة التى لا طائل من ورائها. والعجيب أن هذا الذى يتهكم على الحور العين وملذات الجنة كان من رواد المومسات ومن واطئى الغلمان ومن مدمنى الخمر الرخيصة. وهذا يدلنا على مدى خبثه وانحطاطه، فهو غارق فى الفواحش الدنسة ويعلن تأففه من اللذائذ الراقية الخالية من وساخة ما هو مرتكس فيه من رجس.

وقد لاحظت أنه تكثر فى شعره كلمة "لَعَمْرُك/ لَعَمْرِى" حتى لقد تكررت فيه فوق الثلاثين مرة، وهى أيضا من الكلمات التى تتكرر على نحو لافت فى "شخصية محمد". ومثلها عبارة "رعاك الله". وهناك ما يحكيه صاحب كتاب "الشخصية المحمدية" بين الحين والحين من أحداث وقعت له بوصفه الرصافى، وكذلك ما يذكره من شخصيات تعامل معها الرصافى كما هو الحال عندما ذكر أنه الآن فى الفلوجة فى منزل بعيد عن المراجع التى يحتاجها (ص١٩- ٢٠)، وكحكايته لما وقع له فى القدس حين كان ينزلها فى عشرينات القرن الماضى ويشتغل مدرسا فى إحدى مدارسها مَرْجِعَه من تركيا (ص٥٥- ٥٦) وما حدث له مع زكى مبارك حين زاره الأخير بالفلوجة أيام كان معارا إلى مدرسة المعلمين العليا ببغداد سنة ١٩٣٧م من الاختلاف فى فهم خبر من الأخبار، إذ يرى الرصافى أن أحد الأحاديث المنسوبة للنبى وفيها بعض أخبار أهل الكتاب الماضين يدل على أن النبى كان يعرف القراءة والكتابة وقرأ كتبهم، بينما كان رأى زكى مبارك أنه لا يلزم ذلك بل من الممكن أن يكون النبى قد عرف ذلك بالسماع... إلخ (ص١٧٢). وقد أشار د. زكى مبارك إلى هذه الزيارة فى كتابه: "زكى

مبارك وهؤلاء" (إعداد وتقديم كريمة زكى مبارك/ دار الجيل/ بيروت/ ١٤١١هـ- ١٩٩١م/ ٢٤٥ وما بعدها، وهو منقول عن كتابه: "ليلى المريضة فى العراق") قائلا إن الرصافى قد أطلعه على كتابه عن النبى محمد وإنه ما إن بدأ تصفحه حتى ثار ثورة عنيفة وجادله بلا تلطف، وإن ظل الرصافى هادئا، وإنهما قد تقابلا بعد أيام فى بغداد وعرض عليه الرصافى أن يأخذ الكتاب كى يقرأه ويعلق عليه بما يشاء من ملاحظات، بيد أنه اعتذر بضيق الوقت. ومع هذا فقد عرض للكتاب واصفا إياه بأنه كتاب هائل ومهم جدا، وأشار إلى ما فيه من نقد لكثير من الأخبار والأحاديث وإلى أن الصدور لا تتسع لما يحتويه.

ومثل ذلك حديثه عن ذكرياته فى القسطنطينية حين كان هناك أيام الحرب العالمية الأولى، إذ أشار إلى طائرات العدو وغواصاته، التى لم تكن تتعرض للأتراك المدنيين بل تركز هجومها وقذائفها على العسكر وثكناتهم وأسلحتهم ليس إلا (ص٣١١- ٣١٢). وهو فى هذا من الكاذبين إذ يريد أن يجعل من الغربيين فى الحرب العالمية ملائكة يلتزمون بالقوانين الدولية، وهم الذين دمروا بلاد أعدائهم تدميرا ونسفوا البيوت والمؤسسات المدنية وقتلوا عشرات الملايين من أفراد الشعوب العاديين ممن لا علاقة لهم بالجيوش ولا بالسلاح بما فى ذلك الشعوب الأوربية ذاتها. ثم جاء الغربيون فى تسعينات القرن الماضى وفى أوائل هذا القرن فأبادوا مئات الآلاف من العراقيين فى بيوتهم ومخابئهم واستعملوا الأسلحة النووية وأعادوا العراق بلد الرصافى مئات السنين إلى الوراء وسرقوا كنوزه التاريخية والحضارية. ومن ذلك تأكيده أن الزواج لا يمنع المتزوج من الزنا ولا حتى من اللواط (ص٣٩٦). ومعلوم أنه كان من المترددين على البغايا ومن اللائطين حسبما كتب عنه من يعرفونه. ومن ذلك حكايته لما قاله له صديقه

حسن فهمى المدفعى الإدارى العراقى الذى كان ضابطا بالجيش العثمانى وقص عليه ما رآه من اليهود السامرة فى فلسطين حين كان هناك أيام الحرب العالمية الأولى وكيف تشبه صلاتهم صلاة المسلمين (ص٤٥١– ٤٥٢). ومنه كذلك ما حكاه له أحد الأطباء الذين يعملون فى السعودية من أنه لم يعد أحد يأخذ من لحوم الأضاحى ليجففها ويأكل منها لأن الحكومة منعت ذلك خوفا من انتشار الأوبئة (ص٤٨٦– ٤٨٧). ومنه كلامه عن التليفونات بوصفها من معجزات العلم حيث يتكلم المتكلم من لندن لبغداد فيصل صوته فى الحال، ثم كلامه عن التليفزيون وأمله فى أن يبلغ رشده قريبا (ص٦٣٢)، والعبارة الأخيرة تدل على أن التلفاز لم يكن قد اخترع بعد بل كان فى طور الاختراع لا يزال. ومنه ثناؤه على عبد المحسن السعدون السياسى العراقى المعاصر له، وهو ما يتسق مع شعره الموجود فى ديوانه فى مديحه واستجدائه وتهنئته بوسام حصل عليه (ص٣٢٣– ٣٢٥)، وهجاؤه لياسين الهاشمى ونعته بالأنانية، وهو سياسى عراقى آخر ينتمى إلى نفس الفترة هاجمه بشدة فى كتابه: "الرسالة العراقية". ومنه ما دار بينه وبين نخلة رزيق صديقه النصرانى المقدسى عام ١٩٢١م فى القدس حول المسيح والتثليث والصلب والفَرْق بين عقيدة المسلمين وعقيدة النصارى فيه (ص٦٨٧– ٦٨٨). ومن ذلك أيضا انتقاده الحاد للمسلمين لأنهم يقتحمون بيوت الآخرين دون استئذان مخالفين ما يأمرهم به دينهم من وجوب الاستئناس أولا (ص٧١٩).

وقد التقى أمين الريحانى، وهو بالعراق، بمعروف الرصافى أكثر من مرة، فكتب عنه عدة صفحات فى كتابه: "قلب العراق" ننقل منها الفقرات التالية التى تهمنا فى سياقنا هذا. قال الريحانى عن الرصافى: "إن شهرته لا تقوم بحب الفضيلة، وليس حب الوطن من أساطين بيتها. إنما الاثنان من الحجارة والتراب فى أساس البيت،

وللأساس قيمته فى البناء. إذا لم يكن معروف بدوى المولد فهو بدوى الإرث. إنى أذكر اجتماعنا الأول سنة ١٩١٠ يوم كان يلبس العباءة والعقال، ويلقى الشعر بلهجة بدوية ساحرة. ثم سافر إلى الآستانة، ولبس هناك الجبة والعمامة، وانضم إلى الأتراك فى نهضتهم المدمرة، فحمل اللواء والمصحف ليلةً ونهارًا ثم وثب وثبة واحدة من المسجد إلى الحانة. خلع معروف العمامة والجبة وكل ما ترمزان إليه، وجعل المقاهى محط رحاله، فنظم من الشعر ما يفصح عن الحقيقة الجديدة فى حياته. هى حقيقة التحضر وظلالها. وبعد ذلك يمَّم فلسطين، وفقد فى بيت المقدس ما بقى فى صدره من إيمان، ثم ولَّى وجهه شطر سوريا، وهو المفلس فى عقائده الاجتماعية والسياسية والدينية، فوجد فى البلاد من التهذيب والخنوع ما لم يَرُقْه كثيرًا، فعاد إلى العراق" (قلب العراق- رحلات وتاريخ/ مؤسسة هنداوى/ ٢٠١٤م/ ١٧٥).

وبعد أن تحدث الريحانى حديثا سريعا عابرا عن شعره انتقل إلى كتابته النثرية فقال: "وله نثر هو كشعره فى السلاسة والصفاوة والذوق السليم، فقد كتب كتابًا فريدًا فى بابه باللغة العربية هو سيرة النبى أطلعنى عليه مخطوطًا بيده فى سبعة دفاتر مدرسية. ما أدهشنى ما فى هذا الكتاب من العلم والتحقيق لأن مصادر الموضوع متوافرة لمن يشاء معالجته ويُحْسِن البحث والموازنة، إنما أدهشتنى القوة النافذة، والمقدرة على التحليل والاستخراج، والتفلسف فى عقائد لا تستقيم بغير الإيمان والجرأة والصراحة. وإنه فى بابين من ديوانه، أى "الفلسفيات" و"الكونيات"، ليثبت ما هو ظاهر وكامن من محاسن أدبه فى الكتاب المذكور الذى ينتظر النشور. فالرصافى فى شعره الفلسفى هو كالزهاوى، والاثنان يستمدان من ينبوع واحد: ينبوع المعرى، إلا أن زمانهما غير زمان أبى العلاء، فلا عجب إذا فاقاه أحيانًا فى التصور والتفكير. وإن

الرصافى، وإن هزهزه الشك واستحوذ عليه التشاؤم فى بعض الأحايين، ليرفع دائمًا أعلام الحرية والعقل والإخاء الإنسانى فوق رواسى المذاهب البشرية كلها. فهو فى دينه الفيلسوف العقلى الإنسانى. أما فى حبه فهو الشاعر العاطفى المشغوف بالجمال على أنواعه: الجمال الطبيعى، والجمال الفنى، وجمال المرأة الفائق كل جمال. إنه ليشاهد التجسد الإلهى فى المرأة وفى الطبيعة، وإنه ليقف أمام هذا التجسد متورعًا متَّضِعًا متعبدًا. المرأة بهجة الوجود، وريحانة الحياة. وما الحجاب وما السفور ساعة تدنو منك؟ فإن جسمها لينطق حبا، ويشع حبا، ويتضوع حبا، سافرة كانت أو محجبة. نسمع الكتَّاب فى هذا الزمان ينادون بالسفور. وهل يسفر الرجل يا أمين؟ أليس كل منا محجبًا لابسًا القناع؟ كل واحد من الناس هو سر من الأسرار للناس. لينزع الرجل القناع، وليطالب بعد ذلك بسفور المرأة...

وما قصَّر الرصافى بالمطالبة ولا قصَّر فى ميدان الدفاع عن حقوق المرأة. يكفيه من ذلك قصيدته المشهورة: "التربية والأمهات"، التى أسلفتُ الإشارة إليها. وإنك لتجد، فى باب "النسائيات" من ديوانه، القوافى الرائعة َفى مناصرة المرأة وتحريرها، والهجوم المروع على أولئك الذين يرومون إبقاءها فى قيود الجهل وفى ظلمات الحجاب والعبودية... قلت إن المرأة، كما يراها الشاعر، هى المثل الأعلى فى الجمال البشرى والطبيعى. وإن للرصافى قصائد عدة فى وصف محاسنها، ولكنى ما قرأت فى شعره أجمل من قصة يقصها.

فقد روى لى تلك الليلة خبر حظوته للمرة الأولى بمشاهدة سيدة أوروبية فقال: كنت لا أزال بدويًّا ما شاهد من النساء غير العجائز وبائعات اللبن والبائسات والشاحبات والمشوهات، وقد ثقَّب الجدرى أو عصفر المرض وجوههن. وفى ذات

يوم رحتُ وصديقًا لى إلى المَقْهَى، إلى كهف قاتم يليق بأمثالنا، وقبل أن انتحينا مكانًا هناك وقفتْ فى الباب سيدة إنكليزية، سيدة جميلة بيضاء هيفاء تلبس قبعة زانها الريش، وتحمل مظلة. دخلت هذه السيدة المقهى، ومشت الهُوَيْنَى بين الدواوين الخشبية المكسرة تجيل نظرها بالمكان ومرتاديه. كنت واقفًا إلى جانب الطاولة التى جلس إليها رفيقى، فأحسست ببهجة تجلببنى وتملأ قلبى، وأحسست كأنى سُمِّرْت فى مكانى. ما كان فى حياتى من نعمة ربى، يا أمين، مثل هذه النعمة. للمرة الأولى فى حياتى أشاهد امرأة حسناء بيضاء هيفاء، فقَدْ عَقَلَ الابتهاجُ لسانى والله، فأصبحت كالطفل ينظر إلى دمية تمشى. وعندما دنت هذه الدمية من مكاننا زَرَرْتُ جُبَّتى، ورفعت يدى إلى صدرى، وطأطأت الرأس مبتسمًا، فابتسمتْ هى كذلك يا أمين. فانحنيت مرة ثانية، فأحنت هى رأسها، وكانت فى تحيتها الصامتة مثال اللطف والكرم. ما توقعت ذلك منها، لا والله! بل كنت أظن أنها ستوبخنى لتعرضى لها بنظرة وابتسامة.

ولكن الشاعر الأكبر يا أمين ينظم قصائده لا كما ننظم نحن الشعراء الصغار، بل كما ينظم من له مائة عين نقادة، فتجيء القصيدة كاملة فى كل محاسنها. وتلك الحسناء البيضاء من غُرَر قصائده، وكأنه سبحانه وتعالى كان يتلوها على للمرة الأولى فى ذاك اليوم، فقد سمعتُ والله جمالها يغنى، ورأيت والله جمالها يزهو ويرقص أمامى. ولكنى سألت نفسى عندما خرجتْ من المَقْهَى: هل اليد التى صنعتْها صنعتْنى أنا كذلك؟ هو أمر يحيرنى. وساعةَ أكون فى حال اليقين منه، أو فى "الحال" كما يقول المتصوفون، أشعر بالنسب الإلهى، وأحاول أن أقلد الشاعر الأعظم. وما الشعر يا

أمين؟ أنا نفسى آية شعرية، وقل: آية إلهية، ساعةَ أَنْظِمُ الشعر وأُجِيد" (ص١٧٦-١٧٧).

ولم يعجب الرصافى كلام الريحانى هذا، ففى كتاب "الرسائل المتبادلة بين الرصافى ومعاصريه" لعبد الحميد الرشودى (المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ ١٩٩٤م/ ٧٩) نص رسالة منه إلى صاحب جريدة "الاستقلال" العراقية عبد الغفور البدرى ينفى صحة كثير مما كتبه الأديب اللبنانى: "حضرة الأستاذ الفاضل صاحب جريدة "الاستقلال" الغراء، أرجو نشر الكلمة التالية فى جريدتكم، ولكم الفضل والشكر: أطلعنى بعض معارفى على ما رواه الريحانى عنى فى كتابه: "قلب العراق"، فعجبت منه واستغربته كل الاستغراب. لقد اجتمعت بالريحانى عدة مرات فى أزمنة مختلفة، ومجالس مؤتلفة وغير مؤتلفة، تجاذبنا فيها أطراف الأحاديث من كل نوع، ولا أتذكرها اليوم لمرور الزمان ولاختلال ذاكرتى بالنسيان. فأنا من هذه الناحية لا أستطيع أن أناقشه فى صحة تلك الأقوال التى أسندها إلىَّ ورواها عنى. ولكننى الآن أستطيع أن أنفى نفيًا باتًّا صحة كثير مما رواه فى كتابه المذكور بدليل أن فى تلك الأقوال ما لو قاله اليوم أحدٌ غيرى لأنكرتُه عليه أشد الإنكار. إذن فكيف أقول للريحانى ما أُنْكِره لو قاله غيرى؟ وفى الأخير أقول: إن كان كل ما يرويه الريحانى فى كتبه من هذا القبيل فويل للحقيقة منه، وويل له من الحقيقة!- معروف الرصافى".

وفى الصفحة رقم ١٥٥ من المصدر السابق يطالعنا نص رسالة من الريحانى نفسه إلى الرصافى ردا على رسالة الرصافى السابقة، وهى تجرى على النحو التالى: "عزيزى معروف الرصافى دام إقباله، أطلعنى أحد الأصدقاء على جريدة بغدادية فيها "تكذيب" منك لما جاء فى كتابى: "قلب العراق"، وليس فى تلك الصفحات غير ما هو مشرِّف

لك. ثم علمت أن بك حنينا إلى البرلمان وأنك نزلت إلى "ميدان" الانتخابات، ففهمت معنى ذلك التكذيب وقلت: عساه ينفع صاحبنا. وبعد ذلك يا "معوّد" قرأت خبر فوزك، فسرنى أن أكون قد خدمتُك فنفعتُك فى الحالين- المخلص أمين الريحانى/ الفريكة- لبنان/ ١٠ آب ١٩٣٥".

ولا يوجد فى الكتاب الذى فى يدى جواب من الرصافى على الريحانى، وأغلب الظن أن رسالة الريحانى قد أسكتته بل أخرسته. ويهمنى أن أركز على إشارة الريحانى إلى انخلاع الرصافى عن الدين تماما وإلى كتابه عن النبى محمد عليه السلام، وإن جاء الكلام عن الكتاب موجزا. لكن المهم هو أنه رأى الكتاب وقلب صفحاته وطالع بعض ما فيه على الأقل وتحدث معه الرصافى بشأنه وتناقشا حوله. وبطبيعة الحال فإن إنكار الرصافى لما قيل وحدث هو إنكار باطل، فقد كتب عدد من الأدباء والكتاب هذا الذى قاله الريحانى، وبتفصيل أكبر، وبوضوح ساطع، ثم صدَّقت الأيام كلامهم، فنشرت دار الجمل الكتاب عام ٢٠٠٢م، حاسمة الأمر رغم ما يمكن أن يؤخذ عليها من الناحية الفنية فى هذا المجال.

وفى كتاب "رسائل التعليقات" للرصافى (مطبعة المعارف/ بغداد/ ١٩٤٤م) نجد إشارة إلى كتاب "الشخصية المحمدية" فى سياقِ وَعْدِه للقارئ أن يواصل البحث، فى ذلك الكتاب، فيما يخص اسم الرسول الحقيقى، وهل هو محمد أم هل هو قثم؟ (ص١٢٨). كذلك نراه فى موضع آخر من "التعليقات" يتطرق إلى الكلام عن الحالة التى كانت تعترى محمدا لدن نزول "الوحى" عليه، كما تناول التطورات التى اعترت تصوره للكائن الذى يحمل إليه الوحى حتى استقر أخيرا على أنه هو جبريل، وهو نفسه ما قاله فى كتاب "الشخصية المحمدية" (ص١٤٤- ١٤٥). وعند انتقاله إلى الحديث عما

يعتقده المسلمون من أن القرآن أنزل أولا إلى السماء الدنيا جملة ثم أنزل منها على محمد متفرقا على مدار ثلاث وعشرين سنة يقول إنه فى كتاب "الشخصية المحمدية" قد بين أن هذا كلام غير مقبول (ص١٤٩). وبالمثل أشار (ص١٥٠) إلى أنه قد تناول فى "الشخصية المحمدية" موضوع لقاء العَقَبَة بين محمد والأنصار فى موسم الحج. وعلى نفس الشاكلة نجده يحيل على "الشخصية المحمدية" فى موضوع مقتل الحارث بن سويد (ص١٦١). وهو ما صنعه مع مسألة تطور عبادة الصلاة شكلا ووقتا، إذ نبه إلى أنه سبق أن تناول هذه المسألة فى "الشخصية المحمدية" (ص١٦٢)، وهو ما صنعه كذلك فى موضوع قيام العباس بن عبد المطلب بالاستخبارات فى مكة لحساب ابن أخيه (ص١٧٩). وتكرر قوله: "انظر ما كتبناه عن ذلك فى كتابنا "الشخصية المحمدية" مع أن هذا الكتاب لم يكن قد صدر بعد. أى أنه كان هناك كتاب اسمه "الشخصية المحمدية" عام ١٩٤١م، عام كتابة "رسائل التعليقات" كما هو مثبت فى نهايته، وإن تأخر صدور هذا الكتاب (عن مطبعة المعارف ببغداد) إلى عام ١٩٤٤م، وليس مجرد خواطر لم تتم كتابا. وكل هذا يدل على أنه هو صاحب ذلك الكتاب وأنه كان مشغولا به، فكلما واتته فرصة أشار إليه وتحدث عنه.

وقد نشر سعيد البدرى أحد الصحفيين العراقيين وأحد حواريى الرصافى كتاب "آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع" (المجموعة الأولى)، وهو يضم مجموعة من فصول الرصافى فى كتابيه: "السياسة العراقية" و"الشخصية المحمدية" (مطبعة المعارف بغداد/ بدون تاريخ ولكن بعد موت الرصافى بقليل)، وهى الفصول التى ذكر فيها أن الرصافى أذن له بنسخ مخطوطاته ونشر ما يريد منها وأنه نشر من كل من كتابيه: "السياسة العراقية" و"الشخصية المحمدية" بعض الفصول والنصوص. وما

يهمنا منها هى النصوص والفصول التى استخرجها من "الشخصية المحمدية". وواضح أنه كان حذرا فلم ينشر ما كان مصادما للعقيدة الإسلامية، إذ من الواضح أنه حذف منها ما يمكن أن يهيج المشاعر والخواطر بحيث تفهم على أساس أن الرصافى قد أراد بها خدمة الإسلام. هذا ما لاحظته. وقد ذكر هو أيضا فى المقدمة بأنه، قبل أن يقدم على نشر هذه الفصول، قد استشار شخصية قانونية فأشارت بحذف بعض الأشياء لعدم مناسبتها للنشر فى الوقت الحاضر.

وهذه النصوص تبدأ من الصفحة التاسعة والأربعين وتنتهى بنهاية الكتاب، وأولها الفصل الخاص بإهداء الهَدْى وما فيه من كلام عن بعض شعائر الحج وما ينبغى أن يكون هناك من مؤتمرات إسلامية تعقب الحج ويتدارس فيها المسلمون مشاكلهم ومنافعهم، وهو موجود كله فى "الشخصية المحمدية". ومثل ذلك يقال عن فصل "اقتران الدعوة بالسيف"، وفصل "لا إله إلا الله"، وفصل "غاية محمد"، وكذلك الفصل المعنون بـ"حبه لقريش"، وفصل "من هم قريش؟". ومن هذا يتضح لنا أن كتاب "الشخصية المحمدية" هو من تأليف الرصافى وأن مخطوطه كان موجودا طوال الوقت فى أيدى عدد من الكتاب والمؤلفين وأن بعضهم نشر نصوصا منه أو لخص بعض ما فيه أو تكلم عنه كلاما عاما كله ثناء وتمجيد ممزوج بالحديث عن حرية الفكر وأهمية الخروج عن العادات والتقاليد الجامدة التى تعوق مسيرة المسلمين، وهم فى الحقيقة إنما يخبطون فى عقائد ديننا ويومئون فى كلامهم الملفلف فى الستور إلى ما كتبه الرصافى فى إنكار النبوة والحياة الآخرة والوحى واعتباره القرآن عملا بشريا من صنع محمد استعان فيه بالكتب السماوية السابقة وأهل الكتاب وغيرهم.

وفى كتاب مصطفى على: "الرصافى: ١- صلتى به، وصيته، مؤلفاته" (مكتبة المثنى/ بغداد / ١٩٤٨م/ ٤٨- ٥٥) نصوص من كتاب "الشخصية المحمدية" ومقارنة بينها وبين نصوص مشابهة موجودة فى بعض الكتب الأخرى للرصافى. بل لقد نقل المؤلف عددا كبيرا من فقرات الفصل الموجود فى كتاب "الشخصية المحمدية" عن محمد ليقنعنا أن الرصافى يجل محمدا إجلالا عظيما، وإن كان لا ينظر إليه بنفس نظرة المسلمين التى جمدوا فيها على عاداتهم وتقاليدهم (ص٢٥١ وما بعدها)، وكأن الإيمان بنبوة محمد وصدقه واتصاله بالسماء إنما هى عادات وتقاليد قد جمد المسلمون عليها ولم يتخلص من هذا الجمود إلا الرصافى وتابعه مصطفى على، وأن إجلالنا لمحمد معناه أن نكذّبه ونتهمه بأنه تنبأ وزعم كذبا اتصاله بالسماء وتلقيه الوحى عن ربه وأوهم العرب أنه نبى حق، ونتابع الرصافى وتابعه الذى يكذب ويسير على نهج أستاذه يريد أن يسقينا السم على أنه العسل. ألا خيبة الله على الكذابين الأشرين. كذلك أخبرنا مصطفى على أنه كان يحصل من الرصافى على كل فصل من الكتاب فور انتهائه منه فينسخه، وأن الرصافى سمح لكل من يريد نسخة من الكتاب لنفسه أن يقوم بذلك (ص٢٥٣). وهذا يدل على أن "الشخصية المحمدية" للرجل لا لأحد آخر لسببين: الأول أن أحد حوارييه، وهو مصطفى على، يشهد أن الكتاب له. والثانى أن أحد أهم أفكار الكتاب، وهو وحدة الوجود، موجود فى "الرسالة العراقية" له أيضا، وموجود فى كتابه الآخر: "خواطر ونوادر"، وموجود كذلك فى بعض أشعاره. بيد أن مصطفى على قد ذكر أنه ألح على الرصافى أن يتم الكتاب، لكنه لم يكن ينصاع لذلك مُؤْثِرًا أن ينصرف إلى تأليف كتب أخرى ليست لها تلك الأهمية (نفس الصفحة السابقة). ثم عاد فى الهامش فقال إن الريحانى لم يطلع على الكتاب كله لأنه لم يكن قد تم، وإنه بعد انتهائه قد بلغ فوق

الأربعين دفترا، وهو ما يفهم منه أن الرصافى قد أكمله. ليس ذلك فقط، بل أطلق مصطفى على لقلمه العنان يسجل ملاحظاته على الكتاب تقريظا ومديحا مستطابا ونقدا قليلا لبعض ما أخذه عليه، علاوة على اقتباسه كثيرا جدا من صفحاته بنصها (ص٢٥٤- ٢٩٩). وهذا كله يبرهن أن الكتاب لمعروف الرصافى.

ولمصطفى على أيضا كتاب بعنوان "محاضرات عن الرصافى: حياته وشعره" (معهد الدراسات العربية العالية/ القاهرة/ ١٩٥٤م) عرض فيه مرارا لكتاب "الشخصية المحمدية" إشارة إلى أشياء موجودة به ونقلا لبعض نصوصه، ولكن بحذر وسير على أطراف الأصابع (ص٩، ٢٥- ٢٦- ٢٩). لا بل إنه حين تحدث عن عقيدة الرصافى فى فصل آخر زعم أن الرصافى كان يتمسك بالشريعة التى أنزلها الله على نبيه، وكأن الرصافى كان يؤمن بنبوة النبى أصلا ولم يرمه بالكذب وتأليف القرآن، وكأنه لم يزعم إصابته بالصَّرْع ثم حين ينهض من نوبته يقرأ ما اخترع من نص قرآنى للمناسبة التى استلزمته موهما من حوله أنه تلقاه من السماء. كذلك ادعى المحاضر العراقى أن الرصافى لم يخالف المسلمين إلا فى القشور دون اللباب (ص١٠٩- ١١٣)، وكأن إنكاره لنبوة النبى وإلهية المصدر القرآنى ولليوم الآخر هو مجرد مخالفة للمسلمين فى القشور التى لا قيمة لها والتى لا تقدم ولا تؤخر. والذى يهمنا فى هذا كله هو أن كتاب "الشخصية المحمدية" للرصافى لا لسواه.

وفى مقدمة كتاب الرصافى: "نظرة إجمالية فى شعر المتنبى" (مطبعة المعارف/ بغداد/ ١٩٥٩م/ ٥) يشير إبراهيم العلوى، وهو من المحبين للرصافى المتحمسين له ولما يكتب، إلى وجود مخطوط "الشخصية المحمدية" فى ذلك الحين واصفا إياه بأنه مكتوب فى ٤٤ دفترا مدرسيا كل دفتر ٦٠ ورقة. ويقول رشيد الخيون فى مقال له بعنوان

"على دَّشتى ترجم بتصرف كتاب الرصافى: "الشخصية المحمدية" ولم يؤلفه" (صحيفة "الشرق الأوسط"/ العدد ٩٧٠٤/ الخميس ١٥ جمادى الأولى ١٤٢٦ هـ- ٢٣ يونيو ٢٠٠٥م) إن صورة من مخطوط "الشخصية المحمدية" موجودة فى مكتبة المجمع العلمى العراقى، وإنه اطلع على النسخة الأصلية المطابقة لنسخة منشورات الجمل فى نوفمبر من العام الماضى، وهى محفوظة فى مكتبة هارفارد بكمبرج بالولايات المتحدة الأميركية، ومطبوعة عام ١٩٩١م على ورق عادى، وبلغت عدد صفحات ملازمها السبع ١١٥٤ صفحة.

وفى كتابه: "معروف الرصافى- دراسة أدبية نفسية واجتماعية" (منشورات التحاد الكتاب العرب/ دمشق/ ١٩٧٨م) يبرز د. إبراهيم الكيلانى أثر الآلوسى فى شخصية كاتبنا، فقد تدين الشاب الفقير تدينا شديدا فى الفترة التى كان يتلمذ للعالم الكبير على مدى اثنى عشر عاما فى شبابه وكان ينظم شعره فى الإصلاح الاجتماعى والحملة على الآفات الخلقية، ويدعو إلى الجامعة الإسلامية، فضلا عن مديحه لشيخه (ص٣٠-٣٥)، لكنه ما إن سافر إلى القسطنطينية سنة ١٩٠٨م وشاهد مظاهر الحرية والانطلاق والمستوى الحضارى العالى هناك حتى تبدلت أحواله، إذ تحرر من القيود الخلقية الدينية التى كانت تكبله ويستنيم لها، وانتقل من المسجد إلى الحانة كما يقول أمين الريحانى، وشدته النساء التركيات اللاتى لا يقللن عن الباريسيات جمالا وفتنة حسب كلام د. الكيلانى، وصار يشرب ويتعرف إلى النساء وأخذ يتردد إلى المسارح ويرتاد أماكن اللهو طوال الإحدى عشرة سنة التى عاشها فى تركيا. وفى النهاية عاد واستقر فى العراق، وهنا يشير د. إبراهيم الكيلانى إلى ما قيل عن أسلوب الرصافى فى العيش من شرب العرق ولعب الميسر والتردد على البغايا، ووقف عند بعض شعره مما يصدّق ما

قيل عن ارتكاسه الخلقى. ويتريث الكيلانى عند الأعوام بين ١٩٣٣م إلى ١٩٤٥م، ويرى أنها دور انحدار فى حياة الرجل، فقد ألحت عليه الأمراض كما ألح عليه الفقر حتى مد يده إلى معارفه وأصدقائه القادرين، بل لقد اضطر إلى بيع السجائر كى يعيش. وكان كثير الشكوى فى شعره ونثره على السواء، ثم كان أن توفى بذات الرئة فى حجرة مظلمة باردة (ص٣٥- ٥٤). وهذه هى الفترة التى ألف فيها كتاب "الشخصية المحمدية". ووقف د. الكيلانى أمام إنكار الرصافى للنبوة والآخرة والعبادات، وإيمانه بوحدة الوجود (ص٨٠- ٩٧).

ثم انتقل الكيلانى إلى الحديث عن كتاب "الشخصية المحمدية"، وكان لا يزال مخطوطا، وتساءل: هل كان فى حياة محمد عليه الصلاة والسلام ألغاز؟ وما هو القصد من تأليف مثل هذا الكتاب، وهو الذى لم نعهده يهتم بالبحوث التاريخية والعقائدية وما إلى ذلك؟ وأكد أنه قد تأثر بالفكر الجديد فى مصر وبخاصة طه حسين وعلى عبد الرازق فى كتابيهما على الترتيب: "فى الشعر الجاهلى" و"الإسلام وأصول الحكم"، اللذين أثارا الدنيا عند صدورهما فى منتصف العقد الثالث من القرن البائد، وما جاء فى الأول من إنكار مجىء إبراهيم وإسماعيل إلى بلاد العرب وبنائهما الكعبة، وزعم استعانة الإسلام بهذه الأسطورة كما يسميها تقربا إلى اليهود، وما جاء فى الثانى من الهجوم العنيف على الخلافة والمناداة بإلغائها. وقد أشار د. الكيلانى إلى ما دافع به الرصافى عن الكاتبين باسم حرية الفكر. ورأى الكيلانى أن الرصافى قد تجاوزالحدود حين هاجم القرآن والرسول وجعله بشرا عاديا لا علاقة له بالسماء ولا بالوحى زاعما أنه هو مؤلف القرآن لكنه ادعى النبوة حتى يصدقه الناس وينصتوا إلى ما يقول ويعملوا به، كما هاجم علماء الحديث وكتبه (ص٩٧- ١٠٣). ونخرج من هذا بأن الكيلانى قد اطلع على

مخطوط كتاب "الشخصية المحمدية"، فقد لخص أهم ما فيه من آراء من أوله إلى آخره تلخيصا حسنا. ولا ننس أن المجمع العلمى بدمشق يمتلك نسخة من مخطوط كتاب الرصافى.

وفى مقال بعنوان "أوراق مطوية بين الجادرجى والرصافى" بقلم كامل الجادرجى بمجلة "آفاق عربية" (عدد كانون الأول ١٩٨٨/ ٥٣) أن الرصافى ظل يسجل خواطره الخاصة بكتاب "الشخصية المحمدية"، ولكن لم يتمه. وهذا الكلام قاله الجادرجى بعد موت الرصافى بفترة غير قصيرة. وهو أمر غريب لأننا قرأنا أن الجادرجى قد حصل على نسخة موثقة بتوقيع الرصافى من الكتاب كاملا. أما نجدة صفوة فيقول فى مقدمة كتابه: "سلسلة الأعمال المجهولة- معروف الرصافى" (رياض الريس للكتب والنشر/ لندن/ ١٩٨٨م): "ولعل أهم مؤلفات الرصافى المخطوطة وأخطرها كتابه: "الشخصية المحمدية". وهو بحث تحليلى لشخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كان حصيلة دراسة طويلة وعميقة لكتب السيرة النبوية، وفيه كثير من النظرات الجديدة والآراء الجريئة. وقد راودتِ الرصافى فكرةُ تأليفه عام ١٩٢٩، وشُغِل عنها زمنًا، ثم كتبه خلال إقامته فى الفلوجة بين سنتى ١٩٣٣ و١٩٤١، وتوجد نسخة مصورة منه عن النسخة التى كتبها الرصافى بخطه محفوظة فى مكتبة المجمع العلمى العراقى ببغداد". كما ذكر مخطوطَ الكتاب ميخائيل عواد فى فهرس "مخطوطات المجمع العلمى العراقى". وكتب الدكتور وليد محمود خالص مقالًا تحت عنوان "كتاب الشخصية المحمدية للشاعر العراقى معروف الرصافي- وقفة منهجية فى قضية تحقيق النصوص ونشرها" بيومية "إيلاف" الألكترونية اللندنية بتاريخ الجمعة ١١ يوليه ٢٠٠٣م جاء فيه: "يقع الكتاب فى ٤٣ كراسة. أودعه الرصافى بخطّه لدى صديقه المرحوم محمود السنوى. كما

استنسخه مصطفى على، واستنسخه كامل الجادرجى بخطّه. ويقع فى أربعة مجلدات تضمّ ١١٥٤ صفحة، وعليه إجازة بخطّ الرصافى نفسه". وجاء فى كلمة الرصافى، التى حذف منها فى الكتاب المطبوع اسم الجادرجى: "اطّلعت على هذه النسخة التى استنسخها صديقى الفاضل كامل الخيام (الجادرجى) على النسخة التى كتبتُها بخطّى من كتاب "الشخصية المحمدية" فرأيتها صحيحة كاملة خالية من الأغلاط فى النسخ. فلذا أجيز له روايتها، والنقل عنها، والاعتماد على ما هو مكتوب فيها قبل طبع نسخة الكتاب الأصلية ونشرها. وبما أنّى أثق بثقافة كامل الخيام وبصدقه وإخلاصه فى مسائل العلم والأدب كتبتُ هذا إعلامًا بذلك".

وفى مقال بمجلة "العربى" الكويتية (العدد ١١٠/ ١ يناير ١٩٦٨م) عنوانها "الرصافى بين الطموح والشذوذ وثورة النفس العارمة" يذكر د. يوسف عز الدين أن الرصافى كان يمارس الشذوذ الجنسى ويسكن فى جيرة العاهرات ولا يبالى بما يمكن أن يقا ل عنه ولا يراعى الآداب العامة. وقد ذكر د. يوسف عز الدين أيضا فى مقدمة كتاب "الرصافى يروى سيرة حياته" (دار المدى/ ٢٠٠٤م) علاقة كاتبنا بالبغايا، وإن قال إنه يفضل الشذوذ، وأكد أنه لم يصلِّ منذ عاد من إسطنبول، وأنه كان مدمنا للعرق ويعده وسيلة لنسيان همومه وضيقه بالحياة وتأخر حظوظه فيها (ص٢٤، ٤٤، ٩٢). وفى رأيه أن الرصافى، بتأليفه كتاب "الشخصية المحمدية"، إنما أراد مخالفة التيار السائد والتفرد بآراء ومواقف خاصة به لا يشاركه فيها أحد ولا يشارك فيها أحدا (ص٤٤). وفى المذكرات نفسها يتحدث الرصافى أنه لم يكن بين يديه من المراجع وهو يؤلف الشخصية المحمدية سوى أربعة كتب. وهذا نص ما كتب: "ومنذ اختيارى للفلوجة عزمت على تأليف كتابى: "الشخصية المحمدية" أجلو بها سيرة المختار، وفعلا باشرت بتأليفه

عندما وضعت قدمى فى الفلوجة. وأنا إذا كان عملى ناقصًا فسببه قلة المصادر التى لدى، فأنا ألفت هذا الكتاب وليس لدى من أمهات المصادر سوى أربعة، وهى "السيرة النبوية للحلبى، وسيرة ابن هشام، والتفسير للزمخشرى، ومعجم البلدان". وهذه الكتب الأربعة هى أيضًا ليست ملكى، وإنما استعرتها من السيد مصطفى على" (ص١١٠- ١١١)، مع أن الكتاب فى آخره وفى أثناء الكلام بالمتن يحتوى على مراجع أكثر كثيرا من هذا كما وضحنا قبلا. فهذا كله يدل على أن كتاب "الشخصية المحمدية" هو من تأليف الرصافى. وقد عرض د. عز الدين لما قاله الريحانى فى كتابه: "قلب العراق" عن كتاب "شخصية محمد" وما فيه من جرأة ومخالفة لما يراه المسلمون، وأوضح أن الرصافى قد اضطر إلى الكذب ونفى ما قاله الأديب والرحالة اللبنانى كى ينجو من أذى الجماهير (ص١١٢). وذات مرة اقترح عليه بعضهم تغيير داره واستبدال جيران آخرين غير جاراته من المومسات، فرد على هذا الاقتراح بما معناه: أولو كنا جيرانا للنقيب هل يمكننا أن ندخل ونخرج على راحتنا ومع كل منا مومسته أو غلامه؟ (ص١٥٧). وهذا يدل على طبيعة الحياة التى كان يحياها والعقلية التى تسكن رأسه. وفى هذا الكتاب أيضا تكلم الرصافى عن ذهابه إلى الفلوجة ليؤلف كتابه: "الشخصية المحمدية" (ص٢٤٤)، وإن أضاف أنه لم يؤلف الكتاب بعد بل يكتفى بتسجيل الخواطر التى تعنّ له، ومع هذا فلو وجد فرصة لطبعه لما تأخر، لكن ليس فى العراق حيث لا تتسع صدور الناس لقراءة مثل ذلك الكتاب، بل فى أوربا أو تركيا. وفى نفس الكتاب (ص٢٨٢) يقول د. يوسف عز الدين: "رغم اعتزاز الرصافى بكتابه: "الشخصية المحمدية"، الذى استغرق تأليفه أربع أو خمس سنوات، فإنه لم ينشره فى حياته لاعتقاده بعدم تقبل المجتمع للآراء الواردة فيه، وظلت نسخٌ ثلاثٌ أو أربعٌ من

الكتاب عند أصدقائه، ومنهم كامل الجادرجى وطه الراوى حتى نشر مؤخرا فى عام ٢٠٠٢".

كذلك كتب د.أحمد ناجى الغريرى ود. عكاب يوسف الركابى فى كتابهما: "بين الإيمان والإلحاد- رحلة لم تنته: دراسة نقدية تحليلية فى كتاب "الشخصية المحمدية" للشاعر العراقى معروف الرصافى" (صفحات للدراسات والنشر ومكتبة عدنان للطبع والنشر والتوزيع ببغداد، ودار أفكار للدراسات والنشر بدمشق/ ٢٠١٢م/ ٢٥ فصاعدا) أن الرصافى نفسه أقر بأنه مؤلف الكتاب المذكور، وذكرا أنهما وغيرهما من المؤلفين قد اطلعوا على مخطوط الكتاب وتحققوا من شُنْع ما فيه عن النبى محمد عليه السلام، كما أشارا إلى المجلات التى كتبت عن ذلك الموضوع قبل ظهور الكتاب بما يدل على أنه كان قد تم تأليفه، وإن لم يكن قد صدر بعد إلى جمهور القراء، وأنهما أنفسهما قد وقعت فى أيديهما نسخة من كتاب د. محمد حسين هيكل عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى طبعته الأولى بالقاهرة عام ١٩٣٥م وعليها ملاحظات بخط الرصافى ينتقد الكتاب لأن صاحبه لم يتعرض للحادثة الخاصة بشق صدر محمد وموقع الراهبين: بحيرا ونسطور من حياته وما كان يعتريه من الإغماء عند نزول الوحى عليه، ولأنه لم يكن محايدا، بمعنى أنه لم يعمل عقله النقدى فى سيرة محمد وشخصيته ونبوته وما إلى ذلك، وهى نفس الموضوعات التى تعرض لها الرصافى فى كتابه وكان له فيها آراء تتعارض تمام التعارض مع نبوة محمد واتصاله بالسماء.

ومما له صلة بموضوعنا أيضا ما كتبه "أبو معاوية البيروتى" فى "ملتقى أهل الحديث" تعليقا على بعض ما كُتِب فى المسألة التى نحن إزاءها الآن. قال تحت عنوان "رد: هُمُ العدوُّ فاحذرهم! نقولات وإشارات لفضح النوايا الخبيثة أو الانحراف

العقدى والسلوكى لأعلام وأقزام معاصرين!" بتاريخ ٣/ ٨/ ٢٠١٥م: "الشاعر العراقى معروف الرصافى (١٢٩٤هـ- ١٣٦٤هـ/ ١٨٧٧- ١٩٤٥م) يسقط فى وحل الخيانة ويناصر اليهود. كثيرون مهدوا لضياع فلسطين وامتدحوا الصهاينة. امتدحوا اليهود، ووصفوا احتفالاتهم فى القدس فى ليال هى عندهم بمستوى ليلة القدر فى القُدْسِيّة! ولكنك، قارئى الكريم، لعلك تصعق حين تعلم أن من هؤلاء الكثيرين الشاعر العراقى معروف الرصافى، الذى ألّف قصيدة فى مدح الصهيونيَّيْن: يهودا وهربرت صموئيل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين وأنشدها فى محفل فى القدس حضره عام ١٩٢٠م (والقصيدة موجودة فى ديوانه/ ١/ ٣٠/ مطبعة الاستقامة/ القاهرة). وعلى أثر هذه القصيدة طرد الشعب الفلسطينى الرصافى بعد رجمه بالحجارة! اهـ.

كتب الشيخ سليمان الخراشى عن معروف الرصافى (فى موقع "الألوكة") التالى: "الرصافى صاحب أطوار غريبة كما يقول الأستاذ عبد اللطيف شرارة فى كتابه عنه، فهو قد تتلمذ على الألوسى (السلفى) رحمه الله، ثم "انتقل فجأة من متزمت وقور إلى خليع يقتنص اللذائذ ويتهالك على اللهو" ("الرصافى" لشرارة/ ص ٣٨). ومن غرائبه، كما يقول الدكتور أحمد مطلوب، أنه "كان يؤمن بوحدة الوجود" (الرصافي- آراؤه اللغوية والنقدية/ ١٠٩). أما كتابه: "الشخصية المحمدية" فيقول عنه الدكتور أحمد (ص١٨٣): "أحد كتبه المهمة التى لم تطبع حتى الآن لِمَا فيه من آراء مثيرة". قلت: ثم طبعتْه دار الجمل بألمانيا عام ٢٠٠٢م، وقد اطلعتُ عليه فى مكتبة عامة ولم أتمكن من قراءته. يقول الدكتور أحمد: "أَلَّف هذا الكتاب بعد أن هجر بغداد واتخذ الفلوجة معتزلًا، وظل يشتغل به حتى عام ١٩٤١م" اهـ. قال أبو معاوية البيروتى: ذكر أعضاء

فى مجمع البحوث الإسلامية أن كتاب "الشخصية المحمدية" يدعو إلى الكفر! وقد مُلِئَ بالطعن فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ووصل إلى حد البهتان أنّه ألّف القرآن! ورسم حالة الوحى النبوى على شاكلة نوبات عصبية تعرّض لها محمد! وأنه شبقى مزواج!... إلخ (انظر مقالة "معروف الرصافى يعتدى على نبوة محمد!" التى كتبها محمد رضا نصر الله فى جريدة "الرياض")

أما عن نسبة الكتاب لمن ألفه فقد اختُلِف فى نسبته إليه، ويرجِّح عضو مجمع البحوث الإسلامية السابق الدكتور عبدالعظيم المطعنى أن يكون كتاب "الشخصية المحمدية" مدسوسًا على معروف الرصافى ومنسوبًا إليه لاستغلال شهرة الرجل الأدبية فى الإساءة إلى الإسلام، ويكون الذين نسبوا إليه هذا الكتاب من أعداء الإسلام حقا". وأكَّد المطعنى أنه درس سيرة معروف الرصافى وقرأ عنه كثيرًا، ولم يعرف من قبل أنه ألَّف كتابًا كهذا الكتاب. و"إذا كانت نسبة الكتاب إليه صحيحة فالظن الغالب أن يكون قد ألفه فى بدء حياته الفكرية، وربما كان فى هذه الفترة يعانى من مراهقة فكرية ونزعات معادية للإسلام" (انظر مقال "كتاب الشخصية المحمدية يدعو إلى الكفر" فى جريدة "النخبة"/ عدد جمادى الثانى ١٤٢٥ هـ). قال أبو معاوية البيروتى: مرَّ سابقًا قول د. أحمد مطلوب إنَّ الرصافى ألَّف كتاب "الشخصية المحمدية" فى أواخر عمره "بعد أن هجر بغداد واتخذ الفلوجة معتزلًا، وظل يشتغل به حتى عام ١٩٤١م" اهـ. وذكر محمد رضا نصر الله أن الرصافى أوصى أن يُطبَع كتابه هذا بعد مماته!".

وتمثل هذه الفقرات تعضيدا قويا جدا لما انتهينا إليه وأثبتناه بالوثائق والمنطق والتحليل المفصل والعميق والمتقصى من أن كتاب "الشخصية المحمدية" هو لمعروف الرصافى بلا أدنى جدال. ومع هذ ا فأحب أن أقف قليلا إزاء قول د. عبد العظيم

المطعنى إنه يرجح أن يكون الكتاب مدسوسا على الرصافى لأنه قرأ عن الرجل كثيرا فلم يقابله فيما قرأ أنه ألف مثل هذا الكتاب، فأعلق بأن مثل هذا الكلام قد صدر عن أكثر من واحد ممن تناولوا هذه القضية. وحجتهم أن الكتاب لم يطبع والرصافى على قيد الحياة، وأن أحدا لم يتحدث عنه سواء فى حياة الشاعر أو بعد موته إلا القليلين. ولعل عذرهم يكمن فى أن معرفة معظم القراء والكتاب بالرصافى مقصورة على النصوص التى درسوها فى المدارس أو قرأوها فى بعض الكتب التى تتناوله شاعرا فقط، ولم يكن فى أشعاره التى استشهد بها مؤلفو تلك الكتب شىء من شطحاته، بل كان فيها الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى والعمل على استعادة مجدنا القديم الذى انطوت صفحته منذ قرون. ولكن الحال تبدل بعد صدور الكتاب.

كذلك فالرصافى لم يؤلف الكتاب وهو شاب ناقص العلم والخبرة كما ظن د. المطعنى، بل فى أواخر حياته بعدما انخلع من ربقة الدين والتدين. فالدكتور المطعنى قد قال ما قال لقلة المعلومات المتاحة له عن اتجاهات الرصافى الدينية والأخلاقية والسلوكية السيئة التى كانت مجهولة من جماهير القراء بوجه عام. ومن ذلك أنه كان من المترددين على بيت الدعارة الذى كان يسكن قريبا منه، كما كان يمارس اللواط ويشرب الخمر ويلعب القمار دون أدنى خجل أو استحياء بل فى تهتك واضح لم يكتب عنه إلا القليلون. وكان على المرحوم د. المطعنى، بوصفه عضوا فى مجمع البحوث الإسلامية، أن يتوسع فى البحث عن الرصافى وكتاباته قبل أن يكتب رأيه هذا لأن الناس يتلقفون آراء أمثاله وأحكامهم تلقفا وينظرون إليها بتقدير كبير. أما التخمين فلا يصلح منه ولا من أشباهه فى مثل تلك الحالة.

وأما مدح الرصافى للصهاينة وهو فى فلسطين فهذا هو. وقد ألقاه فى افتتاح الجامعة العبرية سنة ١٩٢٥م:

خطـاب يهـودا قـد دعانـا إلى الفكـرِ ... وذكَّرنَـا مـا نحـن منـه عـلى ذُكْـرِ
ومجَّـد مـا للعُـرْب فى الغـرب مـن يـدٍ ... ومـا لبنـى العبـاس فى الـشرق مـن فخـر
لـدى محفِـلٍ فى القـدس بـالقوم حافـلٍ ... تبَّـوأه هربـرْ صـموئيل فى الـصدر
دعاهم رئيس القدس ذو الفضل راغب ... إليـه، فلَبَّـوْا دعـوة مـن فتًـى حُـرِّ
فأمـسَوْا وفى ليـل المحـاق اجتماعهم ... يحفّـون مـن هربـرْ صـموئيل بالبـدر
فيـا ليلـة كـادت، وقـد جَـلَّ قـدرها، ... تكـون عـلى علاّتهـا ليلـة القـدر
ولمـا تنـاهى مـن يهـودا خطابـه ... وقـد سرّنـا مـن حيث نـدرى ولا نـدري
تـصّدى لـه هربـرْ صـموئيل ناطقًـا ... بـسحر مقـالٍ جـلّ عـن وصـمة الـسحر
فـصدَّقَ مـا للعُـرْب مـن تالـد العـلا ... ومـا لهـمو فى العلـم مـن خالـد الـذكر
وزاد بـأن أَوْمَـا إلى مـا لـصنعهم ... عـلى صـخرة البيـت المقـدَّس مـن أثـرِ
وقـال، وقـد أصـغى لـه القـوم: إننـا ... سـنَرْأب مـا أثأتْـه مـنكم يـد الـدهر
ونُنْهـضكم فى مـنهج العلـم نهـضةً ... مُقَوِّمـةً مَـا اعْـوَجّ فـيكم مـن الأمـر
فكانـت لهـذا القـول فى القـوم هِـزّةٌ ... سروريّـة مـن دونهـا هـزّة الـسكر
حنانَيْـك يـا هربـرْ صـموئيل كـم لنـا ... عـلى الـدهر مـن حـقٍّ مُـضَاعٍ ومـن وِتْـرِ
لنـا قَلَـبَ الـدهرُ الخَـؤُون مِجَنَّـهُ ... وكـرّ علينـا لابـسًا جلـدة النمـر
وأغـرى بنـا الأحـداث مُبْتكِـرًا لهـا ... فلـم يأتنـا إلا بحادثـةٍ بِكْـرِ
وقـد أفنَـت الأيـام كـل عَتَادنـا ... سـوى مـا ورثنـا مـن إبـاءٍ ومـن صـبر
فلسنا، وإن عضّت بنا اليومَ نابُها، ... نَقَـرُّ عـلى ذلّ، وننقـاد عـن ذُعْـرِ

فَمَنْ سامَنا قسرًا على الضيم يَلْقَنا مصاعيبَ لا تُعْطِى المقادةَ بالقسر
لنا أنفسٌ تحيا بثروة عزّها وإن نشأتْ بين الخَصَاصة والفقر
إذا نحن عاهدنا وفَيْنا ولم نكن إذا ما ائْتُمِنّا جانحين إلى الخَتْرْ
فإن شئت يا هربرْ صموئيل فاختبرْ خلائقَ منا لا تميل إلى الغَدْر
وعَدْتَ، فأمسى القوم بين مُشَكِّكٍ ومنتظرِ الإنجاز منشرح الصدرِ
فكذِّبْ، وأنت الحرّ، مَن ساء ظنّه فقد قيل: إن الوعد دين على الحرّ
ولسنا، كما قال الأُلَى يتهِمُوننا، نُعادى بنى إسرالَ فى السرّ والجهر
وكيف، وهم أعمامنا، وإليهمو يمت بإسماعيل قِدْمًا بنو فهرِ؟
وإنى أرى العربىَّ للعُرْب ينتمى قريبًا من العِبْرِىِّ يُنْمَى إلى العِبْرِ
هما من ذوى القُرْبَى، وفى لغتَيْهما دليل على صدق القرابة فى النَّجْر
ولكننا نخشى الجلاء ونتّقى سياسة حُكْمٍ يأخذ القوم بالقهر
وهل تثبت الأيام أركان دولة إذا لم تكن بالعدل مشدودة الأَزْر؟
وها أنا قبل القوم جئتك معلنًا لك الشكر حتى أملأ الأرض بالشكرِ

وقد علق سميح مسعود على القصيدة قائلا فى مقال له بعنوان "قصيدة للرصافى فى افتتاح الجامعة العبرية" منشور فى موقع "الحوار المتمدن" بتاريخ ٦/ ١/ ٢٠١٤م: "التصهين فى القصيدة بائن بوضوح بانثيالات ظهرت فى أكثر من اتجاه، يُعلنه الشاعر علانية دون حرج أو خجل، وتظهر مخاطبته للمندوب السامى البريطانى بمعانى ودلالات متعددة مباشرة غير مبهمة تعمد إلباسها إهابًا أرجعه إلى مسلمات دينية، وما يقترن بها من مشاعر "العمومة" التاريخية مع بنى إسرائيل فى لحظة تصادم متعمد مع كل ثوابت المسلمات الوطنية. يطغى على القصيدة عدم تقدير واضح لظروف الزمن الذى

يحكُم أجواء القصيدة بكل محمولاته الاستعمارية والاستيطانية وتصادمه مع التطلعات الوطنية الفلسطينية، صاغ فيها الرصافى شبكة تواصل بدرجة عالية من "العمالة" للآخر فى زخم تداعيات الانتداب المتصهين. وقد عززالتأكيد عليها فى مطالب بين فيها رغبته بالتكامل مع الآخر ابن عمومته، وزين تلك المطالب عند إقفاله القصيدة بالمباهاة فى تقديم الشكر الوفير بنبرة عالية إلى المندوب السامى البريطانى هربرت صموئيل مؤكدًا له أنه يأتى إليه قبل قومه لتقديم الشكر إليه، ويعده بتشفيرٍ دلالىٍّ بأن أفواجًا مثله من بنى قومه سوف يأتون من بعده أيضا لتقديم الشكر إليه.

ليس من شك فى أن الرصافى قد أدار ظهره فى قصيدته إلى الحركة الوطنية الفلسطينية بجلوسه إلى جانب بلفور وامتداحه المندوب السامى البريطانى هربرت صموئيل، وأدخل نفسه فى تفاعل مباشر مع أعداء الأمة ورواد المشروع الصهيونى متجاوزًا فى تصرفه فلسطين وشعبها وقضيته. ولا غرابة فى هذا لأن ملامح دلالية مرجعية كثيرة تؤكد على أنه "عاش حياته الطويلة العريضة بانفلات واضح فى السلوك والتصرف وغشيان الكثير من المحظورات. أخذ منه الاستهتار كل مأخذ وأزال عن طريقه كل الممنوعات وأوغل فى التنقيب عن الأسرار وتعرية الذات...". وهناك مصادر تذكرها "الموسوعة الحرة" تؤكد على "اعتراف الرصافى مبكرًا بماسونيته واستهتاره وممارسات كثيرة لا تقبلها أعراف المجتمعات الشرقية".

واجهت الحركة الوطنية الفلسطينية تصرف الرصافى برفض شديد، واعتبرت قصيدته معيبة بمعناها ومغزاها، تتماهى مع مخططات الصهيونية وسياسات الاحتلال البريطانى ومشاريعه الاستعمارية، خاصة وأنه ألقاها أمام جيمس آرثر بلفور صاحب التصريح المشؤوم الذى صدر عن الخارجية البريطانية فى الثانى من تشرين الثاني/

نوفمبر عام ١٩١٧، ووعد به إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، وحرم الشعب الفلسطينى من حقوقه السياسية والقومية، وما تزال تداعياته فى تفاعل دائم حتى الآن".

وقد تبين لنا بعد تلك الجولة أن الرصافى هو مؤلف الكتاب حقا وصدقا. ولا يظنن أحد أنه يمكن أن يكون مظلوما وأن الكتاب قد نُحِل عليه ونُسِب إليه زورا، وإلا لانبرى من يعرفونه ويعرفون خبايا حياته، وهم كثر، للدفاع عنه ووضع الأمور فى نصابها. فهناك من نسخوا الكتاب وراجعوه عليه، وهناك أكثر من مؤسسة ثقافية تمتلك نسخة من ذلك الكتاب، فهل يمكن أن يسكت الجميع لو كان الكتاب، بعد كل ما بذلناه من جهود وتحقيقات ومراجعات وسقناه من نصوص للرجل ولغيره، ليس له؟ لقد أشار أمين الريحانى، كما وضحنا آنفا، إلى الكتاب بوضوح فى كتابه عن العراق، وهو ما أثار غضب الرصافى، فاتهم الريحانى بأنه يزيف التاريخ وتبرأ مما صنعه، لكن الريحانى رد عليه ردا أفحمه ودفعه إلى السكوت، فلم يعلق بشىء. كذلك سبق صدورَ الكتاب أنْ نَشَرَ الرصافى بعض فصول منه هنا وهناك، وعلى نفس الشاكلة نشر بعض معارفه وأصدقائه وحوارييه فى حياته وبعد مماته فصولا من نفس الكتاب، وتظهر صحة هذه الفصول بالمقارنة بينها وبين الكتاب الذى نشرته دار الجمل. ليس ذلك فقط بل للرصافى كتابات وأشعار تجرى فى هذا الاتجاه بكل وضوح، ولا يحيط بها أى شك من أية جهة. ثم مرة أخرى ليس هذا فحسب، بل تحدث عن هذا الكتاب بعض أصدقاء الرصافى ومعارفه من الكتاب والمسؤولين العراقيين، وذلك قبل صدوره فى ألمانيا عام ٢٠٠٢م ووصفوا بعضا من ملامح مخطوطته. ثم إن أحدا من حواريى الرصافى ومحبيه والمتحمسين له ولشعره ودراساته لم يكتب كلمة ينكر فيها نسبة الكتاب إلى الرجل، ولم

تنبر أية مؤسسة ثقافية ذُكِر أنها تمتلك نسخة من مخطوط الكتاب لتقول إن الكتاب ليس له. ولا أظن أن الأمر الآن بحاجة إلى مزيد من التدليل على أن الكتاب هو للشاعر العراقى حقا.

وإذا كان الرصافى قد مات فليس معنى ذلك أنه لا يمكن أن ينبرى أحد للدفاع عنه إذا كان مظلوما ونُسِب إليه ما هو منه براء. فهناك من ذُكِر أنهم قد نسخوا الكتاب وراجعوه عليه. وهناك مؤسسة ثقافية أو أكثر قيل إنها تمتلك نسخة من الكتاب، فهل يمكن أن يسكت هؤلاء إن كانوا أحياء أو أولادهم أوأقاربهم أو المسؤولون الذين حلوا محلهم إن كانوا لحقوا به؟ وهل يمكن أن تسكت تلك المؤسسات التى قيل إنها تملك نسخة من الكتاب لو كان هذا كلاما كاذبا؟ وكما رأينا فقد تحدث عن هذا الكتاب بعض أصدقاء الرصافى ومعارفه من المؤلفين والمسؤولين العراقيين، وذلك قبل صدوره فى ألمانيا عام ٢٠٠٢م ووصفوا بعضا من ملامح مخطوطته. وأخيرا فقد أخبرنى أ. ژيوار المدرس بأن أباه المرحوم محمد مُلَّا عبد الكريم المدرس، وكان عضوا بالمجمع العلمى العراقى، قد اطلع على مخطوطة الكتاب قبل أن يطبع فى ألمانيا، ولما طبع الكتاب واستغرب الناس أن يكون الرصافى هو مؤلفه كان يؤكد لأصدقائه وزواره ومعارفه وكل من يسأل عن الحق فى هذا الأمر أن الكتاب هو فعلا وبدون أدنى جدال من تأليف الرصافى.

التاريخ عند الرصافى كذب فى كذب
ومحمد بن عبد الله لم يكن نبيا بل مدعيا للنبوة

يبدأ معروف الرصافى كلامه فى كتابه: "شخصية محمد أو حَلّ اللغز المقدس" بإعلان تكذيبه للتاريخ تكذيبا تاما أو يكاد، ومستنده فى هذا أن التاريخ يكتبه البشر، والبشر يخضعون للمصالح والأهواء ويكذبون ويدلِّسون... إلخ، ومن ثم لا يمكنهم كتابة التاريخ كتابة صادقة، بل الصدق فيها لا يعدو أن يكون ذرات ضئيلة وَسْطَ طَيْسٍ من الأكاذيب والأباطيل. وعقب ذلك نراه يخبرنا بأنه يبرأ من التاريخ ويلوذ بالحقيقة. ثم يستطرد إلى القول بأنه يعرف أن الناس سوف تسخط عليه، لكنه لا يبالى بسخطهم بل بإرضاء الحقيقة، والحقيقة وحدها، فهو يعلم أنهم يبغضونه، وهذا أمر لا قيمة له عنده. ثم إنه يمضى متسائلا: لكن كيف تضمن أنك سوف تصيب الحقيقة؟ والجواب هو أنه يكفيه أن يكون متحرر الفكر، ولا تهم بعد ذلك النتيجة. وكأنه بذلك يجرى على قول القائل: "وعلىَّ أن أسعى، وليس علىَّ إدراكُ النجاح" (ص١٤- ١٦).

وهذا كلام ظاهره جميل، لكنه لا يتقدم بنا خطوة إلى الأمام، إذ ليس هناك أى شىء خارج التاريخ، فلو حذفنا التاريخ ما بقى شىء يستند إليه الرصافى أو غير الرصافى فى تفكيره وتأليفه وكتابه الذى بين أيدينا. ذلك أن التاريخ يتضمن كل ما وضعه الرصافى تحت بصره وهو يؤلف كتابه سواء فى ذلك كتب التاريخ أو كتب التفسير أو كتب السيرة أو كتب الحديث أو كتب الأدب أو كتب الرجال... إلخ. وهو، شاء أو كره، لا يمكنه أن يخط حرفا إلا إذا نظر فى هذه الكتب حتى لو خالف كل ما فيها، وإلا فمن أين يأتى بالفكر أو بالكلام إذا ضرب صفحا عن التاريخ؟ بل إن عقله

وعلمه وقدرته على التفكير هو جزء من التاريخ. وعلى هذا فلو وضع التاريخ خلف ظهره ما وجد شيئا ينجده فيها هو بسبيله من تأليف ذلك الكتاب. والعجيب الغريب أنه يُحَاجّ كايتانى بهذا الذى نُحَاجُّه هو به هنا (الرصافى/ رسائل التعليقات/ مكتبة المعارف/ بغداد/ ١٩٤٤م/ ١٥٢- ١٥٣، ١٥٥- ١٦٠، ١٦٩- ١٧٠، ١٧٢).

وهذه بعض أمثلة من كلامه على ما نقول: "قلنا فى تعليقاتنا غير مرة إن المؤلف دَأْبُه فى كتابه هذا اقتلاع الروايات من جذورها ونبذها فى الهواء من دون أن يكلف نفسه عناء النظر فيها بعين التحقيق والتمحيص لعل فيها شيئا من الحقيقة. وليس هذا بدأب المحققين" (ص١٥٩)، "من أين استنبط المؤلف هذه الأقوال؟ وإلى أى دليل يستند فيها؟ لا شك أن هذه الأقوال التاريخية ليست مما يصل الإنسان إلى معرفتها بالتفكير ولا بالعقل والفطنة والذكاء، وإنما هى مما لا يعرف إلا بالمشاهدة والعيان أو بالعلم والخبر. فإلى أى علم أم إلى أى خبر يستند المؤلف فى إثباتها؟" (ص١٧٢)، "كل من طالع بتدبر وإمعان كتب السيرة الحافلة بالأخبار عن حياة محمد علم أنه كان يتساهل فى كل شىء من أمور الدين إلا الصلاة..." (ص١٧٥).

ليس هذا فقط، بل إنه هو وكل ما يكتبه أيضا جزء من التاريخ يصدق عليه ما يصدق على الكتاب والمفكرين والعلماء السابقين الذين يرفضهم ويرفض كتاباتهم ويعلن أنه لن يذعن لأى شىء سوى الحقيقة. وعليه فلو طبقنا قاعدته هذه لوجب أن نهمل كل ما يكتب لأنه جزء من التاريخ، والتاريخ عنده ليس سوى أباطيل كاذبة ومزيفة. ولا يعقل أن يكون الكتاب والمفكرون والعلماء بل الناس جميعا كذابين مداورين، وهو وحده الصادق الأمين. وكذلك لا يعقل أن يكون الرسول عليه السلام ذاته كاذبا حسبما يصوره فى كتابه، وإِنْ زعم أن كذبه هذا صدق لأنه كان يتغيا من ورائه

المصلحة العامة، ويكون هو صادقا ينبغى أن نطمئن إليه ونأخذ بما يقول ولا نشك فى أمانته وإخلاصه طرفة عين. ثم إذا كان هو يقر بأنه لن يصيب بالضرورة الحقيقة فيما يكتب فأى فرق بينه هو وبين أى باحث آخر؟ ولماذا كل هذه الضجة الفارغة حول التاريخ والحقيقة ما دامت النتيجة واحدة هنا وهناك؟

ثم إن ما يقوله عن أنه يكفيه أن يكون مخلصا للحقيقة يقوله كل كاتب ومفكر وعالم وفيلسوف، فهل يا ترى ينبغى أن نركن إلى ما يقولون؟ إننا لو فعلنا فلسوف يكون فعلنا هذا تكذيبا لما يقول. أم تراه يمكنه الادعاء بأنه هو فقط الملتزم بحرية التفكير والتعبير، وسائر البشر يخاصمونها ويدوسونها بالأقدام؟ ولا يعقل أن نهمل ما كتبه عمالقة المؤرخين والمفسرين وكتاب السيرة وأمثالهم ونضعهم موضع الرفض ونصغى فقط لكاتبنا الهمام الذى من الواضح أنه يظن نفسه مخلوقا من طينة مختلفة عن الطين المسنون الذى خلق الله منه البشر جميعا. نعم ليس معقولا ولا مقنعا ولا منطقيا أن نكذِّب عُرْوة والزهرى والطبرى والزمخشرى وابن كثير وابن إسحاق وابن هشام وابن حزم والبخارى ومسلما والترمذى وكل من على شاكلتهم ونأخذ بما قاله كاتبنا، فكاتبنا ليست على رأسه ريشة، بل هو يخضع لما يخضع له هؤلاء العلماء بل هم أقمن منه بالتصديق والاطمئنان لأنهم لم يرفضوا كل شىء ولم يقولوا: "تَبًّا وسُحْقًا للتاريخ"، بل قرأوا ما كتبه المؤرخون أو رَوَوْه وأعملوا عقولهم فيه. أم ترى كاتبنا هو وحده الذى يشغّل عقله، وكل العلماء يلقون بعقولهم فى الزُّبَالة؟ أم تراه يظن أنه هو وحده الذى عنده عقل سليم، وباقى العلماء معلولو العقول؟ إن كثيرا منا يقرأ ويُخْضِع ما يقرأ للآلة النقدية التى ركبها الله فى عقولنا، ونعرف أننا بعد ذلك كله لا نضمن أن يكون ما كتبناه هو الصواب الذى لا يأتيه الباطل من أمامه أو من ورائه.

وعلى كل حال فمن أين أتى الكاتب بما سجله فى كتابه الذى بين أيدينا والذى يتهم التاريخ فيه بأنه كذب فى كذب؟ إنه مأخوذ من هذه الكتب، وقد عب منها عَبًّا شرهًا، وتناسى ما قاله عنها من أنها أكوام من الأباطيل لا تحتوى إلا على ذُرَيْرَات ضئيلة من الحقيقة. ولا يمكن أن يكون قد أتى بهذا من عندياته، فهو ليس حاويا أو بهلوانا يمد يده إلى الهواء ثم يعيدها وقد امتلأت بالمعلومات، ولا هو يهرش رأسه فتسيل منها تلك المعلومات. وهذا هو ما نصنعه جميعنا. فكان ينبغى أن يربع كاتبنا على ظلعه ويتواضع ويعرف حدوده ودينه للآخرين فى كل ما يكتب بل فى كل ما يعيش منه. ذلك أن كل ما خطته يراعته فى الكتاب الذى نحن بصدده هنا هو منقول من كتب حملها إلينا التاريخ لم يخرج عنها. كما أن النتائج التى انتهى إليها مبنية على ما تقوله تلك الكتب، ولا تخرج فى عمومها عما كتبه أعداء الإسلام من مستشرقين ومبشرين وملاحدة ومن يسير فى أعقابهم من كتابنا. فانظر، أيها القارئ العزيز، إلى الفارق الهائل بين ما طنطن به كاتبنا وما هو واقع الأمر. ألا إنه لفارق عجيب! ثم إنه قد نسب الرسول إلى الكذب، وإن حاول التخفيف من هذه التهمة بالقول بأنه إنما أراد بكذبه الصالح العام، أفيكون هو أخلص للحقيقة من النبى بحيث لا يصح أن نعزو الكذب إليه؟

وحين كان يعيش فى الفلوجة، وليس لديه الكتب التى يحتاجها فى تمحيص المصدر الذى يزعم أن الرسول استقى منه عقيدته فى وحدة الوجود، صرح بملء الفم بأنه لا يستطيع وقتئذ أن يعرف وجه الحق فى ذلك مكتفيا بشرح طبيعة وحدة الوجود والمشاعر التى كان محمد يحسها آنذاك بناء على تلك العقيدة وبإيراد الآيات القرآنية (الرصافى/ الشخصية المحمدية/ ١٩- ٢٠)، والآيات القرآنية لا تحتاج إلى مكتبة بل يكفى أن يكون الإنسان حافظا لكتاب الله أو يمكنه الاستعانة بمن يحفظ القرآن أو فى أسوإ

الأحوال فإنه يستطيع توفير مصحف بمنتهى السهولة. ومعروف أن الكتب تحتوى فى بطونها الروايات التاريخية بطريقة أو بأخرى. ومعنى اعتذاره عن عجزه عن الجواب المار ذكره أنه بدون التاريخ لا يمكنه أن يخط حرفا واحدا فى الموضوع الذى يعالجه. وهذا تكذيب منه واضح وصريح ومباشر لما قاله فى تكذيب التاريخ وتكذيب الكتب من ثم، إذ الكتب هى انعكاس التاريخ وخزائنه التى يستكن فيها والتى لا بد من فتحها كى نعرف الحقائق مستعينين طبعا بحاستنا النقدية كما وضحنا قبلا.

وهذا التشنج الذى يتشنجه الرصافى تجاه التاريخ واتهامه له بأنه ركام من الأكاذيب ليس فيه سوى ذرات من شذرات الحقيقة قد تشنجه قبلا طه حسين فى كتابه: "فى الشعر الجاهلى"، وإن كان فى مجال آخر وسياق مختلف، إذ فتح البرجل وأعلن أنه يشك فى كل شىء اتباعا للمنهج الديكارتى، ومن ثم أظهر شكه فى الشعر الجاهلى كله أو جله على الأقل، وأكد أن الإسلام قد استغل أسطورة زيارة إبراهيم لمكة كى يتقرب إلى اليهود. ولكن عند التطبيق ألفينا طه حسين يتخلى عن حذره تماما ويقبل كل ما يظن أنه يعضد رأيه الذى دخل به مجال بحثه جاهزا. أى أنه لا يشك إلا فيما يشهد بالصدق للنبى محمد، بينما يطمئن إلى ما يخدم دعواه فى التشكيك فى شعر الجاهليين. كما أن شكه فى الشعر الجاهلى لم يكن وليد تمحيص وتدقيق وبحث واستقصاء وتعمق من جانبه بل هو نتيجة اطلاعه على بحث مرجليوث حول ذلك الشعر، وهو البحث الذى نشر فى مجلة الجمعية الملكية الآسيوية قبل كتاب طه حسين بعشرة أشهر، فقد شك المستشرق البريطانى فى كل الشعر الجاهلى على بكرة أبيه، فجاراه د. طه فى هذا الشك، وإن كان قد زاد بأنه يشك فى ذلك الشعر كله "أو جله". كما اعتمد على نفس الأسباب التى تذرع بها مرجليوث لذلك الإنكار.

والسبب الذى حدا بى إلى القول بأن طه حسين قد أخذ شكه فى شعر الجاهلية من مرجليوث علاوة على تشابه المقولتين واتفاق العلل التى أعلن كلاهما الاعتماد عليها فى نفى صحة ذلك الشعر هو أن طه حسين ظل طوال حياته قبل ظهور بحث مرجليوث يعبر عن ثقته التامة فى صحة ذلك الشعر لا يرتاب فى شىء منه أبدا إلى أن ظهر بحث مرجليوث وجاءت نسخ من المجلة المنشور فيها إلى مصر، فحينئذ ألفينا د. طه ينقلب على نفسه مائة وثمانين درجة بعد أن كان قد كتب قبيل ظهور بحث مرجليوث ترجمة للشاعر الإغريقى هوميروس جعلها الفصل الأول من كتابه: "قادة الفكر" حيث أكد أن البداوة العربية والشعر الجاهلى هما أساس الحضارة الإسلامية، ولولا "امرؤ القيس والنابغة والأعشى وزهير وغيرهم من هؤلاء الشعراء الذين نبخسهم أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم" ما كان الخلفاء ولا العلماء.

وعلى نفس الشاكلة لاحظ الدارسون أن الرصافى كان قد قرأ قبيل تأليفه كتابه عن الشخصية المحمدية كتاب الأمير الإيطالى كايتانى: "حوليات الإسلام". وأحسب أنه تعليل صحيح، على أن يضاف إليه انحرافه عن جادة السلوك العفيف النقى ومعرفته دور البغاء وشرب الخمر والشذوذ الجنسى، فقد أظن أنه حين زلت قدمه وسار بل أوغل فى هذا الطريق الملتوى وجد فى كلام كايتانى وغيره من المستشرقين الذين يهاجمون الإسلام والقرآن والنبى محمدا عليه السلام وينفون عنه النبوة وسيلة لإسكات ضميره على أساس أنه لا يوجد إله ولا نبوات ولا وحى ولا جنة ولا نار، ومن ثم فلا حرج عليه أن يصنع ما يشاء دون خوف من الحساب الأخروى وأن يجرى وراء اللذات كما يحلو له بضمير خفيف من الشعور المؤلم بالإثم.

ولقد أتى بعده بعدة عقود أستاذ مصرى هو د. محمود عبد المنعم مراد، الذى كان يعيش فى سويسرا وحصل على الدكتوراه من السوربون الجديدة بباريس بعدما بلغ سن المعاش أواخر القرن الماضى فى السيرة النبوية، وقامت أطروحته، وعنوانها " La Biographie du Prophète d'Ibn Isḥāq\ Ibn Hichām, Période Mekkoise: Analyse Critique"، على أن ابن إسحاق قد اخترع سيرة نبوية ما أنزل الله بها من سلطان مثلما اتهمه الرصافى بأنه أعجمى عمل فى سيرته على النيل من الإسلام انتقاما من العرب لفتحهم بلاد آبائه وأجداده، إذ يزعم الأستاذ المصرى أن ابن إسحاق قد زَيَّفَ السيرة النبوية ليرضى أبا جعفر المنصور، وأبو جعفر كما نعرف عباسى، فقدَّم ابنُ إسحاق الهاشميين فى صورة براقة بينما صور أبا سفيان وبنى أمية فى هيئة قبيحة. ثم لم يكتف الأستاذ المصرى بهذا بل قام هو نفسه باختراع سيرة نبوية لا يمكن أن يسيغها عقل عاقل فى رأسه ذرة من المنطق. فمن ذلك مثلا أنه يفسر سورة "البروج" وما فيها من أخدود ونار متسعرة أُجِّجَت لإحراق المؤمنين لا بأنها تتحدث عن اضطهاد اليهود فى اليمن للنصارى الموحدين بل بأنها تتحدث عن إحراق قريش للمسلمين فى مكة، وأن أبا لهب قد سمى بذلك لا لأنه كان أبيض ناصع البياض بل لأنه هو الذى كان يتولى كِبْرَ قذف المسلمين فى لهب نار الأخدود، وأن المسلمين لم يهاجروا إلى الحبشة بل اتفق كفار مكة على ترحيلهم إلى تلك البلاد ليضعهم أهلها فى معسكر اعتقال على شاطئ البحر الأحمر بما يعنى أنهم لم يكونوا ضيوفا مُكَرَّمين ولم يذهبوا إلى عاصمة البلاد أو يقابلوا النجاشى أو يدخلوا فى حوار معه حول طبيعة المسيح عليه السلام... إلخ.

وأما بالنسبة لمحاباة ابن إسحاق للهاشميين: عباسيين وعلويين فيكفى أن نشير إلى أنه جعل أبا لهب كافرا وأمات أبا طالب على دين قومه وأخَّر إسلام حمزة عدة سنين من بدء الدعوة وصوَّره بعد إسلامه وهجرته بصورة مسيئة حين جعله يشرب الخمر

ويُسْمِع النبىَّ كلاما خشنا متجاوزا. كما أنه أجل إيمان العباس إلى فتح مكة، وروى عنه ما يومئ إلى حبه للمال، وذكر أن عليا أراد أن يتزوج على فاطمة لولا أنْ غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه حين استشاره النبى فى أمر عائشة إبان حادثة الإفك اقترح عليه أن يتخذ زوجة أخرى، فالنساء كثير، ثم لم يأخذ النبى برأيه بما يدل على أن رأيه لم يلق من النبى قبولا، وأنه حين ذهب النبى إليه ذات مرة ليوقظه هو وفاطمة لصلاة الصبح كان جوابه أن نفسيهما بيد الله إن شاء أيقظهما، وإن شاء تركهما نائمين، وهو ما أثار استغراب الرسول وإنكاره.

وعلى الناحية الأخرى نراه يورد فى سيرته زواج النبى عليه السلام بأم حبيبة بنت أبى سفيان، وفى هذا من التشريف لأبى سفيان ما فيه، وأنه صلى الله عليه وسلم قد اتخذ فى المدينة معاوية بين كتابه ومسجلى الوحى الكريم، ودعا له بالخير، وأسند تحطيم بعض الأصنام لأبى سفيان ذاته، وقبيل ذلك أعلن لدن فتح مكة أن من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، وهو ما لم يقله بالنسبة لدار العباس ولا لدار أبى طالب مثلا. وإلى جانب هذا كله لم نره يشير من قريب أو من بعيد إلى أن رسول الله قد ورَّث الحكم لأى من أقربائه عباسيين كانوا أو علويين. وهناك أشياء أخرى يمكن أن يرجع إليها القارئ فى كتابى: "إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية". وأما بالنسبة لكونه أعجميا، وهو الاتهام الذى وجهه إليه أيضا معروف الرصافى، فالسؤال هو: وأين كان كتاب السيرة العرب؟ لماذا يا ترى لم يردوا عليه ويكذبوه؟ ذلك أن السير التى سبقته أو أتت بعده وكتبها عرب لم تختلف عن سيرته اختلافا يذكر.

كذلك فالرصافى قد أكد كثيرا فى شعره ونثره صراحته واستقامته فى القول والفعل وأنه لا يبالى بمواضعات المجتمع بل يقول الحق مهما كانت الظروف والأخطار. وما

دمنا فى سياق حديثه عن حبه للحرية فيما يقول ويعمل نشير إلى أنه لو كان صادق الدعوى لذكر أنه كان يعيش قريبا من أحد المواخير وكان يغشاه ويعاشر البغايا اللاتى يعشن هناك. كما أن عددا من مترجميه وعارفيه ذكروا أنه كان يمارس الشذوذ الجنسى، وكان يشرب الخمر الرخيصة ويُفْرِط فيها. بل إنه هو نفسه قد صرح مرارا بشربه الخمر، كما هو الحال حين فلسف الشرب بأنه يعين على نسيان أثقال الحياة ومتاعبها، وحين عاب على أمين الريحانى إفشاءه ما كان يدور بينهما من كلام حول كتابه: "الشخصية المحمدية" أثناء شربهما العرق، وحين صرَّح لخالص بك قائم مقام الفلوجة بأنه بزياراته الصباحية له يعطله عن العمل، الذى يخصص له وقت الصباح بينما فى الظهر ينام، وفى الليل يشرب الخمر، وحين تتبع تاريخ انتشار الحانات فى العراق... وغير ذلك (د. يوسف عز الدين/ الرصافى يروى سيرة حياته/ دار المدى للثقافة والنشر/ دمشق/ ٢٠٠٨م/ ٩٢، ١١٢- ١٣٠،١١٣، ١٣١، ١٦٦- ١٦٨).

كما صرح بممارسته الفحشاء مع المومسات (ص١٣٢- ١٣٣). وهناك كذلك طلبه من بعض معارفه أن يمدوه بالمال كى يستطيع أن يواصل العيش. وهنا ينبغى التنبه إلى أن حاجته إلى الفلوس لم تكن راجعة إلى فقر مفروض عليه وعجز عن تدبير المال، بل إلى أنه كان شديد الإسراف كلما وقع فى يده مال مهما كان كثيرا، ولم يكن يحسب حسابا للزمن ولا لمعرة مَدّ يده للآخرين. وقد كتب عن شذوذه الجنسى ومعاشرته للبغايا وعدم مبالاته بالآداب العامة عدد ممن ترجموا له منهم مثلا أحمد حسن الزيات، الذى سجل فى مقال له عنه فى صدر مجلة "الرسالة" (الاثنين ٢٦ مارس ١٩٤٥م)كلاما عن حارة البغاء التى كان يسكنها وعن إفراطه فى شرب الخمر ولعب الورق وممارسة الخطيئة مع المومسات. ومنهم د. يوسف عز الدين فى مقال له بمجلة

"العربى" الكويتية عنوانه "الرصافى بين الطموح والشذوذ وثورة النفس العارمة" (عدد الأول من يناير ١٩٦٨م)، وفى كتابه: "الرصافى يروى سيرة حياته" (ص٢٤). وفى كتاب "سلسلة الأعمال المجهولة- معروف الرصافى" لنجدة فتحى صفوة كلام عن حياته الشخصية وأنه كان يحب الغلمان ويعاشر المومسات (رياض الريس للكتب والنشر/ لندن/ ١٩٨٨م/ ٣٥- ٣٦ متنا وهامشا).

وفى كتاب "الرصافى يروى سيرة حياته" (ص١٣٩) يذكر ناسخ كلام الشاعر أنه كان مريضا بالزهرى، وإن كان قد عولج منه وشفى عام ١٩٣٩م. وفى هذا الكتاب أيضا يحكى لنا مسجل ذكريات الرصافى مقابلة له مع إحدى المومسات وما دار من حديث بينه وبينها حول ممارسة الجنس وقوله لها إنه يفضل إتيان الغلمان، وإشارته خلال ذلك إلى ما يقوله الكتاب المقدس عن نكاح لوط لابنتيه إشارة المصدق بهذا الاتهام (ص١٤٩). وفى الكتاب كذلك حديث له عن بيته المفتوح لكل من يجلب مومسا أو غلاما لممارسة الجنس معهما بكل حرية. قال ذلك على سبيل التباهى بهذا البيت مسميا إياه: "بيت الحرية" (ص١٥٨). وفى نفس الكتاب بيتان نظمهما فى التغزل بغلام راقص كان حديث بغداد، وتعشُّق أحد وجوهها له وقتله إياه بالرصاص أثناء رقصه، وإن أبدى د. يوسف عز الدين شكه فى أن يكون البيتان فى نعيم هذا بل أغلب الظن لديه أنهما فى نعيم آخر (ص١٦٨- ١٦٩، ١٨٥/ هـ٢).

ليس ذلك فقط بل إنه كان قد دار بينه وبين أمين الريحانى خلال زيارة الأخير للعراق حوار تطرق فيما تطرق إلى كتابه عن الرسول عليه السلام، الذى نحن بصدده فى الكتاب الحالى، لكنه حين بلغه أن الريحانى أورد فى كتابه المذكور بعض تفاصيل هذا الحوار أنكر أن يكون قد دار بينهما شىء فى تلك الموضوعات، وزاد فاتهمه بالكذب

والاختلاق. ثم لما تحداه الريحانى بأنه على استعداد لعرض ما كان قد كتبه هو فى هذه القضية بخط يده خنس ولم يجب، وابتلع التحدى وصمت.

وقد تناول عبد الحميد الرشودى هذا الموضوع فى كتابه: "الرسائل المتبادلة بين الرصافى ومعاصريه" فأورد رسالة للرصافى كان قد بعث بها إلى عبد الغفور البدرى صاحب صحيفة "الاستقلال" البغدادية جاء فيها أن بعض معارفه أطلعوه على ما ذكره الريحانى عنه فى كتابه: "قلب العراق"، وأنه ينفى نفيا باتا صحة كثير مما هو مسند إليه فى الكتاب المذكور، بل إنه لم يكن ليقبل أن يقول الكلام المنسوب إليه شخص غيره، فكيف يمكن أن يكون قد صدر عنه هو نفسه؟ ثم زاد فقال: "إن كان ما يرويه الريحانى فى كتبه من هذا القبيل فويل للحقيقة منه، وويل له من الحقيقة" (الرسائل المتبادلة بين الرصافى ومعاصريه/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت/ ١٩٩٤م/ ٧٩)، فكان أن بعث له الريحانى برسالة فى ١٠ أغسطس ١٩٣٥م جاء فيها: "أطلعنى أحد الأصدقاء على جريدة بغدادية فيها "تكذيب" منك لما جاء فى كتابى: "قلب العراق"، وليس فى تلك الصفحات غير ما هو مشرف لك. ثم علمت أن بك حنينا إلى البرلمان وأنك نزلت إلى "ميدان" الانتخابات، ففهمت معنى ذلك التكذيب، وقلت: عساه أن ينفع صاحبنا. وبعد ذلك يا "معوّد" قرأت خبر فوزك، فسرنى أن أكون قد خدمتك فنفعتك فى الحالين" (المرجع السابق/ ١٥٥). ولم يرد الرصافى على هذا الخطاب المفحم.

ومن هذين الخطابين يتبين لنا أن الرصافى ليس بذلك الشخص الذى لا يعرف أن يقول إلا الحقيقة ولا شىء غير الحقيقة وأنه حر لا يخشى أحدا فى أقواله أو أفعاله حسبما يصور نفسه لنا. وإذا كان هو قد جعل أمر الرسول كله يقوم على الكذب، وهو

أعظم عظماء العالم فى رأيه، فما الذى من حقنا أن نصف الرصافى به، وهو ليس أعظم عظماء العالم ولا فيه من العظمة شىء البتة؟

بل إنه فى كتاب "الرصافى يروى سيرة حياته"، الذى حققه د. يوسف عز الدين، يذكر كيف شرب الخمر لأول مرة (يوسف عز الدين/ الرصافى يروى سيرة حياته/ دار المدى للثقافة والنشر/ دمشق/ ٢٠٠٨م/ ٢٣١)، وأن الريحانى، حين كان بالعراق، كان يزوره كل ليلة فى بيته ويشرب معه العرق، وكانت تدور بينهما محادثات فى هذه اللقاءات، فما كان من الأديب اللبنانى إلا أن نشر كل ما دار بينهما من حوارات أثناء الشرب عن كتابه حول "الشخصية المحمدية" قبل طباعته، مما سبب هياجا شديدا فى العراق ضده اضطره إلى الاعتكاف بالبيت وإلى تكذيب كل ما قاله الريحانى عن هذا الموضوع لينجو من غضب الناس، وهو ما أشرنا إليه آنفا. ثم زاد فذكر عقب ذلك مباشرة أن الريحانى، حين زار نجدا، قد مارس اللواط مع غلام أحضروه له كى يتخلص من حرقات الشبق الذى اعتراه هناك وأن الريحانى أقر أمامه بذلك (المرجع السابق/ ١١٢). وبالمناسبة فقد كان الرصافى يرى أن نسبة الزناة فى المجتمع ٩٩٪ وأن اللواط منتشر جدا حتى لكثيرا ما يقع من المتزوجين (ص٣٩٥- ٣٩٦).

على أن الرصافى لا يكتفى بالحكم على التاريخ كله بأنه كذب فى كذب، بل يمضى فيزعم أن النبى محمدا عليه الصلاة والسلام كاذب فى دعواه الوحى. ومعروف أن أعداء الإسلام، منذ بداية الدعوة حتى الآن، يفسرون الوحى الذى كان ينزل على محمد عليه السلام بواحد أو أكثر من ثلاثة تفسيرات: الأول هو أنه صلى الله عليه وسلم كان كذابا يعرف أنه لا وحى ولا يحزنون، لكنه اخترع حكاية الوحى النازل من السماء اختراعا كى يَرُوج عند قومه فيتصوروا أنه نبى من لدن الله سبحانه. والثانى أنه كان

يظن أنه يُوحَى إليه من رب العالمين، لكنه لم يكن هناك وحى ولا غيره، بل كان صلى الله عليه وسلم يتوهم مخدوعا أن الله قد اختاره وأوحى إليه القرآن وكلفه تبليغه للناس. وهذا الوهم نابع من أعماق نفسه، لكنه كان يتصور خطأ أنه آت من خارج تلك النفس وأنه ليس سوى مبلغ لما كلفه الله إيصاله للعباد. والتفسير الثالث هو أنه كان مريضا بمرض عصبى كالهلوسة والهستريا والصَّرْع. وقد اختار معروف الرصافى فى كتابه الذى فى أيدينا السببين الأول والثالث، وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان يكذب وكان مصابا بالصرع، وإن ظن أنه يمكنه تخفيف وقع هذه التهمة علينا نحن المسلمين بالقول بأنه عليه السلام إنما كان يكذب من أجل المصلحة العامة لا من أجل نفع شخصى (ص٤٣ وما بعدها)، وأنه كان أعظم عظماء العالم، وإن استدار سريعا فقلل من شأن تلك العظمة قائلا إن تفوقه فى العقل والذكاء ليس تفوقا مطلقا بل بالنسبة إلى عرب عصره ليس إلا، أما الحزم والعزم فلا يفوقه فيه أحد. كما أنه كان يعانى من المعايب، إلا أنها معايب يسوِّغها كونها فى سبيل المصلحة العامة (ص١٦ فصاعدا).

لقد تلاعب الرصافى، فى بهلوانية غريبة، بمعنى "الصدق والكذب" فسمى الكذب الذى من هذا النوع: "صدقا"، وسمى الصدق الذى يؤدى إلى مضرة: "كذبا"، قالبا الأمور بذلك رأسا على عقب. ولو أنه قال إن هناك حالات يصح فيها الكذب لكنه يظل كذبا مع ذلك لما اختلفنا معه. وقد بين الرسول تلك الحالات، وهى الإصلاح بين المتخاصمين، ومجاملة الزوجة، والوقوع فى يد الأعداء. وقد طبق بعض الصحابة هذا فى خداع أعدائهم، إذ تظاهر أحدهم بأنه ضد الإسلام وعرف خبيئة أمرهم ونقلها للنبى عليه السلام، ودق الآخر إسفينا بين الحلفاء المعادين للرسول ودينه ودولته وفرق جمعهم، وأشار الرصافى نفسه إلى الواقعتين فى كتابه (ص٤٥– ٤٧). أما

أن يأتينا بتعريف جديد وشاذ للصدق على النحو الذى نجده فى مطلع كتابه عن "الشخصية المحمدية" فكلا ثم كلا ثم كلا. وهو ما كرره الرصافى فى كتابه الذى فى أيدينا منذ بدايته إلى نهايته. فعلى سبيل التمثيل يرى كاتبنا فى قوله تعالى للرسول عليه السلام مثلا: "وإذ يمكر بك الذين كفروا لِيُثْبِتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين" خطابا ذاتيا من محمد إلى محمد نفسه لا من الله إليه كما نفهم نحن ضعفاء العقول مغلقى الأذهان (الرصافى/ رسائل التعليقات/ مطبعة المعارف/ بغداد/ ١٩٤٤م/ ١٤٧).

ثم إن الأمر لا يقف عند هذه النقطة بل يتعداها إلى زعم الرصافى أنه ليس هناك إله على ما نفهم الألوهية، إذ كان محمد يعلن إيمانه بوحدة الوجود. فهل هذا هو تفسير "السر المقدس" فى حياة محمد وشخصيته؟ هل السر المقدس هو أنه عليه السلام كان رجل سياسة، وكان يكذب طوال الوقت لمدة ثلاثة وعشرين عاما لم يختلج له ضمير ولو مرة زاعما أنه نبى رسول، وظلت الملايين المُمَلْيَنة تصدق كذبه هذا حتى أتانا الرصافى فأزاح الستار عن صنم هذا الكذب المزعوم ثم انهال عليه بمعوله يريد تحطيمه؟ لقد مضى الرصافى واندثر ما قاله فى أطباق الظلام، وبقى اسم محمد متلألئا كالشمس.

وقول الرصافى بأن الرسول كان يكذب من أجل المصلحة العامة، وهى هنا مصلحة سياسية، إذ كان يريد أن يوحد قومه تحت راية واحدة، فلم يجد أمامه إلا المناداة بالتخلى عن عبادة الآلهة المتعددة لحساب الإيمان بإله واحد، وإلا الادعاء الكاذب بأن الله قد اصطفاه نبيا رسولا وبعثه يدعو الناس إلى الإيمان بالوحدانية، قول الرصافى هذا معناه أن أعظم إنجازات محمد عليه السلام تقوم على الكذب. فهو لم يكن نبيا، لكنه

كذب وادعى أنه نبى لأن المصلحة العامة كانت تقتضى ذلك. ومعنى هذا أنه كان يكذب دائما منذ أعلن نفسه نبيا: يكذب كلما تلا على الناس شيئا مما يسميه: قرآنا، ويكذب كلما طلع عليهم بحديث من أحاديثه بوصفه نبيا رسولا، وما هو بنبى ولا رسول بل يزعم ذلك زعما، ويرفده بكلام يقول إنه يتلقاه من عند الله وحيا فى حين أنه لا وحى ولا يحزنون.

وكذّابٌ بهذا الشكل يقتضى أن يكون فى طبعه منذ البداية هذا الكذب وأنه يسارع إلى الاستعانة به فى كل أمر من أموره. ومع هذا فإننا ننظر فنجد أنه عليه السلام كان يوصف قبل الوحى بـ"الصادق الأمين"، ولم يُؤْثَر عنه كذبة واحدة. والرصافى نفسه يؤكد هذا تأكيدا ويجعله أحد الأسباب التى دعت خديجة إلى حبه والرغبة الشديدة فى الاقتران به (ص٣٥٣). ومعروفة قصة اعتلائه شرفا قريبا من مكة ومناداته قومه للتجمع هناك ثم سؤاله لهم: أرأيتم لو أنى أخبرتكم بأن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيّ؟ فكان جوابهم بالإيجاب لأنهم لم يجربوا عليه كذبا قط، لكنه ما إن صارحهم بأنه نذير لهم بين يَدَيْ عذاب شديد حتى نُكِسوا على رؤوسهم من فورهم وكذَّبوه ناسين أنهم قد شهدوا له بالصدق التام قبل لحظات. ومع انقلابهم هذا لم يستطع أحد من ألد أعدائه أن يورد حادثة واحدة فيما مضى قبل الدعوة أو فيما جَدَّ بعد الدعوة تبيِّن أنه كذب على أحد. أما إن كان للرصافى رأى آخر لقد كان حريا أن يريناه. فمثله لو وجد مثل تلك الحادثة لما سكت بل عض عليها بنواجذه وهلل وكبر.

إن الرصافى بهذا التفسير القمىء يصور النبى عليه السلام على أنه أستاذ لمكيافلى. نعم أستاذ لمكيافلى، وليس مجرد تابع من أتباعه، إذ قد سبق مكيافلى بقرون، فوجب أن يكون هو الأستاذ لا التلميذ، وبخاصة أنه نجح بالكذب نجاحا لم ينجحه مكيافلى ولا

غير مكيافلى. ذلك أن نجاح أمثال مكيافلى نجاح محصور داخل حدود قومهم وزمانهم على نحو أو على آخر ولفترة قصيرة، أما نجاح محمد فنجاح عالمى ومتصل رغم كثرة الأعداء وتتالى المؤامرات واحتشاد المحاربين يريدون القضاء على الدين الذى جاء به. وقد دعا مكيافلى الحاكمَ لاستخدام كل الوسائل الضرورية من أجل الحفاظ على الدولة، وتشمل هذه الوسائل استخدام القسوة والخداع والقوة إذا فشلت الوسائل الأخرى كما تقول مادة "مكيافلى" فى "الموسوعة العربية العالمية"، كما أن مكيافلى لم يكتب ذلك فى كتابه: "الأمير" إلا بعدما هدته التجارب إلى ذلك حسبما تقول المادة المذكورة أيضا. أما محمد فلم يمر بمثل تلك التجارب ولا انتظر حتى تفشل وسائله المستقيمة فى تمرير مشروعه وتحقيقه بل بدأ منذ اللحظة الأولى يعتمد الكذب والمخادعة سبيلا للوصول إلى أغراضه. وبالمثل فإن مكيافلى قد فضح نفسه حين سجل منهجه هذا فى كتابه: "الأمير" بخلاف محمد، الذى كتم منهجه فى طيات قلبه ولم يعلنه قط. وهذا سبب آخر يُوزِعنى إلى القول بأن الرصافى جعل محمدا أستاذا لمكيافلى لا تلميذا من تلاميذه. ويضاف إلى هذا أن محمدا كان رجلا أميا من أمة بدوية متخلفة ليس لها فى مضمار الحضارة ثور ولا طحين، بينما كان مكيافلى مفكرا وكاتبا وسياسيا مُضَرَّسا، وينتمى إلى أمة من أمم الحضارة. وهذا سبب ثالث يجعلنى أنادى بأستاذية محمد لمكيافلى إن كان لنا أن نصدق الرصافى، وما نحن بمصدقيه ولو انطبقت السماء على الأرض. وإنى لأستغرب كثيرا كيف لم يقل الرصافى بأن مكيافلى قد اطلع على السيرة النبوية وقرأ القرآن وأحاديث محمد فاتخذه إماما فى الكذب والمخادعة والقسوة وعدم المبالاة بصدق أو رحمة فى سبيل بلوغ غاياته! لقد فاتت هذه حقا معروف الرصافى، وليس له حق أو عذر فى ذلك، إذ هذا شىء لزوم الشىء. إن كلام الرصافى يستلزم أن

يكون الكذب ينبجس من مسامّ محمد انبجاسا لا يتوقف أبدا. فهل يقول هذا من فى عقله ذرة من الاستقامة؟

كما أن الرصافى بهذه الطريقة قد جعله أيضا أستاذا للبراجماتيين الأمريكان الذين لم تكن تهمهم الأفكار فى ذاتها بل مدى ما يمكن أن تجره من نفع. ولهذا لا نراهم يؤمنون بالأفكار المطلقة أو المجردة بل بالأفكار التى يترتب عليها فائدة ما، ومتى توقفت تلك الفائدة توقفت صحة تلك الأفكار. ويمكن القارئ الرجوع فى ذلك مثلا إلى كتاب "أسس الفلسفة" للدكتور توفيق الطويل (مكتبة النهضة المصرية/ ١٩٥٨م/ ٤٨ وما بعدها، وكتاب "نظرية المعرفة" للدكتور زكى نجيب محمود/ الفصل الثانى من الباب الأول، وعنوانه "طبيعة المعرفة عند البراجماتيين"، ومادة "Pragmatisme" فى "Encyclopædia Universalis"، ونفس المادة فى ط٢٠٠٨م من موسوعة "Encarta" الفرنسية). لكن محمدا كان مهتما بالمبادئ والقيم العليا، وإلا لكان ساير قومه فى إيمانهم بالأوثان ورافأهم على شربهم للخمر والزنا والربا والعنجهية العربية ولَمَا عَنَّى نفسَه بإصلاحهم عقيديا وخلقيا وسلوكيا طوال حياته حتى يكسبهم لصفه بدلا من اللفة الطويلة التى كان عليه أن يقوم بها متحملا أثناءها المتاعب وألوان الإزعاج والمعاناة الشديدة.

لكن للأسف أثبتت التجربة منذ بدايتها الأولى أن نهج محمد فى الاعتماد على الخداع والكذب حسب سماديرالرصافى نهج فاشل، إذ ألب عليه هذا النهجُ الدنيا كلَّها وظل لمدة ثلاث عشرة سنة كأنه ينطح الصخر، فلم يؤمن به إلا القليل، وكان يتعرض هو وأتباعه على الدوام للإهانات وألوان الإيذاء المختلفة والشتائم والحصار الاقتصادى والاجتماعى والسخرية المؤلمة والقذف بالحجارة والمؤامرات والمطاردة

عبر الصحراء وشن الحروب وتأليب الآخرين عليه. بل لقد قُتِل بعض أتباعه، ولولا الهجرة فى الوقت المناسب فلربما كان عليه السلام قد قتل هو أيضا. ثم لما هاجر إلى المدينة لم تتوقف المعاناة ولا المشاكل التى كان يجابهها، لأنه إذا كان قد خَلَّف المشركين وراء ظهره فإنهم لم يتركوه فى حاله بل ظلوا يحاربونه. كما كان هناك المنافقون واليهود، وهم لا يقلون عن قريش بغضا وإثارة للمتاعب والقلاقل وحبكا للمؤامرات، فضلا عن تهييجهم للمشركين ذاتهم ضده وضد دينه. ثم هناك الروم، الذى ظهروا على مسرح العداوة فى أواخر العهد المدنى، واشتبك المسلمون معهم فى معركة أليمة فُرِضَتْ عليهم وسقط فيها عدد من قوادهم شهداء، إلى جانب من اسْتُشْهِد من الجنود. أى أن واقع حياة محمد يناقض ما يقوله الرصافى مناقضة بلقاء. ومعنى هذا أن كل ما قاله هو كلام متهافت لا يثبت على محك العقل ولا التجربة ولا وقائع الحياة.

لقد لقى النبى الأمرين على أيدى المشركين فى مكة بما فيهم بعض أقاربه، وعانى العناء الممض على أيدى اليهود والمنافقين فى مهاجَره، وتحمل الأثقال الشداد على أيدى البدو الأجلاف المحيطين بالمدينة. وهذا إنما يدل على أن تفسير الرصافى للنبوة التى أعلنها محمد بأنها مجرد كذب رأى محمد أن يلجأ إليه لتحقيق غاياته هو تفسير خاطئ "من ساسه لراسه"، أو كما يقول التعبير الفصيح: "من رأسه إلى أَخْمَص قدميه". بل هناك ما هو أكثر من ذلك، إذ كانت آيات القرآن تنزل بين الحين والحين تحذره صلى الله عليه وسلم الركون بأى حال وبأى قدر إلى ما يعتقده المشركون.

أى أن أسلوبه فى معالجة علاقته بقومه لم يناقض فقط ما ادعاه الرصافى بل كان حريصا على تنبيه نفسه إلى المغبة البائسة للتفكير مجرد التفكير فى التفاهم مع قومه بدلا من مصادمتهم. وبطبيعة الحال فإنه لم يكن هو الذى ينبه نفسه ويحذرها بل الله سبحانه،

لكنى أحاول هنا أن أجارى الرصافى فى تفكيره حتى يرى العالم أجمع معى أن ما قاله فى هذا الصدد هو سخف فى سخف، وفشل وانخذال تام. لقد لجأ الرجل إلى رمى النبى بكبيرة من الكبائر دون أن يتلجلج أو يخجل أو يستشير العقل والمنطق السليم، وإلا لنبهاه إلى جريمته الشنعاء. أمثل محمد يتهم بالكذب على هذا النحو السخيف؟ إذن فليس هناك إنسان صادق فى تاريخ البشرية لا قديما ولا حديثا ولا فى مقبل الأيام.

إن محمدا لو كان رجلا سياسيا لاقتفى نهج السياسيين، وخطط وناور ولبس لكل حال لبوسها، وجعل همه كله اكتساب الأتباع بكل سبيل وتجييش الجماهير والضحك على ذقونها والأكل بعقولها حلاوة كما يقول التعبير الشعبى لا دعوتها إلى القيم الإنسانية السامقة مع الحرص دائما أبدا على أن يكون فى أول الصفوف التصاقا بما ينادى به. وليس فى تاريخ البشرية رجل أراد حكم أمته أيا كانت أهدافه من وراء هذا الحكم يظل يعرّض نفسه دون داع لألوان الأذى فى كل مكان يحل به من غير أن يفكر فى تغيير خطته بل يبقى على الدوام عرضة للإهانات ممن يساوى ومن لا يساوى لا سنة واحدة ولا اثنتين ولا ثلاثا بل ثلاث عشرة سنة فى أم القرى علاوة على السنوات العشر المدنية، وإن كانت المتاعب قد اتخذت فيها شكلا مخالفا للذى كانت عليه فى مكة.

ولو افترضنا أنه كذب فى دعواه النبوة فلم يا ترى وضع نفسه فى مأزق التنبؤات المستقبلية، وكان ينبغى لو كان يكذب فى أمر الاتصال بالسماء أن يغلق هذا الباب بالضبة والمفتاح حتى لا يفتح على نفسه فاتوحة، إذ الكذاب حين يتنبأ فإنه يحفر قبره بظلفه، لأنه لا أحد من البشر يعلم الغيب إلا الأنبياء بإخبار الله لهم بها، والكذاب ليس نبيا؟ فكيف واتته نفسه للإقدام على هذه المزلّة التى تُزْلِق كل من اقترب منها وتَكُبّه على وجهه؟

نعم كيف تنبأ بأن الروم، الذين كانوا قد انهزموا لتوهم على يد الفرس، سوف يستعيدون الانتصار عليهم فى بضع سنين؟ لقد انبرى سافارى المستشرق الفرنسى الذى ترجم القرآن إلى لغته القومية فى بداية الخمس الأخير من القرن الثامن عشر زاعما، فى تعليقه بالهامش على آية سورة "الروم" الخاصة بتلك الحادثة، أنه كان من السهل على من يعرف حالة الإمبراطوريتين أن يتنبأ بذلك. ولكن هل كان محمد يعرف من أخبار الإمبراطوريتين أكثر مما يعرفه أبو سفيان وأمثاله من دهاة قريش وتجارها الذين يجوبون البلاد ويعرفون عن تينك الدولتين الكثير جدا والذين راهنوا على استمرار تفوق الفرس على الروم فخسروا الرهان؟

إننا كثيرا ما نفشل فى التنبؤ بنتيجة كثير من المباريات الرياضية، وهى فى عالم التوقع أسهل وأبسط وأيسر مليون مرة من توقع نتيجة حرب كهذه. ولماذا نذهب بعيدا، ونحن فى عام ١٩٦٧م كانت آمالنا فى عنان السماء ونوقن أنا سوف نهدم إسرائيل هدما؟ بل لقد تحطمت طائراتنا على الأرض جميعهن بينما كنا نهتف ابتهاجا بالأرقام الكاذبة التى تذيعها علينا وسائل إعلامنا ظانين أنها بضع ساعات وندخل تل أبيب فى حين كان طائرات إسرائيل ودباباتها تقتل جنودنا عبر صحارى سيناء وتدفنهم فى رمالها بعشرات الآلاف. كذلك فنحن حتى الآن لا نزال مختلفين حول النتائج الحقيقية لحرب رمضان: فاليهود يقولون كلاما، ونقول نحن كلاما. وفيما بيننا نحن المصريين والعرب نجد من يؤكد أن هذه الحرب قد انتهت بانتصار لنا مؤزَّر، ومن يقول بأنها كانت كالحروب التى سبقتها فشلا لنا وإذلالا. كل هذا وقد شاهدنا جميعا الحرب على المرناء وسمعنا وقائعها أولا بأول فى المذياع وقرأنا أخبارها فى الصحف. فهل يا ترى يمكن محمدا أن يغامر بمصير دينه من خلال نبوءة كهذه؟ لا شك أن ما قاله سافارى فى

التقليل من قيمة هذه النبوءة التى لو لم تتحقق لانتهى أمر محمد هو كلام متهافت سخيف.

وهناك نبوءة الرسول لسراقة بن مالك، الذى خرج وراءه هو وأبى بكر ليقبض عليهما ويعيدهما إلى مكة ويحصل على المكافأة التى رصدها القرشيون لمن يفعل ذلك، لكن انتهى الأمر بحصوله على وعد من النبى بأن الإسلام سوف ينتصر رغم كل شىء وسوف يفتح بلاد كسرى ويرث المسلمون أمواله وتاجه وذهبه وسِوَارَيْه، وهو ما وقع كما أنبأ الرسول بالحرف، وأورد ذلك كله الكاتب بالتفصيل مسلِّما بما حدث لم يحاول الزوغان عنه أو تكذيبه ولو همسا (الشخصية المحمدية/ ٢٥٨- ٢٦٣). وهناك كذلك نبوءة الرسول عشية وقعة الحديبية بتمكن المسلمين من دخول مكة يؤدون شعائر العمرة، وهو ما لم يحدث فى ذلك الحين، مما نتج عنه لأول مرة تذمر وقلق بين صفوف الصحابة. ومع هذا نزل القرآن ينبئهم بأنهم لا محالة داخلون مكة فمؤدو العمرة طبقا لما قال لهم الرسول، الذى سألهم سؤالا واحدا: هل قلت لكم إنكم ستدخلون مكة وتؤدون العمرة هذا العام؟ ولقد تحقق الأمر فعلا بحذافيره فى العام التالى حسبما تنبأ الرسول وأكد القرآن.

وبالمثل كيف ظل الرسول منذ الساعات الأولى من عمر الدعوة يؤكد ويكرر التأكيد أن دينه منتصر لا محالة وأنه سوف يطوى الأرض طيا ويبلغ منها ما بلغ الليل والنهار وأن أعداء دينه سوف ينتهون إلى الفشل الذريع العميم رغم كل ما كانوا يمتلكونه من إمكانات ونقاط قوة مالية وحربية وبشرية كثيرة، وهو ما صدق بحذافيره؟ وكيف تنبأ بأن ملك كسرى سوف يزول وأن ثرواته سوف تقع فى أيدى المسلمين، ثم يتحقق ذلك على نحو ساطع عجيب؟ وكيف تنبأ بأنهم سوف يفتحون

القسطنطينية، فأتت الأيام بحصول ذلك كما تنبأ بالضبط؟ ويهمنا هنا أن نشير إلى أن الحديث المتعلق بفتح القسطنطينية يسبق هذا الفتح بقرون، فلا يصح بالتالى أن يقال إن المسلمين قد اخترعوه بعد فتحها ليخلعوا على رسولهم مكرمة لا يستأهلها. وهذه مجرد أمثلة قلائل.

بل إن الرصافى نفسه قد أورد نبوءة الرسول عليه السلام بانتشار الأمن والأمان فى ربوع بلاد العرب حتى لتسافر الظعينة عبر البوادى لا تخشى أحدا سوى الله والذئب، كما أورد مرارا نبوءته بأن ممتلكات كسرى سوف تكون من نصيب المسلمين وسوف تفتح لهم البلاد مما أثار تهكمات المنافقين، ثم تم الأمر كما تنبأ بمنتهى الدقة. وهنا يحيص الرصافى، وبدلا من أن يقف عند صدق نبوءات محمد عليه السلام ومدلولها من أنه إنما يتحدث بناء على ما أنبأه الله وسمح له بالحديث عنه نراه يتحدث عن قوة إيمان محمد بحصول غايته (ص٢٧ وما قبلها) هروبا من الإقرار بصدق نبوته عليه السلام وأنه رسول من رب العالمين، وإلا فالسؤال هو: وهل قوة إيمان محمد بحصول غايته يحولها من مجرد أمنية إلى واقع أكيد؟ ألا ما أبعد الشقة بين ما نتمناه لأنفسنا أو لغيرنا وبين ما يتحقق فعلا من هذه الأمانىّ! ولو كان الرصافى منصفا ويبحث عن الحق لآمن بمحمد نبيا ورسولا من لدن إله الكون سبحانه لا مجرد رجل طامح لتأدية دور سياسى لقومه وللعالم.

وهذه بعض النبوءات التى ذكرها الرصافى وتحققت كما قال سيد المرسلين، وكان يجب أن يخضع عنقه لها ولمغزاها كما قلت، لكنه كان قد تصلبت رقبته وانحرف عن الدين انحرافا شنيعا فأدمن الخمر والميسر وعاشر المومسات والغلمان وتهتك، وبالتالى كان بحاجة إلى أن يسوّغ تلك الانحرافات التى كان قبل ذلك يراها كوارث أخلاقية لا

يقبلها ضميره. قال عليه السلام لقومه فى مجلس عمه أبى طالب: "هل لكم فى كلمةٍ تَدِينُ لكم بها العرَبُ، وتؤدِّى العجَمُ إليكم بها الجِزْيةَ؟ قالوا: ما هى؟ قال: لا إلهَ إلا اللهُ".

و"عن البراء بن عازب: لما كان حين أمرَنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بحَفْرِ الخَنْدَقِ عَرَضَتْ لنا فى بعضِ الخَنْدَقِ صخرةٌ لا تأخذُ فيها المَعاوِلُ، فاشتَكَيْنا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فجاء فأخذ المِعْوَلَ فقال: بسمِ اللهِ. فضرب ضربةً فكسر ثُلُثَها، وقال: اللهُ أكبرُ! أُعْطِيتُ مَفاتيحَ الشامِ. واللهِ إنى لَأُبْصِرُ قصورَها الحُمْرَ الساعةَ. ثم ضرب الثانيةَ فقطع الثُّلُثَ الآخَرَ فقال: اللهُ أكبرُ! أُعْطِيتُ مفاتيحَ فارسٍ. واللهِ إنى لَأُبْصِرُ قصرَ المدائنِ أبيضَ. ثم ضرب الثالثةَ وقال: بسْمِ اللهِ. فقطع بَقِيَّةَ الحَجَرِ فقال: اللهُ أكبرُ! أُعْطِيتُ مَفاتيحَ اليَمَنِ. واللهِ إنى لَأُبْصِرُ أبوابَ صنعاءَ من مكانى هذا الساعةَ".

و"عن عدى بن حاتم الطائى: لمّا بَلَغَنى خروجُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فكَرِهتُ خروجَه كَراهةً شَديدةً، خَرَجْتُ حتى وَقَعْتُ ناحيةَ الرُّومِ... حتى قَدِمتُ على قَيصَرَ، قال: فكَرِهتُ مكانى ذلك أشدَّ مِن كَراهيَتى لخروجِه. قال: فقُلْتُ: واللهِ لولا أتَيتُ هذا الرَّجُلَ. فإنْ كان كاذبًا لم يَضُرَّنى، وإنْ كان صادقًا عَلِمتُ. قال: فقَدِمتُ فأتَيتُه، فلمّا قَدِمتُ قال النّاسُ: عَدِى بنُ حاتمٍ! عَدِىّ بنُ حاتمٍ! قال: فدَخَلتُ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فقال لى: يا عَدِىّ بنَ حاتمٍ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ (ثلاثًا). قال: قُلتُ: إنِّى على دِينٍ. قال: أنا أعلمُ بدِينِكِ منك. فقُلتُ: أنت أعلمُ بدِينى منِّى؟ قال: نعمْ، ألستَ مِن الرَّكُوسيَّةِ، وأنت تَأكُلُ مِرْباعَ قَومِكَ؟ قُلتُ: بلى. قال: فإنَّ هذا لا يَحِلُّ لك فى دِينِكَ. قال: فلمْ يَعْدُ أنْ قالها، فتَواضَعتُ لها. فقال: أما إنِّى أعلَمُ ما الذى يَمنَعُكَ

مِن الإسلام. تقولُ: إنَّما اتَّبَعَه ضَعَفةُ النّاسِ ومَنْ لا قوَّةَ له، وقد رَمَتْهم العَرَبُ. أتَعرِفُ الحِيرةَ؟ قُلتُ: لم أرَها، وقد سَمِعتُ بها. قال: فوالذى نفْسى بيَدِه ليُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمْرَ حتى تَخرُجَ الظَّعينةُ مِن الحيرةِ حتى تَطُوفَ بالبَيْتِ فى غيرِ جِوارِ أحَدٍ، وليُفْتَحَنَّ كُنوز كِسرى بنِ هُرمُزَ. قال: قُلتُ: كِسرى بنُ هُرمُزَ؟ قال: نعمْ، كِسرى بنُ هُرمُزَ. وليُبْذَلَنَّ المالُ حتى لا يَقبَلَه أحَدٌ. قال عَدى بنُ حاتمٍ: فهذه الظَّعينةُ تَخرُجُ مِن الحيرةِ فتَطوفُ بالبَيتِ فى غيرِ جِوارٍ. ولقد كنتُ فيمَن فَتَحَ كُنوزَ كِسرى بنِ هُرمُزَ. والذى نفْسى بيَدِه لتَكونَنَّ الثّالثةُ لأنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قد قالها!".

وهناك نبوءة أعجب من كل تلك التنبؤات وأغرب وتختلف عنها جميعا، ألا وهى قوله، ودينه فى عز انتصاراته ومجده، والمستقبل مشرق أمامه، إن المسلمين سوف يأتى عليهم يوم يكونون فيه غثاء لا قيمة له على الإطلاق رغم كثرة عددهم، وهو ما نعيشه نحن المسلمين منذ قرون عاجزين عن الخروج من هذا السرداب الخانق المظلم الذى نحن فيه. إن الكذاب لا يشغل نفسه بإطلاق مثل ذلك الإنذار. ذلك أن الكذاب لا تهمه سوى اللحظة الحاضرة، أما إن كان لا بد من التطرق إلى المستقبل فليكن الكلام عزفا للنغمة التى تحب الجماهير أن تسمعها، وهى نغمة الانتصارات المتواصلة التى لا تعرف انتهاء، دون أن يعير انفضاح أمره فى المستقبل أدنى اهتمام. وإلا فهل يضر الشاة سلخها بعد ذبحها كما قالت أسماء بنت أبى بكر لابنها عبد الله بن الزبير؟ لكن محمدا فعلها، وجاء الأمر كما قال فعلا وحقا وصدقا، ولا يفعلها إلا نبى مرسل من لدن رب العالمين.

وثم نبوءة أخرى تماثل النبوءة السابقة بل تتفوق عليها، ألا وهى تنبؤه صلى الله عليه وسلم بأن المسلمين سوف يحاربون اليهود فى آخر الزمان. وهو ما يثير العجب

الشديد، إذ أين كان المسلمون وقتذاك من اليهود، وقد أخرجوهم من المدينة وانتصروا عليهم انتصارات باهرة وقطعوا دابر آخر فلولهم، وهم بنو قريظة الخونة الذين قلم الله رقابهم جزاء خيانتهم الفاجرة المنحطة؟ ترى من فى ذلك الوقت يمكن أن يخطر له ولو فى الأحلام المستحيلة أن الأيام ستعيد اليهود لمواجهة المسلمين بعد كل هاتيك القرون؟ وكيف؟ وأين؟ ومع هذا فها نحن أولاء نقف واليهود وجها لوجه منذ عدة عقود، وما كان أحد قبل وعد بلفور منذ نحو ١٠٠ عام لِيَظُنَّ أننا واليهود سوف نتصادم حربيا فى عدد من الانتفاضات والمعارك على إثر صدور ذلك الوعد. ومع هذا فقد دار الزمان دورته على مدى ثلاثة عشر قرنا لنجد أنفسنا أمام اليهود كما تنبأ الرسول الكريم، ونحن وهم فى انتظار النتيجة النهائية. ترى كيف علم الرسول بذلك؟ ومن أخبره؟ إن الكذابين لا يمكن أن يرموا بنبوءاتهم من مثل هذا المكان والزمان السحيق، وبهذا الوضوح والحسم. بل إنهم لا يهتمون بالموضوع أصلا لأنه لا علاقة له بكذبهم ومشروعهم المزعوم طبقا لما قاله معروف الرصافى.

ثم أليس مضحكا أن يهتم من يكذب فى أمر النبوة، حسبما يزعم الرصافى، بتقبيح الكذب ويبشّعه على النحو الذى نعرفه من القرآن والحديث، ويجعله سمة من سمات المنافقين، الذين هم فى الدرك الأسفل من النار، ويستبعد أن يكون عيبا من عيوب المؤمن، الذى قد يزنى وقد يسرق ولكنه لا يمكن أن يكون كذابا؟ كذلك فالكاذب مهما تحرز وتحوط وتظاهر بالصلاح والصدق والتقوى سرعان ما ينفضح ويعرفه الناس، وبخاصة من اللصيقين به كأصدقائه وجيرانه، وبالأخص زوجاته، وبالتالى يسقط من نظرهم ويجرؤ الناس عليه. لكننا ننظر فنجد محمدا لا يزداد على الأيام فى

قلوب الناس وآرائهم إلا احتراما وتبجيلا وإجلالا وتصديقا. ولم يحدث أن أمسك عليه إنسان كذبة واحدة طول حياته لا قبل الدعوة ولا بعدها.

كذلك كيف يتحول فجأة لدن الأربعين إنسانٌ لم يشتغل يوما بالسياسة البتة ولم يمر فيها بأية تجارب ولم يكن له بدهاليزها خبرة، فيقرر دخول عالمها بمعتركاته الملتوية الخطيرة وهو ساذج غر لا قبل له بذلك العالم ولا يفكر بدلا من ذلك فى الاقتراب أولا من دهاقين المجتمع والاستفادة من عقولهم والتتلمذ على أيديهم والتربص على مقربة منهم كى يناله بعض من الفتات المتساقط من موائدهم قبل أن تستحصد تجاربه وخبراته ويصير حوتا من الحيتان مثلهم؟ إن هذه هى طريق السياسيين. أما ما سلكه محمد وما صنعه فليس من السياسة ولا السياسة منه فى شىء. ولو كان محمد رجل سياسة فلم يا ترى نسب إلى الأنبياء السابقين الآيات فى نفس الوقت الذى كان يجيب على كل من يطلب منه آية بأن نزول الآيات ليست فى يده وأن عصر الآيات قد تولى لأنها لم يكن لها أى تأثير على الكافرين؟ لقد كان أحرى به لو كان سياسيا أن ينكر المعجزات من جذورها فيريح ويستريح ويجنب نفسه إزعاج المتعنتين واتخاذهم عدم إتيانه بمعجزة دليلا على أنه ليس نبيا حقيقيا بل مدعيا للنبوة. والقرآن مملوء بالآيات التى تصور المناهدة بينه وبين قومه فى مكة، وبينه وبين اليهود فى المدينة بسبب هذا الموضوع. والسياسى البارع هو الذى يتجنب هذه المآزق والمزالق. ولقد كان محمد سياسيا داهية كما يقول كلام الرصافى، فكيف أوقع نفسه فى هذا الشرك؟ ليس هناك من تعليل لهذا الموقف إلا أنه نبى أُمِر أمرًا من لدن ربه أن يبلغ الرسالة على هذا النحو، ولم يكن أمامه مناص من الانصياع إلى تبليغها كما وصلته. كذلك لو كان رجلَ سياسة

فكيف نفسر أن الأنبياء والرسل جميعا الذين ورد ذكرهم فى القرآن والحديث كان همهم جميعا تصحيح عقائد أقوامهم وتقويم أخلاقهم وسلوكهم لا وضع أسس السياسة؟

وبالمثل لو كان محمد قد اخترع دينه لأسباب سياسية طبقا لدعوى الرصافى فكيف يأتى بالآيات والأحاديث التى تتعلق بالحيض والنفاس والطهارة والصلوات والزكوات والصدقات والحج والعمرة واليتامى والمنافقين والذنوب والآثام والكفارات والغفران الإلهى وأمثال ذلك مما لا يصدر عن الساسة بل عن الأنبياء؟ ودعنا من طريقة التصوير العجيبة لكل هذا كما فى الأحاديث التالية: "مَنْ سَلَكَ طريقا يطلب فيه علما سَلَكَ الله به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالِمِ ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما، إنما ورَّثوا العلم، فمَنْ أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ". "فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب". "إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر". "من كانت له جارية فأحسن أدبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران اثنان".

"ما يصيب المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غَمٍّ، حتى الشوكة يُشَاكُها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه". "كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذ أنا مِتُّ فأحرقونى ثم اطحنونى ثم ذَرُونى فى الريح، فوالله لَإِنْ قَدَرَ علىَّ ربى لَيُعَذِّبَنِّى عذابا ما عُذِّبَه أحد. فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعى ما فيك منه. ففعلتْ، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: يا رب،

خَشِيتُك. فغفر له". "لا أحد أصبر على الأذى من الله تعالى: يدعون له الصاحبة والولد، وهو يعافيهم ويرزقهم". "إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه، وموعظة له فيما يستقبل. وإن المنافق إذا مرض ثم أُعْفِى كان كالبعير عَقَله أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه". "قُدِم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسَبْى، فإذا امرأة من السبى تسعى، إذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتَرَوْن هذه طارحةً ولدها فى النار؟ قلنا: لا والله، وهى تقدر ألا تطرحه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أرحم بعباده من المرأة بولدها". "جعل الله الرحمة فى مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه". "إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها".

"إن الله يمهل حتى يذهب شطر الليل الأول، ثم ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى ينشقّ الفجر". "أذنب عبد ذنبا فقال: اللّهم اغفر لى ذنبى. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أَى ربِّ، اغفر لى ذنبى. فقال تبارك وتعالى: عبدى أذنب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب فقال: أى رب، اغفر لى ذنبى. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت، فقد غفرتُ لك".

"والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم".

"إن الله تعالى يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس، ويقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أَى رَبِّ. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه قد هلك، قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطيه كتاب حسناته بيمينه. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم! ألا لعنة الله على الظالمين". "إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم. قال: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم: ما يقول عبادى؟ قال: تقول: يسبّحونك ويكبّرونك ويحمّدونك ويمجّدونك. قال: فيقول: هل رَأَوْنى؟ قال: فيقولون: لا والله ما رَأَوْكَ. قال: فيقول: وكيف لو رَأَوْنى؟ قال: يقولون: لو رأوْك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا، وأكثر لك تسبيحا. قال: يقول: فما يسألوننى؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رَأَوْها. قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوْها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوْها كانوا أشدّ عليها حرصا، وأشدّ لها طلبا، وأعظم فيها رغبة. قال: فمِمَّ يتعوّذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رَأَوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوْها؟ قال: يقولون: لو رأوْها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأُشْهِدكم أنى قد غفرت لهم. قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم. إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يَشْقَى بهم جَلِيسُهم".

"لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِن أَحَدِكُمْ كانَ على راحِلَتِهِ بِأَرْضِ فلاةٍ، فانْفَلَتَتْ منه وَعَلَيْها طَعامُهُ وَشَرابُهُ، فأَيِسَ منها، فأتى شَجَرَةً فاضْطَجَعَ فى ظِلِّها قدْ أَيِسَ مِن راحِلَتِهِ، فَبَيْنا هو كَذلكَ إِذا هو بِها قائِمَةً عِنْدَهُ، فأخَذَ بِخِطامِها، ثُمَّ قالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِى، وَأَنا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ". "إذا فرَغ اللهُ مِن القضاءِ بَيْنَ عبادِه وأراد أنْ يُخرِجَ مِن النّارِ مَن أراد ممَّن كان يشهَدُ ألا إلهَ إلّا اللهُ أمَر اللهُ الملائكةَ أنْ يُخرِجوهم، فيعرفونَهم بعلامةِ آثارِ السُّجودِ. قال: وحرَّم اللهُ على النّارِ أنْ تأكُلَ مِن ابنِ آدَمَ أثَرَ السُّجودِ. قال: فيُخرِجونهم قد امتُحِشوا، فيُصَبُّ عليهم ماءٌ يُقالُ له: "ماءُ الحياةِ"، فينبُتونَ نباتَ الحِبَّةِ فى حَميلِ السَّيلِ. قال: ويبقى رجُلٌ مُقبِلٌ بوجهِه على النّارِ فيقولُ: يا ربِّ، قد قَشَبَنى ريحُها وأحرَقنى ذُكاؤُها، فاصرِفْ وجهى عنِ النّارِ. فلا يزالُ يدعو، فيقولُ اللهُ جلَّ وعلا: فلعلِّى إنْ أعطَيْتُكَ ذلكَ أنْ تسأَلَنى غيرَه؟ فيقولُ: لا وعزَّتِكَ لا أسأَلُكَ غيرَه. فيصرِفُ وجهَه عنِ النّارِ، ثمَّ يقولُ بعدَ ذلكَ: يا ربِّ، قَرِّبْنى إلى بابِ الجنَّةِ. فيقولُ جلَّ وعلا: أليس قد زعَمْتَ ألّا تسألَنى غيرَه؟ وَيْلَكَ يا ابنَ آدَمَ! ما أغدرَكَ! فلا يزالُ يدعو، فيقولُ جلَّ وعلا: فلعلَّكَ إنْ أعطَيْتُكَ ذلكَ أنْ تسأَلَنى غيرَه؟ فيقولُ: لا وعزَّتِكَ لا أسأَلُكَ غيرَه. ويُعطى اللهَ مِن عهودٍ ومواثيقَ ألّا يسأَلَه غيرَه، فيُقرِّبُه إلى بابِ الجنَّةِ. فلمّا قرَّبه منها انفَهَقَتْ له الجنَّةُ، فإذا رأى ما فيها سكَت ما شاء اللهُ أنْ يسكُتَ ثمَّ يقولُ: يا ربِّ، أدخِلْنى الجنَّةَ. فيقولُ جلَّ وعلا: أليس قد زعَمْتَ ألّا تسأَلَنى غيرَه؟ وَيْلَكَ يا ابنَ آدَمَ! ما أغدَرَكَ! فيقولُ: يا ربِّ، لا تجعَلْنى أشقى خَلْقِكَ. قال: فلا يزالُ يدعو حتّى يضحَكَ جلَّ وعلا. فإذا ضحِك منه أذِن له بالدُّخولِ دخولِ الجنَّةِ. فإذا دخَل قيل له: "تمَنَّ كذا، وتمَنَّ كذا"، فيتمنّى حتّى تنقطِعَ به الأمانى، فيقولُ جلَّ وعلا: هو لكَ ومِثْلُه معه. قال أبو سعيدٍ: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه

وسلم يقولُ: هو لكَ وعشَرةُ أمثالِه... وذلك الرَّجُلُ آخِرُ أهلِ الجنَّةِ دخولًا". "والَّذى نفسى بيدِه إنَّ السِّقْطَ لَيَجُرُّ أمَّهُ بسَرَرِه إلى الجنَّةِ إذا احْتَسَبَتْه".

"من أحس قيام الساعة وبيده فسيلة فلْيَغْرِسْها". "لَأَنْ يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس". "من أمسى كالًّا من عمل يده أمسى مغفورا له". "ما كسب الرجل كسبا أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة". "اِكْلَفُوا من العمل ما تطيقون، فإن الله لا يَمَلُّ حتى تملُّوا. وإنّ أَحَبّ العمل إلى الله أَدْوَمُه، وإنْ قَلَّ". "للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف، ولا يكلَّف من العمل إلا ما يطيق". "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: العلم بالله عز وجل. قال: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: العلم بالله. قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرنى عن العلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل". "إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة. قالوا: فما يكفّرها يا رسول الله؟ قال: الهموم فى طلب المعيشة". "مر على النبى صلى الله عليه وسلم رجلٌ، فرأى أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم مِنْ جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا فى سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كان خَرَج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله، وإن كان خَرَج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان خَرَج يسعى على نفسه يُعِفّها فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو فى سبيل الشيطان". "الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار". "إن الله تعالى يحب إذا عمل

أحدكم عملا أن يتقنه". "أعطُوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه". "قال الله تعالى: ثلاثة أنا خَصْمُهم يوم القيامة: رجل أُعْطِىَ بى ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره". "إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد".

"من أتى عرّافا فسأله عن شىء لم تُقْبَل له صلاة أربعين ليلة". "من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنْزِل على محمد". "أكبر الكبائر عند الله يومَ القيامة الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق، والفرار فى سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورَمْى المحصَنة، وتعلُّم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم"... وهذا غيض من فيض. ترى هل يمكن أن يصدر شىء من هذا عن فم سياسى، فضلا عن أن يكون ذلك السياسى كاذبا يريد أن يأكل بعقل أتباعه حلاوة كما قلنا؟ ألا إن النور ليسطع من هذه الأقوال سطوعا، وتنبثق منها الحلاوة والطيب انبثاقا.

ومما قاله الرصافى فى هذا الصدد أن محمدا كان يهدف إلى توحيد قومه على عقيدة واحدة حتى تكون كلمتهم واحدة لا يفرق بينهم اختلاف فى الدين. فلو كان الأمر كما يقول الرصافى فلِمَ، لدن هجرته إلى يثرب، كتب صحيفة بين طوائف المدينة تقر كل طائفة على ما هى عليه من دين وشعائر وتعطيها الحرية التامة لممارسة دينها كما تحب ولم يكرهها على التحول للإسلام؟ ولم قبل بقاء نصارى اليمن وغير اليمن على نصرانيتهم دون أن يشترط اعتناقهم للإسلام؟ بل لقد تركهم يمارسون شعائر صلاتهم فى مسجده يوم أقبلوا على المدينة للقائه والتفاهم معه حول طبيعة العلاقة التى ينبغى أن تكون بين الطرفين؟ بل لماذا حين فتح مكة ترك أهلها لضمائرهم حتى أسلموا من تلقاء أنفسهم؟ وكيف نفسر نزول قوله تعالى فى الآية ١١٥ من سورة "النساء": "وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ

مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا"، التى فسرها كبار علماء المسلمين قدامى ومحدثين بأن المقصود بها إعطاء الشعور بالأمان لمن يستعمل عقله فى تمحيص ما دعا إليه محمد عليه السلام حتى لو لم يصل إلى الاقتناع به؟ لو كان الأمر كما يزعم الرصافى، وكان محمد يأتى بالقرآن من عنده، ما فكر أن يصدر مثل تلك الآية البتة مهما تكن الظروف.

والغريب العجيب من الرصافى أنه، رغم قوله وتأكيده أن محمدا لم يأت بالإسلام ولا بالقرآن من عند الله بل من عند نفسه، ولم يكن هناك كائن اسمه جبريل ولا وحى ولا يحزنون، قد أثار فى كتابه الحالى القضية التالية: هل كان لمحمد كلام غير الوحى؟ أم هل كان كلامه كله وحيا من الله؟ وهو يقول إن علماء الدين من المسلمين افترقوا فى هذا الموضوع فرقتين: فريق يرى أن كلامه كله وحى من الله، وفريق يرى أن للنبى كلامه الخاص الذى لم يتلقه من السماء. أما الرصافى فيقول إن رأى الفريق الأول غلوٌّ مفرِطٌ واعتقاد فى النبوة مضحك لأن النبى، كما يقول، لا يشترط فى صدق نبوته أكثر من أن يبلغ ما أمره الله بتبليغه من الأحكام، وأما أن يكون كل ما يقوله بها فى ذلك كلامه الاعتيادى مع الناس وحيا من الله فهو أمر يخرج عن النبوة وحدودها (ص١٦٢ وما يليها). وهذه هلاوس غريبة تثير القهقهة، إذ ما دام يؤكد أن محمدا لم يكن يتلقى وحيا من السماء بل كان يخترع القرآن اختراعا وينسبه إلى السماء زاعما أن جبريل هو الذى أتاه به رغم أنه لا يوجد جبريل ولا إسرافيل ولا عزرائيل ولا أى من الملائكة على الإطلاق فكيف يشغل نفسه ويشغلنا معه ويضيع وقته ووقتنا فى تلك السفسطة التى لا توصل لشىء، وإثارتها وإهمالها سيان؟

ثم مضى الرصافى فأورد حادثة مقتل حمزة المأساوى فى أُحُدٍ والتمثيل بجثته على النحو البشع الإجرامى الذى نعرف وتوعُّد الرسول بالانتقام من المشركين حين يُظهِره الله عليهم فى أية معركة تالية بالتمثيل بعشرات الجثث، ثم ساق عقيب هذا أن الرسول قد غير رأيه بعد ذلك حين نزلت سريعا الآيات الأخيرة من سورة "النحل": "وإن عاقبتم فعاقِبوا بمثل ما عُوقِبْتُم به ولَإِنْ صبرتم لَهُوَ خيرٌ للصابرين...". لقد كان رأى الرصافى أنّ توعُّد الرسول بالتمثيل بجثث المشركين هو من الهوى، لكن الآيات ردته إلى الصواب (ص١٦٣- ١٦٤). ولو كان الرصافى صادقا مخلصا فى البحث عن الحقيقة لرأى فى تراجع الرسول عما قاله برهانا ساطعا على أنه نبى وأنه فور نزول الآيات المذكورة خضع لها فى الحال رغم مناقضتها لما قال ولما كان يشعر به كإنسان قُتِل عمه قِتْلَةً وحشيةً ومُثِّل بجثته تمثيلا لم يُسْمَع به من قبل ولا من بعد، ولم يتردد لحظة واحدة فلم يخالف عنها لأنه يؤمن أنها من عند ربه. لكن الرصافى فى قلبه دَخَلٌ، فلذلك لم تمس الآيات قلبه ولم يخشع لها عقله كما كان ينبغى أن يكون الأمر لو كان يبحث عن الحقيقة.

ومثل تلك القصة أيضا قصة هبّار بن الأسود، الذى اعتدى على زينب ابنة الرسول وزوجة العاص بن الربيع عند محاولتها الهجرة من مكة وتسبب فى وقوعها من فوق الجمل وسقوط جنينها وموتها بعد فترة. وعن أبى هريرة: "بَعَثَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَرِيَّةً، وكنتُ فيهم، فقال: إنْ لَقيتُم هَبّارَ بنَ الأسوَدِ ونافعَ بنَ عَبْدِ عَمْرٍو فأحرِقوهما. وكانا نَخَسا بزَيْنَبَ بِنتِ رسولِ اللهِ حينَ خرَجَتْ، فلمْ تَزَلْ ضَبِنةً حتى ماتتْ، ثُمَّ قال: إنْ لَقيتُموهما فاقْتُلوهما، فإنَّه لا يَنبغى لأحدٍ أنْ يُعذِّبَ بعَذابِ اللهِ". وأخبرنا أيضا أبو هُرَيرةَ رَضى اللهُ عنه أنَّ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَعَثَه فى سَرِيَّةٍ بقِيادةِ حَمْزةَ بنِ عَمْرٍو الأسلَمى رَضِى اللهُ عنه لِقَتْلِ هذَيْن الرَّجُلَيْن، وأمَرَهم صلى

الله عليه وسلم بحَرْقِهما، فلَمّا جاءَ الصَّحابةُ رَضِى اللهُ عنهم يُوَدِّعونَه عِندَ الخُروجِ قال صلى الله عليه وسلم لهم: إنِّى كُنتُ أَمَرْتُكم أنْ تُحرِّقوا فُلانًا وفُلانًا بالنّارِ، وإنَّ النّارَ لا يُعذِّبُ بها إلّا اللهُ، فإنْ أَخَذْتُموهما فاقتُلُوهما. يَعنى أنَّ التَّعذيبَ بالنّارِ خاصٌّ به تعالى، فلا يُعذِّبُ بها غَيرُه. ومن ثم فإذا لقيتُموهما فاقتُلوهما بغَيرِ النّار. ثمَّ بعْدَ ذلك أسلَمَ هَبّارٌ واعتذر مما فعل، فأجابه النبى بأن الإسلام يَجُبّ ما قبله، وسامحه. فترك الرصافى هذا كله مما يبين عظمة النبى وسموق خلقه وصدقه المطلق وكونه نبيا حقيقيا من عند رب العالمين إذ يعلو بكل إخلاص فوق أحزانه وحقوقه فى أن ينتقم من هذا الذى صنع بابنته البريئة ما صنع وتسبب فى موتها وهى فى شبابها، وأمسك فقط بالتفرقة بين الوحى الذى يأتى به جبريل وبين كلام النبى الاعتيادى اليومى، وكأنه يؤمن بالوحى والنبوة ولا يرى فى محمد رجلا يكذب فى زعمه الاتصال بالسماء (ص١٦٤- ١٦٥). وهذا تنطع، وأى تنطع، من الرصافى.

ولا يكتفى الرصافى باتهام النبى بالنطق عن الهوى فى كلامه الاعتيادى ثم الرجوع عنه فى آيات القرآن بل يتهمه صلى الله عليه وسلم بالنطق عن الهوى حتى فى القرآن نفسه ثم الرجوع عن ذلك بمحو ذلك النص. وقد ذكر قصة الغرانيق مثالا على ذلك قائلا إن النبى كان يحب أن يدخل قومه الإسلام، لكنه لما رآهم يزدادون نفورا منه مع الأيام فكر فى التنازل عن بعض مبادئ التوحيد وأشاد باللات والعزى ومناة فى سورة "النجم" مما كان من أثره أن سجد المشركون مع المسلمين عند وصوله فى تلاوة السورة المذكورة إلى قوله تعالى فى نهايتها: "فاسجدوا لله واعبدوا"، لكنه بعد قليل عز عليه أن يتراجع عن مبادئ دينه على هذا النحو، فمحا تلك الآيات واعتذر عن ذلك فى سورة "الحج" بأن ذلك كان من عمل الشيطان ألقاها على لسانه فى سهو منه، ليُعْرَف مَنِ

الذين فى قلوبهم مرض ممن صح إيمانهم وخلصت قلوبهم للحق. ثم يستمر الرصافى قائلا إن الاعتذار بالشيطان ينافى ما قيل فى حادثة شق الصدر من أن جبريل قد أخرج حظ الشيطان من قلبه، فكيف يتسلط الشيطان عليه فيلقى فى فمه، وهو يتلو السورة، تلك الآيات الوثنية؟ والطريف فى الأمر أن الرصافى لا يعيب محمدا فى ذلك إذ يراه حسن النية حريصا على المصلحة العامة محبا لقومه، وبخاصة أنه يرى الوحى مجرد كلام لمحمد لا دخل للسماء به.

وهو يكرر هنا أن محمدا عليه السلام هو مؤلف القرآن. أى أنه هو صاحب النص الأول الذى أراد به التقرب من المشركين: قاله عمدا وقصدا، وهو كذلك الذى قام بحذف الجملتين حين تبين له أن ما عمله لا يصح. وقد أثنى عليه الرصافى بأنه يعمل من أجل مصلحة قومه (ص١٦٥- ١٦٦). وهذا الذى قاله الرصافى يُبْدِئ فيه المبشرون والمستشرقون طوال عمرهم ويُعِيدون، فهو لم يأت بأى جديد، بل هو كعادته مردد للفكر المعادى للإسلام والنبى والقرآن ويحطب فى حبال الكافرين والملحدين، وليس أكثر من بوق لهم، وإن أراد إيهام قرائه أنه ابن بَجْدَتها. وقد بلغ السعار من المستشرق الفرنسى ريجى بلاشير أن أثبت هاتين الجملتين فى سوة "النجم" على أنهما من القرآن. فكما نرى فإن الرصافى لا يأتى بشىء من عنده بل هو مجرد مردد لما يقول الغربيون الكارهون للإسلام.

وكلام الرصافى هذا معناه أن النبى قد نطق فعلا الجملتين المُثْنِيَتَيْن على الأوثان أثناء تلاوته على الناس مسلمين ومشركين لسورة "النجم" عقب نزولها عليه، فقال: "أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * إنهن الغرانيق العلا * وإن شفاعتهن لَتُرْتَجَى". فتعالَوْا ننظر فى الروايات الخاصة بـ"قصة الغرانيق"، وهى تتلخص فى أن

سورة "النجم" كانت تحتوى فى البداية على آيتين تمدحان الأصنام الثلاثة: "اللات والعُزَّى ومَنَاة"، ثم حُذِفتا منها فيما بعد، إذ كان محمد عليه الصلاة والسلام يتمنى أن يصالح القرشيين حتى يكسبهم إلى صفه بدلا من استمرارهم فى عداوتهم لدعوته وإيذائهم له ولأتباعه، ومن ثَمَّ أقدم على تضمين سورة "النجم" تَيْنِك الآيتين عقب قوله: "أفرأيتم اللاتَ والعُزَّى * ومناةَ الثالثةَ الأخرى؟" على النحو التالى: "إنهنّ الغرانيق العُلَا * وإن شفاعتهن لَتُرْتَجَى"، أو دسهما الشيطان فى تلاوته وهو لا يشعر. والواقع أن أقل نظرة فى سورة "النجم" أو فى سيرة حياته صلى الله عليه وسلم كافية للقطع بأن تلك القصة لا يمكن أن تكون قد حدثت على هذا النحو الذى اخترعه بعض الزنادقة قديما، وأخذ أعداء الإسلام يرددونها منذئذ!

وقد تناول عدد من علماء المسلمين فى القديم والحديث الروايات التى تتعلق بهاتين الآيتين المزعومتين وبينوا أنها لا تتمتع بأية مصداقية. والحقيقة إن النظر فى سورة "النجم" لَيُؤَكِّد هذا الحكم الذى توصل إليه أولئك العلماء. فهذه السورة من أولها إلى آخرها عبارة عن حملة مدمدمة على المشركين وما يعبدون من أصنام بحيث لا يُعْقَل إمكان احتوائها على هاتين الآيتين المزعومتين، وإلا فكيف يمكن أن يتجاور فيها الذمُّ العنيف للأوثان والمدحُ الشديد لها؟ ترى هل يمكن تصوُّر انخراط شخص فى فاصل من التقريظ لشخص آخر لينتقل بعدها مباشرة لسبه وإهانته؟ ترى هل يعْقَل ابتلاعُ العرب مثل هاتين الآيتين اللتين تمدحان آلهتهم، وهم يسمعون عقيب ذلك قوله تعالى: "ألكم الذَّكَر وله الأنثى؟ * تلك إذن قسمةٌ ضِيزَى * إنْ هى إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إنْ يَتَّبِعون إلا الظن وما تَهْوَى الأنفس. ولقد جاءهم من ربهم الهدى"؟ إن هذا أمر لا يمكن تصوره!

كما أن وقائع حياته صلى الله عليه وسلم تجعلنا نستبعد تمام الاستبعاد أن تكون عزيمته قد ضعفت يوما، فقد كان مثال الصبر والإيمان بنصرة ربه له ولدعوته. ومواقفه من الكفار طوال ثلاثة وعشرين عاما وعدم استجابته فى مكة لوساطة عمه بينه وبينهم رغم ما كان يشعر به من حب واحترام عميق نحوه، ورغم الإيذاء الرهيب الذى كان يتعرض له هو وأتباعه، وكذلك رفضه لما عرضوه عليه من المال والرئاسة، هى أقوى برهان على أنه ليس ذلك الشخص الذى يمكن أن يقع فى هذا الضعف والتخاذل! ولقد قال الرصافى إن محمدا عليه السلام قد جاء بالتوحيد حتى يجمع أمته على دين واحد، فتكون وحدتهم السياسية وحدة صلبة. فكيف يزعم أنه عليه السلام قد خرج هذا الخروج المخزى عن خطته؟

وقد أضفتُ طريقةً جديدةً للتحقق من أمر هاتين الآيتين هى الطريقة الأسلوبية، إذ نظرتُ فى الآيتين المذكورتين لأرى مدى مشابهتهما لسائر آيات القرآن فوجدت أنهما لا تمتان إليها بأية صلةٍ. ذلك أن الآيتين المزعومتين تجعلان الأصنام الثلاثة مناطا للشفاعة يوم القيامة دون تعليقها على إذن الله، وهو ما لم يسنده القرآن فى أى موضع منه إلى أى كائن مهما تكن منزلته عنده سبحانه. ولن نذهب بعيدا للاستشهاد على ما نقول، فبعد هاتين الآيتين بخمس آيات فقط نقرأ قوله تعالى: "وكم مِنْ مَلَكٍ فى السماوات لا تُغْنِى شفاعتُهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويَرْضَى". فكيف يقال هذا عن الملائكة فى ذات الوقت الذى تؤكد إحدى الآيتين المزعومتين أن شفاعة الأصنام الثلاثة جديرة بالرجاء من غير تعليق لها على إذن الله؟

ثم إنه قد ورد فى الآية الثانية من آيَتَىِ الغرانيق كلمة "تُرْتَجَى"، وهى أيضا غريبة على الأسلوب القرآنى، إذ ليس فى القرآن المجيد أى فعل من مادة "ر ج و" على صيغة

"افتعل". أما ما جاء فى إحدى الروايات من أن نص الآية هو: "وإنّ شفاعتهن لتُرْتَضَى"، فالرد عليه هو أن هذا الفعل بهذه الصيغة، وإن ورد فى القرآن ثلاث مرات، لم يقع فى أى منها على "الشفاعة"، وإنما تُسْتَخْدَم مع الشفاعة عادةً الأفعال التالية: "تنفع، تُغْنِى، يملك".

كذلك بدأت مجموعةُ الآيات التى تتحدث عن اللات والعُزَّى ومناة بقوله عَزَّ شأنُه: "أ(ف)رأيتم...؟"، وهذا التركيب قد ورد فى القرآن إحدى وعشرين مرة كلها فى مخاصمة الكفار والتهكم العنيف بهم كما فى الشواهد التالية: "قل: أرأيتم إن أتاكم عذابُه بَياتًا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون؟"، "قل: أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعلتم منه حلالا وحراما، قل: آللهُ أَذِنَ لكم أم على الله تفترون؟"، "قل: أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشَهِد شاهدٌ من بنى إسرائيل على مِثْلِه فآمَنَ واستكبرتم؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين"، "أفرأيتم الماء الذى تشربون؟ * أأنتم أنزلتموه من المُزْن أم نحن المُنْزِلون؟ * لو نشاء جعلناه أُجَاجًا، فلولا تشكرون". فكيف يمكن إذن أن يجيء هذا التركيب فى سورة "النجم" بالذات فى سياق ملاطفة الكفار ومراضاتهم بمدح آلهتهم؟ وفوق هذا لم يحدث أن أُضيفت كلمة "شفاعة" فى القرآن الكريم (فى حال مجيئها مضافة) إلا إلى الضمير "هم" على خلاف ما أتت عليه فى آيتى الغرانيق من إضافتها إلى الضمير "هنّ".

وفضلا عن ذلك فتركيب الآية الأولى من الآيتين المزعومتين يتكون من "إنّ (وهى مؤكِّدة كما نعرف) + ضمير (اسمها) + اسم معرّف بالألف واللام (خبرها)". وهذا التركيب لم يُسْتَعْمَل لـ"ذاتٍ عاقلةٍ" فى أى من المواضع التى ورد فيها فى القرآن الكريم (وهى تبلغ العشرات) دون تأكيد اسم "إنّ" الضمير بضميرٍ مثله، كما فى الأمثلة

التالية: "ألا إنهم هم المفسدون/ ألا إنهم هم السفهاء/ إنه هو التواب الرحيم/ إنك أنت السميع العليم/ إنك أنت التواب الرحيم/ إنه هو السميع العليم/ إنه هو العليم الحكيم/ إنه هو الغفور الرحيم/ إنى أنا النذير المبين/ إنه هو السميع البصير/ إننى أنا الله/ إنك أنت الأعلي/ إنا لنحن الغالبون/ إنه هو العزيز الحكيم/ وإنا لنحن الصافّون/ وإنا لنحن المسبِّحون/ إنهم لهم المنصورون/ إنك أنت الوهاب/ إنه هو السميع البصير/ إنه هو العزيز الرحيم/ إنك أنت العزيز الكريم/ إنه هو الحكيم العليم/ إنه هو البَرُّ الرحيم/ ألا إنهم هم الكاذبون/ فإن الله هو الغنى الحميد". أما فى المرة الوحيدة التى ورد التركيب المذكور دون تأكيد اسم "إنّ" الضمير بضميرٍ مثله (وذلك فى قوله تعالى: "إنه الحق من ربك") فلم يكن الضمير عائدا على ذات عاقلة. وعلى ذلك فإن التركيب فى أُولَى آيتَى الغرانيق هو أيضا تركيب غريب على أسلوب القرآن الكريم.

مما سبق يتأكد لنا على نحوٍ قاطعٍ أن الآيتين المذكورتين ليستا من القرآن، وليس القرآن منهما، فى قليل أو كثير. بل إنى لأستبعد أن تكون كلمة "الغرانيق" قد وردت فى أى من الأحاديث التى قالها النبى عليه الصلاة والسلام. وينبغى أن نضيف إلى ما مرّ أن كُتُب الصحاح لم يرد فيها أى ذكر لهذه الرواية، ومثلها فى ذلك ما كتبه ابن هشام وأمثاله فى السيرة النبوية.

ولقد قرأت فى كتاب "الأصنام" لابن الكلبى أن المشركين كانوا يرددون هاتين العبارتين فى الجاهلية تعظيما للأصنام الثلاثة، ومن ثَمَّ فإنى لا أستبعد ما طرحه الكاتب الهندى سيد أمير على فى كتابه: "The Spirit of Islam" من تفسير لما يمكن أن يكون قد حدث بناءً على ما ورد من روايات فى هذا الموضوع، إذ يرى أن النبى، عندما كان يقرأ سورة "النجم"، وبلغ الآيات التى تهاجم الأصنام الثلاثة، توقَّع بعض المشركين ما

سيأتى بعد ذلك فسارع إلى ترديد هاتين العبارتين فى محاولة لصرف مسار الحديث إلى المدح بدلا من الذم والتوبيخ. وقد كان الكفار فى كثير من الأحيان إذا سمعوا القرآن أحدثوا لَغْطًا ولَغْوًا كى يصرفوا الحاضرين عما تقوله آياته الكريمة كما تقول الآية السادسة والعشرون من سورة "فُصِّلَتْ". فهذا الذى يقوله الكاتب الهندى هو من ذلك الباب.

وبقى ما قاله الرصافى ردا على توجيه الرواة لتلك القصة بأن الشيطان هو الذى ألقى الجملتين اللتين تمدحان الأوثان على لسان النبى، فقالهما وهو لا يقصد. أى قالهما سهوا لا من قلبه وبإرادته. فكاتبنا يظن أن هذا يناقض ما قالته قصة شق الصدر. ومرة أخرى نرى الرصافى يثير معركة فى غير معترك، إذ حتى لو قلنا بصحة القصة الخاصة بشق الصدر ونَزْع حظ الشيطان من قلبه صلى الله عليه وسلم فإنها لا تنافى أبدا أن تكون هاتان الجملتان من نطق الشيطان. ذلك أن الشيطان الذى نُزِع حظه من قلبه صلى الله عليه وسلم حسب تلك الحكاية هو شيطان المعصية وعمل الشر، أى الشيطان الذى يغرى بالكفر والإلحاد أو العصيان وارتكاب الموبقات وما إلى هذا بسبيل لا شيطان النسيان الذى أومأ إليه القرآن فى قوله جل شأنه بسورة "يوسف" عن ساقى الملك الذى طلب منه يوسف أن يذكر حبسه ظلما للملك حتى يحقق الأمر ويتم الإفراج عنه: "فأنساه الشيطان ذِكْر ربه" وقوله تعالى فى سورة "الكهف" عن الحوت على لسان فتى يوسف: "وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره فاتخذ سبيله فى البحر عجبا". فكلنا عرضة للشيطان الثانى دون أن يكون علينا ذنب وعقاب على عكس الشيطان الأول، شيطان العقيدة والخُلُق، فهو الشيطان الذى نحاسب على اتباعنا له ونعاقب بسببه.

أما شيطان السهو والنسيان وخطإ التفكير والاستنتاج مما يقع فيه البشر جميعا فلا لوم علينا فيه ولا محاسبة، إذ هو خارج عن إرادتنا وقصدنا فلا نعاقَب عليه ولا نؤاخَذ به. بل إننا حتى لو ارتكسنا فى خطإ أخلاقى أو عقيدى عن إكراه فإن الله يغفر لنا ولا يعاقبنا. قال تعالى: "مَنْ كَفَرَ بالله من بعد إيمانه إلا من أُكْرِه وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان... فعليهم غضب من ربهم ولهم عذاب شديد". وقال صلى الله عليه وسلم: "رُفِعَ عن أُمَّتى الخَطَأُ والنِّسيانُ وما استُكرِهوا عليه"، "رُفِعَ القلمُ عن الصبى حتى يبلُغَ، وعن النائمِ حتى يستيقظَ، وعن المجنونِ حتى يُفيقَ". وقد سها النبى عليه السلام ونسى فى الصلاة، فصلى الرباعية ركعتين، إلى أن نبهه أحد الصحابة، فقام وأكملها أربعا. واجتهد فى مرة أخرى واختار رأيا ما، ثم تبين له أن غيره أحسن منه، فتركه والتزم الرأى الآخر. وبالمثل يمكن أن يُصْدِر حكما ثم ينزل القرآن من السماء يرشده إلى الرأى الصحيح. ونراه يقول عن نفسه دون أدنى حرج: "إنَّما أنا بشرٌ أَذْكُرُ كما تذكرونَ، وأَنْسى كما تَنْسَوْنَ"، "إنكم تختصمون إلىَّ، ولعل بعضَكم أن يكونَ ألحنَ بحجّتِه من بعضٍ، وإنما أقضى بنحو مما أسمعُ. فمن قضيتُ له من حقِّ أخيه شيئًا فلا يأخذْه، فإنما أقطعُ له قطعةً من النارِ". ومن هنا فحتى لو لم يصح الحديث التالى: "ليسَ فى السَّهوِ تفريطٌ، وإنَّما التَّفريطُ فى الذِّكْرِ" فمعناه صحيح تماما. وأخيرا فهل يظن ظان أن المشركين، لو كانت حادثة الغرانيق صحيحة، كانوا ليسكتوا ويتركوا الأمر يمر بهدوء دون أن يفترصوا الواقعة افتراصا ويشككوا فى دين محمد ويرددوا للغادى والرائح أنه متردد وغير مخلص فى دعوته وأنه قد خدعهم ولعب بهم. لكننا لم نسمع بأن شيئا من هذا قد وقع.

وبعد فإن الرصافى ظل، حتى بعد تأليفه هذا الكتاب، يعلن دائما أنه يريد نهضة المسلمين والإسلام. لقد كتب مثلا بعد هياج الناس عليه إثر ظهور كتابه: "رسائل

التعليقات"، الذى يشير فيه إلى كتابه: "الشخصية المحمدية" أكثر من مرة بما يدل على أن "رسائل التعليقات" تالٍ فى التأليف لذلك الكتاب واتهام العراقيين إياه بالإلحاد: "أنا، ولله الحمد، مسلم مؤمن بالله وبرسوله محمد بن عبد الله إيمانا صادقا لا أرائى ولا أداجى، إلا أنى خالفت المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يَرَوْنَها من الدين وليست منه إلا بمنزلة القشور من اللباب،ولا يهمنى من الدين إلا جوهره الخالص وغايته المطلوبة التى هى الوصول إلى شىء من السعادة فى الحياة الدنيوية الاجتماعية والحياة الأخروية ما أمكن الوصول إليه بترك الشرور وعمل الصالحات. وكل ما عدا ذلك من أمور الدين فهى وسيلة إليه وواسطة له ليس إلا..."، ثم ختم كلمته هذه بتوقيعه التالى: "المؤمن بالله وحده لا شريك له: معروف الرصافى" (د. يوسف عزالدين/ الرصافى يروى سيرة حياته/ دار المدى للثقافة والنشر/ دمشق/ ٢٠٠٨م/ ٣١٤). بل إن فهمى المدرس فى تقريره الذى كُلِّف من بعض الجهات الرسمية بإعداده حول "رسائل التعليقات" للرصافى يثنى على الرجل بأنه قوى الإيمان بالله ورسوله راسخ الاعتقاد بما جاء فى القرآن، ويدافع عن الإسلام وعن شخصية سيد الأولين والآخرين دفاعا مجيدا، ومن ثم لا يصح تكفيره أبدا، وإلا فإن من يكفره يصير كافرا (المرجع السابق/ ٣١٣).

فبالله عليك أيها القارئ الكريم أعرنى عقلك حتى أصدق ذلك الزعم من جانب كاتبنا، إذ كيف يريد للإسلام استعادة مجده القديم، وللمسلمين أن ينهضوا من سباتهم الطويل ويصيروا أمة قوية عزيزة مهيبة الجانب، وهو نفسه قد أزال عن عيونهم غشاوة الإيمان بمحمد ودين محمد؟ نعم كيف يظل المسلمون متمسكين بدينهم ويعملون على الإعلاء من شأنه، وقد بين لهم الرصافى أن رسولهم الذى يؤمنون به كان يكذب طول الوقت ويخترع الآيات اختراعا ويضعها أولا بأول فى القرآن مدعيا أنه على اتصال

بالسماء وأن الله ينزل عليه جبريل يحمل إليه الأوحاء المقدسة تباعا؟ لقد قضى الرصافى بذلك، فيما هو مفترَض، على إيمانهم بنبيهم، ولم يعودوا يصدقون ما أتى به لا من قرآن ولا من حديث، ومن ثم لا يمكن أن يكون للنصوص القرآنية والحديثية أى قيمة فى نظرهم، ولا فى عقولهم أى اقتناع بما فيها، ولا فى قلوبهم أى تعلق بها. واضح أن موقف الرصافى مرتبك ومضطرب ومزعج ولا يوصل إلى خير.

وهناك قضية أخرى أعجب وأغرب، ألا وهى أن الرصافى فى أول كتابه عن "الشخصية المحمدية" يعلن شكه العنيف فى مصداقية التاريخ والمؤرخين، إذ يبدأ كلامه فى الكتاب المذكور كما سبق التوضيح بإعلان تكذيبه للتاريخ تكذيبا تاما أو شبه تام، ومستنده فى هذا أن التاريخ يكتبه البشر، والبشر يخضعون للمصالح والأهواء ويكذبون ويدلسون... إلخ، ومن ثم لا يمكنهم كتابة التاريخ كتابة صادقة بل الصدق فيها لا يعدو أن يكون ذرات ضئيلة وسط طيس من الأكاذيب والأباطيل. فإذا كان الأمر على ما يقول فكيف يستند إلى التاريخ فى الرد، فى كتابه: "رسائل التعليقات" فيما يقرب من مائة صفحة، على ما قاله كايتانى المستشرق الإيطالى فى كتابه عن التاريخ الإسلامى، الذى قرأه كاتبنا فى الترجمة التركية، بخصوص العرب وتاريخهم؟ إن كل ما أتى به الرصافى فى تفنيد دعاوى كايتانى هو مما تحويه كتب التاريخ. ولو كان صوابا ما يؤكده من أن التاريخ أكوام من الزيف والبهتان تشتمل على ذرات من الحقيقة ما كان له أن يستند إلى كتب التاريخ وأشباهها أبدا بعدما تبرأ تبرؤا عنيفا من التاريخ وأهله. بل إنه ليقول عن كايتانى فى كتاب "رسائل التعليقات" إن طريقته "لعمر الله شأن غير شأن المؤرخين من أهل العلم" (معروف الرصافى/ رسائل التعليقات/ ١٣٨). بل إنه ليقرِّعه مرارا فى ذلك الكتاب بأنه لا يستند فى إثبات هذا أو إنكار ذاك إلى شىء معلوم من

التاريخ بل يعتمد على ظنونه وأوهامه كما هو الحال مثلا فى الصفحة التاسعة والثلاثين بعد المائة وما يليها. إذن فلا يصح أن ننفى التاريخ والمؤرخين ابتداء من اعتبارنا، وإلا ما استطعنا التقدم خطوة فى دراسة الماضى، وربما ولا الحاضر أيضا، فالحاضر سوف يلحق بالماضى بعد قليل ويصير تاريخا لا يصح الثقة به. وبالمثل ما كان ينبغى أن يؤلف الرصافى كتاب "الشخصية المحمدية" انطلاقا من كتب التاريخ والكتب التى تتصل بالتاريخ. ولو لم ينطلق من كتب التاريخ والكتب التى تتصل به لما كان بمستطاعه وضع هذا الكتاب. وهذا تناقض من الرصافى كبير وشديد لا يمكنه التخلص منه.

ومع هذا كله مما أبدأ فيه الرصافى وأعاد من التأكيد بأن محمدا لم يكن يتلقى وحيا بل كان يزعم ذلك ليكون لكلامه أثر فى نفوس العرب بدلا من القول بأن القرآن كلامه هو فلا يستمع إليه ولا يصدقه أحد، مع هذا نجد الرصافى (ص٢٥٨) عند حديثه عن تتبع سراقة للنبى صلى الله عليه وسلم هو وأبى بكر عقب تركهما مكة مهاجرين إلى المدينة يقول: "أهم شىء ذكره الرواة فى هذه السفرة التى خرج فيها محمد مهاجرا إلى المدينة هو قصة سراقة بن مالك. وها نحن نوردها هنا ونتكلم عنها بما يظهر زيف أقوال الرواة، ويثبت أيضا أن محمدا كما ذكره القرآن: قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى"، ثم مضى الكاتب موردا تفاصيل الحكاية حسب الروايات المختلفة. والآن ما معنى قوله إن قصة سراقة تثبت أن محمدا، كما ذكر القرآن، يوحَى إليه؟ أليس قد أنكر الوحى وأكد أن محمدا كان يدعى ذلك ادعاء، ولم يكن للوحى حقيقة؟ فكيف يعود بعد ذلك كله ويقول إنه كان هناك وحى وإن القرآن حين يقول ذلك فهو يقول الحق؟ وإلا فما معنى كلام الرصافى فى تلك الفقرة التى سقناها من كلامه فى كتابه الذى بين أيدينا؟ وبالمناسبة فإن حكاية سراقة تدور حول نبوءةٍ تنبأ بها النبى أمامه، ووعدٍ وَعَدَه إياه الرسول: فأما

النبوءة فهى أن بلاد فارس سوف تفتح على المسلمين، وأما الوعد فهو أنه سوف يكون له سوارا كسرى، وقد كانا له بعد أن فتحت بلاد الفرس، ولم ينكر الرصافى لا النبوءة ولا الوعد بل ربط بينهما وبين فتح فارس فى عهد عمر وبِرّه بوعد النبى لسراقة وخلعه السوارين الكسرويين عليه.

ولكن كاتبنا يعود فيكذِّب بالوحى قائلا عن الآيتين التاليتين من سورة "الأنفال" فى مخاطبة المسلمين، وهما عن موقف المشركين فى غزوة بدر: "ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بَطَرًا ورِئاءَ الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط * وإذ زَيَّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جارٌ لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا تَرَوْن إنى أخاف الله والله شديد العقاب"، إذ هو يرى أن الذى نكص على عقبيه هو سراقة وقومه بعدما وضعوا أيديهم فى أيدى المشركين ضد محمد، لكنهم عندما جد الجِدُّ خذلوهم وانسحبوا وتركوهم يواجهون محمدا وحده، مما جعل أبا جهل حين رأى الهزيمة يقول: "يا معشر الناس، لا يهمنكم خذلان سراقة، فإنه كان على ميعاد من محمد". ولما رجع من بقى من قريش إلى مكة رأوا سراقة فقالوا له: خرقت الصف وأوقعت فينا الهزيمة. ثم يكمل كاتبنا الهمام الظريف قائلا: "ولا غرو أن سراقة أنكر ذلك وقال: والله ما علمت بشىء من أمركم. فما صدقوه. فسراقة هو الذى سبب بفعلته تلك هزيمة قريش يوم بدر، غير أن الرواة يقولون إن الذى فعل ذلك هو إبليس"، ثم يعقب الرجل الظريف بقوله: "وما أدرى لماذا إبليس يخذل الكفار ليغلب المسلمون" (ص١٦٢ – ٢٦٣).

والرصافى هنا يكذّب بالقرآن، إذ القرآن لا الرواة هو الذى يقول إن الذى خذلهم حين جَدَّ الجِدُّ هو الشيطان، أما الرصافى فيقول إنه سراقة. والواقع أنه لو كان سراقة ما

قال عنه القرآن ما قال، سواء قلنا إنه وحى إلهى كما نعتقد وندين الله به أو قلنا مجاراة للكاتب إنه كلام محمد، إذ لا يمكن أن يتهم الوحى أو النبى سراقة بأنه شيطان، وإلا كان شيطانا ظريفا لخذلانه الكفار فى الوقت المناسب تماما. وأما استغراب الكاتب أن يخذل الشيطان الكفار ويقف مع المسلمين فهو استغراب خاطئ. إن الشيطان بطبيعة الحال لا يقف مع المسلمين، لكن القرآن يريد أن يقول إن وساوس الشيطان التى نفخت فى أنوف الكافرين قبل المعركة وملأتهم غرورا ويقينا بأنهم لا محالة منتصرون على المسلمين قد تبخرت من أمخاخهم وغادرتهم أمام الحقائق المرة عندما التحم الفريقان وأثخن أبطال الإسلام، وعلى رأسهم حمزة وعلى، فى المشركين قتلا وجندلة، ووجدوا أن الدائرة قد دارت عليهم وأن شيئا من الأوهام التى كانت تلبس رؤوسهم لم يبق فى تلك الرؤوس حينما كشر لهم الواقع البشع عن أنيابه. وهو ما نقوله فى أمثالنا الشعبية: "راحت السَّكْرَة، وجاءت الفكرة". وهو نفسه ما يقوله القرآن عن يوم القيامة وتخلى الشيطان عن الكفار بعد أن كان فى الدنيا يمنيهم الأمانى الطويلة العريضة: "وقال الشيطان لما قُضِىَ الأمر إن الله وعَدكم وَعْدَ الحق ووعَدْتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمُصْرِخِكم وما أنتم بمُصْرِخِىَّ إنى كفرت بما أشركتمونِ من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم" (إبراهيم/ ٢٢). أم ترى صاحبنا الهمام سيقول: بل هو سراقة؟

وقد تكرر فى القرآن فى مواضع شتى هذا المعنى، معنى خذلان الشيطان لابن آدم حين يجد الجد، كقوله تعالى فى سورة "النساء" (١١٩– ١٢١): "وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا"، وقوله جل شأنه فى سورة

"الإسراء" (٦١- ٦٤): "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَى لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا"، وقوله عز شأنه فى سورة "الفرقان" (٢٧- ٢٩) عن يوم القيامة: "وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا"، وقوله سبحانه فى سورة "الحشر" (١٦- ١٧) عن المنافقين حين وسوسوا ليهود بنى النَّضِير بأن يثبتوا فى وجه محمد واعدين إياهم أنهم سوف يقفون فى صفهم ضده ويحاربونه معهم ولن يتركوهم وحدهم فى مواجهته ليُنكِّل بهم ويخرجهم من المدينة بل سيحمونهم منه ويمنعون الهزيمة عنهم: "كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِى النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ". فالشيطان، كما نرى، لا يقف مع المسلمين ضد الكافرين بل يظل يوسوس للكافرين ويؤزهم على العناد والإيغال فى الكفر حتى يستجيبوا له متصورين أنهم منصورون، لكن حين يجد الجد ويقفون أمام ربهم يتخلى عنهم الشيطان ويتركهم لحال سبيلهم المروِّع.

حتى فى موضوع القبلة وتحويلها فى المدينة بعد الهجرة ببضعة عشر شهرا من بيت المقدس إلى الكعبة فى مكة نرى الرصافى يتهم الرسول بأنه هو صاحب القرار، وإن كان قد مهد له ببعض التصرفات الموهمة بأنه إنما تلقى القرار من السماء بينما الأمر لا يعدو

أن يكون طبخة طبخها بنفسه استغرقت وقتا واحتاجب فى كل منعطف تصرفا معينا منه أقدم عليه بأناة وحذر ودهاء وتخطيط مسبق واع منتهزا كل فرصة لتطوير خطته نحو الغاية النهائية حتى تم له ما أراد بأقل الخسائر وأكبر الفوائد. أى أن كل ما قاله القرآن فى هذا الصدد هو كذب فى كذب، فليس الله هو الذى سمح له بذلك بل هو الذى عمله ثم نسبه، كما هو الحال فى كل المناسبات المشابهة، إلى الله سبحانه. وإن الدهشة لتأخذ الواحد من كل أقطاره جراء هذا التفسير العجيب المسىء للرسول عليه السلام. ألم يقل إن الله هو الموجود الوحيد وإن قوله تعالى: "وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى"، وقوله عز وجل: "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم"، لهو أكبر دليل على أن محمدا، ومثله فى ذلك أى مخلوق وأى إنسان، لا وجود له بل الوجود كله لله فقط، ومن ثم فكل عمل إنما هو من عمل الله؟ فلماذا لا يقول هنا أيضا إن تحويل القبلة إنما هو من عمل الله لا من عمل محمد، الذى ينبغى بناء على قوله بوحدة الوجود إنه غير موجود؟ لكن الرصافى لا يتبع المنطق ولا يفكر بالعقل بل يسير على أسلوب البهلوانات: فمرة إلى هذه الناحية، ومرة إلى تلك، ولا يستقر على رأى.

لقد كانت أول مناسبة افترصها محمد، حسب تحليل الرصافى، هى صلاة البراء بن معرور اليثربى إلى الكعبة قبل مهاجرة الرسول إلى يثرب. وهذا ما نقله كاتبنا فى هذا الموضوع عن "السيرة النبوية" لابن هشام: "قال ابن إسحاق: حدثنى معبد بن كعب بن مالك بن أبى كعب بن القين أخو بنى سلمة أن أخاه عبد الله بن كعب، وكان من أعلم الأنصار، حدثه أن أباه كعبا حدثه، وكان كعب ممن شهد العقبة وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بها، قال: خرجنا فى حُجَّاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا. فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال البراء

لنا: يا هؤلاء، إنى قد رأيت رأيا، فو الله ما أدرى أتوافقوننى عليه أم لا. قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت ألا أدع هذه البَنِيَّة منى بظَهْر (يعنى الكعبة) وأن أصلى إليها. قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم يصلى إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه. قال: فقال: إنى لَمُصَلٍّ إليها. قال: فقلنا له: لكنا لا نفعل. قال: فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام، وصلى إلى الكعبة حتى قدمنا مكة. قال: وقد كنا عِبْنا عليه ما صنع، وأبى إلا الإقامة على ذلك. فلما قدمنا مكة قال لى: يا ابن أخى، انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نسأله عما صنعتُ فى سفرى هذا، فإنه والله قد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم إياى فيه. قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك، فلقِينا رجلًا من أهل مكة فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا. قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه؟ قال: قلنا: نعم. (قال: وقد كنا نعرف العباس، وكان لا يزال يَقْدَم علينا تاجرًا). قال: فإن دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. قال: فدخلنا المسجد، فإذا العباس جالس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس معه. فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك. قال: فو الله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشاعر؟ قال: نعم. قال: فقال له البراء بن معرور: يا نبى الله، إنى خرجت فى سفرى هذا وقد هدانى الله للإسلام، فرأيت ألا أجعل هذه البَنِيَّة منى بظهر، فصليت إليها. وقد خالفنى أصحابى فى ذلك حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: كنتَ على قبلة لو صبرتَ عليها. قال: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه

وسلم وصلى معنا إلى الشام. قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا. نحن أعلم به منهم.

قال ابن هشام: وقال عون بن أيوب الأنصارى:

ومنا المصلِّى أول الناس مقبلًا على كعبة الرحمن بين المشاعرِ

يعنى البراء بن معرور. وهذا البيت فى قصيدة له".

ويعلق الرصافى على هذا الخبر بأن البراء قد سبق النبى فى تحويل القبلة إلى الكعبة، وهو ما وقع من نفس النبى موقعا حسنا، وكان ذلك من الأسباب التى حملته إلى تحويل القبلة إليها، فلم يُخَطِّئه فيما كان يفعل ولا دعاه إلى إعادة الصلوات التى صلاها إليها. أما الأسباب الأخرى التى دعته أيضا إلى ذلك فهى، كما يذكر الرصافى، أنه لما هاجر وأخذ يصلى لبيت المقدس بلغه أن اليهود ينتقدونه قائلين: كيف يخالفنا، وفى ذات الوقت يتبع قبلتنا؟ وقالوا للمسلمين: لو لم نكن على هدى ما صليتم إلى قبلتنا. وكان الكفار يقولون بدورهم لأتباعه: لم تقولون إنكم على ملة إبراهيم، وأنتم تتركون قبلته وتصلون إلى قبلة اليهود؟ كما كان تَرْكُه لقبلة الكعبة غير متسق مع الغاية التى يرمى إليها، وهى إنهاض العرب وفتح العالم بهم. على أن أمر التحويل، حسبما يقول الرصافى، لم يكن شيئا هينا، ولهذا كان محمد متأنيا وأخذ وقته فى ذلك ولم يتسرع، بل تظاهر بأنه ينظر فى السماء بحثا عن نجدة إلهية، كما أنزل فى سورة "البقرة" عددا كبيرا جدا من الآيات التى تسبق آيات تحويل القبلة تمهد لهذا القرار: من أول "ما ننسخْ من آيةٍ أو نُنْسِها نَأْتِ بخيرٍ منها أو مِثْلِها" إلى "سيقول السفهاء من الناس ما وَلَّاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها" وما فيها من حديث عن الكعبة ورَفْع إبراهيم وإسماعيل قواعدها، ومكانتها عند الله، وكيف أن الله موجود أينما ولينا وجوهنا... وكان من دهائه أنه حول

القبلة وهو يصلى الظهر بالمسلمين فى المدينة لكى يكون الأمر أكثر إقناعا لهم بأن الوحى قد نزل عليه بهذا التحويل. وكل ما قاله الرصافى ليس له سوى معنى واحد هو أننا فى هذا الأمر مع ممثل مسرحى كبير لا يبالى بصدق أو كذب بل بتنفيذ ما يريده بدهاء شديد، والسلام.

والواقع أن البراء لم يكن أول من تحول من الصلاة نحو بيت المقدس إلى الكعبة، إذ لم تكن القبلة قد تحددت نحو بيت المقدس وحده رسميا قبل ذلك، فقد كان الرسول يصلى نحو القبلتين جميعا بقيامه جنوب الكعبة مستقبلا إياها وبيت المقدس معا فى ذات الوقت، ولم يتجه نحو بيت المقدس وحده إلا بعد الهجرة. ومن ثم كان البراء فى استقباله الكعبة إنما يصلى نحو إحدى القبلتين اللتين يواجههما الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم إن قول الرسول له: "كنت على قبلة لو صبرت عليها" قد يعنى أنه كان ينبغى أن يظل على الصلاة إلى الكعبة كما كان يصنع قبل أن يسأله. وإذا كان الرسول يمثِّل على المسلمين فى ذلك كله، وكان هو صاحب القرار فى التحول بالقبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فلم يا ترى كان حريصا على أن يصلى إلى بيت المقدس فى مكة أصلا رغم أنه كان يصلى إلى الكعبة وحدها قبل حادثة الإسراء والمعراج كما جاء فى كتاب "الشخصية المحمدية" نقلا عن المصادر القديمة ثم لما عاد من تلك الرحلة قال إن قبلة الأنبياء كلهم كانت هى بيت المقدس؟ إن كلام الرصافى يصور الرسول بصورة رجل طلب من الناس بملء إرادته أن يكبلوا يديه ورجليه بسلسلة حديدية دون أن يضطره شىء أو أحد إلى هذا، ثم عاد فأخذ يحاول فك نفسه من تلك الكبول ملاقيا الأمرين فى ذلك، وما كان أغناه عن هذا كله! ولا يَقُلْ أحد إنه أراد مجاراة اليهود تقربا إليهم، إذ لم يكن صلى الله عليه وسلم قد انتقل إلى جوار اليهود بالمدينة بعد، كما كان القرآن فى مكة ينزل

بالآيات التى تفضح اليهود وتتحدث عن كفرهم بدينهم وتوراتهم وجنوحهم إلى الوثنية فى كل منعطف يمرون به رغم تتالى الآيات التى أنزلها الله ضد فرعون إكراما لهم.

والطريف أن الرصافى يقول فى تفسير اتجاه البراء إلى الكعبة فى صلاته إنه تعبير عن حب العرب للكعبة (ص٢٧٨- ٢٨٣). فإذا كان تصرفه يدل على ذلك فعلام يدل صلاة النبى إلى بيت المقدس وهو فى مكة، وإن أشرك معه الكعبة؟ وعلام يدل عدم موافقة اليثربيين كلهم على بكرة أبيهم للبراء فى هذا الاتجاه، وهم الأكثرية الساحقة؟ أنقول إن موقفهم هذا يدل على نفورهم من الكعبة؟ وإذا كان العرب يحبون الكعبة كل هذا الحب فلم يا ترى كان محمد حذرا يستعمل الدهاء فى خطواته نحو تحويل القبلة بعد الهجرة من بيت المقدس إلى مكة؟ لقد كان أقمن به أن يُقْدِم بكل جرأة واطمئنان على هذا التحويل الذى يحبه العرب جميعا. أليس هذا ما يقوله المنطق والعقل لو كان لدى الرصافى منطق أو عقل؟

ويختم الرصافى هذا الموضوع برقاعة، إذ قال: "ومن مهازل الرواة فى أمر تحويل القبلة ما ذكروه فى كتبهم أن رسول الله قال لجبريل: وددت أنك سألت الله تعالى أن يصرفنى إلى الكعبة. فقال جبريل: لست أستطيع أن أبتدئ الله عز وجل بالمسألة. ولكن إن سألنى أخبرتُه. فإن مثل هذا لا يليق بعظمة الله، إذ بالنظر إلى هذا لا يكون الله إلا كملك من البشر، ولا يكون محمد إلا كعامل من عماله، وجبريل ليس إلا رسول الملك إلى العامل. وحينئذ يليق بالعامل أن يقول لرسول الملك: أود لو سألتَ الملك أن يحولنى من عملى هذا إلى غيره، ويليق بالرسول أن يقول للعامل: أنا لا أستطيع أن أبتدئ بالمسألة، ولكن إن سألنى أخبرته. وأين هذا من عظمة الله، الذى لا يخفى عليه

شىء فى الأرض ولا فى السماء، وهو بكل شىء عليم يعلم ما يُسِرّ الخلق وما يعلنون، فلا يجوز أن يصدر مثل هذا من محمد، وإنماهو من تلفيق الرواة" (ص٢٨٣- ٢٨٤).

ووجه الرقاعة فى هذا الكلام أن الرصافى أولا يصورالرسول هنا بأنه ممثل مسرحى لا قلب له يضحك على الأغرار من حوله ويوهمهم أنه متصل بالسماء يتلقى منها الوحى مع أنه هو الذى يصدر القرارات وينفذها دون وحى أو سماء. فما المشكلة إذن فى القول كذبا بأن محمدا قال كذا لجبريل، فرد عليه جبريل بكذا وكذا؟ إنه كله اختراع وتلفيق كسائر اختراعات محمد وتلفيقاته لا ينبغى أن نشغل أنفسنا به، بل نبتلعه ونحن صامتون كما نبلع كل شىء آخر لفقه واخترعه. وبالإضافة إلى هذا فإن قول الرصافى بوحدة الوجود معناه أنه لا فرق بين الله والكون، بل هما شىء واحد، وما يفعله محمد فهو من فعل الله لا من فعله هو لأن الوجود الحقيقى هو وجود الله وحده. وعلى هذا فتحويل القبلة من الكعبة إلى بيت المقدس ثم من بيت المقدس إلى الكعبة كرة أخرى هو من فعل الله. فليس هناك إذن أى مسوغ لاستسخاف الرصافى لما يقوله الرواة عن الحوار بين محمد وجبريل. ذلك أن هذا الحوار المختلق كما يراه الكاتب لا يعد شيئا بجانب ما اختلقه محمد من دين وقرآن وتشريعات وقصص وأدعية وعبادات ومبادئ وقيم ثم نسبتها كلها إلى الله كما يكرر الرصافى القول. فلم التحبيك هنا، والتفويت هناك؟

بالله أيمكن أن يكون محمد كذابا وممثلا مسرحيا مخادعا على هذا النحو؟ بالله أيمكن أن ينجح هذا الكذاب فى كل ما يقول ويفعل ويتنبأ ولا تفضحه الأيام ولا الناس الذين حوله أبدا، ثم يأتى معروف الرصافى بعد كل هاتيك القرون المتطاولة فيهتك سره ويزيل ستره ويرينا أنه كان يكذب ويلفق طوال الوقت؟ ألا إن الرصافى هو

الكذاب، فمثله ممن يعاشرون المومسات ويزاولون اللواط ويدمنون الخمر والقمار ويمدون أيديهم لمعارفهم يستجدونهم الطعام والملابس والفلوس هو الكذاب الملحوس العقل، والبَجِح الذى لا يبالى أين يقع كلامه ولا إلام يتجه. ودائما ما أتساءل، ومعى كل الحق: ترى لِمَ اقتصر على محمد وراح يفك لغزه "غير المقدس" فقط وترك جميع الأنبياء والرسل الآخرين؟ ولم ترك كل الديانات غير الإسلام فلم يفكر فى هتك أستارها وإزالة أسرارها؟ وبالمناسبة فقد كان الرصافى يرى أن نسبة الزناة فى المجتمع ٩٩٪ وأن اللواط منتشر جدا حتى لكثيرا ما يقع من المتزوجين (ص٣٩٥- ٣٩٦).

وقبل أن نغادر هذه النقطة أحب أن أتساءل: ما معنى أن البراء كان يصلى إلى الكعبة بينما سائر مسلمى يثرب كانوا يصلون إلى بيت المقدس؟ هل كان يقاطعهم فلا يصلى معهم صلاة الجماعة ويصلى وحده؟ كذلك كيف يذهب هو وكعب بن مالك وحدهما لمقابلة النبى وهما لا يعرفانه؟ ألم يكن الأحرى أن يصطحبا معهما واحدا ممن يعرفه صلى الله عليه وسلم حتى لا يضطرا إلى السؤال عنه وتعريض أنفسهما للريبة من أهل مكة، وربما للأذى أيضا بسبب التوتر الذى كان يسود أم القرى جراء تخوفهم من إفلات محمد من أيديهم إلى يثرب؟ بل هل كان ممكنا وقوع اللقاء بينهما وبين الرسول والعباس فى المسجد الحرام على أعين أهل مكة؟ لقد كانت هناك ترتيبات لمقابلة النبى عليه السلام ليلا فى العقبة فى الخفاء، وهو ما يدل على ما أقول من خشية النبى وأهل يثرب اطلاع قريش على الصلة التى تربطهم بمحمد. فكيف يذهب بعض اليثربيين نهارا ودون خوف أو حذر أو توجس إلى النبى فى المسجد الحرام وتحت بصر القرشيين جميعا وسمعهم، ويسألونه فى الصلاة والقبلة بما يعنى أنهما مسلمان من أتباعه الذين يخططون لانتقاله إلى بلادهم ونجاته من قبضة قومه؟ ودعنا من قول عدد من المراجع

القديمة فى ترجمة البراء بن معرور إنه شارك فى بيعة العقبة الأولى، وبالتالى كان يعرف النبى عليه السلام، وهو ما يتعارض مع جوابه للمكى الذى سأله هو وكعب بن مالك عن محمد بأنه لا يعرفه.

ورغم كل ما سبق ورغم كل ما أبدأ فيه الرصافى وأعاد من أن القرآن ليس وحيا من الله بل اختراعا محمديا كذب وزعم أنه نزل عليه من السماء، رغم هذا كله فإن الرصافى ينسى كل هذا الذى قاله، وينقلب على عقبيه مؤكدا أن فى القرآن الذى بين أيدينا ما لا يمكن أن يصدر إلا عن الله الخالق القادر الباطش والغفور الرحيم حسب طبيعة النص والموقف (ص٦١٤ وما يليها). ومع هذا كله نرى الرصافى فى موضع آخر من كتابه (ص٥٩٧ فصاعدا) يقول بأن القرآن هو إلهام من الله، وإنْ قَصَرَ هذا الإلهام على المعانى، أما الأسلوب فهو من محمد. أى أنه قد نسف بنفسه كل ما قاله فى مواضع كثيرة من الكتاب بل كل ما أدار كتابه عليه إدارةً من أن القرآن هو من لدن محمد، الذى كذب زاعما أنه من لدن الله سبحانه، وهو كذب يساوى الصدق عند الرصافى ما دام فى مصلحة عامة، بل هو الصدق كل الصدق حسبما قال.

وفى ا لنهاية نقول بملء الفم إن محمدا لو كان كاذبا وكل ما كان يريده هو أن يتبعه الناس فلماذا لم يسلك سبيلا أخرى غير تلك التى جلبت عليه المشاكل وألوان الضرر والأذى بل ومؤامرات القتل أيضا، ووافق قومَه على ما كانوا يريدون ولم يدخل معهم فى صدام منذ اللحظة الأولى؟ لقد كان أحرى به وأفضل له لو أخذ قومه على هواهم حتى يكسبهم إلى صفه. إنه، حسب مزاعم الرصافى، لم يتلق أى وحى من السماء بل هو الذى ألف واخترع ثم تظاهر بأنه مرسل من الله إلى قومه. ومحمد داهية خطير فى رأى الرصافى، فهل الخطة التى اتبعها محمد فى تبليغ دعوته وتصلُّبه فى ذلك لا يتردد ولا

يتراجع ولا يتزحزح عن موقفه من الأوثان والتقاليد الدنسة والأخلاق المنحرفة وألوان الظلم والقهر المنتشرة فى المجتمع، هل تلك الخطة هى الخطة السليمة فى الوصول إلى الغاية التى يريد؟ بطبيعة الحال لا ثم لا ثم لا. وهذا يدل على أن ما يقوله الرصافى على مدار الكتاب هو كلام خارج عن المنطق المستقيم والعقل السليم.

والعجيب أن الرصافى فى وصيته الأخيرة يؤكد أنه "مسلم مؤمن بالله ورسوله محمد بن عبد الله إيمانا صادقا لا أرائى فيه ولا أداجى، إلا أنى خالفت المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يَرَوْنَها من الدين وليست منه إلا بمنزلة القشور من اللباب، ولا يهمنى من الذين إلا جوهره الخالص وغايته المطلوبة التى هى الوصول إلى شىء من السعادة فى الحياة الدنيوية الاجتماعية والحياة الأخروية ما أمكن الوصول إليه من ذلك بترك الشرور وبعمل الصالحات. ول ما عدا ذلك من أمور الدين فهو وسيلة إليه وواسطة له ليس إلا" (مصطفى على/ الرصافى ١- صلتى به مكتبة المثنى/ بغداد / ١٩٤٨م/ ٤٣- ٤٤). وهذا غريب أشد الغرابة وأفدحها وكَذِبٌ أبلقُ لا يمكن سترُه ولا رَتْقُه، فالرجل لا يؤمن بمحمد نبيا على الإطلاق كما وضحنا فى الفصل الحالى وغيره ولا يرى القرآن وحيا إليها بالإضافة إلى أنه كثيرا ما يخطِّئه ويركِّكه ويسخر منه، وفوق هذا لا يؤمن بالآخرة ولا بالحساب والثواب والعقاب، بل يزعم أن محمدا هو من لفق حكاية البعث والجنة والنار وما فيهما من المتع وألوان العذاب. فكيف يزعم أنه مسلم؟

هذا، ولا أريد أن أشير إلى إيمانه بوحدة الوجود، فقد يقال إن هذا هو فهمه للألوهية، أى إنه مؤمن بالله على أية حال. فليكن، أما الإيمان بنبوة محمد وبالقرآن وباليوم الآخر وبالجنة والنار فإنه لا يؤمن بشىء من ذلك. كما أنه لم يكن يصلى ولا

يصوم ولا فكر فى الحج لأنه يرى كل ذلك كلاما فارغا، وله اعتراضات عليه واقتراحات بتغيير تلك الشعائر تغييرا جذريا ليس له من معنى سوى أنه لا يؤمن بأنها من عند الله بل من تلفيق محمد، وهو قادر على تصحيحها وجعلها أفضل وأرقى. هكذا سول له شيطانه السمج مثله. وربما جَرَّأه على كتابة هذه الوصية معرفته أن أحدا لم يطلع على "شخصية محمد" خارج الدائرة التى يطمئن إلى أنها لن تفشى سر الكتاب وما فيه من بلايا ورزايا. أنا لا أصادر حريته ولا حرية أحد غيره فى الاعتقاد بما يشاء، لكنى لا أحب هذه المناورة والمداورة، ولا أحب الدفاع المقيت الذى انبرى له مصطفى على فى كتابه المذكور لتحسين صورته ومخادعة القراء عن حقيقة أمره.

ولكن ما الوحدانية التى أتى بها محمد عليه السلام حسب الرصافى وكانت من مخترعاته وتصوراته ولم يسبقه إليها أحد؟ يجيب الرصافى موضحا معنى "لا إله إلا الله"، التى هى عنوان تلك الوحدانية، بأنها "ترتقى بالناس من طور إلى طور أعلى، إذ تخرجهم من طور عبودية عامة إلى طور عبودية خاصة. أى أنها تجعل الناس كلهم مستعبَدين لإله واحد لا شريك له هو خالق الكائنات". ثم ينتقل كاتبنا إلى العبودية الخاصة التى مدحها وأسند شرف "اختراعها وتصورها" إلى محمد عليه السلام فيقول إن هناك مرتبة أعلى منها، وهى "مرتبة الفناء فى الحقيقة الكلية المطلقة اللانهائية التى هى ذات الله. وعنوان هذه المرتبة "لا موجود إلا الله"، وهى المعبَّر عنها فى كلام فلاسفة الإسلام بـ"وحدة الوجود". إذا تصورت الفضاء بأثيره وبامتداده الزمنى وبما فيه من كائن جلىٍّ أو خفىٍّ تصورا كليا لا يَعْلَق بالصور الجزئية فقد تصورتَ الحقيقة الكاملة المطلقة اللانهائية التى هى ذات الله، وعلمتَ ألا موجود غيرها. ومتى ما وقف فكرك عند صورة جزئية من صور الكائنات فقد خرج بك عن الوجود الكلى وكَفَرَ عنك ذات

الله. ومتى ما استطعت فى فكرك أن تندمج فى الوجود فانيا فيه ناسيا وجودك الجزئى غير ذاكر من نفسك صورتها المحدودة فقد جاز لك أن تظهر مظهر الوجود الكلى وأن تقول وتفعل عن ذات الله لأنك بصورتك الجزئية غير موجود إلا وجودا صوريا، وإنما الموجود هو الوجود الكلى المطلق اللامتناهى".

ثم يشرح ذلك بقوله: "إذا تدبرتَ هذا جيدا علمتَ أن الحلاج صادق فى قوله: "أنا الحق"، ولكن قوله هذا مع كونه صادقا يعتبر كفرا بذات الله لأنه قال: "أنا"، و"أنا" كناية عن الوجود الجزئى الذى لا كيان له فى خارج الوجود الكلى، وأيضا فهمتَ قول محيى الدين بن عربى: "إن النصارى لم يكفروا بجعلهم المسيح إلها، وإنما كفروا لتخصيصهم ذلك بالمسيح"، أى لوقوفهم عند صورة جزئية من الوجود الكلى. ومهما نَقُلْ عن "وحدة الوجود" فإن العبارة قاصرة عما هنالك من المعانى الدقيقة... ولقد زَلَّتْ أفكار بعضهم من وحدة الوجود إلى دعوى الحلول أو الاتحاد، فادَّعَوْا أن الله حل فى فلان أو اتحد بفلان. وهذا باطل لا يتمشى مع وحدة الوجود لأن الحلول أو الاتحاد يقتضى شيئين: حالًّا ومحلولًا فيه أو مُتَّحِدا ومتَّحَدا به. وهذا ينافى وحدة الوجود الكلى المطلق، فلا يقال إن الله حل فى فلان كما لا يقال، إذا كان البحر مائجا، إن الله حل فى الموجة، إذ ليس هناك إلا الماء، وما الموجة إلا صورة جزئية مضمحلة".

ويستمر فى كلامه ضاربا الأمثلة من القرآن على وحدة الوجود فيقول: "لقد عبر محمد عن وحدة الوجود فى القرآن بقوله: "هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم". إن هذه الآية صريحة كل الصراحة فيما ذكرناه لك من وحدة الوجود الكلى المطلق، إذ لا ريب أننا إذا قلنا إن الأول الذى لا يُدْرَك، والآخَر الذى لا يُلْحَق، والظاهر الذى يُرَى، والباطن الذى لا يُرَى، كل ذلك هو الله، كان معنى هذا القول

صريحا فى أنه لا موجود إلا الله. وهذا هو المعنى المقصود من وحدة الوجود. وهل وصل محمد إلى هذه المرتبة العليا بالتفكير أوتلقاها عن غيره بالتلقين؟ إن الجواب على هذا السؤال يحتاج إلى بحث وتنقيب، وأنا اليوم عند كتابة هذا فى منزل من الفلوجة منقطع عن وسائل البحث والتنقيب ليس لدىَّ من الكتب ما أرجع إليه. فليعذرنى القارئ إذا قلت له: إننى لا أستطيع الآن أن أجيب على هذا السؤال بشىء. إن محمدا ببلوغه هذا المبلغ الأسمى من إدراك أنه لا موجود إلا الله قد استطاع بقدرة فائقة، كما تدل عليه أقواله وأفعاله، أن يندمج فى الوجود الحق الكلى الطلق اللانهائى فانيا فيه متلاشيا به ناسيا وجود نفسه الجزئى. ولذلك جاز له أن يقول عن ذات الله ما يقول وأن يفعل عنه ما يفعل كما جاء فى القرآن من قوله: "وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى"، إذ جعل فِعْلَه فِعْلَ الله، وقوله: "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللهَ يَدُ الله فوق أيديهم"، إذ جعل بيعته بيعة الله، وجعل يده يد الله. فهو بهذا الاعتبار الفلسفى صادق فيما أخبر به عن الله، وصادق أيضا باعتبارٍ آخرَ سنذكره فيما بعد" (ص١٨ – ٢٠).

وأول شىء نتناوله من كلام الرصافى هو زعمه أن محمدا هو أول من تصور واخترع "لا إله إلا الله". وهو زعم خاطئ متهاوٍ. ذلك أن محمدا نفسه، إذا جارينا الرصافى فيما ادعاه من أنه هو مؤلف ا لقرآن ومنتحل النبوة، قد قال عكس ذلك تماما، إذ أسند هذا التوحيد إلى جميع الأنبياء الذين سبقوه، فقد جاؤوا جميعا طبقا لما ورد فى القرآن والحديث بكلمة التوحيد. وكان هذا محور الخلاف بين كل نبى وقومه وأساس العداوة والبغضاء، ولو لم يَدْعُ الأنبياء أقوامهم إلى هذا ما خاصموهم ولا حاربوهم وحاولوا قتلهم، بل لقد قتلوا بعضهم فعلا، وكانوا أحرياء أن يقتلوا محمدا أيضا لولا لطف الله به وإكرامه إياه. أما كلام الرصافى عن اليهودية والنصرانية وتأليههما عُزَيْرًا

والمسيح وإشارته إلى أن الله فى اليهودية هو إله إسرائيل فقط لا إله العالمين جميعا فلا يقدم ولا يؤخر، فنحن نتحدث عن تينك الديانتين فى أصلهما النقى لا بعد ما طرأ عليهما من انحراف وتلاعب.

تعالوا نسمع ما قاله ابن آدم الذى قتله أخوه لأن قربانه تُقُبِّل أما قربانه هو فلم يُتَقَبَّل، فقد قال له حين رآه يبسط يده ليقتله: "إنى أخاف الله رب العالمين". فالله عنده هو رب الدنيا كلها لا يشاركه فى تلك الربوبية إله آخر. ومعنى أن الأخوين يقدمان قربانا لله أنهما كانا يوحدانه. وآدم معدود بين الأنبياء، ولا يمكن أن يأتى نبى بالشرك وعبادة الأوثان أو يحصر ألوهية ربه فيه وفى قومه. ونوح دعا قومه إلى نبذ وَدٍّ وسُوَاع يغوث ويَعُوق ونَسْر ويعبدوا الله وحده لا شريك له على ما هو معروف. وهذه هى نفسها دعوة إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ويوسف وموسى حتى عيسى آخر نبى ظهر قبل محمد مباشرة: "ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين". "وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون * قال رب إنى أخاف أن يكذِّبونِ * ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون * ولهم علىَّ ذنبٌ فأخاف أن يقتلونِ * قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون * فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين*... * قال فرعون وما رب العالمين...". "وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون * قال أغيرَ الله أَبْغِيكم إلها وهو فضَّلكم على العالمين". "وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنتُ قلتُه فقد علمتَه تعلم ما فى نفسى

ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلتُ لهم إلا ما أمرتَنى به أنِ اعبدوا الله ربى وربَّكم وكنتُ عليهم شهيدا ما دمتُ فيهم فلما توفَّيْتَنى كنتَ أنت الرقيبَ عليهم وأنت على كل شىء شهيد". "وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره". "وإلى ثمودَ أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره". "وإلى مدينَ أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره"... وهكذا. وقد اكتفيت هنا بكلام القرآن ولم أشأ أن أستشهد أيضا بالأحاديث.

فكيف يقول محمد إن دعوة جميع الأنبياء والمرسلين هى دعوة التوحيد، فيأتى معروف الرصافى فيكذب محمدا مؤكدا أنه هو مخترع هذا التوحيد ومتصوره وأن أحدا لم يسبقه إليه؟ إن هذا يذكرنى بما قاله أحد النقاد لأحد الشعراء فى أحد البرامج الثقافية المصرية بالإذاعة فى ستينات القرن المنصرم حين اعترض الشاعر على الناقد بأنه يقوِّله كلاما لم يقصده فى شعره، فما كان من الناقد إلا أن قال: ما عليك إلا أن تقول، وعلىَّ أنا أن أفسر. ومتى ما انتهيتَ من قصيدتك فيلزمك الصمت، وأتحدث أنا دون أى اعتراض من جانبك. يا للبجاسة! وهو ما صرنا نسمعه رسميا منذ فترة من قول نقاد آخر زمن بموت المؤلف. أمات الله قلوبهم وعقولهم، وجعل على أسماعهم وعيونهم غشاوة بما كانوا يفترون. وهذا إن افترضنا جوازه فى الشعر فلا يجوز فى كلام الأنبياء والرسل، وإلا كانت الدنيا سداح مداح لا ضابط لها ولا رابط. ولقد أثنى الرصافى على محمد ورفعه إلى أعلى عليين ومدحه مدحا أخرجه به من النبوة إلى ما فوق النبوة بزمان وجعله مخترع دعوة التوحيد، فكيف ينقلب عليه ويكذّب ما قاله فى القرآن من أن دعوة التوحيد هى دعوة النبيين والمرسلين كلهم قبلا، ويفسر كلامه تفسيرا مضادا لمضمونه؟

لكن الرصافى لا يتوقف هنا بل يقفز قفزة أخرى زاعما أن هناك مرتبة أعلى من التوحيد هى وحدة الوجود. ومعناها أنه لا يوجد سوى الله، وأن العالم من حولنا لا حقيقة له ولا وجود. وهذا ما يقوله الرصافى نفسه كما نقلنا عنه آنفا. لكنْ بناء على هذه العقيدة لن يكون الله خالقا ولا رازقا ولا مريدا ولا ولا ولا لأنه ليس هناك مخلوقات أصلا، وما دام الأمر كذلك فليس هناك مرزوقون... إلخ. كما أن هذا القول يستلزم أن ننكر ما نراه نحن البشر وما نسمعه وما نلمسه وما نشمه وما نشعر به وما يخطر ببالنا من أفكار وعواطف لأنه لا وجود لنا ولا لأسماعنا ولا لأبصارنا ولا لعقولنا ولا لقلوبنا، بل ولا وجود قبل ذلك لما يمكن أن ندركه بعيوننا وآذاننا وجلودنا وأذهاننا وأفئدتنا، بل ولا وجود أصلا لعيوننا وآذاننا وجلودنا وعقولنا وقلوبنا. ولكن كيف ننكر كل ذلك ونحن نعايشه ونعيشه بكل كياننا؟ الواقع أنك، حسب مزاعم الرصافى والكذابين أصحاب وحدة الوجود، لا ينبغى أن تطرح تلك الأسئلة الطبيعية المشروعة، وعليك أن تكذِّب أنك موجود وأن كل ما تراه وتسمعه وتشمه وتلمسه وتفكر فيه وتشعر به لا وجود له، بل أنت نفسك لا وجود لك. فالله هو وحده الموجود، ولا وجود لأى شىء آخر سواه. وهذا كلام يطيِّر العقل ويهدم كل أبراجه.

ويترتب على هذا بطبيعة الحال أن الرصافى غير موجود وأن ما كتبه فى هذا الكتاب وفى غيره من الكتب والقصائد غير موجود وأن الخمر التى كان مدمنا لها والمومسات اللاتى كان يسافحهن والطعام الذى كان يأكله والماء الذى كان يشربه والبيت الذى كان يسكنه والشارع الذى كان يمشى فيه والوظائف التى كان يمارسها والفلوس التى كان يقبضها والأصدقاء الذين كان يعاشرهم والتلاميذ والطلاب الذين كان يعلمهم والقراء الذين كان يخاطبهم والحكام الذين كان يتصل بهم والغلمان الذين كان يأتيهم

من خلف، كل ذلك لا وجود له. بل لا وجود لمحمد ولا للقرآن ولا للتاريخ ولا للجغرافيا ولا لأى علم أو فن ولا للكتب ولا للأقلام ولا للأوراق ولا للأحبار ولا للبشر ولا للحيوانات ولا للجمادات ولا للجراثيم ولا للمكروبات ولا للفيروسات ولا للسماوات ولا للأرضين ولا للبحار ولا للأنهار ولا للصحارى ولا للحقول ولا للنباتات. ولا يوجد كتاب اسمه "الشخصية المحمدية" بل لا يوجد شخص اسمه معروف الرصافى، ولا لى أنا نفسى أىّ وجود. كل ذلك عدم فى عدم، وليس هناك سوى الله. فهذا هو مضمون كلام الرصافى عن وحدة الوجود. وعلى هذا فلا معنى لحصر وحدة الوجود فى قوله تعالى: "يد الله فوق أيديهم" فى وحدة اليد المحمدية مع اليد الإلهية كما يحصرها الرصافى، بل ينبغى أن تشمل وحدة أيدى الصحابة كلها مع يد الله، بل ينبغى أن تشمل وحدة كل شىء فى الكون مع الله جل وعلا، إذ إن وحدة الوجود تستلزم، كما رأينا، ألا يكون هناك وجود لأى أحد أو شىء غير الله.

والعجيب أنه ينقل عن ابن عربى نقل الموافق أن القرآن كفَّر النصارى فى قولهم بألوهية المسيح لا لأنهم ألهوه، فهذا هو الوضع الطبيعى، إذ لا فرق بين الله والكون بما فيه المسيح، بل لأنهم قصروا تأليههم عليه ولم يمدوه إلى كل البشر كما تقتضى عقيدة وحدة الوجود (ص١٩). وأزيد أنا فأقول إنه لا يكفى هذا أيضا بل لا بد أن ينسحب التأليه على كل الكائنات من بشر وحيوان وجماد ونبات وماء ونار وهواء وأفكار ومشاعر لا على البشر وحدهم. وبطبيعة الحال أنا لا أعتقد فى شىء من هذا لكنى أجارى الرصافى فى تساخفه. وعلى كل حال فلو كان ما يقوله عن صحة كلام ابن عربى لقد كان ينبغى أن يوضح القرآن لمؤلهى المسيح أن عليهم تأليه كل المخلوقات لا المسيح وحده، لكنه سبحانه كفرهم لمجرد إشراكهم بالله أحدا من عباده. ولم يُذْكَر المسيح فى

القرآن إلا بوصفه عبدا من عباد الله. وهذا كله يُدْحِض ما يهرف به معروف الرصافى، الذى لا أدرى أى خلل أصابه فى أخلاقه وسلوكه وعقله فجعله يردد هذا العُهْر العقيدى، ثم لا يكتفى بهذا بل يحاول أن يوهمنا أن هذا هو التفسير الصحيح الوحيد للرسالة التى كلف محمد بتبليغها للبشر من لدن رب العالمين!

كذلك إذا ما تحدثنا عن الكون الذى نشاهده حولنا فى كل مكان بصفته الجانب الآخر من الله فمعنى هذا أن الله، المتمثل فينا، لا يكاد يعرف شيئا صحيحا، فإننا نحن البشر لا نتفق على شىء، ومن ثم لا يوجد فى أحسن الأحوال مما نختلف حوله إلا شىء واحد صحيح، والباقى خطأ. ولنأخذ ما كتبه الرصافى فى كتابه المذكور مثالا على ما أقول: إنه يقول شيئا، وأقول أنا شيئا آخر، ثم يأتى ثالث فيقول شيئا يختلف عما أقول أنا وما يقول هو... وهكذا دواليك. ونحن، حسب وحدة الوجود، لا وجود لنا بل الوجود كله لله فقط. أى أن ما نقوله ونختلف حوله هو لله ومن الله لا لنا ولا منا. وإذن فالله لا يعرف الحقيقة بل يحتار بشأنها، فنراه يقول الشىء وأشياء أخرى فى كل مسألة من مسائل الوجود ولا يستقر على قول واحد يكون هو الحقيقة، ولا شىء آخر.

ولقد قرأت فى "موسوعة الفرق" فى موقع "الدرر السنية" فى الفصل الثانى: "عقائد الديوبندية" من الباب الثانى عشر عن عقائد فرقة الديوبندية الهندية فى العصر الحديث، وتحت عنوان "وحدة الوجود" ما يلى: "قيل لموحد (أى أحد المعتقدين فى وحدة الوجود): إذا كان الحلوى والخرء شيئًا واحدًا فكُلِ الحلوى والخرء جميعًا! فجعل هذا الموحد شكله شكل الخنزير، فأكل الخرء، ثم حول نفسه من صورة الخنزير إلى صورة الآدمى، فأكل الحلوى. وقد علق على هذه الأسطورة الإلحادية الوثنية والوجودية الصوفية الشيخ أشرف على الملقب بحكيم الأمة فقال: إن هذا المعترض

على هذا الموحد كان غبيا، ولذلك تكلف هذا الموحد هذا التصرف، وإلا فالجواب ظاهر، وهو أن الحلوى والخرء متحدان فى الحقيقة لا فى الأحكام والآثار". وتعليقنا على ذلك هو أننا إنما نتعامل مع الأحكام والآثار، أما الحقيقة التى يشير إليها فأين هى؟ إن هناك فروقا خطيرة بين الحلوى والخرء لا يمكن تجاهلها، وهذا ما يهمنا، وهو ما نصطدم دائما به ولا يمكن القفز فوقه وتجاهله. وأما مقدرة المعتقد بوحدة الوجود على تصيير نفسه خنزيرا وإعادة نفسه إنسانا مرة أخرى فهو كلام الضالين المضلين. وهم لا يستطيعون غير هذا الكلام الممخَّط لأنهم كذابون يتصورون أنهم يمكنهم بسفسطاتهم المضحكة هذه تجاهل الوقائع الصلبة المدببة التى تخزق عيونهم ويستطيعون أيضا خداعنا وإيهامنا بصحة هذا الضلال الذى يزعمون أنه هو الإيمان الصحيح.

كما أن هذا الضال المضل يتجاهل أن وحدة الوجود تعنى أنه لا وجود لغير الله، ومن ثم فلا وجود لحلوى ولا خرء ولا وجود له هو نفسه ولا لآكل الحلوى والخرء ولا لمقترح أكل الحلوى والخرء عليه ولا ولا ولا. لكن المشكلة هى أنه وأمثاله يعتمدون البهلوانية الفكرية منهجا، ثم إنهم عند التصرف يتصرفون مثلى ومثلك أيها القارئ العزيز، فحين يجوعون لا يقولون لأنفسهم: ليس هناك وجود لشىء اسمه الجوع ولا لقرصات البطن وصرخاتها بل لا وجود لنا أنفسنا، وليس هناك سوى الله، بل يسارعون إلى الطعام يأكلونه، وإلى الشراب يتجرعونه، وإلى الحلوى ينهون بها وجبتهم، وإلى الحمّام يفرغون ما ملأوا به بطونهم، وإلى الدواء يعالجون به مغصهم وانتفاخ قولونهم... وهكذا. ولو كانوا صادقين لتجاهلوا وجودهم ذاته وعَدُّوه كأنْ ليست له حقيقة ومَضَوْا دون أن يلتفتوا لطعام أو شراب أو مال أو أى شىء آخر فى

الحياة. لكن كما نعرف فإن باب الزعم والتهويش لا ينغلق أبدا فى وجوه غليظى الجلود ثخينى الوجوه.

والرصافى يستشهد على أن وحدة الوجود هى العقيدة التى دعا إليها محمد عليه السلام بقوله تعالى عن ذاته جل وعلا: "هو الأول والآخر والظاهر والباطن" كما رأينا قبل قليل، متجاهلا أن "الأول" هو الذى لا يسبقه فى الوجود شىء، فهو أزلى بينما كل الموجودات تاريخية، أى لم تكن ثُمَّ كانت، بل كانت لأنه خلقها وأراد لها أن تكون، وأن "الآخِر" هو الذى لا نهاية له لأنه أبدى، و"الظاهر"، هو الذى تظهر قدرته فى مخلوقاته وإبداعاته، و"الباطن"، الذى لا يُرَى ولا يُسْمَع ولا يُحَسّ ولا يُدْرَك، ومع هذا فهو موجود ولا يمكن أن يكون وجود دون أن يكون مِنْ خَلْقه أو دون أن يعيش برزقه وحفظه وقيوميته. وفى الحديث "عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو عِنْدَ النَّوْمِ: "اللَّهُمَّ ربَّ السموات السَّبْعِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شىء، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شىء أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ. أَنْتَ الْأَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَكَ شىء، وَأَنْتَ الْآخِرُ لَيْسَ بَعْدَكَ شىء، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لَيْسَ فَوْقَكَ شىء، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ لَيْسَ دُونَكَ شىء. اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ". وفوق ذلك فالرصافى يتغافل عن قوله سبحانه فى نهاية الآية: "وهو بكل شىء عليم" بما يعنى أن هناك أشياء، وأن علمه يتعلق بها. إذن فبنص الآية هناك "الله"، وهناك أيضا "كل شىء" من سماوات وأرضين وبشر وطير وحيوان ونبات ومعان وأفكار ومشاعر وعواطف وخواطر وشهوات وهواء ونار وماء.

كذلك فالآية التى بعد ذلك تقول: "هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يَلِجُ فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء

وما يَعْرُج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير"، وفيها طرفان: الله الخالق العليم المستوى على العرش والذى معنا فى كل مكان وزمان وفى كل حال، وفى الطرف الآخر مخلوقاته عز شأنه. وهذا موجود فى كل آيات القرآن من أوله إلى آخره. فالله شىء، والكون شىء آخر: الله هو الخالق الرازق العليم القيوم، والكون هو المخلوق المرزوق المعلوم المحفوظ بحفظه جل وعلا. وفى العالم الآخر سيكون هناك حساب وثواب وعقاب. فهل الله يخلق نفسه ويرزقها ويقوم على حفظها فى الدنيا، ويحاسبها ويرسلها إلى الجنة والنار معا فى الآخرة؟ أم ماذا؟ إننى لا أصدق نفسى وأنا أكتب هذا الكلام على ما فيه من سخف وتهافت وتهاوٍ. ولكن ما العمل، وفى البشر من يكتبون كلاما كله تنطع وسخف ورقاعة؟ وعلى نفس الشاكلة يقول مولانا جل شأنه: "كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام"، وهو ما يفيد أن هناك وجودين: وجودا فانيا هو وجودنا نحن المخلوقات، ووجودا باقيا بلا نهاية هو وجوده سبحانه.

ومما يستشهد به الرصافى أيضا على وحدة الوجود من القرآن قوله جل شأنه للنبى محمد: "وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى". فمحمد، كما يقول الرصافى، قد فنى فى الله وتلاشى به ولم يعد له وجود جزئى بل اندمج فى الوجود الحق الكلى المطلق. وهو يرى أن محمدا هو قائل هذا الكلام لأن القرآن، فى نظره، هو من تأليف محمد. بل إنه ليتنطع ويتراقع قائلا إنه هو للأسف بعيد عن المكتبات العامة، ومن ثم لا يستطيع أن يعرف هل أتى محمد بهذا الكلام من عنده أم استقاه من مصدر ما. أى أن محمدا لم يتلق كلامه عن الله بل إما افترعه من عنده أو أخذه من مصدر ما، وكل ما هنالك أن المصادر والمراجع غير متوافرة له، وإلا لوضع يده فى الحال على محمد وهو متلبس بالجريمة. ومعنى الآية أن الله هو خالق البشر وواهبهم القدرة على الفعل والترك

وأعطاهم الإمكانات الجسدية والمعنوية والأدوات التى يستعينون بها على ما يريدون من فعل ذاك وتجنبه والقوانين التى تحكم تفكيرهم وشعورهم وتصرفاتهم. فهذا معنى "وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى". فهو سبحانه يريد أن يربيهم على التواضع وعدم الغرور والجعجعة، إذ هم فى كل أمور حياتهم يرجعون إلى الله سبحانه، مع وجود نطاق نسبى من الحرية هو أيضا الذى خلعه عليهم وميزهم به عن سائر مخلوقاته.

وفاته أن الله المتحدث هنا يخاطب رسوله بوصفه كائنا مختلفا عنه، وإلا فكيف يكلم سبحانه شيئا لا وجود له؟ وما دام الله شيئا، ومحمد شيئا آخر، فكيف يزعم الرصافى أن محمدا قد فنى فى الوجود الكلى المطلق ولم يعد له وجود خاص به؟ أتراه قد فقد وعيه بوجوده وأخذ يسير ويجلس وينام ويأكل ويحادث أصحابه وزوجاته وهو ذاهل لا يعى من أمره ولا أمور مَنْ حوله شيئا؟ أتراه لم يكن يشعر بجوع ولا عطش ولا برغبة فى الراحة والنوم ولا يلتفت لزوجاته وبناته وأحفاده؟ لا بل أتراه قد امَّحَى من الوجود واندمج فى المطلق؟ كذلك فإن كلام الرصافى هنا يناقض كلامه السابق، ففى كلامه السابق لم يكن هناك وجود أساسا سوى وجود الله، أما هنا فهناك وجودان: وجود محمد (وسائر البشر)، ووجود الله الذى ذاب فيه وجود محمد. وواضح أن الرصافى لا منطق لديه ولا عقل ولا فهم ولا حصافة بل ثرثرة، وثرثرة ليس إلا. إنه يتخبط ويتناقض ولا يبالى. إنه مغرم بترديد الكلام الغريب الشاذ.

وكما فعلنا فى آية سورة "الحديد" قبل قليل نفعل هنا مع الآية التالية من سورة "الأنفال": "وإذ يمكر بك الذين كفروا لِيُثْبِتوك أو يقتلوك أو يُخْرِجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين". فإذا كان الله هو الموجود الوحيد فمن يا ترى هو ذلك الكائن الذى كان الكفار يمكرون به ويريدون حبسه أو قتله أو إخراجه؟ ومن يا ترى

أولئك الذين كانوا يريدون أن يصنعوا به ذلك؟ أيكون الله هو الماكر والممكور به، وهو مريد الحبس والقتل والطرد من مكة، وفى نفس الوقت هو المراد حبسه وقتله وطرده؟ وفى كل موضع فى القرآن نجد الله ربا، ومحمدا عبدا. بل يصل الأمر فى بعض الأحيان أن يعاتبه الله ويشتد فى الحديث إليه. فهل يعاتب الله نفسه ويعنفها ويهددها؟ أم ماذا؟ وهل لو كان الله يعاتب نفسه ويعنفها ويهددها أهو يحتاج إلى التلفظ بذلك؟ إننا لو فعلنا ذلك مع أنفسنا تصوَّر الناس من حولنا أننا نهذى أو قد جُنِنَّا. وأما قوله جل جلاله فى سورة "الفتح" عن مبايعة المسلمين لنبيهم لدى الحديبية حين انشرت شائعة تقول إن المشركين قد قتلوا عثمان رسولَ رسولِ الله إليهم، فبايع الصحابة رسول الله عليه السلام بالثبات والصمود فى وجه المشركين ومؤامراتهم وعدوانهم ومنعهم لهم من دخول مكة لتأدية مناسك العمرة: "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون اللهَ يدُ اللهِ فوق أيديهم"، هذا القول ليس فيه أية إشارة إلى وحدة الوجود، بل الكلام فيه على المجاز بمعنى أن الله سبحانه يبارك هذه المبايعة ويكافئ الموفين بها ويعاقب الناكثين لها طبقا لما يقول باقى الآية: "فمَنْ نكثَ فإنما ينكث على نفسه ومن أَوْفَى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجرا عظيما"، وإلا فإذا كانت الآية تتحدث عن وحدة الوجود فكيف تتحدث الآية عن طرفين: الله سبحانه والصحابة؟ ترى هل يبايع الله نفسه ويثيبها إن وفت، ويعاقبها إن خاست؟ ذلك كلام لا يصدر عن العقلاء أبدا.

إن الرصافى يترك مئات الآيات الواضحة الصريحة فى أن الله شىء، والبشر وسائر المخلوقات شىء آخر، ودعنا من الأحاديث التى لا تكاد تنتهى وتقول نفس القول، ويتشبث بآية مجازية هنا وآية مثلها هناك، ويظن أنه يمكنه الضحك علينا وإيهامنا بصحة ما يدعيه عن وحدة الوجود. إن العلاقة بين الله والكائنات بطول القرآن وعرضه هى

علاقة الخالق بالمخلوق، والرازق بالمرزوق، والحافظ بالمحفوظ، والمحاسِب بالمحاسَب، والمكافئ بالمكافأ، والقادر بالمقدور عليه. باختصار: هى علاقة الرب بالعبد. لكن الرصافى يصر فى لَدَدٍ عجيبٍ ليس له معنى على تجاهل هذا كله ولَيِّ بعضِ الآيات المفردة المستعملة مجازيا عن وجهها إلى الوجه الذى يريد. أيريد الرصافى أن يقنعنا أن الله هو شارب الخمر، وهو الزانى، وهو السارق، وهو الخائن، وهو القاتل، وهو الكاذب، أوحتى أنه سبحانه هو المصلى، وهو الصائم، وهو الصادق، وهو الخائف المرتعش إيمانا وتقوى؟ أنا هنا لا أتقول على القائلين بوحدة الوجود، فقد صرح بهذا المعنى الحلاج إمامهم. قال:

أنـــا أنـــت بـــلا شـــكٍّ   فـــسبحانك ســـبحانى
وتوحيـــدك توحيـــدى   وعـــصيانك عـــصيانى
وإســـخاطك إســـخاطى   وغفرانـــك غفرانـــى
ولم أجلـــد يـــارب   إذا قيـــل: هـــو الزانـــى؟

وأعتقد أن البيت الأخير يكشف عن المراد من كل هذه اللفة الطويلة التى لفها الحلاج. إنه يريد التفلت من قيود الدين، لا بالنسبة للواجبات فقط، بل أيضًا بالنسبة للآثام، التى مَثَّل لها بالزنا. ويسمى الصوفية مثل هذا الكلام: "شطحا". وهم يعرّفون "الشطح" بأنه "كلام يترجمه اللسان عن وَجْدٍ يفيض عن معدنه مقرون بالدعوى"، وأنه "عبارة مستغرَبة فى وصف وَجْدٍ فاض بقوته وهاج بشدة غليانه وغلبته" (السرّاج/ اللُّمَع/ تحقيق ألن نيكلسون/ ليدن/ ١٩٤١م / ٣٤٦، ٣٧٥). ويشرح د. عبد الرحمن بدوى ذلك قائلا: "الشطح إذن تعبير عما تشعر به النفس حينما تصبح لأول مرة فى حضرة الألوهية، فتدرك أن الله هى، وهى هو" (د. عبد الرحمن بدوي/ شطحات

الصوفية/ ط٣/ وكالة المطبوعات/ الكويت/ ١٩٧٨م/ ١/ ١٠). وهذه دعوى خطيرة غير معقولة، وأرى أن الأفضل تعريف "الشطح" بأنه "الزعم الزائف من قِبَل شخص ما بحلول الله فيه. وأساس هذا الادعاء هو الدجل أو الاضطراب الفكرى أو النفسى". ولم تكن هذه الشطحات الحلولية الحلاجية مقصورة على الشعر، فقد ذكر تلميذه إبراهيم الحلوانى أنه سمعه يدعو بعد الصلاة ذات مرة بكلام جاء فيه: "يا هو أنا، وأنا هو، لا فرق بين إنِّيَّتى وهُوِيَّتك إلا الحدوث والقِدَم"، ثم التفت إليه ضاحكًا وقال له: "أما ترى أن ربى ضرب قِدَمه فى حدوثى حتى استهلك حدوثى فى قِدَمه فلم يبق له إلا صفة القديم ونطقى فى تلك الصفة؟ والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدوث. ثم إذا نطقتُ عن القِدَم ينكرون على ويشهدون بكفرى ويَسْعَوْن إلى قتلى" (أخلاق الحلاج/ جمع وتحقيق لويس ماسينيون/ ١٩٥٧م/ ٢٠). والعجيب أن بروكلمان يرجع رفض علماء الدين لهذه المزاعم الحلاجية السخيفة إلى خطورتها على "النظام الاجتماعى المتهافت" على حد تعبيره (بروكلمان/ تاريخ الشعوب الإسلامية/ ٢٣٨). ولا أدرى، ولست إخال أدرى، ما العلاقة بين ادعاءات الحلاج هذه والنظام الاجتماعى للدولة العباسية فى عصره.

وأحسب أن هذا النص الشعرى الأخير قد يعضد الاتهام الذى شهدت به زوجة ابنه أمام القضاة لدن محاكمته، إذ قالت إنها لم تشعر، وهى نائمة فوق سطح البيت، إلا والحلاج قد غَشِيَها، فهبت مذعورة تسأله عما يريد، وكانت نائمة إلى جوار ابنته، فهدّأ روعها قائلا إنه إنما جاء ليوقظها للصلاة (انظر "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادى/ ٨/ ١٣٥، وأحمد أمين/ ظهر الإسلام/ ٢/ ٧١- ٧٢). ولقد كان الأولى به،

لو كان صادقًا، أن يناديها هى وابنته من بعيد، أو أن يوقظ ابنته أولا وتوقظ هى بدورها زوجة الابن. ألم يكن هذا هو التصرف المنطقى السليم؟

ولعله من أجل ذلك قد كرر القول فى أشعاره بأنه يقول أشياء لا يعلم بها اللوح والقلم، ويجهلها فلا يسجلها الكرام الكاتبون:

شىء بقلبى، وفيه منك أسماءُ لا النور يدرى به، كلا، ولا الظُّلَمُ
ونور وجهك سرٌّ حين أشهده هذا هو الجود والإحسان والكرمُ
فخذ حَدِيثِىَ، حِبِّى. أنت تعلمه لا اللوحُ يعلمه حقًّا ولا القلمُ

***

قلوب العاشقين لها عيونٌ ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنةٌ بأسرار تناجى تغيب عن الكرام الكاتبينا

وما دام الكرام الكاتبون يفوتهم ما يقول فلا حساب إذن، لأن الحساب إنما يكون على وفق صحائف الأعمال.

ولكن لم ينبغى، كما يزعم أصحاب وحدة الوجود، أن يكون الله هو رب العالمين، وهو أيضا العالَمون أنفسهم، وهو المكافِئ، وهو المكافَأ؟ نعم لماذا؟ وهل يمكن أن يكون الإله كما قلت محتارا مضطربا، فيكون فى بعض الأحيان النادرة الشاذة متصورا أنه لا يوجد سواه، وفى كل الحالات الأخرى متصورا أن هناك وجودين: وجود الإله، ووجود العباد؟ ثم هل يصح أن يتبعض الإله فيكون بعض منه بشرا، وبعض منه حيوانات، وبعض منه هواء، وبعض منه ماء، وبعض منه جمادات، وبعض منه نباتات، وبعض منه أسماكا... إلخ؟ ليس ذلك فقط بل إن كل فئة من هذه المخلوقات تتبعض إلى مليارات الأفراد على مدى التاريخ والجغرافية. ثم أليس

مضحكا أن أكون أنا وغيرى ممن ينكرون وحدة الوجود على خطإ رغم أننا بعض من الإله ما دام لا يوجد سوى الله، ومن وما عداه لا وجود لهم؟ أى إله ذلك الذى لا يعرف أنه إله أو بعض من الإله؟ وهذه الحروب والاختلافات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفلسفية والنفسية والدينية والمذهبية التى يعج بها العالم وكان يعج بها ولا يزال وسوف يظل أتكون كلها حروبا ومعارك بين الله وبين نفسه ما دام لا وجود إلا لله، ونحن لا ندرى؟ لكن هل الله يمكن أن ينقسم على نفسه؟ هذا المنقسم ليس هو الله بل مخلوقات الله.

وفى "الموسوعة العربية العالمية" تحت عنوان "وحدة الوجود" نقرأ أنها "معتقد يَدَّعى بأن الذات الإلهية كائنة فى كل الأشياء. ويرتبط هذا المعتقد فى الغالب بالديانات الوثنية التى تتجه إلى عبادة بعض مظاهر الطبيعة... ويمكن القول إن معتقد وحدة الوجود يشير إلى أى فلسفة دينية تقرن وجود الآلهة بالطبيعة. ويقول المتصوفة بوحدة الوجود كالحلاج، إذ إنه قال: "ما فى الجبة إلا الله". وقال أيضًا:

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتَنى أبصرتَه ... وإذا أبصرتَه أبصرتنا"

وفى كتاب "الشرق الفنان" للدكتور زكى نجيب محمود يطالعنا حديثه التالى عن الحلاج أيضا: "اقرأ قولة الحلَّاج المشهورة: "أنا الحق"، التى صاغ بها مذهبه فى وَحْدة الوجود صياغةً مختصرة واضحة، فهو يرى أن الإنسان إذا ما طهَّرَ نفسه وصفَّاها بأنواع الرياضة والمُجاهَدة والزهد وجَدَ حقيقةَ الصورة الإلهية التى طبَعَها الله فيه لأن الله خلق الإنسان على صورته. وهو فى ذلك يقول: تجلَّى الحق لنفسه فى الأَزَل قبلَ أن يخلق الخلق وقبل أن يعلم الخلق، وجرى له فى حَضْرة أَحَدِيَّته مع نفسه حديثٌ لا كلامَ فيه

ولا حروف، وشاهد سبحانه ذاته فى ذاته، وفى الأَزَل حيث كان الحق ولا شىء معه، نظر إلى ذاته فأَحَبَّها وأثنى على نفسه، فكان هذا تجلِّيًا لذاته فى ذاته فى صورة المَحَبّة المُنَزَّهة عن كل وصف وكل حد، وكانت هذه المَحَبة عِلَّةَ الوجود والسبب فى الكثرة الوجودية. ثم شاء الحق سبحانه أن يرى ذلك الحب الذاتى ماثلًا فى صورةٍ خارجية يشاهدها ويخاطبها، فنظر فى الأزل، وأخرَجَ من العَدَم صورةً من نفسه لها كلُّ صفاته وأسمائه، وهى آدم الذى جعله الله صورتَه أبدَ الدهر. ولمَّا خلق الله آدمَ على هذا النحو عظَّمَه ومجَّدَه واختاره لنفسه، وكان من حيث ظهور الحق بصورته فيه وبه هو هو".

وفى "الموسوعة العربية" السورية، وتحت نفس العنوان، نقرأ ما يلى: "وحدة الوجود (pantheism or panentheism) مذهب فى الوجود يوحد الله والعالم، ويزعم أن كل شىء هو الله أو أن الله هو كل شىء، بمعنى أن الله مبدأ لاشخصى متوحد مع الطبيعة وحالٌّ فيها، وأن الله ليس مستقلا عن العالم، وأن العالم مظهر من مظاهر الذات الإلهية، وليس له وجود فى ذاته...".

وفى "قصة الفلسفة الحديثة" يقول د. زكى نجيب محمود عن الفيلسوف اليهودى سبينوزا وتأثره بمن قرأ لهم من الفلاسفة إنه "قد راعَهُ ما ذهب إليه موسى القرطبى من وحدة الله والكون واعتبارهما حقيقة واحدة، وصادفته هذه الفكرة نفسها فى حسداى، الذى ارتأى أن الكون المادى هو جِسْم الله، ثم قرأ فى ابن ميمون بحثًا فى نظرية ابن رُشْد، التى تزعُم أن الخلود لا يتعلق بالأشخاص والأفراد، ولكن هذه الكتُب التى قرأها بذرَتْ فى نفسه بذور الرِّيبة والشك، وأثارت فى ذهنه من المسائل والمشاكل ما لم يستطِعْ حلَّها، فأبَتْ نفسه المتطلعة إلا أن يقرأ ما قاله رجال الفكر فى الديانة المسيحية عن الله وعن مصير البشر لعلةَّ مُصادِفٌ عندهم ما يشفى غُلَّته، فبدأ يدرُس اللغة

اللاتينية حتى استوعبَها، وعن طريقها استطاع أن يُطالع تراث الفكر الأوروبى، سواء منه القديم والأوسط، فدرس سقراط وأفلاطون وأرسطو، كما درس فلسفة الذَّرِّيِّين التى صادفَتْ منه إعجابًا عظيمًا، وطالع الفلاسفة المدرسيين، وأخذ عنهم كثيرًا من مصطلحاتهم الفلسفية، كما اقتبس منهم طريقتهم الهندسية فى استخدام البدائه والتعاريف والقضايا والبراهين والنتائج وما إلى هذه من طرُق البحث فى الهندسة. كذلك درَس فلسفة برونو ذلك الثائر العظيم الذى أنفق حياته فى التجوال من بلدٍ إلى بلد، والانتقال من عقيدةٍ إلى عقيدة، باحثًا دهشًا مُرتابًا، والذى حكمَتْ عليه محكمة التفتيش آخِر الأمر أن يُقتَل "من غير أن يُراق دمُه"، أى أن يُحرَق حيًّا. وأول ما استرعى نظر سبينُوزا من آراء برونو هى فكرته عن وحدة الوجود، فكل الحقيقة واحدة فى عنصرها، واحدة فى عِلَّتها، والله وهذه الحقيقة شىء واحد. كذلك ارتأى برونو أن العقل والمادة شىء واحد، فكل ذرَّة مما تتألَّف منه الحقيقة مركبة من عنصرٍ مادى وعنصرٍ رُوحِى قد امتزجا بحيث لا يقبلان التجزئة والانفصال، وموضوع الفلسفة هو أن تُدْرِك وحدة الوجود فى تعدُّد مظاهره، وأن ترى العقل فى المادة، والمادة فى العقل. وقد كان لهذه الفلسفة أثرٌ عظيم فى سبينُوزا".

وفى مادة "pantheism"بـ"Encyclopædia Britannica" يقول محررها: " the doctrine that the universe conceived of as a whole is God and, conversely, that there is no God but the combined substance, forces, and laws that are manifested in the existing universe… Pantheism stresses the Identity between God and the world".

وبمناسبة الإشارة فى النص الأول من هذه النصوص الثلاثة إلى قول الحلاج: "أنا من أهوى ومن أهوى أنا..." وقوله: "ما فى الجبة إلا الله" فإن الرصافى قد أورد له قولة أخرى تجرى فى نفس المضمار والاتجاه، وهى قوله: "أنا الحق"، وكانت له أقوال أخر

تسير نفس المسير من مثل تلك الأبيات المذكورة آنفا والتى يقرن بها بينه وبين الله ويرى أنه إذا زنى فينبغى أن يجلد الله معه لأنه هو والله شىء واحد، وأنه من الظلم أن يعاقب هو ويفلت الله سبحانه من العقوبة. أستغفر الله رب العالمين. يقول مستنكرًا:

أنـــا أنـــت بـــلا شـــكٍّ فـــسبحانك ســـبحانى
وتوحيـــدك توحيـــدى وعـــصيانك عـــصيانى
وإســـخاطك إســـخاطى وغفرانـــك غفرانـــى
ولم أجلـــد يـــارب إذا قيـــل: هـــو الزانـــى؟

وكل تلك الأقاويل تبرهن على خبثه وبهلوانيته، إذ يريد أن يقول إنه هو الإله، والإله هو. فهل الإله يمكن أن ينحصر فى جبة أو كيان إنسانى محدود؟ فكيف يا ترى وهو سبحانه لا أول له ولا آخر ولا يمكن حصره ولا تحديده بأية حدود؟ ثم كيف يوجد الله فى جبة الحلاج بالذات دون جُبَب الآخرين؟ إن محمدا المتهم من قبل الرصافى بأنه صاحب فكرة وحدة الوجود لم يقل يوما إن الله موجود فى ردائه أو إزاره أو لحافه أو سرواله ولا نسى نفسه مرة فربطها بربه إلا برباط العبودية والعُنُوّ والسجود والابتهال والاستغفار. كذلك لو صح ادعاء الحلاج السمج لكان مقتضاه أنه فوق الألم والجوع والعطش والخوف والاستعطاف، فالإله لا يجوع ولا يعطش ولا حاجة به إلى النوم ولا شهوة له يبغى أن يشبعها... إلخ. ثم كيف يعاقَب الله جل جلاله إن زنى الحلاج، منه لله؟ إن الصوفية الذين يدعون إلى وحدة الوجود إنما يريدون أن يعيشوا على حل شعرهم فيشربوا الخمر ويزنوا ويرتكبوا الموبقات دون أن ينعى عليهم أحد شيئا. وهم فى هذا يصلون إلى نفس النتيجة التى وصل إليها آخرون منهم من أنهم من

شدة تقواهم قد بلغوا الغاية التى ليس بعدها غاية فى العبادة والتقوى واجتناب المحرمات وصار من حقهم عندئذ إسقاط التكاليف الشرعية عن أنفسهم.

وهذا الذى كان يزعم أنه هو والله شىء واحد هو هو نفسه الذى كان يستعطف قضاته بكل حرارة والتهاب ألا يعدموه وأن يطلقوا سراحه، فكيف بالله يتنزل هذا الكذاب من علياء ألوهيته وينسحق تحت أقدام بعض عباده مسترحما متذللا؟ هل الإله يسترحم عباده ويتذلل لهم؟ فمنذ متى كان ذلك يا ترى؟ لكننا لا ينبغى أن ننسى أنه بشر، وبشر مدلس يزعم المزاعم الكاذبة ويحاول إيهام البسطاء بأنه ارتفع عن أفق البشر ولحق بأفق الألوهية. بيد أن حَرَّ التعذيب قد أعاده إلى صوابه فانكب على أقدام محاكميه يترجاهم أن يرحموه. وأنا، حين أقول هذا، لا أرافئ قضاته على الحكم عليه بالإعدام بل أناقش مقولته المتنطعة ليس غير.

وحكى عنه الحاكون أنه كان يشتغل بالشعوذة يضحك بها على عقول السذج والبسطاء والمخلولى العقل. كما كان يَدَّعِى حلول الله فيه، وأُثِرَتْ عنه أقوال يتحدث فيها عن نفسه وعن الله بوصفهما شيئًا واحدًا. كذلك قيل إنه دعا إلى إسقاط فريضة الحج والاستعاضة عنها بالدوران حول حجرة طاهرة فى البيت والقيام ببعض أعمال الخير تجاه الفقراء كإطعامهم وتوزيع الأموال عليهم. ومن شعوذاته التى حكيت عنه أنه كان يمد يده فى الهواء ثم يستردها وقد امتلأت بالدراهم، وكان يسميها: "دراهم القدرة". كما روى أنه أحيا عددًا من الطير، وأنه كان يأتى بالفاكهة فى غير إبانها، ويقرأ ما فى نفوس الناس. ويرجع هذا إلى ما تعلّمه فى الهند من السحر والشعوذات، وإلى الحيل التى كان يُعِدّها سَلَفًا ويموّه بها على السذَّج. ويحكى عن أحدهم أنه لما قال له الحلاج: "تؤمن بى حتى أبعث إليك بعصفورة تطرح من ذَرْقها وزن حبة على كذا مَنًّا

من نحاس فيصير ذهبًا؟" رد عليه متهكما: "بل أنت تؤمن بى حتى أبعث إليك بفيلٍ يستلقى فتصير قوائمه فى السماء. فإذا أردتَ أن تخفيه أخفيته فى إحدى عينيك؟"، وأن الحلاج قد بُهِت عندئذ وأُفْحِم. كما ذكر واحد آخر منهم أن الحلاج لما أرسل إليه يدعوه إلى الإيمان به ومتابعته على ما يقول قال للرسول: "هذه المعجزات التى يُظْهِرها قد تأتى فيها الحِيَل، ولكن أنا رجلٌ غَزِلٌ، ولا لذة لى أكبر من النساء وخلوتى بهن. وأنا مبتلًى بالصلع، ومبتلًى بالخضاب لستر المشيب. فإن جعل لى شَعْرًا ورَدَّ لحيتى سوداء بلا خضاب آمنتُ بما يدعونى إليه كائنًا ما كان: إن شاء قلت: إنه باب الإمام، وإن شاء: الإمام، وإن شاء قلت: إنه النبى، وإن شاء قلت: إنه الله!" وأن الحلاج لما سمع جوابه يئس منه وانصرف عنه.

وبالمثل حُكِيَتْ حكايات عن زهده وعبادته لا يستسيغها الإسلام، فقد قالوا مثلا إنه لما كان فى مكة مكث سنة فى صحن المسجد الحرام لا يبرح موضعه إلا للطهارة أو الطواف، غير مبال بالشمس أو المطر. وكان إفطاره على ماء وأربع قضمات من رغيف. وقد عاب بعضهم عليه تعذيبه هذا لنفسه وتنبأ له بأن الله سوف يبتليه بلاء لا يطيقه. وشهدت عليه زوجة ابنه بأنها كانت نائمة على السطح ذات ليلة، وكان معها ابنته، ففوجئت به يغشاها. فلما هبت مذعورة مستنكرة ذكر لها أنه إنما جاء ليوقظها لصلاة الفجر، وهو ما أشرنا إليه آنفا. كما اتهمته أمام القضاة الذين كانوا يحاكمونه بأنه أمرها صبيحة ذلك اليوم، وهى نازلة من السطح وكان هو فى أسفل الدَّرَج، أن تسجد له فرفضت. وانتهت المحاكمة بأن ضُرِب ألف سوط وقُطِّعَتْ أطرافه وصُلِب وأُحْرِقَتْ جثته وعُرِضَتْ على الناس عدة أيام على الجسر ببغداد، وكان ذلك سنة ٣٠٩ هـ. (انظر فى حياة الحلاج وشخصيته "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادى/ دار الكتاب

العربى/ بيروت/ ٨ / ١١٢-١٤١، و"تكملة تاريخ الطبرى" للهمدانى/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ دار سويدان/ بيروت/ مجلد ١١ من تاريخ الطبرى/ ٧٩-٨٩، و"وفيات الأعيان" لابن خَلِّكان/ تحقيق د. إحسان عباس/ دار صادر/ بيروت/ ٢/١٤٠- ١٤٦، و"الفخرى فى الآداب السلطانية" لابن الطِّقْطِقا/ دار صادر/ بيروت/ ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م/ ٢٦٠- ٢٦٢، و"دائرة المعارف" للبستانى/ مجلد ٧/ مادة "الحلاج"، و"تاريخ الشعوب الإسلامية" لكارل بروكلمان/ ترجمة أبو العلا عفيفى/ لجنة التأليف والترجمة والنشر/ القاهرة/ ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩م/ ٨٥- ٨٦، و"ظهر الإسلام" للدكتور أحمد أمين/ ط ٤/ مكتبة النهضة المصرية/ ١٩٦٦م / ٢/ ٦٩- ٧٦، و"شخصيات قلقة فى الإسلام" للدكتور عبد الرحمن بدوى/ ط ٢/ وكالة المطبوعات/ الكويت/ ١٩٧٨م/ ٥٩ – ٩١ حيث يجد القارئ ترجمة لبحث ماسينيون المسمى: "المنحنى الشخصى لحياة الحلاج شهيد الصوفية فى الإسلام"، و"العصر العباسى الثانى" للدكتور شوقى ضيف/ ط ٢/ دار المعارف بمصر/ ٤٧٧ – ٤٨٢، و"ديوان الحلاج"/ صنعة د. كامل مصطفى الشيبى/ ط٢/ دار آفاق عربية/ بغداد / ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤م/ ١٥ – ٢٢). ومع هذا كله فإن بعضا من اليساريين وأمثالهم من الآبقين من الدين والإيمان يزعمون أن الحلاج كان مصلحا دينيا يريد إقامة العدالة الاجتماعية والاقتصادية رغم أنه لم يُؤْثَر عنه الدعوة إلى شىء من ذلك، ولم نر فى حياته وتصرفاته سوى ما قرأناه عن راسبوتينيته الفاجرة.

ورغم أن الرصافى قد أكد أن محمدا هو أول من أتى بالتوحيد فى تاريخ البشرية، وهو ما فندناه، فإنه يعود فيقول إن محمدا قد قرن اسمه باسم الله فى الشهادة التى يدخل بها الناس الإسلام، وفى التشهد فى الصلوات وفى الأذان، وفى أمره لهم بالصلاة عليه

كلما جاء ذكره على لسانه أو على لسان غيرهم، معقبا بأنه عليه السلام كان زاهدا تمام الزهد فى الماديات وزخارف الدنيا الفانية والملك والسلطان، لكنه كان متعلق القلب بأن يقدسه الناس ويخلده التاريخ. وقد شرع يلمزه صلى الله عليه وسلم بحجة أنه بهذا قد أفسد ما جاء به من التوحيد، إذ التوحيد هو أن نشهد بألا إله إلا الله، أما الشهادة بأن محمدا رسول الله فخارجة عن التوحيد الذى دعا إليه (ص٢٨).

وهذا فى الواقع كذب مبين، إذ ظل محمد إلى آخر لحظة فى حياته متواضعا لا يتكبر على أحد ولا يزعم لنفسه شيئا فوق البشرية، بل يقول إنه ليس إلا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة. وفى القرآن آيات تهدده بأنه لو تقول على الله بعض الأقاويل لأخذ الله منه باليمين ولقطع منه الوتين فلا يستطيع أحد كائنا من كان أن يتدخل لنصرته من الله، وأنه لو ركن إلى قريش وتأثر بما يعرضونه عليه من الحل الوسط لأذاقه ضعف الحياة وضعف الممات ولما خف لنجدته إنسان. كما كان للرسول بعض الاجتهادات الفقهية، فنزل القرآن يغيرها ويورد حكما يختلف عما حكم به الرسول. ولم يكن يحيط نفسه بجنود أو جلاوزة شأن الحكام ولا كان فظا مع أحد من أتباعه مهما تخاشن معه كما كان يقع أحيانا من بعض البدو الأفظاظ. وكان فى الأسفار يشتغل فى إعداد الطعام شأنه شأن أى صحابى، فكان يجمع الحطب للوقود، ثم متى حان أوان الطعام جلس مع صحابته على الأرض يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، كما كان يساعد زوجاته فى أعمال المنزل، وكان يخبر أصحابه أنه يستغفر فى اليوم والليلة مائة مرة رغم أنه كان فى القمة من الناحية الأخلاقية والسلوكية، وكان يصف نفسه دائما بأنه عبد من عباد الله سبحانه، ويكثر من دعائه عز وجل والصلاة والابتهال له والتذلل على أعتابه، ويؤكد أنه لا يمكن أن ينجو يوم القيامة إلا أن يتغمده الله برحمته، وإذا ذكر

الأنبياء الآخرين ذكرهم بكل المودة والاحترام، ويعلن فى أصحابه أن من كان له حق فى رقبته فليأت وليأخذه فى الدنيا لأن فضوح الآخرة أشد وأنكى. فهل هذا سلوك شخص يريد قداسة لنفسه؟

وهل شهادة المسلم بنبوة محمد تلحقه بأفق الألوهية؟ من قال ذلك؟ إننا نقول فى الصلاة: "أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله"، فنؤكد عبوديته لربه بعد أن نعلن بأن الله هو الإله الوحيد. فأين التقديس هنا؟ إن الله سبحانه يعلمنا بالصلاة على النبى تذكُّر كل من كان له فى رقابنا جميل. وهل هناك جميل أجمل من دعوة محمد لنا للإيمان بالله سبحانه وتعالى؟ ثم إن كل دين له عنوانه، وعنوان الإسلام هو محمد عليه السلام كما أن عنوان النصرانية هو عيسى، واليهودية هو موسى، والحنيفية إبراهيم... إلخ. ترى كيف أتانا الإسلام؟ هل نزل من السماء رأسا؟ لكن السماء، مثلما لا تمطر ذهبا ولا فضة، فإنها لا تمطر نبوَّات، بل يأتى بها رجال. وهؤلاء الرجال لا بد من ذكرهم وعدم تجاهلهم. فهم لم يكونوا مجرد حاملى رسالة يوصلونها ولا يهتمون بها ولا بمصيرها ولا باستقبال الناس لها كما يصور أحمد صبحى منصور رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل يظلون حاملين همها ومسؤوليتها ومتحملين ما يترتب على حملهم لها وتبليغهم إياها إلى الناس من حولهم من أذى وقلق ومتاعب ومؤامرات وقتل أحيانا... إلخ مما نعرفه عن حياة محمد وجهاده فى هذا السبيل.

وآه لو كان الله قد محا اسم محمد تماما من التاريخ. إذن لكان الرصافى وأمثاله أول من يشنعون على الإسلام بأنه يسحق البشر سحقا أمام جبروت الله. ثم هل يرضى الرصافى مثلا أن نتجاهل اسمه كشاعر أو كاتب؟ لو حدث هذا لسمعنا صرخاته تجلجل فى الفضاء اعتراضا علينا واتهاما لنا بهضمه حقه، وما كنا لنستطيع الخلاص منه

فى يومنا الذى يعلم به ربنا. وهذا كل ما هنالك، ولا تقديس ولا يحزنون. أما ما يهرف به الرصافى فهو عراك فى غير معترك، بل زوبعة فى كستبان! إنه كلما قال فى محمد كلمة طيبة استدار على عقبه فألحق بها كلمات يريد لها أن تنال منه وتمحو الكلمة الطيبة التى قالها. وهيهات!

لو كان محمد يريد قداسة لنفسه لما قال لصحابته مثلا: لا تُطْرُونى كما أَطْرَت النصارى عيسى بنَ مريم. فإنَّما أَنا عَبْدُهُ، فَقُولوا: عبدُ اللَّهِ وَرَسُولُه. كما أن القرآن والحديث لم يستعملا كلمة "قدَّس" أو "القداسة" أو "التقديس" فى حقه صلى الله عليه وسلم البتة. وبالمثل لم يستعملا له كلمة "الخلود" أو "التخليد" مما ينقض دعوى الرصافى أنه صلى الله عليه وسلم أراد تخليد نفسه فى سجل التاريخ، بل جاء فى القرآن: "إنك ميت وإنهم ميتون"، "وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مِتَّ فهم الخالدون"، "وما محمد إلا رسول قد خَلَتْ من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم". ولو كان يريد الخلود فلماذا لم يسم نفسه مثلا: "خالد الذكر" كما مع "العاقب والحاشر والماحى والخاتم"، وبخاصة أن من العرب من كان اسمهم "خالدا" كخالد بن الوليد وخالد بن البكير وخالد بن عمرو بن عدى وخالد بن سنان وخالد بن عمير وخالد بن حكيم بن حزام وخالد بن رباح الحبشى وخالد بن سعيد وخالد بن زيد بن حرام على سبيل المثال، وذلك كثير، فهو إذن لم يكن ليخترع اسما جديدا بل سيختار اسما منتشرا على الساحة، ومن السهل قبوله.

وفى آخر المطاف فإنى لأستغرب كيف يعتمد الرصافى، فى تبرير عقيدته فى وحدة الوجود، بما جاء فى القرآن، فى حين أنه هو لا يؤمن أبدا بأن القرآن من عند الله بل من عند محمد، وأن محمدا لايؤمن بأنه من عند الله بل كذب زاعما ذلك حتى ينصاع الناس

إلى ما يأمرهم هو به ويكفوا عما ينهاهم عنه خوفا من الله. والعجيب الغريب فى الرصافى أنه (ص٦٠٢) مثلا حين كان يتحدث عن سبب اختلاف البشر فى أفعال القلوب قال: "لأن الله كذا خلقهم، وعلى هذا جَبَلهم، وأفعال الله لا تعلَّل". أى أن هناك خالقا ومخلوقين ومخلوقات. إذن ففيم كل هذه الضجة العنيفة التى أثار عجاجها وأصم بها أسماعنا عن وحدة الوجود؟

اتهامات رصافية للرسول والقرآن

حياة محمد قبل النبوة يكتنفها الظلام الدامس: يتناول الرصافى، ضمن ما يتناوله فى كتابه الحالى، سيرة الرسول قبل البعثة. ومما قاله فى هذا الصدد إن حياته صلى الله عليه وسلم السابقة على النبوة تسبح فى ظلام دامس يبعث على الحيرة والشكوك. وهو يرى أن هذا أمر طبيعى لأن وضع محمد أوانئذ لم يكن يدفع إلى الاهتمام بأخباره وأحواله (ص١٠١ وما يليها). وبطبيعة الحال لا ينبغى أن نتوقع أن يكون اهتمام الناس به حينذاك كاهتمامهم به بعدما صار نبيا. لكن قول الرصافى إن حياته آنذاك كانت ظلاما دامسا هو كلام لا معنى له، فقد كان حفيدَ عبد المطلب أحدِ القائمين على أمر الكعبة، كما اشتهر بالصدق والأمانة، وهو ما دفع خديجة إلى استئجاره فى تجارتها والسعى إلى الاقتران به. ومعروف أنه ولد يتيم الأب ثم ماتت أمه وهو طفل فكفله جده، الذى سرعان ما مات هو أيضا ليكفله عمه أبو طالب. وليس فى شىء من هذا شك، وإن اختلفت الروايات فى بعض التفاصيل التى لا تقدم ولا تؤخر.كما أنه صلى الله عليه وسلم قد حكى عن نفسه فى ذلك الحين أو حكيت عنه أشياء بسيطة ليس فيها ما يبعث على الفخر، وهو ما يجعلنا نصدقها، وإن لم يكن فيها أيضا ما يدعو إلى الخجل، من مثل أخذ حليمة السعدية إياه لإرضاعه رغم يتمه وفقر أسرته، ومن مثل اشتغاله برعى الغنم وهو صبى، ومن مثل اشتراكه فى حلف الفضول وفى حرب الفجار، ومن مثل اشتغاله عند خديجة فى تجارتها، ومن مثل أولاده الذين أنجبتهم له رضى الله عنها، ومن مثل ضمه عليًّا إليه وقيامه بالإنفاق عليه للتخفيف عن أبيه ردا على كفالة أبى طالب له وهو صغير، ومن مثل مشاهدته فى عكاظ لهذا المتحنف أو ذاك، ومن مثل استعانة

قريش به فى نقل الحجر الأسود، فكان عند حسن الظن وحَلَّ هذه المشكلة على نحو أراح الجميع وأرضاهم. وقد ذكر الرصافى معظم هذه الأشياء.

ولكننا نتساءل: وهل تستطيع يا رصافى أنت أو غيرك أن تأتينا بأخبار عن أى رجل من قومه أكثر من تلك الأخبار؟ نعم هل تستطيع أن تذكر أشياء مؤكدة عن أبى سفيان أو عن أبى جهل أو عن أبى لهب أو عن الوليد بن المغيرة أو عُتْبَة وشَيْبَة ابنى ربيعة أو حتى عن أمية بن أبى الصلت أو عن عنترة أو طَرَفة أو زهير بن أبى سلمى أو حاتم الطائى فى صباهم وشبابهم ورجولتهم أوضح مما ذكرناه من أخباره صلى الله عليه وسلم قبل البعثة؟ إذن فلم التساخف والزعم بأن حياته هو بالذات فى ذلك الوقت كان يلفها الظلام والغموض؟ يريد الرصافى أن يقول إن محمدا آنذاك كان نكرة لا يأبه به أحد.

وهو هنا يقلد المستشرقين حين يقفون أمام ماضيه قبل البعثة قائلين إنه غامض. ويمكن القارئ العزيز الرجوع مثلا إلى الطبعة الأولى من " Encyclopædia of Islam"، وسوف يقرأ هذا الكلام أول دلوفه إلى الترجمة الخاصة به عليه السلام تحت عنوان "Muhammad"، وهى من تأليف بوهل المستشرق الدانمركى. ولكن كيف يقال ذلك، ومحمد هو أحد أفراد الأسرة التى تقوم على أمر الكعبة؟ كيف وقد كان تاجرا فى مال خديجة اختارته دون الرجال المكيين جميعا؟ كيف وقد وقعت خديجة فى حبه وعرضت عليه الزواج وفازت بالاقتران به بعدما رفضت كبار القوم، فصار فى مرمى حسد الآخرين الذين كانوا يطمعون فى الاقتران بتلك القرشية الغنية الشريفة؟ كيف وكان على صداقة ببعض المكيين الكرام النبلاء كأبى بكر وعثمان مثلا مما جعلهم يسارعون إلى الإيمان به دون غمغمة أو لجلجة؟ كيف وقد كان يشترك مع قومه فى

حروبهم وأحلافهم؟ كيف وقد نجح فى حل الخلاف الخاص بنقل الحجر الأسود حلا عبقريا على بساطته وجَنَّب مكة من ثم خصومة وربما انشقاقا وحربا؟ كيف وقد كانوا يلقبونه بـ"الصادق الأمين"، وهو ما ذكره وقَبِلَه كاتبنا (ص٢٨٦- ١٨٧)؟ كيف وكان معروفا بتحنثه فى غار حراء وانقطاعه عن البشر هناك؟ كيف وقد كان كريما يعطف على المحتاجين ويكرم الأقارب كما وصفته حبيبته خديجة حين فاجأه الوحى فى الغار فعاد إليها مسرعا يَرْجُف ويطلب منها أن تدثِّره من البرد والخوف، فطمأنته بأن إنسانا كريما مثله يتصف بتلك الصفات لا يمكن أن يخزيه الله أبدا؟

على أننا لا يسعنا سوى موافقة الرصافى على رفض بعض الأخبار اللامنطقية كما هو الحال فى حكاية النور الذى كان يشع من وجه أبيه عبد الله وهو شاب يريد أن يخطب، هذا النور الذى دفع المرأة التى مر بها لدى الكعبة لمطالبته بأن يقع عليها لقاء مائة من الإبل (ص١٠٢- ١٠٣). ورغم أنه لم يوضح الأسباب التى أَطَرَتْه على رفض هذه الحكاية فأقول: أى نور ذاك الذى كان يشع من وجه عبد الله؟ وكيف عرفت تلك المرأة أنه نور النبوة التى سوف يختار لها ابنه؟ وهل مثل هذا النور الكريم ينتقل عن طريق الوقوع على متمنيته؟ وهل يمكن أن تقدم امرأة عربية فى ذلك الحين على التهالك على الرجال بهذه الطريقة وعلى هذا النحو العلنى الفاضح لها ولقومها؟ ومنذ متى كانت المرأة حينذاك تدفع مالا مقابل الوقوع عليها؟ وهل من تعرف قيمة مثل ذلك النور تفكر فى الحصول عليه بالزنا؟ ثم لماذا عاد إليها عبد الله يعلن قبوله عرضها بعدما دخل على آمنة؟ أويعقل أن يرفض اقتراحها أولا ثم بعد الدخول بزوجته يعود إليها عارضا عليها موافقته على مقترحها؟ لكن لماذا؟ ألم يجد ما كان يرجوه عند زوجته؟ ثم منذ متى كان النور يظهر فى وجوه البشر على ذلك النحو العجيب؟ ولو كان هذا

صحيحا فلماذا لم يحاجج محمد قومه بتلك الواقعة التى يفترض أنهم جميعا على علم بها؟ ثم ألم يظهر النور إلا فى المدة الفاصلة بين رؤية المرأة المجهولة له وبين دخوله على آمنة؟ وإذا كان النور قد انتقل إلى آمنة فابنها محمد فكيف لم يظهر النور فى وجهه عليه السلام، وبخاصة بعد صيرورته نبيا؟ وكيف لم تلحظه خديجة كما لحظت نورَ أبيه تلك المرأةُ الغامضة؟ بل أيعقل أن يكون نور فى وجه أبيه، وهو الجاهلى، ولا يظهر فى وجهه هو، وهو النبى؟ نعم لقد وصف محمد فى القرآن بأنه نور وبأنه سراج منير، لكن النور هنا نور معنوى هو نور الهداية والإرشاد إلى الطريق المستقيم لا نور الوجه المادى.

كذلك وقف الرصافى أمام حكاية شق الصدر وأورد رواياتها المختلفة وبين ما فيها من تناقضات وما إلى ذلك (ص١٠٣ وما يليها). وقد تركت أنا كل الروايات التى ساقها واكتفيت بالحديث التالى من "البداية والنهاية" لابن كثير، وقد حكم عليه موقع "الدرر السنية" بأن إسناده جيد قوى. وهذا نصه: "عن أصحابِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا له: أَخبِرْنا عن نفسِك. قال: نعم أنا دعوةُ أبى إبراهيمَ، وبُشْرَى عيسى عليهما السلامُ. ورأَتْ أمى حين حملتْ بى أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصورُ الشام، واسْتُرضِعْتُ فى بنى سعدِ بنِ بكرٍ، فبينا أنا فى بَهْمٍ أتانى رجلان عليهما ثيابٌ بِيضٌ معهما طَسْتٌ من ذهبٍ مملوء ثلجًا، فأضجعانى فشقّا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقّاه فأخرَجا منه عَلَقةً سوداءَ فألقَياها ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلجِ حتى إذا أَلقياه رَدَّاه كما كان، ثم قال أحدُهما لصاحبه: زِنْه بعشرةٍ من أمَّتِه. فوزَنَنى بعشرةٍ، فوزنتُهم. ثم قال: زِنْه بمائةٍ من أُمَّتِه. فوزننى بمائةٍ، فوزنتُهم. ثم قال: زِنْه بألفٍ من أُمَّتِه. فوزننى بألفٍ، فوزنتُهم. فقال: دَعْه عنك، فلو وزنتَه بأُمَّتِه لوَزَنَهم".

والسؤال هو: كيف أمكن آمنة أن ترى بصرى بالشام وهى بمكة، وبينهما البيوت والجدران والجبال وآلاف الكِيلَات؟ وكيف عرفت أن هذه بصرى، وهى لم تترك مكة إلا إلى المدينة المنورة مرة مع وحيدها وحاضنته أم أيمن؟ ومن يا ترى حكى لمحمد الصغير القصة؟ سيقال: أمه. لكن لم يا ترى لم تحك هذا لجده وأعمامه وأخواله أيضا؟ فإن قيل إنها حكت ذلك فلماذا لم يذكره أحد بعد هذا بتاتا، وبخاصة بعدما صار محمد نبيا، وصارت هذه الحكاية مما يمكن الاستعانة به فى الدعاية له بالصدق والإخلاص فى إعلانه أنه رسول من رب العالمين؟ وهل يمكن أن يسطع مثل ذلك النور الذى ليس له مثيل فى تاريخ البشرية ولا يراه أحد سوى آمنة؟

أما شق الصدر فهل يعقل أن يستخرج القلب من جسد طفل ويشق ويستخرج ما فيه دون أن يموت؟ بل كيف وعى الطفل الصغير ابن ثلاث سنين هذه الواقعة وقلبه مستخرَج من جسده بهذه الطريقة؟ بل هل يمكن أن يتذكر طفل صغير مثل تلك الواقعة أصلا ويفهم مثل ذلك الحوار الغريب على آذان الأطفال وعقولهم ويعرف القلب والمضغة وما إلى ذلك؟ وهل كانت للرسول فى ذلك الوقت أُمَّة حتى يوزن بعشرة منهم ثم بمائة ثم بألف؟ ومن أولئك الذين وُزِنوا به من أمته، التى لم يكن لها وجود آنذاك؟ وكيف كتم محمد ذلك الأمر طوال عقود ثم لم يفشه إلا بعد أن طُلِب منه أن يحكى لأصحابه شيئا عن نفسه؟

كما أن السؤال الذى وجهوه إليه يَشِى بأنهم كانوا يجهلون كل شىء عنه عليه السلام وأرادوا أن يتحفهم بأى شىء يتعلق به. فهل هذا معقول؟ أتراه عليه السلام كان رجلا غريبا على أصحابه وفد عليهم لتوه، فكانوا متشوقين لمعرفة أى خبر عن ذلك الرجل الغريب؟ وهل يعقل أن يكون الجواب الذى ذكره النبى هو الجواب الملائم

لسؤال أصحابه؟ لقد كان ينبغى أن يكون الجواب هو: أنا فلان الفلانى القرشى الهاشمى، وأبى هو فلان، وأمى فلانة، وكنت أرعى الغنم فى صباى، والتجارة فى شبابى، وسافرت هنا وهناك، ولى زوجة اسمها فلانة، ولى من الأولاد فلان وعلان... إلخ. وهذا إن كان شىء من هذا مجهولا عندهم. وبدون المقارنات التى قام بها الرصافى والتناقضات التى عَرَّاها بين الروايات المختلفة، وهى روايات متأخرة لا تذكرها كتب السيرة المعتبرة بل السيرة الحلبية وما يشبهها مما يولع أصحابها بالأساطير والخرافات ويجعلون من الحبة قبة، أقول أنا إنى لا أطمئن إلى هذه الحكاية أصلا بل أنظر إليها على أنها تعبير شعبى رمزى لإعداد الرسول للقيام بمهمة النبوة، وهى مهمة شاقة لا يستطيعها إلا من اصطفاهم الله وصنعهم على عينه ونقاهم وهذبهم وطهرهم. والله أعلى وأعلم.

وقد مضى الرصافى فى تحليل هذه الحادثة وانتهى بعد كلام طويل ملأ عدة صفحات إلى أن محمدا كانت تعتريه نوبات عصبية وأن هذه النوبات تدل على إصابته بالصَّرْع أو شىء مثل الصَّرْع. وقد ذكر الرصافى فى كتاب "الرصافى يروى سيرة حياته"، الذى حققه د. يوسف عز الدين، أن وكيل المدير العام للدعاية بالعراق لما عُرِض عليه كتاب "الشخصية المحمدية"، وفيه الكلام عن الصَّرْع الذى كان ينزل بالنبى عند مجىء نص قرآنى جديد، تصرف فى العبارة وحذف كلمة "الصرع" تخفيفا من شناعة الأمر خشية من هيجان القراء رغم أن الرصافى، حسبما يحكى لنا، قد شرح له أن "الصرع" يعنى سورة الألم وشدته أثناء الحمى (الرصافى يروى سيرة حياته/ دار المدى للثقافة والنشر/ دمشق/ ٢٠٠٨م/ ١١٨). وهذا استهتار من الرصافى بعقول القراء لأن الصرع شىء، والحمى شىء آخر، ولم يقل أحد قط إن الصرع هو هذا الذى يقوله.

ونفحص هذه التهمة لنرى مدى صحتها أو ضلالها، وأبدأ أولا بالأعراض الجسدية التى كانت تعتريه صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحى ويشاهدها من حوله مما ذكر معظمَه الرصافى نفسه واتخذه منطلقا لتشخيص حالته عليه السلام بأنه كان يُصْرَع (ص١٤٥ فما بعدها). وهأنذا أسوق الأعراض التى اطمأننت إزاءها لورودها فى مراجع موثوق بها ولأنها ذات صلة بنزول الوحى على النبى صلى الله عليه وسلم بخلاف ما أورده الرصافى مما ليست له صلة بما يعترى جسده لدى الوحى، ومنها كلامه عن دحية الكلبى واتهامه بناء على ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم بالكذب والزعم بأنه جبريل لا دحية، ومنها حمرة عينيه مثلا التى وقف عندها طويلا دون داع لأنها لم تكن سمة من سماته عليه السلام، فضلا عن أن تكون أحد عوارض الوحى. وهذه هى الأعراض التى كانت تصاحب نزول الوحى واتُّهِم جراءها صلى الله عليه وسلم من قِبَل من لا يؤمنون به بأنه مصاب بالصّرْع أو غيره.

وهذه الأعراض، حسبما جاءت في كتب السيرة والحديث، هى أنه كان يسمع مثل صلصلة الجرس، وكان ذلك أشقّ صور الوحى. وعندما كان يفصم الوحيُ عنه كان يتذكر كل ما سمعه. وأحيانا كان الملاك يتبدى له في هيئة رجل فيتحدث إليه. وأحيانا أخرى كان يراه على هيئة فتى يبلّغه ما يريد الله سبحانه أن يوحيه إليه. ومن هذه الأعراض سماع صحابته مثل دويّ النحل حول وجهه الشريف. وقد يعرق حتى فى الأيام الشديدة البرد ويتلألأ العرق على جبينه مثل حبات الجُمَان، ويحمرّ وجهه، وقد يربدّ، أى يتغير. وكان يغطّ غطيطا عاليا، ويأخذه سُبَات. وفى مرة تصادف أن كانت فخذ زيد بن ثابت تحت فخذه، فلما نزل على الرسول الوحى شعر زيد بثقل فخذه صلى الله عليه وسلم حتى كادت فخذه أن تُرَضّ. وعندما نزلت سورة "المائدة" كان

عليه السلام راكبا ناقته، وللتّوِّ لم يعد بمقدور الناقة أن تتحمله وكاد عضدها أن ينكسر، فنزل عليه الصلاة والسلام عنها.

وقبل أن نقابل بين هذه الأعراض وبين أعراض الصرع الذى اتُّهِمَ الرسول مِنْ قِبَل الرصافى ومن يتبع الرصافىُّ خطواتِهم بأنه كان مصابا به أحب أن أنفى إمكانية أن تكون هذه الأخبار قد لفقها الصحابة أو أحد من التابعين، إذ من الصعب أن يلفق أحد من هؤلاء أو أولئك أخبارا مثل هذه ينتظمها سلك واحد، وهو أن الوحى كان يصاحبه ثقل وأن الرسول كان يعانى أثناء نزول الوحىعليه: فمن صلصلة الجرس المجلجلة، إلى دوى النحل حول وجهه، إلى غطيطه صلى الله عليه وسلم، إلى ظهر الناقة الذى كاد أن ينتقض، إلى فخذ زيد بن ثابت التى شعر كأنها ستُرَضّ. فهذه الأعراض تشير فى اتجاه واحد هو أن الوحى كان شيئا ثقيلا لا على الرسول وحده بل على من تسوقه المصادفة إلى أن يكون جزء من جسمه تحته عليه الصلاة والسلام

على أن هذا ليس هو السبب الوحيد الذى يجعلني أصدّق هذه الروايات، بل هناك سبب آخر جدّ مهم هو أن هذه الأعراض تخلو تماما من كل ما يمكن أن تُشْتَمّ منه رائحةُ المدح والتمجيد، وإلا فأى مدح في أنه كان يغطّ غطيط النائم أو كغطيط البعير، أو أن وجهه كان يحتقن، أو أن جسمه كان يثقل ثقلا شديدا إلي درجة الخطورة على ناقته وعلى فخذ جليسه؟ لو أن المراد هو المدح لقيل مثلا إن الصحابة كانوا يرون الملائكة وهى تنزل عليه فى بهائها السماوى، وإنه كان يتلقى الوحى فى يسر كما لو كان يتنفس مثلا، وإن وجهه كان يشرق حينئذ بنور وهاج. كذلك لا يمكن أن يكون الرسول قد افتعل هذه العوارض، إذ كيف يستطيع التحكم فى إفراز العرق الغزير فى اليوم الشديد البرد؟ بل كيف توصل إلى جعل وجهه يحتقن؟ إن هذا العارض الأخير

يحتاج منه أن يوقف تنفسه تماما، وهو ما يتعارض مع غطيطه الشديد، وعندئذ ستنتفخ أوداجه فيكشف أصحابه هذه اللعبة. ثم إنه لم يكن ليستطيع أن يجعل فخذ زيد بن ثابت تكاد أن تُرَض من ثقل فخذه عليه السلام مهما حاول. وقريب من ذلك يقال عن نخيخ الناقة من ثقل جسده عليه السلام حين نزول الوحي عليه وهو فوقها. كذلك فإن دوى النحل الذى كان يُسْمَع حول وجهه الطاهر لا يمكن أن يكون شيئا كان يُحْدِثُه رسول الله بفمه وهو مُغْلِقُه، وإلا لتنبه الحاضرون إليه، إذ كانت العرب تعرف زمزمة فارس، وهى شىء قريب من هذا. ثم إن شهيقه وزفيره كانا سيتسببان فى تقطيع هذا الصوت، وهو ما لم يحدث، إذ لم يشر أحدٌ إلي ذلك.

وبعد فإن هذا الثقل وهذه الأصوات تدل علي أن ثمة شيئا لم يكن فى جسد الرسول ثم كان، أى أنه كان هناك وجود آخر غير مرئى بالإضافة إلى الرسول نفسه. وفضلا عن هذا فإننا نتساءل: ما غرضه من افتعال كل ذلك؟ بل كيف نوفق بين افتراض افتعاله لهذه الأعراض وبين تأليف الوحي الفورى، أى الوحى الذى كان ينزل فور توجيه أحد الصحابة سؤالا له عليه السلام، وصياغته هذه الصياغة الأدبية الرائعة التي عليها القرآن؟ ويجرى فى هذا الاتجاه أيضا قول الرسول لواحد من صحابته أبدى ملاحظة على كثرة انتشار الشعرات البيض فى رأسه: شيبتنى "هود" وأخواتها.

وبهذا نصل إلى ادعاء الرصافى ومن يجرى وراءهم من المستشرقين والمبشرين ممن اتهموه صلى الله عليه وسلم بأنه كان مصابا بالصَّرْع. وهذا اتهام قديم، إذ اتهمه به مثلا الكاتب البيزنطى ثيوفانيس، ثم شاع هذا الادعاء بين الأوروبيين حتي العصر الحديث. وذكر شارل لودى أن حكم الرومان على الرسول كان شديد القسوة، إذ اتهموه بأنه استولى على أموال خديجة وماشيتها، ولما افتضح أنه مصاب بالصرع أراد

أن يواسيها، فزعم لها أن جبريل ينزل عليه بالوحي من السماء. ومن الدارسين الغربيين الذين رددوا هذه التهمة ماكسيم رودنسون فى كتابه: "Mohammed" translated into English by Anne Carter, Penguin Books, 1977 , P.) .(100

وواضح قبل أن نبدأ فى مناقشة هذه التهمة أن الرصافى لم يضع يده على سر خفى كما يوحى عنوان كتابه بل يردد كلاما قديما قاله مبغضو الإسلام والقرآن والنبى الذى أوحى إليه ذلك القرآن الكريم. وفي الواقع يستطيع أى إنسان يعرف سيرة النبى عليه السلام وشخصيته أن يجزم صادقا بأنه لا يمكن أن يكون مصابًا بالصَّرْع، إذ لو كانت عوارض الوحى هى أعراض الصرع لكان رد الفعل التلقائى عند أصحابه أن يسارعوا فينقذوه ويمنعوه من أن يؤذى نفسه أثناء النوبة، ولكن الذى كان يحدث هو أنهم كانوا يتركونه لحاله حتى ينجلى عنه الوحى، فيفيق حينئذ من نفسه دون أن يكون هناك علامة فزع على وجهه أو زوغان بصر أو معاناة أو أى شىء مما يُشاهَد على المصروع ساعة إفاقته من غاشيته. والغريب، لو كان الرسول عليه السلام مصابا بالصرع، أن الوحى كان يفاجئه وهو قائم أو جالس أو متوكئ على عسيب أو راكب على ناقته فلا يسقط على الأرض شأن المصروعين. ثم ما الذى كان يدفعه إلي الصعود إلى غار حراء وقضاء الليالى ذوات العدد وحده هناك وهو يعرف أنه معرض لنوبات الصرع في أى وقت ويمكن أن يسقط من حالق فتُدَقّ عنقه؟ بل ما الذى جعل خديجة الزوجة المحبة المتفانية تتركه يذهب إلى هناك مُعَرِّضًا نفسه لهذا الخطر القاتل؟

ومن الطريف أنه، فى الوقت الذى يؤكد هذا المستشرق فيه أن دراسة الظواهر النفسية للتجربة الدينية تنسف هذا الاتهام نسفا، نجد أن المستشرق الدانمركى بوهل

كاتب مادة "Muhammad" في الطبعة الأولى من "Encyclopaedia of Islam" الإنجليزية يؤكد أن الأطباء النفسيين المحدثين يعترفون بصحة تشخيص الأعراض المصاحبة للوحى على أنها أعراض الصَّرْع، وإن سارع إلي القول عقيب ذلك: "إننا يجب أن ندعهم يقررون بأنفسهم طبيعة حالته بدقة" متظاهرا بذلك بالموضوعية وعدم دس أنفه فيما لا يحسنه، مع أنه لو كان صادقا في ادعاء الموضوعية لما زعم أن الأطباء النفسيين المحدثين قد أكدوا صحة التشخيص المشار إليه، أو لذكر لنا بصراحة أسماء هؤلاء الأطباء وعلى أى أساس أكدوا ذلك، وهل عُرِضَتْ عليهم أعراض الوحى عرضا أمينا. أما قوله إننا ينبغى أن ندع هؤلاء الأطباء يقررون بأنفسهم طبيعة حالته عليه السلام بدقة فليس له من معني إلا أنهم لم يقولوا شيئا، لأنهم لا يمكن أن يكونوا قد قرروا صحة ذلك التشخيص في الوقت الذى يقول فيه إن علينا أن ندعهم يفعلون ذلك. ومن قبل اتهم بريدو (Humphrey Prideaux, The Life of Mahomet, Edition 8, London, P. 16) الرسول عليه السلام بنفس التهمة.

وبالمناسبة فإن من الغربيين دارسى الإسلام من ينكر بشدة أن يكون محمد مصابا بالصرع كالمؤرخ البريطانى الشهير إدوارد جيبون، الذى يصف اتهامه صلى الله عليه وسلم بالصرع بأنه ادعاء سخيف من البيزنطيين (Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, William Benton, Chicago- London, 1978, Vol. II, P. 243). ومنهم كذلك ألفريد جيوم (Guillaume, Alfred, Islam, Pelican Books, 1964, 25)، الذى ينفي بقوة هذا الاتهام على أساس ما كان يتمتع به الرسول من رجاحة العقل والاتزان العقلى والنفسى واتساع أفقه السياسى وصلابته في دعوته.

وقد عرض د. محمد حسين هيكل لهذه المسألة فى تقديمه للطبعة الثانية من كتابه: "حياة محمد"، فأشار إلى رسالة وردته من أحد المصريين المسلمين يشغب عليه لأنه لم

يأخذ بكلام المستشرقين عن إصابة محمد بالصَّرْع. قال هيكل: "ونعود إلى تفنيد النقطة الأخيرة من رسالة ذلك المصرى المسلم. فهو يذكر أن مباحث المستشرقين دلتهم على أن النبى كان يصاب بالصَّرْع وأن أعراضه كانت تبدو عليه، إذ كان يغيب عن صوابه، ويسيل منه العرق، وتعتريه التشنجات، وتخرج من فمه الرغوة، حتى إذا أفاق من نوبته تلا على المؤمنين به ما يقول إنه وحى الله إليه فى حين لم يكن هذا الوحى إلا أثرًا من نوبات الصرع.

وتصوير ما كان يبدو على محمد فى ساعات الوحى على هذا النحو خاطئ من الناحية العلمية أفحش الخطأ. فنوبة الصرع لا تَذَرُ عند من تصيبه أى ذكر لما مر به أثناءها، ولا يذكر شيئًا مما صنع أو حلَّ به خلالها. ذلك لأن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل. وهذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم، ولم يكن ذلك ما يصيب النبى العربى أثناء الوحى، بل كانت تتنبَّه حواسه المدركة فى تلك الأثناء تنبهًا لا عهد للناس به، وكان يذكر بدقة غاية الدقة ما يتلقاه وما يتلوه بعد ذلك على أصحابه. هذا، ثم إن نزول الوحى لم يكن يقترن حتمًا بالغيبوبة الجسمية مع تنبه الإدراك الروحى غاية التنبه، بل كان كثيرًا ما يحدث والنبى فى تمام يقظته العادية، وحسبنا أن نشير إلى ما أوردنا فى هذا الكتاب عن نزول سورة "الفتح" عند قفول المسلمين من مكة إلى يثرب بعد عهد الحديبية.

ينفى العلم إذن أن الصَّرْع كان يعترى محمدًا، ولذلك لم يقل به إلا الأقلون من المستشرقين الذين افْتَرَوْا على القرآن أنه حُرِّف. وهم لم يقولوا به حرصًا على حقيقة يتلمسونها، وإنما قالوا به ظنًّا منهم أنهم يحطّون من قدر النبى العربى فى نظر طائفة من المسلمين. أم حسبوا أنهم يلقون بأقوالهم هذه ظلًّا من الريبة على الوحى الذى نزل

عليه، لأنه نزل عليه فيما يزعمون أثناء هذه النوبات؟ إن يكن ذلك فهو الخطأ البين، كما قدمنا، وهو ما ينكره العلم عليهم أشد الإنكار.

ولو أن نزاهة القصد كانت رائد هؤلاء المستشرقين لما حمَّلوا العلم ما ينكره. وهم إنما فعلوا ذلك ليخدعوا به أولئك الذين لا يهديهم علمهم إلى معرفة أعراض الصَّرْع، والذين تمسكهم طمأنينتهم الساذجة إلى أقوال هؤلاء المستشرقين عن سؤال أهل العلم من رجال الطب وعن الرجوع إلى كتبه. ولو أنهم فعلوا لما تعذر عليهم أن يكشفوا عن خطإ هؤلاء المستشرقين خطأً مقصودًا أو غير مقصود، ولتبينوا أن النشاط الروحى والعقلى للإنسان يختفى تمام الاختفاء أثناء نوبات الصرع، ويذر صاحبه فى حالة آلية محضة يتحرك مثل حركته قبل نوبته، أو يثور إذا اشتدت به النوبة فيصيب غيره بالأذى، وهو أثناء ذلك غائب عن صوابه، لا يدرك ما يصدر عنه ولا ما يحل به، شأنه شأن النائم الذى لا يشعر بحركاته أثناء نومه، فإذا انقضى ما به لم يذكر منه شيئًا. وشتان ما بين هذا وبين نشاط روحى قوى قاهر يصل صاحبَه بالملإ الأعلى عن شعور تام وإدراك يقينى، ليُبَلِّغ مِنْ بَعْدُ ما أُوحِىَ إليه. فالصرع يعطل الإدراك الإنسانى وينزل بالإنسان إلى مرتبة آلية يفقد أثناءها الشعور والحس، أما الوحى فسموٌّ روحىٌّ اختص الله به أنبياءه ليلقى إليهم بحقائق الكون اليقينية العليا كى يبلِّغوها للناس. وقد يصل العلم إلى إدراك بعض الحقائق ومعرفة سننها وأسرارها بعد أجيال وقرون، وقد يظل بعضها لا يتناوله العلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهى مع ذلك حقائق يقينية تهتدى قلوب المؤمنين الصادقين إلى حقيقتها، على حين تظل قلوب عليها أقفالها جاهلة إياها لغفلتها عنها.

كنا نفهم أن يقول هؤلاء المستشرقون إن الوحى ظاهرة نفسية شاذة فى تقدير علمنا وما وصل إليه حتى اليوم، فمن المتعذر إذن تفسيرها على طريقته، لكن هذا

القول إنما يدل على أن علمنا، على ما انفسح مداه واتسع أفقه، لا يزال قاصرًا عن تفسير كثير من الظاهرات الروحية والنفسية. ولا عيب على العلم فى هذا ولا عجب منه، فعلمنا ما يزال قاصرًا عن تفسير بعض الظاهرات الكونية القريبة منا. وطبيعة الشمس والقمر وغيرهما من الأفلاك والكواكب لا يزال أمر العلم فيها عند الفروض والاستنباطات. وهذه الأفلاك جميعًا بعض ما تشهده العين المجردة وما تكشف الآلات المقرِّبة لنا عن كثير من خفاياها. وإلى قرن مضى كانت مخترعات كثيرة تعتبر بعض إبداع الخيال فلا سبيل إلى أن تتجسد أمامنا، وها هى ذى تجسدت وصرنا نحسبها من البسائط. والظاهرات الروحية والنفسية هى اليوم موضع ملاحظة العلماء، لكنها لم تخضع بعد لسلطان العلم كى يستنبط قوانينها الثابتة. وكثيرًا ما نقرأ عن أمور شهدها العلماء وأثبتوها ثم أثبتوا معها أنهم لا يجدون لها فى السنن الكونية التى استنبطها العلم تأويلًا تطمئن إليه قواعده. فعلم النفس ما يزال بوجه عام غير ثابت السنن فى كثير من الشؤون التى تعرض له. فإذا كان هذا واقعًا فى الحياة العادية كان البِدَار إلى محاولة تفسير ظاهرات الحياة جميعها على الطريقة العلمية محاولة عقيمة وإسرافًا معيبًا".

هذا ما قاله د. هيكل رحمه الله، وها هى ذى المعاجم الطبية ودوائر المعارف مبذولة لمن يستطيع أن يقرأ ويفهم. جاء مثلا فى "New Medical Dictionary" لمحرريه F. M. Margerison و D. Banker (مادة "Epilepsy"): "الصَّرْع مرض يصيب الجهاز العصبي، ويميزه فقدان الوعي وكذلك التقلصات في كثير من الأحيان... وهو يبدأ عادة في الطفولة... والمصابون به هم أشخاص انفعاليون غير متزنين، ومهيأون للتقوقع بعيدا عن الدنيا والعيش فى الأوهام. وعادة ما تنشأ نوبة الصرع عن الضغط الانفعالى أو التهيج اللاإرادى.

أما عن أعراض الصرع ففي الحالات العنيفة... تحدث النوبة فجأة، ويسقط المصروع كاللوح، وغالبا ما يؤذى نفسه أثناء ذلك إيذاءً شديدا، وتنبسط العضلات وتنقبض بشدة. أما الوجه فيكون أولا شاحبا ثم ينقلب إلى الازرقاق مع انسداد مجرى التنفس. وبعد بضع ثوان تأخذ العضلات فى الارتعاش والتشنج، وتدور حدقتا العين، وينقبض الفك ويرتخى، وقد يعض المصروع لسانه بقوة. وربما تبول أو تبرز على نفسه كذلك. وتدريجيا يروح المريض فى غيبوبة، فترتخى العضلات حينئذ وينام لعدة ساعات قبل أن يستيقظ فى نهاية النوبة، وعقله يعانى بعض التشويش. وفى بعض الحالات لا تنتهى النوبة بعد بضع دقائق بل تستمر مع ازدياد النبض وارتفاع درجة الحرارة... وقد يحدث أن يفيق المريض ظاهرا فيمارس أموره دون أن يكون واعيا فِعْلًا بما يفعل. ومن غير المستبعد أن يرتكب مثل هذا الشخص جريمة قتل فى هذه الحالة... أما فى نوبات الصرع الخفيفة فقد يغيب عن الوعى لبضع ثوان دون أن تصاحبه أية تقلصات. وقد يُعْرَف عن مثل هذا المريض أنه عرضة لشحوب الوجه المفاجئ وفقدان خيط الحديث. وقد يظهر عليه أنه رجع إلى حالته الطبيعية بعد بضع ثوان، ومع ذلك فقد يرتكب هذا الشخص عملا إجراميا فى هذه الثوانى القليلة، ولكنه رغم ذلك لا يُعَدّ مسؤولا عنه. وهناك الصرع الچاكسونى... وقد تأتى نوبته علي هيئة تنميل فى أصابع إحدى اليدين أو إحدى القدمين ثم ينتشر التنميل فى سائر العضو. وغالبا ما يحتفظ المصاب بهذا الصرع بوعيه طوال مدة النوبة.

وبالنسبة للعلاج فإن الأطفال المصابين بالصرع ينبغى أن يُعْنَى بتربيتهم مع أهمية تجنيبهم عوامل القلق والخوف بأقصى ما يستطاع... ومن الضرورى أن يبتعدوا عن الأشغال التى قد يؤدى فقدان وعيهم أثناءها إلي أن يؤذوا أنفسهم أو الآخرين. ويجب

أن تُخْلَع الأسنان الصناعية عند النوم. وأثناء النوبة لابد أن يُمْنَع المصروع من إيذاء نفسه بأن يُدَسّ شىء بين أسنانه حتى لا يعض لسانه". وانظر أيضا " Encyclopæia Britannica" (الطبعة الرابعة عشرة/ فى مادَّتَىْ "Epilepsy" و"Epileptic Fit").

وفى "الموسوعة العربية العالمية" (مادة "الصرع") نقرأ ما يلى: "الصَّرْع واحد من مجموعة اعتلالات فى أداء الدماغ تتميز بصدمات مفاجئة ومتواترة. ففى الوضع الطبيعى تقوم خلايا الدماغ بإنتاج بعض الطاقة الكهربائية ترسل عبر الجهاز العصبى وتحرك العضلات. وفى بعض الأحيان يفشل دماغ المريض بالصرع فى التحكم فى إنتاج الطاقة، وتحدث صدمة الصرع، التى تُدْعَى: "نوبة الصرع"، عندما تخرج هذه الخلايا دفعة عنيفة ومفاجئة من الطاقة الكهربائية. وهناك ثلاثة أنواع رئيسية من نوبات الصرع: ١- نوبة الصرع الكبير ٢- نوبة الصرع الخفيف ٣- النوبة النفسية الحركية. وفى حالة نوبة الصرع الكبير، وهى أكثر نوبات الصرع خطورة، يفقد المريض الوعى فجأة ويسقط ما لم يسنده أحد، وتتراخى العضلات. وتدوم معظم نوبات الصرع الكبير لدقائق معدودة يغط المريض بعدها فى نوم عميق. وخلال نوبة الصرع الخفيف يشحب لون المريض ويفقد الوعى لثوان. وقد يبدو مرتبكا ولكنه لايسقط. وكثير من هذه النوبات لا تلاحَظ. وتحدث معظم نوبات الصرع الخفيف عند الأطفال. وفى النوبة النفسية الحركية يتصرف المريض بشكل انطوائى وغريب لعدة دقائق، وقد يجوب أرجاء الغرفة فجأة أو يمزق ثيابه.

ويمكن أن يصاب مريض الصرع بهذه النوبة فى أى وقت: نهارا أو ليلا، وبعضهم يصاب بنوبات متواترة، ولكن آخرين قلما يصابون بها. وتحدث النوبات دونما سبب واضح، ولكن الإرهاق والإجهاد العاطفى يمكن أن يزيدا من نسبة حدوثها. وتحدث

النوبة الأولى فى معظم الأحيان أثناء فترة الطفولة. ويصاب بعض مرضى الصرع بتلف فى الدماغ ناتج عن العدوى أو الإصابة أو الأورام. ويوجد قابلية لنقل المرض عند عائلات بعض مرضى الصرع. أما حالات الصرع الأخرى فلا تشمل تلف الدماغ ولا النزوع الوراثى. ولايمكن لهذا المرض أن ينتقل من شخص إلى آخر، ويحمل ٠,٥٪ من سكان العالم هذا المرض. ويعالج الأطباء هذا المرض باستخدام المهدئات. وفى حالات خاصة يمكن استعمال حِمْيَة خاصة للمساعدة فى التخلص من هذا المرض. وفى حالات نادرة يمكن أن تكون الجراحة هى الحل الأمثل. ويمكن للمصابين بالصرع أن يعيشوا حياة عادية، وكلما كان العلاج مبكرا كانت النتائج أفضل".

وفى نفس ا لمادة بـ"الموسوعة العربية" السورية نجد الآتى: "عُرِف الصرع (epilepsy) منذ القدم... تحدث النوبة الصرعية (epileptic seizure) نتيجة اضطراب دورى فى نشاط كهربائية الدماغ electroencephalogram (EEG) ينجم عنه خلل مؤقت فى وظيفة الدماغ. وتتفاوت المظاهر السريرية للنُّوَب الصرعية من مجرد فقدان الإدراك (awareness) لفترة وجيزة إلى حدوث اختلاجات (convulsions) شديدة. والصَّرْع هو الاسم الذى يستخدم عند حدوث نوبات صرعية متكررة لدى شخص ما. ويمكن أن يحدث إما دون وجود سبب محدد أو نتيجةً لاضطراب صحى معين، مثل نقص ترويةٍ دماغيةٍ أو رَضٍّ دماغى وغيره...

هناك تصنيفان يرتكز أحدهما على وصف المظهر السريرى للنوبة الصرعية، والثانى يعتمد بشكل رئيسى على سبب النوبات الصرعية، وكلاهما مهم فى الوصول إلى التشخيص والعلاج والإنذار الصحيح. ١- تصنيف النُّوَب الصرعية حسب الأعراض السريرية: تختلف الأعراض السريرية بحسب المنطقة الدماغية المصابة. ويمكن تقسيم

النُّوَب هنا إلى نوعين رئيسين: نُوَبٍ جزئيةٍ وأخرى معممةٍ: أ- النوب الجزئية (partial seizures) أو البؤرية (focal seizures)، ويبدأ فيها الاضطراب الكهربائى من بؤرة محددة فى قشرة الدماغ. وفيما يلى أنواعها الرئيسة:-النُّوَب الجزئية البسيطة (simple partial seizures): يبقى المريض واعيًا خلال هذه النوب، ويمكن أن تتظاهر على شكل انتفاضات عضلية بؤرية (نُوَب حركية) أو إحساس بالتنميل أو الخدر فى مناطق معينة من الجسم (نوب حسية) أو أعراض نفسية أو غير ذلك. - النوب الجزئية المركبة (complex partial seizures)، وفيها تضطرب درجة وعى المريض (consciousness)، وكثيرًا ما تترافق مع أعراض نفسية متنوعة (هلس hallucination، وحس بالانفصال عن الواقع وغيرها)، وتسمى كذلك: نُوَب الفص الصدغى (temporal lobe seizures)، وهى من أكثر أنواع النوب شيوعًا بعد سن البلوغ. النوب التى تبدأ بشكل جزئى ومن ثم تتعمم أو النوب الثانوية التعمم (generalized seizures secondarily): إن أى نوبة جزئية يمكن أن يرافقها انتشار التنبيه الصرعى إلى أنحاء الدماغ كافة، مما يؤدى إلى حدوث اختلاج متعمم فى كل الجسم، وتسمى عندها النوبة الثانوية: التعمم.

ب- النُّوَب المعمَّمة (generalized seizures): ويبدأ فيها الاضطراب الكهربائى فى مجمل الدماغ بآن واحد، وفيما يأتى أنواعها الرئيسية:- نوب الغياب (absence seizures)، وكانت تدعى سابقًا بـ"الداء الصغير" (petit mal)، وتتميز بحدوث فقدان قصير الأمد للوعى من دون أى حركات غير طبيعية أو بما قل منها، مثل ارتعاش الأجفان. –النوب الموترة/ الرمعية (tonic-clonic seizures)، وتسمى كذلك بـ"الداء الكبير" (grand mal)، وتتميز بحدوث فقدان الوعى، ومن ثم

انتفاضات معممة فى كامل الجسم، وقد تترافق بِعَضّ اللسان أو خروج زَبَدٍ لُعَابِى من الفم أو انفلات المصرة البولية، ويتلوها إحساس بالوهن والإرهاق...

٢- تصنيف المتلازمات الصرعية حسب السبب: كما هى الحال فى تصنيف النُّوَب الصرعية يمكن بشكل رئيس تقسيم المتلازمات الصرعية إلى بؤرية وأخرى معممة. لكنْ إضافةً إلى التقسيم المذكور يتم هنا التركيز على بعض العوامل الأخرى، ولا سيما السبب المؤدى للحالة (فى حال أمكن تحديده). وفيما يأتى عرض مبسط لهذا التصنيف: أ- المتلازمات الصرعية البؤرية: لها سبب محدد مكتسب بعد الولادة، وتمثل معظم الحالات. ومن أسبابها الجلطات الدماغية وأورام الدماغ وغيرها. -مجهولة السبب، وتمثل الأقلية من الحالات. ب-المتلازمات الصرعية المعممة: -المجهولة السبب أو الأولية، ويتأثر معظمها بعوامل جينية/ وراثية. -الناتجة من سبب محدد أو الثانوية: ناتجة عن أسباب خِلْقِية أو مكتَسَبة بعد الولادة يمكن تحديدها (مثل نقص أكسجين الدماغ وغيرها).

أسباب النُّوَب الصَّرْعِيَّة: يعد الصَّرْع عرضًا أو مظهرًا من مظاهر حالات مرضية متعددة. أى أنه ليس مرضًا واحدًا بل هو نتيجة أمراض مختلفة تؤثر فى الدماغ، إلا أنه فى معظم الحالات لا يمكن تحديد السبب بشكل قاطع. يمكن لمعظم الأمراض أو الحالات التى تؤثر فى الدماغ أن تسبب نُوَبًا صرعية. وتختلف الأسباب الشائعة للصرع باختلاف سن المريض. ففى الأطفال دون السنة من العمر يعد نقص أكسجين الدماغ ونقص ترويته قبل الولادة أو فى أثنائها والتشوهات الخِلْقِيّة للدماغ ونقص كلس الدم والأخماج وغيرها من أكثر أسباب الصرع شيوعًا فى حين أن أكثر الأسباب تواترًا فى سن المراهقة هى رضوض الرأس. وتصبح الأمراض الوعائية الدماغية من جلطات ونزوف

دماغية وغيرها السبب الأكثر ترددا فوق الخمسين من العمر. وهناك العديد من الحالات الأخرى التى قد تسبب نوبًا صرعية، مثل الكحولية واضطرابات سكر الدم واضطرابات شوارد الدم وغيرها. أما المتلازمات الصرعية التى لا يمكن تحديد سبب واضح لها فيعتقد أن للعوامل الجينية/ الوراثية دورًا فى كثير منها، وإن لم تتضح هذه العوامل على نحو مفصَّل وقطعى إلا فى بعض المتلازمات الصرعية النادرة...

التدبير والعلاج: بعض المبادئ العامة: - فى حال حدوث نوبة صرعية لأول مرة ينبغى مراجعة المستشفى. - إن حدوث نوبة أو عدة نوب صرعية تستمر أكثر من بضع دقائق دون أن يسترجع المريض وعيه فى أثناء ذلك يعد حالة إسعافية، ويجب عندها الذهاب إلى المستشفى فورًا. - يقوم الطبيب بتحديد سبب النوب ومعالجته إن أمكن (مثال: إعطاء السكر فى حال كان نقص سكر الدم هو السبب... إلخ) - ومن ثم يقرر الطبيب ما إذا كان المريض بحاجة إلى الأدوية المضادة للصرع (antiepileptics)، وعندها ينتقى الدواء الأنسب لكل مريض. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأدوية كثيرًا ما يتوجب إعطاؤها مدى الحياة، وهى لا تخلو من الآثار الجانبية التى قد تكون خطيرة فى بعض الأحيان، مما يعنى ضرورة وجود مستوى عال من الوعى والمسؤولية والتزام كيفية استخدام هذه الأدوية مِنْ قِبَل المريض أو الشخص الذى يُعْتَنَى به، ودرجة عالية من الحكمة والمعرفة والدراية مِنْ قِبَل الطبيب فى اختيار الدواء المناسب ومراقبة تأثيره فى المريض...

ينبغى على مريض الصرع أن يتحاشى بعض الأنشطة والأعمال التى قد تؤدى لحدوث أذيّات خطيرة إذا حدث فقدان للوعى فى أثناء القيام بها، مثل سباحة المريض بمفرده أو تشغيل آلات ثقيلة وغيرها. كما ينبغى عدم قيادة السيارة إلا بعد مرور ٦ إلى

١٢شهرًا على الأقل دون حدوث نوبة صرعية. -ينبغى على أفراد عائلة المريض أن يكونوا على دراية بكيفية مساعدته فى حال حدوث نوبة، ويتلخص ذلك بحمايته من السقوط، وإزالة الألبسة التى قد تضغط على العنق، ووضع وسادة تحت الرأس. وفى حال فقدان الوعى ينبغى وضع المريض على جانبه لتسهيل التنفس. كما يجب عدم تركه وحده إلا بعد أن يستيقظ استيقاظًا كاملًا ويصبح قادرًا على الحركة بشكل طبيعى. وينبغى إخبار الطبيب بحدوث النوبة، ولا ينصح بوضع أى شىء، مثل ملعقة أو إصبع، فى فم المريض فى أثناء النوبة...".

وفى مادة "الصرع" أيضا فى "موسوعة العلوم العربية" يطالعنا ما يلى: "الصَّرْع (بالإنجليزية "Epilepsy": هو اختلال عصبى داخلى ينتج عن اضطراب الإشارات الكهربائية فى خلايا المخ والخلل القائم فى العملية الكهربائية الدماغية ينشأ عن تشكل ما يعرف بـ"البؤرة الصَّرْعيّة" والتى تكون مصابة، ومنها تنطلق إشارة البدء، وتتعمم على كامل النشاط الكهربائى الدماغى. والعَرَض الأساسى الجامع لكل أشكال الصَّرْع هو فقدان الوعى وما قد يرافقه من تشنجات مختلفة وفقا للحالة. وأشهر أنواعه هو الصَّرْع الكبير حيث تحدث تقلصات يتبعها رجفان شامل لكل عضلات الجسم. وفى الدرجة الثانية يكون الصَّرْع الصغير عند الأطفال عادة بحيث يفقد المصاب وعيه لفترة قصيرة ويستردها بسرعة....

عوامل محفزة لظهور الصَّرْع: قلة النوم، الإجهاد والتعب، ارتفاع الحرارة، شرب الكحول، المرض، اضطرابات... التدابير اللازمة لإسعاف شخص أثناء نوبة الصرع: الإسراع فى توفير المكان الآمن على الأرض. وضع رأسه على سطح مستو وإمالة رأسه ورقبته. إبعاد الأثاث والأدوات الحادة من حوله لكيلا يؤذى نفسه. وضع بطانية أو

إسفنج تحت رأسه. فك الملابس الضاغطة على عنقه. حافظ على خصوصية المصاب. لا تحاول أن تضع شيئا فى فم المصاب... كن هادئا. ابق معه ليستعيد الوعى".

ولا أظن إلا أن القارئ سوف يكتشف الآن بنفسه دون أية مشقة زيف الربط بين عوارض الوحى المحمدى وبين أعراض الصرع ونوباته، فلا الرسول كان شخصا انفعاليا غير متزن ولا كان يتقوقع فى داخل أوهامه بعيدا عن الدنيا والناس من حوله، بل كان يشارك بكل طاقته وانتباهه واهتمامه فى نشاطات الحياة راعيا وتاجرا وزوجا وأبا وجدا وصهرا ومحاربا وداعيا إلى ربه وحاكما وقائدا عسكريا... إلخ. كذلك لم يكن عليه السلام، حين يتتابه الوحى، يسقط كاللوح ولا حدث قط أن آذى نفسه أثناء ذلك كأن يعض لسانه مثلا. وبالمثل لم يكن فكه ولا عضلاته تنقبض وترتخى علي نحو تشنجى. ولا داعى طبعا للحديث عن التبول والتبرز. ثم إنه لم يُعانِ قط من تشوش عقله، ولم يرتكب مرة عملا خطيرا لا أثناء الوحي ولا بعده ولا فقد خَيْطَ الحديث وهو يتكلم مع أحد من أصحابه أو شعر بتنميل في أصابع يديه أو قدميه قط أو ارتفعت درجة حرارته حينذاك أو تسارع نبضه، بل علي العكس كان عليه السلام يحس ببرد في ثناياه. أما وجهه الكريم فقد كان يحتقن حمرة، وقد يربدّ، ولكنه لم يزرقّ قط ولا انسد مجرى تنفسه. وطبعا لم يحدث البتة أن صرخ عليه الصلاة والسلام عند مجيء الوحي ولم يخرج زبد من فمه ولا أثار الشفقة عليه فسارع من حوله إلى معاونته فى الخروج من هذه الحالة. بالعكس كان الصحابة من حوله يتركونه وشأنه، وكلهم إجلال له وخشوع. وكان المنافقون يخشَوْن أشد الخشية من أن تنزل عليهم آيات تفضح دخيلتهم. وكان عليه السلام يمارس حياته على أفضل وجه ولا يفاجئه هذا الأمر إلا عند استقباله الوحى.

ثم شىء مهم جدا، ألا وهو أن الرسول لو كان مصروعا لظل ينتابه الصرع فى السنوات الطويلة التى تفصل بين ما قيل إنه قد حدث له فى الطفولة من نوبة صرعية وبين الغفوات التى كانت تعتريه لدن نزول بعض الوحى عليه. لكننا ننظر فنرى أنه لم يكن يعتريه طوال تلك العقود الأربعة شىء من هذا: لا فى رعيه الغنم ولا فى الأسواق التى كان يرتادها ولا عند الكعبة ولا فى أسفاره التجارية ولا فى بيت جده ولا فى بيت عمه ولا فى بيت الزوجية ولا فى غزواته ولا فى صلواته ولا فى حجه واعتماره ولا ولا ولا. وحتى بعد النبوة لم تكن تلك الغفوات تأتيه إلا عند نزول بعض الأوحاء عليه لا كلها. فأى صرع هذا؟ ولو كان ما يعترى الرسول صرعا لسقط وهو يتسلق للغار أيام اعتزاله للتحنث قبل البعثة واندقت عنقه أو لسقط من فوق ناقته أو لوقع فى بئر من آبار المدينة ولكان محلا للرثاء لا للإجلال والهيبة من جانب من يحبونه وللاكت الألسن حالته وتناقلتها وصار عليه السلام مضغة فى الأفواه وكان محط سخرية المشركين فى مكة، واليهود والمنافقين فى المدينة، ولنظم أعداؤه فى صرعه الأشعار الهجائية المصمية. بل لنقلها صراحة: لو كان عليه السلام مريضا بالصرع ما ألقى أحد إليه زمامه ولا صدَّق العرب بنبوته ولا قبلوا قيادته وزعامته ولا أنجز شيئا من إنجازاته التاريخية والسياسية والحضارية والروحية العظيمة التى ليس لها مثيل. هذا هو القول الفصل، أما رَقَاعة الرُّقَعاء فمكانها تحت الحذاء.

وفى كتابه: "رسائل التعليقات" (مطبعة المعارف/ بغداد/ ١٩٤٤م/ ١٤٥) يقول الرصافى ردا على بعض ما جاء فى كتاب كايتانى عن "التاريخ الإسلامى": "وعليه فقول المؤلف (أى كايتانى): "لا دليل لنا على أن المصروعين يكونون أشد ميلا واستعدادا للافتكار فى المسائل الدينية" باطل ظاهر البطلان لأن المسائل الدينية لا تشرب ماء فى

الأكثر إلا من حوض العقل الباطن. وتلك الحالة هى أقرب الأحوال اتصالا بالعقل الباطن". ورد الرصافى، كما هو واضح، يقر بأن محمدا كان يعتريه صرع، ثم ينطلق من هذا إلى أن الصرع الذى يدعى أنه كان يصيبه لدن نزول الوحى هو أنسب الأحوال لحصول الوحى. وهو كلام خاطئ، فالمصروع لا يعى شيئا لا حوله ولا بداخله، بل يكون فى حالة إظلام عقلى وفكرى حتى إنه حين يفيق من نوبة الصرع يكون مشوش الإدراك لا يتذكر شيئا أثناء النوبة ويأخذ وقتا حتى يعود إليه وعيه ويدرك ما حوله ومن حوله. وهذا كله يعاكس ما كان يقع لمحمد أو منه، إذ كان فور عودته من نوبة الوحى يسأل عن صاحب القضية الذى سأله فيها ثم يقرأ عليه وعلى الحاضرين ما نزل عليه من قرآن، وقد يكون سورة كاملة أو عددا كبيرا من الآيات. ومثل هذا لا يمكن أن تكون هى حال المصروع البتة. فشتان الوحى والصرع.

إن الرصافى يرجع نبوة محمد إلى أنه كان يرى أشباحا يظنها ملائكة تأتيه بالوحى كما جاء بنفس الصفحة من الكتاب المذكور (رسائل التعليقات/ ١٤٤- ١٤٥، ١٥٢ وغيرها). فأمر الرسالة والإسلام كله عبارة عن أوهام وهلوسات سمعية وبصرية إذن. ومن ناحية أخرى فإن كلام الرصافى هنا يتناقض وما قاله من أن محمدا كان يكذب على العرب إذ يعرف أنه لا ملائكة ولا وحى، ومع هذا كان يزعم أنه يتلقى الوحى من السماء لمعرفته أن هذه هى السبيل لإقناع العرب بما يدعو إليه (الرصافى/ شخصية محمد أو كشف اللغز المقدس/ ٤٣ وما بعدها).

وهذا من الناحية السلبية، أما من الناحية الإيجابية فإن أعراض الوحي التى تقدمت الإشارةُ إليها كصلصلة الجرس ودويّ النحل حول وجهه الشريف وثقل جسمه الشديد فجأة، هذه الأعراض لا تجد في الصرع ونوباته أى تفسير. وإذا كان

الرسول، حين مجىء الوحى، يروح في سبات فإن هذا شيء، وفقدان الوعي شيء آخر. ذلك أننا لا نقول عن المُغْفِى إنه فى غيبوبة أو فاقدٌ وعيه، بل نقول ببساطة إنه راح فى سبات مثلا. وفضلا عن ذلك كان الرسول، عندما يفيق من الوحى، يسأل عن صاحب المشكلة التى استدعت نزول الوحى ويجيبه في التو بما نزل عليه بلغة أدبية هى أرقى ما شهد الأدب العربى كما أشرنا آنفا. لقد كان صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يُسْأَل أو يواجه مشكلة، فتغشاه الغفوة ثم يفيق منها فيقرأ ما نزل عليه من آيات القرآن منسوجة على أحسن وضع، وفيها الجواب الشافى للسائل أو صاحب المشكلة. فهل رأى أحد منا مصروعا يصنع هذا؟ بل إنه في المرة التى نزل فيها الوحي بتبرئة أم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها، نجده قد أفاق ومو يضحك من البِشْر. ولا يمكن أن تكون هذه حالة المفيق من الصرع. وبعد هذا كله نراه يمارس القيادة العسكرية والسياسية والقضاء والتشريع بنجاح مذهل، ويحل لأصحابه المتاعب التى تواجههم حلا يريح كل الأطراف، ويخبر أحيانا بالغيب الذى ينبئه الله به، فيقع الأمر كما أخبر بالضبط، وفى الميعاد الذى حدده، وعلى النحو الذى وصفه.

وللمرة الثالثة أقول: لقد كان عليه السلام يخرج من نوبة الوحى بتلاوة نص بديع فى معناه وتركيبه مما لا يمكن مصروعا أن يأتيه حتى لو تضافرت معه قوى البشر كلها. بل لقد تحدى العربَ على بَكْرة أبيهم أن يأتوا بشىء مثله، وتكرر التحدى، لكنهم خَنَسُوا وخَرِسُوا، وإن كانت كرامتهم الغبية قد أبت عليهم إلا أن يقولوا: "لو نشاء لقلنا مثل هذا"، لكنهم لغرابة الأمر وشذوذه لم يشاؤوا ولم يقولوا، بل انتهى الأمر بهم إلى الدخول فى الدين وحفظ القرآن الذى تحداهم وتلاوته فى الصلاة وخارج الصلاة والقيام بخدمته تحفيظا وتفسيرا وإعرابا واستخلاصا للتشريعات المختلفة التى تقوم

عليها حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والحربية والأسرية والشخصية والعقلية والذوقية... ولم يقتصر هذا على العرب بل شارك فيه وتفوق عليهم عددًا وعُدَّةً غيرُ العرب. وقد انتشر الإسلام الآن فى كل مكان بالعالم، وانتشر معه الاهتمام الشديد بالقرآن المجيد سواء بين المؤمنين به أو الكافرين.

أما موضوع دحية الكلبى فقد أورد الرصافى حديثا عن "عائشة أم المؤمنين أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم سمع صوتَ رجلٍ فوثَب وثْبةً شديدةً وخرج إليه فاتَّبعه، فإذا هو مُتَّكِئٌ مُعْتَمٌّ مُرْخٍ عمامَتَه بين كَتِفَيْه، فلما دخل رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قلتُ: وثَبْتَ وثْبةً وخرجتَ، فإذا هو دِحْيةُ الكَلْبِى. قال: ورأيتِه؟ قلتُ: نعم. قال: ذاك جبريلُ عليه السلامُ أمرنى أن أخرجَ إلى بنى قُرَيظةَ". وأيضا "عن عائشة أم المؤمنين: رأيْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم واضعًا يَدَيْه على مَعْرَفةِ فَرَسٍ، وهو يُكلِّمُ رَجلًا. قُلْتُ: رأيْتُكَ واضِعًا يَدَيْكَ على مَعْرَفةِ فَرَسِ دِحْيةَ الكَلبى، وأنتَ تُكلِّمُه. قال: ورأيْتِ؟ قالت: نَعم. قال: ذاكِ جِبريلُ عليه السَّلامُ، وهو يُقرِئُكِ السَّلامَ. قالت: وعليه السَّلامُ ورحمةُ اللهِ وبَركاتُه. جَزاهُ اللهُ خَيرًا من صاحبٍ ودَخيلٍ. فنِعْمَ الصاحِبُ، ونِعمَ الدخيلُ. قال سُفيانُ: الدخيلُ: الضيْفُ".

ويعلق الرصافى على هذا الحديث بأنه من الجائز أن دحية الكلبى، مثل غيره من الصحابة، كان حريصا على مواصلة الحرب ومهاجمة بنى قريظة فى حصونهم فى نفس اليوم الذى انتصروا فيه على الأحزاب وانقشع عنهم خطرهم، انتقاما من أولئك الخونة الذين انقلبوا على المسلمين ساعة الخطر الداهم وكانوا يريدون بالتعاون مع المشركين أن يضربوا محمدا ضربة رجل واحد فيقضوا عليه وعلى دينه وأتباعه إلى الأبد، ومن ثم أتى دحية إلى النبى يحرضه على الانتقام، لكن محمدا قد رأى أن يقول إنه جبريل حتى

يكون لذلك التحريض أثره فى نفوس المسلمين، فبدأ الكذب مع عائشة، ثم سرعان ما نشر هذا الكذب ليعمّ سائر المسلمين. ومعنى هذا أن النبى كان يتنفس الكذب تنفسا ولا يجد فى اختراع الأكاذيب فور الساعة أية صعوبة لأن الكذب يجرى فى دمه. وهذا كلام عجيب، ويزيده عجبا أن يصدر عن هذا السكير معاشر المومسات والغلمان ومادّ يده إلى الآخرين يسألهم المال والملابس والطعام لأنه لم يحسن تنظيم حياته ولم يدخر مما كان يكسبه ما يعينه فى أواخر حياته.

والواقع أنه عليه السلام لو كان يكذب لانفضح كذبه سريعا، فإن دحية موجود مع المسلمين كل يوم، وفى هذه الغزوة بالذات، إذ لا يعقل أن يكون هو الشخص الذى حرض الرسول على المعركة ثم انسحب واختفى وعاد أدراجه إلى بيته وزوجته وطعامه وشرابه. وإذن فقد كان من السهل الميسور تماما أن يسألوه ويعرفوا منه حقيقة الأمر وأن الذى أتى النبى فى ذلك اليوم هو دحية، ولا وجود لجبريل أو إسرافيل أو لأى من الملائكة على الإطلاق. وعندئذ سوف يكون هذا هو المسمار الأخير الذى يُدَقّ فى نعش دعوته عليه السلام. وقد أكد الرصافى نفسه أن دحية قد خرج مع الخارجين فى ذلك اليوم (ص١٥١). وحتى لو افترضنا أنه عليه السلام اتفق مع دحية على هذا ولم يصارح هو ولا دحيه بهذا الأمر أحدا، وهو افتراض مضحك، لكان دحية أول مرتد عن الإسلام ما دام الإسلام يقوم على النصب والاحتيال، بل لفكر فى أن يعلن نفسه نبيا بدلا من الاشتغال بالباطن لحساب المقاول الكبير، وبخاصة أن النبى قد مهد له الطريق حين قال إنه جبريل.

أَوَلَوْ كان النبى يكذب أكان دحية يبقى لحظة فى الإسلام وهو يرى بنفسه أن صاحب الإسلام كذاب أشر، بل ويستخدمه هو نفسه فى ذلك الكذب والتضليل؟ لقد

كان يمكنه مثلا حين بعثه الرسول برسالته إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام أن يبقى هناك ولا يعود ويخبر العاهل البيزنطى بحقيقة ذلك المتنبئ العربى الذى تجرأ وأرسله بخطاب إليه على جلالة قدره وعظمة سلطانه يريد منه أن يدخل فى دينه دين الكذب والتدليس والبجاحة. ثم ما الذى يدعوه للاشتراك فى فتوح الشام وتعريض نفسه للموت فى ميدان القتال فى سبيل دين أتى به كذابٌ مبينٌ؟ ولكى يعرف القارئ مدى إخلاص ذلك الرجل فى اعتناق الإسلام أسوق إليه ترجمته.

تقول المادة المخصصة لهذا الصحابى الكريم فى الموسوعة المذكورة: "دحية بن خليفة بن فروة الكلبى صحابى مشهور من السابقين الأولين إلى الإسلام. ذكر بعضهم أنه شهد المشاهد كلها بعد بدر، ومنهم من جعل أول مشاهده الخندق. تزوج دحية بنت أبى لهب بعد وفاة زوجها الحارث بن عامر بن نوفل. وضُرِب به المثل فى حُسْن الصورة، وكان يشبَّه بجبريل، الذى كان كثيرًا ما ينزل فى صورته وعلى هيئته. يروى أن رسول الله، لمّا توجه إلى بنى قريظة، جعل يمرّ بالناس ويقول: أَمَرَّ بكم أحد؟ فيقولون: مَرّ دحية بن خليفة على بغله، وعليه قطيفة خزّ نحو بنى قريظة. فيقول: ذاك جبريل.

بعد صلح الحديبية رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرورة دعوة ملوك العرب والعجم إلى الإسلام، فأرسل إليهم رجالًا من أصحابه، ومن هؤلاء دحية بن خليفة الكلبى، الذى أرسله بكتاب إلى هرقل قيصر الروم سنة ٦هـ، وفيه "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: السلام على من اتّبع الهدى. أما بعد أَسْلِم تسلَم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تتولَّ فإن إثم الأَكَّارين عليك"، فقال هرقل لدحية: والله إنى لأعلم أنّ صاحبك نبى مرسل، وأنه الذى كنّا ننتظره ونجده فى كتابنا، ولكنى أخاف الروم على نفسى. ولولا ذلك لاتبعتُه. ثم أرسله

إلى صغاطر، وهو من أساقفة الروم عظيم الشأن، فجاءه دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، فقال صغاطر: صاحبك والله نبى مرسل، نعرفه بصفته ونجده فى كتبنا باسمه. ثم خرج إلى الروم وهم فى الكنيسة، وأخبرهم أنه جاء الرومَ كتابٌ من نبى الله يدعوهم فيه إلى الله عزّ وجل وأنه يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه فقتلوه. ويروى أن بنى جذام قطعوا الطريق على دحية عندما وصل إلى حِسْمَى عند رجوعه بكتاب قيصر إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فلم يتركوا معه شيئًا، فكان ذلك سببًا فى إرسال رسول الله زيدَ بن حارثة إلى حسمى.

شهد دحية معركة اليرموك سنة ١٥هـ، وكان على رأس أحد كراديسها. وذكر الطبرى فى تاريخه أن يزيد بن أبى سفيان بعث دحية الكلبى فى خيل بعد فتح دمشق إلى تدمر. عاش دحية إلى خلافة معاوية بن أبى سفيان، وسكن مصر مدة، ونزل دمشق. وقد اختُلِف فى موضع قبره: فبعضهم ذكر أنه فى قرية فى فلسطين تدعى: الشجرة. وأغلب الظن أنه لما نزل دمشق تُوُفِّى فيها ودُفِن فى المزّة. وقبره معروف فيها إلى اليوم. رَوَى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديثين، وروى عنه الشعبى وعبد الله بن شداد ومنصور الكلبى وخالد بن يزيد بن معاوية".

على أن فصول المسرحية لمَّا تنته، إذ يستغرب الرصافى استغرابا شديدا ألا يظهر جبريل فى صورة دحية سوى مرة واحدة (ص١٥٠). ومن الواضح أنه يريد إلى القول بأن محمدا قد اضْطُرَّ اضطرارًا إلى الكذب على عائشة حين ظنت أنه دحية، فقال لها: بل إنه جبريل. ولهذا لم يظهر ملك الوحى إلا هذه المرة اليتيمة لا غير ولا سوى. أما كذبه عليها فسببه، كما يشرح لنا الرصافى بعبقريته المذهلة، أن النساء لا يردن عادة مفارقة

أزواجهن، فلم يكن بُدٌّ له من الكذب حتى تتركه يخرج لحرب قريظة رغم أنه لم يكد يستريح من حرب الأحزاب، وكأن الرسول فى كل مرة يريد الغزو كان يعانى الأمرين من نسائه الكارهات لذلك أو يضطر إلى الكذب عليهن خروجا من هذا المأزق الكريه. ومعنى هذا أن حياة الرسول كلها بعد الهجزة كانت وبالا متتابعا لأنه كان مضطرا أن يكذب على زوجاته حتى يتركنه لدن كل غزوة يرتدى سلاحه وينطلق للمعركة. إن تصوير الأمر على هذا النحو لهو انحطاط فى الذوق والعقل والمنطق. ولم يبق إلا أن يقول الرصافى إن محمدا كان عليه أن يكتب فى وثيقة الزواج أن مهنته نبى وأنه سوف يكون فى حالات كثيرة مضطرا إلى مفارقة زوجاته كلما كان هناك غزو، وأنهن لا حق لهن فى الاعتراض. وذلك حتى يكون الأمر واضحا لكل زوجة تقترن به كيلا تعترض فى المستقبل على أنشطته الحربية وتشتكيه فى المحكمة على أساس ما تقاسيه من ضرر غيابه عنها.

أما القول بأن هذه هى المرة الوحيدة التى اتخذ فيها جبريل شكل دحية فهو قول خاطئ، وإلا فماذا يقول الرصافى فى الحديث التالى، وهو عن ظهور جبريل بصورة دحية أيضا؟ "عن أسامة بن زيد أَنَّ جِبْرِيلَ أتى النبى صلى الله عليه وسلم وعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ، فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ، فَقالَ النبى صلى الله عليه وسلم لِأُمِّ سَلَمَةَ: مَنْ هذا؟ أوْ كما قالَ. قالَتْ: هذا دِحْيَةُ. فَلَمّا قامَ قالَتْ: واللَّهِ ما حَسِبْتُهُ إلّا إيّاهُ حتّى سَمِعْتُ خُطْبَةَ النبى صلى الله عليه وسلم يُخْبِرُ خَبَرَ جِبْرِيلَ، أوْ كما قالَ. قالَ أبِى: قُلتُ لأبِى عُثْمانَ: مِمَّنْ سَمِعْتَ هذا؟ قالَ: مِن أُسامَةَ بنِ زَيْدٍ".

ثم إن الحديث التالى يقول بكل بيان إن جبريل قد تكرر ظهوره بمظهر دحية، ولم يكن ذلك مرة واحدة كما قال الرصافى مستغربا ولا اثنتين بل مرات. فـ"عن عبدالله بن

عمر: كان جبريلُ يأتى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورةِ دِحْيةَ الكلبى". ومثله هذا الحديث: "عن جابر بن عبد الله: عُرِضَ عَلَى الأنْبِياءُ، فإذا مُوسى ضَرْبٌ مِنَ الرِّجالِ كَأَنَّهُ مِن رِجالِ شَنُوءَةَ، ورَأَيْتُ عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ عليه السَّلامُ، فإذا أقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ به شَبَهًا عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ، ورَأَيْتُ إبْراهِيمَ صَلَواتُ اللهِ عليه، فإذا أقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ به شَبَهًا صاحِبُكُمْ، يَعْنِى نَفْسَهُ، ورَأَيْتُ جِبْرِيلَ عليه السَّلامُ، فإذا أقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ به شَبَهًا دحْيَة. وفى رِوايَةِ ابْنِ رُمْحٍ: دحْيَةُ بنُ خَلِيفَةَ". و"عن أنس بن مالك أنَّ رسولَ اللهِ كان يقولُ: يأتينى جبريلُ على صورةِ دحْيَةَ الكَلْبى. قال أَنَسٌ: ودِحْيَةُ كان رجُلًا جَسيمًا جميلًا أبيضَ". و"عن شريح بن عبيد: رأيتُ جِبريلَ فى خَلْقِهِ الَّذى خُلِقَ عليه، وكنتُ أَراهُ قَبْلَ ذلكَ فى صُوَرٍ مختلِفةٍ، وأَكثَرُ ما كنتُ أَراهُ فى صورةِ دِحْيَةَ الكَلْبى".

وهناك كلام قاله الرصافى فى الوحى الذى ذكر أنه كان ينزل على الناقة، وينزل النبى بدوره على تصرف الناقة. وهو هنا يشير إلى ما فعله الرسول حين دخل المدينة وأراد أصحاب كل بيتٍ مَرَّ به على ناقته أن يعرِّج عليهم وينزل فيهم، ويمسكون الناقة محاولين عطفها إلى منازلهم مفاخرين ومؤكدين أنهم سوف يكرمونه ويَحْمُونه ويقدمون له كل ما يلزم، فكان جوابه لهم: "دعوها، فإنها مأمورة"، إلى أن بركت عند فرع من فروع بنى النجار أخواله. فأخذ الرصافى يغمز ويلمز ويهمز مومئا إلى أن النبى ربما كان يضغط على بطن الناقة بساقيه بطريقة خفية تجعلها تسير أو تقف حسب طريقة الضغط... إلخ. وهو يعد ذلك من دهائه وبراعته فى التعامل مع الناس. ولا أظن النبى يفعل ذلك، فليس هو بالذى يلجأ إلى هذا التصرف المداور، إذ كان ظاهره كباطنه ولم يكن بوجهين بل كان بوجه واحد صادق متلألئ، أما قياس الرصافى للرسول على نفسه وأمثاله فقلة أدب وتنطع وكراهية للاستقامة والوضوح والنقاء. والذى أفهمه أنه ترك

الناقة فعلا تتصرف على النحو الذى تتصرف به النُّوق، ومتى ما وقفت وبركت كان هذا هو المنزل الذى ينزله، وهو مطمئن تمام الاطمئنان إلى أن أهل المكان سوف يودهم ويودونه ويرحبون به من كل قلوبهم ككل البيوت الأخرى، فالجميع يحبونه ويريدون أن يتشرفوا به ويكونوا قريبين منه، وهو يبادلهم الحب بمثله وبأحسن منه، ولن يكون هناك أى حرج، بخلاف ما لو استجاب لأهل هذه الدار أو تلك من نفسه، إذ ستكون هناك أشياء فى النفوس، وسوف يتألم الجميع ويشعرون فى دواخلهم بغضاضة شديدة ما عدا صاحب الدار المختارة طبعا، ظنا منهم أن الرسول يفضله عليهم. وفى هذا ما فيه من الألم. والرسول أذكى وأكرم وأكثر مراعاة للمشاعر والعواطف من أن يؤلم أحدا. أما نزوله على تصرف الناقة فيجنبه ويجنب أهل المدينة كل هذا وأكثر منه، وبهذا يريح ويستريح، وإلا فمن يصنع هذا إن لم يصنعه النبى الكريم المختار على عين الله ورعايته وحفظه وهدايته؟

وربما يلقى النص التالى من كتاب "الرصافى يروى سيرة حياته" بتحقيق د. يوسف عز الدين (ص١٤٧) شيئا من الضوء على اعتقادات الرصافى فى الله سبحانه وفى محمد عليه السلام، إذ قال مدون ذكريات الرصافى فى هذا الكتاب ما نصه: "كان الأستاذ يحفظ أشعارا من الأدب التركى، وكان يتمثل بها فى المناسبات باللغة الأصلية ثم يترجمها إلينا إلى العربية. وكان أكثر ما يحفظ لشاعر تركى ملحد لا أتخطر اسمه. ومن شعر هذا الشاعر الذى رواه الرصافى بخصوص الذين يقيمون الليل بالتسبيح:

ليس هذا السبيل لعبادة الخالق
أيها الحمقى الذين تدقون طبول الليل
إن هذا المستنقع مشحون بآلاف الضفادع التى تملأ سكون الليل بنعيقها

وهى أحق منكم بالتقدير إن كان الجزاء للأصوات
إلهكم بنظرية الخلق من طين
أيها الإله الذى عجنتَ طينة حواء
ما ضرك لو وضعت تبنا فى طينها لتمنع الفطر؟
فكان الفطر سر بلاء البشر على الزمن
الشيخ الذى يقتنى زنبيلا فيه ألف حجر وزنبيلا آخر خاليا
فيدير الأحجار من الزنبيل الأول للثانى لضبط التسابيح".

أخذه عليه السلام من الحنفاء: ومما تكلم فيه الرصافى عن رسول الله قبل البعثة أنه خرج على تقاليد قومه فلم يعبد أصنامهم ولا قدم لها شيئا ولا شرب خمرا ولا حضر احتفالا من احتفالات قومه بها قط، بالإضافة إلى أنه لم يكن يوافق قريشا على تركها الوقوف بعرفة والبقاء بالحرم ثم الانتقال منه إلى المزدلفة مباشرة، فكان النبى يتبع الطريقة التى كان يمارس بها إبراهيم شعيرة الحج ويهمل ما درج عليه قومه الحُمْس من التخلف عن عرفة على العكس من سائر الحجاج، إذ كانوا يظنون أن الوقوف بعرفة هو تعظيم للحِلّ ومساواة له بالحرم فى التعظيم (ص١٢٦ ومايليها). ثم استمر الرصافى فتناول الحديث عن الحنفاء ذاكرا خبرهم حسبما جاء فى السيرة الهشامية نقلا عن ابن إسحاق، موردا أسماء بعضهم كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل، الذى ادعى كاتبنا أن النبى قد تأثر به واستفاد منه، وأن ابن هشام قد أفسد سيرة ابن إسحاق بحذف بعض ما فيها مما رأى أنه غير مناسب للسياق، فكان تعليق الرصافى أن ابن هشام قد قتل سيرة ابن إسحاق قتلا، وما كان ينبغى أن يحذف منها شيئا حتى لا يفوتنا ما حدث

فيفيدنا فهم سيرة النبى وشخصيته فهمًا أفضل فى ضوء ما قاله خصوم محمد فيه (ص١٣٠ وما بعدها).

وهأنذا أورد نص ما قاله ابن إسحاق من السيرة التى كتبها هو لا من سيرة ابن هشام لنرى هل تعلَّم النبى من أحد من أولئك الحنفاء. قال ابن إسحاق فى سيرته، التى ظهرتْ وطُبِعَتْ بعد أن كتب الرصافى ما كتب: "حدثنا أحمد: نا يونس عن محمد بن إسحق قال: وكانت قريش حين رفعوا بنيان الكعبة وسقوفها يترافدون على كسوتها كل عام تعظيمًا لحقها، وكانوا يطوفون بها، ويستغفرون الله عندها، ويذكرونه مع تعظيم الأوثان والشرك فى ذبائحهم ودينهم كله. وقد كان نفر من قريش: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وعثمان بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، وعبد الله بن جحش بن رئاب، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم حليف بنى أمية، حضروا قريشًا عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا بعض أولئك النفر إلى بعض وقالوا: تصادَقوا، ولْيَكْتُمْ بعضكم على بعض. فقال قائلهم: تعلمون والله ما قومكم على شىء. لقد أخطأوا دين إبراهيم عليه السلام وخالفوه. ما وثنٌ يُعْبَد لا يضر ولا ينفع؟ فابْتَغُوا لأنفسكم. فخرجوا يطلبون ويسيرون فى الأرض يلتمسون أهل الكتاب من اليهود والنصارى والملل كلها.

فأما ورقة بن نوفل فتنصر فاستحكم فى النصرانية، واتبع الكتب من أهلها حتى علم علمًا كثيرًا من أهل الكتاب. فلم يكن فيهم أعدل أمرًا ولا أعدل شأنًا من زيد بن عمرو بن نفيل: اعتزل الأوثان وفارق الأديان من اليهود والنصارى والملل كلها إلا دين إبراهيم يوحد الله عز وجل، ويخلع مَنْ دونه، ولا يأكل ذبائح قومه. بادأهم بالفراق لما هم فيه. نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحق قال: حدثنى هشام بن عروة عن

أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندًا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والذى نفس زيد بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى. ثم يقول: اللّهم لو أنى أعلم أَحَبَّ الوجوه إليك عبدتُك به، ولكنى لا أعلمه. ثم يسجد على راحته. نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحق قال: حدثنى بعض آل زيد بن عمرو بن نفيل أن زيدًا كان إذا دخل الكعبة قال: لبيك حَقًّا حقًّا، تعبُّدًا ورِقًّا. عُذْتُ بما عاذ به إبراهيم، وهو قائم، إذ قال:

أنفى لك عانٍ راغم   مهما تجشِّمْنى فإنى جاشم
البِرَّ أبغِى لا الخال (يقول: لا الفخر)   ليس مهجِّرٌ كمن قال

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحق قال: حدثنى هشام بن عروة قال: روانى عروة بن الزبير أن زيد بن عمرو بن نفيل قال:

أربًّا واحدًا أم ألفَ ربٍّ   أَدِينُ إذا تقسمت الأمورُ؟
عزلتُ اللات والعزى جميعا   كذلك يفعل الجَلْد الصبورُ
فلا عُزَّى أدينُ ولا ابنتيها   ولا صَنمَىْ بنى عمرٍو أدير
ولا غنمًا أدين، وكان ربًّا   لنا فى الدهر إذ حِلْمى يسيرُ
عجبت، وفى الليالى معجِباتٌ   وفى الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالًا   كثيرًا كان شأنَهم الفجورُ
وأبقى آخرين ببرِّ قوم   فيربك منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثرُ ثابَ يوما   كما يتروَّح الغصن النضيرُ

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحق قال: وقال زيد بن عمرو بن نفيل أيضًا:

أسلمتُ وجهى لمن أسلمتْ   له الأرض تحمل صخرًا ثقالا

وأسـلمت وجهـى لمـن أسـلمت   لـه المُـزْنُ تحمـل عـذبًا زلالا
إذا هـى سـيقت إلى بلـدةٍ   أطاعـت فـصبَّت عليهـا سِـجَالا

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحق قال: وكان الخطاب بن نفيل قد آذى زيد بن عمرو بن نفيل حتى خرج عنه إلى أعلى مكة، فنزل حراء مقابل مكة، ووكل به الخطابُ شبابًا من شباب قريش وسفهاءَ من سفهائهم، فقال: لا تتركوه يدخل مكة. فكان لا يدخلها إلا سرًّا منهم، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطابَ، فأخرجوه وآذَوْه كراهيةَ أن يُفْسِد عليهم دينهم، وأن يتابعه أحد منهم على فراقهم. وكان الخطاب عمَّ زيد وأخاه لأمه، وكان عمرو بن نفيل قد خَلَفَ على أم الخطاب بعده، فولدت له زيد بن عمرو، وكان الخطاب عمه وأخاه لأمه مع سنه، فكان يعاتبه على فراق دين قومه حتى آذاه، فقال زيد بن عمرو وهو يعظِّم حرمته على من استحلَّ من قومه ما استحل:

اللّهم إنى محرم لا أحلّهْ   وإن بيتى أوسط المحلَّهْ
عند الصفا ليس بذى مظلَّهْ

نا أحمد نا يونس عن ابن إسحق قال: فحُدِّثْتُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يحدِّث عن زيد بن عمرو بن نفيل: إنْ كان لَأَوَّل مَنْ عاب على الأوثان، ونهانى عنها. أقبلت من الطائف، ومعى زيد بن حارثة حتى مررت بزيد بن عمرو وهو بأعلى مكة، وكانت قريش قد شهرته بفراق دينها حتى خرج من بين أَظْهُرهم، وكان بأعلى مكة، فجلستُ إليه ومعى سفرةٌ لى فيها لحم يحملها زيد بن حارثة من ذبائحنا على أصنامنا، فقربتها له، وأنا غلام شاب، فقلت: كُلْ من هذا الطعام أى عَمِّ. قال: فلعلها، أى ابن أخى، من ذبائحكم هذه التى تذبحون لأوثانكم؟ فقلت: نعم. فقال: أما إنك يا ابن أخى لو سألتَ بنات عبد المطلب أخبرنك أنى لا آكل هذه الذبائح. فلا حاجة لى

بها. ثم عاب على الأوثان ومن يعبدها ويذبح لها، وقال: إنما هى باطل لا تضر ولا تنفع، أو كما قال. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فما تحسستُ بوثن منها بعد ذلك على معرفة بها ولا ذبحتُ لها حتى أكرمنى الله عز وجل برسالته صلى الله عليه وسلم.

نا أحمد: نا يونس عن المسعودى عن نفيل بن هشام عن أبيه قال: مر زيد بن نفيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى زيد بن حارثة، فدعواه إلى سفرة لهما، فقال زيد: يا ابن أخى، إنى لا آكل ما ذُبِح على النُّصُب. قال: فما رُئِىَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك اليوم يأكل شيئًا ذُبِح على النصب. نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحق قال: وقد كان زيد أجمع على الخروج من مكة يضرب فى الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم، فكانت امرأتُه صفيةُ ابنة الحضرمى كلما أبصرته قد نهض إلى الخروج وأراده آذنتْ به الخطاب بن نفيل، فخرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب فى أهل الكتاب الأول دين إبراهيم، ويسأل عنه، فلم يزل فى ذلك حتى أتى الموصل، أو الجزيرة كلها، ثم أقبل حتى أتى الشام، فجال فيها حتى أتى راهبا ببيعته من أرض البلقاء كان ينتهى إليه علم النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين إبراهيم، فقال الراهب: إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم. لقد دَرَسَ عِلْمُه، وذهب من يعرفه، ولكنه قد أظلَّك خروجُ نبى يُبْعَث بأرضك التى خرجتَ منها بدين إبراهيم: الحنيفية. فعليك ببلادك، فإنه مبعوث الآن. هذا زمانه. وقد كان شامَ اليهودية والنصرانية، فلم يرض شيئًا منهما، فخرج سريعا حين قال له الراهب ما قال، يريد مكة، حتى إذا كان بأرض لخم عَدَوْا عليه فقتلوه. فقال ورقة بن نوفل، وكان قد اتبع مثل أثر زيد، ولم يفعل فى ذلك ما فعل، فبكاه ورقة فقال:

رشدتَ وأنعمتَ ابن عمرو، وإنما تجنبتَ تَنُّورًا من النار حاميا

بـــدَيْنِك ربـــا لـــيس ربٌّ كمثلـــه　　وتَرْكِـك أوثـان الطـواغى كـما هيـا
وقــد تــدرك الإنــسانَ رحمــةُ ربــه　　لـو كـان تحـت الأرض سـتين واديـا

نا أحمد: نا يونس عن ابن إسحق قال: حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير أو محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمى أن عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد قالا: يا رسول الله، نستغفر لزيد؟ فقال: نعم. فاستغفِروا له، فإنه يُبْعَث أمةً وحده. نا أحمد: نا يونس عن المسعودى عن نفيل بن هشام عن أبيه أن جده سعيد بن زيد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبيه زيد بن عمرو، فقال: يا رسول الله، إن أبى زيد بن عمرو كان كما رأيت وكما بَلَغَك، فلو أدركك آمَنَ بك. فأستغفر له؟ قال: نعم. فاستغفرْ له، فإنه يجيء يوم القيامة أمة وحده. وكان، فيما ذكروا، يطلب الدين، فمات وهو فى طلبه. نا أحمد نا يونس عن ابن إسحق قال: وكان حين أراد الله عز وجل كرامة نبيه صلى الله عليه وسلم ورحمة العباد به واتخاذ الحجة عليهم، والعرب على أديان مختلفة متفرقة مع ما يجمعهم من تعظيم الحرمة وحج البيت والتمسك بما كان بين أَظْهُرهم من آثار إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وهم يزعمون أنهم على ملته، وكانوا يحجون البيت على اختلافٍ مِنْ أمرهم فيه. فكانت الحُمْس: قريش وكنانة وخزاعة ومن ولدت قريش من سائر العرب يهلون بحجهم. فمن اختلافهم أن يقولوا: لبيك، لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. فيوحِّد فيه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده. يقول الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم: "وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ". ولا يخرجون من الحرم ولا يدفعون من المزدلفة. يقولون: نحن أهل الحرم، فلا نخرج منه. وكانوا يسكنون البيوت إذا كانوا حُرُمًا، وكان أهل نجد من مُضَر يهلون إلى البيت ويقفون على عرفة".

وقد أكد الرصافى أن ورقة قد اعتنق الإسلام. وليس فى هذا ما نخالف الرصافى فيه. ولكننا نخالفه فى زعمه أنه تأثر بزيد بن عمرو بن نفيل، إذ أورد كاتبنا العراقى عن عائشة أن كليهما كان يرفض الأكل مما ذُبِح على الأنصاب، فتكون النتيجة التى يستخرجها الرصافى من ذلك الخبر هى أن محمدا قد تأثر فى نفوره من لحوم الأنصاب بزيد بما يفيد تصديقه برواية تقديم محمد لحما من لحوم الأنصاب لزيد مع أنها تقول إنه كان آنئذ غلاما شابا. ذلك أن محمدا لم يعرف زيد بن حارثة رفيقه فى الرواية إلا بعد زواجه من خديجة وإهدائها إياه له فأعتقه، فكيف يكون محمد فى ذلك الوقت غلاما شابا لا يزال؟ وكيف يصدق الرصافى القصة رغم هذا؟ وبعد قليل سوف نرى سعيد بن زيد يؤكد للنبى أن أباه لو كان حيا بعدما بُعِث بالنبوة لكان قد آمن به، ثم استأذنه أن يستغفر له، فأذن عليه السلام له بذلك. لكن الرصافى يقلب الأمر رأسا على عقب مناقضةً لكل أصول المنطق والعقل، إذ يجعل الرسول هو المتأثر بزيد بن عمرو بن نفيل لا العكس مع أنه عليه السلام كان مبغضا طول عمره للأوثان ولا يقرب إليها شيئا ولا يأكل مما ذبح باسمها كما قال الرصافى نفسه. وهو دليل على أنه دخل الموضوع وهو كاره للنبى رغم ما قاله فى أول الكتاب عن عظمته وعبقريته، إذ هو مجرد كلام فارغ يراد به تخدير القارئ المسلم حتى يتقبل كل ما سيقوله بعد ذلك ضد محمد بطرق شتى مدابِرة للعقل والمنطق والتاريخ والتحليل السليم لشخصية النبى وأوضاع مجتمعه وتقاليده ونفسية خصومه.

كذلك لو كان النبى قبل الإسلام يقدم للأصنام شيئا لقَرَّعَتْه قريش به أول شىء ولاتَّخَذَتْه فرصة للتشنيع عليه ومحاربته. لقد اتهموه بأنه شاعر ومجنون وساحر وكاهن وكاذب، وكانوا يعلمون أن كل هذا تلفيق منهم وكذب سافر مبين، فكيف لجأوا إلى

تلك الأكاذيب وأهملوا وثنيته صلى الله عليه وسلم فلم يقولوا له مثلا: إنك كنت إلى أمس القريب تعبدها كما نعبدها وتنحر لها كما ننحر، فلماذا تأخذ علينا ما كنت تصنع؟ لكننا نقلّب كل ما قالوا له وفى حقه فلم نُلْفِهم قد ذكروا شيئا من هذا لا تصريحا ولا تلميحا. ليس ذلك فحسب، بل إنهم أيضا لم يتهموه بأنه أخذ دينه أو بعضا منه من زيد بن عمرو بن نفيل. لقد اتهموه بأنه اكتتب أساطير الأولين، وقالوا إنما يعلمه فلان وفلان من البشر، لكنهم لم يذكروا اسم زيد بين هؤلاء البشر مكتفين بأسماء بعض الحِرْفيين الأعاجم ممن لا يتحدثون العربية إلا بصعوبة شديدة وفقر مدقع فى معجمها وعباراتها وتراكيبها لا يمكِّنهم من الحديث المفيد فى النصرانية التى كانوا يدينون بها... إلخ.

على أن أهم ما فى الأمر أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل نفسه قد كان من أوائل المسارعين إلى الدخول فى دين محمد، وتعرض للأذى والضرب، لكنه صبر وصابر. وهذه ضربة قاصمة لدعوى الرصافى بأنه صلى الله عليه وسلم قد تعلم من زيد وتأثر به، إذ لو كان هذا صحيحا لما ترك سعيد سبيل أبيه الأستاذ، واتبع سبيل محمد التلميذ. ومرة أخرى ليس ذلك فقط بل دخلت عاتكة بنت زيد أخت سعيد بن زيد فى الإسلام، أى أن كل ذرية زيد قد دخلت الإسلام. ومرة ثالثة ليس هذا فقط بل إن أم سعيد بن زيد فاطمة بنت بعجة بن مليح الخزاعية كانت من السابقين إلى الإسلام. ولا عزاء لمعروف الرصافى، الذى لا يؤسفنا أن كلامه قد ذهب أدراج الرياح. ومرة رابعة ليس هذا فقط بل إن زيدا مضى يتنقل فى بلاد الله بحثا عن الدين الحق حتى طلب منه أحد الرهبان أن يعود إلى بلده انتظارا لنبى يبعث بعد قليل، ومن ثم لا لزوم للضرب فى الأرض بحثا عن الدين الحق لأن الدين الحق سيطلع من بلده، فعاد لكنه مات قبل بعثة

النبى عليه السلام. وكان هذا سببا فيما قاله النبى محمد صلى الله عليه وسلم من أنه رآه فى المنام فى مكانة عالية فى الجنة. ومرة خامسة ليس هذا فقط، إذ أكد سعيد بن زيد أن أباه لو كان حيا لدخل الإسلام فيمن دخلوا فيه، ووافقه النبى على ذلك ووافقه على أن يستغفر له بوصفه مسلما بالنية والقوة. فأين كلام خصوم محمد الذى توهم الرصافى أنه موجود فى سيرة ابن إسحاق وظن أنه يمكن أن يلقى ضوءا على استفادة محمد من زيد، وها نحن قد أوردنا ما قاله ابن إسحاق كاملا، وليس فيه شىء مما يمكن أن يستغله الرصافى فى تشويه صورة محمد؟

أما حكاية أن زيدا رفض الأكل من الطعام الذى قدمه له النبى عليه السلام وزيد بن ثابت ذات مرة بحجة أنه لا يأكل ما ذبح على الأنصاب للأوثان فكيف عرف يا ترى أن اللحم كان من قرابين الأصنام، وهو لم يسألهما عن ذلك ولا تبرعا هما بذكره مجانا؟ بل هل كان محمد ليجهل هذه الحقيقة عن زيد فيقدم له لحما هو يعرف جيدا أنه لا يمكن أن يأكله، وبدون أن يخبره؟ ليست هذه بأخلاق محمد أبدا. ثم متى كان محمد يذبح للأصنام أو يأكل مما ذبح لها؟ وأين يمكننا أن نجد هذا يا ترى؟ بالعكس لقد وجدنا الروايات تقول إنه كان مبغضا للأصنام ولا يذبح لها ولا يأكل مما ذبح على اسمها ولا يشارك قومه الاحتفال بها. ويقينا لو وقع ذلك ولو مرة واحدة وفى الأحلام ما صمتت قريش بل لفضحته فضحا وسلقته بألسنة حداد دون رحمة أو تردد. إن كل الأخبار الأخرى لتصوره عليه السلام نافرا من الأوثان ومن كل ما يتعلق بها، فكيف يأكل من طعامها؟ ثم هل يمكن أن يحرص زيد على التباعد عن طعام الأوثان بكل تلك الحماسة بينما يأكل منها نبى المستقبل الذى طلب الراهب المذكور من زيد أن يعود لبلده انتظارا لشروق شمسه؟ كيف يسوغ هذا فى العقول يا ألله؟ جاء فى "صحيح البخارى" عن

عبد الله بن عمر رضى الله عنهما "أَنَّ النَّبِى صلى الله عليه وسلم لَقِى زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحَ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِى صلى الله عليه وسلم الْوَحْى، فَقُدِّمَتْ إلى النَّبِى صلى الله عليه وسلم سُفْرَةٌ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: إِنِّى لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ وَلاَ آكُلُ إِلاَّ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ؟ إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ". والواقع والحق أن هذا هو ما ينبغى أن يكون قد حدث لا ما جاء فى إحدى الروايات المخاصمة للعقل والمنطق ولشخصية الرسول عليه السلام.

ولقد كان الاتجاه لدى الكتاب المسلمين الذين يتناولون موضوع الحنفاء هو القول بأنهم كانوا تعبيرا عن بداية التململ لدى العرب والبحث عن مخرج مما كان المجتمع آنذاك مرتكسا فيه وأنهم قد مهدوا السبيل للإسلام. وكان هذا أقصى ما كان يقال فى كتابات المسلمين المعاصرين، أما المستشرقون والمبشرون فيزعمون أن محمدا قد تعلم منهم واتبع خطواتهم وضمَّن ما يقولون فى دينه، وهو ما قاله الرصافى فى محاولة منه للإساءة إلى الإسلام ونبيه. فمحمد لديه ليس نبيا ولا له صلة بالسماء ولا نزل عليه جبريل ولا تلقى قرآنا من لدن رب العالمين، وإنما هو يكذب ويزعم هذا، أو يتخيل أنه ينزل عليه الوحى فى حين أنها كلها تصورات غير حقيقية، فهو يسمع ويرى ما لا وجود له بل مجرد تخيلات بصرية وسمعية. هذا ما قاله الرصافى، وإن كان قد حاول محاولة مضحكة أن يقدم لنا تفسيرا عجيبا غريبا للصدق والكذب. وبالمثل فإن بعض الدارسين الغربيين قد عَزَوْا دعوةَ الرسول للإسلام إلى رغبته فى إنهاض قومه مما هم فيه من تخلف والأخذ بأيديهم إلى مدارج التحضر والرقى، وهو أيضا ما قاله الرصافى، وإن

كان قد زاد عليه تَغَيِّيه النهوضَ بالبشرية أيضا وعدم الاقتصار على العرب. لقد قال الرصافى ذلك فى البداية وسلك إلى تقريره سبلا لا تدخل عقل عاقل، لكنه كلما واتته فرصة انقلب على محمد ودينه وقرآنه ورماه بكل العِبَر.

وأما الأبيات الموجودة فى النص التالى الذى قاله ابن هشام فى سيرته وعزا فيه تلك الأبيات لزيد بينما هى فى رأى ابن هشام لأمية بن أبى الصلت فلم أجدها فى سيرة ابن إسحاق. قال ابن هشام: "وقال زيد بن عمرو بن نفيل أيضًا، وقال ابن هشام: هى لأمية بن أبى الصلت فى قصيدة له إلا البيتين الأولين والبيت الخامس وآخرها بيتا وعَجُز البيت الأول عن غير بن إسحاق:

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا ... وقولا رصينا لا يَنِى الدهرَ باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه ... إلهٌ ولا ربٌّ يكون مدانيا
ألا أيها الإنسان، إياك والردى ... فإنك لا تُخْفِى من الله خافيا
وإياك لا تجعل مع الله غيره ... فإن سبيل الرشد أصبح باديا
حنانَيْك! إن الجن كانت رجاءهم ... وأنت إلهى ربنا ورجائيا
رضيتُ بك اللّهم ربًّا، فلن أُرَى ... أدين إلها غيرك اللهُ ثانيا
وأنت الذى من فضل مَنٍّ ورحمةٍ ... بعثتَ إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له: يا اذهبْ وهارون، فادْعُوَا ... إلى الله فرعونَ، الذى كان طاغيا
وقولا له: آأنت سويتَ هذه ... بلا وتد حتى اطمأنتْ كما هيا؟
وقولا له: آأنت رفَّعْتَ هذه ... بلا عمد؟ أَرْفِقْ إذن بك بانيا
وقولا له: آأنت سويتَ وسطها ... منيرًا إذ ما جنه الليل هاديا؟
وقولا له: من يرسل الشمس غُدْوَةً ... فيصبح ما مستْ من الأرض ضاحيا؟

وقـولا لـه: مـن ينبـت الحَـبَّ فى الثـرى فيـــصبح منـــه البقـــل يهتـــز رابيـــا
ويخـــرج منـــه حبـــه فى رؤوســـه وفى ذاك آيـــات لمـــن كـــان واعيـــا؟
وأنـــت بفـــضل منـــك نجيـــتَ يونـــسًا وقـــد بـــات فى أضـــعاف حـــوتٍ لياليـــا
وإنـــى ولـــو ســـبحتُ باســـمك ربنـــا لأكثـــر إلا مـــا غفـــرتَ خطائيـــا
فـــربَّ العبـــاد، أَلْـــقِ سَـــيْبًا ورحمـــةً عـــلى وبـــارك فى بَنِـــى وماليـــا"

وقد علق الرصافى على هذه الأبيات بعدما نقلها عن "السيرة الحلبية" قائلا: "وأنت ترى هذا الشعر فيه ألفاظ وتعابير قرآنية، وهو متقدم على القرآن، فيصح أن يكون مأخذا لبعض الآيات القرآنية. ولأمية بن أبى الصلت شعر كثير يصح أن يكون من المآخذ القرآنية فى ألفاظه وتعابيره وقصصه" (ص١٣٢). فأما أنها لزيد فقد نفى ابن هشام ذلك، فضلا عن أن يكون ابن إسحاق قد ذكرها له كما رأينا.

وكان أمية معاصرا للنبى عليه السلام وتنبأ النبى وهو لا يزال حيا بل عاش إلى ما بعد غزوة بدر، وروت الروايات أنه انتوى القدوم على النبى وإشهار إسلامه بعدما عاش دهرا يحلم أن يكون هو النبى الموعود فلم يتحقق ما صبا إليه، فعزم بعد اليأس من النبوّة على الدخول فى الدين الجديد، لكن قريشا وقفت فى طريقه وأعلمته بمن سقط مجندلا فى تلك الغزوة من أساطين أقاربه فى مكة، فرجع ولم يكمل طريقه إلى المدينة ونظم قصيدة حائية يتوجع فيها أحر التوجع على أقاربه المجندلين ودعا إلى الثأر، وهو ما يدل على أن قلبه لم يبرأ من مرضه الأول وحقده على رسول الله أنِ اصطفاه الله للنبوة وتلقِّى الوحى من السماء دونه.

وإنى لأزعم أن أمية إنما أخذ معانى قصيدته من القرآن، وإلا لاتخذ من قصيدته هذه وأمثالها تكأة يحارب بها محمدا ويَقْرِفه بأنه سرق شعره وضمَّنه قرآنه، ورد على قوله

تعالى فى سورة "يس": "وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين" بقوله مثلا: "ربما لم يكن محمد شاعرا، لكنه كان يسرق شعرى ويحوله قرآنا"، بَيْدَ أنه لم ينبس ببنت شفة فى هذا المضمار. أما محمد فقد كان يسرّه أن يهتدى الناس إلى ربهم ويقروا بنعمه ويمجدوا اسمه: آمَنوا أم لم يؤمنوا، فلذلك لم يهتم بأخذ أمية قرآنه وصوغ معانيه شعرا، فهو صلى الله عليه وسلم والدين الذى جاء به أكبر من ذلك.

وبالمناسبة فقد اتهم بعض المستشرقين، ومنهم المستشرق الفرنسى كليمان هوار، النبى بأنه استعان بأشعار أمية فى تأليف القرآن، وأن ذلك قد حمل المسلمين على محاربة هذه الأشعار حتى لا ينكشف صنيع محمد (انظر Clément Huart, "Une nouvelle source du Qorân", Journal Asiatique 10/4, 1904. وانظر أيضا طه حسين/ فى الشعر الجاهلى/ دار الكتب المصرية/ ٨٤، وبهجة عبد الغفور الأثرى/ أمية بن أبى الصلت- حياته وشعره/ هيئة أبو ظبى للثقافة والتراث- المجمع الثقافى/ ٢٠٠٩م/ ١٢٤). لكن لو صح هذا فلماذا لم ينبر مشرك أو منافق أو يهودى أو نصرانى واحد متهما النبى بأنه أخذ بعض قرآنه عن ذلك الشعر؟ لقد تأخر هذا الاتهام حتى إن أحدا لم يشر إليه أحد قبل ابن داود الأنطاكى (ق٣هـ) فى كتابه: "الزهرة" إذ قال: "جلَّ الله عمَّا يقول الملحدون إن فى شعر أمية طعنًا على الدين من قِبل أنَّه مواطنٌ لبعض ما فى القرآن، وموافقٌ لكثير ممَّا فى شريعة الإسلام. قالوا: فهذا يدلّ على أن القرآن منه أُخِذ، ومن معانيه اسْتُخْرِج. تعالى الله عز وجل عن قولهم علوًّا كبيرًا. ولو ساعدهم التوفيق على فهم ما اعتقدوه لصَدَفَهم الحياء عن قبح ما انتحلوه، ولاسْتَحيَوْا عن ذكر ما ذكروه. وأمية بن أبى الصلت، وإن كان جاهليا، فقد أدرك الإسلام ومدح النبى صلى الله عليه، وذلك موجود فى شعره، ومفهوم عند أهل الخبرة به. وكيف يتوهم أو يستجيز لبيب أن

يهجر عقله أو يحمل نفسه بدعوى ما يتهيأ تكذيبه فيه بأهون السعى من مخالفته؟ أم كيف يظن بالنبى صلى الله عليه أنَّه يأخذ المعانى من أمية، وأمية يشهدُ بتصديقه، ويقرُّ بكتابه، ويعزل نفسه عن التأخر بالدخول فى ملته، وذلك موجود فيما ذكرناه من شعره وما لم نذكره؟".

وبطبيعة الحال لم يحدث أن حارب المسلمون أشعار أمية، بل ها هى ذى أشعاره موجودة، وها هم أولاء مؤرخو الأدب العربى ونقاده القدامى والمحدثون يدرسون حياة أمية وشعره ويقفون عند موضوعاته الدينية وغير الدينية بما فى ذلك حائيته المشتعلة بغضا ودعوة إلى الانتقام من المسلمين لما أنزلوه بالقرشيين من تنكيل شديد وجندلوا منهم من أبطال كبار. وبالمناسبة فإن الشعر الذى بقى لعدد من شعراء الجاهلية والخضرمة لا يزيد فى حالة كل منهم عما فى أيدينا من شعر أمية إن لم يقلّ. كذلك لو كان المسلمون قد حاربوا شعر أمية الذى يشبه القرآن فلم يا ترى تركوا أشعاره التى نحن بصددها رغم احتوائها على موضوعات وألفاظ قرآنية؟ وحتى لو أن هذه الأبيات هى من صنع أمية أو حتى من شعر زيد بن عمرو بن نفيل فماذا عن سائر الآيات الكثيرة التى ترهق محصيها والتى تتحدث عن نعم الله ومظاهر قدرته ودلائل توحيده؟ وهذا يشير إلى صواب ما قلته آنفا من أن العكس هو الصحيح وأن أمية هو من استعان بالقرآن فى نظم أشعاره. ثم إن الركاكة والتهافت فى هذا الشعر وغيره من أشعار أمية لا تشجع أحدا على استيحائه فى شعره فضلا عن أن يستوحيه النبى فى قرآنه حتى لو كان هو صانع هذا القرآن. والعجيب أن أخت أمية وأولاده كلهم قد أسلموا، وفى إسلامهم تكذيب لما قاله هوار والرصافى وأمثالهما من أن محمدا قد استعان بشعر أمية فى نظم قرآنه.

على أن الأمر لا يقف عند هذا الحد بل إن له فى الرسول عليه السلام مدحة جاءت الروايات بأنه أعدها ليفد بها عليه صلى الله عليه وسلم معلنا إسلامه قبل أن تصده قريش عن ذلك. وهذا ما أشار إليه ابن داود الأنطاكى قبل قليل فى ا لنص الذى نقلناه عنه من كتاب "الزهرة". قال أمية:

لَكَ الحَمدُ والمَنُّ ربَّ العِبادِ أَنتَ المَليكُ وأَنتَ الحَكَمْ
وَدِنْ دينَ رَبِّكَ حَتّى اليَقِينِ واجتَنِبَنَّ الهَوى والضَّجَم
مُحَمدًا ارسَلَهُ بالهُدَى فَعاشَ غَنِيًّا وَلم يُهتَضَمْ
عَطاءٌ مِنَ اللهِ أُعْطِيَتَه وخَصَّ بِهِ اللهُ أَهلَ الحَرَم
وقَد عَلِموا أَنَّهُ خَيرُهم وفى بَيْتِهِم ذِى النَدى والكَرَمْ
يَعيبونَ ما قالَ لمّا دَعا وقَد فَرَّجَ اللهُ إِحدى زِيَمْ
بِهِ وهْو يَدعو بِصدقِ الحَديثِ إلى اللهِ مِن قَبْل زيغِ القَدَمْ
أطيعوا الرسولَ عبادَ الإلهِ تُنَجَّوْنَ مِن شَرِّ يَومٍ أَلَمّْ
تُنَجَّوْنَ مِن ظُلُماتِ العَذاب وَمِن حَرِّ نارٍ عَلى مَنْ ظَلَم
دَعانا النبى بِهِ خاتَمٌ فَمَن لَم يُجِبهُ أَسرَّ النَدمْ
نَبِىّ هُدًى صادِقٌ طيبٌ رَحيمٌ رءوفٌ بِوصْلِ الرَّحِم
وَدَفْعِ الضَعيفِ وَأَكْلَ اليَتيم ونَهْكِ الحُدودِ، فَكُلٌّ حَرُم
بِهِ خَتَمَ اللهُ مَنْ قَبلَه ومَنْ بَعدَهُ مِن نَبى خَتَمْ
يَموتُ كَما مَاتَ مَنْ قَد مَضى يُردُّ إلى اللهِ بارى النَّسَم
مَعَ الأَنبيا فى جِنانِ الخُلود هُمُو أَهْلُها غَيرَ حَلِّ القسَمْ
وقُدِّسَ فِينا بِحبِّ الصَلاة جَميعًا وعَلّمَ خَطَّ القَلَم

كِتابًـــا مِـــنَ اللهِ نَقْـــرا بِـــهِ   فَمَـــنْ يَعتَرِيـــهِ فَقَـــدمًا أَثِـــمْ
وإنـــى أَديـــنُ لَكُـــم أَنَّـــهُ   سَـــيُنجِزُكُم رَبُّكـــم مـــا زَعَـــمْ

وقد أكد بهجت عبد الغفور الحديثى فى مقدمة كتابه: "أمية بن أبى الصلت– حياته وشعره" (ص٧٧– ٨٠) أنها له وبالذات أن فيها ذكرا للطعام، وهذه سمة من سمات شعر أمية البارزة، وأنا أيضا أرى ذلك، فأمية لم يكن ينكر أن محمدا نبى، لكن رغبته الدفينة فى قلبه جعلته لا يستقر على موقف منه. وهذه القصيدة هى ثمرة من ثمار إحدى حالاته النفسية الصافية.

ومِنْ ثَمَّ فإنكار د. جواد على لصحتها جَرَّاءَ ما فيها من معانٍ إسلامية رأى أن المسلمين قد نحلوها إياه وضمنوها تلك المعانى، هذا الإنكار لا أساس له لأن أمية كاد أن يدخل فى الإسلام فعلا، كما أن القرآن كان معروفا بين العرب، ولم تكن الطائف بعيدة عن مكة بل كان لأعيان أم القرى بساتين وبيوت هناك، كما كانت تربط بين المدينتين قرابات ومصاهرات، وكانت أم أمية من قريش، وتحديدًا من آل عبد شمس بن عبد مناف، أبناء عمومة بنى هاشم. والروايات تتحدث عن علاقته القوية بأبى سفيان، الذى كان ينقل له أخبار النبى وتطورات دعوته. وأشير فى القرآن إليهما فى قَرَنٍ واحدٍ فى قول رب العزة على لسان بعض المشركين فى سورة "الزخرف": "وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم"، علاوة على أن النبى قد ذهب إليها يدعو أهلها إلى الإسلام، لكن سفهاءها وصبيانها وعبيدها طاردوه فى شوارعها ورَمَوْه بالحجارة حتى خرج ولجأ إلى بستان هناك كما هو معروف. وهذا كله يبرهن برهنة ساطعة أن القرآن كان معروفا لأمية. فمن الطبيعى أن يتأثر به، وبخاصة فى قصيدة كان ينوى أن يَقْدَم بها على النبى معلنا إسلامه كما فعل الأعشى بعد ذلك، فصدته قريش

أيضا، فاستجاب لها وللهدايا الطائلة التى أغرته بها، وفى نيته أن يعاود القدوم عليه العام المقبل، لكن الموت قد عاجله ومنعه تنفيذ ذلك. وهذا معنى قول النبى عليه السلام إن أمية قد آمن لسانه، وكفر قلبه. أى أنه يردد ما يقوله القرآن كما هو أو مع بعض الاختلافات غير المهمة، لكنه لم يتصرف بمقتضى ما قال.

ورغم هذا كله فها نحن ندرس هذا الموضوع مرة أخرى، ولكن بالتفصيل الشديد، فنقول: أمية بن أبى الصلت شاعر مخضرم من قبيلة ثقيف، التى كانت تسكن الطائف. وكان أبوه أيضا شاعرا، كما كانت له أخت تُسَمَّى: "الفارعة"، وبنتان وعدة أبناء بعضهم شعراء، وأخٌ اسمه "هذيل" أُسِر وقُتِل مشركا فى حصار الطائف. وهو من الحنفاء الذين ثاروا على عبادة الأصنام وآمنوا بالله الواحد واليوم الآخر، وأزعجهم التردِّى الخلقى الذى كان شائعا فى الجزيرة العربية، وتطلعوا إلى نبى يُبْعَث من بين العرب، بل إنه هو بالذات كان يرجو أن يكون ذلك النبى. وكان أمية يخالط رجال الدين ويقرأ كتبهم ويقتبس منها فى أشعاره. وكان رجل أسفار وتجارة، كما كان يمدح بعض كبار القوم كعبد الله بن جدعان وينال عطاياهم وينادمهم على الخمر، وإن قيل إنه قد حرَّمها بعد ذلك على نفسه. وتُجْمِع المصادر على أنه مات كافرا حَسَدًا منه وبَغْيًا، إذ ما إن بلغه مبعث النبى محمد حتى ترك الطائف فارًّا إلى اليمن ومعه بنتاه اللتان تركهما هناك، وأخذ يجول فى أرجاء الجزيرة ما بين اليمن والبحرين ومكة والشام والمدينة والطائف. وتذكر الروايات مع ذلك أنه وفد على النبى ذات مرة وهو لا يزال فى أم القرى واستمع منه إلى سورة "يس" وأبدى تصديقه به مؤكدا لمن سأله من المشركين أنه على الحق. بَيْدَ أن حقده الدفين منعه من أن يعلن دخوله فى الإسلام رسميا وبصورة نهائية رغم أنه، حسبما وضحنا آنفا، كان قد اعتزم أن يذهب إلى المدينة للقاء الرسول

مرة أخرى وإعلان دخوله فى الدين الجديد، لكن الكفار خذّلوه وأثاروا نار حقده على محمد من خلال تذكيره بأنه قتل أقاربه فى بدر ورماهم فى القليب، فما كان منه إلا أن عاد أدراجه بعد أن شقّ هدومه وبكى وعقر ناقته مثلما يصنع الجاهليون. ثم لم يكتف بهذا، بل رثى هؤلاء القتلى وأخذ يحرض المشركين على الثأر لهم منضمًّا بذلك إلى جبهة الشرك والوثنية ضد الإسلام، وظل هكذا حتى لقى حتفه على خلاف فى السنة التى مات فيها ما بين الثانية للهجرة إلى التاسعة منها قبل فتح النبى الطائف بقليل، وهو الأرجح (شعراء النصرانية قبل الإسلام/ ط٢/ دار المشرق/ بيروت/٢١٩ وما بعدها، ود. جواد على/ المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام/ ط٢/ دار العلم للملايين/ ١٩٧٨م/ ٦/ ٤٧٨- ٥٠٠، وبهجة عبد الغفور الحديثى/ أمية بن أبى الصلت- حياته وشعره/ مطبوعات وزارة الإعلام/ بغداد/ ١٩٧٥م/ ٤٦ فصاعدا. وله تراجم فى "طبقات الشعراء"، و"الشعر والشعراء"، و"الأغانى" وغيرها).

ولأمية ديوان شعر يختلط فيه الشعر الصحيح النسبة له بالشعر المنسوب له ولغيره بالشعر الذى لا يبعث على الاطمئنان إلى أنه من نظمه، وهذا القسم الأخير هو الغالب. وأكثر شعر الديوان فى المسائل الدينية: تأمّلًا فى الكون ودلالته على ربوبية الله، ووصفًا للملائكة وعكوفهم على تسبيح ربهم والعمل على مرضاته، وإخبارًا عن اليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب، وحكايةً لقصص الأنبياء مع أقوامهم، إلى جانب أشعاره فى مدح عبد الله بن جدعان والفخر بنفسه وقبيلته وما إلى ذلك. ومن الشعر الدينى المنسو ب إليه ما يقترب اقترابا شديدا من القرآن الكريم معنًى ولفظًا وكأننا بإزاء شاعرٍ وَضَع القرآنَ بين يديه وجَهَدَ فى نظم آياته شعرا. ومن هذه الأشعار الشواهد التالية:

لـك الحمـد والـنعماء والمُلْـك ربنـا ... فـلا شـىء أعـلى منـك جَـدًّا وأَمْجَـدُ
مليـكٌ عـلى عـرش الـسماء مهـيمنٌ ... لعزّتـــه تَعْنُـــو الجبـــاه وتـــسجدُ
مليـك الـسماوات الـشِّدَاد وأرضـها ... ولـــيس بـــشىء فوقنـــا يتـــأودُ
تـسبِّحه الطـير الكـوامن فى الخفـا ... وإذ هـــى فى جـــو الـــسماء تَـــصَعَّدُ
ومن خوف ربى سبّح الرعدُ حمده ... وسـبّحه الأشـجار والـوحش أُبَّـدُ
مـن الحقـد نـيران العـداوة بيننـا ... لأنْ قـال ربـى للملائكـة: اسـجدوا
لآدم لمّـــا كمّـــل الله خلقـــه ... فخَـرُّوا لـه طوعًـا سـجودا وكـدّدوا
وقـال عَـدُوُّ الله للكِـبْر والـشَّقا: ... لطـينٍ عـلى نـار الـسموم فـسوَّدوا
فأَخْرَجَـه العـصيان مـن خـير منـزلٍ ... فـذاك الـذى فى سـالف الـدهر يحقـدُ

* * *

ويـوم موعـدهم أن يُحْـشَروا زُمَـرًا ... يـوم التغـابن إذ لاينفـع الحَـذَرُ
مـستوسقين مـع الـداعى كـأنهمو ... رِجْـل الجـراد زَفَتْـه الـريح تنتـشرُ
وأُبْـرِزوا بـصعيدٍ مـستوٍ جُـرُزٍ ... وأُنْـزِل العـرش والميـزان والزُّبُـرُ
وحوسـبوا بالـذى لم يُحْـصِه أحـدٌ ... مـنهم، وفى مثـل ذاك اليـوم مُعْتَـبَرُ
فمنهمـــو فَـــرِحٌ راضٍ بمبعثـــه ... وآخـرون عَـصَوْا مـأواهم الـسَّقَرُ
يقـول خُزّانهـا: مـا كـان عنـدكمو؟ ... ألـم يكـن جاءكم مـن ربكـم نُـذُرُ؟
قـالوا: بـلى، فأطعنـا سـادةً بَطِـروا ... وغرَّنـا طـولُ هـذا العـيشِ والعُمُـرُ
قالوا: امكثوا فى عذاب الله، ما لكمو ... إلا الـسلاسل والأغـلال والـسُّعُرُ
فـــذاك محبـــسهم لا يبرحـــون بـــه ... طول المُقَام، وإن ضجّوا وإن صبروا
وآخـرون عـلى الأعـراف قـد طمعـوا ... بجنـــةٍ حفّهـــا الرُّمّـــان والخُـــضَرُ

يُـسْقَوْن فيهـا بكـأسٍ لـذةٍ أُنُـفٍ   صـفراء لا ثرقـبٌ فيهـا ولا سَـكَرُ
مِزاجهـا سلـسبيلٌ، ماؤهـا غَـدِقٌ   عـذب المذاقـة لا مِلْـحٌ ولا كـدرُ
ولـيس ذو العلـم بـالتقوى كجاهلهـا   ولا البـصير كـأعمى مـا لـه بَـصَرُ
فاسْـتَخْبِرِ النـاسَ عـما أنـت جاهلـهُ   إذا عَمِيتَ، فقـد يجلـو العمـى الخـبرُ
كـائنْ خلتْ فيهمـو مـن أمّـةٍ ظَلَمَـتْ   قـد كـان جـاءهمو مـن قـبلهم نُـذُرُ
فـــصدِّقوا بلقـــاء الله ربِّكمـــو   ولا يـصُدَّنَّكم عـن ذكـره البَطَـرُ

* * *

قـال: ربـى، إنـى دعوتـك فى ا لـف   جـــر، فأصْـــلِحْ عـــلىَّ اعـــتمالى
إننـــى زاردُ الحديـــد عـــلى الـــن   نـــاس دروعًـــا ســـوابغ الأذيـــالِ
لا أرى مـــن يُعِينُنِـــى فى حيـــاتى   غـــير نفـــسى إلا بنـــى إسْرالِ

وقد ظنت طوائف المبشرين ممن فقدوا رشدهم وحياءهم أن بمستطاعهم الإجلاب على الإسلام ورسوله وكتابه بالباطل فأخذوا يزعمون أن القرآن مسروق من شعر أمية بن أبى الصلت لهذه المشابهات. والواقع أن عددا من كبار دارسى الأدب الجاهلى، من المستشرقين قبل العرب والمسلمين، قد رَأَوْا عكس هذا الذى يزعمه المبشرون، إذ قالوا بأن هذه الأشعار التى تُنْسَب لأمية مما يتشابه مع ما ورد فى القرآن عن خلق الكون والسماوات والأرض، وعن العالم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب وجنة ونار، وعن الأنبياء السابقين وأقوامهم وما إلى ذلك، هى أشعار منحولة عليه. قال ذلك على سبيل المثال تور أندريه وبروكلمان وبراو من المستشرقين، ود. طه حسين والشيخ محمد عرفة ود. عمر فروخ ود. شوقى ضيف ود. جواد على وبهجة الحديثى من العلماء العرب، وإن كان من المستشرقين مع ذلك من يدعى أن الرسول

عليه الصلاة والسلام قد أخذ بعض قرآنه من شعر هذا المتحنّف كالمستشرق الفرنسى كليمان هوار، ومنهم من قال إن الرسول وورقة قد استمدا كلاهما من مصدر واحد.

وإلى القارئ تفصيلا بهذا: فالمستشرق الألمانى كارل بروكلمان يؤكد أن أكثر ما يُرْوَى من شعر أمية هو فى الواقع منحول عليه ماعدا مرثيته فى قتلى المشركين ببدر، وأنه إذا كان كليمان هوار المستشرق الفرنسى قد زعم أن شعره مصدر من مصادر القرآن، فإن الحق ما قال تور أندريه من أن الأشعار التى نظر إليها هوار فى اتهامه هذا إنما هى نَظْمٌ جَمَع القُصَّاصُ فيه ما استخرجه المفسرون من مواد القصص القرآنى، وأن هذه الأشعار لا بد أن تكون قد نُحِلَتْ أميةَ منذ عهد مبكر لا يتجاوز القرن الأول للهجرة، فقد سماه الأصمعى: "شاعر الآخرة"، كما أراد محمد بن داود الأنطاكى أن يفتتح القسم الثانى فى الدِّينِيّات من كتابه "الزهرة" بأشعار أمية (كارل بروكلمان/ تاريخ الأدب العربى/ ترجمة د. عبد الحليم النجار/ ط٤/ دار المعارف/ ١/ ١١٣). يريد بروكلمان أن يقول: لولا أنْ كان هناك شعر يدور حول الموضوعات الدينية التى ذكرناها قبلا منسوب لأمية منذ ذلك الوقت المبكر لما أطلق عليه الأصمعى هذه التسمية ولما فكر الأنطاكى أن يورد له أشعارا دينية فى كتابه المذكور. ويقول المستشرق براو كاتب مادة "أمية بن أبى الصلت" بالطبعة الأولى من "دائرة المعارف الإسلامية"، تعليقا على اتهام هوار للقرآن بأنه قد استمد بعض مواده من أشعار أمية، إن صحة القصائد المنسوبة لهذا الشاعر أمر مشكوك فيه، شأنها شأن أشعار الجاهليين بوجه عام، وإن القول بأن محمدا قد اقتبس شيئا من قصائد أمية هو زعم بعيد الاحتمال لسبب بسيط، هو أن أمية كان على معرفة أوسع بالأساطير التى نحن بصددها، كما كانت أساطيره تختلف فى تفصيلاتها عما ورد فى القرآن. ثم أضاف أنه، وإن استبعد أن يكون أمية قد اقتبس شيئا

من القرآن، لا يرى ذلك أمرا مستحيلا. وهو يعلل التشابه بين أشعار أمية وما جاء فى القرآن الكريم بالقول بأنه قد انتشرت فى أيام البعثة وقبلها بقليل نزعات فكرية شبيهة بآراء الحنفاء استهوت الكثيرين من أهل المدن كمكّة والطائف، وغذّتها ونشّطتها كلٌّ من تفاسير اليهود للتوراة وأساطير المسلمين. ثم يخبرنا براو بما توصَّل إليه تور أندريه من أنه ليس فى قصائد أمية الدينية ما هو صحيح النسبة إليه، وأن هذا اللون من شعره هو من انتحال المفسرين (دائرة المعارف الإسلامية/ الترجمة العربية/ ٤/ ٤٦٣-٤٦٤).

وعند طه حسين أن "هذا الشعر الذى يضاف إلى أمية بن أبى الصلت وإلى غيره من المتحنفين الذين عاصروا النبى (ص) وجاؤوا قبله إنما نُحِلَ نَحْلًا. نحله المسلمون ليثبتوا أن للإسلام قُدْمَةً وسابقةً فى البلاد" (فى الأدب الجاهلى/ دار المعارف/ ١٩٥٨م/ ١٤٥). ويرى الشيخ محمد عرفة أنه لو كانت هناك مشابهةٌ فعلا بين شعر أمية والقرآن الكريم لقال المشركون، الذين تحداهم الرسول بأن يأتوا بآية من مثله، إن أمية قد سبق أن قال فى شعره ما أورده هو فى القرآن زاعمًا أنه من لدن الله. لكنهم لم يقولوا هذا، بل اتهموه بأنه إنما يعلّمه عبد أعجمى فى مكة. كذلك يؤكد أن شعر أمية لا يشبه فى نسيجه شعر الجاهلية القوى المحكم، إذ هو شعر بيِّن الصنعة والضعف على غرار شعر المولَّدين. ومن هنا كان هذا الشعر المنسوب لذلك المتحنف الطائفى هو شعر منحول عليه ومنسوب زورا إليه (من تعليق الشيخ محمد عرفة على مادة "أمية بن أبى الصلت" فى "دائرة المعارف الإسلامية"/ ٤/ ٤٦٥).

أما د. عمر فروخ فيؤكد أن القسم الأوفر من شعر أمية قد ضاع، وأنه لم يثبت له على سبيل القطع سوى قصيدته فى رثاء قتلى بدر من المشركين. وبالمثل نراه يؤكد أن

كثيرا من الشعر الدينى المنسوب لذلك الشاعر هو شعر ضعيف النسج لا رونق له (د. عمر فروخ/ تاريخ الأدب العربى/ ط٥/ دار العلم للملايين/ ١٩٤٨م/ ١/ ٢١٧- ٢١٨). ويرى د. شوقى ضيف أن المعانى التى يتضمنها شعر أمية مستمدة من القرآن بصورة واضحة، إلا أنه لا يرتب على ذلك أن يكون أمية قد تأثر بالقرآن، بل يؤكد أن الشعر الذى يحمل اسمه هو شعر ركيك مصنوعٌ نَظَمَه بعضُ القُصّاص والوُعّاظ فى عصور متأخرة عن الجاهلية. وردًّا على دعوى هوار بأن القرآن قد استمد بعض مادته من أشعار أمية يقول الأستاذ الدكتور إن ذلك المستشرق لا علم له بالعربية وأساليب الجاهليين، وإلا لتبين له أنها أشعار منحولةٌ بيِّنة النحل، ولما وقع فى هذا الحكم الخاطئ (د. شوقى ضيف/ العصر الجاهلى/ ط١٠/ دار المعارف/ ٣٩٥- ٣٩٦).

ويؤكد د. جواد على فى كتابه "المفصل فى تاريخ العرب" أن بعض أشعار أمية الدينية مدسوسة عليه، ومن ثَمّ لا يمكن أن يكون أميّة قد اقتبس شيئا من القرآن، وإلا لقام النبى عليه الصلاة والسلام والمسلمون بفضحه. وعلى هذا فهو أيضا يرى أن شعره الذى يوافق فيه القرآنَ إنما صُنِع بعد الإسلام صنعا لأنه ليس موجودا فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا غيرهما من الكتب الدينية، اللّهم إلا القرآن الكريم، وأن أكثره قد وُضِع فى عهد الحجاج تقربا إليه، وبخاصة أن شعره الدينى يختلف عن شعره المَدْحِىّ والرثائى وغيره، إذ يقترب من أسلوب الفقهاء والمتصوفة ونُسّاك النصارى، كما تكررت إشارات الرواة إلى أن هذا الشعر أو ذاك مما يُعْزَى له قد نُسِب لغيره من الشعراء. ثم إنه قد مدح الرسول عليه السلام، كما أن فى الشعر المنسوب له ما يدل على أنه قد آمن به، فكيف يتسق هذا مع رثائه لقتلى بدر من المشركين؟ (المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٦/ ٤٩١- ٤٩٦). أما بهجة عبد الغفور الحديثى فإنه يقسم شعر أمية الدينى

إلى قسمين: قسم يظهر عليه أثر الحنيفية وكتب اليهود والنصارى، وقسم يظهر عليه أثر القرآن. وهو يميل إلى أن يكون القسم الأول له كما يظهر من أسلوبه ومعانيه، أما الثانى فمنحول عليه بدليل ما يبدو فيه من ركاكة لغته وضعف صياغته، ومن أسلوبه المستمد من القرآن (أمية بن أبى الصلت- حياته وشعره/ ١٢٧).

وقد بحثت فى كتب الأحاديث النبوية الشريفة عن روايات تذكر شيئا من شعر أمية فلم أجد إلا ثلاثة أبيات له فى مُسْنَد أحمد يتحدث فيها عن الشمس وعرش الله بما لم يأت شىء منه فى القرآن، وأن الرسول عليه السلام قد صدّقه فيها، وهذا نصها:

رجـلٌ وثـورٌ تحـت رجْـل يمينـه والنـسر لليـسرى، وليـثٌ مُرْصَـدُ
والـشمس تطلـع كـل آخـر ليلـة حمـراءَ يـصبح لونهـا يتـورّدُ
تـأبَى فـلا تبـدو لنـا فى رِسْـلها إلا مُعَذَّبَـةً وإلا تُجْلَـدُ

كما جاء أيضا فى مُسْنَدَىْ ابن ماجة وأحمد أن الشريد بن الصامت قد أنشد النبىَّ ذات مرة مائة بيت من شعر أمية، وكان كلما انتهى من إنشاد بيتٍ قال النبى عليه الصلاة والسلام: "هِيهْ"، يستحثه على الاستمرار فى الإنشاد، ثم عقّب صلى الله عليه وسلم فى النهاية قائلا: "كاد أن يُسْلِم"، وفى رواية أخرى فى مسند أحمد أن النبى لم يعلّق فى نهاية الإنشاد بشىء، بل سكت فسكت الشريد بدوره. وهذا كل ماهنالك، فلم نعرف من الحديث ما هى الأبيات التى أنشدها الصحابى الكريم على مسامع رسول الله، ولا مدى مشابهتها للقرآن. على أن هاهنا نقطة لا بد من تجليتها قبل الانتقال إلى شىء آخر، إذ لا أظن الصحابى الجليل قد قصد عدد المائة تحديدا، فليس من المعقول أنه كان يعدّ الأبيات التى كان ينشدها على مسامع النبى أوّلًا بأوّل وهو يتلوها. ذلك أمر غير

متخيَّل، والأرجح بل الصواب أنه أراد الإشارة إلى أنه قد أنشد سيّدَ الأنبياء عددا غير قليل من الأبيات.

كذلك رجعتُ إلى تخريجات القصائد المشابهة للقرآن الكريم التى قام بها بهجة الحديثى فى رسالته عن أمية، فلفت انتباهى أن هذه القصائد، أو على الأقل الأبيات التى يوجد فيها ذلك التشابه، لم تَرِدْ فى أىٍّ من كتب الأدب واللغة والتاريخ والتفسير المعتبرة ككتاب "جمهرة أشعار العرب" لأبى زيد القرشى، أو "طبقات الشعراء" لابن سلام، أو "الشعر والشعراء" لابن قتيبة، أو "الأغانى" للأصفهانى، أو "تاريخ الرسل والملوك" أو "جامع البيان فى تفسير القرآن" للطبرى مثلا. بل إن كثيرا من هذه الأشعار لم تَرِدْ فى طبعة الديوان الأولى، فضلا عن أن بعضها قد نُسِب فى ذات الوقت إلى غيره من الشعراء. ونقطة أخرى مهمة جدا: لماذا لم يُثِرْ علماؤنا المتقدمون قضية التشابه بين شعر أمية والقرآن الكريم باستثناء محمد بن داود الأنطاكى، الذى كان يردّ، فيما هو واضح، على من اتهم القرآن بالأخذ عن أمية بأن ذلك غير صحيح لأنه عليه السلام لا يمكن أن يستعين فى كتابه بشعر رجل أقر بنبوته وصدّق بدعوته، وأنه لو كان صحيحا رغم ذلك لسارع أمية إلى اتهام الرسول بالسرقة من شعره، وبذلك تسقط دعوته صلى الله عليه وسلم بأيسر مجهود وأقلّه؟ (الزهرة/ تحقيق د. إبراهيم السامرائى ود. نور حمود القيسى/ ط٢/ مكتبة المنار/ الزرقاء/ ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م/ ٢/ ٥٠٣). لقد كان ابن داود الأنطاكى من أهل القرن الثالث الهجرى فى حين أن صاحب "الأغانى" قد جاء بعده بقرن، فكيف اطمأن المتقدم وشكّ المتأخر، أو فلنقل: كيف أورد المتقدمُ الشعرَ المنسوب لأمية، بينما لم يورده الأصفهانى، الذى جاء بعده بقرن كما قلنا؟ والأحرى أن يكون الوضع بالعكس حيث يكون المتقدم أقرب زمنا إلى صاحب الشعر

فيستطيع من ثم أن يحسم الحكم فى مسألة نسبة الشعر إليه، على الأقل قبل تراكم الروايات وازدياد صعوبة غربلتها وإصدار حكم بشأنها. بَيْدَ أن مثل هذا الوضع لا غرابة فيه، فعندنا مثلا ابن إسحاق وابن هشام، اللذان اشتركا فى كتابة "سيرة رسول الله": تأليفًا بالنسبة لابن إسحاق، ومراجعةً وتعليقًا وتنقيةً بالنسبة لابن هشام، وجاء الأول قبل الثانى بزمن غير قصير كما هو معروف، ومع هذا لم يمنع ابنَ هشام تأخُّرُ زمنه عن النظر فى السيرة التى كتبها سَلَفُه وإجالة قلمه فيما يرى أنه لا بد من تغييره أو تصحيحه أو التعليق عليه بما يرى أنه الصواب أو الأقرب للحق، مثلما فعل عندما أنكر على ابن إسحاق مثلا إيراد أشعار لآدم وثمود والجن، بل لأفراد من قريش ذاتها ممن قال إن أهل العلم لا يعرفون لهم شعرًا أصلا أو ينكرون ما ينسب إليهم من شعر. والمسألة بَعْدُ هى مسألة اختلاف فى شخصية الباحث ما بين مطمئنٍّ يقبل ما يُرْوَى له ومدقِّقٍ لا يقبل إلا بعد تمحيص وتقليب... وهكذا.

ومعروف أن ابن سلام وابن قتيبة وأبا الفرج الأصفهانى هم من النقاد ومؤرخى الأدب القدماء المشهود لهم بالتمحيص والتنقيب وعدم قبول أى شىء على علاته، بينما لا يزيد ما فعله ابن داود الأنطاكى فى كتابه "الزهرة" عن جمع الأشعار وتنسيقها، إلا حين يعلّق بكلمة هنا أو هناك تدور عادةً على شرح لفظة صعبة أو تحليل جانب من جوانب عاطفة الحب التى ألف كتابه عنها. إن هذا كله من شأنه أن يعضّد القول الذى سمعنا كبار دارسى الأدب العربى من مستشرقين وعرب يرددونه من أن القصائد التى تتشابه مع القرآن من الشعر المنسوب لأمية هى فى الواقع قصائد منحولة. ولقد نبهنى هذا الاكتشاف إلى ما أحسست به عند مراجعتى لديوان أمية مؤخرا من أنى لا أستطيع أن أتذكر قراءتى لأىٍّ من هذه الأشعار فى الكتب التى أومأتُ إليها لِتَوِّى. وهذا هو

السبب فى أننى قد استبدّ بى الاستغراب أثناء مطالعتى لذلك النوع من قصائد أمية حين فكرت فى الكتابة عن هذه القضية بالرغم من كثرة ما قرأت عن الرجل من قبل فى "الأغانى" و"طبقات الشعراء" و"الشعر والشعراء" مثلا، وكذلك فى كتب تاريخ الأدب العربى التى ألفها باحثون معاصرون ممن تكلموا فى هذه القضية، لكنهم لم يوردوا شيئا من الأشعار محل الخلاف والمناقشة مكتفين بالكلام النظرى فيها.

وبالمثل كان الانطباع الذى شعرتُ به بمجرد قراءة تلك الأشعار هو أنها أقرب إلى النظم الذى وضع صاحبُه أمام عينيه آياتِ القرآن الكريم وأخذ يجتهد فى تضمينها ما ينظم من أبيات: فالكلام مهلهل وغير مستوٍ، وفيه فجوات يملؤها الناظم بها يكمّل البيت بأى طريقة والسلام، على عكس شعر أمية فى رثاء قتلى المشركين ببدر مثلا أو مدائحه لعبد الله بن جدعان. وغنى عن القول ألا وجه لمقارنة هذا الشعر بأسلوب القرآن وما يتسم به من فحولة وجلال وشدة أسر وسحر ينفذ إلى القلوب نفوذا غلابا قاهرا، وهو ما يجعل القول بتأثر شعر أمية بالقرآن لا العكس هو ما يمليه المنطق وتَهَشّ له العقول والضمائر إذا صحَّت نسبة هذه الأشعار له.

ومع ذلك كله فلسوف أسلك الطريق الصعب فأفترض أن تلك الأشعار محلَّ الخلاف هى أشعار صحيحة قالها أمية فعلا، وأن الأحداث التى رافقت نظم هذه القصائد هى بالتالى أحداث صحيحة وقعت هى أيضا. ترى ماذا نجد لو تتبعنا أهم الأحداث فى حياة المصطفى وأمية مما يتصل بهذه القضية؟ أول كل شىء أن شاعرنا كان، كما جاء فى الروايات التى تحدثت عنه، يتوقع أن يكون هو النبى المنتظر، وأنه حين علم أن النبوة تجاوزته لم يستطع صبرا على المُقَام بالطائف على مقربة من الرجل الذى كان حُكْم القدر أن ينزل عليه وحى السماء، فأخذ ابنتيه وهرب إلى اليمن. أى أنه هو

الذى كان مشغولا بمحمد لا العكس. وهذا أحرى أن يجعله متنبها لكل ما يتعلق بمحمد، وعلى رأسه القرآن، الذى كان يتمنى بخلع الضرس بل بِفَقْءِ العين أن يكون هو النبى الذى يتلقاه ويبلغه للناس، حرصا منه على الشهرة والسمعة والمكانة بين قومه، جاهلا فى غمرة حماقته وحسده الأسود العقيم أنه سبحانه وتعالى "أعلم حيث يجعل رسالته".

ومن المنطقى جدا، كما أومأنا، القول بأنه لم يستطع أن يتجاهل الرسول رغم غيظه، بل قل: بسبب غيظه من عدم اختياره هو نبيا للعرب، وأنه كان يتصيد الآيات والسُّوَر التى تنزل على الرسول ويضعها نصب عينيه وهو يَنْظِم شعره، جَرْيًا على المثل الشعبى القائل: "إن فاتك المِيرِىّ تمرَّغْ فى ترابه". إنه "عبده مشتاق" الجاهلى، الذى يمكن أن نرى فيه رائدا لنظيره فى كاريكاتير جريدة "الأخبار" القاهرية، مع بعض التلوينات المختلفة هنا وهناك تبعا لاختلاف طبيعة الدور الذى يريد كل من هذين العبدين المشتاقين أن يؤديه والظروف التى يتحرك فى نطاقها! ولقد فاتته النبوة، فليضمّن نصوصَ وحيها إذن شعره، فهذا أفضل من أن "يخرج من المولد بلا حمّص"! وهو حين يصنع هذا إنما كان يجرى على عادته قبل سطوع بدر الإسلام من العكوف على الكتب الدينية السابقة والاقتباس منها فيما يَنْظِم من أشعار. فهو إذن لا يفترع طريقا جديدا حين يقتبس من القرآن، بل يستمر فى سبيله القديم. والطبع غلاب كما يقولون!

ولا أدرى فى الواقع لماذا، بدلا من هذا الهروب غير المجدى من الطائف، لم يواجه محمدا ويقول له فى وجهه إنه قد سبقه فى شعره إلى ما يقوله هو فى قرآنه، وإن هذا دليل على أنه ليس نبيا حقيقيا، ومن ثم فهو أفضل منه، على الأقل: من ناحية العلم والحكمة. ألم يكن هذا هو ما يقتضيه المنطق لو كان عند أمية ذلك الدليل القاهر الذى يلوّح به

بعض المستشرقين ويتابعهم عليه، فى غباءٍ لا يليق بمن عنده مسكة من عقل، مبشّرو آخر الزمان، ومن خلفهم ذيول المسلمين الذين فقدوا كل معنى من معانى الكرامة والرجولة؟

ومن الواضح أن الرجل كان يحب الظهور بمظهر العالم الحكيم، هذا الوصف الذى وصفه به خطأً بعض من ترجموا له من القدماء، إذ لو كانت الحكمة من صفاته حقا لما ترك الحسدَ يطوّحه ويقلقله فى بلاد العرب جنوبا وشمالا وشرقا وغربا كراهيةَ أن يكون على مقربة من الرجل الذى آثرته السماء عليه فى مسألة النبوة (وإن ذكرتْ بعضُ الروايات، حسبما رأينا، أنه وفد عليه فى مكة واستمع إلى ما تلاه عليه من قرآن وقال كلاما طيبا فى حقه)، ولأَقْبَلَ بدلا من ذلك عليه بجُمْع قلبه وإخلاصه ما دام يرى أنه على الحق كما يشير إلى ذلك الشعر الذى يتحدث فيه، قبل البعثة النبوية، عن حاجة البلاد لنبى يأخذ بيدها فى طريق الهداية، وكذلك القصيدة التى قالها فى مدحه عليه الصلاة والسلام والدين الذى أتى به. بَيْدَ أنه، لِحَظّه التعيس، لم يحزم أمره، وظل مترددا يقترب بقلبه حينًا بعد حينٍ من الدين الجديد، لكنه سرعان ما تثور به عقارب الحقد فيبتعد عنه... إلى أن أقبل أخيرا فى نوبة قوية بعض الشىء من نوبات يقظته الخلقية والروحية ليعلن إسلامه رسميا، فوقفت قريش فى طريقه وأخبرته بأن المسلمين قتلوا عُتْبة وشَيْبة ابنى ربيعة وغيرهما من رجالات الطائف ممن كانوا يمتّون إليه بواشجة القرابة، فما كان منه إلا أن لوى عِنَان فرسه مبتعدا عن طريق النور والسعادة حاكما بذلك على نفسه ببؤس المصير إلى الأبد، وهو ما يدل بأجلى بيان على أنه لم يحزم أمره يوما، وهذه هى مشكلته المزمنة مع نفسه، فأين الحكمة هنا إذن؟

أما العلم فإن نصيبه منه لا يخرج، فيما هو واضح، عن نقل النصوص والقصص من كتب الأمم السابقة إلى شعره دون الانتفاع الحق بها، فهو إذن كالحمار يحمل أسفارا، وإلا فلماذا لم يستفد بها فى اتّباع الحق الذى كان يؤمن به فى أعماق قلبه، وفضّل عليه الانحياز إلى الوثنية ممثلةً فى أقاربه الذين رثاهم ومجَّدهم حين سقطوا وهم يحاربون تحت رايتها ضد التوحيد، وزاد فشقّ جيوبه عليهم وبكى وجدع أنف ناقته كما كان يفعل أهل الجاهلية الجهلاء حسبما ذكرت كتب السيرة وتاريخ الأدب (د.جواد على/ المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٦/ ٤٧٩)، وهو الذى طالما صدّع أدمغتنا من قبل بالحديث عن الحنيفية؟

ولْنقارن بين موقفه هذا وموقف النبى عليه السلام حين أسلم وَحْشِىٌّ قاتل عمه الغالى وأخيه من الرضاع حمزة بن عبد المطلب، وكذلك هندٌ آكلة الأكباد ومدبّرة مقتله المأساوى رضى الله عنه. لقد قَبِلهما النبى فى دينه، وكأن شيئا لم يكن، رغم الجرح الغائر الذى خلّفه موت سيد الشهداء فى قلبه، وذلك نزولا على مبدإ دينه العظيم القائل بأن "الإسلام يَجُبّ ما قبله". أو لماذا لم يقم أمية بالدعوة إلى ما كان يؤمن به (حسبما نقرأ فى الشعر المنسوب إليه)، ولو فى أضيق نطاق بين قومه فى الطائف فقط ما دام ادعاء النبوة سهلا إلى هذا الحد كما فعل محمد، الذى لم يكن قارئا كاتبا مثله؟ فانظر وقارن يتبين لك الفرق بين النبوة والحسد الذى يأكل قلب صاحبه أكلًا فلا يتركه يهنأ بحياته أبدا!

أما المحطة الثانية التى نحب أن نقف عندها فهى ذهاب رسول الله إلى الطائف حين شعر أن مكة تستعصى على دعوته فى غباء وحمق ما عدا القليلين الذين دخلوا فى دعوته رغم التضييق والعنت الشديد والأذى المتواصل، فحَسِبَ أن الطائف قد تكون أحسن استقبالا للدين الجديد، لكن أهلها للأسف لم يكونوا أفضل حالا من قومه فى

مكة. ترى لو كان أمية قد سبق القرآنَ إلى تناول الموضوعات التى نقرؤها فى ذلك الكتاب بنفس الألفاظ والعبارات فى كثير من الأحيان، ومن ثم أخذ محمد بعض قرآنه من شعره، أكان يفكر مجرد تفكير فى السفر إلى بلد ذلك الشاعر معرضا نفسه للسخرية والاتهام من جانب أهلها بدلا من إقبالهم عليه ودخولهم فى دينه؟ إنه إذن لـ"كالمستجير من الرمضاء بالنار" كما جاء فى أمثال العرب، أو كمن "جاء يُكَحِّلها فأعماها" كما يقول المثل الشعبى! ولم يكن الرسول يوما بالشخص الذى يمكن أن يقع فى مثل هذا التصرف الأخرق العجيب، بل لم يتهمه أحد من أَعْدَى أعدائه بشىء من ذلك قط! ثم فلنفترض بعد هذا أنه قد ارتكب هذا التصرف الأحمق (وأستغفر الله العظيم على هذا التعبير الذى اقترفتُه لأكون فى غاية السماحة مع "الأنعام" الذين لهم قلوب لكن لا يعقلون بها، ولهم أعين لكن لا يبصرون بها، ولهم آذان لكن لا يسمعون بها!)، فكيف فات الطائفيين الأمرُ فلم يجابهوه ويجبهوه بهذه السرقة التى كانت كفيلة بقصم ظهر الدعوة التى أتى بها بدلا من إغرائهم صبيانهم وعبيدهم وسفهاءهم بمطاردته بالحجارة فى شوارع المدينة حتى أخرجوه منها منتهكين بتصرفهم الوحشىّ هذا ما توجبه التقاليد العربية الراسخة القاضية بإكرام الضيف الوافد، واضطروه إلى اللجوء إلى بستانٍ لعُتْبة وشَيْبة ابنى ربيعة حيث قابل هناك خادمهما عداسا، الذى قدّم له قِطْفا من العنب يتقوّت به ويزيل عن نفسه التعب، ثم أقبل عليه فى حب وإجلال حين رآه يسمّى الله قبل الطعام وعرف شيئا من دينه على ما هو معروف لقارئى السيرة النبوية؟

ثم هناك قدوم أمية على النبى ومدحه إياه بقصيدة يقرّه فيها على دعوته ويثنى عليه ويصدّق به. ويبدو أن ذلك كان بتأثير الأسئلة التى من المؤكد أنها كانت توجَّه له ممن حوله، إذ لا بد أن يثور فى أذهانهم التساؤل عن السبب، يا ترى، الذى يمنعه من الإيمان

بمحمد ما دام يردد ما يقوله تقريبا ويضمّن شعره بعض ما جاء فى قرآنه! أقول هذا رغم أن فى نفسى من صحة هذه القصيدة شيئا للأسباب التى سأذكرها من فورى، لكننى قلتُه على الشرط الذى وضعتُه حين بينتُ أنه لكى نقبل أشعار أمية التى تشابه القرآن الكريم لا بد أن نقبل معها الأحداث التى صاحبتها حسبما أوردتها الروايات. على أية حال هأنذا أورد جُلّ أبيات القصيدة أولا، ثم ننظر فيها بعد ذلك:

لَـــكَ الحَمــدُ والمَــنُّ ربَّ العِبــادِ   أَنــتَ المَليــكُ وأَنــتَ الحَكَــمْ

وَدِنْ ديــنَ رَبِّــكَ حَتّــى اليَقِــينِ   واجتَنِـــبَنَّ الهَـــوى والـــضَّجَم

مُحَمــــدًا ارسَــــلَهُ بالهُــــدَى   فَعـــاشَ غَنِيًّـــا وَلَم يُهتَــــضَمْ

عَطــــاءٌ مِــــنَ اللهِ أُعْطِيَتَـــه   وخَــصَّ بِــهِ اللهُ أَهــلَ الحَــرَم

وقَــد عَلِمــوا أَنَّــهُ خَــيرُهم   وفى بَيْــتِهِم ذِى النَــدى والكَــرَمْ

يَعيبــونَ مــا قــالَ لمّــا دَعــا   وقَــد فَــرَّجَ اللهُ إِحــدى زِيَــمْ

بِــهِ وهْــو يَــدعو بِــصدقِ الحَــديثِ   إلى اللهِ مِــن قَبْــل زيــغِ القَــدَمْ

أطيعــوا الرســولَ عبــادَ الإلهِ   تُنَجَّــوْنَ مِــن شَرِّ يَــوْمٍ أَلــمٌّ

تُنَجَّــوْنَ مِــن ظُلُــماتِ العَــذاب   وَمِــن حَــرِّ نــارٍ عَــلى مَــنْ ظَلَــم

دَعانـــا النبـــى بِـــهِ خـــاتَمٌ   فَمَـــن لَم يُجِبـــهُ أَسرَّ النَــــدمْ

نَبِـــيّ هُـــدًى صـــادِقٌ طيـــبٌ   رَحـــيمٌ رءوفٌ بِوصْـــلِ الـــرَّحِم

وَدَفْــعِ الــضَعيفِ وَأَكْــلَ اليَتــيم   ونَهْــكِ الحُــدودِ، فَكُــلٌّ حَــرُم

بِـــهِ خَـــتَمَ اللهُ مَـــنْ قَبلَــــه   ومَــنْ بَعــدَهُ مِــن نَبــى خَــتَمْ

يَمــوتُ كَــما مَــاتَ مَــنْ قَــد مَــضى   يُـــردُّ إلى اللهِ بـــارى النَّـــسَم

مَــعَ الأَنبِيــا فى جِنــانِ الخُلــود   هُمُــو أَهْلُهــا غَــيرَ حَــلِّ القَــسَمْ

وقُــدِّسَ فِينــا بِحـــبِّ الــصَلاة جَميعًـــا وعَلّـــمَ خَـــطَّ القَلَـــم
كِتابًـــا مِـــنَ اللهِ نَقْــرا بِـــهِ فَمَـــنْ يَعتَريـــهِ فَقــدمًا أَثِـــمْ

(أمية بن أبى الصلت- حياته وشعره" لبهجة عبد الغفور الحديثى/ ٢٦٠- ٢٦٤)

وقد رفض د. جواد على هذه القصيدة على أساس أن ما فيها من إيمان قوى بالنبى ودينه يتناقض مع ما نعرفه من تردد أمية بالنسبة للإسلام وافتقار قلبه إلى الإيمان العميق، وأنه يشير فيها إلى وفاة الرسول التى لم تقع إلا بعد موت أمية أوّلا (المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٦/ ٤٩٧- ٤٩٨). لكن بهجة الحديثى لا يشك فى القصيدة، بل يرى أنها تمثل خطرة من الخطرات التى كانت تنتاب أمية، فالمعروف أنه لم يكفر بالرسول تكذيبا بل حسدا، إذ كان فى دخيلة نفسه مصدِّقا بما جاء به، بل همّ أن يعلن إسلامه فعلا. كما أن الأنطاكى، الذى كان يعيش فى القرن الثالث الهجرى، قد أكد أنها موجودة فى شعره ومفهومة عند أهل الخبرة به (الحديثى/ أمية بن أبى الصلت/ ٧٨- ٧٩). والحق أن الحجة الأخيرة تكاد تكون العقبة الوحيدة التى تمنعنى من القطع بزيف هذه القصيدة رغم ما فيها مما يدابر المنطق: فهى تتحدث عن اختتام النبوة بمحمد عليه السلام، وهى قضية لم تكن قد طُرِحَت بعد، لأن القصيدة لا بد أن تكون قد سبقت غزوة بدر على آخر تقدير حيث حسم أمية أمره بعد تلك الغزوة وشقَّ جيوبه وعقر ناقته وتراجع نهائيا عن الدخول فى الإسلام، على حين أن الإشارة إلى أن نبوة محمد هى خاتمة النبوات قد وردت فى سورة "الأحزاب"، التى نزلت بعد ذلك بزمن طويل على ما هو معروف. أما ما جاء فى القصيدة من ذكر موت النبى فلا يعنى بالضرورة أنه قد مات فعلا، إذ الكلام يحتمل هذا، كما يحتمل أنه سيموت كسائر البشر حسبما جاء فى قوله تعالى: "إنك ميتٌ، وإنهم ميتون" (الزُّمَر/ ٣٠)، إذ أتى الفعلُ الدالّ

على الموت فى القصيدة فى صيغة المضارع لا الماضى كما لا بد أن يكون القارئ قد لاحظ، رغم أن فى ذكر الموت فى حد ذاته فى هذا السياق كثيرا من الغرابة والخروج على مقتضيات المديح. كذلك فوصف الرسول بأنه "رحيم رءوف" هو صَدًى لوصفه فى القرآن فى الآية قبل الأخيرة من سورة "التوبة" بهاتين الصفتين، وإن جاءتا فى الشعر بعكس ترتيبهما فى السورة، والآية المذكورة تنتمى لمرحلة زمنية متأخرة عن تاريخ نظم القصيدة. كذلك ففى القصيدة صَدًى لقول رسول الله فى حديث أبى هريرة: "لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيَلِج النار إلا تحلَّة القسم"، والمقصود الإشارة إلى قوله تعالى فى الآية ٧١ من سورة "مريم": "وإنْ منكم إلا وارِدُها.كان على ربك حتما مقضيًّا"، ومعروف أن أبا هريرة إنما أسلم فى المدينة فى السنة السابعة للهجرة، أى بعد نظم أمية قصيدته بأعوام، فكيف يمكن أن يتأثر أمية بحديث كهذا لم يكن قد قيل إلا بعد ذلك ببضع سنوات؟ وأنا هنا، كما يلاحظ القارئ، أنطلق من أن القصيدة هى التى تأثرت بالقرآن لا العكس ما دام أمية قالها فى مدح النبى والتصديق بدعوته، إذ معنى هذا أنه لم يكن يرى فى القرآن أى أثر لشعره، وإلا ما فكر فى مدحه عليه السلام بتاتًا، بل فى هجائه وفَضْحه. ثم إن فى النظم هَنَاتٍ لا يقع فيها جاهلىٌّ عادة: فقد جاءت كل من كلمتى "أرسله" و"الأنبياء" فى القصيدة بهمزة، وهو ما يحدث اضطرابا فى موسيقى البيتين اللذين وردت الكلمتان فيهما، إلا إذا حذفنا الهمزتين كما فعلت أنا هنا، فعندئذ نشعر على الفور أننا بإزاء شعر إسلامى صوفى مما يصعب انتماؤه للعصر الأموى أو حتى بدايات العباسى. لكن هل يمكن أن يكون هذا قد فات ابن داود الأنطاكى؟ تلك هى المعضلة. إلا أننا لو استحضرنا فى المقابل أن كبار مؤرخى الأدب ونقاده فى تلك الفترة، وهم العلماء الذين شغلتهم قضية الانتحال فى الشعر الجاهلى والمخضرم كابن سلام

وابن قتيبة والجاحظ وأبى الفرج وابن هشام، لم يَرْوُوا شيئا من هذا الشعر لأمية، لوجدنا أنها ليست بالمعضلة التى تستعصى على الحل. وأيا ما يكن الأمر فكما قلت: إن من يريد منا أن نقبل نسبة الأشعار محل الدراسة لأمية فلا بد أن يقبل معها الأحداث المصاحبة لها فى الروايات التى أوردتْها لنا.

ومما تقوله الروايات عن النبى وأمية أيضا ذلك اللقاء الذى تم بينه صلى الله عليه وسلم وفارعة أخت الشاعر حينما جاءته عند دخوله الطائف فى السنة التاسعة للهجرة وحكت له قصة أخيها وأنشدته من شعره بناءً على طلبه، وما عقَّب به عليه السلام قائلا: "يا فارعة، إن مَثَل أخيك كمَثَل من آتاه الله آياته فانسلخ منها" (ابن حجر/ الإصابة فى معرفة الصحابة/ مطبعة مصطفى محمد/ القاهرة/ ١٩٣٩م/ ٤/ ٣٦٣، والاستيعاب فى معرفة الأصحاب/ مطبعة مصطفى محمد/ القاهرة/ ١٩٣٩م/ ٤/ ٣٧٩). هل يعقل أنه صلى الله عليه وسلم يسعى إلى فتح ملفّ أمية ويقول فيه هذه الكلمة القارصة، وعلى مسمع من أخته، وفى أشد اللحظات على أهل الطائف وطأةً لأنها لحظة انكسار وانهزام، لو كان قد استمد شيئا من قرآنه من شعر الرجل؟ إنه فى هذه الحالة كمن يمد يده فى جحر الثعابين والعقارب معرِّضا نفسه لخطر الهلاك الوَحِىّ دونما أدنى داع. ومعاذَ الذكاء المحمدى أن يفوته عليه السلام ما ينتظره من الخطر فيقدم على التصرف بمثل هذا التهور! ونفس الشىء نقوله عن موقفه من الشريد بن الصامت، إذ لماذا يشجعه صلى الله على وسلم على الاستمرار فى إنشاد الشعر الذى من شأنه أن يفضح دعواه لو كان أمية قد قاله فعلا قبل القرآن، واستمد هو قرآنه منه؟ بل لماذا ينشد سويدٌ أمامه شعرَ أمية أصلا لو كان متطابقا مع القرآن هذا التطابق الذى يدل على استمداده منه؟ بل كيف لم يتنبه لهذا التشابه ولم يختلج على الأقل ضميره بالشكوك

والوساوس؟ ولنفترض بعد ذلك كله أنه صلى الله عليه وسلم قد أقدم على هذا التصرف الخاطئ فى الحالين، فكيف لم يصدر عن الطرف الآخر أى شىء يُلْمِح، ولو على سبيل فلتات اللسان، إلى أسبقية شعر أمية على القرآن أو حتى إلى مجرد المشابهة بين النصين؟

وعندنا من الثقفيين، غير فارعة أخت شاعرنا، كنانة بن عبد ياليل، وكان رئيس ثقيف فى زمانه، واشترك مع أبى عامر الراهب العدو اللدود للإسلام فى التآمر على الدين الجديد وصاحبه، ولم يتركا سبيلا إلا وسلكاه لبلوغ هذه الغاية حتى إنهما ذهبا إلى قيصر للاستعانة به ضد الإسلام. ولما فشلا بقى أبو عامر فى الشام، وعاد ابن عبد ياليل بعد تطواف هنا وهناك وأعلن إسلامه. ويقال إنه كان من بين المرتدين، ثم رجع إلى الإسلام مرة أخرى (ابن حجر/ الإصابة فى معرفة الصحابة/ ٢/ ٤٩٦، و٣/ ٣٠٥). والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن لو كان الرسول قد أخذ شيئا من شعر أمية هو: كيف سكت مِثْلُ كنانة فلم يتخذ من هذا الأمر سلاحا يوجهه إلى قلب الإسلام فى مقتل فيريح نفسه وقومه والعرب جميعا من هذا البلاء الذى أرَّقهم وأزعجهم بدلا من الضرب فى الآفاق والاستعانة بمن يساوى ومن لا يساوى؟ أليس هذا هو ما كان ينبغى أن يمليه المنطق على مثل ذلك الزعيم القبلى؟ لكنه لم يفعل، فعلام يدل هذا؟ أيعقل أن يكون بيده ذلك السلاح الحاسم ولا يفكر فى استخدامه على طول ما حارب الإسلام وكثرة ما تآمر ضده؟

وكان عروة بن مسعود الثقفى قد بكَّر بالدخول فى الإسلام قبل قومه بزمن، فأراد من حبه لهم أن يهديهم الله على يديه، فاستأذن الرسولَ عليه السلام أن يأتيهم فيدعوهم إلى الدخول فى دين التوحيد، لكنه صلى الله عليه وسلم حذره من أنهم سيقتلونه. إلا أنه

لم يكن يتصور أنهم يمكن أن يعادوه ويتأَبَّوْا عليه اعتقادا منه أنهم يحبونه ويكرمونه أشد الإكرام، فعاود الاستئذان، والرسول يحذره، ثم أذن له فى الثالثة ليذهب إليهم ويلقى المصير الذى حاول الرسول أن يجنبه إياه، إذ ما إن بدأ يدعوهم إلى الإسلام حتى اجتمعوا إليه من كل جانب ورَمَوْه بالنبل فقتلوه، رضى الله عنه (أبو نعيم الأصفهانى/ دلائل النبوة/ ط٢/ حيدر أباد الدكن/ ١٩٥٠م/ ٤٦٧). أولو كان الرسول قد أخذ قرآنه من أمية ابن الطائف التى طال استعصاؤها على الإسلام إلى وقت متأخر، أكان عروة يدخل فى دينه مخالفا قومه بهذه البساطة؟ بل أكان الرسول يرضى أن يذهب إليهم هذا المندفع الذى لا يفكر فى العواقب، ومعروف أن أول ماسيجيبونه به هو: أوقد نسيت أن الرسول الذى تدعونا إلى الإيمان بدينه ليس سوى سارق لشعر شاعرنا: أخذه وزعم أنه قرآن يُوحَى إليه من السماء؟ وحتى لو لم يفكر أى منهما فى تلك النتيجة التى لا يمكن أن يتجه الذهن إلى أى شىء غيرها، أكانت ثقيف تدع تلك الفرصة السانحة دون أن تتهكم بعروة على غفلته وتحمسه لدين يقوم على هَبْش النصوص الشعرية والزعم بأنها وحى من عند رب العالين؟

وهناك أيضا من مشاهير الثقفيين الشاعر أبو محجن، الذى كان مدمنا للشراب، وكان يتأرجح بين عشقه المتوله للخمر وتحرجه الدينى، وإن كان لعشق الشراب الغلبة فى بداية أمره حتى لقد حُدَّ فيه مرارا، ونفاه عمر إلى إحدى الجزر... إلى أن جاءت حرب القادسية، وقصته فيها معروفة، إذ كان ساعتَها فى القيد فى بيت سعد بن أبى وقاص، قائد المسلمين فى تلك المعركة، بسبب الخمر انتظارا لإيقاع الحدّ عليه، فأخذ يلحّ على امرأة سعد من وراء زوجها أن تحل وثاقه كى يستطيع المشاركة فى الجهاد فى سبيل الله، ولها عليه عهد الله أن يعود من تلقاء نفسه بعد المعركة فيضع رجليه فى القيد

كرة ثانية، حتى نجح فى إقناعها فأطلقته فحارب وأبلى فى الحرب بلاء حسنا وانتصر المسلمون، فكان عند كلمته وعاد فوضع رجليه فى القيد، ثم أعلن توبته النهائية عن أم الخبائث بعد أن أبدى سعد إعجابه به ووعده أنه لن يحدّه أبدا، إذ صرَّح قائلا إنه يستطيع الآن أن يقلع عنها دون الخوف من أن يقول أحد عنه إنه تركها خشية العقاب. ولا يزال ديوانه يمتلئ بالأشعار التى يتغزل فيها فى بنت الكَرْم متمردا على تحريمها فى دين محمد. بل إنه كان أحد الذين دافعوا عن الطائف أثناء حصار المسلمين لها عقب فتح مكة، وأصاب سهمه فيها ابنًا لأبى بكر (الزركلى/ الأعلام/ ط٣/ ٥/ ٢٤٣، ودائرة المعارف الإسلامية/ الترجمة العربية/ ٢/ ٥٩٧- ٥٩٨، وديوان الشاعر، وبهجة عبد الغفور الحديثى/ أمية بن أبى الصلت/ ٤٢- ٤٣). والسؤال هنا أيضا: كيف لم يتحدث مثل هذا الشاعر عن استعانة الرسول بشعر ابن قبيلته ولو فى نوبة من نوبات تهتكه وتمرده على تحريم الإسلام الصارم لأم الخبائث، أو فى شعره قبل دخوله فى الإسلام؟

ثم لدينا من الثقفيين أيضا الحجاج بن يوسف، الذى كان معلما للقرآن فى بداية حياته كأبيه لا يبتغى بذلك مالا، بل احتسابًا عند الله، ثم أصبح فيما بعد أحد عمال بنى أمية الكبار. وهو الذى أدخل على نظام الكتابة العربية المزيد من الإتقان والضبط، إذ عهد إلى نصر بن عاصم بإعجام الخط، أى وَضْع النقاط للتمييز بين الأحرف المتشابهة كالباء والتاء والثاء، والجيم والحاء والخاء... طلبًا لمزيد من الدقة والتسهيل فى قراءة القرآن، الذى يدَّعى بعض الرُّقَعاء أنه مقتبَس فى بعض مواضعه من شعر أمية. كما كان، رغم كل ما قيل عن قسوته أيام ولايته على العراق، من المداومين على قراءة القرآن. وكذلك كان يشجع بكل وسيلة على حِفْظه، ويُدْنِى منه حُفّاظه (أحمد صدقى العَمَد/

الحجاج بن يوسف الثقفى- حياته وآراؤه السياسية/ دار الثقافة/ بيروت/ ١٩٧٥م/ ٨٦- ٨٧، ٩٦، ٤٧٤، ٤٧٧- ٤٧٨، وهزاع بن عيد الشّمّرى/ الحجاج بن يوسف الثقفى- وجه حضارى فى تاريخ الإسلام/ دار أمية/ الرياض/ ٤٤). والآن ألا يحق لنا أن نتساءل: ما الذى جعل الحجاج يتحمس لدين محمد كل هذا التحمس لو كان هناك ولو ذرة واحدة من الشك تحوم حول مصدر هذا الكتاب، وبخاصة أن المصدر فى هذه الحالة لن يكون شيئا آخر غير شعر ابن القبيلة التى يعتزى هو إليها؟ لا ليس ابن قبيلته فقط، بل هو ابن خالة جده الرابع لأمه: معتب بن مالك (انظر فى نَسَبه "الحجاج بن يوسف الثقفى- وجه حضارى فى تاريخ الإسلام" لهزاع بن عيد الشّمّرى/ ١٥). ولا يظنَّنّ أحد أن شعر أمية لم يكن يهم الحجاج لانشغاله بالسياسة وما يتصل بها، فقد رُوِىَ عنه قوله: "ذهب قوم يعرفون شعر أمية، وكذلك اندراس الكلام" (د. جواد على/ المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٦/ ٤٨٣). أى أن نصوص الشعر والأدب إنما تضيع بذهاب من يحفظونها. وههنا نقطة مهمة جدا، ألا وهى أن شعر أمية قد ضاع، على أقلّ تقديرٍ، جانبٌ كبير منه قبل الحجاج، فكيف وصلنا إذن كل هذا الشعر الذى يشابه القرآن إذا كان واحد من أقرب من تصله به رابطة الدم يشكو من ضياعه على هذا النحو؟

وأهم من ذلك كله دلالةً على ما نريد من أن القضية التى يثيرها الفارغون الجهّال من المبشرين ومَنْ لَفَّ لفَّهم من أبناء المسلمين إنما هى زوبعة فى كستبان لا أكثر أن الفارعة أخت أمية، وأبناءه القاسم وأمية وربيعة ووَهْبًا، قد دخلوا مع ثقيف كلها فى الإسلام كما قلنا من قبل، وكان القاسم وأمية وربيعة يقولون الشعر، ولم يُؤْثَر عن أى منهم ولا من غيرهم ممن كان يمتّ بصلة نسب إلى أميّة أية كلمة تومئ مجرد إيماء إلى أن

الرسول يمكن (يمكن فقط) أن يكون قد استفاد من شعر ذلك الشاعر على أى نحو من الأنحاء، ودعك من أن مجرد اعتناقهم الإسلام هو فى حد ذاته برهان على تكذيبهم بأبيهم وانحيازهم إلى محمد، وهو ما ينقض ما يهرف به الأغبياء المحترقون حقدًا على دين محمد من أن القرآن هو فى بعض جوانبه اقتباس من شعر متحنّف الطائف.

كما أن كثيرا من العرب قد ارتدّ بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وكان لكل قبيلة تعلاتها السخيفة التى تحاول أن تسوّغ بها هذه الردة، لكننا لم نسمع قطّ أن أحدا ممن ارتدّ قد فتح هذا الموضوع. بل إن قبيلة ثقيف قد هَمَّتْ بالارتداد، لولا أن عثمان بن العاص كرّه إليهم الإقدام على مثل ذلك التصرف الذى لا يليق، فما كان منهم إلا أن فاؤوا إلى رشدهم ولم يعودوا إليها، بل كان منهم كثيرون حاربوا المرتدّين بكل إخلاص. وهنا أيضا لم نسمع أية نأمة حول الاستفادة المحمدية المزعومة من شعر أمية! ليس ذلك فحسب، فهناك، كما أشار د. جواد على (فى كتابه: "المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام"/ ٦/ ٤٩٣)، يوحنا الدمشقى مثلا، وهو من أوائل من كتب من النصارى مهاجما الإسلام، وكان معاصرا لدولة بنى أمية. أفلو كان لهذه الشبهة أىّ ظل من الحقيقة مهما ضَؤُل، أكان هذا الراهب المتعصب على الإسلام، والذى يريد أن يهدمه على رؤوس أصحابه ويثبت بكل وسيلة أن محمدا لم يكن نبيًّا صادقًا، يُفْلِت تلك السانحة الغالية ويسكت فلا يستخدم هذه الورقة الجاهزة والرابحة بكل يقين؟

بهذا تكون القضية قد ظهرت على وجهها الحقيقى: فلا أمية ولا أى واحد من أبنائه أو أقاربه أو قبيلته أو حتى من العرب، بل ولا من النصارى واليهود الذين عاصروا النبى أو جاؤوا بعده بقليل، قد أثار هذا الأمر على أى وضع. أليس لنا الحق بعدئذ فى أن نصف من يفتح هذا الموضوع الآن بالرقاعة والوقاحة؟ إن ذلك بمثابة رفع

دعوى من غير ذى صفة، بل من شخص لا يستند إلى أى توكيل من أىٍّ من أصحاب الشأن رغم أن الظروف كلها من شأنها أن تدفع أصحاب الشأن هؤلاء إلى الكلام لو كان لتلك المزاعم أساسٌ أىّ أساس! خلاصة القول إنه ليس أمامنا فى هذه المسالة إلا أمران: فإما قلنا بزيف نسبة هذه الأشعار إلى أمية، وإما قلنا إنه قد نظمها تقليدا لما جاء فى القرآن.

لكن د. جواد على يرفض الاحتمال الثانى ولا يرى إلا احتمالا واحدا هو زيف الأشعار المعزوّة إلى أمية. ومن بين ما اعتمد عليه فى هذا الرأى أن النبى عليه السلام لم يتهم أمية بالأخذ منه (المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٦/ ٤٩١). وأنا، وإن كنت أميل إلى رأى الأستاذ الدكتور، لا أستطيع أن أنبذ الرأى الآخر مائة فى المائة لعدم توفر دليل قاطع على صحته، ولكيلا أترك فرصة لأى جَعْجَاع يريد أن يُجْلِب على القرآن والرسول، فكان لا بد أن أسدّ هذه الثغرة. ومن هنا فإنى أجيب على الحجة التى ساقها د. جواد بالقول إن النبى عليه السلام أكبر من أن يقف عند هذه الأشياء، وبخاصة أنه قد نزل عليه القرآن كى يفيد منه الناسُ أيا كان نوع تلك الإفادة لا ليشمخ به عليهم. ثم إن القرآن ليس ملكا للرسول بل هو كتاب الله، فماذا كان يمكن الرسولَ أن يقول لأمية فى هذه الحالة، وبالذات إذا علمنا أن أمية لم يواجهه بل اكتفى بالازورار؟ وحتى هذا الازورار لم يكن كاملا، فقد جاء فى بعض الروايات، حسبما مر آنفا، أنه وفد عليه ذات مرة واستمع منه إلى سورة "يس"، وشهد له بالحق، وأنه، عند عودته من الشام، قد أخذ طريقه إلى المدينة ليعلن الدخول فى دينه لولا تحريض المشركين له ضد الرسول جرّاء مقتل بعض أقاربه على يد المسلمين فى بدر حسبما جاء فى "الإصابة" لابن حجر و"مجمع البيان" للطَّبَرْسِىّ وغيرهما (د. جواد على/ المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٦/

٤٨٦). أما إذا كان لا بد من أن يردّ عليه النبى رغم ذلك كله أفلا يكفينا ما رُوِىَ عنه صلى الله عليه وسلم من قوله فيه: "آمن شعره، وكفر قلبه" أو "آمن لسانه، وكفر قلبه" (صحيح مسلم من كتاب "الشعر". وقد أورده الدكتور جواد نفسه فى "المفصّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام "/ ٤٨٥)؟ إذ معنى "آمَنَ شعره أو لسانه" أنه كان يأخذ ما جاء فى القرآن ويردّده فى شعره ترديد المؤمن به، لكن حسده له عليه السلام قد منعه أن يعلن ذلك بصفة رسمية ونهائية، وهذا معنى كفران قلبه. أما الاحتمال الثالث الذى طرحه بعض المستشرقين، كالمستشرق الألمانى شولتس ناشر ديوان أمية، من أن النبى وأمية قد استقيا كلاهما من مصدر ثالث مشترك فهو احتمال ليس له رِجْلان يمشى عليهما، إذ أين ذلك المصدر المشترك؟ ولِمَ لَمْ يَظْهَرْ طَوَالَ كلِّ هاتيك القرون؟ وكيف وقع كل منهما عليه، وبينهما كل هذا البعد المكانى والنفسى؟ ثم لماذا هما وحدهما بالذات من دون العرب كلهم بل من دون العالم أجمع؟

أمية الرسول والتشكيك فيها: ويؤكد الرصافى أن محمدا كان يقرأ ويكتب واطلع على كتب اليهود والنصارى ونسخ منها نصوصا كثيرة فى القرآن، وأن كل قصص الأنبياء الموجودة فيه منقولة نقلا عن الكتاب المقدس. أما الأمية التى وصف الله بها محمدا وقومه فتفسيرها عند الرصافى أنهم لم يكونوا أهل كتاب. ومن ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم من الصحابة القارئين الكاتبين أميين فى حكم القرآن، أى ليس عندهم كتاب سماوى لا أنهم لا يقرأون ولا يكتبون (ص١٦٦ وما يليها). وهذا كله هو ما يقوله المستشرقون. ومثالا على ذلك أحيل القراء الكرام إلى مادة "محمد" فى "دائرة المعارف الإسلامية" حيث يقول كاتبها حسب الترجمة العربية: "وبإمكان هذا السياق أن يقودنا إلى فهم أفضل لكلمة كثيرا ما دار النقاش حَوْلها، وهى كلمة "أُمِّىّ".

فحين تشير الآية ١٥٧ من سورة "الأعراف" إلى محمد (صلى اللَّه عليه وسلم) على أنه النبى الأمى فالظاهر أنها تعنى "الشخص الذى لم يبلَّغ من قبل بكتاب اللَّه"، أى عكس أهل الكتاب الذين سبق أن تَلَقَّوْا كتاب اللَّه بلسانهم. وقد كان محمد (صلى اللَّه عليه وسلم) أميا قبل تلقيه الوحى لا بعده، ولا يؤثر هذا التفسير فى نتيجة التساؤل عما إذا كان بمقدور محمد (صلى اللَّه عليه وسلم) أن يقرأ وأن يكتب، اللّهم إلا إن كانت كلمة "أمى" تحمل فى طياتها معنى عجزه عن قراءة الكتب المقدسة لليهود والنصارى. ولابد أن اشتغاله بالتجارة كان يستلزم قدرا من الإحاطة بقراءة العربية وكتابتها. وتشير الآيات ٤ – ٦ من سورة الفرقان إلى اتهام الكفار له بالافتراء: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِى تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا". ولم تكتسب كلمه "أمى" معناها الشائع الآن (وهو الجهل بالقراءة والكتابة) إلا فيما بعد، وفى الدوائر الدينية، كتدليل على معجزة تلقى محمد (صلى اللَّه عليه وسلم) الوحى من اللَّه عن طريق جبريل (عليه السلام)".

ويورد الرصافى الرواية التى يفهم منها أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية الكلمات التى رفض كاتب المعاهدة أن يكتبها لأنه رأى فيها مِسَاسًا بمقام الرسول الكريم. وهو يوغل فى السخف والنطاعة فيقول إن الرسول عليه السلام كان يقرأ ويكتب من قبل البعثة، لكنه كان يكتم ذلك. ولكن لماذا؟ هل نوى منذ طفولته أيام تعلَّمَ القراءة والكتابة أن يدعى النبوة ويقول إن معجزته هى الإتيان بالقرآن رغم أميته فأخذ احتياطاته واستعد قبل الهنا بسنة؟ بالله أهذا منطق آدميين؟ ويا ترى من علمه كيف يقرأ

ويكتب؟ كنت أحب من الرصافى أن يمدنا برواية تنص على أنه كان يقرأ ويكتب من قبل البعثة؟

الواقع أن ما قاله الرصافى عن معرفة الرسول القراءة والكتابة واطلاعه على كتب اليهود والنصارى ونقله عنها فى القرآن ليس سوى ترديد لما يقوله المستشرقون والمبشرون كما قلت، فإنهم يزعمون أن الرسول عليه السلام كان يقرأ ويكتب ويطالع كتب أهل الكتاب. وهم يريدون من وراء ذلك أنه استمد منها دينه وقرآنه. وهو زعم متهافت، فمن ناحية القراءة والكتابة نرى أن القرآن قد وصفه عليه السلام بـ"النبى الأمى" (الأعراف/ ١٥٧). كما أكد فى موضع آخر أنه لم يكن يتلو قبل نزول القرآن عليه من كتاب أو يخطه بيمينه (العنكبوت/ ٤٨). ولو كان كلام القرآن غير صحيح لما سكت الكفار، ولسجل القرآن نفسه كالعادة رده عليهم. إن ألفريد جيوم مثلًا فى كتابه: "Islam" (Pelican Books, Lonoon, 1964, P. 56- 57) يشكك فى أُمِّيَّة النبى عليه الصلاة والسلام، وحجته أنه من غير المعقول أن يطمئن إلى أحد غيره فى قراءة الفواتير أيام اشتغاله بالتجارة، أو فى قراءة ما يرد إليه من رسائل بعد ذلك عندما أصبح نبيًّا. كما أن إحدى الروايات المبكرة تعزو إليه الكتابة يوم صلح الحديبية. وهو يفسر آية "وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ" بأن المقصود بذلك هو كتب اليهود والنصارى، وأن أميته (إن صح ما تقوله الآية) إنما استمرت إلى بداية رسالته فقط. والحقيقة أن الآية المذكورة تنفى أنه كان يقرأ أى كتاب، فلا معنى إذن لقصر ذلك على كتب اليهود والنصارى. أما فَهْمُه لقوله تعالى: "وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ" بمعنى أنك، وإن كنت قبل ذلك تجهل القراءة والكتابة، فإنك الآن تستطيع ذلك فهو فهم غريب، إذ إن حجة القرآن بذلك تتهافت وتصبح غير ذات معنى، لأن رد الكفار

حينئذ سيكون كالتالى: "ما دمت تعرف الآن القراءة والكتابة فهذا معناه أنك تستطيع أن تنظر فى كتب السابقين وتنقل منها". ولكنهم لما لم يحيروا جوابًا كان ذلك دليلًا على أن فهم جيوم للآية غير سليم، وأن المقصود منها هو أنه عليه الصلاة والسلام كان قبل ذلك وظل بعده أُمِّيًّا، وإلا فالواحد يستطيع، على طريقة هذا المستشرق، أن يقول إن القرآن ينفى أن يكون محمد قادرًا على أن يخط شيئًا بيمينه، ولكنه لم ينف قدرته على ذلك بيده الشمال، فمحمد إذن كان يكتب ولكن بيسراه. وهو كما ترى فهم مضحك.

إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد فسر الأُمِّية عَرَضًا أثناء حديثه عن الشهور القمرية، إذ قال: إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب. الشهر هكذا وهكذا. يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين. أما تفسير الرصافى وغيره للأمية بأنها عدم امتلاك الأمة لكتاب سماوى فلا يلزمنا لأنه لا يعقل أن نترك تفسير الرسول ونأخذ تفسير الرصافى أو غيره، فضلا عن أن المعاجم العربية تفسر "الأمية" بما نفسرها به هنا وليس فيها أبدا هذا المعنى الرصافى. وسأنقل هنا ما يقوله "لسان العرب" فى هذا الموضوع: "الأُمِّىّ: الذى لا يَكْتُبُ. قال الزجاج: "الأُمِّىّ: الذى على خِلْقَة الأُمَّةِ لم يَتَعَلَّم الكِتاب، فهو على جِبِلَّتِه. وفى التنزيل العزيز: "ومنهم أُمِّيُّون لا يَعلَمون الكتابَ إلاّ أَمَانِىَّ". قال أَبو إسحق: معنى "الأُمِّى: المَنْسُوب إلى ما عليه جَبَلَتْه أُمُّه أى لا يَكتُبُ، فهو فى أَنه لا يَكتُب "أُمِّى" لأن الكِتابة هى مُكْتسَبَةٌ، فكأَنه نُسِب إلى ما يُولد عليه، أى على ما وَلَدَته أُمُّهُ عليه. وكانت الكُتَّاب فى العرب من أَهل الطائف تَعَلَّموها من رجل من أهل الحِيرة، وأَخذها أهل الحيرة عن أهل الأَنْبار. وفى الحديث: إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُب ولا نَحْسُب. أَراد أَنهم على أَصل ولادة أُمِّهم لم يَتَعَلَّموا الكِتابة والحِساب، فهم على جِبِلَّتِهم الأُولى. وفى الحديث: بُعِثتُ إلى أُمَّةٍ أُمِّيَّة. قيل للعرب: "الأُمِّيُّون" لأن الكِتابة كانت فيهم عَزِيزة أَو عَدِيمة.

ومنه قوله: "بَعَثَ فى الأُمِّيِّين رسولًا منهم"... وقيل لسيدنا محمدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الأُمِّى" لأَن أُمَّة العرب لم تكن تَكْتُب ولا تَقْرَأ المَكْتُوبَ، وبَعَثَه الله رسولًا وهو لا يَكْتُب ولا يَقْرأُ من كِتاب... ففى ذلك أَنْزَل الله تعالى: "وما كنتَ تَتْلُو من قَبْلِه من كِتابٍ ولا تَخُطُّه بِيَمِينِك إذن لارْتابَ المُبْطِلون" الذين كفروا ولَقالوا: إنه وَجَدَ هذه الأَقاصِيصَ مَكْتوبةً فَحَفِظَها من الكُتُب".

كما أن وصف الرسول فى سورة "الأعراف" بـ"النبى الأمى" لا يستقيم مع تفسير الرصافى ومن أخذ عنهم من أعداء الإسلام، إذ لا يمكن أن يقول القرآن إنه "أمى" بمعنى أنه ليس فى يده كتاب سماوى فى الوقت الذى فى يده القرآن الكريم. بل إن القرآن وصف بعض اليهود فى سورة "البقرة" بأنهم "أميون" فقال: "ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىَّ وإنْ هم إلا يظنون". فهل نلغى عقولنا ومعرفتنا باللغة من أجل خاطر معروف الرصافى ونقول إنها تعنى أن من اليهود، الذى معهم التوراة، يهودا ليست لهم توراة ولا غير توراة؟ إن كان هذا يستقيم فى العقل فلا كان عقل ولا منطق ولا فهم ولا تفكير. وهل يمكن أن يقول الله لليهود: آمِنُوا يا أهل الكتاب بهذا النبى الذى ليس معه كتاب؟ كيف ذلك؟ بل لقد وُصِف القرآن المجيد فى عدد من نصوصه بأنه "الكتاب": هكذا مجردا دون وصف. ثم كيف يقال إن العرب أُمَّةٌ أميين بهذا المعنى، وقد نزل عليهم القرآن الكريم، فهم أيضا أصحاب كتاب؟

أما قول جيوم إن إحدى الروايات قد ذكرت أن الرسول كتب بيده فى صلح الحديبية فالرد عليه هو أن الرواية المتلقاة بالقبول هى أنه أَمَرَ بكتابة ما طلب المشركون من تعديل فى بعض ألفاظ الصلح كما فى "سيرة ابن هشام" مثلا. أما الرواية التى يشير إليها فهى إن صحت يكن المقصود منها هو المعنى المجازى كما هو الحال فى قولنا:

"حارب السادات إسرائيل" و"بنى عبد الناصر السد العالى" وما إليه. ومثله ما ورد فى البخارى من أن الرسول عليه السلام قد اتخذ خاتمًا من فضة ونقش فيه "محمد رسول الله"، إذ لا يعقل أن الرسول هو الذى نقش ذلك بنفسه، فهو لم يكن نقاش خواتم، بل المقصود أنه أمر بذلك. وإن كانت الرواية التى أشار إليها جيوم قد نصت على أن الرسول كتب فعلًا بيده اسمه فلا يدل على معرفة بالقراءة والكتابة، فربما كان عليه السلام يستطيع كتابة اسمه وقراءته فقط كما هو الحال بين كثير من الأُمِّيِّين الذين نعرفهم. على أية حال ليس من الحكمة فى شىء أن نتمسك برواية واحدة غير مشهورة ذكرت أنه كتب فى هذه المناسبة فقط على مدار حياته كلها ولم ترد فى المصادر الأصلية لسيرة الرسول عليه السلام ونترك كل الروايات الأصلية المتضافرة على أنه عليه السلام كان أمِّيًّا. أما استبعاده أن يطمئن النبى عليه الصلاة والسلام إلى أحد غيره يكتب له الفواتير ويقرأ له الرسائل التى ترد فليس له أساس إلا مجرى الهوى، وإلا فإن كثيرًا من التجار والمقاولين فى القاهرة المعاصرة، التى لا شك أن مستواها الحضارى والثقافى أرقى مليون مرة من مستوى مكة فى ذلك الزمان، لا يستطيعون القراءة والكتابة ولا يمنعهم ذلك من النجاح فى تجارتهم إلى درجة أن بعضهم يصبح مع مر الأيام مليونيرًا. وعلى أية حال فإن السيرة النبوية تذكر أن ميسرةَ غلامَ خديجة كان يصاحب الرسول فى رحلاته التجارية عندما كان يعمل عليه السلام فى أموالها، فمن الممكن جدا أن الرسول كان يشتغل بالتجارة بينما يقوم ميسرة بالكتابة. لا ليس من المعقول أن يعيش النبى ثلاثًا وستين سنة فلم نسمع بواقعة محددة كتب فيها رسالة أو قرأ فيها كتابًا أو حتى ورقة سوى هذه الإشارة المقتضبة إلى أنه كتب فى صلح الحديبية كلمة لم يرض الكاتب المسلم

أن يكتبها بنفسه، فنسارع إلى تصديق هذه الإشارة المقتضبة المغموزة ونهمل كل تلك الوقائع القاطعة.

ولو كان الرسول يقرأ ويكتب وينظر فى الكتب السابقة فمن يا ترى رآه يصنع ذلك؟ ومن شاهد فى يده كتابا أو قلما؟ ومن أى شخص كان يحصل على تلك الكتب والورق والأقلام؟ ولماذا لم ينبر واحد ممن يعرفونه عليه السلام يشهد بأنه رآه يقرأ أو يكتب؟ أم تراه إذا أراد القراءة والكتابة نزل فى سرداب تحت الأرض فقرأ وكتب ما يريد ثم ترك الأقلام والأوراق تحت الأرض وخرج ينفض ثيابه من الغبار وخيوط العنكبوت دون أن يستطيع أحد إثبات التهمة عليه؟ أيعقل أن يكون النبى عارفا بالقراءة والكتابة ثم لا يراه أحد متلبسا بشىء من ذلك طوال عمره؟ وهل نحن فى مدينة مترامية الأطراف يجهل كل فرد فيها كل شىء عن جيرانه؟ لقد كان عليه السلام يعيش فى مكة، وهى أشبه بقرية من قرانا الآن، فلو كان يعرف القراءة والكتابة لعرف كل شخص من أهل القرية هذا الأمر بمنتهى الوضوح واليقين. وأخيرا فلو كانت "الأمية" هى أن الأمة لا تملك كتابا سماويا فلم يا ترى لم يسمِّ العهد القديم أو موسى أو أى شخص من بنى إسرائيل أمة المصريين والأمم التى اصطدموا بها فى فلسطين بـ"الأميين"؟ فليجبنى أحد على هذا السؤال.

هذا عن الأمية، أما بالنسبة لدعوى نقله عليه السلام عن كتب أهل الكتاب قصص الأنبياء السابقين فالرد سهل، فقد تلقاها من الوحى، فضلا عن أن القرآن يخالف أهل الكتاب فى معظم النقاط الرئيسية والجوهرية التى تدور عليها عقائدهم وسِيَر أنبيائهم: فمثلا عقيدة الألوهية عندنا غيرها فى الكتاب المقدس، إذ إن بنى إسرائيل يصورون الله فى مواضع كثيرة من كتابهم كأنه واحد من البشر، والبشر

العاجزين، وهو عندهم إلهٌ قَبَلِيٌّ خاص بهم من دون البشر جميعا، بينما هو فى القرآن رب العالمين كلهم أجمعين. والنصارى يعتقدون أن المسيح هو الإله أو ابن الإله فى حين هو عندنا مجرد عبد من عباد الله ورسول من رسله ليس إلا. وسوف يحاسَب يوم القيامة كما يحاسَب سائر البشر ولن يجلس على يمين الله يحاسِب معه البشر ويعطيهم درجات على أساسها يدخلون ملكوت السماوات أو يُطْرَدون خارجه. ونحن نؤمن بالجنة والنار فى حين يخلو العهد القديم من الحديث فى هذا الموضوع، ويقول العهد الجديد بملكوت السماء، والكلام فيه شحيح وعارض وعام ولا صلة بينه وبين عقائدنا فى اليوم الآخر. كما أبرأ قرآننا نوحا وإبراهيم ولوطا وموسى وهارون وداود وسليمان... مما يهتهم به اليهود من الإجرام ومواقعة الفواحش والتصرفات المنحطة وقساوة القلب وزنا المحارم والقتل العمد الخسيس وغير ذلك، ونفى بنوة عُزَيْر لله، وأنكر صلب عيسى وألوهيته وهاجم الثالوث بكل عنفوان وكفَّر من يقول به وتوعدهم بنار الجحيم.

ثم مَنْ مِنْ أهل الكتاب يا ترى أو من غير أهل الكتاب كان يمدّ محمدا بكتبهم؟ ولماذا لم يظهر ويواجه محمدا بهذا ويضع حدا لادعائه النبوة ما دام محمد لم يتلق شيئا من السماء لأنه لا توجد سماء أصلا فى عرف الرصافى، ويقول له: كيف تنسى أننى أنا الذى كنت أوافيك بكتبنا ولم يدر بخَلَدى أنك ستغدر بى وتزعم أنك نبى ثم تزيد فتهاجم دينى وكتابى وعقيدتى، وبهذا يضع حدا لمشروع محمد التلفيقى، أستغفر الله؟ وهل كانت تلك الكتب مترجمة فى ذلك الحين إلى العربية؟

ولقد كان عمه أبو لهب مثلا كافرا ويؤذيه عليه السلام أشد الإيذاء هو وزوجته وينفّر الناس منه ومن دينه، والمعروف أن أفراد كل أسرة يعلم بعضهم عن بعض كل أمورهم، فلم يا ترى لم يتقدم أبو لهب ويشهد على ابن أخيه بذلك؟ وأبو طالب لماذا هو

أيضا يا ترى لم يأت بابن أخيه ويقرّعه لأنه قد أحدث فتنة فى مكة وزعم أنه نبى يوحى إليه بينما هو يقرأ ما عند أهل الكتاب من صحف وينقل عنها ويكذب مدعيا النبوة ويحرجه كل قليل مع قومه حين يأتونه ويشتكونه إليه؟

ثم كيف يفسر الرصافى أو غير الرصافى دخول تلك الملايين المملينة من اليهود والنصارى منذ سطوع نور الإسلام حتى الآن وإلى ما شاء الله فى دين محمد، وفيهم العلماء ورجال الدين والحكام والسياسيون والأدباء وغير أولئك من خاصة الأمم، إذا كان محمد، كما يزعم الرصافى، يستقى من كتبهم؟ ألم يكونوا ليقولوا حينئذ لأنفسهم: كيف نؤمن برجل أخذ من كتبنا ولفق قرآنه منها ثم ادعى النبوة وأرادنا على التخلى عن ديننا وكتابنا والدخول فى دينه والإيمان بكتابه؟ ذلك لن يكون أبدا. لكن مئات الملايين على مدار تلك القرون التى مضت منذ بزوغ نور الإسلام خيبت ظن الرصافى واعتنقت الإسلام ضاربة بكل اتهاماته وتوهماته عُرْض الحائط وتركته محبطا يكلم نفسه حائرا بائرا لا يجد من يصغى إليه.

كما أن فى القرآن قصص أنبياء آخرين غير أنبياء بنى إسرائيل هم شعيب وهود وصالح. وبالمثل لا يقتصر القرآن على سرد قصص الأنبياء، بل هناك قصة الخلق، وتختلف كثيرا عما عند أهل الكتاب على ما هو معروف، وتشريعات الأسرة من زواج وطلاق ولعان وظِهَار وإِيلاء وحيض ونِفَاس ومواريث وحضانة وما إلى ذلك، وفيها تشريعات للبيع والشراء والقرض والوصية والزنا والربا والقِمَار والخمر والقتل والجروح والشهادة، وتشريعات أخرى للحرب والغنائم والأنفال والجزية... وهذا كله متميز لا تربطه بما عند أهل الكتاب أو غيرهم رابطة إلا فى النادر الشاذ. فتشريعاتنا مختلفة اختلافا بعيدا يكاد أن يكون تاما. حتى عباداتنا تختلف عن عبادات اليهود

والنصارى اختلافا جذريا. فما قول مُتَّهِمى محمد بأنه كان يستقى قرآنه ودينه من الكتب السابقة؟ وبالمناسبة لم يحدث أن قال اليهود لمحمد إنك تعتمد على ما فى كتبنا فى تأليف قرآنك. كل ما قالوه أنهم عندما طلب الله من المؤمنين أن يقرضوه قرضا حسنا عقَّبوا بكل وقاحة بأن "الله فقير ونحن أغنياء". كما ذهبوا إلى الوثنيين فى مكة وأكدوا لهم أن وثنيتهم خير من توحيد محمد. وهو تصرف لا غرابة فيه، فقد كان بنو إسرائيل فى كل منعطف فى تاريخهم ولأقل ملابسة يخلعون التوحيد (المغشوش رغم ذلك) ويطيرون إلى عبادة الأوثان طيرانا. وبالمثل لم يتهم النصارى المعاصرون لمحمد أنه أخذ شيئا من كتبهم.

ولا نَنْسَ ما فى القرآن من نبوءات وبشارات بانتصار الروم على الفرس ودخول المسلمين مكة وتأديتهم العمرة بكل أمان واطمئنان وانتصار الإسلام فى آخر المطاف على كل أعدائه وغير ذلك، وهو ما حصل بحذافيره. وليس لشىء من ذلك وجود فى الكتب السابقة. وعلى الناحية الأخرى ليس فى القرآن شىء من "نشيد الأناشيد" الداعر الفاجر ولا يشتمل على شتائم موجهة للمسلمين على عكس الكتاب المقدس، الذى يحتوى على شتائم مقذعة يرجم بها الله اليهود رجما. كما أن القرآن ليس تأريخا لأمة العرب مثلما أن العهد القديم هو تاريخ لبنى إسرائيل. وليس قرآننا سيرة نبوية كالأناجيل، بل السيرة النبوية لدينا شىء، والقرآن شىء آخر كما يعرف كل إنسان. وليس فى القرآن سورة كبيرة خاصة بالتشريعات كما هو الحال فى الكتاب المقدس، الذى يضم بين جنباته سفر "التثنية"، وكله تشريعات من أوله إلى آخره. وعلى نفس المنوال لا يتضمن القرآن سورا كاملة كلها أدعية وابتهالات كـ"مزامير داود" مثلا. وعلى نفس الشاكلة يخلو القرآن تماما من الرسائل ما عدا رسالة سليمان لبلقيس، وهى رسالة جد

قصيرة إذ تتكون من سطر واحد، ولا تخص المسلمين بل بنى إسرائيل، بخلاف العهد الجديد، فإن فيه بالقرب من نهايته عددا من الرسائل التى كتبها المسمَّوْن: "رسل المسيح" لهذا الشخص أو ذاك أو لهذه الجماعة أو تلك. وهى رسائل طويلة، وبعضها مكون من عدة صفحات.

كذلك فتأليف القرآن يختلف تماما عن تأليف الكتاب المقدس، فالقرآن لا يدخل فى تفصيلات التاريخ ولا يهتم بإيراد الأسماء التاريخية إلا فى حالة الرسل وبعض الأشخاص القليلين جدا لا غير على عكس الكتاب المقدس الذى يفيض بتلك التفاصيل وتفاصيل التفاصيل والأرقام والأعداد مما لا تجده فى كتابنا المجيد. وفى القرآن كثيرا ما نقرأ العبارة التالية: "ويسألونك عن كذا فقل لهم كذا" (مع بعض التنويعات الصغيرة فيها)، مما لا يقابلنا فى الكتاب المقدس. وهناك الفواصل القرآنية، ولا يعرفها الكتاب المقدس، وإن كان بعض مترجمى الأناجيل بِأُخَرَة قد عمدوا إلى تقليد القرآن فأَجْرَوْا آياتها على طريقة القرآن بإنهائها بفواصل كما لدينا. ثم إن قرآننا لا يعرف النصوص التى تُنْسَب إلى بعض أنبيائهم أو دعاتهم كـ"مزامير داود" و"نشيد الأناشيد" المعزوّ لسليمان و"رسائل الرسل" فى العهد الجديد مثلا، بل الكلام كله لدينا هو كلام الله. وليس عندنا إصحاحات كما عندهم ولا عندنا حذف وإضافة لبعض السور مثلما لديهم حذف وإضافة لبعض الأسفار. وفى القرآن تبدأ كل سورة، وهى تقابل السفر لديهم، بالبسملة، أما لديهم فلا بسملة ولا أى شىء آخر بل يبدأ الكلام مباشرة. وفى الوقت الذى نجد فيه سورا جد قصيرة حتى لتتكون بعض السور من سطر واحد أو سطرين أو ثلاثة أو عدة سطور أو بضعة عشر سطرا وما إلى ذلك نجد أن كل سفر عندهم لا بد أن يحتوى على عدد من الإصحاحات، ولا يبلغ أى إصحاح مثل

تلك السور فى قصرها الشديد البتة. كذلك لا تعرف إصحاحات الكتاب المقدس تعدد الموضوعات وتنوعها على خلاف سور القرآن المجيد، التى قلما تقتصر الواحدة منها على موضوع واحد، ولا يكون ذلك عادة إلا فى بعض السور القصيرة جدا. وبالمثل نجد عددا من السور القرآنية تبدأ بحروف مقطعة، وهو ما لا نجده فى الكتاب المقدس. ويشبه هذا أن عددا من سور القرآن يبدأ بقَسَمٍ بينما لا يعرف ذلك الكتابُ المقدسُ.

وفى الكتاب المقدس عدد من الأسفار تتضمن رُؤًى طويلة مفصلة ومعقدة ومتشابكة وغامضة بحيث تحتمل تفسيرات كثيرة دون الوصول إلى حسم بشأن التفسير الصحيح. وفى مادة "رُؤًى" بـ"دائرة المعارف الكتابية" نقرأ أن "هناك سلسلة من المؤلفات تحمل أسماء مستعارة، وهى فى غالبيتها من أصل يهودى، ظهرت خلال الفترة بين ٢١٠ق.م، ٢٠٠م. وهذه الكتابات لها سمات مشتركة أبرزها أن هناك تشابها بين هذه المؤلفات جميعها وسفر "دانيال" حيث تستخدم معظم هذه المؤلفات أسلوب الرؤى كأسلوب أدبى لتقدم من خلاله مفاهيمها أو تصوراتها عن المستقبل البعيد... وتختلف كتابات الرؤى عن الكتابات النبوية السابقة لها فى الموضوع وفى الشكل. وكما ذكرنا من قبل أنه بينما نجد أن عنصر التنبؤ موجود فى كل كتابات الرؤى والنبوات إلا أنه يبرز بأكثر وضوح فى كتابات الرؤى، كما أنه يغطى فترات أطول. كما أن كتابات الرؤى تسهب فى وصف حالة العالم كله. ولم تكن هناك فرصة لظهور كتابات الرؤى إلا تحت حكم الإمبراطوريات الكبرى... ومن ناحية الشكل الأدبى هناك اختلافات واضحة بين هذين النوعين من الكتابة، فمع أن كليهما يستخدمان الرؤى إلا أن هذا الاستخدام كان محدودًا فى الكتابات النبوية بمعناها الأضيق. وكانت الرؤى تُذْكَر ضمنًا وليس بصورة أساسية... وتتميز الكتابات النبوية بأنها كانت تكتب فى قالَبٍ نثرىٍّ رفيعٍ

سامٍ يكاد يكون شعرًا منثورًا، بل كثيرًا ما أخذ قالبًا شعريًّا كما فى الإصحاح السادس والعشرين من "إِشَعْيَاء". أما أصحاب كتابات الرؤى فكانوا يكتبون نثرًا عاديًّا دون أى محاولة لإتقانه أو زخرفته، فنجدهم يقدمون أفكارهم فى لغة ركيكة، كما أن الرؤى تسرف فى سرد التفاصيل الخيالية الغريبة".

ومثالا على ذلك نسوق نص الإصحاح الرابع من سفر "رؤيا يوحنا اللاهوتى":

"١بَعْدَ هذَا نَظَرْتُ وَإِذَا بَابٌ مَفْتُوحٌ فِى السَّمَاءِ، وَالصَّوْتُ الأَوَّلُ الَّذِى سَمِعْتُهُ كَبُوق
يَتَكَلَّمُ مَعِى قَائِلًا: «اصْعَدْ إلى هُنَا فَأُرِيَكَ مَا لاَ بُدَّ أَنْ يَصِيرَ بَعْدَ هذَا». ٢وَلِلْوَقْتِ صِرْتُ
فِى الرُّوحِ، وَإِذَا عَرْشٌ مَوْضُوعٌ فِى السَّمَاءِ، وَعَلَى الْعَرْشِ جَالِسٌ. ٣وَكَانَ الْجَالِسُ فِى
الْمَنْظَرِ شِبْهَ حَجَرِ الْيَشْبِ وَالْعَقِيقِ، وَقَوْسُ قُزَحَ حَوْلَ الْعَرْشِ فِى الْمَنْظَرِ شِبْهُ الزُّمُرُّدِ.
٤وَحَوْلَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ عَرْشًا. وَرَأَيْتُ عَلَى الْعُرُوشِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ شَيْخًا
جَالِسِينَ مُتَسَرْبِلِينَ بِثِيَابٍ بِيضٍ، وَعَلَى رُؤُوسِهِمْ أَكَالِيلُ مِنْ ذَهَبٍ. ٥وَمِنَ الْعَرْشِ يَخْرُجُ
بُرُوقٌ وَرُعُودٌ وَأَصْوَاتٌ. وَأَمَامَ الْعَرْشِ سَبْعَةُ مَصَابِيحِ نَارٍ مُتَّقِدَةٌ، هِى سَبْعَةُ أَرْوَاحِ اللهِ.
٦وَقُدَّامَ الْعَرْشِ بَحْرُ زُجَاجٍ شِبْهُ الْبَلُّورِ. وَفِى وَسَطِ الْعَرْشِ وَحَوْلَ الْعَرْشِ أَرْبَعَةُ
حَيَوَانَاتٍ مَمْلُوَّةٌ عُيُونًا مِنْ قُدَّامٍ وَمِنْ وَرَاءٍ: ٧وَالْحَيَوَانُ الأَوَّلُ شِبْهُ أَسَدٍ، وَالْحَيَوَانُ الثَّانِى
شِبْهُ عِجْلٍ، وَالْحَيَوَانُ الثَّالِثُ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ وَجْهِ إِنْسَانٍ، وَالْحَيَوَانُ الرَّابعُ شِبْهُ نَسْرٍ طَائِرٍ.
٨وَالأَرْبَعَةُ الْحَيَوَانَاتُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ حَوْلَهَا، وَمِنْ دَاخِل مَمْلُوَّةٌ عُيُونًا، وَلاَ
تَزَالُ نَهَارًا وَلَيْلًا قَائِلَةً:«قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، الرَّبُّ الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شىء،
الَّذِى كَانَ وَالْكَائِنُ وَالَّذِى يَأْتِي». ٩وحينَمَا تُعْطِى الْحَيَوَانَاتُ مَجْدًا وَكَرَامَةً وَشُكْرًا
لِلْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ، الْحَى إلى أَبَدِ الآبِدِينَ، ١٠يَخِرُّ الأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ شَيْخًا قُدَّامَ
الْجَالِسِ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَسْجُدُونَ لِلْحَى إلى أَبَدِ الآبِدِينَ، وَيَطْرَحُونَ أَكَالِيلَهُمْ أَمَامَ

الْعَرْشِ قَائِلِينَ: ١١«أَنْتَ مُسْتَحِقٌّ أَيُّهَا الرَّبُّ أَنْ تَأْخُذَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْقُدْرَةَ، لأَنَّكَ أَنْتَ خَلَقْتَ كُلَّ الأَشْيَاءِ، وَهِيَ بِإِرَادَتِكَ كَائِنَةٌ وَخُلِقَتْ»". وهو ما يحتار مفسرو الكتاب المقدس إزاءه ويقفون عاجزين يضربون أخماسا لأسداس.

هذا فى الكتاب المقدس، أما فى القرآن فلا توجد إلا "إشارة" إلى رؤيا واحدة قصيرة لا تزيد عن سطر تقريبا: "لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله محلِّقين رؤوسكم ومُقَصِّرين لا تخافون"، وكذلك كلمة "رؤيا" فى قوله تعالى: "وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس" دون أن يقال لنا: أية رؤيا هذه؟

ومما يفترق به القرآن عن الكتاب المقدس اشتماله على أوصاف الجنة والنار وألوان النعيم والعذاب فى العالم الآخر مما لا يقابلنا شىء منه فى العهد القديم، أما فى العهد الجديد فإشارات متهتهة ليس إلا. وعلى الناحية الأخرى نجد أن القرآن يخلو من نسبة أية معجزات غير القرآن إلى النبى على عكس الكتاب المقدس الممتلئ بالآيات الكثيرة المنسوبة إلى عدد من أنبيائه. ومما ينبغى ذكره فى هذا السياق أن أسفار الكتاب المقدس مرتبة تاريخيا، أما سور القرآن فلا. وفى هذه الأيام يقترح بعض المفسدين إعادة ترتيب سوره على أساس تاريخى، وهو ما يرفضه علماء القرآن كلهم، ويعدونه عبثا وإساءة إلى النص الكريم. وثم فروق أخرى بين الكتابين، لكننا نكتفى بهذه التى ذكرناها، ففيها غُنْيَةٌ عن الاتساع فى الكلام فى ذلك الموضوع. وهذا يدل على أن مزاعم اطلاع محمد على الكتب الدينية السابقة وتأثره بها هو كلام لا رأس له ولا ذيل. أما أن فى القرآن الكريم والكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى اشتراكا فى إيراد القصص الخاصة بأنبياء بنى إسرائيل فإن محمدا استقاها من الوحى الإلهى كما قلنا. ولهذا نجد فى نسختها

القرآنية اختلافات واضحة وحاسمة أهمها أن فيها تصحيحات لما تتضمنه نسختها الكتابية من أخطاء وانحرافات حسبما وضحنا.

ومما يعتمد عليه الرصافى فى إثبات أن محمدا لم يكن أميا بل كان يقرأ ويكتب الخبر التالى: "أخبرنى الحسن بن على قال: حدثنى محمد بن زكريا الغلابى قال: حدثنى أبو بكر الهذلى عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال لى العباس: خرجت فى تجارة إلى رجل فى رَكْبٍ منهم أبو سفيان بن حرب، فقَدِمْتُ اليمن. فكنت أصنع يومًا طعامًا وأنصرف بأبى سفيان وبالنفر، ويصنع أبو سفيان يومًا فيفعل مثل ذلك. فقال لى فى يومى الذى كنت أصنع فيه: هل لك يا أبا الفضل أن تنصرف إلى بيتى وترسل إلَى غَدَائك؟ فقلت: نعم. فانصرفتُ أنا والنفر إلى بيته، وأرسلتُ إلى الغداء. فلما تغدى القوم قاموا، واحتبسنى فقال لى: هل علمت يا أبا الفضل أن ابن أخيك يزعم أنه رسول الله؟ قلت: وأى بنى أخى؟ قال أبو سفيان: إياى تكتم؟ وأى بنى أخيك ينبغى له أن يقول هذا إلا رجل واحد؟ قلت: وأيهم هو على ذلك؟ قال: محمد بن عبد الله. قلت: ما فعل. قال: بلى قد فعل. ثم أخرج إلَيَّ كتابًا من ابنه حنظلة بن أبى سفيان: إنى أخبرك أن محمدًا قام بالأبطح غُدْوَةً فقال: أنا رسول الله أدعوكم إلى الله. قال: قلت: يا أبا حنظلة، لعله صادق. قال: مهلًا يا أبا الفضل، فوالله ما أحب أن تقول مثل هذا، وإنى لأخشى أن تكون على بصر من هذا الأمر... ثم قال: يا بنى عبد المطلب، إنه والله ما برحتْ قريش تزعم أن لكم يمنةً وشؤمةً كل واحدة منهما عامة، فنَشَدْتُك الله يا أبا الفضل هل سمعت ذلك؟ قلت نعم. قال: فهذه والله إذًا شؤمتكم. قلت: فلعلها يمنتنا. فما كان بعد ذلك إلا ليالٍ حتى قدم عبد الله بن حذافة السهمى بالخبر وهو مؤمن، ففشا ذلك فى مجالس أهل اليمن يتحدث به فيها. وكان أبو سفيان يجلس إلى حَبْرٍ من أحبار اليمن،

فقال له اليهودى: ما هذا الخبر الذى بلغنى؟ قال: هو ما سمعت. قال: أين فيكم عم هذا الرجل الذى قال ما قال؟ قال أبو سفيان: صدقوا، وأنا عمه. قال اليهودى: أأخو أبيه؟ قال نعم. قال: حَدِّثْنى عنه. قال: لا تسألنى، فما كنت أحسب أن يَدَّعى هذا الأمر أبدًا، وما أحب أن أعيبه، وغيره خير منه. قال اليهودى: فليس به أذى، ولا بأس على يهود وتوراة موسى منه. قال العباس: فتأدَّى إلى الخبر، فحَمِيتُ وخرجت حتى أجلس إلى ذلك المجلس من غد، وفيه أبو سفيان والحَبْر. فقلت للحبر: بلغنى أنك سألت ابن عمى هذا عن رجل منا يزعم أنه رسول الله، فأَخْبَرَك أنه عمه، وليس بعمه، ولكنه ابن عمه، وأنا عمه أخو أبيه. فقال: أأخو أبيه؟ قلت: أخو أبيه. فأقبل عَلَى أبى سفيان فقال: أَصَدَق؟ قال: نعم صدق. قال: فقلت: سلنى عنه، فإن كذبتُ فلْيَرْدُدْ على. فأقبل على فقال: أَنْشُدك اللهَ، هل فشت لابن أخيك صبوة أو سفهة؟ قال: قلت: لا وإله عبد المطلب ولا كَذَبَ ولا خان، وإنْ كان اسمه عند قريش "الأمين". قال: فهل كتب بيده؟ قال عباس: فظننت أنه خير له أن يكتب بيده، فأردت أن أقولها، ثم ذكرت مكان أبى سفيان وأنه مكذِّبى ورادٌّ على، فقلت: لا يكتب. فذهب الحبر وترك رداءه وجعل يصيح: ذُبِحَتْ يهود! قُتِلَتْ يهود! قال العباس: فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيان: يا أبا الفضل، إن اليهودى لَفَزِعٌ من ابن أخيك. قال: قلت: قد رأيتَ ما رأيتَ، فهل لك يا أبا سفيان أن تؤمن به، فإن كان حقا كنت قد سبقت، وإن كان باطلًا فمعك غيرك من أكفائك؟ قال: لا والله ما أومن به حتى أرى الخيل تطلع من كداء (وهو جبل بمكة). قال: قلت: ما تقول؟ قال: كلمةٌ والله جاءت على فمى ما ألقيتُ لها بالًا، إلا أنى أعلم أن الله لا يترك خيلًا تطلع من كداء. قال العباس: فلما فتح رسول الله صلى الله عليه

وسلم مكة ونظرنا إلى الخيل قد طلعت من كداء قلت: يا أبا سفيان، أتذكر الكلمة؟ قال لى: والله إنى لَذَاكِرها، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام".

وأول تعليق هو: وكيف عرف أبو سفيان أن الله لا يترك خيلا تطلع من كداء؟ ترى أين وجد ذلك حتى صار عقيدة عنده؟ هل نزل عليه بذلك كتاب من السماء؟ فمتى كان هذا؟ أم هل أخبره أحد بذلك؟ فمن هو؟ وعلى كل حال كان يجب أن يتزلزل قلبه حين طلعت الخيل من كداء عند الفتح لأنه ثبت أن ما كان يعتقده طوال عمره اعتقادا جازما حاسما قد ظهر زيفه وسخفه. أليس كذلك؟ ثم إن بَعْث حنظلة رسالةً من مكة إلى اليمن لهو أمر مستبعد ولا يعقل، إذ ما معناه؟ وما فائدته؟ هل يُتَصَوَّر أن يهبّ حنظلة إلى إرسال خطاب إلى أبيه، وبينهما كل تلك المسافات، لا لشىء إلا ليقول له: إن محمدا يدعى النبوة؟ وماذا يمكن أن يصنعه أبو سفيان ردا على تلك الرسالة؟ هل كان حنظلة يريد لأبيه أن يعود ويترك تجارته ويفارق القافلة؟ أم ماذا؟ ولِمَ لَمْ يفعل ذلك أبو سفيان ما دامت المسألة خطيرة إلى هذا الحد؟ لكن أبا سفيان لم يتزعزع ولا فارق القافلة وترك أمواله خلفه وعاد لمكة. إذن أما كان ابنه قادرا على أن يصبر حتى يعود أبوه؟ ترى هل كان إعلان محمد للنبوة يهدد تهديدا عاجلا ملحاحا أوضاع الحياة فى مكة، وبخاصة أوضاع التجار، حتى إنه لا يستطيع الصبر حتى يعود أبوه ويرى بنفسه ما حصل؟ ثم من الواضح أن محمدا كان فى أوليات أمره فى النبوة، فكيف أسلم عمه العباس؟ ولماذا يخفى إسلامه فى مكة؟ ثم إذا كان يخفى إسلامه لماذا لم يخفه عن أبى سفيان فى اليمن؟ إنه لو كان مسلما فى الفترة المكية لأظهر إسلامه ووقف مع ابن أخيه ودافع عنه عدوان السفهاء آنذاك كما فعل حمزة بعد أن أسلم وكما فعل أبو طالب رغم بقائه على دين قومه (عند السنة) أو وهو مسلم (كما يعتقد الشيعة)؟ وفوق

ذلك فقد ذكر أنه ظن أن معرفة ابن أخيه للكتابة ترفع من مكانته عند اليهودى وتجعله يصدِّق أنه نبى، لكن خشيته من تكذيب أبى سفيان له دفعه إلى التراجع عن الكذب. فهل تراجعه عن الكذب يجعل من هذا التراجع متكأ إلى القول بأن الأمر المنفى أمر حقيقى؟ يا لله للعقول المنكوسة! ترى كيف يفكر بعض الناس؟ ثم لو كان الخبر صحيحا لكان حريا بالعباس عندما وقف لدى مدخل مكة ليلة الفتح مع أبى سفيان، وجيش المسلمين يمر بهما، أن يذكّر أبا سفيان بما قاله عن استحالة طلوع الخيل من كداء، وهو يرى بأم عينيه أن ما كان يعتقد باستحالته ها هو ذا يتحقق تحت بصره وسمعه. وكان قمينا بأبى سفيان أن يعبر عن ندمه وخيبة أمله فى مثل هذا الاعتقاد ويشرح له من أين أتاه وكيف تغلغل واستقر فى مخه واستولى عليه طيلة تلك السنين منذ ظهر الإسلام. لكن شيئا من ذلك كله لم يحدث، بل الذى حدث هو أن أبا سفيان علق قائلا على ما يشاهده: "لقد أصبح ملك أخيه اليوم عظيما"، وما كان من العباس إلا أن عاجله قائلا: إنها النبوة يا أبا سفيان.

هل سافر النبى إلى الحيرة وهَجَر والبحرين؟: ومن اتهامات الرصافى الباطلة للنبى الكريم أيضا تأكيده أنه عليه السلام قد سافر إلى الحيرة وهجر والبحرين وأن ما قاله لمن وفدوا عليه من أهل كل منها من أنه عَرَف بالمشهور من آثارها ومساكنها ومظاهرها عن طريق جبريل، أى عن طريق الوحى، هو كذب أَوْهَمَ مخاطبيه به أنه إنما يعرف الغيب من خلال السماء. فكل خبر من هذه الأخبار عند الرصافى دليل لا يُصَدّ ولا يُرَدّ على كذب محمد (ص١٩٨ وما بعدها).

وهذا أول هذه الأخبار المذكورة آنفا. فعن عدى بن حاتم الطائى: "لمّا بَلَغَنى خروجُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فكَرِهتُ خروجَه كَراهةً شَديدةً، خَرَجتُ حتى

وَقَعتُ ناحيةَ الرُّومِ... حتى قَدِمتُ على قَيصَرَ. قال: فكَرِهتُ مكانى ذلك أشدَّ مِن كَرَاهِيَتى لخروجِه. قال: فقُلتُ: واللهِ لولا أتَيتُ هذا الرَّجُلَ: فإنْ كان كاذبًا لم يَضُرَّنى، وإنْ كان صادقًا عَلِمتُ. قال: فقَدِمْتُ فأتَيْتُه، فلمّا قَدِمتُ قال النّاسُ: عَدِىّ بنُ حاتمٍ! عَدِىّ بنُ حاتمٍ! قال: فدَخَلتُ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فقال لى: يا عَدِىّ بنَ حاتمٍ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ (ثلاثًا). قال: قُلتُ: إنِّى على دِينٍ. قال: أنا أعلمُ بدِينِكِ منك. فقُلتُ: أنت أعلمُ بدِينى منِّى؟ قال: نعمْ. ألستَ مِن الرَّكوسيَّةِ، وأنت تَأكُلُ مِرْباعَ قَومِكَ؟ قُلتُ: بلى. قال: فإنَّ هذا لا يَحِلُّ لك فى دِينِكَ. قال: فلمْ يَعْدُ أنْ قالها، فتَواضَعتُ لها، فقال: أما إنِّى أعلَمُ ما الذى يَمنَعُكَ من الإسلام، تقولُ: إنَّما اتَّبَعَه ضَعَفةُ النّاسِ ومَنْ لا قوَّةَ له، وقد رَمَتْهم العَرَبُ. أتَعرِفُ الحِيرةَ؟ قُلتُ: لم أرَها، وقد سَمِعتُ بها. قال: فوالذى نفْسى بيَدِه لَيُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمْرَ حتى تَخرُجَ الظَّعِينةُ مِن الحيرةِ حتى تَطُوفَ بالبَيتِ فى غيرِ جِوارِ أحَدٍ. ولَيُفْتَحَنَّ كُنوزَ كِسْرَى بنِ هُرْمُزَ. قال: قُلتُ: كِسرى بنُ هُرمُزَ؟ قال: نعمْ، كِسرى بنُ هُرمُزَ. ولَيُبْذَلَنَّ المالُ حتى لا يَقْبَلَه أحَدٌ. قال عَدى بنُ حاتمٍ: فهذه الظَّعينةُ تَخرُجُ من الحيرةِ، فتَطُوفُ بالبَيتِ فى غيرِ جِوارٍ. ولقد كنتُ فيمَن فَتَحَ كُنوزَ كِسرى بنِ هُرمُزَ. والذى نفْسى بيَدِه لتكونَنَّ الثّالثةُ لأنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قد قالها!".

ثم هذا حديث آخر فى الموضوع يختلف بعض الاختلاف عن الحديث السابق. وراويه أيضا هو عدىٌّ نفسه رضى الله عنه. قال: "خرجتُ حتى أَقْدَمَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المدينةَ فدخلتُ عليه وهو فى مسجدِه فسلمتُ عليه، فقال: من الرجلُ؟ فقلتُ: عدى بنُ حاتمٍ. فقام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وانطلق بى إلى بيتِه. فواللهِ إنه لعامدٌ بى إليه إذ لقِيَتْه امرأةٌ ضعيفةٌ كبيرةٌ فاستوقَفَتْه، فوقف لها طويلًا

تُكلِّمه فى حاجتِها. قال: قلتُ فى نفسى: واللهِ ما هذا بمَلِكٍ. قال: ثم مضى بى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتى إذا دخل بيتَه تناول وسادةً من أدَمٍ مَحْشُوَّةً لِيفًا فقذفها إلى فقال: اجلِسْ على هذه. قال: قلتُ: بل أنت فاجلسْ عليها. قال: بل أنت. فجلستُ، وجلس رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالأرضِ. قال: قلتُ فى نفسى: واللهِ ما هذا بأمرِ مَلِكٍ. ثم قال: إيه يا عدى بنَ حاتمٍ. ألم تكُ رَكُوسِيًّا؟ قال: قلتُ: بلى. قال: أو لم تكن تسيرُ فى قومِك بالمِرباعِ؟ قال: قلتُ: بلى. قال: فإنَّ ذلك لم يكن يَحِلُّ لك فى دِينِك. قال: قلتُ: أجَلْ واللهِ. قال: وعرفتُ أنه نبى مرسلٌ يعلم ما يجهلُ. ثم قال: لعلكَ يا عدى إنما يمنعك من دخولٍ فى هذا الدينِ ما ترى من حاجتِهم. فواللهِ ليُوشِكَنَّ المالُ أن يفيضَ فيهم حتى لا يوجَد من يأخذُه. ولعلك إنما يمنعُك من دخولٍ فيه ما ترى من كثرةِ عدوِّهم وقلَّةِ عددِهم. فواللهِ ليُوشِكَنَّ أن تسمعَ بالمرأةِ تخرجُ من القادسيةِ على بعيرِها حتى تزورَ هذا البيتَ لا تخاف. ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أن المُلْكَ والسلطانَ فى غيرِهم. وايْمُ اللهِ ليُوشِكَنَّ أن تسمعَ بالقصورِ البِيض من أرضِ بابلٍ قد فُتِحَتْ عليهم. قال: فأسلمتُ. قال: فكان عدى يقول: مضتِ اثنتانِ، وبقيتِ الثالثةُ. واللهِ لتكوننَّ. وقد رأيتُ القصورَ البيضَ من أرضِ بابلٍ قد فُتِحَتْ، ورأيتُ المرأةَ تخرج من القادسيَّةِ على بعيرِها لا تخافُ حتى تحجَّ هذا البيتَ. وايْمُ اللهِ لتكوننَّ الثالثةُ. لَيَفِيضُ المال حتى لا يوجدَ من يأخذُه".

والآن ماذا فى الحديث الأول مما يوجب أن نقول إن رسول الله قد زار الحيرة وشاهد ما فيها؟ وماذا فى الحديث الثانى مما يوجب أن نقول إنه عليه السلام فد زار القادسية ورآها؟ الحق أن ليس فى النصين أى شىء يستلزم ذلك بتاتا. وهل سؤال الرسول لعدى عن معرفته أو جهله بالحيرة أو القادسية معناه أنه صلى الله عليه وسلم

زارها وشاهدها عيانا بيانا؟ أبدا. ونحن الآن نتكلم عن بلاد الإسكيمو مما لا يخطر على بال أحد منا أن يزورها وعن بلاد أمريكا الجنوبية وعن أستراليا، وليس فى النية ولا فى الخطة ولا فى القدرة أن نسافر إليها، ونضرب بها الأمثال ونحكى عنها أشياء وأشياء منذ كنا صبيانا. وكل ما هنالك أن الرسول سمع بهاتين المدينتين وعرف أنهما بلدتان بعيدتان لأنهما خارج جزيرة العرب. ولو كان قد زارهما صلى الله عليه وسلم لقد كان حريًّا أن يعرف قومه ذلك عنه، فإن مثل تلك الأمور لا تخفى على أحد لأنه تاجر، والتاجر كان يسافر فى تلك الأيام برفقة القافلة كما قال الرصافى نفسه. بل إنه حتى لو كان قد سافر إليها دون قافلة، وهذا لا يمكن أن يكون، لقد كان معه رفيقه الذى يساعده فى سفره وتجارته، ومن ثم فلسوف يعرف الناس جميعا من هذا الرفيق أنه سافر إلى هناك. وحتى لو سافر وحده، وهو مستحيل المستحيلات، فهل كان يخرج من مكة فى الخفاء ويكتم أمر السفر على الناس؟ كيف؟ أم هل كان يذهب فى سرداب تحت الأرض من مكة إلى هاتين البلدتين حفره خصيصا لتلك الرحلات التى كان يجب أن تكون خفية لا يعلم بها أحد حتى يتظاهر يوم يصير نبيا بأنه يعلم حقيقة أمرها من بعيد؟ على أن الأمر هنا لا يستلزم كل هذه الزوبعة التى أثارها الرصافى. وعليه فلا معنى لما قاله فى ذلك الموضوع.

ثم يوغل الرصافى فى الإساءة إلى رسول الله فيقول إنه كان يعلن أنه إنما أتى بالإسلام لإنقاذ الناس مما هم فيه من كفر وضلال وأن جزاء من استجاب له الجنة ورضوان الله، وليس هناك مال ولا ملك ولا سلطان يبشر بها من يستجيب له ويدخل دينه. ولكنه مع عَدِيٍّ قد غير النغمة، فقد كان عدىّ سيدا من سادات العرب، ونصرانيا وليس من عبدة الأوثان، فرأى من الحكمة أن يبوح له بالغاية المقصودة من وراء

الدعوة. والملاحظ أنه لم يحدِّث عديًّا بهذا السر إلا حين خلا به وحده فى بيته. ولو كان حدثه بهذا فى المسجد فلربما سمعه من لا تستسيغه عقولهم من المسلمين (ص١٩٨). وتعليقى الذى لا أستطيع إمساكه ويكاد يقفز من فمى قفزا ولا أتمالك نفسى من القهقهة من جَرَّائه هو أن عديا خيب ظن محمد وباح بما قاله له وحده، فصار ملكية عامة لكل المسلمين، وإلا ما وصلنا هذا الحديث. وزيادة على ذلك فقد خيب الله ظن الرصافى ولم يعلن أحد من المسلمين نفوره من هذه النبوءة، اللّهم إلا الرصافى، والرصافى ينكر نبوة محمد، أى ينكر الإسلام، إلا إذا كان للإسلام معنى آخر اختص الله به عبده المتمرد النافر الناقم على محمد والمشوِّه صورته والمسىء إلى عظمته والمسمى: معروف الرصافى. خيبك الله يا رصافى! واضح أن الخمر قد لحست عقلك فجعلتك تتلذذ بترديد أفكار المستشرقين والمبشرين.

لكن هل اختص الرسول عَدِيًّا بالحديث عن الغِنَى الذى سوف يفيضه الله على المسلمين من معاركهم مع أعدائهم حسبما يزعم الرصافى؟ إن الآيات القرآنية تتحدث عن هذا الموضوع كثيرا فتذكر الغنائم والأنفال وما أفاءه الله عليهم منها كما فى سورة "الأنفال" و"التوبة" و"الفتح" و"الحشر". وها هو ذا الرسول يعلن ما سوف يحظى به المسلمون من فتح للممالك التى حولهم: "عن البراء بن عازب: لما كان حين أمرَنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بحَفْرِ الخَنْدَقِ عَرَضَتْ لنا فى بعضِ الخَنْدَقِ صخرةٌ لا تأخذُ فيها المَعاوِل، فاشتَكَيْنا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فجاء فأخذ المِعْوَلَ فقال: بسمِ اللهِ. فضرب ضربةً فكسر ثُلُثَها وقال: اللهُ أكبرُ. أُعْطِيتُ مَفاتيحَ الشامِ. واللهِ إنى لَأُبْصِرُ قصورَها الحُمْرَ الساعةَ. ثم ضرب الثانيةَ فقطع الثُّلُثَ الآخَرَ فقال: اللهُ أكبرُ. أُعْطِيتُ مفاتيحَ فارسٍ. واللهِ إنى لَأُبْصِرُ قصرَ المدائنِ أبيضَ. ثم ضرب الثالثةَ وقال:

بسمِ اللهِ. فقطع بَقِيَّةَ الحَجَرِ فقال: اللهُ أكبرُ. أُعْطِيتُ مَفاتيحَ اليَمَنِ. واللهِ إنى لَأُبْصِرُ أبوابَ صنعاءَ من مكانى هذا الساعةَ". أم ترى الرصافى سوف يكذب ويقول إن محمدا لم يعلن هذا لأصحابه إعلانا، بل قاله فى كمه فلم يسمعه أحد، لكننى بعبقريتى المعجزة استطعت أن أستعيده من الأثير بعد كل هاتيك القرون؟

ومثل ذلك الأحاديث التالية أيضا: "عن عبدالله بن حوالة: كُنّا عندَ النبى صلى الله عليه وسلم فشكَوْنا إليه الفَقرَ والعُرْى وقِلَّةَ الشىء، فقال: أبشِروا، فواللهِ لأَنا وكثرةُ الشىء أخْوَفُ عليكم مِن قِلَّتِهِ. واللهِ لا يزالُ هذا الأمرُ فيكم حتى تُفْتَحَ لكم أرضُ فارسَ والرومِ وأرضُ حِمْيَرَ، وحتّى تكونوا أجنادًا ثلاثةً: جُنْدٌ بالشّامِ، وجُنْدٌ بالعِراقِ، وجُنْدٌ باليَمَنِ، وحتّى يُعْطَى الرَّجُلُ المِئَةَ الدينارِ فيَسْخَطُها. قال ابنُ حَوالةَ: فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، مَن يستطيعُ الشّامَ، وبها الرُّومُ ذَواتُ القُرونِ؟ قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: واللهِ لَيَسْتَخْلِفَنَّكُمُ اللهُ فيها حتى تَظَلَّ العِصابةُ منهمُ البِيضُ قُمُصُهمُ، المُحَلَّقَةُ أقْفاؤُهم، قيامًا على الرَّجُلِ الأسودِ منكمُ المحلوقِ، وإنَّ بها اليومَ رِجالًا لأنتم أحقَرُ فى أعيُنِهم منَ القِرْدانِ فى أعجازِ الإبِلِ". "أخوفُ ما أخافُ على أُمَّتِى أن يكثُرَ لهم المالُ فيتحاسدونَ ويقتتلونَ". "عن عمرو بن عوف المزنى أنَّ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بعثَ أبا عُبَيْدةَ بنَ الجرّاحِ، فقدمَ بمالٍ منَ البحرَينِ، وسَمِعَتِ الأنصارُ بقدومِ أبى عُبَيْدةَ فوافَوْا صلاةَ الفجرِ معَ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. فلمّا صلّى رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم انصرَفَ، فتعرَّضوا لَه، فتبسَّمَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حينَ رآهم ثمَّ قالَ: أظنُّكم سَمِعْتُم أن أبا عُبَيْدةَ قَدِمَ بشىء. قالوا: أجَلْ يا رسولَ اللَّهِ. قالَ فأبشِروا وأَمِّلوا ما يسرُّكُم، فواللَّهِ ما الفَقرَ أخشى عليكُم، ولكِنْ أخشى عليكُم أن تُبْسَطَ الدُّنيا عليكم كما بُسِطَت على من قبلَكُم فتَنافَسوها كما تَنافَسوها فتُهْلِكَكم كما

أَهْلَكَتهم". "عن أنس بن مالك: جاء رجُلٌ إلى النَّبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسولَ اللهِ، أكَلَتْنا الضَّبُعُ. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إنَّ الدُّنيا تُفتَحُ عليكم، فيا ليتَ أُمَّتى لا يَلْبَسوا الدِّيباجَ". "لا تَقُومُ السّاعَةُ حتّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المالُ فَيَفِيضَ حتّى يُهِمَّ رَبَّ المالِ مَن يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وحتّى يَعْرِضَهُ فَيَقُولَ الذى يَعْرِضُهُ عليه: لا أَرَبَ لِى".

وهناك حديث آخر أشار إليه الرصافى وعلق عليه باتهام الرسول بالكذب لتثبيت الإيمان فى قلوب مخاطبيه. وها هو هذا: "عن أنس بن مالك أنَّ وَفْدَ عبدِ القَيْسِ قدِموا على النَّبى صلى الله عليه وسلم، فبَيْنَما هم عندَه قُعودٌ إذ أقبَلَ عليهم فقال: لهم ثَمرةٌ تَدْعونَها كذا وكذا، وثمرةٌ تَدْعونها كذا حتّى وصَف ألوانَ ثمراتِهم أجمَعَ. فقال له رجُلٌ مِن القومِ: بأبى أنتَ وأُمِّى يا رسولَ اللهِ. أما واللهِ لو كُنْتَ وُلِدْتَ فى جوفِ هَجَرَ ما كُنْتَ بأعلَمَ منكَ السّاعةَ. أشهَدُ أنَّكَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إنَّ أرضَكم رُفِعَتْ لى منذُ قعَدْتُم إلى، فنظَرْتُ مِن أدناها إلى أقصاها. فخيرُ ثمراتِكم البَرْنِى. يُذهِبُ الدّاءَ، ولا داءَ فيه". وهذا ما قاله الرصافى عنه: "ومن هذا القبيل ما ذكروه من وفد عبد القيس، وكانت مساكنهم فى البحرين وما والاها من أطراف العراق. وذلك أنهم لما وفدوا على النبى أخذ يكلمهم، فكان كلامه أنْ ذكر لهم أنواع تمر بلدهم فقال: لكم تمرة تدعونها كذا، وتمرة تدعونها كذا. فقال له رجل من القوم: بأبى أنت وأمى يا رسول الله. لو كنتَ وُلِدْتَ فى جوف هَجَر (قاعدة البحرين) ما كنتَ بأعلم منك الساعة. أشهد أنك رسول الله. فقال لهم رسول الله: إن أرضكم رُفِعَتْ إلى منذ قعدتم، فنظرتُ من أدناها إلى أقصاها". فكلامه فيه يقتضى أنه

سافر إلى البحرين ورأى هجر. وأما قوله لهم: "إن أرضكم رفعت إلى منذ قعدتم" فكلام لتثبيت هؤلاء فى إيمانهم" (ص١٩٩- ٢٠٠).

ونفس الشىء فى حديث الإسراء، فهو يرى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد زار بيت المقدس كتاجر يسافر إلى كل مكان، ولما سأله المشركون أن يصف لهم تلك المدينة تظاهر بأنه لا يعرف كيف يصفها بسبب وقوع الزيارة ليلا حتى إذا ما وصفها لهم كان ذلك أشد تأثيرا فى جذبهم لتصديقه والإيمان بنبوته. ولهذا سرعان ما قال لهم إن جبريل قد أتاه بصورتها الآن. ثم أخذ يصف لهم أبوابها على نحو دقيق بينما أبو بكر يعقِّب قائلا: صدقتَ. أشهد أنك رسول الله. وحسب الرصافى فمن الطبيعى تماما أن يكون هذا موقف أبى بكر لأنه هو الوحيد الذى فهم مقصد محمد من القول بأنه نبى يوحى إليه من السماء فى حين أنه لا وحى ولا سماء بل هى وسيلة استعان بها محمد لإقناع قومه بفائدة ما يدعوهم إليه وأهميته (ص٤٥). وكان قد قال فى "رسائل التعليقات" إن وحدة الوجود هى شىء لم تعرفه الدنيا قبل الإسلام، وإن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو أول من عرَفها وقال بها (رسائل التعليقات/ ١٢- ١٦)، وإنه لا يعلم أحدًا كان يقول بها من أصحاب رسول الله حاشا أبا بكر، الذى لا يبعد أن يكون قد أخذ عنه هذه الفكرة بالتلقين أو يكون قد عرفها من القرآن بالتدبر والتفكير حسب قوله (المرجع السابق/ ص٤٨- ٤٩). ثم يمضى الرصافى فى "الشخصية المحمدية" قائلا إن الإسراء قد وقع ولكنه كان فى الرؤيا لا فى اليقظة (ص١٩٩- ٢٠٠).

ومع هذا التحليل والتعليل الرصافى تأبى الحوادث إلا أن تكذِّب الكاتب المارق، فإن المشركين لم يصدقوه عليه السلام ولم يؤمنوا به، بل إن بعض المسلمين قد ارتدَّ على

عقبه ورجع عن الإسلام. فما رأى كاتبنا الهلاس؟ هذه واحدة، أما الثانية فهى قوله إن محمدا كان قد زار بيت المقدس، وبالتالى فإن ما قاله إنما كان من مَتْح الذاكرة. فإذا كان قد زار بيت المقدس كما يقول الرصافى أبو العريف فهل كان قومه ليسألوه أن يصفها لهم وهم يعرفون أنه قد زارها ويعرف أبوابها وبيوتها ودكاكينها وشوارعها؟ ألا إنهم لسُذَّجٌ بُلْهٌ حقا. ذلك أن ذهاب الرسول فى تجارته إلى بيت المقدس ينبغى أن يكون معلوما للجميع فى مكة، اللّهم إلا إذا كان يضع على رأسه طاقية الإخفاء ويركب إليها صاروخا يوصله إليها فى دقائق ويعيده فى دقائق ولا مَنْ شاف ولا مَنْ دَرَى. ثم أليس فى بيت المقدس وهَجَر من كان يعرف محمدا بوصفه ذلك التاجر الذى كان يأتى بلدهم بين الحين والحين فيبيع ويشترى ويختلط بهم ويتعامل معهم طوال إقامته هناك؟ وحتى لو لم يكن فى وفد عبد القيس من كان يعرفه أظل أهل البحرين جميعا على بكرة أبيهم جاهلين أو ناسين زياراته لبلدهم فلم يعقبوا على هذا الكذب الأبلق، ثم جاء الفلحاس معروف الرصافى فعرفها وهى طائرة بفرقعة من إصبعه شأن الحُوَاة والبهلوانات والسحرة؟ ثم تأتى ثالثة الأثافى، وهى قوله إن الإسراء حقيقى، لكنه كان فى المنام. فلماذا يكون الإسراء بالذات حقيقيا، والرصافى قد جعل كل أمور محمد كذبا فى كذب؟ وإذا كان حقيقيا فكيف يفسر الرصافى وصف محمد لأبواب المدينة بأنه من مخزون الذاكرة وليس مما شاهده فى الرؤيا؟

كذلك فتفسير الرصافى لقوله تعالى: "سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله..." بأن الإسراء منامىٌّ لا يمكن أن يكون تفسيرا صحيحا، إذ الإسراء هو سفر الشخص ليلا بجسمه وفى يقظته لا فى الحلم خلال نومه. كما أن المنام لا يهيج الناس على صاحبه لأن الإنسان فى المنام يرى ويسمع ويشم

ويلمس كل شىء، وليس فى الأمر معجزة تستدعى الإنكار والتهكم والسخرية، فضلا عن الارتداد عن الإسلام كما حدث لبعض المسلمين عند ذاك. ولم يكن المشركون ليطلبوا من محمد وصف بيت المقدس لأنهم لن يخطر لهم أن يكذّبوا بالأحلام، فهى مجرد خيالات تظهر للشخص فى رقاده ولا دخل له فى ظهورها، وليس على النائم من حرج فيما يظهر له منها. كذلك فالله سبحانه لا يمجد ذاته العلية لأنه نقل عبده فى الأحلام من مكان إلى مكان، وإلا صح امتنان الغنى على الفقير لأنه تركه يشم رائحة الشواء الصادرة عن مطبخه. وقبل ذلك كله فإننا حين نتحدث عن منام نقول إن فلانا "رأى (فى المنام)" أنه أُسْرِىَ به، كما فى قوله تعالى على لسان يوسف يخاطب أباه: "إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين"، وقول رفيقى السجن له واحدا بعد الآخر: "قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه"، وقوله عز شأنه على لسان إبراهيم يخاطب ابنه إسماعيل: "يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك"، ولم يقل له: "لقد ذبحتك يا بنى"، أو نستخدم كلمة "رؤيا" مباشرة كما فى قوله جل جلاله: "وما جعلنا الرؤيا التى أَرَيْنَاك إلا فتنةً للناس".

وأخيرا هل يعقل أن يكون محمد هو ذلك الكذاب القَرَارِىّ المنقوع فى الكذب نقعا حتى تشرَّبه جسده ومخه وقلبه وكل خلاياه فلا يستطيع أن يقول كلمة واحدة صادقة كما يصوره قلم الرصافى الدنس؟ إن الكذاب، عاجلا أو آجلا، لا بد أن ينكشف أمره ويفتضح كذبه لمن حوله ثم للبعيدين عنه. لكننا ننظر فنرى أن محمدا ظل يحظى باحترام الناس وتصديقهم لآخر لحظة فى حياته بل حتى الآن. وها هو ذا واحد مثلى ليس من العرب الأصلاء ولا من عصره صلى الله عليه وسلم بل جاء بعده بأكثر من

أربعة عشر قرنا يشهر قلمه دفاعا عنه صلى الله عليه وسلم وتفنيدا للأكاذيب والاتهامات الملفقة التى يرميه بها الرصافى برعونة وانحطاط. وأخيرا أكان المنافقون واليهود ليتركوا كذب محمد على المكيين دون أن يفضحوه ويسددوا طعنة نجلاء إلى قلب دينه ويقضوا عليه؟ ولدينا أيضا المرتدون عقب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم، ولم نسمع من أيهم أنه اكتشف كذب محمد فيما قاله عن البحرين والحيرة وبيت المقدس رغم أن كل شىء عندهم يحفزهم إلى ذلك حفزا بل ينخسهم نخسا.

تفسير الرصافى لورود ذكر الجن فى القرآن: فى رأيه أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد ذكرهم فى القرآن لأن المشركين كانوا يؤمنون بهم وبأنهم كائنات مؤذية يُتَعَوَّذ منها ويعلمون الغيب ويخبرون به الكهان، فأراد محمد أن يجتذب قومه، الذين يؤمنون بهذه الخرافة وجاراهم على اعتقادهم فى الجن كما يقول الرصافى، إذ لو قال لهم إنهم غير موجودين أصلا لانصرفوا عنه وكذبوه. فمن ثم وافقهم على أنهم موجودون، لكنهم لا يعلمون الغيب ولا ينقلون للكهان شيئا من أخبار السماء. ومما تناوله الرصافى أيضا من هذا الموضوع السؤال التالى: ترى هل النصان اللذان فى سورة "الأحقاف" وسورة "الجن" والمتعلقان بالجن واستماعهم للقرآن وإيمانهم به وانصرافهم إلى قومهم ليدعوهم إلى الإسلام يتحدثان عن واقعة واحدة؟ أم هل يتحدثان عن واقعتين مختلفتين؟ (ص٢١٢– ٢١٧).

وأبدأ بالنقطة الأخيرة. والرصافى، كما مر بنا، يرى أن الجن لا وجود لهم وأن الاعتقاد فيهم ليس سوى خرافة من الخرافات لا يصح للشخص العاقل التصديق به. فإذا كان الأمر كذلك، وكان النبى محمد قد رافَأَ الجاهليين على اعتقاداتهم فى الجن لا تصديقا منه بهذه الاعتقادات بل ليضحك على ذقونهم ويجذبهم إلى دينه بمقابلتهم فى

منتصف الطريق، فلم يا ترى يشغل الرصافى نفسه بتحقيق مسألة فرعية جزئية من موضوع هو لا يؤمن به أصلا ولا يرى أنه قد وقع البتة، وبالتالى لا تقدم ولا تؤخر ولا تفيد إذا ذكرناها ولا تضر إذا أهملناها؟ أهو تضييع وقت والسلام؟ وهل يا ترى حين قابل محمد قومه فى منتصف الطريق بخصوص الجن قد صدقوه؟ أبدا بل ظلوا على عنادهم وكفرهم وشركهم واعتقاداتهم الضالة فى الجن وغير الجن. ثم لو كان محمد يعتمد سياسة "الحل الوسط" فى مثل هذه الأمور كما يزعم الرصافى فلم يا ترى لم يعتمدها فى الأوثان، وهى مشكلة المشكلات، فيقول مثلا إنها فعلا تقرب إلى الله زلفى، ولكن لا يصح أبدا عبادتها ولا تقديم القرابين لها ولا الذهاب إلى كهانها...؟ لقد حاول قومه معه محاولات شتى أن يتنازل عما يقوله كله أو بعضه لا فى مسألة الجن بل فى مسألة الأوثان، ومن ثم كان موضوع الأوثان هو الموضوع الذى يستحق اللجوء فيه إلى الحل الوسط. والأمر فى كل حال هو أمر كذب ولعب بالبيضة والحجر حسبما يصور كاتبنا جهود النبى فى دعوة قومه، وليس هناك رب ولا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار، فما المانع فى أن يستعين بهذا الحل فى قضية الأوثان؟ كذلك ما الذى يهم فى أمر النصين الموجودين فى "الأحقاف" و"الجن" وفيما إذا كانا فى واقعة واحدة أم فى واقعتين مختلفتين ما دام الأمر كله كذبا فى كذب؟

أما ما يقوله كاتبنا من أن محمدا لما رأى اعتقاد العرب فى الجن وشيوعه بينهم شيوعا عظيما قص عليهم قصة استماع الجن للقرآن وإيمانهم به بهدف دعوتهم إلى الإيمان بما آمن به الجن، "فكأنه يقول لهم: هؤلاء الجن الذين يأتون كهانكم بخبر السماء والذين تَعُوذون بهم فى أسفاركم قد استمعوا القرآن وآمنوا به وبأنه كتاب أُنْزِل من بعد موسى يهدى إلى الرشد، فما بالكم لا تؤمنون به ولا تنقادون إليه؟" أما قول الرصافى هذا فقد

خرجت الكرة فيه عن خط التماس كما يقال فى كرة القدم. أى أن الموضوع قد فسد فى يديه ولم يصب الهدف، إذ ظل الكفار، كما قلت، متشبثين بكفرهم وعنادهم. ولو كان تفسير الرصافى للأمر صحيحا لرأينا النبى يقول لقومه إنه قد قابل الجن كِفَاحًا وقال لهم وقالوا له وأكل معهم وتبادلوا الرأى فى هذا الموضوع وذاك... حتى تجىء الحبكة الدرامية محكمة وتدخل عقولهم.

لكن النص إنما نزل لتسلية قلب النبى وإذهاب الألم عن نفسه وإعلامه أنه إذا كان الكفار من قومه لا يؤمنون به فقد آمنت به الجن أنفسها. ولا ينبغى أن نذهب فى هذا الموضوع أبعد من ذلك، فهو خاص بالنبى عليه السلام، أما ما يهمنا فهو أن الجن لا يملكون لنا ولا لأنفسهم ضرا ولا نفعا، وأن البشر لا يرونهم، وأنهم لا يعلمون الغيب، وأن منهم من آمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم... وهكذا. وينتهى الأمر عند هذا الحد. ولننطلق فى دنيانا نحاول النجاح فيها علميا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وخلقيا وذوقيا ونفسيا بحيث لا نظل فى تخلفنا الذى يلتصق بنا ونلتصق به منذ قرون، ويبدو للناظرين وكأنه لن يفارقنا كما لو كان قدرا أبديا مفروضا علينا، وما هو بمفروض علينا بل نحن الذين استنمنا إليه وعشقناه ونرفض مغادرته، وهو بطبيعة الحال يبادلنا عشقا بعشق، لأنه وَفِىٌّ لمن وَفَّى له. وأين يا ترى سوف يجد ناسا أوفياء له كوَفَائنا، ويحبونه وباقين على العهد مثلنا؟

أما التكذيب بالجن لأنهم لا يُرَوْنَ فهو ضيق أفق، فما أكثر الكائنات التى لا نراها ولا نسمعها ولا نشمها ولا نلمسها، ومع هذا فإن لها فى حياتنا تداخلات كثيرة ومتنوعة وعجيبة. ونحن الآن صرنا نعرف كثيرا عن هذه المخلوقات، ونفهم جيدا أن الكون أوسع من أن يكون مقتصرا علينا نحن البشر والحيوانات والجمادات التى نراها

ونسمعها ونشمها ونلمسها. وأخيرا فإن المستشرقين يرون، كما يرى الرصافى، أن محمدا قد استقى عقيدة الإسلام فى الجن من عرب الجاهلية، الذين كانوا يؤمنون بهم وبأن منهم الصالحين والأشرار كما قال مثلا المستشرق السويسرى إدوار مونتيه فى مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن الكريم. وكنت أحب من الرصافى، لو كان تعليله لكلام القرآن عن الجن صحيحا مستقيما، أن يعلل لنا بالمرة السر فى اعتناق الملايين التى تجل عن الحصر من الأمم الأخرى غير العرب منذ محمد حتى وقتنا هذا للإسلام رغم أن اعتقاداتهم فى الجن تختلف عن اعتقادات العرب فيهم. الواقع أن كل من يحاول مهاجمة الإسلام واتهام الرسول يفشلون فى إحكام شبهاتهم، وسرعان ما يسقطون فى السخف والتنطع والسطحية.

وبمناسبة ما نحن فيه من حديث الجن فإن الرصافى، عند ذكره قصة الصوت الصارخ ليلا فى العقبة، ذلك الصوت الذى سَمِعَه الرسول وعمه العباس والحجاج اليثربيون عند اختلائهم به عليه السلام هناك فى خفاء الليل بعيدا عن أعين القرشيين عند مفاوضتهم له فى هجرته لبلادهم ووقوفهم إلى جانبه، فإن الرصافى، على عكس ما تقول بعض كتب السيرة من أن هذا الصوت هو صوت الشيطان، يؤكد أنه صوت واحد من المشركين المكيين تصادف أن شاهد الاجتماع وسمع ما دار فيه، فصرخ بأعلى صوته لتنبيه قومه حتى يهبوا فيقبضوا على المجتمعين ويعرفوا ماذا يدبرون لهم. يريد أن يقول إن الشيطان لا وجود له بل هو مجرد صوت بشرى.

وهذا نص الكلام كما كتبه ابن هشام فى "السيرة النبوية"، ونقله عنه الرصافى، والكلام لكعب بن مالك: "فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب (و"الجباجب" المنازل)، هل

لكم فى مُذَمَّم والصُّبَاة معه قد اجتمعوا على حربكم؟ قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أَزَبُّ العقبة. هذا ابن أُزَيْب... أتسمع أى عدو الله؟ أما والله لأفرغنَّ لك. قال: ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارْفَضُّوا إلى رحالكم" (ص٢٣٣-٢٣٦).

أما أنا فأستبعد هذه التفصيلة. لماذا؟ لأن شيطان الجن لا صوت له تسمعه الآذان بل يوسوس فقط فى الصدور بتحريك الشهوات والإغراء بالشرور ليس إلا، وليس له وجود خارجى بالنسبة لنا نحن البشر على الأقل، بل يجرى منا مجرى الدم فى العروق كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. كذلك لو كان شيطانا من شياطين الجن فلِمَ يصرخ ما دام لن يسمعه أحد؟ ألعله شيطان من الشياطين الفشلة الذين لا يعرفون كيف يؤدون عملهم على ما يرام؟ فإن كان كذلك أفلم يكن هناك بجواره أو قريبا منه شيطان آخر ينبهه إلى عبث ما يصنع ويفهمه كيف ينجز مهمته بنجاح؟ وما معنى قول الرسول له: "والله لأَفْرُغَنّ لك"؟ ولماذا لم يعاقبه فى الحال؟ بل لماذا لم يعاقبه بعد، إذ لم نسمع عنه أنه فعل؟ بل بالأحرى: لماذا يفكر فى معاقبته ما دام شيطانا خائبا لا يحسن تأدية وظيفته فى محاربة الخير والتمكين للشر والأشرار، وليس من ورائه ضرر؟ وكيف يا ترى يمكن معاقبة الشيطان؟ هل يمكن أن يُقْبَض عليه ويُجْلَد مثلا أو تُطَيَّر رقبته بالسيف؟ ولكن هل الشيطان يجلد؟ وهل سيتوب بعد الجلد؟ بل هل يمكن أن يموت، وقد مد الله فى عمره إلى يوم يبعثون؟ وأما إن كان شيطانا من شياطين البشر، أى رجلا من المشركين اطلع على الاجتماع السرى فأراد أن ينذر قومه بما يراه مكيدة تراد لهم، فكيف وصل إلى هناك، وقد أُوقِفَ كل من أبى بكر وعلىّ على أحد طرفى المكان الذى تم فيه الاجتماع، دون أن يتنبه إليه أى منهما؟ وكيف لم يسمعه أحد من المشركين الذين

كان يناديهم، وكان الوقت ليلا، والصوت فى الليل يسرى كما نقول فى الريف، أى يصل بسهولة إلى آماد بعيدة لا يدركها بالنهار لكثرة أصوات النهار واشتباكها وشدة الضجيج؟ وإذا كانوا قد نَذِرُوا به فكيف لم يهبّوا ويحيطوا بالمكان كلهم على بكرة أبيهم؟ لكن شيئا من ذلك كله لم يحدث. ثم ألم يكن الأحرى أن ينسل الصارخ فى هدوء ويذهب فيحضر آخرين لتطويق المكان قبل أن يتنبه المتفاوضون، فيقعوا فى أيديهم غنيمة باردة بدلا من الصراخ، الذى سوف يخيفهم فيغادرون المكان على الفور ولا يبلغ هو مراده من الصياح؟

ومن أظرف ما قرأت فى كتاب "الشخصية المحمدية" وأعجبه وأغربه ما علَّق به الرصافى حين أتى القرشيون فى اليوم التالى إلى اليثربيين وسألوهم هل هناك مفاوضات بينهم وبين محمد واتفاق على هجرته لبلادهم ووقوفهم معه لمحاربة المكيين، إذ تقول الرواية إن متفاوضى العقبة سكتوا ولم يحيروا جوابا وأخذ بعضهم ينظر إلى بعض لا يريدون أن ينفوا ذلك تجنبا للكذب وتحرجا منه، وتركوا الباقين الذين لم يكونوا فى اتفاق العقبة ولم يعلموا به يقومون بهذه المهمة صادقين لأنهم لم يحضروا الاجتماع، ومن ثم لم يتفقوا مع الرسول على شىء، فحلفوا أنه لم يكن شىء من ذلك قط، إذ كان تعليق الرصافى على سكوت من حضر مفاوضات العقبة أنهم "إذا تكلموا فلا بد من أن يكذبوا على قريش بنفى الخبر وإنكار صحته، وذلك ما لا يَرْضَوْنه لأنفسهم" (ص٢٣٦- ٢٣٧).

ووجه الظرافة فى هذا الكلام أن كاتبنا يرى فى اليثربيين الذين يريدون أن يتبعوا محمدا فى دعوته ناسا أفضل من محمد، فقد كان محمد يكذب طوال دعوته للإسلام لا يبالى زاعما أنه يتلقى الوحى من السماء بينما هو فى الحقيقة يفترعه طوال الوقت، أما

اليثربيون فتحرجت ضمائرهم تحرجا عنيفا أوجب سكوتهم حتى لا يكذبوا كذبة واحدة ينجون بها من خطر داهم لا يعلم مقدار شناعته سوى الله. فانظر أيها القارئ الكريم كيف تَخُون الرصافى نفسُه فتغلبه بطريقة ملتوية ملفوفة لا يتنبه لها على الإفضاء بما فى قلبه من مشاعر تجاه الرسول عليه السلام: فالرسول يكذب طول عمره، أما المسلمون الجدد من يثرب فلا ترضى كرامتهم لهم أن يكذبوا ولو كذبة واحدة ينجون بها من خطر مرعب!

والآن فإنى لأتساءل: كيف اقتصر الرصافى على محاولة فك اللغز المحمدى المقدس، ولم يحاول مثل ذلك مع عيسى وموسى وإبراهيم مثلا؟ وإذا كان محمد قد قرأ الكتب السابقة وصنع دينه وألف قرآنه منها فماذا عن الأنبياء السابقين أصحاب تلك الكتب؟ ألم يكونوا يستحقون من الرصافى عكوفا على كتبهم وشخصياتهم لفك ألغازهم المقدسة أيضا؟ أم المطلوب هو تكذيب محمد، والسلام؟ ولكن لم؟ إنه إذا جاز أن يساور إنسانا الشك فى قرآن محمد ودينه مرة فإنه ينبغى أن يكذّب كل الكتب الأخرى عشرات المرات. لكننا ننظر فنجد عادة الهجوم على الإسلام وحده فى منطقتنا، والصمت التام عن الأديان الأخرى بما فى ذلك عبادة البقر وعبادة النار. ولقد كثرت فى الآونة الأخيرة المواقع التى تضع نُصْبَ عينيها التشكيك فى كل شىء يتعلق بالإسلام، ولا تكاد تجد مقالا أو بحثا فيه يهاجم أى دين آخر. فالمسلم والنصرانى واليهودى كلهم يكتبون ويترجمون كل ما يَشْنُع على دين محمد، ودين محمد وحده. وبالمثل هناك دور نشر متخصصة فى نشر الكتب التى تنال من الإسلام، وهو ما يصدق أيضا على كثير من الفضائيات التى تبث برامجها من الدول العربية المسلمة وتستضيف الأفاقين الجهلة الذين لا يستحون، رغم جهلهم ومعرفة الناس بماضيهم المخزى، من مهاجمة الإسلام

بعبارات محفوظة والتشكيك فى كل شىء يتصل به سواء كان العقيدة أو التشريع أو التاريخ أو الأبطال أو المبادئ. ومن الواضح أنها خطة عالمية وضعتها الدول الكبرى وخصصت لها أموالا ضخمة ومكافآت طائلة وجوائز تدير الرؤوس وتلميعا إعلاميا مجلجلا للتافهين المستعدين لصنع أى شىء يؤمرون به حتى لو كان التدييث على أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم. إن هؤلاء الأوباش مسعورون خلف الدنيا ممتلئون بعقد النقص تجاه الغربيين، ويريدون الالتصاق بهم حتى لو اقتضاهم هذا لعق أحذيتهم. ولقد كان أمثال الرصافى هم الطليعة لأولئك الأفاقين التافهين المبغضين للطهارة والنقاء والاستقامة.

هذا، وهناك روايات عن لقاء الرسول بالجن وردت بها بعض الأحاديث، وأرى أنها تزيُّد وخروج عما يريد القرآن أن نلتزمه فى هذا الموضوع لا نخرج عنه. فعن علقمة بن قيس: "سأَلْتُ ابنَ مسعودٍ فقُلْتُ: هل شهِد أحَدٌ منكم مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةَ الجنِّ؟ فقال: لا، ولكنَّا كنَّا مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاتَ ليلةٍ ففقَدْناه، فالتمَسْناه فى الأوديةِ والشِّعابِ، فقُلْنا: استُطِير أو اغْتِيل. قال: فبِتْنا بشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ. فلمَّا أصبَحْنا إذا هو جاء مِن قِبَلِ حِراءٍ. قال: فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ، فقَدْناك فطلَبْناك فلم نجِدْك، فبِتْنا بشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ. فقال: أتانى داعى الجنِّ، فذهَبْتُ معه فقرَأْتُ عليهم القرآنَ. قال: فانطلَق بنا فأرانا نيرانَهم. وسأَلوه الزَّادَ، فقال: لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِر اسمُ اللهِ عليه يقَعُ فى أيديكم أوفرَ ما يكونُ لحمًا، وكلُّ بَعْرٍ علفًا لدوابِّكم. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فلا تستنجوا بالعَظْمِ ولا بالبَعْرِ فإنَّه زادُ إخوانِكم مِن الجنِّ".

وعن عمر بن غيلان الثقفى قال: "أتيتُ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ فقلتُ لهُ: حَدَّثْتَ أنك كنتَ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليلةَ وَفَدَ الجنُّ. قال: أجل. قلتُ: حدِّثنى كيف كان. قال: إنَّ أهلَ الصُّفَّةِ أخذ كل رجلٍ منهم رجلًا يُعَشِّيهِ إلا أنا، فإنَّهُ لم يأخذنى أحدٌ. فمرَّ بى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: من هذا؟ فقلتُ: أنا ابنُ مسعودٍ. فقال: ما أخذك أحدٌ يُعَشِّيك؟ قلتُ: لا يا رسولَ اللهِ. قال: فانطلِقْ لعلِّى أجدُ لك شيئًا. فانطلق حتى أتى حجرةَ أم سلمةَ فتركنى ودخل إلى أهلِه، ثم خرجتِ الجاريةُ فقالت: يا ابنَ مسعودٍ، إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لم يجدْ لك عشاءً، فارجعْ إلى مضجعكَ. فرجعتُ إلى المسجدِ فجمعتُ حصباءَ المسجدِ فتوسَّدتُه والتففتُ بثوبى، فلم ألبثْ إلا قليلًا حتى جاءتِ الجاريةُ فقالت: أجب رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. فاتبعتها حتى بلغتُ مقامى، فخرج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وفى يدِه عسيبُ نخلٍ فعَرَضَ بهِ على صدرى. فقال: انطلق أنت معى حيث انطلقتُ. قال: فانطلقنا حتى أتينا بَقِيعَ الغرقدِ، فخطَّ بعصاهُ خَطَّةً ثم قال: اجلس فيها ولا تبرحْ حتى آتيك. ثم انطلقَ يمشى وأنا أنظرُ إليهِ حتى إذا كان من حيثُ لا أراهُ ثارت مثل العجاجةِ السوداءِ، ففزعتُ وقلتُ فى نفسى: هذه هوازنُ مكروا برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليقتلوهُ. فهممتُ أن أسعى إلى البيوتِ فأستغيثَ الناسَ، فذكرتُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أوصانى ألا أبرحَ. وسمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُفَزِّعهم بعصاهُ ويقول: اجلسوا. فجلسوا حتى كاد ينشقُّ عمودُ الصبحِ، ثم ثاروا وذهبوا، فأتانى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: أنمتَ؟ فقلتُ: لا واللهِ. ولقد فزعتُ الفزعةَ الأولى حتى هممتُ أن آتى البيوتَ فأستغيثَ الناسَ حتى سمعتُكَ تُفَزِّعهم بعصاكَ. فقال: لو أنك خرجتَ من هذه الحلقةِ لم آمَنْ أن تُخْطَفَ. فهل رأيتَ شيئًا منهم؟ قلتُ: رأيتُ رجالًا

سودًا مستفزِّين بثيابٍ بيضٍ. قال: أولئكَ وفدُ جِنّ نصيبين، فسألونى الزادَ والمتاعَ، فمتعتُهم بكل عظمٍ حائلٍ أو روثةٍ أو بَعْرةٍ. قلتُ: وما يغنى ذلك عنهم؟ قال إنهم لا يجدون عظمًا إلا وجدوا عليهِ لحمَه الذى كان عليهِ يوم أُكِلَ ولا روثةً إلا وجدوا فيها حَبَّها الذى كان فيها يومَ أُكِلَتْ. فلا يستنجِ أحدٌ منكم بعظمٍ ولا بعرةٍ".

وعن ابن مسعود: "اسْتَتْبَعنى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةً فقال: إنَّ نفَرًا مِن الجِنِّ خمسةَ عشَرَ، بنو إخوةٍ وبنو عمٍّ، يأتونى اللَّيلةَ، فأقرَأُ عليهم القُرآنَ. فانطلَقْتُ معه إلى المكانِ الَّذى أراد، فجعَل لى خطًّا ثمَّ أجلَسَنى فيه وقال: لا تخرُجَنَّ مِن هذا. فبِتُّ فيه حتَّى أتانى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع السَّحَرِ، وفى يدِه عَظْمٌ حائلٌ ورَوْثَةٌ وحُمَمةٌ، فقال: إذا أتَيْتَ الخَلاءَ فلا تستنجِيَنَّ بشىء مِن هذا. قال: فلمَّا أصبَحْتُ قُلْتُ: لَأَعْلَمَنَّ حيثُ كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فذهَبْتُ فرأَيْتُ موضِعَ سبعينَ بعيرًا" (الراوى: عبد الله بن مسعود/ المحدث: الطبرانى/ المصدر: المعجم الأوسط/ خلاصة حكم المحدث: لم يرو على بن رباح عن ابن مسعود حديثا غير هذا). وعن ابن مسعود أيضا: "قدم وفد الجن على رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمدُ، انْهَ أُمَّتَك أن يستنجوا بعظم أو روثة أو حممة، فإن الله تعالى جعل لنا فيها رزقا. قال: فنهى رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم عن ذلك".

وعن الزبير بن العوام: "صلى بنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصبحِ فى مسجدِ المدينةِ. فلما انصرف قال: أيُّكم يتبعُنى إلى وفدِ الجنِّ الليلةَ؟ فأسكت القومُ، فلم يتكلمْ منهم أحدٌ. قال ذلك ثلاثًا، فمرَّ بى يمشِى فأخذ بيدِى، فجعلت أمشِى معه حتى خَنَسَتْ عنا جبالُ المدينةِ كلُّها وأفضينا إلى أرضٍ برَازٍ، فإذا رجالٌ طِوالٌ كأنهمُ الرماحُ مُسْتَذْفِرِى ثيابهم من بينِ أرجلِهم. فلما رأيتُهم غَشِيَتْنى رِعْدةٌ شديدةٌ حتى ما تُمْسِكُنى

رجلاى من الفَرَقِ. فلما دنونا منهم خطَّ لى رسولُ اللهِ بإبهامِ رجْلِه فى الأرضِ خطًّا، فقال لى: اقعُدْ فى وَسَطِه. فلما جلست ذهب عنِّى كلُّ شىء كنتُ أجدُه من ريبةٍ، ومضَى النبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينى وبينَهم، فتلَا قرآنًا رفيعًا حتى طلع الفجرُ، ثم أقبل حتى مرَّ بى فقال لى: الحقْ. فجعلت أمشِى معَه، فمضينا غيرَ بعيدٍ، فقال لى: التفتْ فانظرْ: هل تَرَى حيثُ كان أولئكَ من أحدٍ؟ قلت: يا رسولَ اللهِ، أرَى سوادًا كثيرًا. فخَفَّض رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأسَه إلى الأرضِ، فنظم عظمًا بروثةٍ ثم رمَى به إليهم ثم قال: رَشَدَ أولئك منِّى وفْد قومٍ. هم وفدُ نَصِيبينَ. سألونى الزادَ، فجعلت لهم كلّ عَظْمٍ ورَوْثَةٍ. قال الزبيرُ: فلا يحلُّ لأحدٍ أن يستنجِىَ بعظمٍ ولا روثةٍ أبدًا".

وعن ابن العباس: "ما قرَأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الجنِّ وما رآهم. انطلَق رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وطائفةٌ مِن أصحابه عامِدينَ سوقَ عُكاظٍ، وقد حِيلَ بيْنَ الشَّياطينَ وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ عليهم الشُّهُبُ، فرَجَعَتِ الشَّياطينُ إلى قومِهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حِيلَ بيْنَنا وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ، وأُرسِلَتْ علينا الشُّهُبُ. قالوا: ما ذاك إلَّا شىء حدَث، فاضرِبوا مَشَارِقَ الأرضِ ومَغَارِبَها، فانظُروا ما هذا الَّذى حال بيْنَنا وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ. فانطلَقوا يضرِبون مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، فمرَّ النَّفَرُ الَّذين أَخَذوا نحوَ تِهامةَ، وهو بنَخْلةَ، وهم عامِدونَ إلى سوقِ عُكاظٍ، وهو يُصَلِّى بأصحابِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الفجرِ. فلمَّا سمِعوا القرآنَ قالوا: هذا الَّذى حال بيْنَنا وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ. فرجَعوا إلى قومِهم "فَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِى إِلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا". فأوحى اللهُ إلى نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قُلْ أُوحِى إلى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ".

والسؤال: هل صحب ابن مسعود رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن فى الذهاب إليهم أو لا؟ هناك روايتان، ولا أحسب أنه يمكن التوفيق بينهما. أم هل كان رفيقه ليلتذاك هو الزبير؟ لكن كيف يكون هذا، وهى ليلة واحدة ذات رفيق واحد؟ وفوق ذلك ففى رواية الزبير تناقض، إذ بينما تقول الرواية إن الرسول انصرف للقاء الجن بعد صلاة الصبح وأخذ وقتا حتى وصل إليهم ثم أخذ وقتا آخر فى قراء القرآن عليهم نراها تقول أيضا إنه عليه السلام ظل معهم حتى طلع الفجر. فهل الفجر يطلع قبل صلاة الصبح؟ كيف يكون هذا يا إلهى؟ كما أن ابن مسعود يقول مرة إنها كانت فى مكة، ومرة إنها كانت فى المدينة، ويشاركه فى القول بمدنيتها أيضا ابن العوام. وهذا أيضا تناقض لا يمكن التخلص منه. أما القرآن فواضح الدلالة على أنها كانت فى مكة ما دامت الإشارة إليها قد وردت فى سورتى "الأحقاف" و"الجن"، وهما سورتان مكيتان بلا أدنى خلاف. وفى رواية ابن عباس أن رسول الله لم ير الجن، وإنما أخبره الوحى بذلك. والواقع أن هذا هو ما يتسق مع القرآن، إذ نقرأ فى سورة "الأحقاف": "وإذ صَرَفْنا إليك نَفَرًا من الجن يستمعون القرآنَ، فلما حضروه قالوا: أَنْصِتوا. فلما قُضِىَ وَلَّوْا إلى قومهم منذِرين". فطريقة سياقة الخبر تشير إلى أن الرسول لم يعلم بهم بل القرآن هو الذى أخبره بذلك. ولدينا كذلك سورة "الجن"، وهى ناصعة الدلالة على ما نقول:"قل: أُوحِىَ إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا".

ثم هل طلب الرسول ابن مسعود قصدا ليصحبه فى رحلته تلك؟ أم هل كان مع الرسول جمع من الصحابة افتقدوه وظنوا أنه قد اغتيل؟ هذا أيضا تناقض. كذلك كيف يعرض الرسول على صحابته أن يرافقه أحدهم لمقابلة الجن فيسكتوا ولا يجيبوه بـ"نعم" أو"لا"، وكأنهم طلبتى بقسم اللغة العربية حين أسألهم سؤالا فلا يفتح الله عليهم

بكلمة ولا يفكرون هم من جهتهم أن يفتحوا فمهم! لو كنت مكان الصحابة رضوان الله عليهم لرفعت إصبعى مبتهجا حتى أرى الجن بأم عينى وأستمتع بمشاهدة تلك المخلوقات العجيبة. لكن من ناحية أخرى يبرز سؤال سخيف مزعج: ترى لماذا حرص الرسول على اصطحاب أحد معه ما دام سيخط له خطا ينهاه بحسم قاطع عن تجاوزه بما يعنى أنه لن يشاهد فى الحقيقة شيئا؟ ثم لماذا اقتصر عرضه على أن يصحبه واحد فقط، ولم يطلب من الجميع أن يرافقوه؟

كما أن رواية ابن عباس تخلو من الكلام عن طعام الجن، فأراحتنا من مشكلة أخرى نحن فى غنى عنها، إذ كيف يكون العظم والروث طعام أهل الجن، ونحن نرى العظم والروث فى أمكنتهما لا يتغير شكلهما ولا ينقصان مهما طال الزمن إلا بالجفاف؟ ولو وُضِعا فى مجمِّد (فريزر) مثلا لبقيا كما هما مهما طال الزمن. ثم إننا لا ندرى مَنْ فَتَح موضوع النهى عن استعمال العظم والرَّوْث فى الاستنجاء: أهو الرسول حين سأله الجن الطعام، فحددهما لهم؟ أم هل هم الجن عندما التمسوا منه هم أنفسهم أن ينهى أمته عن استخدامهما فى الاستنجاء لأنهما طعامهم؟ واضح أن هذا تناقض آخر مزعج. كذلك هناك تأفف الجن من ذلك الاستخدام مما لا نفهم له معنى، إذ الروث فضلات نجسة منتنة كالخرء سواء بسواء، وكلاهما يخرج من البطن. وعلى هذا فما دام الجن لا يجدون غضاضة فى أكل الروث أو أكل ما فيه من حب فلِمَ يجدون تلك الغضاضة إذا علق بها بالاستنجاء بعض الفضلات البشرية التى لا تذكر؟ ألا إن هذا تنطس بل تنطع سخيف. وهذا إن كان الجن هم الذين سيأكلونه كما يُفْهَم من إحدى الروايات، أما إن كانت دوابهم هى التى ستأكله فهو غريب، إذ ما عهدنا دابة تأكل خرء دوابَّ مثلها. لكن هل للجن دوابّ أصلا؟ ودعنا من أنها تأكل أو لا تأكل. ولو افترضنا أن القصة صحيحة

فماذا يفعل الجن فى البلاد الأخرى التى لا تتبع دين محمد، ومن ثم لم ينهها الرسول عن الاستنجاء بالعظم والروث والبعر؟ ثم هل كان أحد فى الدنيا يستنجى بالعظام والأرواث؟ فمن هو يا ترى؟

وبالمثل فطلب الجن من الرسول تحديد طعام يأكلونه معناه أنهم، مذ خلقهم الله، لم يكونوا يأكلون شيئا. فكيف كانوا يعيشون طوال تلك الأحقاب والدهور؟ الحق أن هذا مما لا يعقله العاقلون ما دام إخواننا من الجن يحتاجون إلى الطعام كى يعيشوا. وهناك أمر آخر، وهو أن الرسول وَعَدَ الجن أنهم متى وجدوا عظما سُمِّىَ الله عليه صار أكثر ما يكون لحما. فلماذا لم يختص عليه السلام أمته بهذه المزية التى تعفيهم من التفكير فى اللحم إلى الأبد، إذ يكفى أن يأكلوا لحما مرة واحدة ثم يحتفظوا بالعظم ليتحول لحما كلما جاعوا؟

أما أنا فلا أملك إلا أن أضرب صفحا عن كل تلك الروايات وآخذ برواية ابن العباس رضى الله عن الصحابة جميعا مع التنبيه إلى أن فى هذه الرواية كلاما لم يسمعه بَشَرِىٌّ من الجن ما دام الرسول نفسه لم يرهم ولم يسمعهم. وإذن فهو كلام من كلام الحال لا من كلام المقال. وأما الحديث التالى فيقتصر على النهى عن استخدام العظام والأرواث فى الاستنجاء، وهى مسألة صحية وذوقية ولها علاقة بالنجاسة فى الإسلام، إذ لا يعقل أن أزيل النجاسة عن بدنى بنجاسة مثلها. ولا صلة بينها وبين الجن ولا طعام أهل الجن. ومن هنا أرى الاقتصار فى هذا الموضوع على حديثنا ذاك، ونصه: "إنَّما أنا لكم مثلُ الوالدِ، فَإِذَا ذهب أحدُكُمْ إلى الغائِطِ فَلَا يَسْتَقْبِلِ القبلَةَ، ولا يَسْتَدْبِرْهَا بِغَائِطٍ ولا بَوْلٍ، وَلْيَسْتَنْجِ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ. وَنَهَى عن الروث والرِّمَّة". وبهذا نلتزم حدودنا وإمكاناتنا وما فيه فائدة لنا، ونضرب صفحا عما عدا ذلك ما دام الأمر غيبا من

الغيوب. وما دام الله لم يخبرنا إلا بأن هناك جنا، وأنهم لا يعلمون الغيب، وأننا لا نراهم، وأنهم لا يملكون لنا ولا لأنفسهم ضرا ولا نفعا، وأنه لا تصح عبادتنا لهم على أى وضع، فعلينا أن نقف هنا ولا نتجاوز الخط المرسوم لنا.

هل رسالة الرسول عالمية؟: يقول الرصافى إن الرسول فى البداية لم يكن يفكر إلا فى عشيرته الأقربين. وليس هذا فى رأيه تدبيرا إلهيا، بل هو تخطيط محمدى يراعى الأحوال والظروف وينتقل من مرحلة إلى مرحلة كلما آن أوانها، إلى أنْ قَوِىَ فتطلع إلى نشر دينه فى العالمين بعد فتح مكة. أما قبل ذلك فلم يكن يفكر إلا فى قومه. وهو يرفض أن تكون هناك نصوص مكية فى عالمية الإسلام لأن محمدا، حسب كلامه، لم يكن قد خطر له هذا التطلع بعد، إذ كان واقعيا لا يسبق الحوادث بل كان يخطو الخطوة الجديدة حين لا مناص من خَطْوِها. وإذا ما قيل له: ألسنا نقرأ فى سورة "سبأ" قوله تعالى: "وما أرسلناك إلا كافة للناس"؟ كان جوابه: بلى، بيد أن وجود هذه الآية فى سورة "سبأ" المكية ليس دليلا على مكيتها، ففى القرآن سور مكية تتضمن آيات مدنية، والعكس بالعكس. ثم إن الناس لا تعنى بالضرورة الجنس البشرى. كما أن "كافة" فى هذا التركيب إنما تعنى أننا أرسلناك لتكف الناس عن الشر مثلا لا أننا أرسلناك لهم جميعا، وإلا جاء الكلام على النحو التالى: "وما أرسلناك إلا للناس كافة" (ص١٣٦ وما يليها).

فأما أن هذا تخطيط محمدى وأن القرآن هو تأليفه فقد ناقشنا هذا وفندناه فى مواضع متعددة من هذا الكتاب. ولكننا نحب أن نلفت النظر إلى أنه لا يوجد أى دليل على أن الآية غير مكية، وإلا لقال المفسرون وعلماء القرآن ذلك لدن ذكرهم أسباب النزول. ولقد تتبعت مواضع ورود كلمة "وما أرسلناك" فى القرآن فألفيتُها منحصرة فى السور المكية ليس إلا: "رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ

عَلَيْهِمْ وَكِيلًا" (الإسراء/ ٥٤)، "وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" (الإسراء/ ١٠٥)، "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" (الأنبياء/ ١٠٧)، "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" (الفرقان/ ٥٦)، "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" (سبأ/ ٢٨).

وأما أن "كافة للناس" لا تعنى "للناس كافة"، أى للناس جميعا، فها هو ذا الطبرى يقول بالعكس من ذلك: "يقول تعالى ذكره: وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة، ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين: العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود، بشيرًا من أطاعك، ونذيرًا من كذبك، "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ" أن الله أرسلك كذلك إلى جميع البشر". وفى تفسير ابن كثير: "يَقُولُ تعالى لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ"، أَى إِلَّا إِلى جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ، كَقَوْلِهِ تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا" (الْأَعْرَافِ/ ١٥٨)، "تَبَارَكَ الَّذِى نزلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا" (الْفُرْقَانِ/١)... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ فِى قَوْلِهِ: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ" يَعْنِى: إلى النَّاسِ عَامَّةً. وَقَالَ قَتَادَةُ فِى هَذِهِ الْآيَةِ: أَرْسَلَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم إلى الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، فأكرمُهم عَلَى اللَّهِ أَطْوَعُهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَالَ ابْنُ أَبِى حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الظَّهْرَانِى: حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ العَدَنى: حَدَّثَنَا الْحَكَمُ (يَعْنِى ابْنَ أَبَانٍ) عَنْ عِكْرِمة قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنِ اللَّهَ فَضَّلَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم عَلَى أَهْلِ السَّمَاءِ وعلى الأنبياء. قالوا: يا ابن عَبَّاسٍ، فِيمَ فَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَال: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ"، وَقَالَ لِلنَّبِى صلى الله عليه وسلم: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ"، فَأَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَهَذَا الَّذِى قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ قَدْ

ثَبَتَ فِى الصَّحِيحَيْنِ رَفْعُهُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِى: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ. وَجُعِلَتْ لِى الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُل مِنْ أُمَّتِى أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ. وَأُحِلَّتْ لِى الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِى. وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ. وَكَانَ النَّبِى يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً". وَفِى الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "بُعِثْتُ إلى الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ". قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِى الْجِنَّ وَالْإِنْسَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: يَعْنِى الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ. وَالْكُلُّ صَحِيحٌ".

ويقول القرطبى: "أَى وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا للناس كافة، أى عامة. ففى الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَى وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا جَامِعًا لِلنَّاسِ بِالْإِنْذَارِ وَالْإِبْلَاغِ. وَالْكَافَّةُ بِمَعْنَى الْجَامِعِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كَافًّا لِلنَّاسِ تَكُفُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَتَدْعُوهُمْ إلى الإسلام. وَالْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ. وَقِيلَ: أَى إِلَّا ذَا كَافَّةٍ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ، أَى ذَا مَنْعٍ لِلنَّاسِ مِنْ أَنْ يَشِذُّوا عَنْ تَبْلِيغِكَ، أَوْ ذَا مَنْعٍ لَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ، وَمِنْهُ: كَفَّ الثَّوْبَ، لِأَنَّهُ ضَمَّ طَرَفَيْهِ". وهونفسه ما يقوله البغوى: "قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ" يَعْنِى: للناس عامة أحمرهم وَأَسْوَدِهِمْ، "بَشِيرًا وَنَذِيرًا"، أَى مُبَشِّرًا وَمُنْذِرًا، "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ". وَرُوِّينَا عَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِى صلى الله عليه وسلم قَالَ: "كَانَ النَّبِى يُبْعَثُ إلى قومه خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً". وَقِيلَ: كَافَّةً، أَى كَافًّا يَكُفُّهُمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ. وَالْهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ". وعند ابن الجوزى: "قَوْلُهُ تعالى: "وَما أَرْسَلْناكَ إلا كافَّةً لِلنّاسِ"، أى عامَّةً لِجَمِيعِ الخَلائِقِ. وفى الكَلامِ تَقْدِيمٌ تَقْدِيرُهُ: "وما أَرْسَلْناكَ إلّا لِلنّاسِ كافَّةً". وقِيلَ: مَعْنى "كافَّةً لِلنّاسِ" تكُفُّهم عَمّا هم عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ، والهاءُ فِيهِ لِلْمُبالَغَةِ".

والملاحظ أن جميع هؤلاء المفسرين قد فسروها بأنه عليه السلام مرسل لجميع البشر. وأما أنه أرسل لكفهم عن البغى والظلم وما إلى ذلك فقد قُدِّم بقولهم: "وقيل" بما يعنى أن هذا الرأى ضعيف. وأقول أنا: وحتى لو كان قويا فلا يصح أن ننسى أنه مرسل إلى الناس، أى البشر كلهم، إذ الألف واللام فى "الناس" هنا للجنس لأن السياق ليس سياق "أل" العهدية كما فى قوله تعالى مثلا: "الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم". فالناس الأولون هم الأعرابى الخزاعى، والناس الآخرون هم أبو سفيان. أى أن "الناس" فى الحالتين ليسوا الناس كلهم بل ناسا معينين معروفين للمخاطبين بل فردا واحدا. ولو كان المقصود فى قوله عز شأنه: "وما أرسلناك إلا كافة للناس" العرب وحدهم أو قريشا خاصة لقال القرآن ذلك بدون أدنى مواربة. كما نلاحظ أيضا أنه لا فرق عند أولئك المفسرين بين تركيبى "كافة للناس" و"للناس كافة".

وقد فصل الشوكانى الأمر فى هذه النقطة الأخيرة تفصيلا رائعا على النحو التالى: "فِى انْتِصابِ "كافَّةً" وُجُوهٌ: فَقِيلَ إِنَّهُ مُنْتَصِبٌ عَلى الحالِ مِنَ الكافِ فى "أَرْسَلْناكَ". قالَ الزَّجّاجُ: أى وما أَرْسَلْناكَ إِلّا جامِعًا لِلنّاسِ بِالإِنْذارِ والإِبْلاغِ. و"الكافَّةُ" بِمَعْنى "الجامِع"، والهاءُ فِيهِ لِلْمُبالَغَةِ كَعَلّامَةٍ. قالَ أَبُو حَيّانَ: أَمّا قَوْلُ الزَّجّاجِ إِنَّ "كافَّةً" بِمَعْنى "جامِعًا"، والهاءُ فِيهِ لِلْمُبالَغَةِ، فَإِنَّ اللُّغَةَ لا تُساعِدُ عَلَيْهِ لِأَنَّ "كَفَّ" لَيْسَ مَعْناهُ "جَمَعَ"، بَلْ مَعْناهُ "مَنَعَ". يُقَالُ: كَفَّ يَكُفُّ، أى مَنَعَ يَمْنَعُ. والمَعْنى: إِلّا مانِعًا لَهم مِنَ الكُفْرِ. ومِنهُ الكَفُّ لِأَنَّها تَمْنَعُ مِن خُرُوجِ ما فِيهِ. وقِيلَ إِنَّهُ مُنْتَصِبٌ عَلى المَصْدَرِيَّةِ، والهاءُ لِلْمُبالَغَةِ كالعاقِبَةِ والعافِيَةِ. والمُرادُ أَنَّها صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أى إِلّا رِسالَةً كافَّةً. وقِيلَ إِنَّهُ حالٌ مِنَ النّاسِ. والتَّقْدِيرُ: وما أَرْسَلْناكَ إِلّا لِلنّاسِ كافَّةً. ورُدَّ بِأَنَّهُ لا يَتَقَدَّمُ الحالَ مِنَ

المَجْرُورِ عَلَيْهِ كَما هو مُقَرَّرٌ فى عِلْمِ الإعْرابِ. ويُجابُ عَنْهُ بِأَنَّهُ قَدْ جَوَّزَ ذَلِكَ أبُو عَلِى الفارِسِى وابْنُ كَيْسانَ وابْنُ برْهانٍ. ومِنهُ قَوْلُ الشّاعِرِ:

إذا المَــرْءُ أعْيَتْــهُ الــسِّيادَةُ ناشِــئًا فَمَطْلَبُهــا كَهْــلًا عَلَيْــهِ عَــسِيرُ

وقَوْلُ الآخَرِ:

تَـسَلَّيْتُ طُـرًّا عَـنْكم بَعْـدَ بَيْنِكمـو بِـذِكْراكمو حَتّـى كَـأنَّكمو عِنْـدِى

وقَوْلُ الآخَرِ:

غــافِلًا تَعْــرِضُ المَنِيَّــةُ لِلْمَــرْ ءِ، فَيُــدْعَى، ولاتَ حِــينَ إبــاءِ

ومِمَّنْ رَجَّحَ كَوْنَها حالًا مِنَ المَجْرُورِ بَعْدَها ابْنُ عَطِيَّةَ. وقالَ: قُدِّمَتْ لِلِاهْتِمامِ والتَّقَوِّى. وقِيلَ: المَعْنى "إلّا ذا كافَّةٍ"، أى ذا مَنعٍ. فَحُذِفَ المُضافُ. قِيلَ: واللّامُ فى "لِلنّاسِ" بِمَعْنى "إلى"، أى وما أرْسَلْناكَ إلى النّاسِ إلّا جامِعًا لَهم بِالإنْذارِ والإبْلاغِ، أوْ مانِعًا لَهم مِنَ الكُفْرِ والمَعاصِى". وبهذا تنغلق فى وجه الرصافى كل المنافذ.

ثم يبقى أن النص على عالمية الإسلام ليس مقصورا على آية سورة "سبأ" التى نحن حيالها الآن، بل هناك نصوص أخرى فى الوحى المكى مما يضرب تساخفات الرصافى فى السويداء ويقضى عليها قضاء مبرما: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ" (الأنعام/ ٩٠)، "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا" (الأعراف/ ١٥٨)، "وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ" (يوسف/ ١٠٤)، "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (الأنبياء/ ١٠٧)، "تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا" (الفرقان/ ١)، "قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ" (ص/ ٨٦- ٨٧)، "وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ" (القلم/ ٥٢)، "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ" (التكوير/ ٢٧).

تفاؤله وتشاؤمه عليه السلام: ومما يحتاج منا أيضا إلى وقفة فى كلام الرصافى عن الرسول عليه السلام أنه كان يتفاءل ويتشاءم. وقد أورد الرجل عددا من الحكايات يسأل فيها النبى عن اسم الشخص الذى يتصادف مقابلته عليه السلام أو المكان الذى يتصادف مروره به فيجاب بأن اسمه كذا، فإذا كان اسما طيبا سُرَّ به واستنبط منه معنى التوفيق والفلاح، وإن كان اسما سيئا غيَّره أو غيَّر طريقه بحيث لا يمر به. فمن ذلك مثلا أنه غيَّر اسم "يثرب" إلى المدينة لأن "يثرب" من "التثريب"، أى العيب والتقريع والمؤاخذة، وأنه بدل اسم زوجة لعمر بن الخطاب من "عاصية" إلى "جميلة"، وأنه غير اسم "عبد عمرو بن عوف" إلى "عبد الرحمن بن عوف"، واسم "عبد العُزَّى بن خطل" إلى "عبد الله بن خطل"، واسم "زيد الخيل" إلى "زيد الخير" مع أن الخيل ليس فيها شؤم ولا تشاؤم بل وردت فى القرآن بوصفها من أدوات الجهاد فى سبيل الله كما فى سورتى "الأنفال" و"الحشر"، فضلا عن وصف الرسول لها بأن الخير معقود بنواصيها على الدوام، أو أن القبيلة التى يمرون قريبا من منازلها اسمها أفلح، فيقول: أفلحنا إن شاء الله... إلخ (ص٤٢٥ وما يليها). فالأمر، كما نرى، إما أنه أمر عقيدة فيغير صلى الله عليه وسلم اسم الشخص الذى دخل الإسلام إلى اسم لا صلة بينه وبين ماضى الشخص الجاهلى الوثنى، وإما أنه كان يحب تغيير الأسماء السيئة إلى أخرى مبهجة لطيفة، فهى مسألة ذوق جميل كريم، وإما أنه يحب إشاعة السرور فى قلوب من حوله بكل سبيل. ولو كان يتفاءل ويتشاءم كما هى عقيدة المتفائلين والمتشائمين لرتب أعماله على ذلك ترتيبا بحيث يرجع من الطريق ويضرب صفحا عن خطته التى كان يريد تنفيذها أو يمضى فى سبيله طبقا لمعنى الاسم، وهو ما لم يحدث.

أما الحكاية التالية التى استشهد بها الرصافى على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يتفاءل ويتشاءم، وقد رواها ابن إسحاق فى سيرته على النحو التالى، وتتعلق بخروج الرسول لملاقاة عِيرِ قريش قبيل نشوب معركة بدر: "ارتحل رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وقد قدمهما، فلما استقبلَ الصفراءَ وهى قريةٌ بين جبليْنِ سأل عن جبليْها: ما أسماؤُهما؟ فقالوا: يقال لأحدهما: مسلحٌ، وللآخرِ مخرئٌ، وسأل عن أهلهما، فقيل: بنو النارِ وبنو حراقٍ، بطنانِ من غفارٍ، فكرههما رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم والمرورَ بينهما، وتفاءلَ بأسمائهما وأسماءِ أهلهما فتركهما، والصفراءُ بيسارٍ، وسلك ذاتَ اليمينِ على وادٍ يقال لهُ: ذفرانُ، فجزعَ فيهِ ثم نزل، وأتاهُ الخبرُ عن قريشٍ ومسيرِهم ليمنعوا عيرَهم" هذه الحكاية أفهمها على أساس أنه صلى الله عليه وسلم لم يرد أن يمر بمنازل قبيلة غير مسلمة حتى لا تبلِّغ تحركاته مشركى مكة لا أنه تشاءم من اسم تلك القبيلة، فلو كان هناك تشاؤم لكان من نصيب أفرادها الذين يتسمَّوْن بذلك الاسم القبيح. ثم لماذا لم ينظر إلى اسم القبيلة الكبرى التى تضم هذين البطنين وغيرهما، وهى "غفار" من الغفران والسماح، وقد وجه عليه السلام فى مناسبة أخرى ذلك الاسم على هذا النحو فقال: "غِفارُ غفَر اللهُ لها، وأسلَمُ سالَمها اللهُ"؟ ثم إن النار إن كانت تذكِّر بنار الآخرة فإنها فى حياة العرب رمز على الكرم، إذ كانت القبائل تشعل النار ليلا ليهتدى بها السارى فى البادية ويقبل عليها وعلى مشعليها ليجد عندهم الدفء والمبيت والطعام.

كذلك بحثت فى اسم "بنى النار" فوجدتهم يقولون إن امرأ القيس الشاعر الجاهلى أعجبه شعرهم فاستغرب ألا تشتعل بيوتهم بالنار من جودة هذا الشعر، فسموا: بنى النار. ولا أدرى وجه الارتباط بين النار وجودة الشعر ولا وجه تسميتهم بهذا الاسم.

كما أننى وجدت بنى النار هؤلاء مرة موجودين قرب المدينة، ومرة موجودين فى اليمن. ثم إن البطن الآخر الذى مع بنى النار هو مرةً "بنو ضرام"، وأخرى "بنو حراق"، فهل أسماء القبائل تقال بالمعنى؟ وهو ما يجعلنى لا أطمئن إلى الحكاية كلها. وقد ضحكت وأنا أتصور أحدهم يسأل عن بقية بطون تلك القبيلة فقيل له: "بنو النار وبنو ضرام وبنو شعلة وبنو لظى وبنو حريق وبنو سعير وبنو جحيم وبنو لهيب وبنو لسعة وبنو سفعة وبنو وقيد وبنو صهد وبنو سَمُوم وبنو حميم وبنو جمرة وبنو شرارة" حتى يزداد الطين بلة.

والملاحظ أن هذه الحكايات كلها تنتمى إلى المرحلة المدنية، ولو كان الرسول بطبيعته متفائلا متشائما على هذا النحو الذى يقصده الرصافى لظهر ذلك أيام الجاهلية وأيام كان يدعو الناس إلى الإسلام فى مكة، لكن لم نسمع قط بشىء من ذلك فى تلك الأيام، ولا يعقل ألا يكون الشخص ممن لا يولون هذا الجانب أى اهتمام أو مبالاة إلى أن يبلغ الثالثة والخمسين، وهى السن التى هاجر فيها إلى المدينة، ثم فجأة يصير متفائلا متشائما. ومعروف أن العرب فى الجاهلية كانوا يتفاءلون ويتطيرون بالطير والظباء وما إلى ذلك من السانح والبارح، فألغى الإسلام ذلك. كما كان الجاهليون يذهبون إلى الكهان ويستشيرون القداح ولا يُمْضُون أمرا دون استشارتها، فأبطل الإسلام هذا، وشرع للمسلم الاستخارة، التى تربطه بربه سبحانه، والرب لا يعرف شيئا اسمه التفاؤل والتشاؤم، بل على الشخص أن يفكر فى أمره ويقلبه فى ذهنه وينظر فيه طويلا ويستشير من حوله ثم يستخير ربه ويفوض الأمر بعد ذلك إليه مطمئنا إلى أنه لن يضلله أو يَخِير له بالشر والضرر. ثم كيف يكون صلى الله عليه وسلم متفائلا متشائما بالمعنى الذى يقصده الرصافى، والقرآن الذى ينزل عليه، أو فلنقل: الذى كان يؤلفه حسبما

يزعم الرصافى ومن ثم يعبر عن فكره وعقيدته، يسفه كلام الكافرين حينما قالوا للمرسلين إليهم: "إنا تطيَّرْنا بكم" مجيبا لهم بلسان أولئك المرسلين بقولهم: "طائرُكم معكم". أى لا يوجد تطير ولا تفاؤل وتشاؤم بل عقولكم الزنخة هى التى تتمسك بهذه الخرافات كما جاء فى صدر سورة "يس"؟ أبعد هذا وذاك يتهم الرصافى المخبولُ رسولَ الله بأنه شخص متذبذب تأخذه أقل هبة ريح هنا وهناك دون أن يكون له من حزمه أو إيمانه بالله ما يعصمه من هذه الخرافات الصغيرة التى لا تليق أبدا بشخص عظيم مثله قد وضع فى ذهنه أن يغير العرب والعالم تغييرا جذريا ثم تم له ما أراد؟

ترى لو كان صلى الله عليه وسلم ممن يتفاءلون ويتشاءمون وليس نبيا حقيقيا أكان يصدق ظهور جبريل له فى الغار؟ لقد كان حريا به أن ينبذ هذا الموضوع من ذهنه تماما نظرا لِمَا ظهر له هناك من كائن غريب لم يظهر له ولا لأحد من قبل يحدثه ذلك الحديث العجيب الذى لم يسمعه لا هو ولا غيره من قبل، وكذلك لِمَا عاناه من الغَتّ والاحتضان الخانق الذى كاد يكظم أنفاسه، وأراح واستراح لأن كل ما حدث له فى الغار يبعث على الخوف والتشاؤم. كذلك لو كان متفائلا متشائما وسمع يوم صعد التل فى أول الدعوة حين نادى قومه فاجتمعوا إليه وأعلن نبوته لهم فردَّ عمه أبى لهب عليه قائلا: "تَبًّا لك سائر هذا اليوم! ألهذا جمعتنا؟" لكان قد رجع عن إعلان النبوة بسبب هذا الدعاء الذى يبعث على التشاؤم، وبخاصة أنه أول كلام يسمعه من جمهور المكيين. كذلك لو كان ممن يتفاءلون ويتشاءمون لصدَّق نَبْز القرشيين له بأنه "أبتر"، أى لا يعيش له أولاد ذكور، وعزا ذلك إلى إعلانه النبوة، فتراجع ولَزِم غَرْزَه ونسى ما كان، وصار كَرّةً أخرى رجلا عاديا من رجال مكة يتاجر ويأكل ويشرب ويعيش فى أمان وسلام وهدوء بال مع زوجته وبناته، وكان الله يحب المحسنين. ولو كان ممن يتفاءلون

ويتشاءمون وتأخذه كلمة وتأتى به أخرى لتشاءم باسم "سراقة بن مالك"، فاسمه الأول "سراقة" من السرقة والنشل والخطف، وهى معانٍ فى منتهى السوء والكراهة، فضلا عن أن اسم أبيه "مالك"، وهو اسم خازن النار. أى أن اسمه من أوله لآخره اسم "يعلم به ربنا" كما نقول فى مصر تعبيرا عن شدة السوء والرداءة والقبح، وبالتالى كان حريًّا به أن يتطير ويظل طوال الرحلة متوجسا من وقوع المصائب والرزايا بسبب هذا الاسم الشؤم. كذلك لو كان ممن يتفاءلون ويتشاءمون بالمعنى الذى يريده الرصافى لتطير من اسم عبد الله بن "أُرَيْقَط" لأن "أُرَيْقَط" تصغير لـ"أَرْقَط"، وهى صفة للثعبان.

ولقد ظل الرصافى يصفه صلى الله عليه وسلم فى كتابه من أوله إلى آخره بأنه كان رجلا حازما أشد الحزم، فهل الحازمون الشديدو الحزم الدهاة الذين يخططون كل شىء ولا يتركون شيئا للمصادفات ويمضون فى سبيلهم دون اعتبار لتلك الأشياء التافهة تفاهة عقل الرصافى ومنطقه يمكن أن يكونوا من المتفائلين المتشائمين الذين يغيرون مسالك حياتهم لمثل تلك الاعتبارات؟ ولقد حسمها صلى الله عليه وسلم بقوله: "ليس منّا من تَطيَّرَ أو تُطُيِّرَ له، أو تَكهَّن أو تُكُهِّنَ له، أو سَحَرَ أو سُحِرَ له. ومن أتى كاهنًا فصدَّقَه بما يقولُ فقد كفر بما أنزل على محمدٍ صلى الله عليه وسلم"، لكن الرصافى يحب العيش فى الأوهام نكاية فى رسول الله وفى الدين الكريم الذى أتى به.

إننا فى دراستنا للأدب العربى نعرف ابن الرومى مثلا وكيف كان يشقى بنزعته فى التفاؤل والتشاؤم شقاء مبرحا حسبما تقول الروايات، ومنها النص التالى من كتاب "الغيث المسجم فى لامية العجم" لصلاح الدين الصفدى: "كان لابن الرومى عجائب منها أنه كان شديد التطير فيلازم بيته، ولا يخرج منه إلا بعد استقراء القرائن الحسنة والألفاظ الخيرة فيما يسمعه ويتفاءل به من الكلمات الحسنة والوجوه المليحة. فيقال إن

بعض أصحابه أرادوا الخلوة به فى يوم أنس، واختاروا له غلاما حسنا وقالوا له: إذا طرقت الباب عليه، وقال: من؟ فقل له: أنا إقبال. فلما فعل ذلك قال: إقبال مقلوبة "لا بقاء"، وهذا شىء أتطير منه فلا أخرج اليوم. وجهزوا إليه فى بعض الأيام غلاما وضيء الوجه، حسن الاسم، طيب الريح، فلما طرق الباب عليه خرج إليه فشم طيبه، وسمع اسمه، ورأى وجهه المليح، فقال: حسن فى حسنٍ. فلما خرج رأى دكان خياط وقد صلب درابتى الباب وهو يأكل تمرا. فقال: إن الدرابتين مثل "لا"، والتمر "تمرّ"، فالفأل قال: "لا تَمُرّ". فدخل وأغلق الباب وقال: والله ما مررت معك".

فهل عرف عن النبى محمد شىء من ذلك؟ أبدا. فهذا هو التفاؤل والتشاؤم، وهذه هى نتائجه، وهو ما لم تعرف حياته عليه السلام شيئا منه. كذلك عندنا وقعة عمورية وما قال المنجمون بشأنها للمعتصم، لكن الخليفة العباسى وضع تحت حذائه ما يقولونه بشأنها من أنها لن تفتح فى ذلك الوقت بل فى الوقت الفلانى، ومضى فى طريقه كما كان يخطط وفتحها وأوقع بالبيزنطيين هزيمة مروعة سجلها أبو تمام فى بائيته الخالدة وتهكم على الذين يرتبون أمورهم وأمور دولهم على اعتبارات التفاؤل والتشاؤم. ثم لو كان محمد ممن يتفاءلون ويتشاءمون كما يصوره الرصافى وكما يريد منا أن نصدقه ما استطاع أن يحقق شيئا من خطته التى يعزوها إليه كاتبنا، وهى تغيير أوضاع قومه وأوضاع العالم دون أن تكون هناك نبوة أو يحزنون. فعقلية مثل تلك العقلية لا يمكنها أن تسمو إلى تغيير حياة قطة، فضلا عن حياة قومه جميعا، بَلْهَ تغيير أوضاع العالم كله. وإذا كان صلى الله عليه وسلم ينسب كل شىء يعمله إلى الله سبحانه طبقا لعقيدة وحدة الوجود فإلى من يا ترى كان ينبغى أن ينسب الأسباب الباعثة على التفاؤل والتشاؤم؟ إنْ نسبها إلى الله فالله لا يمكن أن يضلله على هذا النحو، وإن لم ينسبها إليه فهو إذن لا

يؤمن بوحدة الوجود طبقا لتوصيف الرصافى نفسه لعقيدته عليه السلام. وعلى كل حال لقد كان الرصافى بطول كتابه وعرضه يعزو القرآن إلى محمد ولا يخطئ مرة فيقول إن الله هو الذى أنزله عليه، فما دام الأمر كذلك فليدلنا الرصافى على نص فى القرآن يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يتفاءل ويتشاءم بأى معنى من المعانى، وله منى مكافأة سخية. وبمشيئة الله لن ينال منى أية مكافأة لأنه لا يوجد فى الكتاب الكريم شىء مما يرمى به الرسول عليه السلام. واضح أن الخمر قد لحست عقل الرجل فأفسدته إفسادا لا برء له منه.

حرص محمد على أن يقدسه أتباعه: ولا يكتفى الرصافى بهذا بل ينطلق زاعما أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان حريصا أشد الحرص على أن يقدسه أتباعه ويطيعوه طاعة مطلقة. ولذلك كان يتغاضى عنهم حين يراهم يتبركون بنعليه أو يبتدرون وَضُوءَه أو يتلقفون بصاقه... إلخ. وقد مضى يورد أمثلة من هنا ومن ها هنا على هذا الذى يقول (ص٤٢٨). فأما الطاعة فلا شك أن أى مصلح أو داعية أو قائد يريد من الناس أن يطيعوه، وإلا فما معنى الدعوة إلى الإصلاح إن لم تكن هناك طاعة وتصديق واتباع لما يقوله الداعية أو المصلح؟ فما بالنا لو كان نبيا مرسلا من لدن ربه؟ إن الله لم يبعث به إلى الناس لكى يتعارفوا ويقضوا وقتا لطيفا معا ثم ينفضوا ذاهبا كل منهم لحال سبيله، وإنما بعثه الله لكى يصدق الناس به ويعملوا بمقتضى ما يدعوهم إليه، وهذه هى الطاعة. ومع ذلك فقد تجاهل الرصافى قول الرسول عليه الصلاة والسلام مثلا: "لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق". صحيح أن النبى لا يمكن أن يأمر بمعصية الله، لكن الحديث عام على كل حال. وهو فى سياقنا يشير إلى أن طاعة الرسول

ليست طاعة له بشخصه بل بصفته رسولا من رب العالمين يدعو الناس إليه عز وجل لا إلى نفسه.

وأما القداسة فلا أدرى من أى واد من أودية الضلال أتى بها الرصافى. لقد كان الرسول طول حياته حريصا على أن يؤكد بشريته وعبوديته لله سبحانه وأنه لا يعرف الغيب وأنه يخشى ربه غاية الخشية وأنه يمكن أن يخطئ وينسى ويسهو، بل من الممكن جدا أن يغلط عند التقاضى إليه فيحكم لغير صاحب الحق جراء براعته فى الكلام ومدافعته عن قضيته بطريقة توهم أنه هو صاحب الحق فى حين أنه على العكس من ذلك تماما. وكثيرا ما حكم الرسول بشىء أو أفتى بفتوى ثم نزل القرآن بغير ما حكم وأفتى، فأنبأ المسلمين بما نزل من الكتاب الكريم مخالفا له، وتَرَك ما قاله وأخذ بما قال كتاب الله دون أن يتردد أو يتلجلج.

ففى سورة "القلم" يتحدث سبحانه عن نبيه بمنتهى القوة والتحذير رغم أن النبى لم يكن ليتقول على ربه أبدا، لكن المهم نبرة النص وعنف التهديد ومغزى ذلك فى سياقنا الحاضر. وتفسير الآيات مأخوذ من تفسير ابن كثير: "يَقُولُ تعالى: "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا"، أَى مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم لَوْ كَانَ كَمَا يَزْعُمُونَ مُفْتَرِيًا عَلَيْنَا فَزَادَ فِى الرِّسَالَةِ أَوْ نَقَصَ مِنْهَا، أَوْ قَالَ شَيْئًا مِنْ عِنْدِهِ فَنَسَبَهُ إِلَيْنَا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، لَعَاجَلْنَاهُ بِالْعُقُوبَةِ. وَلِهَذَا قَالَ: "لأخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ". قِيلَ: مَعْنَاهُ لَانْتَقَمْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ لِأَنَّهَا أَشَدُّ فِى الْبَطْشِ، وَقِيلَ: لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِيَمِينِهِ. "ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ". قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَهُوَ نِيَاطُ الْقَلْبِ، وَهُوَ العِرْقُ الَّذِى الْقَلْبُ مُعَلَّقٌ فِيهِ. وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَكَمُ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ وَمُسْلِمٌ البَطِين وَأَبُو صَخْرٍ حُميد بْنُ زِيَادٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هُوَ الْقَلْبُ ومَرَاقّه وَمَا يَلِيهِ. وَقَوْلُهُ: "فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ"، أَى فَمَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَلَى

أَنْ يَحْجِزَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ إِذَا أَرَدْنَا بِهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ. والمعْنَى فِى هَذَا: بَلْ هُوَ صَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُقَرِّرٌ لَهُ مَا يُبَلِّغُهُ عَنْهُ، وَمُؤَيِّدٌ لَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ الدَّلَالَاتِ الْقَاطِعَاتِ".

وفى سورة "النساء" نقرأ قوله تعالى: "إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا". ونقرأ فى نفس التفسير سبب نزولها على النحو التالى، ومنه نرى كيف أن رسول الله كان له رأى فى مسألة ثم غير موقفه منها بناء على ما ظهر له من الحقيقة، دون أن يتحرج أو يجد فى ذلك ما يسىء إليه. ولو كان يبغى أن يكون مقدسا عند أتباعه ما فعل ذلك، فضلا عن أن يفعله بكل تلك البساطة والسهولة.

يقول ابن كثير: "حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِى شُعَيْبٍ أَبُو مُسْلِمٍ الحَرَّانى: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ الحَرَّانى: حَدَّثَنَا محمد بن إِسْحَاقَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَر بْنِ قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَتَادة بْنِ النُّعْمَانِ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَّا يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو أُبَيْرِق بِشْر وَبُشَيْرٌ ومُبَشِّر، وَكَانَ بُشَيْر رَجُلًا مُنَافِقًا يَقُولُ الشِّعْرَ يَهْجُو بِهِ أَصْحَابَ النَّبِى صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ يَنْحَلُهُ بَعْضَ الْعَرَبِ، ثُمَّ يَقُولُ: قَالَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا. وَقَالَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا. فَإِذَا سَمِعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَلِكَ الشِّعْرَ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا يَقُولُ هَذَا الشِّعْرَ إِلَّا هَذَا الْخَبِيثُ، أَوْ كَمَا قَالَ الرَّجُلُ، وَقَالُوا: ابْنُ الْأُبَيْرِقِ قَالَهَا. قَالُوا:

وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتِ حَاجَةٍ وَفَاقَةٍ فِى الْجَاهِلِيَّةِ وَالإسلام. وَكَانَ النَّاسُ إِنَّمَا طَعَامُهُمْ بِالْمَدِينَةِ التَّمْرُ وَالشَّعِيرُ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهُ يَسَارٌ فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ مِنَ الدَّرْمَك ابْتَاعَ الرَّجُلُ مِنْهَا فَخَصَّ بِهَا نَفْسَهُ، وَأَمَّا الْعِيَالُ فَإِنَّمَا طَعَامُهُمُ التَّمْرُ وَالشَّعِيرُ. فَقَدِمَتْ ضَافطة مِنَ الشَّامِ، فَابْتَاعَ عَمِّى رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ حِمْلًا مِنَ الدَّرْمَكِ فَحَطَّهُ فِى مَشْربة لَهُ، وَفِى الْمَشْرَبَةِ سِلَاحٌ: دِرْعٌ وَسَيْفٌ، فَعُدِىَ عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ الْبَيْتِ، فنُقِبَت الْمَشْرَبَةُ وَأُخِذَ الطَّعَامُ وَالسِّلَاحُ. فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَانِى عَمِّى رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِى، إِنَّهُ قَدْ عُدِى عَلَيْنَا فِى لَيْلَتِنَا هَذِهِ، فَنُقِبَتْ مَشْرَبَتُنَا وَذُهِبَ بِطَعَامِنَا وَسِلَاحِنَا. قَالَ: فَتَجَسَّسْنَا فِى الدَّارِ وَسَأَلْنَا، فَقِيلَ لَنَا: قَدْ رَأَيْنَا بَنِى أُبَيْرِق اسْتَوْقَدُوا فِى هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَلَا نَرَى فِيمَا نَرَى إِلَّا عَلَى بَعْضِ طَعَامِكُمْ. قَالَ: وَكَانَ بَنُو أُبَيْرِقٍ قَالُوا، وَنَحْنُ نَسْأَلُ فِى الدَّار: وَاللَّهِ مَا نَرَى صَاحِبَكُمْ إِلَّا لَبِيد بْنَ سَهْلٍ (رَجُلًا مِنَّا لَهُ صَلَاحٌ وَإسلام). فَلَمَّا سَمِعَ لَبِيدٌ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَقَالَ: أَنَا أَسْرِقُ؟ وَاللَّهِ لَيُخَالِطَنَّكُمْ هَذَا السَّيْفُ أَوْ لَتُبَيِّنُنَّ هَذِهِ السَّرِقَةَ. قَالُوا: إِلَيْكَ عَنَّا أَيُّهَا الرَّجُلُ، فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا. فَسَأَلْنَا فِى الدَّارِ حَتَّى لَمْ نَشُكَّ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا. فَقَالَ لِى عَمِّى: يَا ابْنَ أَخِى، لَوْ أتيتَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ. قَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَلْتُ: إِنَّ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلَ جَفَاءٍ عَمَدُوا إلى عَمِّى رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ، فنَقَبوا مَشْرَبَةً لَهُ وَأَخَذُوا سِلَاحَهُ وَطَعَامَهُ. فَلْيَرُدّوا عَلَيْنَا سِلَاحَنَا، فَأَمَّا الطَّعَامُ فَلَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ. فَقَالَ النَّبِى صلى الله عليه وسلم: سآمُرُ فِى ذَلِكَ. فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أُبَيْرِق أَتَوْا رَجُلًا مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: أُسَيْر بْنُ عمرو فَكَلَّمُوهُ فِى ذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ فِى ذَلِكَ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ النُّعْمَانِ وَعَمَّهُ عَمَدَا إلى أَهْلِ بَيْتٍ مِنَّا أَهْلِ إسلام وَصَلَاحٍ يَرْمُونَهُمْ بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا ثَبْتٍ. قَالَ قَتَادَةُ: فَأَتَيْتُ النَّبِى

صلى الله عليه وسلم فَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ: عَمَدْتَ إلى أَهْلِ بَيْتٍ ذُكِرَ مِنْهُمْ إسلام وَصَلَاحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبت وَلَا بَيِّنَةٍ؟

قَالَ: فَرَجَعْتُ ولَوَدِدت أَنِّى خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالى، وَلَمْ أُكَلِّمْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِى ذَلِكَ. فَأَتَانِى عَمِّى رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِى، مَا صَنَعْتَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. فَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ: "إِنَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا" بَنِى أُبَيْرِقٍ، "وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ" مِمَّا قُلْتَ لِقَتَادَةَ. "إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ"... إلى قَوْلِهِ: "رَحِيمًا"، أَى لَوِ اسْتَغْفَرُوا اللَّهَ لَغَفَرَ لَهُمْ. "وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ" إلى قَوْلِهِ: "إِثْمًا مُبِينًا" قَوْلَهُمْ لِلَبِيدٍ. "وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ" إلى قَوْلِهِ: "فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا". فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ أَتَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالسِّلَاحِ فردَّه إلى رِفَاعَةَ. فَقَالَ قَتَادَةُ: لَمَّا أَتَيْتُ عَمِّى بِالسِّلَاحِ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَشَا أَوْ عَسَا (الشَّكُّ مِنْ أَبِى عِيسَى) فِى الْجَاهِلِيَّةِ، وَكُنْتُ أَرَى إسلامهُ مَدْخُولًا، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ بِالسِّلَاحِ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِى، هُوَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ. فَعَرَفْتُ أَنَّ إسلامهُ كَانَ صَحِيحًا. فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لَحِقَ بُشَيْرٌ بِالْمُشْرِكِينَ، فَنَزَلَ عَلَى سُلافةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ سُمَية، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: "وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا". فَلَمَّا نَزَلَ عَلَى سُلَافَةَ رَمَاهَا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ بِأَبْيَاتٍ مِنْ شِعْرِهِ، فَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَى رَأْسِهَا، ثُمَّ

خَرَجَتْ بِهِ فَرَمَتْ بِهِ فِى الْأَبْطَحِ، ثُمَّ قَالَتْ: أهديتَ لِى شِعْر حَسَّانَ؟ مَا كنتَ تَأْتِينِى بِخَيْرٍ".

وهاك مثالا آخر على أن النبى كان يرجع عن حكمه حين ينزل الوحى عليه مخالفا ما كان قد حكم أو أفتى به. قال تعالى فى سورة "النور": "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ". ثم ها نحن أولاء نسوق فيما يلى سبب نزول تلك الآيات، ومنه نعرف أنه كان للرسول حكم فى هذه المسألة، ثم نزل عليه الوحى بغير ما قال، فغيَّر حكمه فى الحال. وهو ما لم يكن ممكنا أن يحدث لو أنه كان يسعى إلى أن يكون مقدسا عند أتباعه. وهذا هو سبب النزول:

"حَدَّثَنِى مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّار: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِى عَدِى عَنْ هِشَامِ بْنِ حَسَّانَ: حَدَّثَنِى عِكْرِمَة عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِى صلى الله عليه وسلم بشَرِيك بْنِ سَحْماء، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِى ظَهْرِكَ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إذا أُرِى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا ينطلقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ؟ فَجَعَلَ النَّبِى صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: الْبَيِّنَةُ، وَإِلَّا حَدٌّ فِى ظَهْرِكَ. فَقَالَ هِلَالٌ: وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّى لِصَادِقٌ، وَلَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يُبرِئ ظَهْرِى من الْحَدِّ. فَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ"، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ "إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ"، فَانْصَرَفَ النَّبِى صلى الله عليه وسلم فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا، فَجَاءَ هِلَالٌ فَشَهِدَ، وَالنَّبِى صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: اللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟ ثُمَّ قَامَتْ فَشَهِدَتْ، فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ

وَقَّفُوها وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجِبة. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَكَّأَتْ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهَا تَرْجِعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِى سَائِرَ الْيَوْمِ. فَمَضَتْ، فَقَالَ النَّبِى صلى الله عليه وسلم: أبْصِرُوها، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أكحلَ الْعَيْنَيْنِ، سَابِغَ الْأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لشَرِيك بْنِ سَحْمَاءَ. فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِى صلى الله عليه وسلم: لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كتاب الله لكان لى ولها شأن".

ولدينا أيضا موضوع خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت مما تتحدث عنه الآيات التالية من صدر سورة "المجادلة": "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إلى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ". وفى تفسير البغوى: "نَزَلَتْ فِى خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ. كَانَتْ تَحْتَ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ، وَكَانَتْ حَسَنَةَ الْجِسْمِ، وَكَانَ بِهِ لَمَمٌ، فَأَرَادَهَا فَأَبَتْ، فَقَالَ لَهَا: أَنْتِ عَلِى كَظَهْرِ أُمِّى. ثُمَّ نَدِمَ عَلَى مَا قَالَ، وَكَانَ الظِّهَارُ وَالْإِيلَاءُ مِنْ طَلَاقِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ لَهَا: مَا أَظُنُّكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَى. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا ذَاكَ طَلَاقٌ. وَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَعَائِشَةُ رَضِى اللَّهُ عَنْهَا تَغْسِلُ شِقَّ رَأْسِهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ زَوْجِى أَوْسَ بْنَ الصَّامِتِ تزَوَّجَنِى وَأَنَا شَابَّةٌ غَنِيَّةٌ ذَاتُ مَالٍ وَأَهْلٍ حَتَّى إِذَا أَكَلَ مَالى وَأَفْنَى شَبَابِى وَتَفَرَّقَ أَهْلِى وَكَبِرَ سِنِّى ظَاهَرَ مِنِّى، وَقَدْ نَدِمَ. فَهَلْ مِنْ شَىْءٍ يَجْمَعُنِى وَإِيَّاهُ تُنْعِشُنِى بِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: حَرُمْتِ

عَلَيْهِ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَا ذَكَرَ طَلَاقًا. وَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِى وَأَحَبُّ النَّاسِ إلى. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: حَرُمْتِ عَلَيْهِ. فَقَالَتْ: أَشْكُو إلى اللَّهِ فَاقَتِى وَوَحْدَتِى. قَدْ طَالَتْ صُحْبَتِى، وَنفضتُ لَهُ بَطْنِى. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: مَا أَرَاكِ إِلَّا قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ، وَلَمْ أُومَرْ فِى شَأْنِكِ بِشَىْءٍ. فَجَعَلَتْ تُرَاجِعُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَإِذَا قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "حَرُمْتِ عَلَيْهِ" هَتَفَتْ وَقَالَتْ: أَشْكُو إلى اللَّهِ فَاقَتِى وَشِدَّةَ حَالى. وَإِنَّ لِى صِبْيَةً صِغَارًا إِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا، وَإِنْ ضَمَمْتُهُمْ إلى جَاعُوا. وَجَعَلَتْ تَرْفَعُ رَأْسَهَا إلى السَّمَاءِ وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّى أَشْكُو إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ فَأَنْزِلْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكَ. وَكَانَ هَذَا أَوَّلُ ظِهَارٍ فِى الإسلام. فَقَامَتْ عَائِشَةُ تَغْسِلُ شِقَّ رَأْسِهِ الْآخَرِ. فَقَالَتِ: انْظُرْ فِى أَمْرِى، جَعَلَنِى اللَّهُ فَدَاءَكَ يَا نَبِى اللَّهِ. فَقَالَتْ عَائِشَةُ: أَقْصِرِى حَدِيثَكِ وَمُجَادَلَتَكِ. أَمَا تَرَيْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ أَخَذَهُ مِثْلُ السُّبَاتِ. فَلَمَّا قُضِى الْوَحْى قَالَ لَهَا: ادْعِى زَوْجَكِ. فَدَعَتْهُ، فَتَلَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ"... الْآيَاتِ...

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ الْخَرَقِى: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الطَّيْسَفُونِى: أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ الْجَوْهَرِى: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِى الْكُشْمِيهَنِى: حَدَّثَنَا عَلِى بْنُ حُجْرٍ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِى حَرْمَلَةَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ خَوْلَةَ بِنْتَ ثَعْلَبَةَ كَانَتْ تَحْتَ أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ، فَظَاهَرَ مِنْهَا، وَكَانَ بِهِ لَمَمٌ، فَجَاءَتْ إلى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ: "إِنَّ أَوْسًا ظَاهَرَ مِنِّى"، وَذَكَرَتْ أَنَّ بِهِ لَمَمًا فَقَالَتْ: وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا جِئْتُكَ إِلَّا رَحْمَةً لَهُ. إِنَّ لَهُ فِى مَنَافِعَ. فَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ فِيهِمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً. قَالَتْ: وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا

عِنْدَهُ رَقَبَةٌ وَلَا ثَمَنُهَا. قَالَ: مُرِيهِ فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ. فَقَالَتْ: وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ كَلَّفْتَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مَا اسْتَطَاعَ. قَالَ: مُرِيهِ فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا. قَالَتْ: وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ. قَالَ: مُرِيهِ فَلْيَذْهَبْ إِلى فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ، فَقَدْ أَخْبَرَنِى أَنَّ عِنْدَهُ شَطْرَ تَمْرٍ صَدَقَةً، فَلْيَأْخُذْهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ ثُمَّ لِيَتَصَدَّقْ بِهِ عَلَى سِتِّينَ مِسْكِينًا".

ونتقل إلى الأحاديث الشريفة. ونبدأ باختيار الرسول عليه السلام موقعا ينزل به المسلمون قبيل موقعة بدر، فقد سأله أحد الصحابة: أرأيتَ هذا المنزلَ؟ أَمَنزلًا أنزلكَهُ اللهُ ليسَ لنا أن نتقدَّمَه ولا نتأخَّرَ عنهُ أم هو الرَّأى والحربُ والمكيدةُ؟ قال: بل هوَ الرَّأى والحربُ والمكيدةُ. قال: يا رسولَ اللهِ، فإنَّ هذا ليس بمنزلٍ. امضِ بالنّاسِ حتّى نأتى أدنى ماءٍ من القومِ فنُعسكِرَ فيه، ثمَّ نعوّرُ ما وراءَه من الآبارِ، ثُمَّ نبنى عليه حوضًا فنملؤه ماءً، ثُمَّ نقاتلُ القومَ فنشربُ ولا يشرَبونَ. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: لقد أَشَرْتَ بالرَّأى. ثم أمرَ بإنفاذِهِ، فلم يَجِئ نصفُ اللَّيلِ حتّى تحوَّلوا كما رأى الحُبابُ، وامتَلكوا مواقعَ الماءِ".

وعن أبى هريرة: "صلّى لَنا رَسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صلاةَ العَصرِ، فسلَّمَ مِن رَكْعتينِ، فقامَ ذو اليَدينِ فقالَ: أَقَصُرتِ الصَّلاةُ أم نَسيتَ يا رسولَ اللَّهِ؟ فأقبلَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم على النّاسِ فقالَ: أصدَقَ ذو اليدينِ؟ فَقالوا: نعَم. فأَتَمَّ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ما بقى منَ الصَّلاةِ، ثمَّ سجدَ سَجْدَتينِ وهو جالِسٌ بعدَ التَّسليمِ".

وعن أنس بن مالك "أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم مَرَّ بقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقالَ: لو لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ. قالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بهِمْ فَقالَ: ما لِنَخْلِكُمْ؟ قالوا: قُلْتَ كَذا وَكَذا. قالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بأَمْرِ دُنْياكُمْ". وعن أم سلمة أم المؤمنين: "إنَّكم تختِصمونَ إلى، وإنَّما أنا

بشَرٌ، ولعلَّ بعضَكم أَلْحَنُ بحُجَّتِهِ من بعضٍ، فإنما أقضى بينكما على نحوِ ما أسمعُ. فمن قضيتُ لَهُ من حقِّ أخيهِ شيئًا فإنَّما له قطعةٌ منَ النّارِ".

وعن قيس بن أبى حازم "أنَّ رجلًا أتى رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فقام بين يدَيه، فأخذه من الرِّعدةِ، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: هوِّنْ عليك، فإنى لستُ بمَلِكٍ. إنما أنا ابن امرأةٍ من قريشٍ كانت تأكُلُ القَديدَ". وعن جابر بن عبد الله: "إنما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكلُ العبدَ، وأجلسُ كما يجلسُ العبد". وعن الأغر المزنى أبى مالك: "استغفروا ربَّكم. إنى أستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه كلَّ يومٍ مائةَ مرةٍ". ومن أدعيته صلى الله عليه وسلم "اللّٰهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك. ناصيتى بيدك. ماضٍ فى حكمُك، عدلٌ فى قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك سميتَ به نفسك أو أنزلتَه فى كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك أو استأثرتَ به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى".

وكان صلى الله عليه وسلم يجلس على الأرض ويأكل مع أصحابه ولا ينفصل عنهم فى موضع خاص به ولا بطعام أطيب أو أكثر من طعامهم. "قَدِمَ وَفدُ النَّجاشى على رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فقام يَخدُمُهم، فقال أصحابُه: نحن نكفيك يا رَسولَ اللهِ. قال: إنَّهم كانوا لأصحابِنا مُكرِمينَ، وإنِّى أُحِبُّ أن أكافِئَهم". ولم يكن له جلاوزة يفضّون الناس من حوله ويوسعون له الطريق. وكان بيته مفتوحا لأى قاصد أو سائل أو صاحب مصلحة أو مشكلة أو فُتْيَا أو خصومة فلا يُرَدّ أبدا بل يجاب إلى ما يريد دون أى تكلف. وكان الأعراب ينادونه بـ"يا محمد" فلا يعترض، فضلا عن أن يتأفف. وكان بعضهم يُسْمِعه كلاما شديدا لا يصح توجيهه أبدا إليه ولا يقبله مَنْ هو أقل منه، ومع هذا كان يتسامح مع كل هذا. وشده بعضهم من طوقه حتى أثر الشد

العنيف فى عنقه قائلا فى جلافة وغلظة: أعطنى من مال الله، فهو ليس مالك ولا مال أبيك. ولم يفكر النبى فى عقابه، وكان يستطيع، وكثير من الصحابة كان يسعدهم جدا لو كَلَّفَ أحدَهم بعقابه هو وأمثاله.

ولما مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس وظن الصحابة أنها كسفت إكراما للميت الصغير بوصفه ابنا للرسول أنكر فى صراحة ساطعة أن تكسف الشمس أو القمر لموت أحد أو لحياته، إذ هما آيتان من آيات الله تجريان على سنن معلوم، أى تتبعان فى جريهما فى الفضاء قانونا إلهيا مطردا. وكان يترك حفيديه يركبان ظهره وهو يصلى. و"كانَ يُرْدِفُ خلفَه، ويضعُ طعامَه على الأرضِ، ويجيبُ دعوةَ المملوكِ، ويركبُ الحمارَ"، وقد يكون الحمار من غير برذعة. وعن ثوبان مولاه صلى الله عليه وسلم "أنَّ النَّبى صلى الله عليه وسلم شيَّع جنازةً، فأُتِى بدابَّةٍ، فأَبى أن يركَبَها" مراعاة للجنازة. وعن عامر بن ربيعة "أنَّ امرأةً سوداءَ ماتَت ولم يُؤْذَنْ بِها النَّبى صلى الله عليه وسلم، فأُخبِرَ بذلِك، فقالَ: هلّا آذَنتُمونى بِها؟ ثمَّ قالَ لأصحابِه: صُفُّوا عليها. فَصلّى عليها". وعن أبى هريرة "أنَّ رجلًا كان يلتقطُ الأذى مِن المسجدِ فمات، ففقَده النَّبى صلى الله عليه وسلم فقال: ما فعَل فلانٌ؟ قالوا: مات. قال: هلّا كُنْتُم آذَنْتُمونى به؟ فكأنَّهم استخَفُّوا شأنَه. قال لأصحابِه: انطلِقوا فدُلُّونى على قبرِه. فذهَب فصلّى عليه". وفى القرآن فى آخر سورة "الكهف": "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد"، وهذا هو الفرق الوحيد بينه وبين سائر البشر: أنه يُوحَى إليه، ونحن لا يُوحَى إلينا، علاوة على سمو خلقه. فأين القداسة والتقديس؟

وعن عبدالله بن عباس: "قال أبو رافِعٍ القُرَظِى حينَ اجتَمَعَتِ الأَحْبارُ مِنَ اليهودِ والنَّصارى مِن أهلِ نَجْرانَ عند رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ودَعاهُم إلى الإسلام:

أَتُرِيدُ يا محمَّدُ أنْ نَعبُدَكَ كما تَعبُدُ النَّصارى عيسى ابنَ مريمَ؟ فقال رَجلٌ مِن أهلِ نَجْرانَ نَصْرانىٌّ يُقالُ له: الرَّئيسُ: أَوَذاكَ تُريدُ مِنّا يا محمَّدُ، وإليه تَدْعُونا؟ أو كما قال. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: مَعاذَ اللهِ أنْ نَعبُدَ غيرَ اللهِ أو أنْ نَأمُرَ بعِبادةِ غيرِه. ما بذلكَ بَعَثَنى ولا بذلكَ أمَرَنى. أو كما قال صلى الله عليه وسلم. فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ فى ذلك مِن قَوْلِهما: "ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ والْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ". ومن أقواله عليه السلام: "لا تُطرُونى كما أطرَتِ النَّصارى عيسى ابنَ مريمَ، فإنَّما أنا عبدٌ. فقولوا: عبدُ اللهِ ورسولُه"، "لا تجعَلُنَّ قبرى وثنًا. لعَن اللهُ قومًا اتخَذوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ".

أما أن يحمل بعضُ الصحابة الصغار سِنًّا نعله فهذا لون من الحب لم يأمرهم به بل أقدم بعضهم عليه بتلقائية حميمية ودون تكلف، لكن عمنا الرصافى أراد إثارة ضجة سخيفة سخف عقله وضميره الملتوى. بل حتى لو كان هو من أمر بحمل نعله أذلك حدثٌ يهدد الحضارة البشرية؟ لقد كان صلى الله عليه وسلم يمثل بل يجسد أعلى سقف فى الكمال الإنسانى، فليس من الحصافة ولا من الإنصاف أن نقف إزاء مثل تلك المسألة الصغيرة التافهة التى لا تقدم ولا تؤخر، وبخاصة حين يكون من يقف إزاءها هو الرصافى الذى نعرف جيدا كيف كان يتصرف ويقول. ولو كان حَمْل ابن مسعود لنعل الرسول مظهرا من مظاهر تقديس الرسول التى يحرص عليه السلام على غرسها فى نفوس الصحابة فكيف نعلل تقدير النبى لابن مسعود فى القراءة الصحيحة للقرآن حتى ليقول فى ذلك عبد الله بن عمر: "لَمْ أَزَلْ أُحِبُّ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ منذُ سمِعْتُ

النَّبى صلى الله عليه وسلم يقولُ: اقرَأوا القُرآنَ مِن أربعةٍ: عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ وسالمٍ مولى أبى حُذَيفةَ ومُعاذِ بنِ جَبلٍ وأُبَى بنِ كعبٍ"، وقول عمر فيه إنه مملوء فقها، واستعماله إياه على بيت المال وعلى السوق؟ وحين جاء نعْى عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ إلى أبى الدرداءِ قال: ما ترك بعدَه مثلَه. وقول النبى صلى الله عليه وسلم: "رضيتُ لأُمَّتِى ما رَضِى لها ابنُ أمِّ عبد"، "من أحبّ أن يقرأ القرآنَ غَضًّا كما أُنْزِل فليقرأهُ على قِراءةِ ابن أُمّ عَبْدٍ". وعن على بن أبى طالب:" أمر النبى صلى الله عليه وسلم عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ أن يصعدَ شجرةً وأن يأتيَه منها بشىءٍ فنظر أصحابُه إلى ساقِ عبدِ الله بنِ مسعودٍ حين صعِدَ الشجرةَ فضحِكوا من حُموشةِ ساقَيهِ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ما تضحَكون؟ لَرِجْلُ عبدِ اللهِ أثقلُ فى الميزانِ يومَ القيامةِ من أُحُدٍ".

والآن أفمن يقول هذا الذى قاله النبى ويتصرف على هذا النحو الذى تصرفه عليه السلام أيصح أن نقول إنه كان حريصا على أن يقدسه أتباعه كما يزعم الرصافى؟ أما أن يَدْلُك المسلمون وجوههم بنُخَامة الرسول عليه السلام فلم نسمع أنهم فعلوها إلا فى الحديبية بمحضر من رسول أعدائهم القرشيين. وتفسيرى لها أنهم أرادوا أن يُفْهِموا أعداءهم كيف أن محمدا محبوب عندهم أعظم الحب عزيز عليهم أشد العزة، وأَمْره فيهم هو الأمر، وأنه مهما يأمرهم بشىء ضدهم فلسوف ينفذونه فى الحال باستقتال ودون تلجلج. وقد أتى هذا التصرف أُكُلَه عند القرشيين لمّا عاد إليهم رسولهم وأخبرهم بما شاهد من تعلق المسلمين بنبيهم. ولا أظن هذا التصرف إلا هز قلوب المشركين وأَطَرَهم أَطْرًا على التفكير فى أمر محمد على نحو مختلف، ولم يحدث أن اشتبك المسلمون والمشركون إلا يوم الفتح اشتباكا خفيفا ثم سلَّموا واستسلموا وأسلموا وصاروا يجاهدون فى سبيل الإسلام بعدما كانوا يحاربونه ويجتهدون فى الإضرار به بل

فى القضاء عليه، وإن كانوا قد فشلوا فى ذلك فشلا ذريعا. أما حكايات التفل والتحنيك التى أكثر منها الرصافى فلا تشغلنى فى شىء سواء صحت أو لم تصح، فإنى منشغل بقيم الإسلام العظيمة ومبادئه الكريمة والتغييرات الهائلة التى أحدثتها دعوة محمد فى حياة العرب وفى حضارة العالم وتاريخه.

ثم يمضى الرصافى مهاجما الرسول عليه السلام لأنه رأى ذات يوم أوراقا من التوراة مع عمر بن الخطاب يقرأ فيها ويسأله عن الحكم فى ذلك، فغضب ونهاه عن مطالعتها، فعد كاتبنا هذا الموقف من الرسول مغالاة فى تقدير نفسه ودينه (ص٤٣٩). وهذا من الرصافى حمق ما بعده حمق. لقد أتى محمد بدين جديد ينسخ كل الأديان السابقة لأكثر من سبب: أنها دخلها التحريف والعبث، وقد وضحنا هذا فى موضع آخر من الكتاب الحالى بشىء من التفصيل. ومنه تصوير الله وكأنه واحد منا نحن البشر، وتقديم الأنبياء على أنهم مجرمون يرتكبون كل أنواع الموبقات من قتلٍ عمدٍ وزنا وزنا محارم وسكر وعربدة وفسق وخيانة. فهل المطلوب أن يترك النبى لأتباعه التعرض لهذا التلوث يفسد عليهم دينهم الذى لم يكن قد اكتمل بعد؟ ومعروف أن الجيل المؤسس يؤخذ بكثير من الشدة والحزم لأنه بمثابة القواعد من البيت، فلو لم تكن القواعد صلبة راسخة متينة لانهار البناء منذ البداية. ثم إن مدى الإسلام أوسع وأبعد كثيرا جدا جدا جدا من المدى الذى يصل إليه دين موسى أو دين عيسى، فهما دينان ضيقان لا يهتم أولهما بشىء تقريبا سوى أمور الكهانة وما يتصل بها، ولا يهتم الثانى إلا ببعض الأخلاق المثالية التى لا تصلح لتسيير المجتمع بل تظل على مثاليتها لا يفكر أحد أبدا فى السير بمقتضاها، وإلا ضاع بل هلك وأكله ذئاب البشر وضباعهم وثعالبهم. كما أن الإسلام دين عالمى بينما كل من اليهودية والنصرانية ديانة محلية. وفى حين يدعو

الإسلام إلى طلب العلم والاهتمام بالقراءة والكتاب والعمل والإتقان والنظافة والنظام والشورى والعدل الاجتماعى والقوة الاقتصادية والحربية والسياسية ويضع التشريعات فى كل مناحى الحياة لا نجد شيئا من ذلك فى أى من الدينين. فكيف يسكت النبى على تصرف عمر؟ والعجيب المريب فى موقف الرصافى أنه اتهم بجُمْع قوته كل يهودى دخل فى الإسلام بأنه إنما دخل ليفسده ويخرب عقول رجاله ونسائه بترويج الإسرائيليات بينهم. فبالله ما كل هذه الحنية الآن على اليهودية؟ ثم ألم يقل الرصافى فى أول كتابه إن دين محمد أفضل من أى دين آخر وإن محمدا أعظم من أى رجل آخر؟ فلم ينتقده إذن لغيرته على دينه هذا الذى يَفْضُل كلَّ الأديان؟ يا للتناقض البشع!

كذلك نراه ينتقد وجود الشهادة الثانية فى الصيغة التى ينطقها من يريد اعتناق الإسلام مدعيا أن قولنا: "أشهد ألا إله إلا الله" تكفى. وهو مخطئ بدون أدنى شك، وأرجح أنه يعرف بأنه يهلوس، لكنه يسوق البلاهة على الشيطنة. كما أن هذا الانتقاد هو انتقاد تبشيرى قرأتُه لبعض المبشرين الغربيين، إذ يقولون إن محمدا يسوى بين نفسه وبين الله فيذكر نفسه دائما مع ربه ويأمر أتباعه بطاعته مع طاعة ربه. وهو اعتراض سخيف ولا معنى له، فإنه إذا ذُكِر مع الله فى هذا السياق فإنما يُذْكَر بصفته عبد الله ورسوله ليس إلا، فضلا عن أن طاعته هى نفسها طاعة الله، إذ هو رسول الله ومبلغ دعوته إلى العباد لا يأتى بشىء من عنده، وإلا عاقبه الله سبحانه حسبما ذكر القرآن فى سورة "الحاقة" وفى سورة "الإسراء".

ثم كيف ينتقد الرصافى محمدا لأنه قرن اسمه باسم الله فى بعض المواضع القليلة فى القرآن لدى الحديث عن الطاعة، ولا يرى أن معظم سِفْر "الخلق" (من العهد القديم)، والأناجيل (من العهد القديم) لا يحتويان على شىء لا يتعلق بموسى وعيسى

على الترتيب، بل هما من أولهما إلى آخرهما مجرد تأريخ لحياة النبيين الكريمين، فهما مثل السيرة النبوية عندنا لا القرآن. ومع هذا لا يجد الرصافى والمبشرون الذين يقلدهم أية معابة فى العهدين المذكورين. وهذا غريب. أما محمد فالمواضع التى ذُكِر اسمه فيها فى القرآن لا تزيد فى العد على أصابع اليد الوحدة (٤مرات + مرة باسم "أحمد") بينما ذكر إبراهيم (٦٩مرة) وموسى (١٣٦ مرة) وهارون (٢٠ مرة) وعيسى (٢٥ مرة + ١١ مرة باسم "المسيح") ونوح (٣٥ مرة) وكثير من أنبياء بنى إسرائيل أكثر من ذلك، وبعضهم أضعاف العدد الذى ذُكِرَه محمد. بل إن مريم، وهى ليست نبية، قد ذكرت فى القرآن ٣٤ مرة. وهناك سورة كاملة باسمها تحكى قصتها بينما لا وجود لسورة باسم أى من زوجات محمد صلى الله عليه وسلم. وهناك سور كثيرة بأسماء الأنبياء الآخرين: "يونس وهود ويوسف وإبراهيم والأنبياء ونوح" فى حين أن السورة التى سميت على اسم محمد لها اسم آخر هو "القتال"، ولا يقابلنا اسمه فيها أكثر من مرة واحدة يتيمة. وبالمثل نرى القرآن يحرص على تقديم صور ناصعة للأنبياء السابقين بما فيهم أنبياء بنى إسرائيل على العكس من كتب العهد القديم التى لم تترك واحدا منهم إلا لوثته وشوهت سيرته تشويها فظيعا كما يعرف كل من قرأ أسفار ذلك الكتاب. ولو كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قداسة وتقديسا لردد ما تقول كتبهم عنهم لِيَبْرُز هو من بينهم متألقا ساطع التألق يُعْشِى نورُ تألقِه العيونَ فى حين أن كل الأنبياء مطفأون. ولم يكن ليمكن أن يتعلل عليه أحد بشىء، إذ هو لم يأت بأية كلمة من خارج كتبهم. فأين حرص نبينا على القداسة إذن، هذا الزعم الذى يزعمه الرصافى بوجه جامد كاذب لا يعرف الحياء؟

ومرة أخرى فالرصافى مخطئ حين ينتقد وجود الجزء الثانى من الشهادة التى ينطق بها من يدخل الإسلام، إذ كل من اليهودية النصرانية تقول إنها تدعو إلى الله الواحد الأحد، لكن ما يميز الإسلام هو ما جاء به محمد من الدعوة إلى بناء الحضارة كلها بجميع جوانبها من علم وعمل ونظام ونظافة وإتقان وابتكار وإبداع وشورى وعدل وقوة سياسية واقتصادية... إلخ، وهو ما تكفل بتبيانه الكتاب الذى نزل عليه والأحاديث التى بثها فى المسلمين. ثم ألم يقل الرصافى إن محمدا لا ينطق بها فى نفسه بل يعزوه إلى الله دائما، ومَدَحَه عليه السلام فى أول الكتاب لهذا السبب؟ ألم أقل رغم ذلك إنه يبغض محمدا ويمقته أبشع المقت رغم تظاهره بعكس ذلك فى بداية كل كلام يكتبه عنه؟ فكما يرى القارئ فإننا فى كل مرة نضبط الرصافى عريان السوأة يتناقض مع نفسه تناقضا أبلق لا يصح ولا يليق. ولكن إذا عرفنا السبب بطل العجب، والسبب هو أنه مغرم بانتقاد النبى والقرآن والإسلام بكل سبيل بحيث لو قال محمد: "يمين" لقال هو: "شِمَال"، ولو قال محمد: "شَرْق" لقال هو: "بل غَرْب". وهكذا نراه يعترض دائما على الدين والكتاب الذى جاء به محمد، والسلام.

ولنقرأ (ص٤٤٢) البيتين التاليين اللذين يستشهد بهما على سوء نية الأنبياء واعوجاجهم بما فيهم محمد بطبيعة الحال:

أَفِيقُوا أَفِيقُوا يا غُواةُ، فَإِنَّما ... دِيانَتُكُم مَكْرٌ مِنَ القُدَماءِ
أَرادوا بِها جَمْعَ الحُطامِ فَأَدْرَكوا ... وبادوا، وَماتَت سُنَّةُ اللُّؤَماءِ

إنه يفعل هذا ويزعم تلك المزاعم الباطلة رغم قوله فى أول الكتاب إن محمدا هو الوحيد الذى جاء بالتوحيد الحق، وأشار إلى أنه قد محا نفسه وأسند كل ما يفعله ويقوله إلى الله وأن هذا هو الوضع الطبيعى. لكنه كعادته ينقلب على عقبيه وينهال بعد الثناء

الأول المخدِّر على النبى انتقادا وعيبا وتشويها. ألا إنه مريض: مريض خلقيا ونفسيا وفكريا، فهو مريض بالثُّلُث.

الهجوم على العبادات الإسلامية: ثم ينتقل الرصافى إلى العبادة، فيبدأ بالصلاة، وهنا ينطلق كالثور الهائج فى محل الخزف محطما كل شىء: فالصلاة فى نظره ينبغى أن تكون روحية محضة لا مكان فيها لحركات الجسد من قيام وركوع وسجود وجلوس وتلفُّت إلى اليمين واليسار لأن الإنسان قد يؤدى هذه الحركات وذهنه مشغول بأموره وأحواله الدنيوية. ومن هنا نجده ينظر إلى تلك الحركات على أنها تمرينات رياضية أكثر منها صلاة وعبادة. كما ينتقد سماح الإسلام لنا أثناء الصلاة بالرد عن طريق الإشارة أو عبارة "سبحان الله" أو النحنحة على من يريد منا شيئا بسيطا لا يحتاج إلى أكثر من هذه الإجابات. وبالمثل ينتقد حَمْلَ الواحد منا فى الصلاة طفلا له صغيرا أو مَشْيَه خطوات ليفتح الباب لأحد الطارقين... وما إلى ذلك. ليس ذلك فقط بل يسخر سخرية شديدة من هيئة السجود حيث تكون مؤخرة الساجد فى الأعلى، ووجهه فى الأسفل. وقبل ذلك نراه يرجع كلمة "الصلاة" اشتقاقيا إلى كلمة "صلوتا" اليهودية العبرية (ص٤٤٣- ٤٤٧).

ونبدأ بآخر شىء، وهو تأكيده أن "الصلاة" مشتقة من كلمة "صلوتا" العبرية التى تدل على كنيس الصلاة، ثم انتقل معناها إلى الصلاة نفسها. وقد عجبت أشد العجب من تبنى الرصافى ذلك الاشتقاق، وهو لا يعرف العبرية. إن هذا الكلام قد قابلته من قبل عند عدد من المستشرقين والمبشرين، وكنت أستغرب تفسيرهم هذا لأن العبرية والعربية كلتاهما لغة سامية، فلماذا ينبغى أن تكون العربية هى التى أخذت مثل تلك الألفاظ من العبرية لا العكس أو على الأقل: أن تكون كل منهما قد ورثته من اللغة

السامية الأم، التى يقول بعض العلماء إنها العربية ذاتها أو إن العربية هى أقرب أخواتها الساميات إليها؟ ثم أين كان اليهود وكنيسهم من محمد وصلاته فى مكة؟ وقد كانت الصلاة موجودة فى لغة العرب، ولكن بمعنى "الدعاء"، ثم تطور معناها إلى "الصلاة" كما نعرفها فى الإسلام مثلما تطور "النفاق" من الدلالة على "جحر اليربوع" إلى الدلالة على تلون الشخص وتعامله مع الناس بوجهين مثلما أن "نافقاء اليربوع" له منفذان بحيث إذا جئتَه من ناحية خرج من الناحية الأخرى فلا تستطيع أن تمسكه. وفى اللغات الأوربية تدل كلمة "pray, Prière" على "الدعاء" بوجه عام وعلى "الصلاة" بالمعنى الاصطلاحى جميعا. ولو كانت كلمة "الصلاة" مأخوذة عن اليهود والعبرية لكان يهود المدنية، بدلا من التهكم بقلة أدب وسفاهة وسفالة على صوت الأذان وتشبيهه بنهاق الحمير كما كانوا يفعلون قبل أن يتم تأديبهم وقطع دابر شرهم جراء ما كانوا يحيكونه من مؤامرات على الإسلام والمسلمين، لكانوا سخروا من استعارة الإسلام هذه الكلمة منهم ومن دينهم ولغتهم. لكن الروايات لم تحفظ لنا شيئا من ذلك البتة، وهو ما يضرب هذا التساخف الرصافى فى الصميم ويأتى عليه من القواعد.

ولا تقف سفاهة الرصافى عند هذا الحد بل يزعم بوجه ثخين أن الركوع والسجود مأخوذان من عند الفرس لأنهم كانوا يركعون ويسجدون لملوكهم لدى الدخول عليهم، ثم عاد بعد قليل فقال إنهما مأخوذان من صلاة يهود السامرة (ص٤٥١- ٤٥٢). ولكن أين يا ترى شاهَدَ محمدٌ الفرسَ يركعون ويسجدون لملوكهم؟ وأين رأى يهودَ السامرة وهم يصلون فسرق منهم الركوع والسجود وأدخلهما فى صلاة الإسلام؟ ولماذا لم يقل له قومه ذلك حين رأوه يصلى هو والمسلمون؟ أم إن الرسول وحده هو الذى رأى الفرس يركعون ويسجدون؟ ترى هل

كان النبى ينسرب من بين قومه ويذهب إلى بلاد فارس فى الخفاء والظلام فرآهم يصلون ثم عاد سريعا إلى مكة؟ واضح أن الرصافى رجل عقله مضطرب، وقلبه يغلى بالبغضاء، ودَخَل كتابَه وفى عزمه اتهام النبى بكل نقيصة والقول بأنه أخذ دينه من هنا ومن هنا وأنه لم يتلق شيئا من الله. هذا بالله رجل أحمق.

وهو هنا يردد كالببغاء كلام أعداء الإسلام، ولم يأت بشىء من عنده. وهذا شأنه فى كثير جدا مما ضمنه فى كتابه الحالى. والغريب أنه يصنع ذلك بوجه وقاح إذ يُخيِّل للقارئ أنه ابن بجدتها. وهو أيضا يكذب حين يزعم أنه لم يكن بين يديه وهو يؤلف ذلك الكتاب سوى بعض المراجع التى تعد على أصابع اليد الواحدة فى حين أن المراجع التى يشير إليها فى درج الكتاب وكذلك التى يضمها الثبت الموجود فى آخره تكذب دعواه هذه المفضوحة تكذيبا ساحقا. والعجيب أنه، فى الوقت الذى يتهم النبى بأنه أخذ السجود من الفرس، يستشهد بكاتب فارسى يسخر من السجود ومن هيئته. فلو كان الرصافى مخلصا لأَصْلَى ذلك الفارسىَّ الأحمق نارا حامية من التقريع وطَلَبَ منه أن يغلق فمه لأن قومه كانوا يسجدون وينتئون أستاههم فى الفضاء، ولِبَشَرٍ مثلهم، وليس لله سبحانه، وهو ما يجعل مصيبتهم مصيبتين فى نظره! لكنه يقع فى هذا التناقض ولا يبالى لأن همه كله هو مهاجمة الإسلام، والباقى يهون.

وأما أن تكون الصلاة فى جانب منها لونا من التمارين الرياضية فما المشكلة أو العيب فى هذا؟ لقد وجد الأطباء فوائد صحية فى هذه الحركات والأوضاع التى تزعج الرصافى الرهيف الروح المرفرف بأجنحته النورانية فى سماوات التجريد والشفافية النفسية، ولهذا يسخر بها ويتهكم عليها. ومن قال إن الصلاة اتجاه روحانى فقط إلى

الله؟ هل الإنسان روح فقط؟ إنه روح وجسد، واشتراك الجانبين فى العبادة يربط الإنسان من جانبيه بالله سبحانه.

إن السكينة مطلوبة فى الصلاة. قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ عن وَدْعِهِمُ الجُمُعاتِ أو ليَخْتِمَنَّ اللهُ على قلوبِهم ثم لَيُكْتَبُنَّ من الغافلينَ"، "لا يزالُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ مُقبلًا على العبدِ ما لم يلتفِت فإذا صرَفَ وجهَه انصرفَ عنهُ"، "إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ فلا تقوموا حتّى ترَوْنى وعليكم السَّكينةُ"، "ائتُوا الصلاةَ وعليكم السَّكينةَ، فصلُّوا ما أدركتُم واقضُوا ما سبقَكم"، "إذا أحسنَ الرجلُ الصلاةَ فأتمَّ ركوعَها وسجودَها قالتْ الصلاةُ: "حفِظَكَ اللهُ كما حفظْتَنِى"، فتُرفعُ. وإذا أساءَ الصلاةَ فلمْ يُتِمَّ ركوعَها وسجودَها قالت الصلاةُ: "ضيَّعَكَ اللهُ كما ضيعتَنى"، فَتُلَفُّ كما يُلَفُّ الثوبُ الخَلَقُ فيُضْرَبُ بها وجهُهُ"، "مَنْ ضحِكَ فى الصلاةِ قهقهةً فليُعِدِ الوضوءَ والصلاةَ"، "إيّاكُم والالتفاتُ فى الصَّلاةِ فإنَّ أحدَكُم يُناجى ربَّهُ ما دامَ فى الصَّلاةِ"، "الإحسانُ أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يَراك"، وقالت عائشة: "إنَّ الالتفاتَ فى الصَّلاةِ اختلاسٌ يختلسُه الشَّيطانُ منَ الصَّلاةِ"، وعن جابر بن سمرة: "خرجَ علينا رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ونحنُ رافِعو أيدينا فى الصَّلاةِ، فقالَ: ما بالُهم رافعينَ أيديَهم فى الصَّلاةِ كأنَّها أذنابُ الخيلِ الشُّمْسِ؟ اُسْكُنوا فى الصَّلاةِ"، وعن ابن مسعود: "كنّا نسلِّمُ فى الصَّلاةِ، فَقيلَ لَنا: إنَّ فى الصَّلاةِ لشُغْلًا". وأما السماح بإشارة المصلى أثناء صلاته لمن هو خارجها حين تكون هناك ضرورة فيدل على أن الإسلام دين يجمع بين الروحانية وبين الحرص على عدم فوات مصلحة من مصالح الحياة، وإلا لكان الرصافى أول من يهب للزراية عليه لتصلبه وجموده وعدم السماح للمصلى بالإشارة إلى من يريد منه شيئا لا يقبل التأجيل.

أذكر ذات مرة كنت أصلى العشاء خلف زميل مصرى بالطائف فى بيته منذ بضعة عقود، ورن الهاتف، وكنت منتظرا اتصالا مهما على هاتف بيت زميلى، لكن لم أتوقع أن يأتى الاتصال ونحن فى الصلاة، فسرعان ما رفعت السماعة وقلت: "سبحان الله" ثم وضعتها وانصرفت إلى صلاتى، وفهم المتصل أننى موجود، فكرر الاتصال بعد الصلاة. ولكن المضحك أن صاحب الهاتف ثانى يوم حكى ما حدث لزملائنا بالجامعة على أنه حدث يُرْوَى لغرابته، فقلت له: ألسنا نقول ونحن نصلى: "سبحان الله" حين نريد تنبيه أحد لأمر ما؟ قال: بلى. قلت له: وما الفرق بين أن أقولها فى الهاتف وأن أقولها كفاحا للشخص المراد تنبيهه؟ لكنه بدا عليه عدم الاقتناع. هو حر!

وأما أن هذه الحركات والأقاويل التى تتكون منها الصلاة لا تمنع المصلى من شرود ذهنه هنا وهناك، وأما أن الرد على من هو خارج الصلاة يخرجنا عنها قليلا أو كثيرا، فهذا وارد، وعلى الإنسان أن يعود إلى صلاته سريعا، وهو ما نعمله نحن وغيرنا بدرجات متفاوتة من النجاح. وما لا يُدْرَك كله لا ينبغى أن يُهْمَل كله. والحياة مزيج من النجاح والفشل. ولا يوجد أدنى تصادم بين هذا وبين التوجه الروحى لله سبحانه، فالإسلام لا يفصل بين الدين والدنيا. والدين الذى يرى أن فى مجامعة الرجل لزوجته أجرا ويعلمنا أننا فى كل ما نعمل إنما نؤدى عبادة، وإن لم تكن عبادة شعائرية، لا يمكن أن يقيم حدودا فاصلة بين الجسد والروح أو بين الدنيا والآخرة أو بين الشعيرة الدينية والتمارين الرياضية. وكثيرا ما حمَلْنا أولادَنا وأحفادَنا ونحن نصلى أو تركناهم يركبون ظهورنا، ولم يمنعنا ذلك من الشعور بأننا واقفون أمام ربنا سبحانه فنشكره على نعمة الأولاد والأحفاد ونشعر بالغبطة لأن ديننا دين سمح لا يقيم فواصل صلبة بين جوانب الحياة المختلفة.

ثم هل يستطيع أشد الروحانيين الشفافين من أمثال الرصافى المحلق فى أجواء الروحانية والملائكية أن يركز فى عبادته الروحية أو تأملاته الفكرية بحيث لا يذهب ذهنه إلى هذه الجهة أو يروح إلى تلك؟ وهذا إن كان أمثاله يمارسون أى لون من العبادة! إن هذا لهو المستحيل بعينه، فالوعى البشرى هو بمثابة تيار متدفق لا يمكن صاحبَه التحكمُ فيه بل يتأثر بكل ما حوله وبداخله، وإن كان بدرجات متفاوتة: فلنفترض أننى الآن طاوعت الرصافى الملاك النقى الذى لا يعرف أى شىء من بشريتنا وصرت أعبد الله بعقلى فحسب، ثم كنت جالسا أمام مكتبى متأملا فى معنى الألوهية مثلا، فطرق أحدهم الباب يريد أن يدخل، فهل يمكن أن أظل منغمسا تمام الانغماس فى صلاتى دون أن أتنبه لطرق الباب وكأنه لم يُطْرَق ولا أن إنسانا يريد أن يدخل؟ وهل إذا أصابنى مَغْصٌ وأنا أصلى صلاتى الروحانية التى أوصى بها أفاقنا الكبير أظل مستمرا فى صلاتى لا أبالى بل لا أشعر بهذا المغص؟ وهل إذا كنت أصلى فى غرفتى، وأولادى يشاهدون مباراة فى كرة القدم فى الردهة وأحرز فريقهم هدفا جميلا فقاموا يهللون ويفرحون ويتصايحون بأصواتهم العالية، هل يمكن أن أبقى جامد الإحساس فلا أعى شيئا من هذا أبدا وأمضى فى صلاتى كأنى صنم من الفولاذ؟

إن الفولاذ ذاته يستجيب لمثل تلك الأصوات والخبطات، وإن لم يبد لنا أنه يتأثر جراء صلابته وقوة تحمله، فما بالنا بالبشر والوعى البشرى؟ العبرة فى الصلاة أن يعود الإنسان سريعا إلى مساره العِبَادِى. والله سبحانه يغفر كثيرا من هذه الأشياء لأنه يعلم أن الإنسان لا يستطيع أن يعلو فوق بشريته على هذا النحو الذى يزعمه أمثال الرصافى. وهذه عظمة الإسلام وسر عبقريته. ثم هل كان الرصافى يعبد الله روحيا كما يريد منا أن نفعل؟ وهل من ثمرات عبادته الروحية هذه أن صار من زبائن البغايا والغلمان والخمر

والقمار؟ إن الإنسان بطبيعته قادر على أن يجمع بين الاستمتاع بإشباع الحاجات الجسدية والاستمتاع بإشباع حاجاته الروحية أيضا، وكثيرا ما يمارس المتعتين فى نفس الوقت كما هو الحال حين يكون جائعا فيقوم يجهز لنفسه بعض الشطائر وفنجانا من الكاكاو مثلا، ثم يمسك بكتاب ممتع يقرؤه وهو يقضم قطعة من الشطيرة ويأخذ رشفة من الكاكاو، أو قد يكون فى تعزية فيشرب الشاى المقدم إليه وهو يستمع إلى القرآن الكريم. ترى ما المشكلة؟ إننى لا أحب المتنطسين من أمثال الرصافى الذين لا يهتمون بتأدية العبادات لكنهم، عامدين متعمدين، يعملون على إثارة المشاكل والاعتراضات بحيث يوقفون تقدمنا فى كل المجالات. ثم ألم يقل الرصافى بعظمة لسانه إن محمدا هو أول من فهم التوحيد بين البشر جميعا، وزاد سيادته فتنازل من عليائه وأعطاه خاتم الآيزو وشهد له بالصحة والصواب، فما الذى يا ترى جعله ينقلب على وجهه ويخسر الدنيا والآخرة؟ كذلك ألم يقل إن ما يقوله أو يعمله محمد إنما هو فى الواقع والحقيقة كلام الله وفعله؟ فكيف سولت له نفسه الاعتراض على كل ما يفعله أو يقوله الله؟

والمريب أنه يقترح علينا الأخذ بما يقول إن الألبان قد توصلوا إليه فى موضوع الصلاة من الاكتفاء فيها بالقيام والقعود دون الركوع والسجود معللا ذلك بأن لابسى البناطيل يجدون عنتا فى السجود (ص٤٤٧). يا مسافد المومسات والغلمان، أيعوقك بنطالك عن مواقعة هؤلاء أو أولئك؟ وهل تراك تركت ممارسة الجنس معهم جراء ذلك وتبت إلى الله بفضل البنطلون؟ بالله إنك لرجل سخيف العقل تافه المشاعر ضحل الضمير. وبطبيعة الحال لو فتحنا هذا الباب لكل ملتاث أفاق فلسوف ننتهى بألا تكون هناك صلاة أصلا بأى شكل. ومن المريب أنه، بعدما حمل على الأقوال والحركات فى الصلاة وأكد أن الصلاة هى نشاط روحانى صرف لا يصح اشتراك

الجسد فيه، يدعونا إلى صلاة الألبان حسبما يقول، وهى لا تخلو من الأقوال والأفعال، كل ما هنالك أنها تخلو من الركوع والسجود. فما معنى هذا كله؟ معناه أن الرصافى الخبيث يريد إشاعة الاضطراب فى الدين، والسلام. وعلى هذا فإن لم يتيسر هدم الصلاة بالكلية فلنهدم منها الركوع والسجود. المهم ألا تبقى الصلاة على وضعها الذى شرعه الله لنا وبَلَّغَنَاه رسولُه.

أما تهكمه على السجود فأود أن أوضح أن من يبحث عن عيب فإنه لا بد واجده، والملاحظ على كل حال أن الصلاة تقوم من الناحية الحركية على تنشيط أكبر عدد من المفاصل والعضلات قياما وركوعا وسجودا وجلوسا والتفاتا ثم بعد الصلاة تسبيحا وتحميدا وتكبيرا على الأصابع. وأذكر أنى قرأت فى شبابى أن الأمريكان بلغ، من تحفظهم والنفور من أية كلمة يمكن أن تكون مخجلة ولو على سبيل التأويل البعيد، أنهم كانوا يتحرجون أشد التحرج من نطق كلمة "كرسى" فى حضرة النساء. لماذا؟ لأن النساء حين يجلسن على الكراسى تكون مؤخراتهن راسية عليها وملتصقة بها. فما رأى عمنا الرصافى الملحوس العقل الخبيث النفس البادئ رحلته فى كتابه وفى نيته ذبح الإسلام بكل الطرق، لكنه لخبثه والتواء ضميره يبدأ كل فصل بكلام جميل عن النبى لينتهى الأمر بتشويه كل شىء؟

وبمناسبة المؤخرات وما تثيره عند رصافينا الرهيف الحس كان لى صديق متدين تدينا عقليا صارما ويحب دينه ورسوله أشد الحب ويرى أنه أعظم رجل فى التاريخ، لكنه كان كلما دخل بيت الخلاء ليقضى حاجته شعر بالخزى والخجل والتأفف، ثم كبر ونضج عقله وصار حكيما يعرف فطرة الأشياء التى لا يمكن تجاهلها أو تغييرها أو مخالفتها، ولا معنى للخزى منها، فصار كلما ولج المرحاض يضحك بينه وبين نفسه

وهو يتخلص من الفضلات ويحس بالراحة قائلا: هذا أمر ظريف، ويشكر الله على ذلك كما كان يفعل الرسول عليه السلام. ثم يقارن بين البشر فى هذا الموقف وبين السيارات وهى تنفث العادم. ثم يضحك مرة أخرى عندما يتذكر أن النساء أيضا بما فيهن ملكات الجمال يفعلن هذا. ثم يضحك مرة رابعة حينما يتنبه إلى أن محل الإخراج عندهن هو ومحل الإيلاج قريب من قريب حتى ليكادان يتلاصقان. فيا عم رصافى، الله يهدينا ولا يهديك، الحكاية لا ينقصها تحذلقك السخيف. ثم ما دمت رقيق الإحساس إلى هذا الحد كيف كانت نفسك تطاوعك على مواقعة الغلمان فى أدبارهم وهى موضع القذارة والنتانة يا رجل؟ كذلك كيف لم تنفر من اتخاذ الغلام أمامك وأنت تنكحه وضع الساجد: الاست فوق، والوجه فى الأرض كما تقول على سبيل السخرية من المصلين ومن الصلاة؟ خيبة الله عليك!

انتقاد القرآن: ويستمر الرصافى فى الهدم والتدمير فيقول إن آيات القرآن ليست كلها صالحة لقراءتها فى الصلاة. إى والله هذا ما يقوله: فآيات التشريع لا تصلح، والآيات الخاصة بشؤون النبى لا تصلح، والآيات القصصية لا تصلح، والآيات المنسوخة لا تصلح، والآيات التى تتحدث عن الكفار والمنافقين لا تصلح، وسور كـ"العاديات" و"الانشراح" و"الضحى" و"تبت يدا أبى لهب" لا تصلح. ذلك أن الذى يصلح من القرآن للصلاة به لا بد أن يكون خاصا بالله واليوم الآخر وما أشبه (ص٤٥٨ وما يليها). هكذا أصدر هذا الملتاث العقل فرمانه بما تصح القراءة به وما لا تصح. أليس القرآن كله من عند الله أو من عند محمد، الذى يعبر عن الله حسب تفسير الرصافى السخيف العقل؟ فكيف تكون نصوص من القرآن لا تصلح للقراءة بها ونحن واقفون فى حضرة الله سبحانه صاحب القرآن أو رب محمد الذى ألف القرآن وكان

القرآن الذى ألفه تعبيرا عن ذلك الإله؟ إننا حين نقرأ قصص الأمم السابقة سوف نستخلص الدرس منها ونعرف أن الكفر والعناد يؤدى إلى الهلاك، وحين نقرأ آيات التشريع تثبت فى أذهاننا أحكامها، ونعرف كيف خفف الله عنا تشريعات الأمم السابقة الثقيلة التى تؤود الظهر واستبدل لنا بها أحكاما أخفَّ وأنسبَ لظروفنا وأقدر على مماشاة التطور، وحين نقرأ الآيات المنسوخة نعرف كيف تطورت بعض الأمور فى ديننا جريا على سنة التدرج حتى إذا وصلنا إلى الوضع النهائى أخذت الآيات وضعها الثابت الذى سوف تبقى عليه، فعرفنا طبيعة البشر وطبيعة الحياة وما إلى ذلك، فكانت قراءتنا لأى نص قرآنى خيرا وبركة على عكس ما يقوله الرصافى المتمرد العاتى المعجب بعقله المريض. ألم أقل إن الرصافى يتصرف تصرف الثور فى محل التحف والعاديات الثمينة فينطلق ينطح ويحطم بأظلافه تلك النوادر البديعة غير واع بما يصنع؟ وهل يعى الثِّيَرَةُ ما يصنعون؟

وهو (ص٦٩٠ وما يليها) يخلط خلطا شنيعا فيؤكد أن العمرة والحج شىء واحد، وأن الفرق الوحيد بينهما هو أن الحج له موسم معين، أما العمرة فيمكن عملها فى أى وقت من العام بما فى ذلك وقت الحج. وهذا جهل فاضح، فالحج فرض، أما العمرة ففى الرأى الغالب سنة مؤكدة وليست فرضا. وليس فى العمرة من الحج سوى السعى بين الصفا والمروة والطواف حول الكعبة ثم لا شىء غير ذلك، أما الحج ففيه علاوة على هذا الوقوفُ بعرفة والمبيتُ بمزدلفة والمبيتُ بمنى أيام التشريق ورمىُ الجمار... إلخ. وينطلق فيدهس فى طريقه المنطق والعقل والصدق قائلا إن الحج والعمرة، كما هما فى الإسلام، عبادتان وثنيتان، وإن المسلمين الأوائل اعترضوا على النبى صلى الله عليه وسلم حين وجدوه يأمرهم بالسعى بين الصفا والمروة، إذ كانوا يفعلون ذلك فى

الجاهلية، وكان على كل من التلين صنم يتمسحون به. والواقع أن الرصافى يكذب، فليس فى الحج والعمرة أية شبهة وثنية، وبالذات بعدما أزيلت الأصنام من الكعبة تماما وحُطِّمَتْ تحطيما. لقد أفهمهم الرسول عليه السلام أن السعى بين التلين يخلو من الوثنية خلوا تاما، واقتنع الصحابة بهذا بعدما فهموا أن العبرة ليست فى السعى بل فى وجود الأصنام والتمسح بها والاعتقاد فى وساطتها بينهم وبين الله. وما دام قد زال هذا كله من المكان ومن العقل والقلب والضمير فلا حرج إذن. فالمهم هو طهارة النفس وتغير الاعتقاد، وقد تم هذا، ومن ثم فلا مشكلة. أما إصرار الكذاب الرصافى على أن الحج والعمرة عبادتان وثنيتان رغم اختفاء الأصنام من البيت الحرام ومن الضمائر فيدل على أنه شيطان مريد قد دخل الموضوع وفى عزمه الإساءة بكل سبيل إلى دين الله ورسول الله، الذى تغنى فى البداية بعظمته التى لا تدانيها عظمة وعبقريته فى التوصل إلى التوحيد المطلق، وهو التوحيد الوحيد النقى، ثم ها هو ذا فى كل منعطف من كتابه يلعق كل ما قاله ويتهم الرسول بالحفاظ على الوثنية وطقوسها وعباداتها. بل هو يؤكد أن الكعبة كانت طول عمرها بيتا للأوثان، ولم تكن يوما من الأيام بيتا لله سبحانه، بل ليس لإبراهيم بها صلة ولا بالعرب بتاتا.

وهذا الكلام الأخير هو ما قاله طه حسين فى كتابه: "فى الشعر الجاهلى"، إذ قال إن إبراهيم لم يزر بلاد العرب بل هذه أساطير استغلها الإسلام لأسباب سياسية. وممن قال بذلك من المستشرقين لامنس وإدمون باور (انظر كتابى: "مصدر القرآن- دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى"/ مكتبة زهراء الشرق/ القاهرة/ ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م/ ٥٥). وحجة الرصافى فى إنكار مجىء إبراهيم إلى مكة هو أن ذلك شىء لم يثبته التاريخ، وكأنه يؤمن بالتاريخ ولم يكرر أنه لا يصدِّق به بل هو كله

فى نظره كذب وتدليس إلا ما شذ منه، وهذا أندر من الكبريت الأحمر. كذلك فإن سنوك هرجرونه ولويس شبرنجر متفقان على أن الربط بين إبراهيم والكعبة كان اختراعا شخصيا لمحمد، وقد استخدم ذلك كوسيلة لتحرير الإسلام من اليهودية. ويقول شبرنجر إن محمدا "بهذه الكذبة... أعطى للإسلام كل ما يحتاجه الإنسان وما يفرق بين الديانة والفلسفة. لقد أعطاه قومية وطقوسا وذكريات تاريخية وأسرارا مع ضمان لدخول الجنة، وفى نفس الوقت سالبا منه وعيه ووعى الآخرين" (كتابى: "مباحث فى التشريع الإسلامى"/ مكتبة الشيخ أحمد/ ١٤٣٨هـ- ٢٠١٧م/ ٨٩-٩٠). ومعنى هذا أن محمدا قد كذب حين ربط بين إبراهيم وبين العرب والكعبة. وهذا الاتهام هو وغادة ووضاعة. إن محمدا لا يكذب ولا يدلس، إذ هو إنسان كريم نبيل قبل أن يكون نبيا رسولا. وإذا كان كتابهم يصف الأنبياء بالزنا ومضاجعة المحارم والقتل والكذب والمعاونة على عبادة الأوثان والتزوج بالوثنيات والسُّكْر البشع والانطراح العارى على الأرض جراءه وغير ذلك فهذا شأنهم. أما نحن فلا نتصور ولا فى الأحلام أن يُقْدِم نبينا الشريف العظيم على الكذب. ثم إن النبى ليس أول من قال ذلك، بل كانت العرب تقوله قبله بأزمان كما يقول المستشرق ذاته قبل ذلك مباشرة. كما سمع اليهود والنصارى هذا مرارا وتكرارا فى حياته، فلماذا لم يعترضوا على هذا الكلام؟ هل أصابهم خرس فعجزوا عن فتح أفواههم؟ وفى كتابهم المقدس أن العرب أبناء إسماعيل. وفى كتاباتهم القديمة كثيرا ما يسمون العرب بـ"الإسماعيليين". وإسماعيل هو ابن إبراهيم. وكثيرا ما شغب الشعوبيون على العرب فوصفوهم بأبناء الأَمَة، يقصدون هاجر أُمّ إسماعيل، وتشامخوا عليهم بأنهم هم أبناء سارة الحرة أُمّ إسحاق. فما المشكلة

فى أن يذهب إبراهيم إلى الحجاز زائرا حيث كان ابنه إسماعيل يعيش؟ وما المشكلة فى أن يبنى هناك بيتا لعبادة الله؟ وكان زيد بن عمرو بن نفيل يقول:

عُـــذْتُ بِمَـــنْ عـــاذَ بِـــهِ إِبْـــراهِمُ   مُـــسْتَقْبِلَ الكَعْبَـــةِ وَهْـــوَ قـــائِمُ
يَقُـــولُ: أَنْفِـــى لَـــكَ عـــانٍ راغِـــمُ   مَهْـــما تُجَـــشِّمْنى فَـــإِنّى جَاشِـــمُ

والله إنى لآسَى على هؤلاء الكذابين الوقحين إذ يرمون محمدا عليه الصلاة والسلام بالكذب، وهم أهل الكذب وأصله وذريته رضعوا لِبَانَه حتى صار يجرى منهم مجرى الدم فى العروق. إن هذا الكذاب يظن أن كل من يخاطبهم هم على شاكلته فى الكذب أو أغبياء سوف يبتلعون ما يردده من سخف دون تفكير أو تدقيق. فمعنى كلامه هو أن محمدا قد أسند بناء الكعبة (كذبا طبعا حسب زعم المستشرق وتدليسه) إلى إبراهيم بعدما يئس من إيمان اليهود به. أى أن ذلك قد تم فى المدينة. فماذا هو قائل فى الآيات التالية من سورة "إبراهيم"، وهى مكية، أى نزلت قبل أن يصطبح النبى الكريم بوجوه اليهود العكرة القبيحة فى المدينة؟ قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِى وَبَنِى أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَى وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ" (إبراهيم/ ٣٥-٤١).

كما تطالعنا فى سورة "الحج" الآيات التالية (٢٦- ٢٩)، و"الحج" قد نزلت قبل اتصال النبى عليه السلام باليهود فى يثرب واصطدامه بهم: "وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ".

ثم متى كان الإسلام مرتبطا باليهودية حتى يفكر محمد فى الانفصال عنها؟ إن القرآن منذ وقت مبكر من العهد المكى يرجم اليهود بالحجارة المخزية التى تنقض على رؤوسهم فتَبْهَتهم فلا يستطيعون رَدَّها ولا هم يُنْصَرون. فكيف يقول هذا الكذاب ما قال؟ ثم إن الشقىَّ لا يكتفى بهذا بل يَزُنّ النبى الأكرم بالكذب. خيبة الله على كل كذابٍ أَشِرٍ! لقد كانت يهود، كما سبق القول، تسمع هذا الذى يقوله القرآن والنبى عن رحلة إبراهيم إلى الحجاز وبنائه مع ابنه البكر إسماعيل الكعبة، فلماذا يا ترى لم يفتحوا فمهم ولو بآهة تعجب؟ ثم ما قول المستشرق اللئيم فى أن بعض كبار يهود فى المدينة قد أسلموا ودخلوا فى دين محمد، الذى يتهمه مستشرقنا الخبيث بالكذب؟ على أن الأمر لم يقف عند هذا المدى، إذ لجأ عبد الله بن سلام إلى حيلة يفضح بها خبث يهود ويعرِّى سوآتهم النفسية والأخلاقية، فاختبأ خلف باب هناك، وطلب من النبى أن يسألهم عنه وعن رأيهم فيه، فما كان منهم إلا أن أخذوا يغرقونه بعبارات المدح والثناء لينقلبوا على الفور بعدما برز من مخبئه وعالنهم بأنه صار مسلما، إ ذ انقضوا فى التو واللحظة يُفِيضون عليه من جَعْبَة شتائمهم وسبابهم كل ما لذ وطاب لألسنتهم الزفرة ونفوسهم الخربة وضمائرهم النتنة، وذلك كله دون أن يشعروا بذرة من الخجل.

كذلك كيف يقيم المستشرق الأثيم الزنيم من اليهود مقياسا يقيس به صدق محمد واستقامة ضميره، واليهود بوجه عام يضرب بهم المثل فى تواريخ الأمم جميعا فى الكذب واللؤم والخبث واللف والدوران وعدم المبالاة بالخلق الكريم؟ على أنْ ليس هذا كل شىء، إذ إن كتابهم ذاته هو أول من يصب عليهم اللعنات صبًّا جزاء عنادهم وتصلب رقابهم ووقاحتهم مع ربهم ورسلهم، وينهال عليهم بالشتائم والتهديدات، ويتوعدهم بسوء المصير دائما أبدا. ولا يكفّ الله فيه عن سبهم والتعبير عن غيظه منهم واحتقاره لهم وكراهيته إياهم وشماتته فيهم. وإذا كان محمد قد أراد الانفصال عن اليهودية فلماذا يا ترى ظل القرآن وظل هو نفسه يتحدثان عن أنبياء بنى إسرائيل بكل إجلال كما كان يفعل من قبل؟

ثم ما دام محمد يسرق دينه من عند يهود وأمثالهم فلِمَ يا ترى ربط نفسه وقومه بإبراهيم، وصورة إبراهيم، حسبما يرسمها العهد القديم، لا تشرّف بحال؟ جاء فى الإصحاح العشرين من سفر "التكوين": "١وَانْتَقَلَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ هُنَاكَ إِلَى أَرْضِ الْجَنُوبِ، وَسَكَنَ بَيْنَ قَادِشَ وَشُورَ، وَتَغَرَّبَ فِي جَرَارَ. ٢وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ سَارَةَ امْرَأَتِهِ: «هِيَ أُخْتِي». فَأَرْسَلَ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ جَرَارَ وَأَخَذَ سَارَةَ. ٣فَجَاءَ اللهُ إِلَى أَبِيمَالِكَ فِي حُلْمِ اللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: «هَا أَنْتَ مَيِّتٌ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ الَّتِي أَخَذْتَهَا، فَإِنَّهَا مُتَزَوِّجَةٌ بِبَعْل». ٤وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ أَبِيمَالِكُ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، أَأُمَّةً بَارَّةً تَقْتُلُ؟ ٥أَلَمْ يَقُلْ هُوَ لِي: إِنَّهَا أُخْتِي، وَهِيَ أَيْضًا نَفْسُهَا قَالَتْ: هُوَ أَخِي؟ بِسَلاَمَةِ قَلْبِي وَنَقَاوَةِ يَدَيَّ فَعَلْتُ هذَا». ٦فَقَالَ لَهُ اللهُ فِي الْحُلْمِ: «أَنَا أَيْضًا عَلِمْتُ أَنَّكَ بِسَلاَمَةِ قَلْبِكَ فَعَلْتَ هذَا. وَأَنَا أَيْضًا أَمْسَكْتُكَ عَنْ أَنْ تُخْطِئَ إِلَيّ، لِذلِكَ لَمْ أَدَعْكَ تَمَسُّهَا. ٧فَالآنَ رُدَّ امْرَأَةَ الرَّجُلِ، فَإِنَّهُ نَبِيّ،

فَيُصَلِّى لأَجْلِكَ فَتَحْيَا. وَإِنْ كُنْتَ لَسْتَ تَرُدُّهَا، فَاعْلَمْ أَنَّكَ مَوْتًا تَمُوتُ، أَنْتَ وَكُلُّ مَنْ لَكَ».

٨فَبَكَّرَ أَبِيمَالِكُ فِى الْغَدِ وَدَعَا جَمِيعَ عَبِيدِهِ، وَتَكَلَّمَ بِكُلِّ هذَا الْكَلاَمِ فِى مَسَامِعِهِمْ، فَخَافَ الرِّجَالُ جِدًّا. ٩ثُمَّ دَعَا أَبِيمَالِكُ إِبْرَاهِيمَ وَقَالَ لَهُ: «مَاذَا فَعَلْتَ بِنَا؟ وَبِمَاذَا أَخْطَأْتُ إِلَيْكَ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيّ وَعَلَى مَمْلَكَتِى خَطِيَّةً عَظِيمَةً؟ أَعْمَالًا لاَ تُعْمَلُ عَمِلْتَ بِى». ١٠وَقَالَ أَبِيمَالِكُ لإِبْرَاهِيمَ: «مَاذَا رَأَيْتَ حَتَّى عَمِلْتَ هذَا الشَّىء؟» ١١فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «إِنِّى قُلْتُ: لَيْسَ فِى هذَا الْمَوْضِعِ خَوْفُ اللهِ الْبَتَّةَ، فَيَقْتُلُونَنِى لأَجْلِ امْرَأَتِى. ١٢وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضًا هِى أُخْتِى ابْنَةُ أَبِى، غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتِ ابْنَةَ أُمِّى، فَصَارَتْ لِى زَوْجَةً. ١٣وَحَدَثَ لَمَّا أَتَاهَنِى اللهُ مِنْ بَيْتِ أَبِى أَنِّى قُلْتُ لَهَا: هذَا مَعْرُوفُكِ الَّذِى تَصْنَعِينَ إِلى: فِى كُلِّ مَكَانٍ نَأْتِى إِلَيْهِ قُولِى عَنِّى: هُوَ أَخِى».

١٤فَأَخَذَ أَبِيمَالِكُ غَنَمًا وَبَقَرًا وَعَبِيدًا وَإِمَاءً وَأَعْطَاهَا لإِبْرَاهِيمَ، وَرَدَّ إِلَيْهِ سَارَةَ امْرَأَتَهُ. ١٥وَقَالَ أَبِيمَالِكُ: «هُوَذَا أَرْضِى قُدَّامَكَ. اسْكُنْ فِى مَا حَسُنَ فِى عَيْنَيْكَ». ١٦وَقَالَ لِسَارَةَ: «إِنِّى قَدْ أَعْطَيْتُ أَخَاكِ أَلْفًا مِنَ الْفِضَّةِ. هَا هُوَ لَكِ غِطَاءُ عَيْنٍ مِنْ جِهَةِ كُلِّ مَا عِنْدَكِ وَعِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ، فَأُنْصِفْتِ». ١٧فَصَلَّى إِبْرَاهِيمُ إِلى اللهِ، فَشَفَى اللهُ أَبِيمَالِكَ وَامْرَأَتَهُ وَجَوَارِيَهُ فَوَلَدْنَ. ١٨لأَنَّ الرَّبَّ كَانَ قَدْ أَغْلَقَ كُلَّ رَحِمٍ لِبَيْتِ أَبِيمَالِكَ بِسَبَبِ سَارَةَ امْرَأَةِ إِبْرَاهِيمَ".

فهل يجد القارئ فى صورة إبراهيم التى رسمها له العهد القديم ما يغرى أحدا بالانتساب إليه والافتخار بذلك الانتساب؟ لقد سلَّم امرأته للملك دون أدنى مقاومة بل دون أن يفتح فمه بكلمة توضيح، ودعنا من كلمة اعتراض. ثم إن القصة، على عادة العهد القديم فى ترديد ما لا يقبله عقل ولا منطق، تقول إن الله، لدى دعاء إبراهيم

لأبيمالك، قد فتح رحم نسائه بعد أن كان قد أغلقها بسبب أخذه سارة من زوجها. فتعالَوْا لنناقش هذا الأمر بالمنطق: لقد أخذ أبيمالك سارة دون أن يعلم أنها زوجة إبراهيم. بل إن إبراهيم قد أخبره أنها أخته، فكان هذا الكلام سببا فى زيادة تضليل الملك. ومن ثم فإبراهيم لا الملك هو المسؤول. ثم إن الأمر لم يستغرق سوى ليلة واحدة أعادها الملك بعدها إلى زوجها دون أن يمسها لا بخير ولا بشر. فلِمَ يعاقبه الله إذن؟ والطريف فى الأمر أن الله يقول لأبيمالك إنه ليس له ذنب فى الأمر. بل يزيد فيقول إنه منعه من الاقتراب من سارة منعًا. أى أنه لم يخطئ لا بالنية ولا بالفعل. ومرة أخرى نتساءل: فلم يعاقبه إذن؟ كما أن الله قد هدده بالموت، وليس بإغلاق أرحام نسائه. وفوق هذا فهو لم يشعر بهذا العقاب الأخير، وبخاصة أنه لم يمر سوى ليلة واحدة مما لا يمكِّنه أن يتنبه لتلك العقوبة لو كانت قد حدثت فعلا. من هنا كان سخفا أن يجعل النص منها قضية القضايا. ثم إن الملك يسترضى إبراهيم ببعض الماشية. فهل يصح أن يقبل نبى مثل هذا الاسترضاء تعويضا عن امتلاخ زوجته منه؟ يا لها من نبوة! إننا، بطبيعة الحال، لا نؤمن بما يقوله العهد القديم عن إبراهيم عليه السلام، بل نرى فيه نبيا كريما من أنبياء الله العظام، لكننا نجارى هؤلاء المستشرقين التعساء فى منطقهم وتفكيرهم.

وأيا ما يكن كلام معروف الرصافى فى إبراهيم عليه السلام فإن إصراره على أن الحج والعمرة فى الإسلام شعيرتان وثنيتان هو إصرار إجرامى. كما أن استلام الحجر الأسود عنده هو ممارسة للوثنية وإشراك بالله. وما يقوله الرصافى هو متابعة لما يقوله كثير من المستشرقين والمبشرين (كتابى: "مصدر القرآن"/ ٥٦). وهى أسطوانة مشروخة لا يتوقفون عن تشغيلها وإزعاجنا بها. ومعروف أن الوثنية هى أن تكون

هناك أوثان يؤمن الإنسان بها بوصفها أربابا أو وسطاء وشفعاء عند الله. فأين الأوثان فى الكعبة بعد الإسلام؟ لقد دمرها الرسول فى مكة وفى كل مكان من بلاد العرب، وتبين بهذا لمن كانوا يعبدونها أنها لا تضر ولا تنفع، وإلا لكانت قد نفعت نفسها ومنعت المسلمين من تحطيمها، ولضرت من قاموا بذلك التحطيم. لكن الرصافى المجرم يصر على أنها "عنزة ولو طارت". ويزيد موقفَه إجراما أنه قال فى أول الكتاب إن محمدا هو الإنسان الوحيد فى التاريخ الذى أتى بالتوحيد المطلق الصافى النقى مائة فى المائة، إذ كيف تحول كل هذا التحول؟ الواقع والحقيقة أنه شرع فى تأليف الكتاب وقد وضع فى ذهنه أن يشكك فى كل شىء فى الإسلام، لكن بعدما ظن أنه خدر قراءه المسلمين بالكلمتين اللتين كتبهما فى أول كتابه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا، ولم تنته فصول مسرحية الرصافى المخاتلة المختلة، إذ يقول إن المسلمين هتكوا حرمة الشهر الحرام فى إحدى السرايا أوائل الهجرة (ص٤٧٤- ٤٧٥)، وهَتَكَ النبىُّ وأصحابُه حرمةَ مكة يوم الفتح (ص٤٧٥- ٤٧٦). وإذا كان القرآن يرد على تشنيع المشركين على المسلمين لمهاجمتهم قافلة قرشية فى الشهر الحرام بأن الصد عن سبيل الله والكفر به وإخراج أهل المسجد الحرام منه عَنْوَةً أكبر من ذلك فإن المعاند الأعظم يرد قائلا إن هذا من الوجهة الأخلاقية غير حميد، إذ لا يصح للبخيل الذى يعيِّره أحدهم بشُحِّه أن يقول له: لكنك أبخل منى. وهذا الرد من الرصافى متهافت أشد التهافت، فنحن هنا لسنا فى مقام كرم وشح بل فى مقام عدوانٍ جلفٍ مجرمٍ لم تراعِ فيه قريش إِلًّا ولا ذمةً، ومن ثم ليس من حقها التمسح فى الأشهر الحُرُم والمسجد الحرام، فقد هتكوا هُمْ كل ذلك فى عدوان سافر آثم ليس له أى مبرر على الإطلاق،

فكان لا بد أن يذوقوا مغبة عدوانهم وإجرامهم. ولتوضيح الأمر أكثر أضرب مثلا بشخص مصرى كنت أعرفه أثناء إعارة فى بلد عربى، وكان هذا الشخص يعمل معنا فى الجامعة هناك، ويشخر ويسب الدين ويذكر أمه بكل سوء ضاحكا، وإذا أساء إلى أحد، وكثيرا ما كان يفعل، وانكشفت إساءته وسُقِط فى يده كان يأتى ويتمحلس له قائلا: طيب. أنا إنسان سافل، فهل يصح، وأنت رجل كريم، أن تنزل إلى مستواى؟ والرد طبعا هو أن الرجل الكريم لن ينزل إلى مستوى هذا السافل المنحط. وبهذا كان ينجو من المواجهة، لكن ذلك لم يكن يمنعه من التآمر على هذا أو ذاك والسعى عند مسؤولى الجامعة التى كنا نعمل بها للإضرار بمن يكرهه لطهارته ورقيه مقابل حقارته هو ووساخة أخلاقه ونفسيته.

وهذه رواية الواقعة من تفسير الطبرى حتى يتضح الأمر بتفاصيله ويعلم القراء مدى التواء نية الرصافى الذى يتظاهر برهافة الحس والغيرة على الأخلاق مع أن أهم ما يميزه هو أنه بلا أخلاق: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش فى رجب مَقْفَلَه من بدر الأولى، وبعثَ معه بثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابًا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحدًا... فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب ونظر فيه، فإذا فيه: "إذا نظرتَ إلى كتابى هذا فَسِرْ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصَّد بها قريشًا وتعلَّمْ لنا من أخبارهم". فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال: "سمعا وطاعة"، ثم قال لأصحابه: قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى إلى نخلة فأرصد بها قريشًا حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهانى أن أستكره أحدًا منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك

فليرجع. فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. فمضى ومضى معه أصحابه، فلم يتخلَّف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمَعْدِن فوق الفُرْع يقال له: بُحْران أضلّ سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا عليه يعتقبانه، فتخلَّفا عليه فى طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عيرٌ لقريش تحمل زبيبًا وأدَمًا وتجارةً من تجارة قريش فيها منهم عمرو بن الحضرمى وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميان والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة. فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريبًا منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وقد كان حَلَقَ رأسه، فلما رأوه أَمِنُوا وقالوا: عُمّار (أى معتمرون لا يُخْشَى أذاهم)! فلا بأس علينا منهم. وتشاور القوم فيهم، وذلك فى آخر يوم من جُمَادَى، فقال القوم: والله لئن تركتم القومَ هذه الليلة ليدخُلُنَّ الحرم فليمتنعُنَّ به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلُنَّهم فى الشهر الحرام! فتردّد القوم فهابوا الإقدام عليهم، ثم شَجُعوا عليهم، وأجمعوا على قَتْل من قدروا عليه منهم وأَخْذ ما معهم. فرمى واقدُ بن عبد الله التميمى عمرَو بن الحضرمى بسهم فقتله، واستأسرَ عثمانُ بن عبد الله والحكمُ بن كيسان، وأفلت نوفل بن عبد الله فأعجزهم.

وقدم عبد الله بن جحش وأصحابه بالعِير والأسيرين، حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة. وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أنّ عبد الله بن جحش قال لأصحابه: إنّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما غنمتم الخمُس. وذلك قبل أن يُفْرَض الخمس من الغنائم، فعزل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خُمُس العير، وقسم سائرها على أصحابه. فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام! فوقف العيرَ والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا.

فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك سُقِط فى أيدى القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنَّفهم المسلمون فيما صنعوا وقالوا لهم: صنعتم ما لم تؤمروا به، وقاتلتم فى الشهر الحرام ولم تُؤْمَروا بقتال! وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدمَ وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال. فقال من يردُّ ذلك عليهم من المسلمين ممن كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا فى جمادى. وقالت يهود تتفاءل بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم: عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد الله! "عمرو": عمرت الحرب! و"الحضرمى": حَضَرت الحربُ! و"واقد بن عبد الله": وقدت الحرب! فجعل الله عليهم ذلك وبهم. فلما أكثر الناسُ فى ذلك أنزل الله جل وعز على رسوله: "يسألونك عن الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيه"، أى عن قتالٍ فيه "قل قتال فيه كبيرٌ" إلى قوله: "والفتنة أكبر من القتل". أى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام. وإخراجُكم عنه، إذ أنتم أهله وولاته، أكبرُ عند الله مِنْ قَتْل من قتلتم منهم. "والفتنة أكبر من القتل"، أى قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، وذلك أكبر عند الله من القتل. "ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردُّوكم عن دينكم إن استطاعوا". أى هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين. فلما نزل القرآن بهذا من الأمر، وفرَّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَق، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العيرَ والأسيرين". فهذه هى الحكاية التى ملأ الرصافى الدنيا عجيجا وضجيجا بسببها يريد إيهامنا أنه يعمل ذلك نصرة للأخلاق. أية أخلاق يا عديم الأخلاق؟

وأما بالنسبة لفتح مكة فبناء على رؤية الرصافى كان على الرسول والصحابة أن يتركوا مشركى مكة يرتكبون فى حقهم كل ما يريدون من عدوان وإجرام وتقتيل دون

أن يدخلوا عليهم مدينتهم بحيث يظل النزاع بين الظالمين المكيين والمظلومين المسلمين مستمرا إلى الأبد لا يُحْسَم. لقد كان لا بد من كسر هذه الدائرة الجهنمية بدخول مكة، وقد تم ذلك بأقل قدر من الخسائر فى المال والأرواح. ولو أن المسلمين أبادوا المكيين لما لامهم أحد، فقد نقضوا العهد الذى كان بينهم وبين النبى والمسلمين، وهو عهد الحديبية المجحِف بالمسلمين أشد الإجحاف والذى أملاه القرشيون بأنفسهم وتعنتوا فيه تعنتا فظيعا، ومع هذا خاسُوا فيه وقُتِل بعض حلفاء الرسول والمسلمين. ثم إنهم قد أخرجوا المسلمين من ديارهم واستولَوْا على بيوتهم، فضلا عن تنكيلهم بهم وإيذائهم لهم ومصادرة حقهم فى الاعتقاد بالله الواحد الأحد، وقتلهم لمن قتلوا منهم. فلو أن النبى أمر بسحق أهل مكة لما ذرف عليهم عاقل صاحى الضمير دمعة. ولقد رأيت فى الكتب الاستشراقية التى تناولت هذا الموضوع إجماعا على العظمة المحمدية التى حجزت بين النبى وبين إبادة خضراء قريش. لكن الرصافى الخبيث يترك هذا كله ويذهب يولول على قريش ويتهم المسلمين بالظلم والخروج على تقليد الأشهر الحرم وحرمة مكة. فانظر كيف ينحرف عقل ذلك الرجل وتنتكس مشاعره فيترك المجرم دون أن يوجه له ولو كلمة عتاب خفيفة، وفى ذات الوقت يصب سخطه وتقريعه العنيف على المسلمين، الذين أُجْرِم فى حقهم فطُرِدوا من ديارهم وسُلِبَت أموالهم وقُتِل منهم من قُتِل وعُذِّب من عُذِّب وصودرت بيوتهم دون أدنى سبب من قِبَلِهم، فلم يؤثر هذا كله فى قلب محامى الشيطان أتفه تأثير.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فقد كنت أتحدث إلى أستاذى المشرف علىَّ فى جامعة أكسفورد فى أواسط سبعينات القرن الماضى ونحن خارجان من عشاء بالكلية ليلا، وأخذَنا الحديث إلى النبى عليه السلام وحروبه، فقلت: إن المستشرقين يعيبون

عليه أنه كان يرد على العدوان بمثله ويحمل السلاح ويمارس القتال، فهل كانوا يريدون أن يكون مصيره كمصير المسيح حسب اعتقادهم فيُقْتَل ويذهب دمه هدرا حتى يشمتوا به ويضحكوا ملء أكمامهم؟ فما كان منه، وهو المصرى المسلم الأصل واسمه المركب يمثل اسمين من أسماء الرسول عليه السلام، إلا أن قال: إن هذا يتوقف على ما نريده من النبى. يقصد أن المراد من النبى هو ألا يحمل سلاحا ويكتفى بالدعوة. وبهذا يكون الأستاذ المشرف قد أعادنا إلى نقطة الصفر فى الحوار. فكما نرى فالاتجاه عنده وعند الرصافى واحد. وعلى كل حال فديننا يأمرنا برد العدوان بمثله ولكنه ينهانا عن البدء بالعدوان، ويحذرنا من هتك حرمة الأشهر الحرم أو المسجد الحرام، لكن إذا اعتدى علينا معتدٍ فى شهر حرام أو عند المسجد الحرام فعلينا بالرد، وإلا أُكِلْنا وضِعْنا غير مأسوف ولا مَبْكِيٍّ علينا. أما المستشرقون والمبشرون وذيولهم منا فيريدون أن يظل المسلمون يتلقون الصفعات على وجوههم وأقفائهم والركلات فى بطونهم وأدبارهم دون أن يردوا.

وبعد أن نفث الرصافى من سمومه فادعى أن الحج كله شعائر وثنية زاد فقال إنه كله شر وأذى. فالناس فى موسم الحج يموتون بالألوف بسبب الأمراض الناشئة عن اللحوم التى تُتْرَك فى العراء تنتن وتتعفن وتكون مصدرا للأوبئة، بالإضافة إلى الخسائر المالية الرهيبة الناتجة عن ذبح آلاف الرؤوس من الأغنام ودفنها بعد الذبح مباشرة منعا لتفشى الأمراض كما وضحنا، وبذلك لا ينتفع أحد بهذه اللحوم، فتضيع الأموال التى اشْتُرِيَتْ بها فى الهواء. وهو يرى أن هذا جنون من المسلمين (ص٤٨٤ فصاعدا). ونحن معه فى أن المسلمين متخلفون تخلفا شديدا ويتخبطون فى تأدية شعائر الحج، ويموت كل عام بعض الحجاج، وإن كانت الأعداد الآن، إن كانت هناك وفيات، قد قتل،

وتكون بسبب الزحام أو الحرائق لا بسبب الأوبئة، فقد اختفت الأوبئة بحمد الله مع التقدم الطبى وسهولة الانتقال من مشعر إلى آخر بشىء كبير من السلاسة لمسته وأنا أحج فى تسعينات القرن الماضى عدة مرات أنا وأسرتى. وقد تقدمت الأمور فى العقود الأخيرة، وصار الحج أيسر وأيسر وأيسر. وأما الذبائح فقد قرأت كثيرا عن هذا الذى يقول الكاتب، ولكن الأمر تغير الآن وصارت هناك مؤسسات حكومية تقوم بالذبح فى مجازر منضبطة وتوزيع اللحوم على الفقراء فى بلاد المسلمين كلها حيث يحتاج الناس إلى الطعام فلا يُرْمَى من الأضاحى شىء كما كان يقع قبلا، وهو ما نادى به الرصافى وغيره، وبحمد الله قد تحقق. والمشكلة إذن فى المسلمين وتخلفهم، وليس فى الحج كما يرمى الرصافى إلى ذلك، وكأنى به يريد أن يقول: ألغوا الحج، فهو عبادة وثنية، ولا يأتى من ورائها إلا كل شر.

أما ما يقوله البعض من أن الحج هو بمثابة مؤتمر سنوى يجتمع فيه المسلمون لتدارس أحوال العالم الإسلامى والقضاء على مشاكله فإن الرصافى يسخر منه سخرية بالغة، وله الحق، فما سمعنا بحج نوقشت فيه أحوال المسلمين، بل يقتصر الحجيج دائما فى كل عام طوال القرون المنصرمة منذ فرض الحج فى الإسلام حتى الآن على أداء المناسك المعروفة ثم ينصرفون من حيث أَتَوْا. ولا يجهل أحد أن دول العالم الإسلامى كلها تقريبا خاضعة على نحو أو على آخر لسيطرة القوى الكبرى، ولا تستطيع أن تخرج عما تأمرها به إلا فيما لا يضر مصالح تلك الدول فى شىء. ومع هذا فإنى معه فى اقتراحه بعقد مؤتمر عقب الحج يتشاور فيه المسلمون فيما يشغلهم من مشاكلَ وأمانىَّ ومطامحَ وما أشبه رغم أن المسلمين، كما قلت، مقيدون بما تمليه عليهم القوى الكبرى، ومن الصعب إفلاتهم من هذه القيود إلا فيما لا يضر تلك القوى حسبما أشرت. ومع هذا فلن

نخسر شيئا بتنفيذ هذا المقترح. لكن فات الرصافى مع ذلك أن الحج فرصة لتلاقى المسلمين العاديين من كل أنحاء الأرض حيث تتاح الفرصة ليرى الحاج تنوع جنسيات المسلمين وأشكالهم وتصرفاتهم وملابسهم وأطعمتهم وتقاليدهم ويشعر أنه ينتمى إلى كيان كبير منتشر فى كل زوايا الأرض كما تنبأ به الرسول عليه السلام. صحيح أن قلة المدة الزمنية التى يقضيها المسلمون فى تأدية مناسك الحج وكثرة أعداد الحجيج وارتباطهم بخطة منظمة فى التحرك والانتقال والتوقف والنزول من شأنها تقييد حركة الحجاج وعدم الاستفادة المنتظرة من تلك الفرصة، لكنْ شىء خير من لاشىء.

إذن فالحج عند الرصافى ليس سوى شعائر وثنية فى الأصل أخذها محمد عن الجاهليين وأقرها وأبقاها على ما كانت عليه مدعيا، كما كانت العرب تقول، أن إبراهيم هو منشئها رغم أن إبراهيم لا علاقة له بالعرب ولم يثبت تاريخيا أنه أتى إلى بلادهم. والسبب الذى حدا بمحمد إلى الزعم بأن إبراهيم هو أبو العرب حرصه على ألا ينفِّرهم من دعوته. وأما الحج فإن الدافع الذى دفعه إلى تبنيه وإقراره هو أنه كان مصدرا من مصادر الرزق الرئيسية لقومه. فمن حبه لقومه لم يشأ أن يلغيه بل تبناه وادعى أن الكعبة والبيت الحرام من بناء إبراهيم وإسماعيل وأن الحج عبادة إبراهيمية. فالأمر كله مجرد دعاوى ومزاعم ليس لها أصل أو حقيقة. وكما نرى فالصورة التى يقدمها لنا الرصافى عن محمد والنبوة والإسلام صورة شديدة القتامة، إذ الأمر كله عنده لا يعدو أن يكون لعبا بالبيضة والحجر، ولكن على نطاق قومى وعالمى.

ويتناول د. محمد بيومى مهران فى الجزء الأول من كتابه: "دراسات تاريخيّة من القرآن الكريم" (ط٢/ دار النهضة العربية للطباعة والنشر) هذه المسألة تحت عنوان "رحلة الخليل إلى الحجاز" فيقول: "يأتى المستشرق الإنجليزى سير وليم موير وينفى

القصة من أساسها فى كتابه "حياة محمد"، ويذهب، فيما يروى عنه الدكتور هيكل، أنها بعض الإسرائيليات ابتدعها اليهود قبل الإسلام بأجيال ليربطوا بها بينهم وبين العرب بالاشتراك فى أبوة إبراهيم لهم جميعا. فلئن كان إسحاق أبا لليهود، وإذا كان أخوه إسماعيل أبا للعرب، فهم إذن أبناء عمومة توجب على العرب حسن معاملة النازلين بينهم من اليهود، وتيسر تجارة اليهود فى شبه الجزيرة العربية.

و يستند المؤرخ الإنجليزى فى ذلك إلى أن أوضاع العبادة فى بلاد العرب لا صلة بينها وبين دين إبراهيم لأنها وثنية مغرقة فى الوثنية، وكان إبراهيم حنيفا مسلما. غير أن وثنية العرب، فيما يرى الدكتور هيكل، بعد موت إبراهيم وإسماعيل بقرون كثيرة لا تدل أنهم كانوا كذلك حين جاء إبراهيم إلى الحجاز وحين اشترك مع إسماعيل فى بناء الكعبة. ولو أنها كانت وثنية يومئذ لما أيّد ذلك رأى موير، فقد كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام، وحاول هو هدايتهم فلم ينجح. فإذا دعا العرب إلى مثل ما دعا إليه قومه فلم ينجح، وبقى العرب على عبادة الأوثان، لم يطعن ذلك فى ذهاب إبراهيم وإسماعيل إلى مكة. بل إن المنطق ليؤيد رواية التاريخ، فإبراهيم الذى خرج من العراق فارا من أهله إلى فلسطين ومصر رجلٌ أَلِفَ الارتحال وألف اجتياز الصحارى، والطريق ما بين فلسطين ومكة كان مطروقا من القوافل منذ أقدم العصور، فلا محل إذن للريبة فى واقعة تاريخية انعقد الإجماع على جملتها.

هذا فضلا عن أنه إن كانت وثنية العرب هى دليل وليم موير على عدم انتسابهم إلى إبراهيم فإن الإسرائيليين لم يكونوا خيرا منهم فى ذلك، فقد بقيت عبادة الأوثان فيهم بعد دعوة إبراهيم وحتى ظهور الأنبياء من بعده. حدث ذلك أثناء عهد يعقوب أو إسرائيل كما يُكَنَّى، وفى أثناء إقامتهم بمصر، وفى أثناء الخروج بقيادة موسى، وفى

التيه فى صحراوات سيناء. بل إن التراث الدينى اليهودى لَيَزْخَر بأدلة لا تقبل الشك على أن اليهود الذين رافقوا موسى إلى سيناء لم يكونوا كفؤا لعبء حمل التوحيد وفلسفته التجريدية الروحية الرفيعة، ولم يجدوا فيما تقدمه الديانة الجديدة ما يشبع حاجتهم إلى الاعتبارات المادية. بل إنه لا يُفْهَم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصا على عقيدة دينية، فإنهم أسفوا على ما تعودوه من المراسيم الدينية فى مصر، وودوا لو أنهم يعودون إليها أو يعبدونها ممسوخة منسوخة فى الصحراء. وأبلغ دليل على ذلك قصة عبادة العجل التى وردت فى القرآن الكريم، وكذا فى التوراة، إذ عبد القوم عجل الذهب، وموسى ما يزال بين ظَهْرانَيْهم يتلقى الوحى من ربه على جبال سيناء.

و ليس من شك فى أن هذا كان من نتيجة تأثير الديانة المصرية عليهم، تلك الديانة التى تمكنت من نفوسهم إبان إقامتهم الطويلة فى مصر لدرجة أنهم ما كانوا بمستطيعين الإيمان بدعوة موسى إما خوفا من فرعون، وإما خوفا من شيوخ بنى إسرائيل. وإلى هذا يشير القرآن الكريم: "فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ"، باعتبار الضمير فى "ملئهم" راجعا إلى قوم موسى. بل إن القوم برموا بموسى وضجروا به، وقالوا: "أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا ومِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا".

و هكذا بقيت الوثنية راسخة فى قلوبهم حتى بعد انفلاق البحر لهم، وحتى بعد أن جاوزوه على يبس، وحتى بعد أن منّ الله عليهم بالمن والسلوى، وحتى بعد أن استسقَوْا موسى، فضرب الحجر بعصاه، فانبجست منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط من الأسباط مشربهم، وحتى بعد أن نزلت عليهم شريعة السماء تحذرهم من اتخاذ آلهة

أخرى غير الله، حتى بعد هذا كله فإنهم سرعان ما زاغوا عن الطريق المستقيم، وكفروا بالله الواحد الأحد، "و صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر".

و لم تكن أيام يشوع بأفضل من أيام موسى بالنسبة للوثنية الإسرائيلية. هذا فضلا عن أن السمة المميزة لعصر القضاة إنما كانت هى الردة وعبادة الأوثان، كما بقيت عبادة العجل تتجدد فى حياة بنى إسرائيل من حين إلى حين، حتى إذا ما حدث الانقسام إلى مملكتين تبنى ملوك إسرائيل ديانات الشرك، بالإضافة إلى دين يِهْوَه وأقاموا عجولا من الذهب وضعوها فى مبان كالمعابد، كما فعل يربعام الأول (٩٢٢- ٩٠١ ق.م.) فى مدينتى دان وبيت إيل، وكما فعل أخاب (٨٦٩- ٨٥٠ ق.م.) حين أقام الهياكل للبعل. وتروى التوراة أن حزقيا (٧١٥- ٦٨٧ ق.م.) ملك يهوذا، قد "أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى، وسحق حية النحاس التى حملها موسى، لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها".

وهكذا بقى بنو إسرائيل، كالعرب تماما، يعبدون الأصنام إلى ما بعد إبراهيم بمئات السنين. ومن هنا فإن عبادة الأوثان لا تدل على انتماء العرب أو اليهود إلى إبراهيم أو عدم انتمائهم. ثم أليس إبراهيم يرجع فى أصوله الأولى إلى جزيرة العرب وأن أسلافه قدموا إلى منطقة الهلال الخصيب كغيرهم من الكتل البشرية السامية التى قذفت بها صحراء العرب إلى تلك المنطقة الخصيبة؟ فما المانع إذن أن يكون إبراهيم قد فكر، لا نقول: فى العودة إلى موطن الأجداد، بل فى زيارته فحسب، وهو الرجل الذى قضى حياته وهو يعيش حياة أشبه بحياة البدو وأبناء الصحراء العربية؟

ثم هناك البينة الكبرى التى تأتى من مباحث اللغة، وهى التقارب الشديد بين لغة الحجاز ولغة النبط أو النباتيين، الذين ينتمون إلى نبات بن إسماعيل بن إبراهيم. ذلك لأن لغة الحجاز لم تتطور من اللغة اليمنية مباشرة، وإنما جاء التطور من العربية القديمة إلى الأشورية إلى الآرامية إلى النبطية إلى القرشية، فتقارب لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل، وكان التقارب بينهما فى الزمان والمكان أو فى درجات التطور، ولم يكن تقاربا يقاس بالفراسخ والأميال. وكانت هذه هى البينة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين أو النباتيين أبناء إسماعيل، ولم تكن هذه القرابة من اختراع النسابين أو فقهاء الإسلام، ولكنها كانت قرابة الواقع التى حفظتها أسانيد اللغة والثقافة، واستخرجتها من حجارة الأحافير والكشوف الحديثة. ومما يدعو إلى احترام روايات النسابين فى هذا الباب أنهم عرفوا الحقيقة التى كشفها علماء الأحافير، فقال ابن عباس: "نحن معاشر قريش من النبط".

هذا وقد أشار مارتن شبرنجلنج فى العصر الحديث إلى ظاهرة انتقال الكتابة النبطية إلى الحجاز وإلى تطور الخط العربى عن الخط النبطى، كما ذهب سوزمين إلى أن اليهود إنما كانوا ينظرون إلى العرب الذين يقطنون إلى الشرق من الحد العربى على أنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم. ويضيف الدكتور إسرائيل لفنسون إلى ذلك حججا منها أنه إذا وجد الميل عند بعض المستشرقين إلى إنكار وجود الآباء الأقدمين من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فإنهم لا يستطيعون أن ينكروا وجود قبائل بنى إسرائيل وبنى إسماعيل لأن التوراة نصت على وجودها فى طور سيناء والحجاز بما ذكرته من الحوادث التى وقعت بين بطون إسماعيلية وأدومية وإسرائيلية. ولا شك أن هذا كاف لإثبات العلاقة الدموية المتينة بين اليهود وعرب طور سيناء والحجاز. ثم يؤيد ذلك

بترجمة جديدة لنص سفر التكوين (٢٥/ ١٨): "ونزلت (بطون بنى إسماعيل) مع نشأتها بين أخواتها، واستوطنت البلاد من الحولة إلى طريق القوافل بين مصر والعراق"

ومنها ما جاء فى ترجمة التوراة السامرية التى صدرت فى ١٨٥١ م من أن إسماعيل قد "سكن برية فاران بالحجاز، وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر"، وأن سفر "العدد" يفرق بين سيناء وفاران، إذ جاء فيه أن بنى إسرائيل ارتحلوا "من برية سيناء، فحلت السحابة فى برية فاران"، ولم يسكن أبناء إسماعيل قط فى غرب سيناء، فيقال إن جبل فاران واقع إلى غربها، وإنما تدل الشواهد القديمة جميعا على وجود فاران فى مكة، أو هى أرض التلال التى بين مكة والمدينة، ويذهب المؤرخ جيروم واللاهوتى يوسبيوس إلى أن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من أيلة.

ومنها ما يراه علماء الإفرنج من أن علاقة بطون اسرائيل الجنوبية بعرب الحجاز وطور سيناء أقرب منها إلى قبائل بنى إسرائيل الشمالية. ومنها أن اليهود لو كانوا يريدون استغلال هذه القرابة للتزلف إلى قريش أو العدنانيين لكان الأليق والأجدر أن يخترعوا تلك القرابة بينهم وبين الأوس والخزرج، الذين يتاخمونهم ويشاركونهم فى المواطن والمرافق، ويرتبطون معهم برباط المعاملة والجوار. ومنها أن التوراة قد تُرْجِمَت إلى اليونانية فى عهد بطليموس الثانى (٢٨٥. ٢٤٦ق.م.)، وفى صلبها كل النصوص التى تربط العرب الإسماعيلية بالقرابة النسبية مع اليهود، وذلك قبل رحيل يهود يثرب إلى الحجاز بما يقرب من أربعة قرون".

وهكذا فإن القرائن المتجمعة يجب أن تستوقف نظر الباحث المنزه عن الغرض، وأيسر ما فيها أنها تدفع الغرابة عن رحلة إبراهيم إلى الحجاز، وأنها هى وحدها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية. وقد جاء الإسلام مثبتا رحلة إبراهيم إلى الحجاز،

وأثبتها ولا شك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول لأن انتساب أناس من العرب إلى إبراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض. ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع فيه لأنكرت إسرائيل انتساب العرب إلى إبراهيم، وأنكر العرب أنهم أبناء إبراهيم من جارية مطرودة، وليس هذا غاية ما يدعيه المنتسب عند الاختراع".

ومن قبل كتب العقاد رحمه الله فى الفصل الثامن عشر من "إبراهيم أبو الأنبياء" ما يلى تحت عنوان "الجنوب": "انفردت المصادر الإسلامية بأخبار إبراهيم فى الحجاز، وعلَّق بعض المؤرخين الغربيين على هذه الأخبار بشىء كثير من الدهشة والاستنكار، كأن المصادر الإسلامية قد نسبت إلى إبراهيم خارقة من خوارق الفلك، وأسندت إليه واقعة بينة البطلان بذاتها وغير قابلة للوقوع... ووضح من أسلوب نقدهم أنهم يكتبون لإثبات دين وإنكار دين، ولا يفتحون عقولهم للحقيقة حيث تكون، فضلًا عن الاجتهاد فى طلب الحقيقة قبل أن يوجههم إليه المخالفون والمختلفون. أما الواقع الغريب حقًّا فهو طواف إبراهيم بين أنحاء العالم المعمور ووقوفه دون الجنوب لغير سبب، بل مع تجدد الأسباب التى تدعوه إلى الجنوب ولو من قبيل التجربة والاستطلاع. ولم يكن لإبراهيم وطن عند بيت المقدس، سواء نظرنا إلى وطن السكن، أو وطن الدعوة، أو وطن المرعى، فالمتواتر من روايات التوراة أنه لم يجد عند بيت المقدس مدفنًا لزوجه، فاشتراه من بعض الحيثيين. أما الدعوة الدينية فقد كانت الرئاسة فيها لأحبار إيل عليون، وكان إبراهيم يقدم العشر أحيانًا إلى أولئك الأحبار. ومن كان معه أتباع يخرجون فى طلب المرعى، فلا بد لهم من مكان يسيمون فيه إبلهم وماشيتهم بعيدًا عن المزاحمة والمنازعة، وهكذا كان إبراهيم يعمل فى أكثر أيامه كما تواترت أنباؤه فى سفر "التكوين"، فلا يزال متجهًا إلى الجنوب.

هناك أسباب دينية غير هذه الأسباب الدنيوية توحى إليه أن يجرب المسير إلى الجنوب، حيث يستطيع أن يبتنى لعبادة الله هيكلًا غير الهياكل التى يتولاها الكهان والأحبار من سادة بيت المقدس فى ذلك الحين، فقد بدا له أن إقامة المذابح المتعددة فتنت أتباعه، وجعلتهم يتقربون فى كل مذبح إلى الرب المعبود بجواره. ومثل هذه الفتنة بعد عصر إبراهيم قد أقنعت حكماء الشعب بحصر القربان فى مكان واحد، فاتخذوا له خيمة وانتظروا الفرصة السانحة لبناء الهيكل حيث يقدرون على البناء. فإن كان هذا الخاطر لم يخطر قط فى نفس إبراهيم، فذلك هو العجيب الذى يستوقف النظر من سيرة رسول وزعيم، ولكن الرسالة والزعامة معًا توحيانه إليه ولو مرة من المرات وهو على أهبة الرحلة والاستطلاع. ومثل ذلك الخاطر خليق أن يتجه به إلى الجنوب ثم إلى الجنوب، إذ لم يبق له مكان لهذه التجربة غير الجنوب، بعد أن هجر العراق وعاد من مصر ولم يجد عند بيت المقدس حوزة يقام فيها هيكل مقصود.

وواضح من تواتر روايات التوراة والمشنا والتلمود أن اللهج ببيت المقدس إنما جاء متأخرًا بعد عصر إبراهيم وعصر موسى بزمن طويل، وأنه جاء مع عصر المملكة الإسرائيلية، وعملت فيه السياسة عملها المعهود. فبعد موسى بعدة قرون بقيت أورشليم فى أيدى اليبوسيين، واستولى بنو بنيامين على جيرتها، ولكنهم لم يطردوا منها اليبوسيين. "فسكن اليبوسيون مع بنى بنيامين فى أورشليم إلى هذا اليوم"، أى إلى الأيام التى كتب فيها سفر "القضاة" من العهد القديم. ثم تغلب بنو يهوذا على المدينة فدمروها وأحرقوها ولم يقيموا فيها، وعاد اليبوسيون فجددوا بناءها وسكنوها إلى أيام الملك شاؤول، ثم استولى عليها داود فاتخذوها عاصمة، وبنى فيها سليمان هيكلها المشهور. وبعد هذا جاء ملك من ذرية إبراهيم، وهو يهواش ملك إسرائيل، فهدم سور

أورشليم وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة فى بيت الرب، وفى خزائن بيت الملك والرهناء ورجع إلى السامرة. ثم اضطجع يهواش مع آبائه، أى مات مرضيًّا عنه.

فلم يكن لأورشليم هذا الشأن فى حياة إبراهيم ولا فى حياة موسى، ولم يكن لها هذا الشأن من القداسة بين جميع بنى إسرائيل حتى فى عهد داود. أما "الجنوب" المسكوت عنه فقد كان له شأنه من القداسة إلى أيام إرميا وما بعدها، وكانت كلمة "تيمان" مرادفة لكلمة الحكمة والمشورة الصادقة، وهى تُقابل كلمة "يمن" فى اللغة العربية بجميع معانيها، ومنها الإشارة إلى الجنوب. ففى سفر "التثنية" يقال على لسان موسى: "جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من جبل السعير". وفى سفر "حبقوق": "الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران". وأوضح من ذلك قول إرميا متسائلًا فى مراثيه: "ألا حكمة بعد فى تيمان؟ هل بادت المشورة من الفهماء؟".

وأيسر ما يستوحيه طالب الحقيقة أن يتساءل: كيف يكون هذا الجنوب موصدًا فى وجه إبراهيم؟ وكيف يطوف الأقطار جميعًا ولا ينفتح له الباب الذى لا موصد عليه؟ إن كان أحد الطريقين مفتوحًا أمامه فليس هو طريق بيت المقدس، بل طريق الحجاز. وفى هذا الطريق سلك الأنبياء، وذكرت المصادر الإسرائيلية منهم من بلغ مدين، وذكرت منهم من لعله أقام فى نجد، أو لعله أقام وراءها من البلاد العربية... ولم تذكر المصادر الإسرائيلية صالحًا ولا هودًا ولا ذا الكفل ولا غيرهم من الأنبياء. فموضع التساؤل هو السكوت عن الناحية، وليس هو الذكر الذى توحيه البداهة، ويوحيه المعلوم من أطوار البعثات الدينية والرسالات النبوية.

ونقول: إن السكوت موضع تساؤل، وهو فى الحقيقة غنى عن التساؤل لأنه معلوم السبب والغاية، وحسبنا من التساؤل أن ينتهى بنا إلى سبب معلوم، وغاية مرسومة. إنما العجب من ذوى الدعوى باسم البحث العلمى أن ينتظروا الخبر ممن يقضى على دعواهم كلها إذا رووه، ويثبت دعواهم كلها إذا نفوه. ومن الذى يكتم مسير إبراهيم إلى مكة إن لم يكتمه الذين ينقضون دعواهم كلها بإثبات ذلك المسير؟

على أن الباحث الذى يتحرى المعرفة لا يصح أن يقف عند النفى ثم يسكت على ذلك ولا يحاول الإثبات ما استطاع. ها هنا رواية عن نشأة الكعبة فى الحجاز على عهد إبراهيم، فمن ينكرها فعليه أن يثق أولًا من أسباب إنكارها، وعليه بعد ذلك أن يعرفنا بما هو أصح فى التاريخ وأولى بالقبول. ونفرض أن إبراهيم لم يصل إلى الحجاز لأن المصادر الإسرائيلية لم تذكر رحلته إلى الحجاز، ووقفت بها عند جيرار وقادش وبلاد أدوم. ونفرض أن هذا سبب كافٍ لنفى الرحلة من الوجهة العلمية، فهذه الكعبة قائمة تحتاج إلى بانٍ يبنيها، فمن الذى بناها؟

إن روايات هؤلاء القوم الأميين، قوم مكة فى الجاهلية، تذكر لنا أن مكة عمرت قديمًا بأناس من اليمن ثم أناس من النبط، وكل معلوم عن أحوال الحجاز يعزز هذه الروايات، فإن أقام مقيم فى مكة فسبيله أن يأتى إلى وسط الحجاز من الطرفين، وهما طرف اليمن فى الجنوب، وطرف النبط فى الشمال. لكن أهل اليمن، فى اليمن، لا يخلقون لغير بلادهم قداسة تعفِّى على شأنها بين الشعوب العربية. وقد حدث منهم غير مرة أنهم نظروا إلى الكعبة نظرتهم إلى منافس خطر، فهمُّوا بهدمها وتحويل الحجاج إلى معبد يقوم عند العرب مقامها.

أما النبط فى الشمال فمكة هى طريقهم، ولا مزاحمة عليها منهم، وآثارهم الباقية فى البتراء تنطق بالمشابهة بينهم وبين الحجازيين فى العبادة واللغة والسلالة، والنسَّابون من الحجاز يقولون إنهم نبط، وإنهم أخذوا الأصنام من النبط، وجميع المصادر بعد ذلك تقول إن النبط هم ذرية نبات بن إسماعيل .

ومن النظر العلمى أن يجتهد الباحث هذا الاجتهاد، وأن يلتفت إلى كل باب من هذه الأبواب لأن الالتفات إليها واجب عليه، ومن التقصير أن يكون أمامه باب واحد يبحث فيه عن الحقيقة التاريخية، ثم يهمله ليستخرج منه غاية ما يخرجه من الثبوت أو من الفرض والاحتمال. أما الأمر الذى لا يتفق مع العلم ولا مع الواقع فهو القول بأن إبراهيم لم يذهب إلى الحجاز لأن المصادر الإسرائيلية خِلْوٌ من هذا الخبر، ثم يكتفى القائل بقوله فلا يضع أمامنا بديلًا منه أولى بالأخذ به. إن إبراهيم صاحب دعوة دينية، وليس فى المصادر الإسرائيلية ما يدل على أنه قد صنع شيئًا لنشر دعوته، وكل ما ورد عنه فى هذا الكتاب أنه أقام مذبحًا فى كل منزل من منازل الطريق، ثم ترك البلاد جميعًا فى رعاية الأحبار الذين كانوا مؤمنين بـ "إيل عليون" قبل وفوده إلى كنعان، وليس فى ذلك مقنع لصاحب دعوة دينية يغادر دياره فى سبيل هذه الدعوة .

فأقرب ما يرد على الخاطر أن إبراهيم قد ذهب إلى حيث يصنع شيئًا باقيًا فى سبيل دعوته، ولا مذهب له إذن إلى غير الحجاز. وهذه هى تتمة السيرة التى لا بد منها فى حياة نبى ينتمى إليه سائر الأنبياء، وإلا كانت نسبة الدعوة إليه من أعجب الأمور. وقد جاء فى المأثورات جميعًا أن إبراهيم شهد عصر الكوارث والرجوم فى مدن فلسطين الجنوبية، وبقيت آثار البتراء "سلع" إلى اليوم، وفيها أنصاب من هذه الرجوم فى أماكن العبادة، حفظوها تذكيرًا لأنفسهم بقضاء الله لأنها هبطت من السماء عقابًا للمذنبين.

ولم يذكر مصدر من المصادر أن إبراهيم كان يحمل معه حجرًا من هذه الأحجار، ولكنه إذا تعمد أن يقيم مذبحًا باقيًا على طريقته فالحجر من النيازك أحق أن يحتفظ به من سائر الحجارة، وليس من اعتساف التفسيرات أن يقال: إن الحجر الأسود نُقِل من البتراء عند بناء الكعبة، وقد تبين بعد ذلك أنهم نقلوا كثيرًا من طريق البتراء بعد اتخاذ الكعبة بيتًا للأصنام قبل الإسلام ببضعة أجيال، وليس من المسائل العرضية أن تتشابه الحجارة فى قوام تركيبها، وهى تختلف فى بنيتها المعدنية والصخرية كما هو معلوم.

وربما سميت مكة وبَكَّة باسم البيت الذى بُنِى فيها لأن "البك والبكة" كانا يطلقان على البيت فى اللغة السامية الأولى، ومنها "بعلبك" بمعنى "بيت البعل"، وربما كانت من مادة "القربان" فى السبئية والحبشية لأنهم كانوا يطلقون "المقربة" على المحراب المقدس، وبطليموس الجغرافى قد ذكرها باسم "مكربة" (Macaraba) نقلًا عن أهل اليمن، ولكن التصحيف هنا بعيد، ولا تُسَمَّى البلدة باسم "القربان" فيها إلا إذا أصبحت محجّةً لقصَّادها من المؤمنين بكعبتها. وقد مضى على السبئيين زمن وهم يعيشون فى شمال الجزيرة، فلم يذكروها بهذا الاسم فى آثر من الآثار.

وفى مقاييس الكعبة شاهد لا يجوز إهماله عند البحث فى أصل بنائها، فإنها قد بُنِيَتْ مرات كما هو معلوم، وكان البناة فى كل مرة يحافظون على معالمها القديمة حيث أمكنت المحافظة عليها. وقد تعذر عليهم أن يُحافظوا على أبعاد جوانبها لدخول الحِجْر (بكسر الحاء) فيها تارة، وخروجه منها تارة أخرى، ولكنهم حافظوا على ارتفاعها كما جاء فى أكثر الروايات. وارتفاعها الآن سبع وعشرون ذراعًا، أو خمسة عشر مترًا، ولن تكون الخمسة عشر مترًا سبعًا وعشرين ذراعًا إلا إذا كان الذراع بالمقياس المقدَّس عند قوم إبراهيم لأنه كما حققه الأستاذ جريفس (Greaves) الخبير المتخصص فى المقاييس

الأثرية يزيد على واحد وعشرين قيراطًا (بوصة) وثلاثة أرباع القيراط، ويقاس بالتقريب عند مضاهاة الأبنية القديمة التى قُدِّرت بالذراع.

هذه القرائن المتجمعة يجب أن تستوقف نظر الباحث المنزَّه عن الغرض، وأيسر ما فيها أنها تدفع الغرابة عن رحلة إبراهيم إلى الحجاز، وأنها هى وحدها تحقق له صفة العمل على الدعوة الدينية. وقد جاء الإسلام مُثبتًا رحلة إبراهيم إلى الحجاز، وأثبتها ولا شك بعد أن ثبتت مع الزمن المتطاول لأن انتساب أناس من العرب إلى إبراهيم قد سبق فيه التاريخ كل اختراع مفروض. ولو تمهل به التاريخ المتواتر حتى يجوز الاختراع فيه لأنكرت إسرائيل انتساب العرب إلى إبراهيم، وأنكر العرب أنهم أبناء إبراهيم من جارية مطرودة، وليس هذا غاية ما يدَّعيه المنتسب عند الاختراع".

وقبل العقاد كان هناك إسرائيل ولفنسون، الذى ذكر ما قَصَّهُ العهد القديم عن القبائل الإسرائيلية والقبائل العربية التى كانت موجودة فى طور سيناء والحجاز. وهذا، فى رأيه، يثبت علاقة الدم المتينة بين الطرفين. وهو يرفض تماما وبكل قوة أن تكون تلك القرابة بين الطرفين أسطورة اخترعها اليهود للتقرب إلى العرب، ثم أتى النبى فاستغلها زاعما أن إبراهيم هو أبو العرب وأن الإسلام هو دين إبراهيم. ويمضى فيقول إن اليهود لو كانوا اخترعوا تلك القرابة لما جعلوها بينهم وبين القرشيين، الذين كانوا يعيشون فى مدينة بعيدة عن يثرب مكان سكناهم، بل جعلوها بدلا من ذلك بينهم وبين الأوس والخزرج جيرانهم فى يثرب ("أحوال العرب الاجتماعية والدينية والسياسية فى بلاد الحجاز قبيل ظهور الإسلام"، وهو الباب الرابع من كتاب "تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام" للدكتور إسرائيل ولفنسون).

وقبل ولفنسون كتب جرجى زيدان فى هذا الموضوع فى كتابه: "العرب قبل الإسلام" فى ا لفصل المسمى: "عرب الشمال فى الطور الثانى" أنهم "يرجعون بأنسابهم إلى إسماعيل بن إبراهيم. وحكاية إسماعيل عندهم مبنية على ما ذكرته التوراة من إخراج إسماعيل وأمه هاجر إلى برية بئر سبع وسكناه برية فاران، وأن أولاده أباء القبائل التى أقامت ما بين حويلة إلى شور. وكانت شور عند برزخ السويس، وحويلة خولان فى شمالى اليمن، وبينهما الحجاز ونجد وتهامة ومديان وجزيرة سينا.

أما العرب فروايتهم فى أصل عرب الشمال تكاد تكون منقولة عن التوراة إلا من حيث المكان الذى أقام فيه إسماعيل وأمه، فهم يجعلونه مكة بدل بَرِّيَّة فاران، ويقولون إن إسماعيل أقام بمكة وتزوج امرأة من جرهم أصحاب مكة فى ذلك العهد، فولدت له ١٢ ولدا. وليس لدينا رواية ثالثة عن أصل أولئك العرب. والروايتان متفقتان فى أن إسماعيل رُبِّىَ فى البادية وأنه كان راميا بالقوس شأن أهل البادية وأنه خلَّف ١٢ ولدا أسماؤهم تقابل أسماء بعض قبائل الشمال، وإنما اختلفوا فى المكان الذى أقام فيه إسماعيل: فالتوراة تقول إنه برية فاران أو جبل فاران، وكلاهما عند العقبة شمالى جزيرة سينا، والعرب يقولون إنه مكة بالحجاز. ويسهل تطبيق الروايتين متى علمنا أن جبال مكة أو جبال الحجازتسمى أيضا: "فاران" ("المشترك وضعا" لياقوت)، فيكون المراد أن البرية التى أقام فيها إسماعيل برية الحجاز، أو أنه أقام حينا فى سينا ثم خرج إلى الحجازوسكن هناك وتزوج... وعرفت قبائل فى تاريخ العهد القديم باسم "الإسماعيلية" نسبة إلى إسماعيل، والعرب يسمونها أيضا: "عدنانية" نسبة إلى عدنان أحد أعقاب إسماعيل".

وبعيدا عن كل هذا فيا ترى لو لم يكن إبراهيم قد زار بلاد العرب ولم يكن أباهم أكان اليهود يسكتون فلا يسلقوهم بألسنتهم السامة التى لا تستكن ولا تهدأ أبدا وتظل تعيب وتنتقد وتسب وتتطاول؟ ولقد كان العرب طوال الدهور ينتسبون إلى إبراهيم، ولم نسمع أن أحدا قبل العصر الحديث شكك فى هذا لا من غير العرب ولا من العرب الأذناب الذين يتبعون خطوات أعدائهم ويتصرفون مثلهم كالقرود، ويرددون كلامهم كالببغاوات دون عقل ودون فهم ودون تفكير فى العواقب المدمرة. ثم لو لم يكن إبراهيم أباهم فلم يا ترى ادعوا أبوته لهم؟ ما الفوائد التى عادت عليهم من ذلك؟ يقال إنهم أرادوا التقرب إلى اليهود. لكن بالله متى كان العرب يتقربون إلى اليهود؟ أين هذا فى أشعارهم؟ أين هذا فى خطبهم؟ أين هذا فى أمثالهم؟ لقد كان أحرى بهم أن يتقربوا إلى فارس بلاد الأكاسرة لا اليهود الذى لم يكن لهم تاريخ سياسى يذكر بحيث يغرى العرب على الاعتزاء إليهم. فإذا كانوا لم يفكروا فى التقرب إلى الفرس أيتقربون إلى اليهود؟ وإذا افترضنا رغم ذلك أنهم كانوا يحبون التقرب إلى اليهود فلم يا ترى لم يعتنقوا دينهم؟ شيئا من المنطق يا رصافى، خيبك الله!

لقد قال د. إسرائيل ولفنسون إن كثيرا من العرب قد تأثروا بالتعاليم اليهودية وأخذوا يخضعون لبعض الأصول اليهودية من التوراة دون أن يعتنقوا البعض الآخر، لكن لم ترض منهم اليهودية ذلك ولم تفرق بينهم وبين الوثنيين لأنهم لم يتمسكوا ببقية وصايا التوراة والتلمود كمراعاة يوم السبت مثلا ("أحوال العرب الاجتماعية والدينية والسياسية فى بلاد الحجاز قبيل ظهور الإسلام"، وهو الباب الرابع من كتاب "تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام" للدكتور إسرائيل ولفنسون). وكنا نود أن يورد ولفنسون شواهد ووثائق على ما يقول، لكنه للأسف لم يفعل. بالعكس لقد

كان اليهود يحلفون بالكعبة مثلا، كما قالوا للقرشيين فى عز صراعهم مع الإسلام والرسول إن وثنيتهم خير من الإسلام. أى أن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد النقى الصافى. فمن يا ترى تأثر بمن؟ ولدينا أهل يثرب، فإنهم لم يتهودوا رغم مساكنة اليهود لهم فى بلد واحد، لكنهم ما إن سمعوا بمحمد عليه السلام بمكة على هذا البعد الكبير واستطاعوا لقاءه فى أمان من أرصاد قريش حتى اتفقوا معه عليه السلام على دخولهم فى دينه وهجرته إليهم فى يثرب والبقاء معهم بوصفه واحدا منهم.

استخبارات النبى: ومن المسائل التى عالجها الرصافى أيضا فى كتابه مسألة الاستخبارات التى اهتم الرسول بإنشائها واختار لها رجالها من بين أصحابه ومن بين غير المسلمين أيضا وما يدل عليه هذا من ذكاء الرسول وعبقريته فى بناء الدولة وتسيير دفتها. لكن كانت نقطة انطلاق الرصافى أن الرسول لم يكن يتلقى وحيا من السماء فيما يتعلق بهذا الجانب من جوانب سياسة الدولة. وأما ما كان يقوله صلوات الله عليه من أنه تلقى هذا الوحى أو ذاك بخصوص هذا الحدث أو ذاك أو هذا الشخص أو ذاك فهو كذب محض أراد به أن يوهم من حوله أن الله معه وأنه ما من شىء يمكن إذن أن يخفى عليه إذ يُعْلِمه الله به أولا بأول (ص٤٩٢ وما بعدها). وهذا الموقف من الرصافى مرتبط بموقفه من الوحى ومن محمد عموما، فليس محمد عنده بنبى، وإنما هى دعوى ادعاها حتى يصدقه الناس وتكون له فيهم قداسة فيطيعوه ويأتمروا بأمره وينتهوا عما ينهاهم عنه. إنه رجل عبقرى داهية يتمتع بقدرة على التدسس إلى بواطن من حوله، وبنظرة إلى وجوههم أو بتلقى أخبارهم من جواسيسه ورجال استخباراته يستطيع أن يطلع على ما يفكرون وينوون ويخططون، لكنه يعزو ذلك إلى الله. ثم إنه يوجه ما يقوله الرسول عن تلقيه الوحى فى كل شأن من تلك الشؤون عن الله إلى إيمانه بوحدة

الوجود. وكما قال عن معاهدة أصحابه له فى الحديبية ووضع يديه وأيديهم بعضها على بعض: "يد الله فوق أيديهم" وكما قال فى سورة "الأنفال" عن انتصار بدر: "وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى" فهو يقول هنا إن الله أطلعه على كذا وكذا من الأمور بمعنى أن الله هيأ له معرفة ذلك بالطرق الطبيعية، وكل شىء إنما هو فى النهاية من الله، لكن ليست هناك نبوة، وليس هناك وحى، بل ذكاء ودهاء وحسن تدبير وبراعة فى إنشاء الاستخبارات المختلفة هنا وهناك. وهذا كله هو ما يقوله دارسو الإسلام من الغربيين، فليس فى الأمر جديد.

ومن يقرأ كلام الرصافى فى نفى الوحى عن رسول الله فى معرفته أخبار المنافقين والمشركين واليهود وتفسيركل ذلك بدهاء الرسول واستعماله للجواسيس ورجال الاستخبارات فى كل مكان وفى كل واقعة، وقدرته الفذة على قراءة ما فى النفوس وتخيُّل ما يقع بعيدا عنه من أحداث وما يحاك من مؤامرات، من يقرأ كلامه هذا يجد تكلفا واعتسافا ولَيًّا للأمور وأَخْذها يمينا وشمالا حتى يظن أنها قد انقادت له، وهى لم تنقد، بل يبقى العقل السليم غير مستريح لما يقول وغير مقتنع بتفسيراته لأن الأمور لا يمكن أن تكون قد وقعت على النحو الذى يصورها به. هل يعقل، لو لم يكن محمد نبيا مؤيدا من الله وتكفل الله بحفظه وتوفيقه بل مجرد إنسان عادى، أن ينجح هو ودينه وأتباعه كل هذا النجاح الهائل العالمى دون أن يخطئ فى شىء ودون أن يَضْعُف أحدُ جواسيسِه ورجالِ مخابراته فيفشى بعض أسرار تلك الجاسوسية وهذه الاستخبارات؟ صحيح أن الرسول لم يكن يعلم الغيب، وصحيح أنه كان يأخذ بالأسباب ويستعين بكل ما من شأنه أن يُنْجِح مقصوده، لكن هل معنى هذا أن الله لا يمكن أن يطلعه أبدا على شىء مما يُكاد به أو يُدّبَّر لأذاه؟ إن الرسول لا يعلم الغيب من تلقاء نفسه، فهو بشر ولا يتصل

بجن أو شيطان، بل ينزل عليه الوحى من السماء، ومن بين هذا الوحى بعض من أخبار الغيب المكانى أو الزمانى، وإلا فكيف علم أن الروم سوف تهزم الفرس فى بضع سنين؟ ومن أين له اليقين الجازم الصارم بأن دينه منتشر لا محالة وأنه سوف يغلب كل أعدائه هزيمة منكرة وأن مصر سوف تفتح وأن القسطنطينية سوف تصير إسلامية وأنه سوف تكون هناك حرب بين المسلمين واليهود بعد زمن طويل وأن المسلمين سوف يرجعون بعده فيتقاتلون فيما بينهم وأن الأمة سوف تصبح فى يوم من الأيام غثاء كغثاء السيل وأنها سوف تكون مأكلة للأمم الأخرى رغم الكثرة الهائلة فى أعدادها؟ أنقول إنه كان قد أقام جواسيس ومستخبرين عبر القرون فعلم قبل الهنا بسنة بل بدهر طويل أن الأمور سوف تجرى على هذا المنوال، فكان الأمر كما أنبأته جواسيسه ورجال مخابراته؟ شيئا من العقل يا رصافى.

لقد كان محمد رجلا أميا من أمة أمية، ولم يتوافر له أى عامل من عوامل ذلك النجاح الخارق الذى أحرزه فى حياته وأكمله أصحابه وأتباعهم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فهو لم يذهب إلى مدرسة ولم يكن يوما محاربا ولا قائدا ولا رئيسا لأية جماعة أو مؤسسة ولا معلما ولا سياسيا، وعبثا نبحث فى صحائف التاريخ عن شبيه له قد فكر تفكيرا عالميا على هذا النحو الفذ وبهذا التوفيق العجيب. لقد كان محمد تاجرا ومن قبل كان راعيا للغنم، وكان هناك من هو أوسع منه خبرة بالحياة بين العرب، ودعنا من غير العرب، فكيف قام فى ذهن ذلك التاجر والراعى الأمى الذى أتى من أمة أمية لم يكن التاريخ يلقى إليها بالا أن يكون نبيا وأن يتحمل كل ما تحمل بصبر ورسوخ ولا رسوخ الجبال الرواسى ويقين مذهل بأنه منتصر لا محالة، ثم يأتى كل شىء كما قال؟ إن الرصافى يناطح الجبال فى محاولته السخيفة لتفسير نبوة محمد على هذا النحو التافه.

ويزيد تفاهةً وتنطعًا على تنطعه وتفاهته حين يقول إن هذه النبوءات لا أصل لها ولم يقلها النبى بل اخترعها المسلمون اختراعا لهذا السبب أو لذاك (ص٥٤١). أى أن الرصافى بغبائه لم يفعل شيئا سوى أنْ نقل التنبؤ بالغيب من الرسول بناء على إخبار الله له، إلى المسلمين بناء على قدرتهم الفذة على معرفة الغيب دون معونة من السماء. وهذا أنكى له لو كان يفهم ويدرك أبعاد ما يقول. وليلاحظ القراء غير مأمورين أننى إنما اخترت وقائع حدثت بعد تدوين الأحاديث حتى لا يقال إن المسلمين هم الذين كتبوها بعد وقوع تلك الأحداث وادعَوْا أن الرسول هو الذى قالها. ويتساءل الرصافى: لم يا ترى لم تكن السماء تتدخل دائما معه وتُعْلمه الغيب قبل وقوعه فى كل مرة يمكن أن يصيبه أو يصيب المسلمين ضرر فيتجنبوه ولا يقاسوه؟ والجواب هو أن محمدا لم يكن نبيا فقط، ولم يكن إنسانا عاديا فقط، بل كان إنسانا عاديا ونبيا معا. فأما كونه إنسانا عاديا فيوجب دخوله فى تجارب وعلاقات ينجح فيها أو لا يواتيه النجاح، وإن كان النجاح هو الأغلب، ولم يحدث له عدم توفيق إلا فى بعض الأمور القليلة وبسبب إهمال بعض المسلمين لنصائحه. وأما كونه نبيا فيظهر فى منعطفات الطريق الحاسمة. وقد قلت إننى هنا قد استشهدت بحوادث هائلة لم تقع إلا بعد تسجيل الأحاديث. ومثلها نبوءة انتصار الروم على الفرس بعد بضع سنين من انهزامهم على أيديهم، إذ إن القرآن كان يسجل أولا بأول ويحفظه المسلمون جميعا، فلا سبيل من ثم إلى القول بأن الآيات الخاصة بتلك النبوءة منحولة.

ولنقرأ هذا الخبر أولا، وقد نقلته من تاريخ الطبرى، ثم نعرف كيف تعسف الرصافى وتنطع فى توجيهه وتفسيره كى ينفى أن يكون الله قد أطلع نبيه على الغيب فى أمر ناقته المفقودة أثناء رجوعه من تبوك: "ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار

حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته، فخرج أصحابه فى طلبها، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أصحابه، يقال له: عمارة بن حزم، وكان عقبيًا بدريًا، وهو عم بنى عمرو بن حزم، وكان فى رحله زيد بن لصيت القينقاعى، وكان منافقًا، فقال زيد بن لصيت وهو فى رحل عمارة، وعمارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس يزعم محمد أنه نبى يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمارة عنده: إن رجلًا قال: إن محمدًا هذا يخبركم أنه نبى، وهو يزعم أنه يخبركم بخير السماء، وهو لا يدرى أين ناقته! وإنى والله ما أعلم إلا ما عَلَّمَنى الله. وقد دلنى الله عليها، وهى فى الوادى من شِعْب كذا وكذا قد حبستْها شجرة بزمامها. فانطلِقوا حتى تأتوا بها. فذهبوا فجاؤوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى أهله، فقال: والله لَأَعْجَبُ من شىء حَدَّثَناه رسول الله صلى الله عليه وسلم آنفًا عن مقالة قائل أخبره الله عنه كذا وكذا (للذى قال زيد بن اللصيت)، فقال رجل ممن كان فى رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى. فأقبل عمارة على زيد يجأ فى عنقه ويقول: يا عباد الله، والله إن فى رحلى لداهية، وما أدرى! اخرج يا عدو الله من رحلى فلا تصحبنى! قال: فزعم بعض الناس أن زيدًا تاب بعد ذلك، وقال بعض: لم يزل متهمًا بِشَرٍّ حتى هلك".

هذا ما جاء فى كتب التاريخ والسيرة، فماذا قال الرصافى؟ اقرأ ما قاله، ولسوف تجد فيه التنطع والتساخف والاعتساف والعمل بكل سبيل على الضحكِ على العقول والذقون ولَىِّ الأمر يمينا ويسارا وأماما ووراء وفوقا وتحتا لكى يكون على النحو الذى يريد والذى دخل الموضوعَ منذ بدايته وفى نيته أن يجعله فى اتجاه بعينه لا يحيد عنه رغم مخالفته للمنطق والفهم والواقع. وهو فى تعليقه على ذلك الخبر يتبع طريقة "الفنقلة"،

وهى الطريقة التى يتخيل فيها الكاتب كلاما للخصم، ثم يقوم بالرد عليه، ثم يتخيل ردا للخصم على رده هو، ثم يسوق رده هو على رد الخصم... وهكذا دواليك. وقد سميت بـ"الفنقلة" نحتا من جملة "فإن قلتَ:... قلتُ:..."، إذ أُخِذَت الفاء والنون والقاف واللام واشْتُقَّتْ منها كلمة "فَنْقَلَ يُفَنْقِل فَنْقَلَةً".

قال الرصافى: "إن قلتَ: هَبْ محمدا أخبره أحد جواسيسه بمقالة الرجل المنافق فمن أخبره بمكان الناقة؟ وكيف علم أنها قد حبستها شجرة بزمامها فى شِعْب كذا وكذا؟ فإن هذا ليس مما يأتى به الجواسيس. قلت: إن كلام الرواة فى هذه القضية مقتضَب، فهم لم يذكروا لنا شيئا عن هذا الشِّعْب الذى وجدت فيه الناقة، ولا بينوا لنا أين هو، ومن الذى نزل فيه من الجيش، وهل هو بعيد عنه أو قريب منه. كما أنهم لم يذكروا لنا المكان الذى وُجِدَت فيه الناقة. فهل كان فقدها عند نزولهم أو عند رحيلهم أو بينهما؟ كل هذا لم يذكره الرواة، وإنما صرفوا كل اهتمامهم بالخبر الذى جاء من السماء فذكروه مقتضبا. فنحن إذن فى تخريج هذه القصة على نحو معقول فى ظلمة ظلماء، ولكنا مع ذلك نستطيع أن نقول: يفهم من قول محمد عن الناقة إنها فى شعب كذا قد حبستها شجرة بزمامها أن فى الشِّعْب شجرا، ومعلوم أن الشعب هو كل منفرَج بين جبلين، فلا يبعد أن يكون فيه شجر لأن منفرجات الجبال تكون مسيلا لمياه الأمطار، فتنبت فيها الأشجار. ويظهر لنا أن هذا الشعب كان قريبا من المعكسر الذى نزل فيه الجيش لا يبعد عنه كثيرا، وأن الجيش بعد نزوله أَرْعَى إبلَه كلها أو بعضها فى هذا الشعب، وفيها ناقة محمد كما هى عادتهم: إذا نزلوا فى مكان رَأَوْا فيه أو قريبا منه مرعًى لإبلهم تركوا ركابهم ترعى فيه. ومعلوم أن أشجار البوادى ترعاها الإبل وتأكل أوراقها. ويظهر لنا أن فقد ناقة محمد إنما كان عندما أرادوا الرحيل، فإنهم لما جمعوا

الرِّكَاب التى كانت ترعى فى الشعب وأَتَوْا بها إلى المعسكر فقدُوا ناقة محمد فلم يجدوها بين النُّوق التى أتوا بها، إذ يجوز أن الذين جمعوا النُّوق وأَتَوْا بها من الشعب قد أغفلوا ناقة محمد لأنهم لم يروها إما لأنها كانت فى محل بعيد قد حبستها شجرة بزمامها أو لأنها كانت فى منعطف من الشعب بحيث لا يراها أحد وقد حبستها شجرة بزمامها أو لأنها كانت فى منعطف من الشعب بحيث لا يراها كل أحد وقد حبستها الشجرة أو نحو ذلك، فإن ناقة محمد كانت ترعى وزمامها فى رأسها كما يفهم من قوله: "وقد حبستها شجرة بزمامها"، فلا يبعد أنها فى أثناء رعيها عَلِقَ زمامُها بشجرة أو بغصن من أغصانها، فحبستها الشجرة، وبقيت مرتبطة بها واقفة عندها. ويجوز أنها كانت فى محل بعيد عن مرعى سائر النياق أو فى منعطف من منعطفات الشِّعْب، فلذا لم يرها الذين جاؤوا وأخذوا الركائب إلى المعسكر. ولما كان محمد يعلم هذا ويعلم أن ناقته كانت ترعى بزمامها أدرك بألمعيته وذكائه أن زمامها لا بد أن يكون قد علق بشجرة فى أثناء رعيها، فحبستها الشجرة. وبينما هو على ذلك إذ جاءه الخبر بمقالة الرجل المنافق، فقال لهم قول ألمعى يظن الظن كالعلم: "إن الله قد دلنى عليها، وإنها قد حبستها شجرة بزِمَامها فى هذا الشِّعْب"، فذهبوا وفتشوا عنها فى الشعب، فوجدوها كما قال. ولا يبعد عن محمد أن يدرك بألمعيته مثل هذا. وقد قيل:

الألمعيُّ الذى يظن بك الظن ... كأنْ قد رأى وقد سمعا

وهو، لَعَمْرُه، صادق فى قوله: "دلنى الله عليها" لأن ألمعيته وذكاءه من الله. ولا ننس أن محمدا جعل يده التى بايع بها أصحابَه يد الله، إذ قال فى قرآنه: "الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم" (ص٤٩٦ – ٤٩٧).

وأولا هل قصد الرسول فى الآية القرآنية الأخيرة أن يده هى يد الله؟ أستغفر الله العظيم. هذا لعمرى ضلال مبين وتقوُّل على الرسول والله بالباطل. بل المعنى أن الله يبارك مبايعتهم لك، أى أنه يبارك وضع يدك فى أيديهم، فيده سبحانه فوق أيديهم جميعا بما فى ذلك يد الرسول. خيبة الله على الرصافى وعلى تفسيره للآية الكريمة. الشىء الثانى: ألا يمكن أن يكون أحد المنافقين قد حل الناقة قبل ذلك وضربها على كَفَلِها حتى تنطلق وتهرب لكى يضع الرسول فى مأزق محرج فلا يعرف أين ناقته ويُضْحِك سائرَ المنافقين وضعاف الإيمان وخفيفى العقول كالرصافى منه ومن حيرته وعجزه؟ ألا يمكن أن تكون الناقة قد خرجت من الشعب ووقفت فى الفضاء المفتوح؟ ألا يمكن أن تكون باركة لا واقفة ولا ترعى؟ ألا يمكن أن تكون منهمكة فى رعى العشب لا الشجر؟ ألا يمكن أن يكون أحد المنافقين قد تسلل إلى الإبل فساق ناقة النبى بعيدا وقتلها؟ ثم كيف يجازف محمد بالقول القاطع بأنها فى الشِّعْب الفلانى قد حبستها شجرة بزمامها، وهو يعلم بذكائه وألمعيته أنه لو أخطأ فى هذا الظن لكانت فضيحة له بجلاجل ولشنع عليه المنافقون واليهود وضعاف الإيمان أيما تشنيع، ولن ينفعه الرصافى آنئذ وتفسيراته المتنطعة؟

إنه عليه السلام لم يوافق أبا بكر حين راهن المشركين على ثلاث سنوات فى انتصار الروم على الفرس وطلب منه أن يطيل الزمن وأن يزيد الرِّهان، فجعله أبو بكر تسع سنوات، وهى أطول مدة يمكن أن تنطبق عليها كلمة "بضع" فى قوله تعالى: "غُلِبَت الرومُ فى أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيَغْلِبون * فى بِضْع سنين". أى أنه صلى الله عليه وسلم قد أخذ احتياطاته إزاء نص قرآنى نازل من السماء، أفيمكن أن يجازف بتحديد مكان الناقة وهيئتها وظروفها دون أن يترك مجالا لاحتمال أن يكون أى من هذه

الأمور مخالفا لما قال؟ وبالمثل رأيناه، حين حزن المسلمون يوم الحديبية لرجوعهم عن تأدية العمرة بعدما فهموا من قصه صلى الله عليه وسلم رؤياه لهم بأنهم سوف يدخلون مكة ويؤدون العمرة، يرد على استغرابهم قائلا: هل قلت لكم إننى رأيتنى معكم نؤدى العمرة هذه المرة؟ والجواب بكل بساطة ووضوح هو أنه لم يحدد أداء العُمْرَة بهذه المرة بل قال إنه رأى فى المنام أنهم سوف يعتمرون. أما تحديد الوقت فلم يتطرق إليه. ولسوف نعد الرسول الآن رجلا ذكيا عبقريا ألمعيًّا لَوْذَعِيًّا لا نبيا كما يزعم الرصافى، فهل كان لِيُجازِف هذه المجازفة ويحدد مكان الناقة الضائعة ووضعها وظروفها وكل شىء يتعلق بها، وهو يعرف أنه لو تخلف شىء من ذلك لكانت كارثة عليه وعلى مصداقيته؟

وفى النهاية أقول ما قلته فى الفصل الخاص بنفى الرصافى نبوة محمد من أنه من العجيب أن نرى معروف الرصافى فى وصيته الأخيرة يؤكد أنه "مسلم مؤمن بالله ورسوله محمد بن عبد الله إيمانا صادقا لا أرائى فيه ولا أداجى، إلا أنى خالفت المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يرونها من الدين وليست منه إلا بمنزلة القشور من اللباب، ولا يهمنى من الدين إلا جوهره الخالص وغايته المطلوبة التى هى الوصول إلى شىء من السعادة فى الحياة الدنيوية الاجتماعية والحياة الأخروية ما أمكن الوصول إليه من ذلك بترك الشرور وبعمل الصالحات. وكل ما عدا ذلك من أمور الدين فهو وسيلة إليه وواسطة له ليس إلا" (مصطفى على/ الرصافى/ ١- صلتى به، وصيته، مؤلفاته/ مكتبة المثنَّى/ بغداد / ١٩٤٨م/ ٤٣- ٤٤).

وهذا أمر غريب أشد الغرابة بل كذب أبلق لا يمكن ستره ولا رتقه، فالرجل لا يؤمن بمحمد نبيا على الإطلاق كما وضحنا فى الفصل الحالى وغيره، بل يؤكد أنه اخترع

الدين والوحى اختراعا وزعم أن الله قد اختاره بينما لم يختره ولا أرسله لأحد، ولا يرى القرآنَ وحيا إلهيا، بالإضافة إلى أنه كثيرا ما يخطِّئ لغته ومضمونه ويركّكه ويسخر منه، وفوق هذا لا يؤمن بالآخرة ولا بالحساب والثواب والعقاب. فكيف يزعم أنه مسلم؟ هذا، ولا أريد أن أشير إلى إيمانه بوحدة الوجود، فقد يقال إن هذا هو فهمه للألوهية. فليكن، أما الإيمان بنبوة محمد وبالقرآن وباليوم الآخر وبالجنة والنار فإنه لا يؤمن بشىء من ذلك. وربما جرأه على كتابة هذه الوصية معرفته أن أحدا لم يطلع على "شخصية محمد" خارج الدائرة التى يطمئن إلى أنها لن تفشى سر الكتاب وما فيه من بلايا ورزايا. أنا لا أصادر حريته ولا حرية أحد غيره فى الاعتقاد بما يريد، لكنى لا أحب هذه المناورة والمداورة، ولا أحب الدفاع المقيت الذى انبرى له مصطفى على فى كتابه المذكور لتحسين صورته ومخادعة القراء عن حقيقة أمره.

زوجات النبى: بدأ الرصافى هذا الموضوع بالحديث عن عدد الزوجات المسموح به للرجل فى الإسلام. وقد أقر بأن القرآن سمح له بأربع زوجات لا يزيد عن ذلك، اللّهم إلا إذا اتخذ له نساء من الإماء، أى ملك اليمين. لكنه سرعان ما حاص فأنكر أن يكون القرآن قد سمح بأربع زوجات فعلا، إذ اشترط لهذا السماح أن يعدل الرجل بين زوجاته الأربع. وهذا موجود فعلا فى أول سورة "النساء". وقرب أواخرها قررت نفس السورة أنه لا يمكن البشرَ العدلُ بين النساء مهما حرصوا على ذلك. وهو ما يخرج منه الرصافى وآخرون بأن تعدد الزوجات ممنوع فى الإسلام. أى أن القرآن يلعب معنا لعبة "حاورينى يا بطة"، فيقول شيئا هنا ثم ينفيه هناك. ونسى الرصافى عدة اعتبارات فى غاية الأهمية: ففى الوقت الذى ينفى فيه القرآن استطاعة الرجال العدل بين زوجاتهن لم يقل: ومن ثم عليكم أن تطلقوا ما زاد عن واحدة بل قال: فلا تميلوا كل

الميل فتذروها كالمعلقة. أى أن العدل المطلوب ليس هو العدل المطلق بل العدل قدر الطاقة البشرية بحيث لا يميل الزوج نحو واحدة من زوجتيه ميلا أجنف ويترك الأخرى كالمعلقة. هذه واحدة، والثانية هو أن الرسول قد وضح لنا العدل المراد، ألا وهو العدل فى المعاملة بأن يكون لكل من الزوجتين أيام وليال بعدد ما للزوجة الأخرى، وأن تكون نفقة هذه كنفقة تلك، وقيمة ملابسها كقيمة ملابس الأخرى... إلخ. أما الحب والاشتهاء وما إلى هذا فذلك أمر ليس فى يد الإنسان، فلا يحرِّم الله أن يحب الرجل إحدى زوجتيه أكثر من الأخرى لأن القلوب بيد الرحمن. وكان الرسول يدعو الله قائلا عن العدل الخارجى الذى شرحناه آنفا إن هذا قسمه فيما يملك، أما قسم ما لا يملك من العواطف والمشاعر فليسامحه سبحانه فيه.

وفى تفسير ابن كثير مثلا: "قَوْلُهُ تعالى: "وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ"، أَى لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تُسَاوُوا بَيْنَ النِّسَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ حَصَلَ الْقَسْم الصُّورِى: لَيْلَةً وَلَيْلَةً، فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفَاوُتِ فِى الْمَحَبَّةِ وَالشَّهْوَةِ وَالْجِمَاعِ كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وعُبَيْدة السَّلْمَانى وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ الْبَصْرِى وَالضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ. وَقَدْ قَالَ ابْنُ أَبِى حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعة: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِى شَيْبَةَ: حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ الْجُعْفِى عَنْ زَائِدَةَ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ رُفَيع عَنِ ابْنِ أَبِى مُلَيْكة قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: "وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ" فِى عَائِشَةَ. يَعْنِى أَنَّ النَّبِى صلى الله عليه وسلم كَانَ يُحِبُّهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا كَمَا جَاءَ فِى الْحَدِيثِ الَّذِى رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ حمَّاد بْنِ سَلَمَةَ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبِى قِلابة عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ، ثُمَّ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمى فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِى فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ". يَعْنِى الْقَلْبَ. لَفْظُ أَبِى دَاوُد، وَهَذَا إِسْنَادٌ

صَحِيحٌ، لَكِنْ قَالَ التِّرْمِذِى: رَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبِى قِلَابَةَ مُرْسَلًا قَالَ: وَهَذَا أَصَحُّ. وَقَوْلُهُ: "فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ"، أَى فَإِذَا مِلْتُمْ إلى وَاحِدَةٍ مِنْهُنّ فَلَا تُبَالِغُوا فِى الْمَيْلِ بِالْكُلِّيَّةِ، "فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ"، أَى فَتَبْقَى هَذِهِ الْأُخْرَى مُعَلَّقة. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالسُّدِّى وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: مَعْنَاهُ لَا ذَاتَ زَوْجٍ وَلَا مُطَلَّقَةً. وَقَدْ قَالَ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِى: أَنْبَأَنَا هَمَّام عَنْ قَتَادَةَ عَنِ النَّضْرِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ بشير بن نَهِيك عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ فَمَالَ إلى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ سَاقِطٌ. وَهَكَذَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ مِنْ حَدِيثِ همَّام بْنِ يَحْيَى عَنْ قَتَادَةَ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِى: إِنَّمَا أَسْنَدَهُ همَّام، ورواه هشام الدستوائى عَنْ قَتَادَةَ. قَالَ: "كَانَ يُقَالُ". وَلَا نَعْرِفُ هَذَا الْحَدِيثَ مَرْفُوعًا إِلَّا مِنْ حَدِيثِ همَّام".

وبهذا انحسمت هذه المسألة التى يشغب بها بين الحين والحين المتغربون الذين يرتبطون بالمؤسسات الغربية ويريدون أن يطبعوا مجتمعات الإسلام بالطابع الغربى قليلا قليلا حتى يستحيل غربيا خالصا. ومعروف أن الغربيين يستحلون الزنا ولا يجدون فى اللواط والسحاق ولا فى مضاجعة الحيوانات معابة أو منقصة. وهم يعددون العشيقات والغلمان ولا يريدون منا أن نعدد الزوجات. أى أنهم يفضلون الوساخة والشذوذ على النظافة. ثم يأتى المتغربون فيريدون أن يطبعونا بهذا الطابع القذر الدنس. ثم لقد كان النبى عليه السلام معددا ولم يقتصر على زوجة واحدة، اللّهم إلا فى حياة خديجة. والطريف أن ذلك كان قبل نزول الآية التى تقيد التعدد بأربع. أما بعد وفاتها فقد عدد قبل نزول هذه الآية وبعدها. وكذلك فعل الصحابة والتابعون وتابعو التابعين حتى يوم الناس هذا. لكن الرصافى المشاغب معاشر المومسات والغلمان وغير المتزوج

ينكر على من يَتَوَخَّوْن النقاوة والطهارة ولا يغامسون القذارة والنجاسة مثله أن يتخذوا أكثر من زوجة. ومع هذا فليقتصر من يريد من الرجال على زوجة واحدة، وليبارك الله له فيها، ولكن لا يصح ولا ينبغى أن يتحكم فى غيره مثلما لا يصح ولا ينبغى عنده أن يتحكم فيه غيره. وبهذا نغلق هذا الباب. والعبد لله ليست له سوى زوجة واحدة ولم أفكر يوما فى اتخاذ ثانية، بل إنى لأستغرب كيف يستطيع الرجل الآن الجمع بين اثنتين وأرى أن الأمر يحتاج إلى مهارات خاصة، ربما لأننا فى مصر لا يكثر الرجال المتعلمون من تعدد الزوجات عادة، فنشأنا على الاقتصار فى الغالب على زوجة واحدة. لكنى لا أريد أن أشارك فى لعبة "حاورينى يا بطة" هذه ولا أرى أنظمة الغرب دائما هى الصواب فضلا عن أن تكون المثال الأعلى.

لا نكران فى أن الغرب متقدم علينا فى مضمار الحضارة بوجه عام بفارق شاسع جدا، لكن هذا لا يعنى أن كل ما يصنع الغربيون هو النموذج الذى يجب احتذاؤه، فالإلحاد فاشٍ فيهم، فهل نُلْحِد مثلهم؟ وهم يتغطرسون على الشعوب غير الغربية، فهل نصدق مزاعمهم الكاذبة الإجرامية بأن جنسهم أفضل الأجناس، ونحن نعلم أنهم إلى وقت قريب كانوا متوحشين، وكنا نحن المتحضرين؟ كما أنهم يشربون الخمر على نطاق واسع ولا يرون فيها شيئا، فهل نشرب الخمر ونَسْكَر سُكْرَهم؟ وهم يأكلون الخنزير، فهل نأكله نحن أيضا؟ ونساؤهم يتعرَّيْنَ، فهل ينبغى أن تتعرى نساؤنا مثل نسائهم؟ وهم يأكلون الربا ولا يجدون فيه غضاضة، فهل نرابى مثلهم؟ أما العلم والابتكار والإبداع والنظام والتخطيط ونظافة الشوارع والطرق والإقبال على العمل والإنتاج بكل طاقتهم وارتفاع مستوى المعيشة وطول الأعمار والعدل والمساواة وحرية

القول والاعتقاد وحبهم للإتقان وحرصهم على التفوق والغلبة وتسيد الأمم الأخرى فهذا ما ينبغى أن ننافسهم بل ونتفوق عليهم فيه.

المصيبة الكبرى أن الرصافى يقول إن المسلمين فى عهد محمد وبعده من صحابة وتابعين ومن تلاهم حتى يومنا هذا لم يتنبهوا إلى ما تنبه هو إليه من أن القرآن يحرم التعدد. معنى ذلك أنه فهم القرآن الذى ألفه محمد أكثر من محمد نفسه وأكثر من الناس الذين كانوا يصاحبون محمدا ليل نهار، فعددوا وزاغوا عن الحق وهو معهم يراهم ويسمع بهم ويعدد مثلهم ولم يفهم هو نفسه كلامه الذى قاله فى القرآن من أن تعدد الزوجات ممنوع. أرأيتم فجورا فى القول والكتابة أكثر من هذا؟ وهو يرى أن محمدا كان يجب عليه فور نزول آية التحديد أن يسرح زوجاته ويبقى منهن أربعا لا غير، ولا يقتنع كاتبنا خيبه الله بأن هذا وضع خاص به صلى الله عليه وسلم بل يصمه بأنه وضع غريب، وأغرب منه الحديث التالى: "فُضِّلْتُ على الناس بأربع: بالسخاء والشجاعة وقوة البطش وكثرة الجماع". ثم أورد عن كل من أبى رافع مولاه وسلمى مولاته القول بأن رسول الله طاف على نسائه التسع ليلة وتطهر من كل واحدة قبل أن يأتى الأخرى، ونقل عن ابن القيم أنه كان يطوف على نسائه فى ا لليلة الواحدة، وأُعْطِىَ قوة ثلاثين فى الجماع وغيره. وهو يرجع ذلك إلى أن أعصابه كانت فى تهيج مستمر وأن الجماع كان خير مسكن لأعصابه، كما كان يلجأ إلى الصلاة إذا اعتراه فتكون له خير سلوى لأن نفسه تتجه إلى الله حينئذ، فتشغلها العبادة عما هو فيه من هموم وأحزان. وهو يرجح أنه عليه السلام كان يجامع خديجة مجامعته لتسع نسوة... إلخ. ولهذا ما إن ماتت حتى تزوج سودة بنت زمعة وعقد على عائشة (ص٣٤٨ وما بعدها). ورغم هذا يعود فيقول إن خديجة لم تكن تكفيه جنسيا ولولا أنه رجل نبيل لأقدم على الزواج عليها من مالها، لكنه

صبر وصابر احتراما لتعلقها به وحبها الشديد له. إذن فمحمد، يا رصافى، يمكنه كبح جماح شهواته بكل يسر، وهو رجل نبيل. كذلك لو كان شهوانيا لا يشغله شىء سوى الشهوة ما غضب لخديجة عندما ذكرتها عائشة بما آلمه ولكان قد انحاز إلى عائشة البِكْر النضرة الجميلة الظريفة الروح التى تمثل الشباب والحاضر والمستقبل وتجلب السعادة وتطرد الأتراح. أليس كذلك يا رصافى حسب تحليلاتك التافهة؟ لكنه تصرف على العكس من ذلك وجاء تعليقه محطما لكل ما تقول من سخافات ووساخات فكرية. والغريب أن الرصافى قد لحس ما قاله من أن النبى كان يجامع خديجة تسع مرات فى الليلة الواحدة إذ كانت شهوته دائما متوقدة بل متلظية فيقول إنه لم يكن يحبها حب عاشق بخلاف حبه لعائشة، الذى كان عنيفا متضرما (ص٣٥٧). ومعنى هذا أن كلامه مما ينطبق عليه قولنا فى مصر عن أى شىء غير متسق بعضه مع بعض ولا معنى له: سمك! لبن! تمر هندى!

ونحن، وإن كنا لا نجد فى عُرَام الشهوة عيبا فى صاحبه لأن أيا منا نحن البشر لم يخلق نفسه ولم يصغها على هذا النحو أو ذاك، علاوة على أن الشهوة الجنسية ليس فيها ما يعيب بل هى لذة من لذات الحياة ولولاها ما استمرت الحياة، لا نرى ما يراه هذا الموكوس. لقد ظل النبى عليه السلام حتى الخامسة والعشرين عَزَبًا، ولم يرد عنه أنه كان قلقا مستوفَزا يتحرش بالنساء أو حتى يبحث عن زوجة، وإنما عُرِض عليه الزواج من خديجة عرضا. كما كان يخلو بنفسه فى غار حراء الليالى ذوات العدد. وشخصٌ مثلُه متهيجُ الشهوة الجنسية على النحو الذى يعرضه به الرصافى لا يمكن أن يفكر فى ترك زوجته ليلة واحدة بل ولا ساعة واحدة. بل لم يكن ليفكر فى نبوة ولا غيرها بل فى البقاء بجوار خديجة ليل نهار لا شغلة ولا مشغلة غير ممارسة الجنس، فيخرج من جماع إلى

جماع، ومن جماع ثالث إلى جماع رابع... وهكذا دواليك إلى أن يتمه تسع مرات ثم ينطرح على الفراش لا يقوم إلا فى اليوم التالى ليستأنف الجماع من جديد... وهكذا دواليك لا يصنع شيئا سوى الجماع، والجماع وحده. وهل تحلو الدنيا يا عشير المومسات إلا بالجماع؟ خيبك الله يا رصافى! لقد قلتَ إنك لا تصدق التاريخ ولا تقبل الأحاديث لأن هذا كله كذب، لكنى ألاحظ أنك ما إن تقع على ما تتصورأنه يشين النبى عليه السلام حتى تنسى تنوُّقك فى تكذيب الأخبار والروايات وتعض عليه بأنيابك القبيحة النتنة القذرة متلذذا وكأنك تجامع غلاما من الغلمان.

بالله كيف نصدق هذا، ونحن وأنت نعرف كيف كانت النبوة وأعباؤها فى مكة تهد حيل أجعص الرجال، فما بالك حين انضاف إليها فى المدينة عبء تسيير أمور الدولة والمجتمع والحروب والغزوات والقضاء والتعليم والصلوات مفروضةً ونوافلَ وغير ذلك؟ وإذا كان محمد متيما بل مشتهيا للنساء بهذه الطريقة فكيف لم يستجب لما كانت زوجاته يطالبنه به من السماح بشىء من الترفيه فى معيشتهن؟ إن الشهوانى من هذا الطراز ليعمل كل وكده فى إرضاء نسائه حتى يمتعنه ولا ينكدن عليه، وينفق على الطعام والملابس والمسكن شيئا وشويّات حتى يخلق الجو الملائم لممارسة الجنس براحته وعلى نحو ما يشتهى. لكن الرسول خاصم زوجاته جميعهن شهرا كاملا، ولم نسمع عنه أنه كان يقضى لياليه خلال ذلك يتقلب على الجنبين لا يقر له قرارا وينفخ ولا يطيق أحدا حوله ولا حتى نفسه لحرمانه من ممارسة الجنس. وهناك شهر آخر قضاه النبى بعيدا عن زوجاته هو شهر الإفك. ولو كانت شهوته بهذا التوفز لكان قد رمى الموضوع وراء ظهره وتزوج غير عائشة وأراح نفسه من هذا القلق والحرمان اللذين كان يصطلى نارهما طوال ذلك الشهر. ولقد كان ابن عباس يذهب أحيانا فيبيت مع خالته ميمونة أم

المؤمنين فى ليلتها مع النبى، وحكى لنا ذات مرة أنه صلى الله عليه وسلم كان ينهض بين الحين والحين ليصلى إلى أن حان الفجر. ولا أظنه عليه السلام كان يفعل شيئا مختلفا اختلافا كبيرا عن هذا فى لياليه الأخرى مع باقى نسائه الطاهرات. كذلك لو كانت شهوته من العنف والهيجان إلى هذا الحد لتزوج كل أسبوع، أو على أطول تقدير: كل شهر، واحدة من أحلى بنات من حوله من الصحابة ولكانوا بذلك من أسعد السعداء وأفخر الفاخرين.

ثم ما معنى أن يطوف الواحد بتسع نساء فى ليلة واحدة؟ هل سيلقى على كل منهن تحية المساء ثم ينطلق إلى غيرها؟ إن الكلام هنا عن معاشرة جنسية وعاطفية تأخذ وقتا فى التهيؤ الجسدى والنفسى والعقلى بحيث تحتاج إلى زمن غير قصير. كما أن الإنسان يحتاج إلى فترة انتظار بعد المعاشرة حتى تعود إليه رغبته وقدرته وتحمسه لمعاشرة أخرى، وإلا تحول الإنسان فى هذه الحالة إلى آلة لا تشعر ولا تفكر ولا تحتاج إلى راحة واستجمام وتهيؤ من جديد. لا بل إن الآلات نفسها لتحتاج إلى راحة وصيانة ومراجعة وتزييت وتشحيم وإصلاح وتغيير لبعض القطع التالفة حتى تستمر فى العمل. ثم هل باستطاعة الإنسان معاشرة كل هذا العدد فى ليلة واحدة؟ إن الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله الكريم بأن يقول: "إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ". فهو إذن بشر كسائر البشر إلا فى النبوة: إنه يأكل ويشرب، ويجوع ويشبع، وينام ويستيقظ، ويصح ويمرض، ويتعب ويرتاح، ويمشى فى الأسواق ويستكن فى المنزل، ويعبد ربه ويدبر أمور أمته وينهض بحاجات أسرته... إلى آخره كما يحدث لكل البشر وكما يحدث منهم. وفوق هذا فالحديث الخاص بمجامعته لزوجاته كلهن فى ليلة واحدة معناه أنه لن يكون عنده وقت لعمل أى شىء آخر، فلا صلاة ولا ذكر ولا نوم ولا راحة ولا كلام

مع أى من زوجاته فى أى موضوع ولا حتى استماع لما يمكن أن تحكيه له مثلا من مشاكل بينها وبين ضَرَّاتها كما يقع فى كل البيوت التى تضم عددا من الزوجات لرجل واحد ولا أكل ولا شرب ولا قضاء حاجة ولا ملل ولا إرهاق. ذلك أن أمامه تسع نساء لا بد من المرور عليهن والفراغ منهن واحدة واحدة بالتمام والكمال فى نفس الليلة.

كذلك فالمعروف أنه صلى الله عليه وسلم كان يخصص لكل من نسائه رضى الله عنهن ليلة لا تشاركها فيها أحد، والرصافى نفسه قد ذكر ذلك عدة مرات فى كتابه الذى بين أيدينا ولم يتردد فيه أو يجادل أو يستدرك (ص٣٥٩)، فمن أين جاء أنه كان يجامعهن كلهن فى نفس الليلة؟ وكيف كانت كل منهن تقبل أن ينسل من فراشها مسرعا إلى فراش ضرتها ليقضى منها وطرا دون أن تشعر بغضاضة فى نفسها وغيرة تؤلمها؟ ونحن نعرف الرواية الأخرى التى تقول إنه عليه السلام عاشر مارية القبطية فى يوم حفصة، فقامت الدنيا ولم تقعد وعدت هذا عدوانا على يومها وكانت حكاية لها ما بعدها. فكيف إذا كانت المعاشرة لا تقتصر على واحدة أخرى بل تمتد إلى الثمانى الأخريات جميعهن؟ إننى لا أفسر آيات سورة "التحريم" على هذا النحو بل أرى أن الأمر يتعلق بشربه صلى الله عليه وسلم العسل عند إحدى زوجاته وقول ضَرَّة من ضَرَّاتها له إنه أكل مغافير... إلخ. ولكنى أحب أن أنبه إلى أننا لو لم نعمل عقولنا فى مثل تلك الأحاديث لألفينا أنفسنا فى حيص بيص. وإعمال العقل ليس معناه تحكيم الرأى الشخصى على سبيل التعنت كما يصنع الرصافى غالبا، بل معناه استصحاب الفهم الواسع والعميق للطبيعة البشرية وأوضاع المجتمع والجو العام والنصوص القرآنية والحديثية الأخرى وشخصية الرسول فى مجملها... إلخ. ومعروف أن سودة بعدما كبرت قد تنازلت لعائشة عن ليلتها. فهذا التنازل لن يكون له معنى لأن النبى ما دام

يمر على نسائه جمعاوات فى ليلة واحدة سوف يمر على عائشة فى الحالتين، ومن ثم لا لزوم لتنازل سودة لها لأنه تحصيل حاصل. إن الرصافى يربط بين عرامة الشهوة الجنسية عند النبى وبين الصَّرْع الذى يتهمه عليه السلام بأنه كان مصابا به، فهل ثم حلقة تصل بين الأمرين؟ إنه يتحدث فى هذه الموضوعات من مخه المثقوب مباشرة ولا يرجع إلى كتب طب أو تحليل نفسى أو ما أشبه، وهو ما فعلتُ عكسه حين ناقشت تهمة الصَّرْع فى موضع آخر من هذا الكتاب الذى يطالعه القارئ الآن. إن الرصافى يرمى بالكلمة ولا يبالى ما تجره وراءها، وكل ما يهمه هو تشويه صورة النبى رغم كل ما قاله فى أول الكتاب على سبيل التخدير والمخادعة كما وضحنا أكثر من مرة. ولو كان هناك صلة بين الصرع والتهييج الجنسى المزعوم لدى النبى لما قال لخديجة مرجعه من الغار عقب ظهور جبريل له: "زملونى زملونى" أو "دثرونى دثرونى" بل لطلب منها رضى الله عنها أن تلحق به فى الفراش ولما كانت هناك حاجة إلى مشاورة ورقة ما دام الروشتة الطبية معروفة، وهى المزيد من ممارسة الجنس.

إن مثل ذلك الحديث الخاص بمجامعته زوجاته التسع فى ليلة واحدة يناقض العقل ويتنكر لطبيعة الطاقات البشرية ولا يتمشى مع ما نعرفه من قوانين الحياة البيولوجية والنفسية والاجتماعية. أما لو ثبت بعد هذا كله أن الأمر بخلاف ما نظن فالسؤال هو: هل جار حبه العنيف صلى الله عليه وسلم للنساء بالصورة المتجاوزة التى قُدِّم بها فى الأحاديث محل نقاشنا الآن على تأدية واجباته كرسول وحاكم وقاض وقائد حربى وأب وصديق وفرد فى مجتمع له عاداته وتقاليده التى ينبغى أن تراعى وأن يقوم فيه كل عضو من أعضائه بواجباته تجاه الآخرين؟ هذا هو السؤال. ولقد قال الرصافى ذاته إن محمدا قد نهض بعبء لم ينهض به أحد فى التاريخ كله وأنجز ما عجز عنه كل

البشر. فماذا يريد من الرسول إذن؟ ولماذا يثير كل تلك الضجة؟ وعلام؟ وما الجدوى من وراء إثارتها؟ ومرة أخرى لقد أكدتَ يا رصافى فى أول كتابك أنك لا تصدق التاريخ ورواياته، فلم كل ذلك التحمس فى تصديق مثل تلك الأحاديث رغم أنك لو عرضتها على عقلك، الذى قلتَ إنك تتخذه هاديا لك فى غربلة أحداث التاريخ وردّ ما تردُّه منها وقبول ما تقبله، لما تقبَّلها؟ أم إن عقلك عندما يسمع اسم محمد ينكص على عقبيه ويصيبه التشويش ويزمجر ويتعطل؟

وقد ذكرنى كلام الرصافى فى هذا الموضوع بانتقاد العالم والكاتب البريطانى هربرت جورج ولز للرسول عليه السلام فى كتابه المشهور: " A Short History of the World" فى عدد من جوانب شخصيته وتصرفاته، ومنها انشغاله الشديد بالنساء فى سنواته الأخيرة، وإن كان قد مدحه وأثنى عليه فى بعض الجوانب الأخرى، فقد تصادف أن طالعت فى سيرته الذاتية: "Experiment in Autobiography" أنه كان فى البيت وحده ذات ضحى مع مساعدته فى عمله، إذ خرجت زوجته وعمته لقضاء بعض المصالح، فمارس الجنس معها: هكذا بكل بساطة ودون اعتبار لأى شىء. كما ذكر أنه مارس الجنس مع كثيرات. فضحكتُ وقلتُ فى نفسى: آه يا خلبوص! تنتقد النبى محمدا الطاهر الشريف، وأنت خائنٌ وزَانٍ قراريّ من الدرجة الأولى؟ إخص عليك! بالمناسبة قرأت تلك الفقرات جالسا على كنبة خشبية لصق قسم الشرطة الخاص بوسط المدينة فى أكسفورد فى أواخر سبعينات القرن الماضى، وكنت ذهبت لمراجعة بلاغى بسرقة دراجتى، فلما خرجت جلست على الكنبة المذكورة وشرعت أقلب الكتاب الذى كنت اشتريته فى ذلك الصباح من مكتبة "بلَاكْ وِلْ" وأقرأ،

فتصادف أن وقعت عينى على هذه الحكاية الخلبوصية، فضحكت قائلا: الله يخرب بيتك وبيت شيطانك فى يوم واحد يا وِلْز يا ابن أم وِلْز.

ومما نقله الرصافى من "السيرة الحلبية" فيما يتعلق بزوجاته صلى الله عليه وسلم وعَضَّ عليه بأنيابه وأضراسه وعرضه علينا فى بهجة وشماتة ما تقوله بعض الروايات المضحكة من أن رسول الله، إبان مرض خديجة الأخير الذى توفيت فيه، قد زَفَّ لها نبأ تزوجه فى الجنة عليها بمريم ابنة عمران وكلثم أخت موسى وآسية امرأة فرعون، وكأنه يبشرها بالإبلال من مرضها وعودة عافيتها إليها، ثم عقب مخطِّئا له صلى الله عليه وسلم بأنه لم يراع أصول اللياقة بل أراد أن يفهمها أنه قد وفى لها فى الدنيا، وكان يستطيع أن يتزوج عليها، وعليها الآن أن ترضى بأن يتزوج عليها فى الآخرة. يقصد أنه يمن عليها بهذا الوفاء، ويومئ إلى أنه قد الأوان لأن ينطلق دون مراعاة لذلك الاعتبار (ص٣٥٧- ٣٥٨). وهو كلامٌ سخيفٌ سُخْفَ من رَوَوْه لأن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يكون فظا غليظ القلب لا يرعى مشاعر الآخرين إلى هذا الحد، وبخاصة أحب الناس إلى قلبه زوجته المحبة المخلصة الوفية النبيلة الكريمة الصابرة المحتسبة خديجة. لقد علَّم أصحابه ألا يذبحوا حيوانا أمام حيوان آخر وألا يشحذوا السكين أمام الحيوان الذى سوف يذبحونه بل ألا يُرُوه السكين أصلا، فكيف يقدم على إيلام أعز زوجاته إليه بهذا الشكل؟ ومتى؟ فى أيامها الأخيرة، ودون اعتبار لعواطفها الكريمة النبيلة وحبها الشديد له! وهذا لو لم يكن حبه لها وِزَان حبها له وأكثر. ولقد حَسَّن النبى للزوج مجاملة زوجته وتأكيده لها أنه يحبها حتى لو كان الحب خامدا فى قلبه، بدلا من إيلامها وإغضابها بذكر الحقيقة، ومن ثم إفساد حياتهما الزوجية، فهل يمكن أن يصنع هذا مع خديجة، وفى هذا الظرف بالذات، وقد ظل يحبها إلى آخر نفس فى حياتها

بل إلى آخر نفس فى حياته هو، مما رأيناه حين حاولت عائشة أن تمسها بكلمة، فكان رد فعله فى غاية العنف؟

وهذا هو الحديث الذى حسَّن فيه النبى للزوج ذلك: "لا يحلُّ الكذبُ إلا فى ثلاثٍ: كذبِ الرجلِ امرأتَه ليُرضِيها، والكذبِ فى الحربِ، والكذبِ لِيصلحَ بينَ الناسِ". ثم ما الذى كان الرسول سيكسبه أو ستكسبه خديجة أو يكسبه أى إنسان من إنبائه إياها بهذه الزيجات الأخروية الثلاث؟ أكانت الدنيا ستنهدم وتنقض على رؤوس العباد لو لم يفعل؟ إطلاقا. إنه صلى الله عليه وسلم هو الرحمة المهداة. فأين الرحمة هنا؟ لا بل لقد أنبأها عليه السلام بأن الله هو من كلفه أن يعلمها بما سوف يحصل. فكأن الله سبحانه فى علاه لا يبالى بآلام تلك السيدة النبيلة التى وقفت بجوار رسوله بحبها ومالها ونبلها وإيمانها. أستغفرك يا إلهى. والله إننى لأتألم ألما شديدا وكأنى أشاهد خديجة وهى تقضى أيامها الأخيرة فلا يرحمها القدر بل ينكِّد عليها دون أى داع ويطعنها هذه الطعنة النجلاء فى وقت هى فى أشد الحاجة إلى مؤازرتها والتخفيف عنها والتدليل لها بالكلام الجميل الطيب والتبشير بأنها سوف تتعافى وتقوم قوية صحيحة كما نفعل مع مرضانا دائما. لقد سُمِّىَ العام الذى انتقلت فيه إلى الرفيق الأعلى هى وأبو طالب بـ"عام الحزن"، فكيف يتسق هذا مع ذاك؟ أم كيف يتسق هذا مع ما يقوله لنا الحديث التالى، وهو من رواية عائشة رضى الله عنها: "كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا ذكَرَ خَديجةَ لم يَكَدْ يَسأَمُ مِن ثَناءٍ عليها واستغفارٍ لها، فذكَرَها يومًا، فحمَلَتْنى الغَيرةُ فقُلتُ: لقد عَوَّضَكَ اللهُ مِن كَبيرةِ السِّنِّ! قالت: فرَأيْتُه غضِبَ غَضَبًاشديدا، فسُقِط فى يدى، وقُلتُ فى نَفْسى: اللَّهُمَّ إنْ أذهَبتَ غَضبَ رسولِكَ عنِّى لم أعُدْ أذكُرُها بسُوءٍ. فلمّا رَأى النَّبى صلى الله عليه وسلم ما لَقيتُ قال: كيف قُلتِ؟ واللهِ لقد آمنَتْ بى إذ كذَّبَنى

النّاسُ، وآوَتْنى إذ رفَضَنى النّاسُ، ورُزِقتُ منها الوَلدَ، وحُرِمتُموه منِّى. قالتْ: فغَدا وراح علَى بها شَهرًا". ولقد كان صلى الله عليه وسلم، بعد وفاتها، يجامل صديقاتها رضى الله عنها رضى واسعا ويهدى إليهن الطعام إكراما لذكراها وتعبيرا عن رسوخ حبها فى قلبه رغم وفاتها، فكيف يمكن أن يقدم على إيلامها بهذه الطريقة، وهو المثل الأعلى فى اللياقة والرحمة والعطف والكرم؟

ثم ما وجه تزوجه بهؤلاء الثلاث بالذات، وهو لم يكن مقترنا بهن فى الدنيا ولم يسبق أن رآهن ولا كان هناك ما يدفعه إلى الانشغال بهن حتى يكن زوجات له فى الجنة؟ أليست الجنة مملوءة بالحور العين من كل شكل ولون؟ ثم لماذا اكتفى النبى بثلاث نساء أخريات وحسب؟ أيكون التزاما منه بزوجات أربع فى الجنة على أساس أن خديجة رابعتهن؟ لكن تحديد عدد الزوجات بأربع لم يكن قد آن أوانه بعد، فضلا عن أنه عليه السلام لم يكن يعرف الغيب وأنه سوف يكون هناك مثل هذا التشريع. ثم ما القول فى عائشة وحفصة وزينب وصفية وجويرية مثلا؟ ألن يكنَّ زوجاته فى الفردوس أم ماذا؟ ولكن هل فى الجنة تحديد لأية متعة؟ وفى بعض الروايات أن خديجة قالت: "بالرِّفاء والبنين" تهنئ رسول الله بهذه الزيجات، التى لن تتم إلا بعد الموت ثم البعث والحساب، أى بعد دهور لا يعلمها إلا الله. فهى، من ثم، تهنئة عبثية كما نرى، علاوة على أن الجنة لا تعرف الحمل ولا الولادة، وبالتالى لا مجال للدعاء بأن يرزقه الله البنين. وفوق ذلك فقد نهى الرسول عليه السلام المسلمين عن تهنئة المتزوج "بالرفاء والبنين" على عادة أهل الجاهلية، وأمرهم عوضا عن ذلك أن يقولوا: "بارك الله لكم، وبارك عليكم" مثلا. لكن هذا إنما يكون فى الدنيا لا فى الجنة، إذ الجنة لا تحتمل غير التوافق والمحبة، فلا معنى للدعاء لأهلها بذلك. ويقول الحديث: "دخَل رسولُ اللهِ صلى الله

عليه وسلم على خديجةَ رضِى اللهُ عنها فى مرضِها الَّذى تُوُفِّيَتْ فيه فقال لها: بالكُرْهِ منِّى الَّذى أرى مِنكِ يا خديجةُ. وقد يجعَلُ اللهُ فى الكُرهِ خيرًا كثيرًا. أما علِمْتِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ زوَّجَنى معكِ فى الجَنَّةِ مريمَ بنتَ عِمرانَ وامرأةَ فرعونَ وكَلْثَمَ أختَ موسى؟ قالت: وقد فعَل اللهُ ذلك يا رسولَ اللهِ؟ قال: نعم. فقالت: بالرّفاءِ والبنينَ". وهو كلامٌ أمشاجٌ لا يرتبط بعضه ببعض، إذ ما معنى أن ينشأ عن موت خديجة وكراهية الرسول لفراقها خير كثير، ثم يكون هذا الخير الكثير أنه سوف يتزوج عليها ثلاث ضرائر فى الجنة؟ إنما يكون الخير أن يقول لها مثلا: إن الله سوف يجعلك زوجا لى فى الجنة، ولن نفترق أبدا. أما أن يؤلمها ويصدمها فى هذه اللحظات التى لا تحتاج إلى مزيد من الآلام فذاك غريب جد غريب. الواقع أن هذه رواية سخيفة سخف تنطع الرصافى وزعمه أنه لا يثق بما يقوله التاريخ، وهو إنما يصدِّق التاريخ حين يأتى ما يرويه التاريخ على هواه مما يمكن أن يلويه فى الاتجاه الذى يريده خدمةً لغايته فى الشماتة والانتقاص.

وفى "الدرر السنية" تكرر الحكم على الحديث بأنه موضوع وضعيف وغير محفوظ وأن فى إسناده نظرا... وعلى كل حال فإن الأمر فى كتب الحديث لا ينبغى أن يتوقف عند الأسانيد كما هو الحال بوجه عام لدى أهل ذلك العلم بل لا بد أن يشترك العقل الرحيب المخلص والوفى لدينه والمثقف ثقافة واسعة إسلامية وغير إسلامية فى هذا. ثم هل كان متوقعا أن تكون خديجة أسمح مثلا من زوجة عبد الوهاب الشعرانى كما حدثنا هو عنها فى سيرته الذاتية فى النص التالى؟ لقد ضحكتُ كثيرا وأنا أقرأ الحكاية التى قصها علينا ذلك المتصوف الشهير عن إحدى زوجاته وغيرتها العنيفة من ضَرّتها رغم أنها ليست ضَرّة حقيقية بل ضَرّة متوهَّمَة. قال: "ومما مَنَّ الله تبارك وتعالى به علىَّ إقامةُ العذر لزوجتى إذا تزوجتُ عليها أو تَسَرَّيْت، ولا أطالبها بالصبر جزما لعلمى بأن

ذلك لا تطيقه غالب النساء. وقد وقع لزوجتى أم عبد الرحمن أننى مزحتُ معها يوما وقلت لها: أنا أَسْبِق إلى الجنة بضَرَّتك تفرش لك بيتك وتملأ لك الأباريق وتنتظرك حتى تجيئى إلينا. فحلفت بالله العظيم إنها لو دخلت الجنة ورأت ضَرَّتها هناك رجعت وأقامت خارج الجنة أبد الآبدين حَلِفًا لا تورية فيه".

وعند تناوله لزواج النبى عليه السلام من عائشة تطرَّق الرصافى إلى حادثة الإفك، وكان كلامه فى كلا الموضوعين كلاما طيبا لا اعتراض لنا على شىء فيه حتى لقد استغربت أن عقاربه لم تَدِبَّ الضَّرَاء فى سيرة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بل بالعكس دافع عنها وعن صفوان بن المعطل بكل قوة وأريحية، لأفاجأ فى آخر الكلام بقوله عن آيات الإفك: "ولا شك أن ما كانت عليه عائشة من حزن واكتئاب حين جلس رسول الله عندها فى بيت أبويها وما قالته له فى جوابها وما قاله أبوها بعد ذلك قد أثر فى نفس محمد تأثيرا عميقا، فتهيجت أعصابه حتى أخذته نوبته العصبية المعهودة وهو متجه النفس إلى قضية الإفك ومطمئن القلب بالبراءة، فكانت النتيجة من تلك النوبة نزول الوحى بتلك الآيات. وقد علمتَ أن محمدا لم يُنْزِل هذا الوحىَ إلا بعدما ظل بضعا وثلاثين ليلة يسأل ويستشير ويحقق ويسمع أقوال الناس فى زوجته، التى هو أعلم الخلق بها وأعرفهم بطَوِيَّتها. فليت شعرى أية حاجة تبقى فى إنزال هذا الوحى إلى جبريل؟ ولا جرم بأن الوحى النازل بالقرآن كان أكثره ينزل على هذا النمط" (ص٣٨٣)، وهو ما يعنى أنه لا وحى ولا يحزنون بل القرآن كله من صنع محمد، وإن زعم محمد أنه ينزل عليه من السماء بوساطة جبريل. فهو الذى ألف تلك الآيات بعد أن اطمأن تماما إلى براءة عائشة وتحقق من ذلك بكل الوسائل الطبيعية على مدار أكثر من شهر ومن خلال كل الأشخاص الذين يعرفونها.

وقد عالجنا هذا التخليط والتخبيط الرصافى الذى يتهم فيه كاتبنا الرسول عليه السلام بتأليف الوحى والادعاء بأنه يأتيه مع جبريل من عند الله جل وعلا، وبينَّا باستفاضة أن هذا لا يمكن أن يكون، وسقنا البراهين على ذلك. ونكتفى هنا بالقول مرة أخرى بأن هذا التهيج العصبى الذى يأخذ شكل صرع وانفصال عن العالم الخارجى لا يمكن أن ينتج عنه شىء من الفكر ولا الكلام، فضلا عن أن يكون كلاما رائعا محكما بديعا وسلسا عذبا كالذى نقرؤه فى هذه السورة وفى غيرها، فالمصروع المتهيج يقوم من نوبة الصرع وهو مظلم العقل مشوش المشاعر. وهذا معروف بالمشاهدة ومن خلال ما يقوله الأطباء فى هذا الشأن. بيد أن الرصافى يتصور أنه يمكن أن يضحك على قرائه ويوهمهم، بما يسوق من أكاذيب وتلفيقات، بأنه يقول كلاما علميا. وإلى جانب هذا هناك أسلوب النص القرآنى الخاص بحادثة الإفك، ولو قارناه بأسلوب الأحاديث، أو عكسنا المسألة فقارنّا بين أسلوب الأحاديث المتعلقة بالزنا وأسلوب القرآن، لوجدنا الأسلوبين مختلفين مما يدل من هذه الناحية على أن مبدع القرآن الكريم ليس هو صاحب الأحاديث المشرفة.

فمن ذلك أنه لم يحدث أن استعمل النبى فى كلامه ضمير جماعة المتكلمين لنفسه: "نحن– نا" على عكس ما هو فى القرآن، إذ يستخدم الله سبحانه لنفسه هذا الضمير كثيرا جدا كما فى أول سورة "النور": "سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون"، فضلا عن تكرره فى طوايا السورة مرتين أخريين. ولو كان القرآن من عند رسول الله لأفلت منه لسانه ولو مرة فاستعمل لنفسه ضمير جماعة المتكلمين مهما كان حريصا على ألا يفعل.

ويستخدم القرآن فى الاتهام بالزنا كلمة "رمى" كما هو الحال فى سورة "النور" التى نحن بصددها الآن: "والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين"، "إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعِنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم" فى حين تستخدم الأحاديث كلمة "قذف": "المسلمونَ عُدولٌ بعضُهم على بعضٍ إلا محدودًا فى قَذْفٍ"، "الرَّجُلُ إذا قذَفَ عبدَه وهو بَريءٌ ممّا يقولُ جُلِدَ الحَدَّ يومَ القيامةِ"، "اجتنِبوا الكبائرَ السبعَ: الشركُ باللهِ، وقتلُ النَّفسِ، والفرارُ من الزَّحفِ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الرِّبا، وقذفُ المحصنَةِ، والتَّعرُّبُ بعد الهجرةِ"، "إنَّ قذفَ المُحصَنةِ يهدِمُ عملَ مائةِ سنةٍ"، "إنَّ المُفْلِسَ من أُمَّتى مَن يأتى يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتى وقد شتَم هذا، وقذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فيُعْطَى هذا من حَسناتِه، وهذا من حسناتِه، فإن فَنِيَتْ حَسناتُه قبلَ أن يُقْضَى ما عليهِ أُخِذَ من خطاياهم، فطُرِحَتْ عليهِ، ثمَّ طُرِحَ فى النّارِ".

وفى الحديث الشريف المتعلق باللعان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المرأة التى لاعنت زوجها وأصرت على الإنكار ثم ولدت بعد ذلك ولدا يشبه عشيقها: "لولا ما سَبقَ مِن كتابِ اللَّهِ لَكانَ لى ولَها شأنٌ" فى حين أن التركيب المستعمل فى القرآن (فى سورة "الأنفال"): "لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم". فكما نرى فالتركيبان متعاكسان: أحدهما يقول: "ما سبق من كتاب الله"، والآخر يقول: "كتاب من الله سبق"، فضلا عن أن السياقين مختلفان. نعم هناك رواية للحديث ترد فيه العبارة المذكورة هكذا: "لولا ما مضى مِن كتابِ اللَّهِ لَكانَ لَنا ولَها شأنٌ"، لكن التركيب هنا أيضا كما فى الروايات الأخرى معاكس لتركيب العبارة

القرآنية المشابهة. وهذا هو المهم. كذلك فرواة الأحاديث يستخدمون فى وصف المواجهة التى تقام بين الزوج المتهِم لزوجته بالزنا دون شهود غيره وبين زوجته كلمات "لاعن واللعان والملاعنة والمتلاعنَيْن"، لكن القرآن لا يستخدم هذا الوصف أبدا، بل يسرد فقط الحوار الذى ينبغى أن تقوم عليه المواجهة دون أن يستخدم له هذا المصطلح. وفى الوقت الذى يقول القرآن فى سورتنا الحالية: "الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحُرِّم ذلك على المؤمنين" يقول الرسول فى نفس الموضوع: "لا يزنى الزّانى حين يزنى وهو مؤمنٌ ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولكنَّ التوبةَ معروضةٌ". والفرق بين النصين وبين السياقين واضح أشد الوضوح.

كذلك نجد أن كلمة "هَلَّا" التحضيضية التى وردت فى قوله صلى الله عليه وسلم عن ماعز حين كان يُرْجَم، واستطاع أن يفر من الحجارة المتساقطة عليه فأمسكه رجل وقتله بوظيف بعير: "هلا تركتُموه لعلَّه أن يتوبَ فيتوبَ اللهُ عليه"، هذه الكلمة قد ترددت فى أحاديث رسول الله على نحو لافت للنظر، ومع هذا لا وجود لها فى القرآن البتة: لا فى سياق الكلام عن الزنا ولا فى أى سياق آخر. وهذه أمثلتها من الحديث الشريف: "هلا تركتُموه لعلَّه أن يتوبَ فيتوبَ اللهُ عليه. هلّا أحدَدتَ شَفْرتَك قبلَ أن تُضْجِعَها. هلّا نزعتم جِلدها فدبغتموهُ فانتفعتُم بهِ. هلّا أذكرتَنيها. هلّا كنتَ نحرتَها. هلّا تركتَ الشَّيخَ حتّى آتيَه. هلّا آذَنْتُمونى بِها. هلّا كان قبلَ أنْ تَأْتيَنى به. هَلّا وُضِعَتْ هذِه اللَّبِنَةُ. هَلّا احتَطْتَ. هلّا تَيَمَّمْتَ الصعيدَ. هلا بِكْرا تلاعبكَ وتلاعبُها. هلّا انتقَيْتَ لنا مِن رُطَبِه. هلا قرأت "والشَّمْسِ وَضُحاها" و"سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ" ونحوهما.

هَلّا كَسَوْتَها بعضَ أهلِكَ. هلّا قلتَ: اللَّهمَّ آتِنا فى الدُّنيا حسنةً وفى الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النّارِ".

وفى قصة الإفك يقول رسول الله لعائشة: "إن كنتِ ألممتِ بذنب فاستغفرى الله وتوبى" جاعلا فعل الشرط هو الفعل: "كان" المسند إلى المخاطب المفرد + فعل ماض آخَر، وهو ما يسمى فى الإنجليزية: "الماضى البعيد". وفى الحديث أمثلة أخرى على هذا التركيب: "إن كنتِ ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى. إنْ كُنْتِ نَذَرْتِ فاضْرِبى. إذن نرجمُك إن كنتَ أحصنتَ. إذا جئتَ فصَلِّ مع الناسِ، وإنْ كنتَ صلَّيتَ. إن كنتَ خُلِقْتَ للجنَّةِ فما طالَ من عُمْرِكَ أو حسُنَ من عملِكَ فَهوَ خيرٌ لَكَ. سَمِعَ النَّبى صلى الله عليه وسلم رَجُلًا يُلَبِّى عن رَجُلٍ فقال: إنْ كنتَ حَجَجتَ، وإلّا فحُجَّ عن نَفسِكَ. إنْ كنْتَ صُمْتَ مِنْ سَرَرِ هذا الشهرِ شيئًا، وإلّا فإذا أفطرَ الناسُ فصمْ يومَيْنِ. إنْ كُنْتَ وجَدْتَهُ فى قَرْيَةٍ مَسْكُونَةٍ أوْ سَبيلٍ مَيْتاءَ فَعَرِّفْهُ، وإنْ كُنْتَ وجَدْتَهُ فى خَرِبَةٍ جاهِلِيَّةٍ أوْ فى قَرْيَةٍ غَيْرِ مَسْكُونَةٍ أوْ غَيْرِ سَبيلٍ مَيْتاءَ فَفيهِ وفى الرِّكازِ الخُمُسُ. إنْ كُنتِ نَذَرتِ فافْعَلى. إنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْها فَهُو بما اسْتَحْلَلْتَ مِن فَرْجِها، وإنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْها فَذاكَ أبْعَدُ وأَبْعَدُ لكَ منها. إن كنتَ أقصرتَ الخطبةَ لقد أعرضتَ المَسألةَ". ومع هذا ننظر فى القرآن فلا نعثر عليه.

وبالمثل تقابلنا فى هذه السورة مرتين جملة شرط أداتها "لولا" محذوفة الجواب: "ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم"، "ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم"، وليس لعبارة "ولولا فضل الله" على هذا الوضع التركيبى ولا على أى وضع تركيبى آخر وجود فى أحاديث رسول الله عليه السلام. ومثلها قوله تعالى: "يعظكم الله أن" بمعنى "يحذّركم أن"، وقد ورد فى سورة "النور"،

التى تناولت حديث الإفك: "يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين"، وكذلك فى سورة "هود": "إنى أعظك أن تكون من الجاهلين". وهناك كذلك كلمتا "الخبيثون" و"الخبيثات" (بصيغتى جمع المذكر والمؤنث السالمين) اللتان وردتا فى آيات الإفك من سورة "النور"، وتخلو منهما الأحاديث تماما رغم بحثى فيها كثيرا. فكما نرى فإن تحليل نفسية الرسول عند نزول آيات الإفك وتحليل أسلوب القرآن ومقارنته بأسلوب الحديث فى هذا الموضوع يحسمان الأمر ويثبتان أن القرآن غير الحديث، والحديث غير القرآن. ومن ثم فالقرآن ليس من صنع محمد. كذلك قد أنبأنا الرصافى فى بداية الكتاب أن محمدا كان يعرف أنه ليس نبيا بل ادعى النبوة كذبا فى سبيل المصلحة العامة: مصلحة العرب والبشرية. أما هنا فيقول إن أعصابه كانت تتهيج، ومعنى هذا أنه كان يتوهم أنه نبى ولا يزعم ذلك كذبا. وهذا تناقض من الرصافى يدل على أن تفكيره غير ناضج ويعانى من الاضطرابات والأخطاء المضحكة التى لا تليق بمن يتصور أن بمستطاعه معالجة موضوع كنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإنجازاته العظيمة.

وأخيرا وليس آخرا أترك القارئ أمام كلام القرآن وكلام الرسول عليه السلام فى النصوص الحديثية التالية ليقارن بينهما لغة ومضمونا وروحا وأسلوب تناول وليسأل نفسه: أيمكن أن يكون الكلامان مصدرهما واحد هو محمد، ومن ثم فلا وحى ولا دياولو؟ أما أنا فقد قمت على مدار عدة عقود بمقارنات متعددة ما بين القرآن والحديث، وما بين شخصية الرسول وبين ما يعكسه النص القرآنى من جلال ومهابة ورهبة وعظمة، وأما أنت أيها القارئ الكريم فعليك بنفسك، واحكم بما يراه ضميرك.

وهذا أولا صدر سورة "النور"، المتعلق بقصة الإفك وملحقاتها من حد الزنا ومن اللعان وما إلى ذلك.

قال تعالى: "سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِى لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ * الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ".

والآن مع الأحاديث التى تعالج نفس الموضوعات: عن عبدالله بن عباس: "لَمَّا أتى ماعِزُ بنُ مالِكٍ النبى صلى الله عليه وسلم قالَ له: لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أوْ غَمَزْتَ أوْ نَظَرْتَ. قالَ: لا يا رَسولَ اللَّهِ. قالَ: أنِكْتَها (لا يَكْنِى). قالَ: فَعِنْدَ ذلكَ أمَرَ برَجْمِهِ". وعن بريدة بن الحصيب الأسلمى: "جاءَ ماعزُ بنُ مالِكٍ إلى النَّبى صلى الله عليه وسلم فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ، طَهِّرنى. فقالَ: ويحَكَ! ارجِع فاستغفرِ اللَّهَ وتب إليْهِ. فرجعَ غيرَ بعيدٍ، ثمَّ جاءَهُ فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ، طَهِّرنى. فقالَ النبى صلى الله عليه وسلم مِثلَ ذلكَ: ارجِع فاستغفِرِ اللَّهَ وتُب إليْهِ. فرجعَ غيرَ بعيدٍ ثمَّ جاءَهُ فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ، طَهِّرنى. فقالَ النَّبى صلى الله عليه وسلم مثلَ ذلِكَ حتّى إذا كانتِ الرّابعةُ فقالَ لَهُ النَّبى صلى الله عليه وسلم: مِمَّ أطَهِّرُكَ؟ قالَ: مِنَ الزِّنا. فسألَهُ النَّبى صلى الله عليه وسلم:

أبِك جنونٌ؟ فأخبرَ أَنَّهُ ليسَ بمجنونٍ. وسأَلَه: أشربتَ خمرًا؟ فقامَ رجلٌ فاستنْكَهَهُ فلم يجد منْهُ ريحَ خمرٍ، فقالَ النَّبى صلى الله عليه وسلم: أثيِّبٌ أنتَ؟ قالَ: نعَم. فأمرَ بِهِ فرُجِمَ، فَكانَ النّاسُ فيهِ فِرقتينِ: قائلٌ يقولُ: لقد هلَكَ ماعزٌ على عملِهِ. لقد أحاطت بِهِ خطيئتُهُ. وقائلٌ يقولُ: أتوبةٌ أفضلُ من توبةِ ماعزِ بنِ مالِكٍ أن جاءَ إلى رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فوضعَ يدَهُ فى يدِهِ وقالَ: اقتلنى بالحجارةِ؟ فلبثوا بذلِكَ يومينِ أو ثلاثةً، فجاءَ النَّبى صلى الله عليه وسلم وَهم جلوسٌ فسلَّمَ ثمَّ جلسَ فقالَ: استغفروا لماعزِ بنِ مالِكٍ. فقالوا: يغفرِ اللَّهُ لماعزِ بنِ مالِكٍ. فقالَ النَّبى صلى الله عليه وسلم: لقد تابَ توبةً لو قسمت بينَ مائةٍ لوسِعتْها".

وعن بريدة بن الحصيب الأسلمى: "أنَّ ماعِزَ بنَ مالِكٍ الأسْلَمِى أَتى رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّى قدْ ظَلَمْتُ نَفْسِى، وَزَنَيْتُ، وإنِّى أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِى. فَرَدَّهُ، فَلَمّا كانَ مِنَ الغَدِ أَتاهُ فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّى قدْ زَنَيْتُ. فَرَدَّهُ الثّانِيَةَ، فأرْسَلَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلى قَوْمِهِ، فَقالَ: أَتَعْلَمُونَ بعَقْلِهِ بَأْسًا؟ تُنْكِرُونَ منه شيئًا؟ فَقالوا: ما نَعْلَمُهُ إلّا وَفِى العَقْلِ مِن صالِحِينا فِيما نُرَى. فأتاهُ الثّالِثَةَ، فأرْسَلَ إليهِم أَيْضًا فَسَأَلَ عنْه، فأخْبَرُوهُ أنَّهُ لا بَأْسَ به وَلا بعَقْلِهِ. فَلَمّا كانَ الرّابِعَةَ حَفَرَ له حُفْرَةً، ثُمَّ أَمَرَ به فَرُجِمَ. قالَ: فَجاءَتِ الغامِدِيَّةُ فَقالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّى قدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِى. وإنَّه رَدَّها، فَلَمّا كانَ الغَدُ، قالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، لِمَ تَرُدُّنِى؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِى كما رَدَدْتَ ماعِزًا؟ فَواللَّهِ إنِّى لَحُبْلَى. قالَ: إمّا لا فاذْهَبِى حتّى تَلِدِى. فَلَمّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بالصَّبِى فى خِرْقَةٍ. قالَتْ: هذا قدْ وَلَدْتُهُ. قالَ: اذْهَبِى فأرْضِعِيهِ حتّى تَفْطِمِيه. فَلَمّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بالصَّبِى فى يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقالَتْ: هذا يا نَبِى اللهِ قدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعامَ. فَدَفَعَ الصَّبِى إلى رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بها فَحُفِرَ لَها إلى صَدْرِها، وَأَمَرَ النّاسَ فَرَجَمُوها،

فيُقْبِلُ خالِدُ بنُ الوَلِيدِ بحَجَرٍ، فَرَمى رَأْسَها فَتَنَضَّحَ الدَّمُ على وَجْهِ خالِدٍ فَسَبَّها، فَسَمِعَ نَبِى اللهِ صلى الله عليه وسلم سَبَّهُ إيّاها فَقالَ: مَهْلًا يا خالِدُ، فَوالَّذِى نَفْسِى بيَدِهِ لقَدْ تابَتْ تَوْبَةً لو تابَها صاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ له. ثُمَّ أَمَرَ بها فَصَلّى عَلَيْها، وَدُفِنَتْ".

وعن جد عمرو بن شعيب: "كان رَجُلٌ يُقالُ له: مَرْثَدُ بنُ أبى مَرْثَدٍ، وكان رجلًا يَحْمِلُ الْأَسْرى من مكةَ حتى يأتى بِهِمُ المدينةَ. قال: وكانتِ امرأةٌ بَغِى بمكةَ يُقالُ لها: عَناقٌ، وكانت صديقةً له، وإنه كان وَعَدَ رجلًا من أُسارَى مكةَ يَحْمِلُهُ. قال: فجِئْتُ حتى انْتَهَيْتُ إلى ظِلِّ حائِطٍ من حَوائِطِ مكةَ فى ليلةٍ مُقْمِرَةٍ. قال: فجاءت عَناقٌ فأَبْصَرَتْ سَوادَ ظِلِّى بجَنْبِ الحائطِ. فلما انْتَهَتْ إلى عَرَفَتْ فقالت: مَرْثَدٌ؟ فقلتُ: مَرْثَدٌ. قالت: مَرْحَبًا وأَهْلًا. هَلُمَّ فَبِتْ عِنْدَنا الليلةَ. قلتُ: يا عَناقُ، حَرَّمَ اللهُ الزِّنا! قالت: يا أَهْلَ الخِيامِ، هذا الرجلُ يَحْمِلُ أَسْراكُمْ. قال: فتَبِعَنِى ثَمانِيَةٌ، وسَلَكْتُ الخَنْدَمَةَ فانْتَهَيْتُ إلى كَهْفٍ أو غارٍ فَدَخَلْتُ، فجاءوا حتى قاموا على رَأْسِى فبالُوا، فظَلَّ بَوْلُهُم على رَأْسِى، وأَعْماهُمُ اللهُ عَنِّى. قال: ثم رَجَعُوا، ورَجَعْتُ إلى صاحِبِى فحَمَلْتُهُ، وكان رجلًا ثقيلًا حتى انْتَهَيْتُ إلى الإذْخِرِ، ففَكَكْتُ عنه كَبْلَهُ فجَعَلْتُ أَحْمِلُهُ ويُعْيِينِى حتى قَدِمْتُ المدينةَ. فأَتَيْتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أَنْكِحُ عَناقًا؟ (مَرَّتَيْنِ). فأَمْسَكَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فلم يَرُدَّ عَلَى شيئًا حتى نَزَلَتْ" الزّانِى لا يَنْكِحُ إلّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إلّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ "، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: يا مَرْثَدُ، الزّانِى لا يَنْكِحُ إلّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، والزّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إلّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ، فلا تَنْكِحْها".

عن عائشة أم المؤمنين: "كانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا أرَادَ سَفَرًا أقْرَعَ بيْنَ أزْوَاجِهِ، فأيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بهَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ معهُ. قالَتْ

عَائِشَةُ: فأقْرَعَ بيْنَنَا فى غَزْوَةٍ غزَاهَا، فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِى، فَخَرَجْتُ مع رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَعْدَ ما أُنْزِلَ الحِجَابُ، فكُنْتُ أُحْمَلُ فى هَوْدَجِى وأُنْزَلُ فِيهِ. فَسِرْنَا حتَّى إذَا فَرَغَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن غَزْوَتِهِ تِلكَ وقَفَلَ ودَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ آذَنَ لَيْلَةً بالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بالرَّحِيلِ، فَمَشيتُ حتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِى أقْبَلْتُ إلى رَحْلِى فَلَمَسْتُ صَدْرِى، فَإِذَا عِقْدٌ لى مِن جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِى فَحَبَسَنِى ابْتِغَاؤُهُ. قالَتْ: وأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونَنِى، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِى فَرَحَلُوهُ علَى بَعِيرِى الذى كُنْتُ أرْكَبُ عليه، وهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّى فِيهِ، وكانَ النِّسَاءُ إذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ، ولَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وحَمَلُوهُ، وكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ فَسَارُوا، ووَجَدْتُ عِقْدِى بَعْدَ ما اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وليسَ بهَا منهمْ دَاعٍ ولَا مُجِيبٌ، فتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِى الذى كُنْتُ به، وظَنَنْتُ أنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِى فَيَرْجِعُونَ إلى. فَبيْنَا أنَا جَالِسَةٌ فى مَنْزِلِى غَلَبَتْنِى عَيْنِى فَنِمْتُ، وكانَ صَفْوَانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِى ثُمَّ الذَّكْوَانِى مِن ورَاءِ الجَيْشِ، فأصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِى فَرَأَى سَوَادَ إنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِى حِينَ رَآنِى، وكانَ رَآنِى قَبْلَ الحِجَابِ. فَاسْتَيْقَظْتُ باسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِى، فَخَمَّرْتُ وجْهِى بجِلْبَابِى. ووَاللَّهِ ما تَكَلَّمْنَا بكَلِمَةٍ ولَا سَمِعْتُ منه كَلِمَةً غيرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وهَوَى حتَّى أنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ علَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بى الرَّاحِلَةَ حتَّى أتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ فى نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وهُمْ نُزُولٌ. قالَتْ: فَهَلَكَ مَن هَلَكَ، وكانَ الذى تَوَلَّى كِبْرَ الإفْكِ عبدُ اللَّهِ بنُ أُبَى بنُ سَلُولَ. قالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أنَّه كانَ يُشَاعُ ويُتَحَدَّثُ به عِنْدَهُ، فيُقِرُّهُ ويَسْتَمِعُهُ ويَسْتَوْشِيهِ. وقالَ عُرْوَةُ أيضًا: لَمْ يُسَمَّ مِن أهْلِ الإفْكِ أيضا إلَّا حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ ومِسْطَحُ بنُ أُثَاثَةَ وحَمْنَةُ بنْتُ جَحْشٍ فى نَاسٍ آخَرِينَ لا عِلْمَ لى بهِمْ، غيرَ

أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ كما قالَ اللَّهُ تعالى، وإنَّ الذى تولى كِبْرَ ذلكَ يُقَالُ له: عبدُ اللهِ بنُ أُبَى بنُ سَلُولَ. قالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانُ، وتَقُولُ: إنَّه الذى قالَ:

فَـإنَّ أَبِـى ووَالِـدَهُ وعِـرْضِي لِعِـرْضِ مُحَمَّـدٍ مِـنكُم وِقَـاءُ

قالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، والنَّاسُ يُفِيضُونَ فى قَوْلِ أَصْحَابِ الإفْكِ، لا أَشْعُرُ بشىءٍ مِن ذلكَ، وهو يَرِيبُنِى فى وجَعِى أَنِّى لا أَعْرِفُ مِن رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اللُّطْفَ الذى كُنْتُ أَرَى منه حِينَ أَشْتَكِى. إنَّما يَدْخُلُ عَلَى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيُسَلِّمُ، ثُمَّ يقولُ: كيفَ تِيكُمْ؟ ثُمَّ يَنْصَرِفُ. فَذلكَ يَرِيبُنِى ولَا أَشْعُرُ بالشَّرِّ، حتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مع أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وكانَ مُتَبَرَّزَنَا، وكُنَّا لا نَخْرُجُ إلَّا لَيْلًا إلى لَيْلٍ، وذلكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِن بُيُوتِنَا، قالَتْ: وأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فى البَرِّيَّةِ قِبَلَ الغَائِطِ، وكُنَّا نَتَأَذَّى بالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا. قالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وأُمُّ مِسْطَحٍ، وهى ابْنَةُ أَبِى رُهْمِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عبدِ مَنَافٍ، وأُمُّهَا بنْتُ صَخْرِ بنِ عَامِرٍ، خَالَةُ أَبِى بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وابنُهَا مِسْطَحُ بنُ أُثَاثَةَ بنِ عَبَّادِ بنِ المُطَّلِبِ، فأَقْبَلْتُ أَنَا وأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتى حِينَ فَرَغْنَا مِن شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فى مِرْطِهَا فَقالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلتُ لَهَا: بئْسَ ما قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقالَتْ: أى هَنْتَاهْ، ولَمْ تَسْمَعِى ما قالَ؟ قالَتْ: وقُلتُ: ما قالَ؟ فأَخْبَرَتْنِى بقَوْلِ أَهْلِ الإفْكِ. قالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا علَى مَرَضِى. فَلَمَّا رَجَعْتُ إلى بَيْتى دَخَلَ عَلَى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَسَلَّمَ ثُمَّ قالَ: كيفَ تِيكُمْ؟ فَقُلتُ له: أَتَأْذَنُ لى أَنْ آتِى أَبَوَى؟ قالَتْ: وأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِن قِبَلِهِمَا. قالَتْ: فأذِنَ لى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فَقُلتُ لِأُمِّى: يا أُمَّتَاهُ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قالَتْ: يا بُنَيَّةُ، هَوِّنِى عَلَيْكِ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّما كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا.

قالَتْ: فَقُلتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ. أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بهذا؟ قالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلكَ اللَّيْلَةَ حتَّى أصْبَحْتُ لا يَرْقَأُ لِى دَمْعٌ ولَا أكْتَحِلُ بنَوْمٍ، ثُمَّ أصْبَحْتُ أبْكِى. قالَتْ: ودَعَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَلِى بنَ أبِى طَالِبٍ وأُسَامَةَ بنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْى يَسْأَلُهُما ويَسْتَشِيرُهُما فى فِرَاقِ أهْلِهِ. قالَتْ: فأمَّا أُسَامَةُ فأشَارَ علَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالَّذِى يَعْلَمُ مِن بَرَاءَةِ أهْلِهِ، وبِالَّذِى يَعْلَمُ لهمْ فى نَفْسِهِ، فَقالَ أُسَامَةُ: أهْلَكَ، ولَا نَعْلَمُ إلَّا خَيْرًا. وأَمَّا عَلِى فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، والنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ. قالَتْ: فَدَعَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بَرِيرَةَ، فَقالَ: أى بَرِيرَةُ، هلْ رَأَيْتِ مِن شىء يَرِيبُكِ؟ قالَتْ له بَرِيرَةُ: والذى بَعَثَكَ بالحَقِّ ما رَأَيْتُ عَلَيْهَا أمْرًا قَطُّ أغْمِصُهُ غيرَ أنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عن عَجِينِ أهْلِهَا، فَتَأْتى الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ. قالَتْ: فَقَامَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن يَومِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِن عبدِ اللَّهِ بنِ أُبَى وهو علَى المِنْبَرِ، فَقالَ: يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، مَن يَعْذِرُنِى مِن رَجُلٍ قدْ بَلَغَنِى عنْه أذَاهُ فى أهْلِى؟ واللَّهِ ما عَلِمْتُ علَى أهْلِى إلَّا خَيْرًا. ولقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا ما عَلِمْتُ عليه إلَّا خَيْرًا، وما يَدْخُلُ علَى أهْلِى إلَّا مَعِى. قالَتْ: قَامَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ أخُو بَنِى عبدِ الأشْهَلِ فَقالَ: أنَا يا رَسولَ اللَّهِ أعْذِرُكَ. فإنْ كانَ مِنَ الأوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وإنْ كانَ مِن إخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أمْرَكَ. قالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الخَزْرَجِ، وكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بنْتَ عَمِّهِ مِن فَخِذِهِ، وهو سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، وهو سَيِّدُ الخَزْرَجِ، قالَتْ: وكانَ قَبْلَ ذلكَ رَجُلًا صَالِحًا، ولَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ. لَعَمْرُ اللَّهِ لا تَقْتُلُهُ ولَا تَقْدِرُ علَى قَتْلِهِ، ولو كانَ مِن رَهْطِكَ ما أحْبَبْتَ أنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ، وهو ابنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقالَ لِسَعْدِ بنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ. لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فإنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ. قالَتْ: فَثَارَ الحَيَّانِ: الأوْسُ والخَزْرَجُ حتَّى هَمُّوا أنْ يَقْتَتِلُوا، ورَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

قَائِمٌ علَى المِنْبَرِ. قالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حتَّى سَكَتُوا وسَكَتَ. قالَتْ: فَبَكَيْتُ يَومِي ذلكَ كُلَّهُ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ولَا أكْتَحِلُ بنَوْمٍ. قالَتْ: وأَصْبَحَ أبَوَايَ عِندِي، وقدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ ويَوْمًا لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ ولَا أكْتَحِلُ بنَوْمٍ، حتَّى إنِّي لَأَظُنُّ أنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي. فَبيْنَا أبَوَايَ جَالِسَانِ عِندِي وأَنَا أبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَى امْرَأَةٌ مِنَ الأنْصَارِ، فأذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي. قالَتْ: فَبيْنَا نَحْنُ علَى ذلكَ دَخَلَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ. قالَتْ: ولَمْ يَجْلِسْ عِندِي مُنْذُ قيلَ ما قيلَ قَبْلَهَا، وقدْ لَبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إلَيْهِ فِي شَأْنِي بشيء. قالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قالَ: أمَّا بَعْدُ يا عَائِشَةُ، إنَّه بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وكَذَا. فإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وإنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وتُوبِي إلَيْهِ. فإنَّ العَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عليه. قالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَقالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حتَّى ما أُحِسُّ منه قَطْرَةً، فَقُلتُ لأبِي: أجِبْ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَنِّي فِيما قالَ. فَقالَ أبِي: واللَّهِ ما أدْرِي ما أقُولُ لِرَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فَقُلتُ لِأُمِّي: أجِيبِي رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فِيما قالَ. قالَتْ أُمِّي: واللَّهِ ما أدْرِي ما أقُولُ لِرَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فَقُلتُ وأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لا أقْرَأُ مِنَ القُرْآنِ كَثِيرًا: إنِّي واللَّهِ لقَدْ عَلِمْتُ. لقَدْ سَمِعْتُمْ هذا الحَدِيثَ حتَّى اسْتَقَرَّ فِي أنْفُسِكُمْ وصَدَّقْتُمْ به. فَلَئِنْ قُلتُ لَكُمْ إنِّي بَرِيئَةٌ لا تُصَدِّقُونِي، ولَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بأَمْرٍ، واللَّهُ يَعْلَمُ أنِّي منه بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي. فَوَاللَّهِ لا أجِدُ لي ولَكُمْ مَثَلًا إلَّا أبَا يُوسُفَ حِينَ قالَ: "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللَّهُ المُسْتَعَانُ علَى ما تَصِفُونَ". ثُمَّ تَحَوَّلْتُ واضْطَجَعْتُ علَى فِرَاشِي، واللَّهُ يَعْلَمُ أنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وأنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي ببَرَاءَتِي، ولَكِنْ واللَّهِ ما كُنْتُ أظُنُّ أنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وحيا يُتْلَى. لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كانَ أحْقَرَ مِن أنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بأَمْرٍ، ولَكِنْ كُنْتُ

أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فِى النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِى اللَّهُ بِهَا. فَوَاللَّهِ ما رَامَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَجْلِسَهُ ولَا خَرَجَ أَحَدٌ مِن أَهْلِ البَيْتِ حتَّى أُنْزِلَ عليه، فأَخَذَهُ ما كانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ حتَّى إنَّه لَيَتَحَدَّرُ منه مِنَ العَرَقِ مِثْلُ الجُمَانِ، وهو فى يَومٍ شَاتٍ، مِن ثِقَلِ القَوْلِ الذى أُنْزِلَ عليه. قالَتْ: فَسُرِّىَ عن رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يَضْحَكُ، فكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قالَ: يا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ فقَدْ بَرَّأَكِ. قالَتْ: فقالَتْ لى أُمِّى: قُومِى إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: واللَّهِ لا أَقُومُ إِلَيْهِ، فإنِّى لا أَحْمَدُ إلَّا اللَّهَ عزَّ وجلَّ. قالَتْ: وأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: "إنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ"... العَشْرَ الآيَاتِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هذا فى بَرَاءَتِى. قالَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وكانَ يُنْفِقُ علَى مِسْطَحِ بنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ منه وفَقْرِهِ: واللَّهِ لا أُنْفِقُ علَى مِسْطَحٍ شيئًا أَبَدًا بَعْدَ الذى قالَ لِعَائِشَةَ ما قالَ، فأَنْزَلَ اللَّهُ "وَلَا يَأْتَلِ أُولو الفَضْلِ مِنكُمْ" إلى قَوْلِهِ: "غَفُورٌ رَحِيمٌ"، قالَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى واللَّهِ إنِّى لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِى، فَرَجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتى كانَ يُنْفِقُ عليه، وقالَ: واللَّهِ لا أَنْزِعُهَا منه أَبَدًا. قالَتْ عَائِشَةُ: وكانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَأَلَ زَيْنَبَ بنْتَ جَحْشٍ عن أَمْرِى، فَقالَ لِزَيْنَبَ: مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ؟ فَقالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ، أَحْمِى سَمْعِى وبَصَرِى. واللَّهِ ما عَلِمْتُ إلَّا خَيْرًا. قالَتْ عَائِشَةُ: وهى الَّتى كَانَتْ تُسَامِينِى مِن أَزْوَاجِ النبى صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فَعَصَمَهَا اللَّهُ بالوَرَعِ. قالَتْ: وطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَن هَلَكَ. قالَ ابنُ شِهَابٍ: فَهذا الذى بَلَغَنِى مِن حَديثِ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ. ثُمَّ قالَ عُرْوَةُ: قالَتْ عَائِشَةُ: واللَّهِ إنَّ الرَّجُلَ الذى قيلَ له ما قيلَ لَيقولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَوَالَّذِى نَفْسِى بيَدِهِ ما كَشَفْتُ مِن كَنَفِ أُنْثَى قَطُّ. قالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذلكَ فى سَبيلِ اللَّهِ".

وبالنسبة لحفصة رضى الله عنها نرى الرصافى قد أورد، لدن الحديث عنها بوصفها زوجة من زوجات النبى، القصة التى تشير إليها الآيات الأولى من سورة "التحريم"، وفيها روايتان: الأولى أنه عليه السلام شرب عسلا عند زوجته زينب، فاتفق بعض زوجاته، من باب الغيرة، أن ينفّرنه من العسل وشربه كله، فقيل له إن رائحتة مغافير، وهو مادة حلوة تفرزها بعض الأشجار، لكن رائحتها غير مستحبة، فحرم النبى العسل على نفسه أمام من قالت له ذلك من زوجاته، ثم نزلت آيات سورة "التحريم" وفيها حكم التكفير لمن حلف ويريد الرجوع عما أقسم عليه. والثانية أنه صلى الله عليه وسلم عاشر مارية القبطية فى بيت حفصة أثناء غيابها فأرسل إلى مارية وقضى منها حاجته على فراش حفصة مما أغضبها وأدى إلى الطلاق ثم راجعها النبى صلى الله عليه وسلم. والرصافى يرجح الرواية الثانية ويستميت فى ترجيحها ويسخر من الآيات التى نزلت تفتح باب التراجع عما أقسم عليه الشخص، وهو الكفارة، بل ويسخر من الإله نفسه. يريد أن يتهكم على النبى، الذى يؤلف القرآن تأليفا وينقذ نفسه من المآزق التى يقع فيها ثم ينسب كل ذلك إلى الله سبحانه (ص٣٩٦ وما يليها).

وهذا نص كلامه التهكمى: "ولا شك أن إله المخلوقات وخالق الكائنات الأعظم لا يقف صامتا تجاه هذه الحادثة، بل لا بد أن يتكلم بها يتدارك أمر هذا التحريم، فلذلك لم يلبث أن أرسل جبريل إلى محمد يقول له: "يا أيهاالنبى لِمَ تحرّم ما أحلَّ الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفوررحيم"، ولأجل التخلص من ورطة هذا التحريم الذى وقع منك "قد فرض الله لكم تَحِلَّة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم". أى قد شرع الله لكم تحلة أيمانكم بالكفّارة، فكفِّر يا محمد عن هذا التحريم بكفارة ككفارة

اليمين بناء على أن هذا التحريم هو بمنزلة اليمين: إذا كفرت عنه بكفارة اليمين فقد عاد الأمر إلى نصابه وانتهى التحريم وحلت لك مارية كما كانت من قبل" (ص٣٩٧).

وقبل أن نناقش الرصافى نورد أولا آيات صدر سورة "التحريم" ثم نحللها ونحلل ما ورد فيها من روايات وتفاسير. وهذه هى الآيات أولا: "يَا أَيُّهَا النَّبِى لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِى إلى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِى الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إلى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا"

والسبب فى نزول هذه الآيات هو ما كان بين نساء النبى عليهن رضوان الله من غيرة، وإن كانت غيرة بسيطة محدودة سرعان ما تخبو لأن إيمانهن كان يمنعهن من المضى مع تلك الغيرة، فضلا عن نزول القرآن دائما ينبههن لما يفعلن ويستحثهن على الانصياع للحق ولزومه والابتعاد عن أى شغب. وجاء فى بعض الروايات أن رسول الله كان يحب الطعام الحلو، فكان يأكل العسل عند زوجته زينب بنت جحش، فغار بعض نسائه الأخريات واتفقن مع سائر نسائه أن يقلن له حين يقترب منهن إنه قد أكل مغافير، وهو شىء يشبه الصمغ فيه حلاوة، ولكن رائحته غير مريحة، ويوجد فى مراعى الإبل، فأكد لهن أنه لم يأكل مغافير بل عسلا عند زوجته فلانة، فقيل له: إذن فالنحل التى أفرزتْ هذا العسل قد جَرَسَت العُرْفُط، أى أكلته، والعرفط هو الشجر الذى يُفْرِز المغافير.

فحلف رسول الله أنْ لن يقربه بعد ذلك أبدا، إذ كان حريصا على أن تكون رائحة فمه دائما نقية لا شائبة فيها. فنزلت الآيات تعاتبه على هذا القسم بالامتناع عن طعام حلال تمام الحل، فلم يكن ينبغى أن يحرمه على نفسه مراعاة لمشاعر زوجاته.

أما أن تكون الآيات عن مارية القبطية ومعاشرة الرسول لها فى يوم حفصة وعلى فراشها فهو غير مقبول عندى: ذلك أن الرسول قد شدد فى التسوية بين الزوجات فى الأمور التى يمكن أن تنضبط كتخصيص يوم لكل منهن مثلا والعدل بينهن فى النفقة وما إلى ذلك بخلاف المشاعر والعواطف مما لا سبيل لصاحبها إلى السيطرة عليها. فكيف يخالف النبى ما أمر المسلمين به، وهو لم يكن شابا لا يستطيع إمساك نفسه فى مسألة كهذه؟ ثم كيف يحرِّم على نفسه مارية رضى الله عنها فيَحْرِمها طوال العمر من حقها فى أمر حيوى وخطير مثل هذا، وهى لم ترتكب ذنبا، بل دعيت فأجابت، على حين لديه هو نساؤه الأخريات يغنينه عنها؟ ثم أين كانت حفصة قد ذهبت وتركت غرفتها فى ذلك الوقت، واليوم يومها بما يعنى أن النبى كان موجودا فى غرفتها؟ فلم تركته يا ترى؟ ثم هل يمكن أن يقدم صلى الله عليه وسلم على شىء كهذا يلجئه إلى الاعتذار والوقوف هذا الموقف المربك؟ ألا إنه لأذكى من هذا وأعظم لياقة، وبخاصة أنه يعرف أن حفصة إن كانت قد خرجت لبعض حاجتها فهى قمينة أن ترجع سريعا لأن اليوم، كما قلت، يومها، فمن الصعب أن تترك رسول الله وحده فى غرفتها وقتا طويلا. ولا أظن ربه يدعه يقع فى مثل ذلك الإحراج أصلا. وهل كان هذا الأمر ليخفى على بقية زوجاته صلى الله عليه وسلم، والغرف متلاصقة، فلا يعلم به أحد منهن بل يظل طَىَّ الكتمان إلى أن تأتى حفصة وتكتشف الأمر بنفسها؟ كذلك فإن دخول إحدى نسائه عليه السلام غرفة زوجة أخرى فى غيابها لم يحدث طوال حياته. فلماذا هذه بالذات،

وفوق ذلك يقع فيها ما نهى الرسول المسلمين عنه؟ كما أن الرواية لا تتحدث عن اغتسال النبى، ودعونا من اغتسال مارية، وهو ما ينبغى أن يحدث بعد الواقعة حتما، بل سكتت تماما عنه، وكأن الجماع لا يستلزم الاغتسال. ولا أظن حفصة كانت لترحب صدرا أن يغتسل النبى فى غرفتها، فأين اغتسل فى ذلك اليوم؟

ثم ما الذى جاء بمارية إلى بيت حفصة، ومارية تسكن بالعالية خارج المدينة، ولديها خادم يقضى لها مطالبها ومصالحها، فليست تحتاج إلى أن تأتى بنفسها إلى المدينة لأى شأن من شؤونها، فضلا عن أن تأتى وحدها، إذ لم يرد ذكر لخادمها فى الرواية البتة؟ ومعروف أن النبى عليه السلام هو الذى كان يذهب إليها حيث تسكن فى المنطقة المذكورة. بيد أن هناك حديثا آخر أنقله من "التفسير الحديث" لمحمد عزة دروزة: "روى البغوى وابن كثير والطبرسى والخازن حديثا فيه سبب آخر، وهو أنّ النبى صلى الله عليه وسلم أذن لحفصة أن تزور أهلها، وفى غيابها استدعى مارية القبطية إلى بيتها ووقع عليها. وعرفت حفصة ذلك فأخذت تبكى وتقول للنبى صلى الله عليه وسلم: إنك أذنت لى من أجل هذا، وأدخلتَ أَمَتَك بيتى ووقعت عليها فى يومى وعلى فراشى. فقال لها: ألا تَرْضَيْنَ أن أحرّمها فلا أقربها؟ قالت: بلى. فقال لها: لا تذكرى ذلك لأحد. فذكرته لعائشة، فأنزل الله الآيات". والواقع أنى لا أتخيل النبى يصنع هذا الذى يرويه الحديث، إذ ما كان أسهل عليه أن يذهب لمارية بنفسه ويقضى منها وطره براحته دون أن يتكلف كل ما تكلف ويضع نفسه فى هذا الموقف المربك. ثم من ذا الذى ذهب فأحضر مارية؟ ولماذا سكتت الروايات عنه، فلم يظهر فى الصورة؟ الحق أنى لا أستطيع أبدا أن أقتنع بأن هذا هو ما حدث. أما أنه عليه الصلاة والسلام فى رواية أخرى، من أجل إسكات حفصة وتخفيض غضبها، قد أنبأها بأن أباها سوف

يكون خليفة له بعد أبى بكر فهو غريب غير مقنع، اللّٰهم إلا إذا قال لها إنه سوف يوصى المسلمين بذلك، وهو ما لم يفعله. ومن ثم فليس أمامنا إلا أنه أنبأها بما سوف يحدث لا بما يريد أو يخطط له أن يقع، وهو ما يدخل فى باب الغيب. وهذا ما لا يؤمن به الرصافى لأنه يرى أن النبوة صناعة محمدية خالصة لا دخل للسماء فيها. فمن أين لمحمد بمعرفة الغيب إذن، وهو إنما يعرفه باتصاله بالسماء وتعريف الله له به فى بعض الأحيان لسبب أو آخر؟

والغريب أن الرصافى لا يرى أن النبى قد أوصى بالخلافة لأحد من بعده أصلا (ص٣٦- ٤٢، ٣٩٩). فكيف اختار إذن التفسير الذى يذكر مارية وترك التفسير الذى يذكر العسل؟ الواقع أنه اختاره لكى يقول (ص٣٩٩) إن محمدا "قد رجع عما قاله لحفصة عن خلافة أبيها بعد أبى بكر، فلذلك أعرض عن ذكره لعائشة. وسبب رجوعه عنه أنه إنما قاله استرضاء لحفصة لا لبيان الحقيقة". أى أن محمدا كان يقول أى كلام، والسلام، تخلصا من المواقف المحرجة ثم هو لا يبالى بعد ذلك بما قال لأنه إنما قاله ليتخلص من المآزق. ومتى تخلص من المأزق فعلى كل ما قاله العفاء. ومعنى هذا أنه لا يفترق عن أى بكاش من بكاشى عصرنا، أستغفر الله. ألم أقل مرارا إن ما قاله الرصافى فى بداية الكتاب عن عظمة محمد وعدم وجود مثيل له فى التاريخ هو كلام أريد به تخدير القارئ المسلم حتى يبتلع كل الإساءات التى حشا بها الرصافى كتابه؟ أى أن عشير البغايا الفاسق بالغلمان لا يعجبه النبى عليه السلام ويجد نفسه، رغم نجاسته وفسوقه الشنيع، أهلا لانتقاده وتشويه صورته. فيا للعجب العجاب!

ثم إن هذه الرواية لم ترد فى الكتب الستة، بل الذى ورد فيها هو موضوع العسل. وهذا ما جاء فى "صحيح البخارى" عن ذلك الموضوع. فعن عائشة أم المؤمنين أنَّ

"النبى صلى الله عليه وسلم كانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بنْتِ جَحْشٍ ويَشْرَبُ عِنْدَها عَسَلًا، فَتواصَيْتُ أنا وحَفْصَةُ أنَّ أيَّتَنا دَخَلَ عَلَيْها النبى صلى الله عليه وسلم فَلْتَقُلْ: إنِّى أجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغافِيرَ، أكَلْتَ مَغافِيرَ. فَدَخَلَ على إحْداهُما، فَقالَتْ ذلكَ له، فَقالَ: لا، بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بنْتِ جَحْشٍ، ولَنْ أعُودَ له. فَنَزَلَتْ "يا أيُّها النبى لِمَ تُحَرِّمُ ما أحَلَّ اللَّهُ لَك" (التحريم/ ١). "إنْ تَتُوبا إلى اللَّهِ"(التحريم/ ٤) لِعائِشَةَ وحَفْصَةَ. "وإذْ أسَرَّ النبى إلى بَعْضِ أزْواجِهِ حَدِيثًا" (التحريم/ ٣) لِقَوْلِهِ: بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا. وقالَ لى إبْراهِيمُ بنُ مُوسَى عن هِشَامٍ: ولَنْ أعُودَ له، وقدْ حَلَفْتُ، فلا تُخْبِرِى بذَلِكِ أحَدًا". وهناك أمر آخر، ففى نهاية الآيات نجد إيماء باحتمال تطليق النبى لنسائه. وهذا مفهوم فى قصة العسل، إذ كان هناك اتفاق بين عائشة وحفصة، كما رأينا، على أن توهماه أنه قد أكل مغافير. أما بالنسبة لمارية القبطية فلم يكن هناك اتفاق. كما أن غضب حفصة بسبب مارية هو أمر مفهوم ولا يمكن أن تهددها السماء بسببه، إذ هى صاحبة حق، فضلا عن أن تهدد زوجاته جميعا بالتطليق. من هنا أرانى لا أقبل حكاية مارية وحفصة، وأقبل حكاية العسل. وقد كان عليه السلام يمتنع عن أطعمة ويحب أخرى، فكان ينفر من لحم الضب، وقُدِّم له مرةً طعام مطبوخ كان فيه بصل، فاعتذر عن أكله، فى حين كان يحب الحلوى والدُّبَّاء ولحم الكتف من الشاة مثلا. وفى كل الأحوال فإن الآيات دليل على أن الرسول وزوجاته كانوا يعيشون حياتهم كما يعيشها سائر البشر، ولا تخلو بيوته مما يقع فى بيوت الناس الآخرين مع الفارق طبعا فى أنه صلى الله عليه وسلم وزوجاته رضى الله عنهن كانوا فى مستوى نفسى وأخلاقى جد رفيع، كل بقدر مكانته عند الله وفى المجتمع. فالرسول، بنص القرآن فى أواخر سورة "الكهف"، بشر.

وفى قصة زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش يقول الرصافى إن النبى فى البداية لم يكن يُكِنّ لها شيئا، ومن ثم عرض عليها الزواج من زيد بن حارثة، فأبت هى وأخوها لكن بعد نزول آية "الأحزاب" بأنه لا يجوز للمؤمن ولا للمؤمنة إذا قضى اللهُ ورسولُه أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم قَبِلا بهذا الزواج. لكن حدث ذات مرة أن ذهب النبى يزور زيدا، فلم يجده، ودعته زينب للدخول، فأبى. وفى هذه الأثناء حرك الهواء الستار، فانكشف عن زينب، ورآها الرسول فوقعت فى نفسه وقال مُوَلِّيًا: سبحان مقلب القلوب! وسمعته زينب وحكت لزيد كل تلك التفاصيل، فعرض على النبى أن يطلقها حتى يتزوجها هو، لكن النبى كان يوصيه بتقوى الله والإبقاء عليها زوجة له حتى نزلت آية حِلِّ زوجة الابن بالتبنى لأبيه الذى يتبناه. والرصافى يرى أن النبى هو مدبر الأمر كله منذ قال: "سبحان مقلب القلوب!"، وكان يعرف مفعول تلك الجملة وأنها سوف تصل إلى زيد، وأن زيدا سوف يفكر فى مفارقة زينب وتَرْكها لرسول الله يتزوجها، لكنه تمنَّع ثم تظاهر بأن الوحى نزل عليه يجيز له تزوج امرأة زيد ابنه بالتبنى.

لكن ما دام الرسول عليه السلام لم يَكُنْ يُكِنّ لها أية مشاعر خاصة فما الذى جد هذه المرة؟ أترى النبى لم يكن يراها قبل ذلك حتى يمكن أن يقال إنه فوجئ بجمالها؟ لقد تزوجت ولم تكن سعيدة مع زوجها، ومعنى هذا أنها لم تكن مشرقة ولا كانت تهتم بزينتها بل كانت حزينة تجتر ضيقها بهذا الزواج الذى فرض عليها وقبلته دِينًا لا عاطفة، وصارت تتعظم على زوجها، وكان النبى بطبيعة الحال يدخل عليها هى وزيد ويراها، فلم يفاجئه منها شىء جديد حين انكشف الستار لو كانت قصة الستار حقيقية. ومع هذا فلو كانت تلك القصة كلها على هذا النحو صحيحة لما كان فيها ما يسىء إلى النبى

أو ينال من أخلاقه ونفسيته ونبله. إنه لم يحاول الضغط على زيد بل حاول أن يَزَعه عن تطليق زوجته ودعاه إلى اتقاء الله فيها، وطال ذلك بينهما حتى نزل قرآن يفهمه أن موقفه هذا ليس بالموقف السليم.

لكنى أقف عند زعم الرصافى أن النبى هو الذى كان يخترع الأوحاء ويوهم من حوله أن جبريل قد نزل بها من عند الله سبحانه، إذ نراه فى ذات الوقت يقول إن ذات محمد كانت تمَّحى فى الله باعتبار الكون شيئا واحدا لا إله ومخلوقات بل وحدة وجود. والآن إذا كان محمد لا وجود له بل الوجود كله لله فينبغى ألا يكون لزينب ولا لزيد ولا لسين من الناس ولا شين ولا صاد ولا ضاد... إلخ أى وجود. لكن الرصافى مع هذا يصور النبى داهية دهياء يلعب بالبيضة والحجر ويخطط لكل شىء ويعمل الحساب لكل شىء فيقع كل شىء كما خطط له ورتب. فكيف نجمع بين الأمرين؟ نعم إذا لم يكن لمحمد كيان مستقل فكيف ينسب إليه الرصافى التخطيط والترتيب من أجل الوصول إلى غاية معينة، وهى غاية شخصية لا غاية كونية؟ أليس معنى هذا أن الرصافى ينسب كل تلك الأفاعيل التى لا تليق بمحمد من وجهة نظره إلى الله؟ أليس معنى هذا أنه يوجه العيب إلى الله ضمنا، وإن كان فى الظاهر يوجهه إلى محمد؟

وبالمناسبة فإن هذا الرأى الذى يقول به الرصافى لا ينحصر فيما كان النبى يصنعه فى موضوع زينب بل فى كل شىء آخر يأتيه صلى الله عليه وسلم. وإذا كان القرآن قد عاتب النبى فى أنه لم يشأ فى البداية أن يطلق زيدٌ زينبَ ليتزوجها هو ففى رأى الرصافى أن هذه حيلة محمدية يُرِى بها المسلمين أنه صادق وأنه ينقل لهم ما يقوله القرآن فى تخطئة بعض أحكامه وقراراته لا لأن ما يقوله القرآن هو فعلا وحى من السماء بل لأنه يريد

من وراء هذا أن يؤمنوا بصدقه وإخلاصه وحرصه على ألا يكتم شيئا من الوحى مهما كان موجها ضده وفيه انتقاد له (ص٤٠٣– ٤١٥).

والعجيب أن الرصافى رغم ذلك قد ألح بطول الكتاب وعرضه على أن محمدا كان يعمل كل ما من شأنه أن يجعل المسلمين يلتزمون بكل ما يقول ويعملون له ألف حساب بحيث لا يذهبون يمينا أو يسارا إلا بإشارة منه ولا يتحركون حركة إلا إذا أذن لهم بها كما هو الحال مثلا فى توزيع الأنفال فى بدر وفى الثلاثة الذين خُلِّفُوا فى غزوة العُسْرة على سبيل المثال. لقد قال إنه كان يعمل كل ما فى وسعه ليكون مقدسا بين أتباعه ومطاعا منهم (ص٤٢٨ وما بعدها). فإذا كان الأمر كذلك فكيف يحرص رغم هذا على أن يعاتب نفسه ويقرّعها ويهددها فى القرآن كى يتصور أتباعه أنه مخلص واضح فى نبوته؟ إن هذا قد يجرّئ أتباعه عليه إذ يرونه يخطئ ويتصرف تصرفات لا يرضاها الله سبحانه ويعنفه جراءها فى القرآن. ومع هذا نرى الرصافى فى آخرالفصل الخاص بزوجات الرسول يهمزه ويلمزه عليه السلام بأن القرآن دائما ما ينزل موافقا لرغباته. وهو ما يحير القارئ مع الكاتب إذ يراه لا يرسو على بر بل يظل يتنطط من هذا الجانب إلى ذاك دون أن يثبت على حال. وواضح أن الرصافى قد دخل مؤلفه هذا وهو مُعَادٍ للنبى ومتنمِّر له: فإذا جاء الوحى موافقا لما يتمشى مع الرسول قال إن محمدا يسيِّر كل شىء فى الدين على هواه، وإن أتى مخالفا قال إن محمدا يعمل على أن يبدو مخلصا فلهذا يوجه لنفسه العتاب والتعنيف حتى يقول الناس إنه صادق، إذ لو كان كاذبا لكان حريصا على أن تبدو أقواله وأفعاله وتصرفاته وأخلاقه أمام الآخرين نقية من الأخطاء تمام النقاء. وهكذا فإن الرصافى محيِّر وغير مخلص للوصول إلى ما يقبله المنطق والعقل المستقيم الخالى من الدَّخَل والأهواء.

ثم إن محمدا، مهما كان داهية أريبا مضرَّسا، لا يمكنه أن يخطط لكل شىء تخطيطا لا يخرّ منه الماء بخلاف ما يصوره لنا الرصافى فى كتابه. كما أنه من غير الممكن أن يعيش محمدٌ كرسولٍ بين أَظْهُرِ قومِه نُصَرَاءَ ومعادين ثلاثا وعشرين سنة ثم لا يكتشف حقيقته أحد طوال تلك المدة لا من زوجاته ولا من صحابته الأقربين منهم والعاديين ولا من خصومه، وكان منهم الرجال والنساء، والصغار والكبار، والتجار والحرفيون والزارعون والمحاربون والرعاة، والأميون، والقارئون والكاتبون، ومنهم الفقراء والأغنياء، ومنهم العرب وغير العرب. ترى هل هذا مما يعقله عاقل؟ ولقد وقع كل شىء طبقا لما قاله محمد بها فى ذلك أحوال مسلمى عصرنا، الذين تنبأ محمد بأنهم سيكونون غثاء كغثاء السيل، والحمد لله أنه لم يقل إنهم سيكونون أسوأ من الزبالة التى تملأ شوارعنا، وأكد أنهم سوف يتبعون سنن مَنْ قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع بحيث لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلوه تقليدا أعمى لهم، وهو ما ينطبق على المسلمين منذ وقت طويل فى كل مكان، وعلى رأسهم العرب، الذين انحطوا نفسيا وفكريا إلى الحضيض وصاروا يدفعون الجزية عينى عينك. أوكل تلك الأجيال التى تتالت على مدى الأربعة عشر قرنا الماضية قد انطمست أبصارهم وأُغْلِقت قلوبهم وصَمَّتْ آذانهم، ولم يبصر منهم ويسمع ويستمع ويَعِ ويعقل سوى معروف الرصافى؟

الحق أنه لو كان محمد كذابا مخادعا كما يحاول الرصافى إيهام قرائه، وإن تظاهر كذبا بأنه يقدر عبقرية الرسول، لما استطاع عليه السلام أن يحتفظ بأصدقائه طوال حياته وبالحب الجارف له من أتباعه بعد وفاته. ونحن نرى أنه ما من حاكم إلا وانقلب عليه فى حياته أو بعد مماته كثير ممن كانوا على علاقة طيبة معه، إلا محمدا، فلم يحدث أن انقلب عليه ممن يعرفونه أحد لا حَيًّا ولا بعد لحوقه بالرفيق الأعلى. أفليس لهذا مغزاه؟

ولنترك الحكام ولننظر إلى الرصافى، فعلى رغم الكتب والدراسات التى تمدحه شاعرا وتضخم دوره فى ميدان الإبداع الأدبى إن حقا وإن باطلا فقد كتب الكاتبون الذين يعرفونه والذين لا توجد بينهم وبينه إِحَنٌ ولا بغضاءُ عن الجانب المظلم الدنس فى حياته وشخصيته، فعرفنا حقيقة خلقه وسلوكه، أما محمد فلم يفعل أحد من معارفه ما فعله معارف الرصافى رغم ما بين السماوات العلا والحضيض من فروق هائلة، لكننا إنما نضرب الأمثال ليس غير.

إن الرصافى يؤكد وحدة الوجود فلا أحد موجود سوى الله، وأن محمدا قد تمثل فيه هذا الاعتقاد حتى كان كل ما يفعله إنما يفعله الله. فهذا ما يقوله الرصافى ويكرره كل حين، وهو ما فعله فى الصفحات التى نحن واقفون إزاءها الآن. ولو كان الرصافى صادقا فيما يقول لكان موقفه هو التصديق بكل ما يفعله أو يقوله محمد، لكننا ننظر فنجده حريصا على إثبات أنه أذكى من محمد وأنه لا ينخدع بإعلانه النبوة بل يعرف أنه يكذب كذبا أبلق، ومن ثم صار كل همه فى الكتاب الحالى هو فضح دوافع محمد وإزاحة الستر عن أعماقه وإبراز حقيقته المضللة. فانظر، يا رعاك الله، أيها القارئ إلى موقف الرصافى الشاذ. يقول إن محمدا لا يتحدث من عقله بل يترجم عن الله، الذى هو كل شىء، ثم ينقلب للتو هدمًا وتدميرًا لكل ما قاله محمد وصَنَعه وتشويها لشخصيته. والواقع أنه لو كان الرصافى صادقا فيما يقول لما اكتفى بالدفاع عن محمد، وهو ما لم يفعله إلا فى البداية ليس إلا، بل كان ينبغى أن يمضى فيدافع عن أعداء محمد بنفس الطريقة التى يدافع بها عن أنصاره باعتبار أنهم جميعا يمثلون الله، إذ ليس هناك إلا الله. لكن عقل الرصافى هو مثال واضح على اضطراب الفكر وهلوسة الكلام. وأتصور أن الدافع له وراء كل ذلك هو أن يقول إن الإسلام الذى كنت ألتزم به قبل ذلك وكنت

أستعفّ نزولا على ما يقوله كتابه ونبيه والناس من حولى قد اتضح أنه دين كاذب وأن نبيه لا نبى ولا يحزنون، وأننى قد ضيعت وقتى فيما لا حقيقة له وأنه من الآن فصاعدا ينبغى أن أعيش حياتى كما أريد وأمارس الزنا مع البغايا، كما أستطيع أن أعشق الغلمان وأعاشرهم وأشرب الخمر وألعب الميسر دون أن يؤودنى ضميرى، علاوة على إثبات ذاتى وتفهيم الدنيا جميعا أننى أفضل من محمد عقلا وفهما، فأنا قادر على كشف حقيقته وحل لغزه غير المقدس. هذا هو الرصافى على حقيقته.

وعند الحديث عن صفية أم المؤمنين تطرَّق الرصافى إلى مرور بلال بها هى وبنت عمتها على قتلى قومها من اليهود بعد هزيمة قومها، فقال إن "ما فعله بلال من مروره بهاتين المرأتين على قتلى رجالهما فى ساحة المعركة يدلنا على أن هذا الرجل الحبشى خلا من العواطف النبيلة ومن الخصال العربية العالية. وقد ذكرنا لك فيما تقدم كيف حمله حب الانتقام الشخصى على أن يفعل يوم بدر تلك الفعلة المنكرة مع عبد الرحمن بن عوف إذ فجعه بأسيريه: أمية بن خلف وابنه، فكان سببا لقتلهما على وجه ينافى الإخلاص فى القتال لإعلاء كلمة الله كما ينافى الشهامة والعادات العربية الشريفة. وأغرب من بلال ومِنْ فِعْله هذا أننا نرى المسلمين لجهلهم أخذوا يشيدون بذكر بلال حتى إنهم جعلوا اسمه مقرونا باسم محمد يذكرونه على مآذنهم فى كل يوم خمس مرات، فكان بهذا الذكر الخالد الذى لا يستحقه أعظم حظا من الخلفاء الراشدين مع أنه لا يستحق أن يُذْكَر إلا فى الرعيل الأخير من أصحاب محمد" (ص٤١٧– ٤١٨).

وهذه جرأة جاهلة وحماقة من الرصافى، إذ انطلق من مجرد غلطة صغيرة من بلال فتطاول عليه واتهمه بأن قلبه ق خلا من العواطف النبيلة ومن الخصال العالية. ولو اتبع الناس هذا المقياس فى حكم بعضهم على بعض ما بقى أحد من البشر صالحا لأى شىء

لا من المتِهمين ولا من المتَّهَمين. والرصافى بالطريقة التى ينتهجها يذكرنى بقول المسيح عليه السلام إنه يبصر القشة فى عين جاره، ويعمى عن الخشبة بل عن دكان الخشب فى عينيه كلتيهما. أما قتل بلال أمية بن خلف فلأنه طالما عذبه فى مكة تعذيبا رهيبا لا لشىء إلا لأنه اعتنق الإسلام، وها هو ذا أمية قد أتى مع قومه لمحاربة الرسول ودينه وأتباعه، فانهزم قومه هزيمة مذلة، وكان من بين من أمسك بهم المسلمون فلم يستطيعوا الفرار مع من فر من جيشهم، فقتله بلال. فجاء الرصافى يتظاهر بالرحمة والرقة الكاذبة، ويقف مع الظالم ويدين المظلوم متحككا فى الشهامة العربية. وأين كانت تلك الشهامة يا رصافى حين كان أمية يعذب بلالا ولا يرق لصرخاته فى جحيم الصحراء وقد أُلْقِىَ على الرمل المتلظِّى ووُضِعَتْ صخرة على صدره فلا يقول إلا "أَحَدٌ أَحَدٌ" يصرخ بها إلى السماء. وأغلب الظن أن الرصافى قد حقنها فى قلبه كراهية منه للتوحيد الحقيقى. ثم من أنت أصلا يا رصافى حتى تلقى بهذا الحكم الجزاف الوقح على أحد من صحابة رسول الله المقربين ورائد التأذين للصلوات فى الإسلام؟ لم أكن أحسب أنك تكره الصلاة إلى هذا الحد حتى لتحاول فى سخف وتنطع أن تنال من قامة بلال السامقة على هذا النحو البغيض.

كذلك تجاهل الرصافى الأحاديث الواردة فى بلال، وفيها تكريم له وتقدير أى تقدير: "عن عروةَ بنِ الزُّبيرِ قال: كان بلالٌ لجاريةٍ من بنى جُمَحَ، وكانوا يُعذِّبونه برمضاءِ مكَّةَ: يُلصِقون ظهرَه بالرَّمْضاءِ لكى يُشرِكَ فيقولُ: "أحَدٌ أحَدٌ"، فيمُرُّ به ورَقةُ وهو على تلك الحالِ فيقولُ: أحَدٌ أحَدٌ يا بلالُ. واللهِ لئن قتلتموه لأتَّخِذنَّه حنانًا"، "عن هند الخولانية امرأة بلال أنَّ النبى صلّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ أتاها فسلَّمَ فقال: أَثَمَّ بلالٌ؟ فقالت: لا. فقال: لعلَّكِ غَضْبَى على بلالٍ. فقالت: إنَّهُ يجيئُنى كثيرًا فيقول: قال

رسولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ. فقال: ما حدَّثَكِ بلالٌ عنى فقد صَدَقَكِ. بلالٌ لا يكذبُ. لا تُغْضِبى بلالًا فلا يُقْبَلُ منكِ عملٌ ما غضِب عليك بلالٌ"، "عن وحشى بن حرب أن رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قال: لما أُسْرِى بى فى الجنةِ سمعتُ خشخشةً فقلت: يا جبريل، ما هذه الخشخشة؟ قال: هذا بلالٌ. قال أبو بكرٍ: ليتَ أمَّ بلالٍ ولدتنى وأبو بلالٍ، وأنا مثلُ بلالٍ"، "عن سهل بن سعد الساعدى: دخلتُ الجنَّةَ، فإذا حِسٌّ، فنظرتُ، فإذا هو بلالٌ"، "عن بريدة بن الحصيب الأسلمى: أصبحَ رسولُ اللّهِ يومًا فدَعا بلالًا فقال: يا بِلالُ، بم سَبقْتَنِى إلى الجنَّةِ؟ إننى دخَلتُ البارحةَ الجنَّةَ فسمِعتُ خَشخشَتَك أمامى. فقال بلالٌ: يا رسولَ اللّهِ، ما أَذَّنْتُ قطُّ إلّا صلَّيتُ ركعَتيْنِ، ولا أصابَنى حَدَثٌ قطُّ إلّا توضَّأتُ عِندَه. فقالَ رسولُ اللّهِ: بهذا"، "عن عبدالله بن زيد إذْ أُرِى النداءَ، فقالَ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: أَلْقِهِ على بلالٍ، فإنه أَنْدَى منك صَوْتًا. ففعَل"، "عن صهر محمد بن الحنفية: قُمْ يا بلالُ، فأَرِحْنا بالصَّلاةِ"، "عن زيد بن أرقم: نِعْمَ الرَّجُلُ بِلالٌ. والمُؤذِّنونَ أطوَلُ النّاسِ أعناقًا"، "عن أبى هريرة: مَثَلُ بلالٍ كمَثَلِ نحلةٍ غدَتْ تأكُلُ مِن الحُلْوِ والمُرِّ ثمَّ هو حُلْوٌ كلُّه"، "عن عبدالرحمن بن عوف: كاتَبْتُ أُمَيَّةَ بنَ خَلَفٍ، فلَمّا كانَ يوم بَدْرٍ، فَذَكَرَ قَتْلَهُ وقَتْلَ ابْنِهِ، فَقالَ بلالٌ: لا نَجَوْتُ إنْ نَجا أُمَيَّةُ"، "عن بلال بن رباح: أذَّن بِلالٌ حَياةَ رَسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم، ثمَّ أذَّن لأبى بَكرٍ حَياتَه، ثمَّ لم يؤذِّنْ زَمانَ عُمَرَ، فقال له عُمَرُ: ما يَمنَعُك أن تؤذِّنَ؟ قال: إنِّى أذَّنْتُ لرَسولِ اللّهِ حتى قُبِضَ وأذَّنْتُ لأبى بكرٍ حتى قُبِضَ لأنَّه كان وَلِيَّ نِعْمتى. وقد سَمِعتُ رَسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ: يا بِلالُ، ليس شىء أفضَلَ مِن عَمَلِك إلّا الجِهادُ فى سَبيلِ اللّهِ. فخَرَج مُجاهِدًا"، "عن سعيد بن المسيب عن بلالٍ أنَّه أتى النَّبى صلى الله عليه وسلم يُؤْذِنُه بالصَّلاةِ، فقيل: إنَّه نائِمٌ. فنادى: الصَّلاةُ خَيرٌ مِن النَّومِ.

فأُقِرَّت فى صلاةِ الفَجر"، "عن زيد بن أسلم أنَّ بَنِى بُكَيْرٍ أَتَوْا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقالوا: زَوِّجْ أختَنا مِنْ فلانٍ. فقال: أينَ أنتم عنْ بلالٍ؟ فعادُوا، فأعاد ثلاثًا، فزوَّجوه"، "عن أبى هريرة: كنّا معَ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فقامَ بلالٌ يُنادى. فلمّا سَكَتَ قالَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: مَن قالَ مثلَ هذا يقينًا دخلَ الجنَّةَ".

وعلى نفس الشاكلة أريد أن أقف لدن الحديث التالى الذى أورده الرصافى فى كتابه عن صفية أم المؤمنين: "دخل على رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وقد بلغنِى عن حفصةَ وعائشةَ كلامٌ، فذكرتُ ذلكَ لهُ، فقال: ألا قلتِ: وكيف تكونانِ خيرا منِّى، وزوجى محمدٌ، وأبِى هارونُ، وعمّى موسى؟ وكان الذى بلغها أنهن قلن: نحنُ أكرمُ على رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْها. وقلن: نحنُ أزواجُ النبى صلى الله عليه وسلم وبناتِ عمِّهِ". وأهمية هذا الحديث التى أرجو أن أكون أول من تنبه إليها هى أن الرسول قد جعلها بنت هارون، وجعل عمها موسى. وأين صفية من موسى وهارون، وبينها وبينهما مئات الأعوام، وهو فارق تاريخى أطول كثيرا مما بين مريم أم عيسى وهارون؟ ولم تعترض صفية ولا من سمعوا الحديث من مسلمين وغير مسلمين على نسبة أم المؤمنين إلى هارون وموسى باعتبار الأول أباها، والثانى عمها رغم ما يفصل بين الطرفين من الدهر الشاسع الطويل. ومن ثم فليس لأى أحد التعلل على القرآن بأنه قد وصف مريم عليها السلام بأنها أخت هارون كما جاء فى آية سورة "مريم"، وبخاصة أن القرآن ليس هو الذى وصفها بذلك بل اليهود المعاصرون لها حين رَأَوْها تحمل طفلا رغم أنها لم تتزوج، فسخروا منها بأنها أخت هارون، فكيف تزنى وتنجب من الحرام؟ وقد تعرضتُ لهذا الموضوع فى عدد من كتبى، وأوردت من مواد "أخ وأخت وأب..." ما يدل دلالة قاطعة على أن الكتاب المقدس يستعمل على نطاق واسع تلك الكلمات

استعمالا مجازيا بحيث تدخل فى عدد من هذه الاستعمالات كلمة "أخت هارون" التى أطلقها اليهود على مريم دخولا سلسا من شأنه أن يقطع الألسنة المغرمة بالشغب على القرآن والإسلام. ثم ها هو ذا الرسول عليه السلام يسمى صفية زوجته ذات الأصل اليهودى: "ابنة هارون"، ويصف موسى بأنه عمها، ولم تجد هى ولا أحد آخر من العرب أو من اليهود أو من النصارى أو من المنافقين من يومئذ حتى الآن من يستغرب هذا مجرد استغراب. وبهذه المناسبة أذكر أنى قرأت فى صيف عام ١٩٨٢م فى لندن كتابا لمريم جميلة (Maryam Jameelah) الكاتبة الأمريكية اليهودية التى أسلمت وعاشت شطرا من حياتها فى الباكستان، وكانت على صلة بأبى الأعلى المودودى، بعنوان "Islam versus Ahl al Kitab Past and Present"، وقد تعرضتْ فيه لهذه الواقعة التى رويت على نحو مختلف بعض الشىء، إذ قالت حفصة لصفية رضى الله عن كلتيهما: "يا يهودية بنت يهوديين"، فتدخلت مريم جميلة بين أُمَّيِ المؤمنين لصالح صفية ضد حفصة، التى وصفتها بأنها "noted for quick temper and sharp tongue"، أى معروفة بطبيعتها الانفعالية ولسانها الحاد. وكنت أحب ألا تتدخل هذا التدخل بين السيدتين الكريمتين وتصف حفصة على ذلك النحو المتجاوز، ولتدع السيدتين تسويان أمرهما فيما بينهما، وقد تكفل الرسول عليه السلام فحل الأمر خير حل، وكان ينبغى أن يُرْضِيَ هذا الحلُّ المؤلفةَ الأمريكيةَ، لكنها أبت إلا أن تكتب هذه العبارة التى لا يليق وصف السيدة حفصة رضى الله عنها بها أبدا.

عيوب الإسلام فى نظر الرصافى

هناك رأى شائع بين كثير من المستشرقين والمبشرين حول شخصية محمد عليه السلام، وهو الرأى الذى يميِّز بين أخلاقه وتصرفاته ومواقفه فى المرحلة المكية ونظائرها بعد الهجرة إلى يثرب. ففى رأى هؤلاء أن محمدا فى المرحلة الأولى كان مخلصا صادقا يتضح صدقه وإخلاصه فى تحمسه الشديد لتبليغ دعوته وتحمله المشاقّ، أما بعد الهجرة فقد أعماه نجاحه حتى لقد أخذ يخترع الوحى تلو الوحى لتحقيق شهواته وتسويغ انتهازيته. وهذا هو السبب فى أن القرآن ملىء بالمتناقضات والمزاعم الكاذبة حسب كلامهم. ومن بين القائلين بهذا الرأى إدمون باور (Edmon Power) حسبما جاء فى كتاب جوزيف هَبِى: " Christus- Manuel d'Histoire des Religions, Beauchenese et Ses Fils, Paris, 1946 , PP. 795- 797, 800"، وكتاب المستشرق الأمريكى واشنطن إرفنج " Mahomet and His Successors, The University of Wisconsin Press, Milwaukee, London, 1970, PP. 195- 196". ومع هذا فإن إرفنج، بعد صفحتين اثنتين ليس غير، يعود فيقر بأن محمدا رغم نجاحاته الساحقة وانتصاراته المتعددة لم يصبه الغرور أو الغطرسة لأن هذه النجاحات والانتصارات لم تكن وراءها، كما يقول، أية أهواء أو مصالح شخصية بل كانت لنشر الدين.

ومن قال بهذا أيضا بين المستشرقين وليم موير فى الجزء الرابع من كتابه عن حياة محمد: "The Life of Mahomet from Original Sources" فى آخر الفصل الذى عقده لمحمد وشخصيته. وهذا نص كلامه: "إن التعصب والقوة قد حلا سريعا محل الحرية والإقناع، وأصبح شعار الإسلام "اقتلوهم (أى المشركين) حيث ثقفتموهم...

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله"...". والملاحظ أن وليم موير يستشهد هنا بجزء من النص القرآنى الخاص بذلك الموضوع، ولو كان منصفا يريد بلوغ الحق وإظهاره لاستشهد بالآيات كلها حتى يعرف القارئ السياق الذى قيل فيه ويتضح له أنه سياق رد العدوان بمثله ليس غير. وإلى القارئ الآيات المقصودة كاملة، وهى الآيات ١٩٠- ١٩٤ من سورة "البقرة": "وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ". وقد بَيَّن سراج على فى كتابه: "الجهاد فى الإسلام- عرض نقدى" اضطراب رأى موير فى هذا الموضوع: فمرة يقول بما ذكرناه آنفا، ومرة يقول إن محمدا كان يتبع سياسة التسامح وعدم إكراه أحد على الدخول فى دينه (شراغ (سراج) على/ الجهاد فى الإسلام- عرض نقدى/ ترجمة د. إبراهيم عوض/ مكتبة زهراء الشرق/ القاهرة/ ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م/ ٤٨- ٥٦).

وعودا إلى الرصافى نقول إن كلامه الذى نناقشه هنا متاح فى البحث الذى عقده لاقتران الدعوة إلى الإسلام بالسيف، إذ يقول إن المسلمين فى مكة كانوا مستضعَفين لا قِبَل لهم بمناجزة المشركين، فلهذا كان الرسول وأصحابه يدعون إلى الإسلام ويجادلون فيه بالتى هى أحسن. أى أنهم كانوا مجبَرين على المسالمة إجبارا. بل إنه ليقول إن الرد على عدوان المشركين كان محرَّما. ولست معه فى أن الرد على العدوان بمثله كان حراما،

بل أقول بالأحرى إنه كان غير مُوصًى به، وإلا فقدْ رَدَّ سعد بن وقاص على عدوان بعض المشركين عليه هو وإخوانه من المسلمين حين كانوا يصلون مستخفين فى أحد شعاب مكة، فهاجمهم أولئك المشركون، فأمسك سعدٌ بلَحْيِ بعيرٍ وشَجَّ به رأسَ أحدهم، كما دافع أبو بكر ذات مرة عدوان المشركين على النبى صلى الله عليه وسلم، وبالمثل ضرب حمزة رأس أبى جهل بقوسه حين أُخْبِر أنه أساء إلى ابن أخيه محمد عليه السلام، كما أن عمر حين كان يغادر مكة مهاجرا إلى يثرب أعلن بكل قوة أنه من أراد أن تَثْكَله أمه أو تترمَّل زوجتُه أو يَيْتَم وَلَدُه فليحاول منعه من الهجرة. وإذن فإن السياسة الإسلامية فى ذلك الوقت هو عدم الدخول فى "معركة" مع المشركين لا تحريم رد المسلم للاعتداء الفردى الذى يقع عليه. فهذه نقرة، وتلك نقرة أخرى.

ثم أضاف الرصافى أن النبى عليه السلام تدرج فى قرار القتال تدرجا منطقيا يتسق مع ما كان عنده من قوة حربية، وأنه كان مصمما منذ اتفاق العقبة مع اليثربيين على الحرب وإعمال السيف فى نشر الدعوة. وقد تطور الأمر عند الهجرة فصار القتال مأذونا به، ثم تطور الأمر ثانية فصار القتال مأمورا به لمن بدأ المسلمين بالقتال، ثم كان التطور الرابع فصار القتال فرضا على المسلمين ضد المشركين حتى لو لم يبادئوهم بالقتال، ولكن فى غير الأشهر الحرم. وهو يستشهد على هذا التطورالرابع بسورة "التوبة". وقد أورد تطورا خامسا أشار إليه الإمام الأسنوى، وهو بدء المشركين بالقتال حتى فى الأشهر الحرم دون أن يعتدى المشركون على المسلمين.

وهو يستدل على أن الرسول كان عازما منذ العقبة على استعمال السيف فى الدعوة، وظهر هذا من قوله وهو فى قباء قبل أن يدخل المدينة حين عرض عليه مضيفوه أن يبقى عندهم: "إنى أُمِرْت بقرية تأكل القرى". يقصد يثرب. كما استشهد على ذلك

بقول الرسول: "بُعِثْت بين يَدَيِ الساعة بالسيف حتى يُعْبَد الله وحده لا شريك له، وجُعِل رزقى تحت ظل رمحى"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله". ثم يقول إنه حين اقترنت الدعوة بالسيف وقويت شوكة المسلمين كثر عدد معتنقى الإسلام (ص٢٨٤- ٢٨٦). وقد لخص الرصافى هذاالكلام فى فصل صغير من كتابه: "آراء الرصافى فى السياسة والدين والاجتماع- المجموعة الأولى"/ جمع وترتيب سعيد البدرى/ مطبعة المعارف/ بغداد/ ٦٠- ٦١).

والحق أن هناك مرحلتين اثنتين لا غير فى الموضوع الخاص بقتال المسلمين للمشركين: ففى مكة لم يكن يُنْصَح بالدخول مع المشركين فى معركة، وإن لم يمنع هذا من رد المسلم الفرد على المشرك المعتدِى عليه بمثل ما اعتدى عليه كما قلنا. وتمثَّلْنا آنفا بما حدث من حمزة حين سمع أن أبا جهل تطاول على ابن أخيه، فما كان منه سوى أن قَدِم عليه وهو فى مجلس مع قومه وضَرَبه بالقوس على رأسه وتحداه. ومن ذلك أيضا ما تحكيه الروايات من أن عمر هدد من يريد أن يحول بينه وبين الهجرة بأن يتبعه، ولسوف يريه حجمه ويُيْتِم ولده ويُثْكِل أمه ويرمل زوجته. وكان المسلمون ذات مرة يصلون فى أحد الشعاب المكية حين اطلع عليهم بعض المشركين فناوشوهم واقتتلوا، فما كان من سعد بن أبى وقاص إلا أن رد العدوان بمثله وضرب أحدهم بلحى بعير. قال ابن إسحاق: "وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إِذَا صَلَّوْا ذَهَبُوا إلى الشِّعَابِ، فَاسْتَخْفَوْا مِنْ قَوْمِهِمْ، فَبَيْنَا سَعْدُ بْنُ أَبِى وَقَّاصٍ فِى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِى صلى الله عليه وسلم فِى شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ مَكَّةَ إِذْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ نَفَرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ يُصَلُّونَ، فَنَاكَرُوهُمْ وَعَابُوا عَلَيْهِمْ مَا يَصْنَعُونَ حَتَّى قَاتَلُوهُمْ فَاقْتَتَلُوا، فَضَرَبَ سَعْدُ بْنُ أَبِى وَقَّاصٍ يَوْمَئِذٍ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِلَحْى جَمَلٍ فَشَجَّهُ، فَكَانَ أَوَّلَ دَمٍ أُهْرِيقَ فِى الإسلام".

وكان النبى يصلى مرة فى حجر الكعبة، فأتى عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن النبى وقال: "أَتَقْتُلُونَ رَجُلا أَن يَقُولَ رَبِّى اللهُ؟". وعن على: "لقد رأيت رسول الله وأخذته قريش: فهذا يُحَادَّه، وهذا يتلتله ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهًا واحدًا؟ فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر يضرب ويجاهد هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم! أتقتلون رجلا أن يقول: ربى الله؟".

فهذه هى المرحلة الأولى فى الصراع بين الإسلام والشرك، وكانت فى مكة، ثم نزلت سورة "الحج" تأذن للمسلمين أن يردوا عدوان الشرك بمثله، فقد طالما ظُلِموا، كما أُخْرِجوا من ديارهم وأُوذُوا فى سبيل ربهم ودينهم، وصبروا حتى لم يعد فى قوس الصبر منزع، فسمح الله سبحانه لهم بالرد على كل عدوان يقع عليهم. ونبههم إلى أن قتالهم إنما هو لمن قاتلهم ولكن لا ينبغى أن يعتدوا على أحد لأنه سبحانه لا يحب المعتدين. وأما سورة "التوبة" وما يزعمه الرصافى بشأنها من أنها نزلت بتشريع قتال المشركين دون أن يكون فَرَطَ منهم عدوان على المسلمين حتى لو كان ذلك فى الأشهر الحرم فالسؤال هو: هل الإسلام دين عدوانى يضع نصب عينيه إكراه الناس على اعتناقه واطراح أديانهم السابقة مستخدما حد السيف؟

نسمع كثيرا عن آية السيف فى سورة "التوبة" وأنها تبيح للمسلمين الاعتداء على الآخرين وإجبارهم على الدخول فى دينهم. ونصها هو: "فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصُروهم واقعدوا لهم كل مَرْصَد...". والواقع أنها لم تنزل إلا بعدما عمل الرسول مع مشركى مكة كل ما فى وسعه من لزوم السلم واحترام المعاهدات التى كانت بينه وبينهم فلم يرعووا وظلوا

يضطهدون دينه وأتباعه، وانتهى بهم الأمر إلى خيانة بنود المعاهدة التى وُقِّعَت فى الحديبية وأسست للسلم بين الفريقين لمدة عشر سنوات ما إن مر منها عدة أشهر حتى انقض المشركون فمزقوها بعدوانهم على المسلمين وحلفائهم.

والمتأمل فى الآية المذكورة وفى ألفاظها وأسباب نزولها وسياقها من الآيات التى حولها ومن القرآن كله سوف يتحقق أن ما يقوله الرصافى وأمثاله ليس إلا أباطيل وتدليسات متهافتة. كيف؟ أولا المشركون فى الآية ليسوا كل المشركين بإطلاق بل طائفة منهم فحسب، إذ إن "أل" فى الكلمة هى للعهد وليست للجنس ولا للماهية. أى أن المشركين المأمور بقتلهم هم مشركون معينون لا يستغرقون المشركين كلهم جميعا. فأى طائفة من المشركين إذن هؤلاء؟ إنهم هم المشركون الذين كانت بينهم وبين المسلمين وحلفائهم معاهدة فلم يحترموها وغدروا بهم واعتدَوْا عليهم وقتلوا فريقا منهم خيانةً وغِيلَةً. والدليل على ذلك قوله تعالى عقب هذا: "كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام؟ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم. إن الله يحب المتقين * كيف وإن يَظْهَروا عليكم لا يَرْقُبوا فيكم إِلًّا ولا ذمةً؟ يُرْضُونكم بأفواههم، وتأبى قلوبُهم، وأكثرُهم فاسقون * اشْتَرَوْا بآيات الله ثمنًا قليلًا فصَدُّوا عن سبيله. إنهم ساءَ ما كانوا يعملون". فالمشركون الذين أمر القرآن المسلمين بقتلهم إنما هم المشركون الخائنون الغادرون الذين أخذوا فريقا من حلفاء المسلمين غيلة فقتلوهم رغم ما كان بين الطائفتين من اتفاقيات مغلظة. لقد كان الأمر أمر علاقة بين دولتين لا أمر أشخاص من هنا وأشخاص من هناك. ولا يصلح أن تترك الدول حقها وكرامتها فى هذه الظروف دون أن تعاقب الغادرين الخائنين، وإلا انتقض أمرها وطمع فيها كل من هب ودب. وثالثا لم يحدث فى الواقع أنْ وضع المسلمون هذا

الأمر موضع التنفيذ، إذ قد آتى ثمرته بمجرد إعلانه على الملإ، فكف المشركون شرهم عن المسلمين ودخل منهم فى الإسلام من دخل. ليس ذلك فقط، بل إن القرآن قد أعطى المشركين المعتدين فترةَ سماحٍ أربعةَ أشهرٍ قبل أن تدخل الآية حيز التطبيق يستطيع فيها كل مشرك أن يسيح فى البلاد خلالها دون أن يتعرض له المسلمون بأى أذى. بل إن أى مشرك لو استجار بالمسلمين حينئذ لوجب على المسلمين أن يجيروه بأمر القرآن فى هذه السورة ذاتها إلى أن يسمع كلام الله ثم يبلغوه مأمنه فى طمأنينة وسلام دون أن يُرَوِّعوه مجرد ترويع، فضلا عن أن يُنْزِلوا به أى ضرر.

على أنْ ليس هذا كل شىء، إذ القرآن يوجب على المسلم أن يعامِل، بمنتهى البر والإقساط، غير المسلم ما دام لم يقاتله فى الدين ولم يعتد عليه أو يخرجه ظلما من وطنه. بل إن الإسلام يحرّم على المسلمين الاعتداء على أىّ أحد لأن الله سبحانه وتعالى لا يحب المعتدين، اللّهم إلا إذا بُدِئوا بالعدوان الغشوم، فعندئذ فمن حقهم رد العدوان بمثله. وهذا مما لا يمكن أن يشاحّ فيه عاقل منصف. فهذا هو تفسير الآية الخامسة من سورة "التوبة"، التى جعل أعداءُ الإسلام هِجِّيراهم التشنيعَ بها على الإسلام واتهامَه تدليسًا وافتراءً بأنه دين عدوان وإكراه. وهو تفسير يرتكز، كما رأينا، على التحليل اللغوى والسياق القرآنى والمناسبة التاريخية التى ظهر فيها النص. ولولا هذا التحليل والتفسير لَظَنَّ مَنْ لا عِلْم لهم أن ما يردده أعداء الإسلام فى هذا المضمار جَرَّاءَ امتلاخِ الآية من سياقها هو كلام صحيح.

وفى ضوء هذا التحليل ينبغى أن نقرأ صدر سورة "التوبة" بآياته الخمس عشرة كلها لا الآية الخامسة وحدها بعيدا عن سياقها. يقول تعالى: "بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ

مُعْجِزِى اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

ولنتنبه إلى أن الأشهر الحرم هنا ليست هى الأشهر الحرم المعروفة: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم بل أربعة أشهر من لدن نزول هذه الآية، وسميت: أشهرا

حرما قياسا على الأشهر الحرم الأصلية للمماثلة التى بينهما، وهى توقف القتال أثناءها. فأين الأمر هنا بقتال المشركين لنشر الإسلام؟ ومتى تم هذا يا ترى؟ أرجو أن يأتى لنا الرصافى أو غيره بغزوات قام النبى بها ابتداء دون أن يعتدى المشركون أو اليهود أو الروم على دينه وأتباعه. ألم يتنبه إلى أن النبى، لدن فتح مكة، لم يجبر أحدا على الدخول فى الإسلام؟ أما زعمه أن القرآن نزل بقتال المشركين حتى فى الأشهر الحرم وبدون أن يبدأوا المسلمين بالعدوان فأين هذا فى القرآن؟ إن ما فى القرآن فى هذا الصدد هو قوله تعالى: "الشهر الحرام بالشهر الحرام والحُرُماتُ قِصاصٌ فمن اعتدَى عليكم فاعتدُوا عليهم بمثل ما اعتدى عليكم". فالإسلام إذن لا يجيز البدء بقتال المشركين دون سبب، فضلا عن أن يكون ذلك فى الأشهر الحرام. بل إن قتالنا لهم فى الأشهر الحرام إنما يكون ردا على اعتدائهم علينا فى تلك الأشهر. وبالمثل إذا قاتل المشركون المسلمين عند المسجد الحرام كان من واجب المسلمين أن يقاتلوهم عند المسجد الحرام دون أى تحرج. والمبدأ العام فى الإسلام هو عدم الاعتداء، بل رد العدوان بمثله بما فى ذلك الأشهر الحرام. والآيات واضحة فى هذا. أما أى كلام غير هذا فهو غير مقبول لأنه يضاد الآيات الكريمة المتعددة والمتضافرة فى هذا المعنى حتى لو كان قائله ابن الجوزى أو الأسنوى مع احترامنا بل تبجيلنا التام لهما. وهناك كتاب كامل عن هذه القضية أثبتَ أن كل قتال نشب بين المسلمين فى المدينة وبين غير المسلمين إنما هو لرد العدوان على المسلمين. والكتاب هو "الجهاد فى الإسلام- عرض نقدى" للكاتب الهندى المسلم سراج على، ومن ترجمتى.

كذلك فمن الآيات التى يُتَّهَم الإسلام دائما جَرَّاءها بأنه دينٌ عدوانىٌّ يسارع إلى قتال أعدائه بل إلى قتلهم قوله تعالى مثلا فى سورة "التوبة": "قاتِلوا الذين لا يؤمنون

بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرَّم اللهُ ورسولُه ولا يَدِينون دينَ الحق من الذين أُوتُوا الكتابَ حتى يعطُوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون". وفات من يشير إلى هذه الآية قوله تعالى: "وقَاتِلُوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين"، "وإن عاقبتم فعَاقِبوا بمِثْلِ ما عُوقِبْتم به. ولَإِنْ صبرتم لَهُوَ خيرٌ للصابرين"، "وإنْ جَنَحُوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكل على الله". كما أن قوله تعالى: "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" الخاص بقتال أهل الكتاب ليس فى الأمر بقتالهم جميعا من الباب للطاق، بل فى قتال الروم، الذين كانوا يُعِدّون العدة للهجوم على المسلمين والقضاء على دينهم. أما الآية الخامسة من ذات السورة: "فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" فقد وضحنا أنها فى المشركين الذين كانت بينهم وبين المسلمين وحلفائهم معاهدات سياسية بالموادعة لمدة معلومة لكنهم غدروا بالمسلمين وحلفائهم بعد توقيعها بقليل وقتلوا منهم طائفة دون أن يكون المسلمون ومن حالفوهم قد أساؤوا لهم قط. ومع هذا فإن القرآن لم يقل للمسلمين: هيا اهجموا عليهم فى الحال. بل قال: أعطوهم مهلة أربعة أشهر يتنقلون فيها بطول البلاد وعرضها حسبما يحلو لهم دون أن تتعرضوا لهم بشىء. بل زاد فأوجب على المسلمين أنه متى أتاهم آتٍ من الكفار يستجير بهم فَلْيُجِيروه حتى يسمع كلام الله ثم فلْيُبْلِغوه المكان الذى يأمن فيه على نفسه تمام الأمان. ثم بعد ذلك كله حين تنتهى مهلة الأشهر الأربعة فعاقِبوهم وأذيقوهم من نفس الكأس التى أذاقوا منها إخوانكم المغدور بهم. ومعروف

أن المسلمين لم يقتلوا أحدا من المشركين عندئذ، وكأن الآيات قد نزلت للترهيب وتحطيم الروح المعنوية لديهم ليس إلا. وعلى كل حال فقد تسارعت وتيرة الأحداث، وتم فتح مكة، ثم دخل أهلها فى دين الله، لينتشر الإسلام بعدها بإيقاع أسرع حتى عم ضياؤه بلاد العرب جمعاء. فأين العدوانية هنا؟ ولن نتكلم عن راية السلم التى ظل المسلمون يرفعونها طوال الفترة المكية أيام كان الاضطهاد والأذى يحيق بهم من كل جانب وفى كل لحظة.

ويؤيد كلامَنا ما ذكره رسول الله فى بعض أحاديثه كقوله: "لاتَتَمَنَّوْا لقاء العدو. فإذا لقيتموهم فاثْبُتوا"، إذ لو كان قتال غير المسلمين واجبا من الباب للطاق لكان تَمَنِّى لقاء العدو مكرمةً لا يمكن أن يَنْهَى عنها النبى عليه السلام. وفى واقعة الحديبية قال صلى الله عليه وسلم عن المشركين وتعنتهم معه هو وأتباعه: "والذى نفسى بيدِه لا يسألونِّى خُطَّةً يُعظِّمون فيها حُرُماتِ اللهِ إلَّا أعطَيْتُهم إيَّاها" مؤكدا أنه لن يبدأ أبدا بعدوان وأنه سوف يصابر المشركين إلى أبعد مدى. بل إنه، حين بلغه أن قريشا قد أقبلت تريد مقاتلته وصده عن زيارة البيت الحرام بالقوة الغشوم، أعلن قائلا: "إنَّا لم نَجِئْ لقتالِ أَحدٍ، ولكنَّا جِئْنا معتمرين. فإنَّ قريشًا قد نهَكَتْهم الحربُ وأضرَّت بهم. فإنْ شاؤوا مادَدْتُهم مدَّةً ويُخَلُّوا بينى وبيْنَ النَّاسِ: فإنْ ظهَرْنا وشاؤوا أنْ يدخُلوا فيما دخَل فيه النَّاسُ فَعَلُوا وقد جَمُّوا. وإنْ هم أَبَوْا فوالَّذى نفسى بيدِه لأُقاتِلَنَّهم على أمرى هذا حتَّى تنفرِدَ سالفتى أو لَيُبْدِيَنَّ اللهُ أمرَه". فكما ترى كان عليه السلام حريصا على السلم إلى آخر المدى، أما الحرب فعندما لا يكون من الحرب مناص. وقد تجلى حرصه على السلام فى المعاهدة التى كُتِبَتْ بينه وبينهم، إذ قَبِل الشروط المجحفة التى أملاها

المشركون على المسلمين، وساءت كثيرا من الصحابة، ومع هذا ظل الرسول على موقفه.

ثم إذا كانت سياسة القرآن هى العدوان على المخالفين مهما كانوا له من المسالمين فلِمَ كتب النبى عليه السلام لدن وصوله إلى يثرب مهاجرا صحيفة المدينة إرساءً لأسس التعايش السلمى بين فئات سكانها من أوس وخزرج ومهاجرين ويهود؟ لقد كان الأحرى به أن ينقضَّ على اليهود فور هجرته قبل أن يستفيقوا فيقضى عليهم بكل سهولة وسلاسة. ولماذا لم يقتل مشركى مكة لدن الفتح منتهزا ما كانوا عليه عقيب ذلك من ضعف وتهافت بعد الهزيمة النكراء التى حلت بهم؟ لقد كانت كلمته لهم: "اذهبوا، فأنتم الطُّلَقاء"، تلك الكلمة التى سكنت مسامع التاريخ ولم تغادرها منذ ذلك اليوم الخالد. وقد رفض صلى الله عليه وسلم ما ردده أحد الصحابة اليثربيين حين قال فى ذلك اليوم تعبيرا عن نيته فى تطيير رؤوس المكيين عند دخوله المدينة المقدسة: "اليومَ يومُ الملحمة. اليومَ تُسْتَحَلّ الحرمة"، ونهاه عن ذلك، ونحاه عن القيادة فورا. نخلص من هذا كله بأنه فى مسألة قتال المشركين ليس هناك سوى مرحلتين اثنتين فقط: عدم الانجرار إلى استفزازات المشركين فى المرحلة المكية والدخول معهم فى قتال، ثم المرحلة التى تلت ذلك وبدأت مع الهجزة، وهى رد العدوان بمثله بغض النظر عن المكان أو الزمان حتى لو تم الاعتداء على المسلمين فى الأشهر الحرام، إذ لا ينبغى أن تتحول تلك الأشهر عائقا للمسلمين عن أخذ حقهم وحماية أنفسهم. وعلى هذا فالنبى، على عكس ما يقول الرصافى، لم يكن ناويا منذ البداية على قتال المشركين كى يدخلوا الإسلام، بل إن تصرفاتهم ومواقفهم العدوانية هى التى أدت إلى تلك النتيجة.

وينتقل الرصافى إلى الغنائم والسبابا والجنة بوصفها الحوافز التى دفعت العرب دفعا إلى الجهاد، واستشهد بالنصوص على ما يقول. وليس فى الأمر ما يعاب أبدا، فالإنسان جسم وروح، وهو يجوع ويعطش ويشتهى النساء ويحب المال، ولكن له أيضا أشواقا روحية. وبالمناسبة فقد طُلِب من الرصافى أن يشرف على بعض الأنشطة الدعائية لأحد رجال العراق، فأكد مرارا أن مثل هذا الأمر يحتاج إلى المال واستعمال القوة: هكذا صراحة. وعلى كل حال فأغلب المسلمين فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الإسلام، إن لم نقل كلهم تقريبا، كانوا يتشوقون إلى الشهادة. وقد وقف كاتبنا عند تقسيم السبابا وصوره فى بعض عباراته تصويرا غير مريح. بل لقد ركز تمام التركيز على الإسلام حتى يبدو الأمر غريبا ومنفرا. ولكنه لو وضع الأمر فى سياقه التاريخى لكان صوابا. إن كلامه فى هذا الموضوع يوحى بأن الغنائم والسبايا تشريع إسلامى لا تعرفه الأديان ولا الأمم الأخرى. فهل الأمر كذلك فعلا؟ لنقرأ معا مادة "غنم- غنيمة" فى "دائرة المعارف الكتابية": "غنم الشئ غَنْمًا: فاز به. والغنيمة: ما يؤخذ فى الحرب قهرًا من نفائس وبهائم ونفوس. وعندما هزم كدرلعومر وخلفاؤه ملك سدوم وحلفاءه "أخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة وجميع أطعمتهم ومَضَوْا، وأخذوا لوطًا ابن أخى أبرام وأملاكه ومضوا". ولما كسرهم أبرام وغلمانه استرجع كل الأملاك واسترجع لوطًا أخاه أيضًا وأملاكه والنساء أيضًا والشعب (تك ١٤: ١١و١٦)، وقد أعطى أبرام لملكى صادق "عُشرًا... من رأس الغنائم" (عب ٧: ٤). وعندما رجع الجواسيس الذين أرسلهم موسى لاستكشاف أرض كنعان أذاعوا الأخبار الرديئة عن الأرض وقالوا: "تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة" (عد ١٤:٣، انظر أيضًا عد ١٤: ٣١، تث ١: ٣٩).

وعندما هزم بنو إسرائيل المديانيين أخذوا "نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم... وأخذوا الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم" وأتوا بالجميع إلى المحلة أمام موسى وألعازار الكاهن (عد ٣١: ١١و١٢)، فأمر الرب أن تنصَّف الغنيمة بين الذين باشروا القتال الخارجين إلى الحرب وبين كل الجماعة" وأن ترفع منها زكاة للرب وتُعْطَى "لألعازر الكاهن رفيعةً للرب" (عد ٣١: ٢٥- ٣٠- انظر أيضًا تث ٢: ٣٥، ١ صم ٣٠: ٢- ٢٥).

وقد أمرت الشريعة أن المدينة التى لا تقبل الصلح والمسالمة من المدن البعيدة بالقول: "اضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كل غنيمتها فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا (الكنعانيين). وأما مدن هؤلاء الشعوب فلا تستبق منها نسمة بل تحرِّمها تحريمًا" (تث ٢٠: ١٠- ١٨)، وهو ما حدث فى أريحا (يش٦: ١٧)، وعندما عصاه عخان بن كرمى كان عقابه الموت رجمًا (يش٧: ٢١- ٢٦)، وعصاه أيضا شاول الملك فى حربه مع عماليق حتى قال له صموئيل النبى: "لماذا لم تسمع لصوت الرب بل ثرت على الغنيمة وعملت الشر فى عينى الرب؟" (١ صم ١٩: ١٥).

وقد قدّس داود ورؤساء الآباء والشعب كلَّ ما أخذوه "من الحروب ومن الغنائم، قدسوه لتشييد بيت الرب" (١ أخ ٢٦: ٢٦و٢٧، انظر أيضا ١ أخ ٢٩: ٢). ويقول المرنِّم: "أبتهج أنا بكلامك كمن وجد غنيمة وافرة" (مز ١١٩: ١٦٢، انظر أيضا أم ١٦: ١٩). ويقول الحكيم: "امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلئ. بها يثق قلب زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة" (أم ٣١: ١٠و١١). ويقول الرب على فم إِشَعْياء

النبى: "هل تُسْلَب من الجبار غنيمة؟ وهل يُفْلِت سَبْى المنصور؟ فإنه هكذا قال الرب: حتى سبى الجبار يُسْلَب، وغنيمة العاتى تفلت" (إش ٤٩: ٢٤ و٢٥) فى إشارة إلى إنقاذ الرب القدير لنا من فخ إبليس (٢تى ٢: ٢٦، انظر لو ١١: ٢٢)".

والآن ما رأى القارئ؟ وبالمناسبة فإذا كان هذا هو ما تقوله شريعة اليهود فلا ينبغى أن ننسى ما قاله السيد المسيح فى الأناجيل الموجودة حاليا فى العهد الجديد والتى لا تعترف الكنيسة بغيرها، إذ وضح موقفه من الشريعة اليهودية بقوله: "ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمل"، وهو ما يعنى أن شريعة بنى إسرائيل هى شريعته دون أى فرق. وأية مقارنة بين أحكام القتال فى الإسلام ونظيرتها فى الكتاب المقدس ترينا الفرق بين السماء والأرض. فالإسلام لا يعرف الاستئصال، ذلك الأسلوب الذى قننته شريعة الكتاب المقدس كما فى النصين المستشهد بهما فى مادة "غنم- غنيمة" من "دائرة المعارف الكتابية" والذى اتبعه الأوربيون فى أمريكا وأستراليا ونيوزيلندا عند اكتشافهم لها، فقضَوْا على سكان هذه البلاد حتى خلصت لهم وأصبح سكانها الأصليون أثرا من بعد عين. وليس فى الإسلام هذا النزوع الوحشى المَرَضِىّ إلى القضاء على كل شىء حى، بل فى القرآن ممنوع على المحاربين المسلمين التعرض، مجرد التعرض، بأى أذى للأطفال والشيوخ والرهبان والنساء والمرضى وكل من لا يشارك فى القتال. كما يحرم على المسلم اقتلاع الأشجار أو حرق البيوت. ولم يكن المسلمون يعرفون التمثيل بالجثث. كذلك كان كفار قريش يأخذون الغنائم والأسرى ويعاملونهم معاملة بشعة، بل إن هذه المعاملة البشعة كانت تمتد للمسلمين الذين بقُوا فى مكة ولم يهاجروا رغم أنهم لم يسيئوا قط لهم.

وإلى القارئ ما تقوله مادة "رق" فى "الموسوعة العربية العالمية": "الرِّق هو كون الإنسان مستعبدًا لغيره مملوكًا له، فاقد التصرف بذاته ومكاسبه. أما الاسترقاق فهو الإدخال فى الرق. ويقال للواحد وللجمع: "رقيق"، وللجمع فقط: "أرقّاء".

نشأ الرِّق فى أوقات مبكرة من التاريخ، وتعود نشأته فى الغالب إلى الحروب والصراعات التى كانت منتشرة بين الأمم والشعوب من بدايات الخليقة. وفضلًا عن الرِّق بسبب الحروب فقد كان من الأساليب المعهودة والمنتشرة فى أحداث الرق سرقة الأطفال، أو خطف النساء والرجال فى حوادث قطع الطرق والغارات المحلية المتبادلة التى كانت تشنها القبائل البدائية بعضها على بعض، وكذا استعباد الأشخاص المذنبين كاسترقاق السارق المعمول به عند العبرانيين وغيرهم والمذكور فى قصة يوسف: "قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا جزاؤه من وُجِد فى رَحْلِه فهو جزاؤه" (يوسف/ ٧٤-٧٥). وكانت أحوال الرق عند الأمم القديمة فى أسوإ صورة وأفظعها، فقد اتصفت معاملة السيد لرقيقه بالقسوة والجبروت ومجافاة الإحساس الإنسانى والمشاعر الآدمية حيث كان يتعامل معهم كما يتعامل مع الأثاث والأدوات والآلات الجامدة. ولم يكن للرقيق وقتئذ أدنى حق إنسانى، بل كان لمالكه تمام الحرية فى إبقائه على قيد الحياة أو تجويعه وتعذيبه والتنكيل به. وقد منعت أكثر القوانين الزواج بالرقيق، وكثيرًا ما عاقبت الطرفين المتزوجين بالحرق فى النار معًا وهم أحياء فى حين كانت تسمح للرجال، وبخاصة العسكر، أن يقضوا شهواتهم الجنسية مع من يشاؤون من النساء الرقيق. وقد بالغ القدماء أيضًا فى إجبار الرقيق على أداء أشق الأعمال تحت ضربات السياط الملهبة، وكان جزاء من يمتنع عن ذلك تعليقه من رجليه، ووضع الأجسام الثقيلة فى يديه،

وضربه أو كى مواضع حساسة من جسمه. وقد يعمدون إلى مَلْء فمه وأذنيه بالزيت المغلى، أو قطع لسانه وأعضائه والتمثيل به، أو قتله بأفظع الصور.

وأما عند النصارى فقد أقرّت جميع الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبها فكرة الرِّق، ولم تر ما يمنع من استمراره حتى إن القسيس الفرنسى المشهور بوسويت قال: إن من حق المحارب المنتصر قتل المقهور، فإن استعبده واسترقَّه فذلك مِنّةٌ منه وفضلٌ ورحمة. بقى الرِّق أمرًا مشروعًا لدى النصارى إلى القرن التاسع عشر الميلادى حيث جاء فى "دائرة معارف لاروس" أن رجال الدين الرسميين وقتئذٍ أقرّوا بصحة الرِّق وسلّموا بشرعيته. واستمر الرِّق شائعًا أيضًا عند الأمم والشعوب والدول التى عايشت النهضة الأوروبية منذ أواسط القرن الخامس عشر الميلادى وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى. غير أن كل دولة من هذه الدول وضعت، فى زمن ما يُسَمَّى: "عصر المدنية والنهضة" قانونًا خاصًا يرتقى بأحوال الرقيق ويفصّل حدود معاملتهم، وعُرِف هذا القانون بـ"القانون الأسود" لكونه مختصا بمعالجة أحوال الأرقاء السود وبيان الأحكام المتعلقة بهم. إلا أن تلك القوانين لم تحدث تغيرات جذرية فى الطريقة التى يعامل بها الرقيق. فعلى سبيل المثال كان من مقتضى القانون الأسود الفرنسى أن الزنجى إذا اعتدى على أحد الأحرار أو ارتكب جريمة السرقة عوقب بالقتل أو بعقاب بدنى آخر شديد. أما إذا أبق، أى هرب، الرَّقيق من سيده مرة أو مرتين فإن القانون يسمح للسيد بقطع أذنى رقيقه وكيّه بالحديد المحمى فى النار، فإذا أبق الثالثة قُتِل. وكان قتل الرَّقيق الآبق معمولًا به أيضًا فى إنجلترا حيث نصّ القانون الأسود فيها على أن من أبق من الرَّقيق وتمادى فى إباقه قُتِل.

وكان غير مسموح للملونين أن يحضروا فى فرنسا لطلب العلم والثقافة. وظل الحال فى فرنسا على الوصف السابق حتى قيام الثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩م حيث لم تجرؤ على إلغاء الرق، بل منحت صفة المواطنة لكل مقيم على أرضها مهما كان لونه أو عرقه. وفى عام ١٧٩١م أصدر مجلس الثورة الفرنسى قرارًا بإلغاء الرق فى جميع المستعمرات الفرنسية، ومساواة جميع من فيها فى الحقوق والواجبات مع تمتعهم بالجنسية الفرنسية. لكن حين تولى نابليون الحكم لاحظ انخفاض صادرات المستعمرات الفرنسية التى تعتمد على اليد العاملة الزنجية، فأصدر قرارًا عام ١٨٠٢م بالعودة إلى استرقاق الزنوج، فثار الزنوج فى المستعمرات وقاوموا مدة ثلاث سنوات، فقضى نابليون على ثورتهم وأعادهم إلى الرق. وفى عام ١٨٨٤م صدر قرار فى فرنسا بإلغاء الرق فى المستعمرات الفرنسية مرة أخرى تماشيًا مع قرارات مشابهة اتخذتها قبل فترة وجيزة كل من بريطانيا ثم البرتغال، فتبعتها هولندا والدنمارك عام ١٨٦٠م.

أما فى أمريكا ففى العصر الأول من تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية كان كثير من سكانها، وبخاصة أهل الجنوب، يملكون الرقيق، إذ كان تجار الرقيق من أهل الجنوب يقومون بحملات منظمة ومسلحة إلى القارة الإفريقية ويختطفون الرجال والنساء فى مداهمات وغارات مفاجئة على قراهم ومساكنهم، ويجلبونهم قسرًا إلى المدن الأمريكية، وبخاصة الجنوبية، ليبيعوهم فى أسواق الرقيق. وكانت معاملة هؤلاء المختطَفين المغصوبين فى منتهى الفظاعة والقسوة والهمجية، وكان من مقتضى القانون الأسود الأمريكى أن للسيد كل الحق فى الإبقاء على رقيقه حيًّا أو إماتته. بل صرّح قانونهم بأنه ليس للرقيق روح ولا عقل وأن حياته محصورة فى ذراعيه، كما أنه ليس له حق الخروج إلى الشوارع وقت شدة الحرّ إلا بتصريح قانونى، وإذا شوهد أكثر من سبعة

أرقاء مجتمعين فى شارع واحد كان لكل رجل أبيض الحق فى إلقاء القبض عليهم وجلدهم، ولو كان خروجهم إلى الشارع بتصريح قانونى. وكان القانون أيضًا يجيز للسيد رهن رقيقه وإجارته وبيعه بل والمقامرة عليه. وظل الأمر على هذا الحال حتى شهر يناير من عام ١٨٦٣م حين أصدر أبراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إعلانًا بتحرير الرَّقيق فى ولايات الجنوب الأمريكى، وكان هذا القرار من أسباب اغتياله عام ١٨٦٥م.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وقّعت الدول المشتركة فى عصبة الأمم عام ١٩٢٦م اتفاقية تقضى بملاحقة تجارة الرق والمعاقبة عليها، والعمل على إلغاء الرقيق بجميع صوره. وفى عام ١٩٤٨م أصدرت هيئة الأمم المتحدة إعلانًا عالميًّا تضمن حظر الرِّق وتجارة الرقيق، وقد التزمت بهذا الإعلان أكثر دول العالم.

وقد جاء الإسلام فى القرن السابع الميلادى والرق منتشر فى العالم، متفشٍّ بين العرب، وكان الرقيق يُعْرَفون بـ"موالى العتق أو موالى العتاقة"، وهم الرقيق الذين تُفَكّ رقابهم بعتقهم مقابل عمل يعينه لهم من يشتريهم من الرجال. ويجوز للرقيق أن يختار غير سيّده مولًى له بعد عتقه. وهناك موالى المكاتبة، وهو أن يكاتِب الرَّقيق على نفسه بثمنه، فإذا سعى وأدَّاه عُتِق. وهناك شكل آخر للمكاتبة هو أن يكاتِب الرّجل رقيقَه أو أَمَتَه على حال يؤديه إليه عند بداية أى شهر. والأصل عن ولاء المكاتبة أنّ من أعتق رقيقًا كان ولاؤه له، فينسب إليه. والموالى كانوا أقل شأنًا فى مجتمعهم من غيرهم، إذ نُظِر إليهم على أنهم دون العرب الأحرار فى المكانة. ولهذا قلما زوَّج الأحرار بناتهم للموالى، أى الرَّقيق، حتى ضُرِب بهم المثل فى القلة والذلة. وعندما جاء الإسلام عمل على إبطال الرِّق بأساليبه التشريعية الهادئة المتدرجة نظرًا لأن الرق أمر متعارف عليه عند جميع

الأمم وقتئذٍ، بل هو متمكن فى حياتها الاقتصادية والاجتماعية حيث كان الرقيق يقومون بالدور الذى تقوم به أدوات الإنتاج وآلات التصنيع المعاصرة. وأراد الإسلام من التدرج فى تحريم الرق ترويض الناس على نظام إنسانى إسلامى كان غريبًا على تصوراتهم القديمة، فمَثَلُهم مَثَلُ من يخرج من الظلام إلى النور، إذ لابد أن يفرك عينيه قبل أن يسترد بصره تمامًا.

ومما يدل على هذا أن الإسلام قام فى وقت مبكر جدا من تاريخه بالدعوة إلى تحرير الرَّقيق، قال الله تعالى: "فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فكّ رقبة" (البلد/ ١١- ١٣). ومن المعلوم أن هذه الآيات نزلت فى مكة مع بداية دعوة الإسلام قبل أن يصبح له دولة وكيان سياسى. ولما صار للإسلام دولة وكيان، وقام يدافع عن حقه فى الوجود والاستمرار، كان الأعداء يعمدون فى حروبهم معه إلى أسر بعض المسلمين واسترقاقهم. وليس من المنطق، والحال هكذا، أن يحرّم الإسلام الرِّق من جانب واحد، فتكون النتيجة أن يصبح المسلمون مهددين بالاسترقاق من قِبَل أعدائهم المخالفين لهم فى الدين دون أن يتمكنوا من تطبيق نظام الرِّق عليهم من باب المعاملة بالمثل.

ولمجموع ما تقدم أقر الإسلام مبدأ الرِّق على سبيل الجواز، لا الاستحباب والوجوب، للحاجة إليه من غير حضّ على تنفيذه ولا استحسان لفعله، واعتبره عجزًا حكميًّا مؤقتًا نتيجة حرب مشروعة اتباعًا لمبدإ المعاملة بالمثل: إذا استرق العدو أسرى المسلمين جاز للمسلمين أن يسترقوا أسراهم. وطبَّق الإسلام هذا المبدأ وأحاطه بأحكام وتوصيات إنسانية وأخلاقية يقصد بها فى النهاية تصحيح المسيرة الخاطئة التى سلكتها الأمم والشعوب فى تعاملها مع موضوع الرقيق تصحيحًا لم يمارسه واضعو القوانين السوداء الذين جاءوا بعد الإسلام بأكثر من ألف عام. ولم تفعل شريعة ولا

نظام ولا قانون ما فعله الإسلام فى رد الاعتبار الإنسانى والاجتماعى إلى الرقيق. بل لقد انفرد الإسلام قبل عدة قرون، من بين كل النظم السابقة والمعاصرة له، فى الارتقاء بالتعامل مع الرقيق والدعوة إلى تحريرهم ليمارسوا حياتهم الخاصة والعامة بحسب ما يشاؤون.

ويمكن تلخيص منهج الإسلام فى تعامله مع الرقيق فى ثلاثة أمور: الأمر الأول حصر مصادر الرِّق وتضييقها. الأمر الثانى فرض أنماط من العلاقات الإنسانية المهذبة فى التعامل مع الرقيق، ومنحهم حقوقًا لم تكن لهم من قبل. الأمر الثالث فتح أبواب تحرير الرقيق على مصاريعها: إما على سبيل الوجوب وإما على سبيل الندب والحفز.

أولا: تضييق مصادر الرِّق. حصر الإسلام مصادر الرِّق فى أَسْرِ وسَبْى الأعداءِ الكافرين الذين يحاربون المسلمين معاملةً لهم بالمثل إن رأى الحاكم فى ذلك مصلحة. وهو بهذا الحصر يكون قد أبطل مشروعية أى مصدر آخر للرِّق مما كان شائعًا وقتئذ، كاستعباد الأشخاص المذنبين، وسرقة الأطفال، وخطف النساء والرجال فى النزاعات والحروب المحلية وحوادث قطع الطرق ونحوها. وقد حرّم الإسلام استرقاق الأحرار بغير طريق الحرب المشروعة، وحذّر من فعل ذلك وعدّه من أشنع وأفظع التصرفات الخاطئة. قال النبى: "قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بى (يعنى عهدًا) ثم غدر، ورجل باع حرًّا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره".

ثانيا: حقوق الأرقَّاء فى الإسلام. منح الإسلام الأرقاء حقوقًا لم تكن لهم من قبل حيث دعا إلى تحسين وضع الرقيق والارتفاع بمعاملتهم إلى المستوى الإنسانى الكريم، وألزم المسلمين عامة، بمن فيهم مالكو الرقيق، بأنماط من العلاقات الإنسانية

والاجتماعية المهذبة فى معاملتهم مع الرقيق. فقد أعلنت تعاليم الإسلام فى صراحة متناهية أن النَّاس جميعًا خُلِقوا من أصل واحد، وهم إخوة فى الإنسانية، ليس لأحد فضل على الآخر إلا بمقدار ما يرضى الخالق وينفع الناس. قال الله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" (الحجرات/ ١٣). وحينما تنازع أبو ذر، وكان عربيا، مع بلال، وكان حبشيًا أسود، احتدّ أبو ذر وعيّر بلالًا بأمه، وقال له: يا ابن السوداء. فغضب النبى لذلك لما بلغه الخبر، واستدعى أبا ذر وقال له: إنك امرؤ فيك جاهلية. أى فيك صفات أهل الجاهلية فى التمييز العنصرى والعرقى. وتابع يقول: هم (أى العبيد) إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم (أى لخدمتكم). فمن كان أخوه تحت يده فليُطْعِمْه من طعامه، وليُلْبِسْه من لباسه (متفق عليه). فتأثر أبو ذر بكلام النبى وقصد بلالًا يعتذر إليه، وألقى بجسمه على الأرض، ووضع خدّه ردّ اعتبار له، لكن بلالًا أبى هذا، وأخذ بيد أخيه أبى ذر وتصافحا وتعانقا وتسامحا.

وقد حض الإسلام المالكين والأحرار على دعوة الرَّقيق إلى مجالستهم والأكل معهم. قال النبى: إذا أتى أحدَكم خادمُه (أى رقيقه) بطعامه قد كفاه علاجه ودخانه فليجلسْه معه. فإن لم يُجْلِسْه معه فليناوله أكلة أو أكلتين" (متفق عليه). وإلى هذا المعنى ونحوه أرشد النبى أبا ذر وقال له فى الحديث السابق: "فليطعمه من طعامه، وليلبسه من لباسه".

كما حرص الإسلام على انتزاع فكرة الاستعلاء والتجبّر نهائيًا من نفوس ومشاعر المالكين ولو كانت غير مقصودة، فنهاهم عن مناداةِ ومخاطبةِ الرَّقيق ببعض الألقاب والألفاظ، وأمرهم بضبط ألفاظهم ومراقبتها ومناداة الأرقّاء بألقاب مهذّبة تَرْشَح

بمعانى الإنسانية والرحمة وحسن الصلة، قال النبى: "لا يقولنّ أحدُكم: عبدى ولا أمتى، ولكن ليقل: فتاى وفتاتى". بل إنه صلى الله عليه وسلّم زاد على هذا فقال: "ألينوا القول لهم".

وتتوالى تعاليم الإسلام وأحكامه التى تمنع تعذيب الرقيق والإساءة إليهم والقسوة عليهم وضربهم ظلمًا. وعن أبى مسعود البدرى قال: كنت أضرب غلامًا لى بالسوط، فسمعت صوتا من خلفى: "اعلم أبا مسعود". فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا منى إذا هو رسول الله، فإذا هو يقول: اعلم أبا مسعود أن الله عزّ وجل أقدر عليك منك على هذا الغلام. فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا.

هذا، وقد حثّ الإسلام على العفو عن الرقيق حين إساءتهم، والتجاوز عن ذنوبهم وأخطائهم، وأرشد المالكين الذين يضنّون ببذل الخير ويبخلون بعتق رقيقهم إلى بيع رقيقهم الذين لا يوائمونهم استبعادًا لظلمهم إياهم وتجنيهم عليهم. أما المسؤولية الجنائية الملقاة على الرقيق فقد تسامح بها الإسلام بعكس الذى تقدم فى معاملة الرقيق عند غير المسلمين حيث شرع معاقبة الأرقّاء الذكور والإناث بنصف العقوبة المقررة على الأحرار. قال الله تعالى: "فإنْ أَتَيْنَ بفاحشةٍ فعليهنّ نصفُ ما على المُحْصَنات من العذاب" (النساء / ٢٥).

كما دعا الإسلام المالكين إلى تعليم الرقيق وتأديبهم والسعى فى تزويجهم والارتقاء بمستواهم الثقافى والاجتماعى، بل سمح للأحرار وللمالكين بالزواج من إمائهم. قال الله تعالى: "ومن لم يستطع منكم طَوْلًا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمِنْ ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بَعْضُكم من بعض" (النساء/ ٢٥).كما حث الإسلام على تزويج الرقيق. قال تعالى: "وأَنْكِحوا الأَيَامَى

منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم " (النور/ ٣٢). وحث أيضًا على تحرير الإماء والزواج بهنّ. قال النبى: "ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت له أَمَةٌ فأدّبها فأحسن تأديبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران" (متفق عليه).

سار المسلمون فى ضوء هذه التوجيهات النبوية، فعلّموا أرقاءهم وأدّبوهم ومكَّنوهم من أسباب الثقافة والمعرفة، وتبوأ كثير منهم مكانة عالية، بل بلغ كثير منهم أعلى المراتب العلمية والاجتماعية، وغَدَوْا مشاعل نور وهداية وتوجيه للناس، مثل بلال بن رباح مؤذن الإسلام الأول، وسلمان الفارسى، الذى روى مسلم فى صحيحه بشأنه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كنا جلوسًا عند النبى إذ نزلت عليه سورة "الجمعة" فلما قرأ: "وآخرين منهم لَمَّا يلحقوا بهم" قال رجل: مَنْ هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبى حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثًا. قال: وفينا سلمان الفارسى. قال: فوضع النبى يده على سلمان ثم قال: "لو كان الإيمان عند الثُّرَيّا لناله رجال من هؤلاء"، ونافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب أحد فقهاء الإسلام وعلمائه، وطارق بن زياد فاتح الأندلس، ومكحول الهُذَلى المتوفى سنة ١١٢هـ، الذى قال: "كنت عبدًا لسعيد بن العاص، فوهبنى لامرأة من هذيل بمصر، فلم أدع بمصر عِلْمًا إلا حويته فيما أرى، ثم أُعْتِقْتُ فأتيت العراق، فلم أدع بها علمًا إلا حويته، ثم أتيت المدينة فكذلك، ثم أتيت الشام فغربلتُها، وما سمعت شيئا إلا استودعته فى صدرى..." حتى صار مكحول هذا إمام أهل الشام وعالِمهم المقدَّم.

ولعل من أروع ما وصل إليه حال الرقيق فى الإسلام ما ذُكِر من أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يتبادل ركوب الناقة بالتساوى بينه وبين عبده أثناء سفره من المدينة إلى بيت المقدس ليعقد مع صاحبها معاهدة الصلح. فلما وصل كان العبد هو الراكب، وأمير المؤمنين هو الماشى، فخشى أبو عبيدة قائد الجيش فى الشام أن يحتقر المستقبلون أمير المؤمنين عمر، فكشف له عما فى نفسه مما يأنف منه أهل هذه البلاد، ورغب إليه أن يُنْزِل العبد ليجر الناقة وهو راكب عليها، فأبى الخليفة هذا وقال: ليت غيرك قالها يا أبا عبيدة! نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله. وعمر بن الخطاب هو الذى قال لعامله على مصر عمرو بن العاص: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟

وتجدر المقارنة والموازنة بين الحقوق والأساليب الإنسانية التى شرعها الإسلام فى قضية الرقيق وبين ما كان مقررًا ومعمولًا به فى المجتمعات القديمة، بل الحديثة فى عصور النهضة، حيث كان الرقيق يعيشون حالة مزرية منحطة حتى إن فرنسا كانت تمنع الملونين، فضلًا عن الرَّقيق، من القدوم إلى أراضيها لطلب العلم والثقافة والمعرفة، ومثل ذلك فى التمييز العنصرى الذى عجزت بعض دول العالم اليوم عن تخطّى حواجزه بين أفراد شعبها الذين يعيشون معًا. قال غوستاف لوبون فى كتابه: "تمدّن العرب": "إن لفظة "الرق" إذا ذكرت أمام الأوروبى... وَرَدَ على خاطره استعمال أولئك المساكين المثقلين بالسلاسل، المكبلين بالأغلال، المسوقين بضرب السياط، الذين لا يكاد غذاؤهم يكفى لسد رمقهم، وليس لهم من المساكن إلا حبسٌ مظلمٌ... أما الحق اليقين فهو أن الرق عند المسلمين يخالف ما كان عليه النصارى تمام المخالفة".

ثالثًا: تحرير الرقيق هدف إسلامى. حرص الإسلام على فتح أبواب تحرير الرقيق على مصاريعها بطريقة تشريعية هادئة ومتدرجة: إما على سبيل الفرض والوجوب الذى لا خيار للمكلَّف فى تنفيذه، وإما على سبيل الحضّ والندب، والوعد الصادق من الخالق لمن يعتق عبدًا بعظيم المنزلة وكريم التعويض فى الدنيا والآخرة. وقد حوّل الإسلام بعض أنواع العتق الذى كان اختياريًّا إلى فرض لازم يجب الوفاء به ما دام صاحبه قد باشر أسبابه. ومن النوع الأول الذى هو تحرير الرقيق على سبيل الوجوب ما تعلّق بسببٍ صادرٍ عن المكلَّف نفسِه كالحِنْث فى اليمين والقتل الخطإ وظِهَار الزوجة، أى تشبيه الزوج لها بأمه فى الحرمة. قال تعالى: "ومن قتل مؤمنًا خطأً فتحرير رقبه مؤمنة" (النساء/ ٩٢). وجاء نحو هذا فى اليمين والظِّهَار. ومن هذا النوع أيضًا نَذْر الإنسان أن يعتق عبدًا تقربًا إلى الله تعالى، إذ يجب عليه الوفاء بالنذر التزامًا بما صدر منه مع أن أصل النذر مباح واختيارى. ومن ذلك أيضًا المكاتبة، وهى قبول السيد من رقيقه تحرير نفسه مقابل مبلغ من المال يدفعه إليه على أقساط، فيجب على المالك الالتزام بها وعتق رقيقه بموجبها مع أنها فى الأصل مباحة واختيارية. قال الله تعالى: "فكاتِبوهم إن علمتم فيهم خيرًا" (النور/ ٣٣). ومن ذلك أيضًا التدبير، وهو وعد السيد رقيقه بأن يُمْنَح الحرية بعد وفاته. فإذا مات السيد صار الرَّقيق حرا على سبيل الوجوب الشرعى الذى ليس له ردّ مع أن الأصل فى التدبير الإباحة والاختيار. ومنه أيضًا ما كان سببه احتراما لحكم الشرع المراعى للفطرة البشرية السوية، من مثل ما يعرف بـ"الاستيلاد"، وهو ولادة الأَمة ولدًا من سيدها، حيث تصبح حرة بعد موت سيدها، ومن مثل: ما يعرف بـ"ملك المحارم"، وهو تحرر الرقيق بمجرد أن يملكه مَحْرَمُه، كمَنْ مَلَكَ خالته أو عمته، فإنهما تصبحان حرَّتين بمجرد تملكه لهما. ومن هذا

النوع الأول أيضًا العتق بإساءة المعاملة حيث يحق للمحاكم إجبار السيد على تحرير رقيقه إذا جوّعه أو عذّبه أو أضرّ به.

أما النوع الثانى الذى تبناه الإسلام للتخلّص من الرق فهو دعوته المسلمين إلى التقرب إلى الله تعالى بعتق الرقيق استحبابًا وإنسانية ورفقًا بهم، وتمكينًا لهم من التصرف بأنفسهم كما يشاؤون ليعيشوا أحرارًا كبقية الناس. قال النبى: أيّما رجل أعتق امرًا مسلمًا استنقذ الله بكل عضو منه عضوًا منه من النار. وأيما امرئ مسلم أعتق امرأتين مسلمتين كانتا فكَاكه من النار. قال سعيد بن مرجانة: فسمع بهذا الحديث على بن الحسين، وكان له عبد أُعْطِى فيه، أى دُفِع له فيه، ألف دينار، وكانت الدنانير من ذهب، فأعتقه ولم يبعه. كما دعا الإسلام إلى بذل أموال الزكاة فى عتق الرقيق وتحريرهم ومنحهم حق الحياة الكريمة. قال الله تعالى: "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلَّفة قلوبهم وفى الرقاب" (التوبة/٦٠). وفى مواقف أخرى دعا النبى إلى تحرير الرَّقيق اعتذارًا لهم عما يقع عليهم من سوء معاملة. قال النبى: من لطم مملوكًا له أو ضربه فكفارته أن يُعْتِقه.

هذا منهج الإسلام، وهذه تعاليمه فى احترام حياة الرقيق ومنحهم حقوق الإنسان والسعى فى تحريرهم. وقد اهتم الرسول محمد بحال الأرقّاء وهو فى غمرات الموت، فقد كان آخر كلامه وهو يودّع الدنيا فى مرضه الذى توفى فيه: الصلاة، وما ملكت أيمانكم. فما زال يقولها حتى ما يفيض لسانه، أى حتى توقف لسانه عن الحركة".

وأحب أن أنقل هنا أيضا ما كتبه محرر نفس المادة فى "الموسوعة العربية السورية". تقول المادة المذكورة: "الرق (slavery) مفهوم اقتصادى اجتماعى يدل على جواز

امتلاك بعض الناس لبعضهم الآخر بحكم القوة تارة، وبحكم الثراء والتحكم المالى تارة أخرى. وقد شهد التاريخ البشرى له أنواعًا عدة مختلفة.

ويعد الرق من وجهة النظر المادية مرحلة أساسية من مراحل التطور الإنسانى، فهو تشكيلة (formation) اجتماعية- اقتصادية تلى المرحلة المشاعية، وتسبق المرحلة الإقطاعية. وهو نمط إنتاج (mode of production) يقوم على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ويُعَدّ فيه العبيد جزءًا أساسيًا لا يتجزأ من أدوات الإنتاج التى يجوز امتلاكها وبيعها، شأنهم فى ذلك شأن المواشى والحيوانات والأشياء التى تباع وتشرى فى أسواقها التجارية الخاصة بها. وهو أول تقسيم طبقى للمجتمع ينقسم فيه الناس إلى طبقتين أساسيتين: طبقة الأحرار التى تتمتع بحقوق الملكية والمواطنة، وطبقة العبيد المحرومة من هذه الحقوق الاجتماعية.

ويميز الباحثون فى تاريخ الرق وعوامل نشأته بين أنواع عدة له: منها الاسترقاق الرِّبَوِى، وقد ظهر فى المجتمعات التى انتشر فيها الربا، فحين يعجز المستدين عن تسديد ما عليه من ديون يتحول، بموجب الاتفاق المسبق، إلى عبد تابع لسيده صاحب الديون، ولا تسقط العبودية عنه ما لم يسدد التزاماته نحو السيد. غير أن عبوديته تجعله أكثر عجزًا عن الوفاء بتلك الالتزامات، وبالتالى أقل قدرة على التحرر. الاسترقاق العسكرى، وهو الاسترقاق الناجم عن الحروب والغزو بين الشعوب التى كانت تجيز تحويل أسرى الحرب إلى عبيد، إضافة إلى ما يمكن أن يقع بأيدى الغزاة المنتصرين من غنائم، إن صح التعبير، كالأطفال والنساء والشيوخ، الذين يصبحون عبيدًا لدى المنتصر. الاسترقاق بالخطف، وهو استرقاق العصابات، وينجم عن قيام مجموعة من الأشخاص بتتبع فرد منعزل أو أكثر وإجباره على الامتثال لأوامر العصابة ونقله إلى

بلاد أخرى بغية بيعه فى سوق النخاسة. الاسترقاق التجارى، وهو الاسترقاق الناجم عن الأنواع السابقة كلها حيث يقوم مالك العبيد ببيعهم لغيره من الملاك، فتصبح الملكية الجديدة من التملك التجارى، وليس من باب التملك العسكرى أو الربوى أو خلافه.

ويعيد بعض الباحثين انتشار ظاهرة الرق إلى عصور موغلة فى القدم، فتشير الوثائق التاريخية إلى أن ظهوره فى مصر القديمة وبلاد الرافدين يعود إلى نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، وفى روسيا ظهر فى القرن السادس ق. م، وفى اليونان القديمة فى القرنين الخامس والرابع ق. م، وفى روما القديمة بين القرنين الثانى قبل الميلاد والثانى الميلادى، غير أن أساليبه كانت مختلفة بين هذه الحضارات: فقد كان الرقيق فى الحضارتين اليونانية والرومانية لا يتمتعون بأى حقوق اجتماعية، وتجرى معاملتهم على أنهم قوة عمل. وانطوت التشريعات القانونية آنذاك على أحكام قاسية ودموية بحق العبيد الذين يهربون من أسيادهم كعقوبة قطع الأنف. ويلاحظ فى الشرق القديم أن تشريعات حمورابى (١٧٢٨- ١٦٨٦ق.م.) تشير إلى أن العبيد كانوا يتمتعون بنصف حقوق الأحرار، وذلك فى قضايا الميراث والأحوال الشخصية والمهور.

ومع انتشار الإسلام أخذت تتأكد الحقوق الاجتماعية والإنسانية للعبيد بطرق أفضل، فقد شجع بقوة على تحرير الرقيق، وجعل ذلك من الأعمال التى تساعد فى التكفير عن الآثام والذنوب والأخطاء التى يُقْدِم عليها الفرد، كما أنها وسيلة من وسائل التقرب إلى الله عز وجل. وجعل من حق العبد على سيده تأمين طعامه وكسائه. وكان لصحابة رسول صلى الله عليه وسلم دور أساسى فى تحرير العبيد الذين كانوا يعانون من التعذيب على يد المشركين، وأصبح عدد كبير منهم فى عداد الصحابة المقربين

لرسول الله، وكان لهم فيها بعد دور أساسى فى بناء الحضارة الإسلامية، ونشر العقيدة فى مساحات واسعة من الأرض.

وفى المراحل التالية من تطور الحضارة العربية الإسلامية، وخاصة فى عهد الخلفاء العباسين وما تلاهم، تزايد دور العبيد فى المشاركة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكان فى أوضح صورة له بين العبيد الذين كانوا يخدمون فى بلاط السلاطين أو لدى التجار ورجال الدولة، فكانت لهؤلاء مكانة اجتماعية تميزهم عن أقرانهم فى الشرائح الأخرى بل تميزهم عن بقية الناس حتى لو كانوا من السادة. غير أن اتساع رقعة الدولة ومساحة الأراضى المعدة للزراعة دفع بالملاك والأثرياء إلى استخدام الزنوج فى أعمال الفلاحة حتى كثر عددهم، وأصبحوا قوة عمل أساسية. لكن أحوالهم لم تكن فى تحسن مماثل بل كانت فى تدهور مستمر حتى ألّفوا تنظيمات اجتماعية قوية قاومت النظام السياسى آنذاك حتى تحولت إلى ثورة حقيقية عرفت باسم "ثورة الزنج" (٨٦٩-٨٨٣م) اتصفت خلالها بالتنظيم والقدرة على اجتذاب أعداد كبيرة من العبيد الثائرين، وعرف قائدها باسم "صاحب الزنج"، الذى دعا إلى تحسين أحوال الطبقات الفقيرة، وخاصة الزنوج منهم الذين كانوا يخضعون لنظام العبودية، فدعا إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية التى توصى بالرقيق خيرًا. كما انتشرت ظاهرة استخدام العبيد فى الجيوش، وذلك بعد شرائهم وتدريبهم وتأهيلهم لخوض المعارك والحروب، وظهر منهم القادة والسلاطين وأمراء الجيش، فكان كافور الإخشيدى زعيمُ الدولة الإخشيدية مملوكًا، وكذلك كان حال سلاطين دولة المماليك وأمرائهم (١٢٤٩-١٥١٧م).

وعلى الرغم من التطور الحضارى الذى يشهده العالم فى العصور الحديثة فإن مشكلة الرق ما زالت قائمة، وإن كانت بأشكال مختلفة ودرجات أقل، لكنها أكثر خطورة فى كثير من الأحيان، إذ تنعدم فيها القيم الأخلاقية والإنسانية، ولا يأخذ الفاعلون فيها أى اعتبار لما يترتب على مصالحهم من ضرر يلحق بالأشخاص الآخرين الذين يصبحون أرقاء بحكم القوة أحيانًا، أو بحكم القهر الاجتماعى أحيانًا أخرى.

فبعد أن تم القضاء على الملايين من الهنود الحمر فى القارة الأمريكية لم يكن لما تبقى منهم أى حقوق سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، ولم تعد أعدادهم تكفى للعمل لدى المستعمرين الأوربيين، فلجأ هؤلاء إلى اقتلاع ملايين الزنوج الأفارقة من ديارهم وأراضيهم بطرق مختلفة أهمها استخدام القوة وإجبارهم على الانصياع ليصار إلى بيعهم فى العالم الجديد وتشغيلهم بالأعمال التى يترفع عنها الغزاة الجدد. وكان من نتائج ترويج هذه التجارة أن تزايدت أعداد الزنوج فى القارة الجديدة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. ويقدَّر عدد الذين تم نقلهم بنحو عشرين مليون زنجى.

وفى الوقت الحاضر تأخذ مشكلة الرق منحًى جديدًا قوامه خطف النساء والأطفال والعمل على توظيفهم فى مجال الدعارة، وأعمال السخرة، وهو ما يسمى بـ"الرقيق الأبيض"، إضافة إلى التبنى والزواج القهرى. وتفيد تقارير خاصة بهذا الموضوع بأن هناك قرابة سبعمائة ألف امرأة وطفل يختطفون سنويًا لهذه الأغراض. وتقدر منظمة اليونيسيف عدد ضحايا الاسترقاق فى غربى إفريقيا فقط بأكثر من مائتى ألف طفل سنويا، وفى آسيا يباع ويُشْرَى نحو مائتين وخمسين ألف شخص معظمهم من النساء والفتيات ويُرْغَمْن على العمل فى الدعارة أو الخدمة فى البيوت.

ومع أن الرق أُلْغِى رسميًا فى معاهدة أكس لا شابيل (Aix-La-Chapelle)، التى وقعت عليها جميع دول العالم عام ١٨١٦ لكنه تحول إلى أشكال جديدة لم تكن معروفة فى الماضى، وأخذت المنظمات الدولية تهتم بها بوضوح، فظهرت أول اتفاقية دولية لمكافحة الرق عام ١٩٢٦، ثم عُدِّلت عام ١٩٥٣، والاتفاقية التكميلية عام ١٩٥٦، واتفاقية قمع الاتجار بالأشخاص عام ١٩٤٩، كما تمت مجموعة من الاتفاقيات الدولية فى إطار "منظمة العمل الدولية" منها اتفاقية السخرة لعام ١٩٣٠، واتفاقية إلغاء السخرة لعام ١٩٥٧. ومازالت المنظمات الدولية تقيم بين حين وآخر المؤتمرات الخاصة بالظاهرة بهدف تقويضها والحد من انتشارها".

ومما مر من نصوص نقلناها يتبين لنا بكل وضوح أن ما قاله الرصافى عن الأسرى والغنائم والأسلاب فى الإسلام هو كلام فيه تهويل شديد، وزاده تهويلا أنه ركز على هذه المسائل فى الإسلام وحده على نحو يوهم أن الحضارات والأديان والمؤسسات الأخرى تخلو من المعايب التى ذكرها وألصقها بدين محمد عليه السلام. وهذا تدليس رخيص. ويقول المستشرق الفرنسى جوستاف لوبون: "كان يمكن أن تُعْمِى فتوحُ العرب الأولى أبصارَهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويسيئوا معاملة المغلوبين، ويُكْرِهوهم على اعتناق دينهم، الذى كانوا يرغبون فى نشره فى العالم. ولو فعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الأمم التى كانت غيرَ خاضعة لهم بَعدُ، ولأصابهم مثلُ ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخرًا. ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما نَدَر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة أن النُّظُم والأديان ليست مما يُفْرَض قسرًا، فعاملوا، كما رأينا، أهل سورية ومصر وأسبانيا وكل قطر استولَوْا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينَهم

ومعتقداتِهم غيرَ فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى الغالب إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقًا، فى مقابل حفظ الأمن بينهم. فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينًا مثل دينهم.

وما جَهِله المؤرخون من حِلْم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة فى اتساع فتوحهم، وفى سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونُظُمهم ولغتهم التى رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمةً حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم. ونعدُّ من الواضح خاصةً أمرَ مصر التى لم يوفَّق فاتحوها من الفرس والأغارقة والرومان أن يقلبوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها وأن يقيموا حضارتهم مقامها.

وهنالك أسبابٌ أخرى غيرُ تسامح العرب وحِلْمِهم ساعدت على انتشار دينهم ونظمهم المشتقة منه، وذلك أن هذه النظم كانت من البساطة فى الحقيقة ما لاءَمت معه احتياجات طبقات الأهلين الوسطى البسيطة أيضًا. وإذا حدث اتفاقًا أنْ كانت هذه النظم غيرَ ملائمة لهذه الاحتياجات عدَّلها العرب كما تقضى به الضرورة. وبهذا نفسر السِّرَّ فى اختلاف نظم المسلمين فى بلاد الهند وفارس وجزيرة العرب وإفريقية ومصر اختلافًا كبيرًا فى بعض الأحيان مع أن القرآن واحد" (حضارة العرب/ ترجمة عادل زعيتر/ مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة/ ٢٠١٣م/ ٦٢٩- ٦٣١).

وفى كتاب السير توماس أرنولد عن "الدعوة إلى الإسلام" دليل صادق على ما اتسمت به الفتوح الإسلامية، على الأقل بالنسبة إلى غزوات الدول الأخرى، من رحمة كبيرة وتسامح شديد رغم كل ما يمكن أن يقال فيها، فهى فى نهاية المطاف أعمال من أعمال البشر، ولا بد أن يقع فيها أخطاء وتجاوزات. فنحن فى الأرض، ولسنا ملائكة

ولا يمكن أن نكون. ولقد كتب السير توماس أرنولد أنه لو اتبع الخلفاء المسلمون سياسة إكراه النصارى على اعتناق الإسلام كما صنع فرديناند وإيزابيلا غداة انتصارهم على المسلمين فى الأندلس وكما صنع لويس الرابع عشر حين حرَّم المذهب البروتستانتى فى بلاده وكما صنع حكام إنجلترا حين أبعدوا اليهود عن بلادهم مدة ٣٥٠ عاما، لما بقى شخص غير مسلم فى ديار الإسلام (الدعوة إلى الإسلام/ السير توماس أرنولد/ ترجمة د. حسن إبراهيم حسن ود. عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى/ مكتبة النهضة المصرية/ القاهرة/ ١٩٧١م/ ٩٨- ٩٩). وهذا هو نص الأصل الإنجليزى:

"Had the caliphs chosen to adopt either course of action, they might have swept away Christianity as easily as Ferdinand and Isabella drove Islam out of Spain, or Louis XIV made Protestantism penal in France, or the Jews were kept out of England for 350 years". (Thomas Walker Arnold, The Preaching Of Islam; A History Of The Propagation Of The Muslim Faith, Constable & Company Ltd, Londom, 1913, P. 79)

كما كتبت المستشرقة الألمانية سيجريد هونكه تحت عنوان "شعار المنتصر": "لا إِكْرَاهَ فِى الدِّين" (البقرة/ ٢٥٦): هكذا يقول القرآن الكريم. فلن يجول فى خاطر العرب أن يكرهوا الشعوب الخاضعة لهم على اعتناق الإسلام. فالمسيحيون والصابئون والبارس واليهود الذين عاشوا قبل الإسلام بمائة عام تحت حكم ملكهم يوسف ضربوا أقصى الأمثلة وأبشعها فيما يتعلق بموقفهم من أصحاب العقائد الأخرى. وجميع هؤلاء قد منحهم الإسلام حق ممارسة عباداتهم. لقد احتفظوا بِدُور عباداتهم وأديرتهم وأساقفتهم وربانيّيهم. هذا عجيب حقًا. إن مثل هذا لم يقع من قبل. من هو الإنسان الذى لا يستنشق نسيم الحرية بعد الحكم البيزنطى الجائر القاسى، وبعد هذه الاضطهادات الشنيعة التى جرت فى أسبانيا والاضطهادات المتواصلة التى قاسى

اليهود الكثير من أهوالها؟ إن المسلمين السادة الجدد حماةَ البلاد وحكامَها لم يتدخلوا فى مسائل رعاياهم الداخلية. إنهم عادلون. هكذا كتب بطريرك القدس فى القرن التاسع إلى بطريرك إستنبول: والمسلمون لا يظلموننا أو يضطهدوننا. إنهم يمنحون مختلف أفراد رعاياهم من أصحاب العقائد الأخرى كل حرية فى تأدية فرائضهم الدينية أو حقوقهم المدنية متى دفعوا الجزية وأطاعوا أُولِى الأمر. فالمسلمون جاءوا ليحكموا لا ليبشّروا لكى يخرجوهم من عقائدهم الأصلية. إن المتنصرين قد شَكَوْا من كثرة دخول غير المسلمين فى الإسلام، وذلك بسبب الجزية ونقصانها، هذه الجزية التى كان يدفعها غير المسلمين فقط.

لكن هؤلاء أرادوا أن يتساوَوْا بالمسلمين اقتصاديا واجتماعيا. لذلك سارعوا إلى الدخول فى دين الله أفواجًا. وهكذا بدون استخدام قوة أو ضغط أخذ يختفى المسيحيون اختفاء الجليد فى الشمس. وفى العصور الإسلامية المتأخرة حيث كان المسلمون مزيجًا غريبًا فى مختلف الشعوب أخذت تظهر بعض النعرات الدينية التعصبية. أما العرب الخُلَّص فقد كانوا بعيدين عن الخوض فى مثل هذه الخصومات. وهنا نجد التسامح الإسلامى العربى الذى هو مضرب الأمثال يتجلى لنا فى صورة تخالف كل المخالفة هذه الصورة التى يتجلى لنا فيها تعدد الآلهة عند الرومان المتأخرين الذين وجدوا مكانًا فى مجمع آلهتهم لكل إله مهما كان أصله ونوعه. إن صبر العربى واحتماله وموقفه النبيل من خصومه دينًا وعقيدةً له أصوله وجذوره البعيدة التى تتجلى لنا فى الفتى العربى القديم، الفتى العربى الجاهلى: تضحية حتى الموت، تضحية لا تعرف حدًّا أو ترددًا. وكانت هذه المعاملة الكريمة يتمتع بها الضيف كما يتمتع بها أقرب المقربين إليهم. فنحن نعلم أنه إذا ما أقبل الضيف الأجنبى والذى قد يكون عدوا

للقبيلة فإنه سرعان ما تحتضنه القبيلة وكأنه عضو منها تسرى عليها عهودها ووعودها التى تكون القبيلة قد قطعتها على نفسها وتعمل بمقتضاها وتحترم نصوصها، وقد يكون هذا الضيف ألد أعدائها" (د. سيجريد هونكه/ شمس الله تشرق على الغرب- فضل العرب على أوربا/ ترجمة وتحقيق وتعليق د. فؤاد حسنين على/ دار العالم العربى/ القاهرة/ ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م/ ٢٦٨- ٢٦٩).

ولقد قتل الصليبيون من المسلمين لدن دخولهم بيت المقدس عشرات الآلاف وخاضوا فى الدماء التى أسالوها خوضا. ومقارنة سريعة بين ما صنعه المسلمون حين فتحوا شبه الجزيرة الأيبيرية من احترامهم لحرية المعتقدات وحرصهم على المعاملة الواحدة لجميع السكان أيا كان دينهم وعِرْقهم وبين ما فعله الأسبان حين انتصروا على المسلمين، فسحقوا الحرية الدينية سحقا ولم يسمحوا بأن يبقى مسلم واحد فى البلاد رغم أن الأغلبية الساحقة من المسلمين هناك آنئذ كانوا أسبانا لا عربا، وقضَوْا على كل نَفَسٍ إسلامىٍّ حتى لم يعد هناك فى آخر المطاف نَفْسٌ واحدةٌ توحّد الله، مع مصادرة أموال المسلمين، مقارنة سريعة بين هاتين الطريقتين ترينا الفرق الهائل بينهما وتطلعنا على الرقى السياسى والعقيدى الذى طبع فتوح المسلمين ومعاملتهم لأهل البلاد التى فتحوها. ومعروفة محاكم التفتيش وما صنعته مع المسلمين من تقتيل واعتقال وتنصير وحرق ونفى وتغريق حتى تم القضاء على الإسلام والمسلمين تماما فى تلك البلاد. وحين غزا الفرنسيون مصر أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر قضوا على الآلاف المؤلفة من المسلمين، وخلال احتلالهم للجزائر قتلوا مليون شهيد على الأقل. ومشهورة طبيعة الغزوات المغولية التى قام بها جنكيز خان وابنه أوقتاى خان فى القرن الثالث عشر الميلادى، إذ كانت تلك الغزوات اجتياحا وحشيا يستأصل سكان المدن

التى تقاومه حتى لقد كان الراكب يسير لمسافات طويلة دون أن يشاهد أى أثر للحياة فى البلاد التى تشرفت بالإجرام المغولى. تستوى فى ذلك البلاد الآسيوية والأوربية التى غزاها هذان الوحشان. وقد نال المسلمين من هذا الحب جانب بل جوانب.

وفى احتلال الأمريكان للعراق إثر حرب الخليج الثانية دمروا كل شىء واستخدموا السلاح النووى، الذى اتهموا هم وحلفاؤهم المجرمون العراقَ بأن عنده منه ترسانة كاملة، وهم يعلمون تمام العلم أنه لا يملك من ذلك السلاح شيئا، لكنها الدعاية الخبيثة التى أريد بها التمهيد لاحتلال العراق وتدميره، وهو ما ترتب عليه موت الألوف الهائلة وتشوُّه عشرات بل مئات الألوف من العراقيين بأسلحة الغرب النووية. وفضلا عن ذلك كُسِحَتْ ثروات العراق وسُرِق نفطه، وصار العراقيون يعانون أشد المعاناة رغم غنى بلادهم بما تحوزه من بترول غزير كان يوفر للعراقيين قبل الاحتلال الأمريكى المذكورة حياة اقتصادية أكثر من رائعة رغم كل ما يمكن أن يقال عن استبداد صدام حسين والفساد الذى يلازم عادةً الطغيان السياسى.

لقد كان الاستعمار الغربى يكسح اقتصاد الدول التى يحتلها، أما الإسلام فقد كان يأخذ الجزية، وهو مبلغ صغير، ولا يُحَصَّل إلا من القادرين، ويُعْفَى منه النساء والأطفال والشيوخ والرهبان ومن إليهم، ويعفى دافعوه من الاشتراك فى دفع الزكاة التى يجب على المسلم إخراجها من ماله، كما كان يعفى من الانخراط فى الجيش الإسلامى على عكس المسلم. ومن إجرام الغربيين الوحشى إشعالهم حربين كونيتين شنها بعضهم على بعض، فأفنت عشرات الملايين، وانتشر العناء الاقتصادى والفساد الجنسى والانحراف الأخلاقى وعم الدمار كل مكان.

وفى مقال بعنوان "القول بأن الإسلام المعتدل خرافة هو الخرافة" لفنسينزو أوليفيتى نقرأ ما يلى، وهو من ترجمتى عن الإنجليزية: "فى مقال نُشِر مؤخرًا فى مجلة "السِّبِكْتِيتَرْ" البريطانية يهاجم الزعيم الأنجليكانى باتريك سوكْدِيو المسلمين ودينهم هجوما عنيفا. ترى هل يَثْبُت ما كتبه المؤلف فى ذلك المقال على محك التمحيص؟ الواقع أن مقالة باتريك سوكديو: "خرافة الإسلام المعتدل" فى "السبكتيتر" اللندنية بتاريخ ٣٠ يونيه ٢٠٠٥م تعكس اتجاها خطيرا فى الحرب على الإرهاب، إذ تحت ستار الرغبة فى تعريف الغربيين بالإسلام نجده ينشر نفس التضليل الذى تقوم عليه الكتابات العدائية لذلك الدين على مدار أكثر من ألف عام، وهذا من شأنه أن يكون أداة مباشرة فى يد أسامة بن لادن وأبو مصعب الزرقاوى وغيرهما، لأنه يشجع فكرة "صراع الحضارات" التى يرغبون فى دوامها على نحوٍ جِدِّ مَقِيت. وإنه لمن المهم جدا أن نعرف الإسلام على نحو أفضل مما نعرفه الآن وأن نكافح وباء التطرف بكل ما فى أيدينا من إمكانات. بيد أن سوكْدِيو وأمثاله يفسدون القضية بطريقتهم التى يَسْعَوْن من ورائها إلى خدمة أغراضهم هم، وذلك من خلال تحويل الحرب على الإرهاب إلى إشعال حرب دينية على الإسلام ذاته.

ويتضح انحياز سوكْدِيو منذ البداية، فهو يزعم أن الإرهابيين يمثلون الإسلام حقا، إذ يقول: "ينبغى علينا أن نصدقهم إذا قالوا إنهم يفعلون ذلك باسم الإسلام. أليس من الغطرسة الشديدة والتنكر التام لليبرالية أن ننكر عليهم الحق فى تعريف أنفسهم بأنفسهم؟". أما فى باقى المقالة فهو يبذل جهدا مكثفا لإنكار حق التعريف الذاتى على سائر المسلمين الآخرين الذين يقولون إنهم يرفضون التفاسير المتطرفة للإسلام. والحقيقة أن ٥٪ فحسب من المسلمين هم الذين يمكن تصنيفهم على أنهم

أصوليون، وأن ١.,. ٪ فقط من هؤلاء الخمسة فى المائة يُبْدُون قدرا من الميل نحو ممارسة الإرهاب أو "العنف الدينى". إنها إذن "قمة التنكر للّيبرالية" أن نعرّف نحو المليار وثلث المليار من المسلمين بأنهم إرهابيون رغم أنهم لا صلة بينهم وبين "العنف الدينى" بأى حال، لمجرد أخطاء يرتكبها هامش ضئيل لا يزيد عن ٠١,. ٪. وعلى أكثر تقدير فإن واحدا فقط من كل ٢٠٠٠٠٠ مسلم يمكن اتهامه بالإرهاب. أى أن كل ما هنالك من إرهابيين فى العالم لا يزيدون عن ٦٥ ألفا ليس إلا، وهو تقريبا نفس عدد القتلة الطُّلَقاء فى الولايات المتحدة وحدها، فضلا عن أكثر من ٢٠٠ ألف قاتل أمريكى فى العام الواحد فى أمة تعدادها لا يتجاوز ٣٠٠ مليون نسمة.

ويدعى سوكْدِيو أن على المسلمين "الالتزام بالصدق والإقرار بالعنف الذى يصبغ تاريخهم". ومع ذلك فحين نأخذ فى الاعتبار أن معظم الكتب التى تتحدث عن اعتداءات المسلمين قد كُتِبت بأقلامٍ مسلمةٍ كان من الصعب القول بأن المسلمين بوجه عام قد اختاروا تجاهل الفظائع التى ارتكبوها فى الماضى. وبطبيعة الحال هناك مسلمون ينكرون بعضا من ذلك الماضى، بالضبط مثلما أن هناك بريطانيين لا يزالون ينكرون فظائع الحقبة الاستعمارية، ومثلما أن هناك أمريكيين ينكرون المجازر التى اجترحوها فى حق سكان أمريكا الأصليين، ومثلما أن هناك ألمانًا ينكرون المحرقة التى قضت على ستة ملايين يهودى. إلا أن الحقيقة المرة مع ذلك كله تقول إن الحضارة النصرانية قد ارتكبت من الفظائع ما يزيد كثيرا جدا على ما ارتكبته الحضارة الإسلامية، حتى لو وضعنا فى الحسبان التعداد الأكبر الذى بلغه أصحابها والعمر الأطول الذى استغرقه تاريخها.

الحق أنه لا وجود فى أى مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامى لمثل ذلك المبدإ الذى كان ينادى به القديس أوغسطين، وهو: "عليكم أن تنصِّروهم قَسْرًا وإكراهًا". بل إن القرآن ليقول العكس من ذلك تماما كما فى الآية السادسة والخمسين بعد المائتين من سورة "البقرة"، ونصها: "لا إكراه فى الدين". لقد أدت فكرة أوغسطين المرعبة التى توجب إكراه الجميع على "التطابق" مع "العقيدة النصرانية الصحيحة" إلى قرون من سفك الدماء الذى ليس له فى تاريخ البشرية نظير. أجل، لقد عانى النصارى أثناء سلطان الحضارة النصرانية أكثر مما عانَوْا تحت سلطان الرومان قبل مجىء النصرانية أو أى سلطان آخر طوال التاريخ. لقد تجرع الملايين غصص التعذيب وذُبِحوا ذبحا باسم النصرانية أثناء البدع الآريوسية والدوناتية والألبيجينية، ودعنا من محاكم التفتيش المختلفة أو الحروب الصليبية التى كانت الجيوش الأوربية تقول فيها وهى تجزر رقاب المسلمين والنصارى معا: "اقتلوهم عن بَكْرة أبيهم، ولسوف يميز الله من يخصّونه ممن لا يخصّونه". وغَنِيٌّ عن القول أن هذه الاعتداءات التى قام بها النصارى، بل كل الاعتداءات النصرانية على مدار التاريخ، لا صلة بينها على الإطلاق وبين السيد المسيح أو حتى بينها وبين الأناجيل كما نعرفها. أجل لا يوجد مسلم واحد يمكن أن يؤاخذ السيد المسيح (الكلمة التى صارت جسدا بالنسبة للنصارى والمسلمين جميعا)، فكيف إذن تواتى سوكْدِيو نفسُه على محاسبة القرآن (كلمة الله التى صارت كتابا بالنسبة للمسلمين) على الاعتداءات الإسلامية (التى تقلّ كثيرا جدا عن نظيرتها النصرانية)؟

والواقع أن ذلك العنف الأعمى الذى لا يعرف التمييز لا يقتصر البتة على "عصور الظلام" فى أوربا أو على فترة واحدة من التاريخ النصرانى دون سواها، فحركات الإصلاح الدينى والحركات المضادة لها قد دفعت كلتاهما بالمجازر التى

ارتكبها النصارى بعضهم فى حق بعضهم إلى آمادٍ قياسيةٍ غير مسبوقة، إذ تمت إبادة ثلثى النصارى فى أوربا خلال تلك الفترة. ثم لا ينبغى أن ننسى الحروب النابليونية من ١٧٩٢ إلى ١٨١٥م، ولا تجارة الرقيق الأفريقى التى حصدت أرواح عشرة ملايين إنسان، أو الغزو الاستعمارى المتلاحق، فضلا عن الحروب والبرامج والثورات والإبادات الأخرى. إن أعداد السكان الأصليين الذين أبيدوا فى شمال أمريكا ووسطها وجنوبها لترتفع إلى رقم العشرين مليونا فى خلال ثلاثة أجيال لا غير.

وبالإضافة إلى ألوان التخريب والعنف الأوربى فى الماضى أخذت الحضارة الغربية الحروب مرة أخرى إلى مسافاتٍ لم تعرفها البشرية من قبل حتى إن أحد الإحصاءات المتحفظة ليصل بعدد المقتولين قتلا وحشيا فى القرن العشرين إلى أكثر من مائتين وخمسين مليونا يتحمل المسلمون منها وِزْر أقل من عشرة ملايين ليس إلا، على حين يُسْأَل النصارى أو المنتمون إلى النصرانية عن مائتى مليون من ذلك العدد. ويعود معظم أعداد هؤلاء القتلى إلى الحرب العالمية الأولى (٢٠ مليونا، ٩٠ ٪ منها على الأقل تمت على أيدى "نصارى") والحرب العالمية الثانية (٩٠ مليونا، ٥٠ ٪ منها على الأقل تمت على أيدى "نصارى"، أما الباقى فقد وقع أغلبه فى الشرق الأقصى). وبالتأمل فى ذلك التاريخ المرعب يجب علينا نحن الأوربيين جميعا أن نعى تماما الحقيقة الساطعة التى تؤكد أن الحضارة الإسلامية أقل بما لا يقاس من ناحية القسوة والوحشية من الحضارة النصرانية. ترى هل كانت المحرقة التى راح ضحيتها ٦ ملايين يهودى من صنع حضارة المسلمين؟

وفى القرن العشرين وحده نجد أن الغربيين والنصارى قد ارتكبوا من جرائم القتل أضعاف ما وقع من الدول الإسلامية عشرين مرة على أقل تقدير. ولقد تسببنا

نحن الغربيين فى هذا القرن الذى لم يشهد التاريخ مثله دموية فى إيقاع الإصابات بين المدنيين بما لا يقاس به ما صنعه المسلمون على مدار تاريخهم جميعا: انظر إلى إزهاق أرواح ٩٠٠٠٠٠ رواندى عامى ١٩٩٢م و١٩٩٥م فى بلدٍ أكثر من ٩٠٪ من سكانه نصارى، أو انظر إلى إبادة أكثر من ٣٠٠٠٠٠ مسلم، وكذلك الاغتصاب المنظم لأكثر من ١٠٠٠٠٠ امرأة مسلمة فى البوسنة، على يد نصارى الصرب. فهذه الحقائق البشعة تقول بلغة الأرقام والإحصاءات التى لا تعرف الكذب إن الحضارة النصرانية هى أشد حضارات التاريخ عنفا ودموية، وإنها مسؤولة عن إزهاق مئات الملايين من الأرواح.

لقد كان إنتاج الأسلحة النووية واستعمالها كفيلا فى حد ذاته بأن يجعل الغرب يتوارى خجلا أمام باقى شعوب العالم: فأمريكا هى التى صنعت الأسلحة النووية، وأمريكا هى الدولة الوحيدة التى استخدمت الأسلحة النووية، والدول الغربية هى التى تسعى إلى الحفاظ على احتكار الأسلحة النووية. وعلى هذا الأساس فليس لنا الحق بتاتا فى الاعتراض على حيازة الدول الأخرى لهذه الأسلحة إلا إذا أثبتنا أننا متجهون إلى التخلص منها تماما.

ولا بد من القول بأن الإسلام، رغم اشتماله على مفهوم الحرب المشروعة دفاعا عن النفس (كما هو الحال فى النصرانية، وكذلك البوذية)، لا مكان فى ثقافته (أو فى أية ثقافة أخرى من الثقافات الموجودة الآن) لإمكانية تحويل العنف إلى مثلٍ أعلى أو جعله وثنا معبودا كما فعلت الثقافة الغربية. إن الغربيين ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ناس مسالمون، بيد أن الرقة والسموّ اللذين يطبعان الأناجيل بطابعهما، وكذلك الطبيعة المحبة للسلام التى تتسم بها الديموقراطية، ليس لها فى الحقيقة أى انعكاس فى الثقافة الغربية الشعبية إلا على سبيل الندرة. بل على العكس نرى الاتجاه التام لتلك الثقافة،

متمثلا فى أفلام هوليوود وبرامج التلفاز الغربية وألعاب الفيديو والموسيقى الشعبية والمسابقات الرياضية، ينحو منحى تمجيد العنف وتزيينه. ومن ثم فإن المعدلات النسبية لجرائم القتل (وبخاصة القتل العشوائى والقتل المسلسل) فى العالم الغربى (وبالذات فى الولايات المتحدة الأمريكية، بل حتى فى أوربا كلها بصفة عامة) أعلى من مثيلاتها فى العالم الإسلامى فى البلاد التى لا يوجد فيها حروب طائفية، وذلك على الرغم من أن الغرب يتمتع بثروة أضخم كثيرا. ترى هل قرعت سَمْعَ سوكْدِيو يومًا الكلماتُ التاليةُ من إنجيل متى؟:

"٧- ١ لاَ تَدِينُوا لِكَى لاَ تُدَانُوا،٢لأَنَّكُمْ بِالدَّيْنُونَةِ الَّتِى بِهَا تَدِينُونَ تُدَانُونَ، وَبِالْكَيْلِ الَّذِى بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ. ٣وَلِمَاذَا تَنْظُرُ الْقَذَى الَّذِى فِى عَيْنِ أَخِيكَ، وَأَمَّا الْخَشَبَةُ الَّتِى فِى عَيْنِكَ فَلاَ تَفْطَنُ لَهَا؟ ٤أَمْ كَيْفَ تَقُولُ لأَخِيكَ: دَعْنِى أُخْرِجِ الْقَذَى مِنْ عَيْنِكَ، وَهَا الْخَشَبَةُ فِى عَيْنِكَ؟ ٥يَا مُرَائِى، أَخْرِجْ أَوَّلًا الْخَشَبَةَ مِنْ عَيْنِكَ، وحينَئِذٍ تُبْصِرُ جَيِّدًا أَنْ تُخْرِجَ الْقَذَى مِنْ عَيْنِ أَخِيكَ!".

ومثل معظم الكتابات الجدلية المعادية للإسلام يشكل باقى مقالة سوكْدِيو خليطا من الحقائق والأوهام. فعلى سبيل المثال يزعم سوكْدِيو أن كثيرا من الآيات القرآنية التى تدعو إلى السلم قد نسختها الآيات التى نزلت بعدها. صحيح أن كثيرا من علماء المسلمين يقولون إن الآيات اللاحقة تنسخ الآيات السابقة، غير أن نطاق النسخ يختلف من عالمٍ إلى آخَرَ اختلافا بعيدا: فبعض العلماء يرى أن الآيات المنسوخة لا تتجاوز خمس آيات، على حين يرى علماء آخرون أن عدد المنسوخ يتجاوز ١٥٠ آية. وعلى ذلك فزَعْم سوكْدِيو بأنه "متى وُجِد تعارض فى الآيات القرآنية كان اللاحق منها ناسخا للسابق" هو تبسيطٌ مُخِلّ. ذلك أن الادعاء بتقدم الآيات الداعية إلى السلم جميعها على الآيات

المحبّذة للحرب وانتساخها بها هو، بكل بساطةٍ، ادعاء زائف. فمثلا هناك آيات نزلت فى العامين الأخيرين من حياة محمد (عليه السلام) تنهى المسلمين عن الانتقام ممن أخرجوهم من بيوتهم: "وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ" (المائدة/ ٢)، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" (المائدة/ ٨).

ومن الصعوبة بمكان أن يتخيل الواحد منا رسالة أقوى من هذه الرسالة فى الدعوة إلى العدل والعفو والتصالح. وفضلا عن ذلك فكثير من علماء المسلمين يستشهدون بالآيات المبكرة التى تحض على السلام فى دعوتهم للشباب المسلم إلى نبذ تطرف المتطرفين، فهل يُؤْثِر سوكْدِيو أن يُصِيخ الشباب المسلم السمعَ لأولئك الذين يفسرون له تلك الآيات على أنها قد تم نسخها كما يقول؟

ومن اللافت للنظر أن سوكْدِيو، شأنه شأن من يفسرون القرآن من المتطرفين، يسىء الاستشهاد بالآيات القرآنية باقتطاعها عن سياقها الذى وردت فيه، قائلا إن الآيتين التاسعة والخمسين والستين من سورة "الأنفال" تحضان على الإرهاب، رغم أن الآية الأخيرة لا تدعو فى واقع الأمر إلى شىء من هذا، بل تشكل مع الآية التى تعقبها كلا واحدا، ونصها: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا". وبالمناسبة فهذه الآية هى أيضا من الآيات المتأخرة فى النزول. وفى هذا السياق نجد الآية الستين تأمر المسلمين بألا يقفوا موقفا سلبيا تجاه تهديدات عدوهم، ثم تأتى الآية الحادية والستون لرسم حدود هذا الأمر فى الواقع العملى. وعلى هذا فليس فى الآية على الإطلاق أية دعوة إلى الإرهاب. ولربما لو كان سوكْدِيو يلمّ بالعربية إلمامًا جيدًا لكان فهمه للقرآن أفضل،

لكنه يفتقر إلى مثل هذا الإلمام المطلوب، وهو ما يجعل من الصعب علينا الاقتناع بما يقوله عن الإسلام وتعاليمه مهما يكن المنصب الذى يشغله أو اللقب الذى يتحلى به.

ويمضى سوكْدِيو قائلا إن الإنسان يمكنه الاختيار بين الآيات التى تحبّذ العنف وتلك التى تدعو إلى السلام. وهذا صحيح، إلا أنه سيكون فى هذه الحالة متسرعا تسرعا شديدا فى القول بأن القرآن يرحب بالعنف أكثر مما يرحب العهد القديم (كما هو الحال مثلا فى سفر "اللاويين" أو سفر "يوشع"). فإذا قلنا إن القرآن يحبذ العنف، فما القول إذن فى نصوص العهد القديم التى تأمر أمرا صريحا بالقتل وإبادة البشر؟ ففى الفقرة رقم ١٧ من الإصحاح الحادى والثلاثين من سفر "العدد" يقول موسى بشأن الأسرى المديانيين الذين قتل بنو إسرائيل أقاربهم: "فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلًا بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا". كما أن الفقرات ١- ٩ من الأصحاح الخامس عشر من سفر صموئيل الأول تحكى لنا قصة النبى صموئيل حين أمر الملكَ شاول بمحو العمالقة من الوجود على النحو التالى: "٣فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا". أما النبى محمد فقد نهى أتباعه عن مثل هذا التطرف قائلا كما جاء فى تفسير ابن كثير للآيات ١٩٠- ١٩٣ من سورة "البقرة: " اغزوا فى سبيل الله. قاتلوا مَنْ كَفَرَ بالله. اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع"، ومثله ما ورد فى "المغازى" للواقدى (٣/ ١١٧- ١١٨): "اغزوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة، ولا تمنَّوْا لقاء العدو".

أما الزعم بأن الحرب التى حضت عليها بعض آيات القرآن تسوّغ الأعمال الحربية العدوانية فهو دليل على الجهل بأن المفسرين التقليديين قد ضيّقوا نطاق تلك الآيات.

فمثلا هناك الآية الرابعة من سورة "التوبة" التى أسيء تفسيرها فى عصرنا، ونصها: "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ". فمن ناحيةٍ نرى المتطرفين يستغلون هذه الآية فى إراقة الدماء البريئة، ومن الناحية الأخرى فإن أعداء الإسلام يستغلونها فى الزعم بأن القرآن إنما هو كتاب عدوانى يحض على شن الحرب دون توقف. لكنْ بالاستناد إلى الروايات التقليدية فإن هذه الآية لا يمكن اتخاذها صَكًّا على بياضٍ لقتال غير المسلمين، إذ لا تَصْدُق فى الواقع إلا على أولئك المشركين الذين ناهضوا المسلمين الأوائل وهددوا وجودهم ذاته تهديدا. وكما قال أحد كبار الفقهاء، وهو أبو بكر بن العربى (من أهل القرنين الحادى عشر والثانى عشر)، فـ"قَوْله تعالى: "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ" عَامٌّ فِي كُلِّ مُشْرِكٍ، لَكِنَّ السُّنَّةَ خَصَّتْ مِنْهُ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ قَبْلَ هَذَا مِنْ امْرَأَةٍ وَصَبِي وَرَاهِبٍ وَحُشْوَةٍ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، وَبَقِي تَحْتَ اللَّفْظِ مَنْ كَانَ مُحَارِبًا أَوْ مُسْتَعِدًّا لِلْحِرَابَةِ وَالإِذَايَةِ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالآيَةِ: اُقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُحَارِبُونَكُمْ".

ويمكن المضىّ فى الاستشهاد بهذه التفسيرات إلى ما لا نهاية. ومنها يتبين بكل وضوح أن تسوية سوكْدِيو بين "المسلمين المتشددين" و"علماء المسلمين القدامى" الذين يقولون إن "الإسلام هو دين السيف" ليست متهافتةً فقط بل تشويهًا مطلقا للحقائق. وعلى هذا فإما أن سوكْدِيو غير مؤهل لتحليل التراث الإسلامى والمقارنة بينه وبين الانحرافات الحديثة، وإما أنه يحرّف على نحوٍ متعمدٍ تعاليم الإسلام. وهو فى الحالتين يبرهن على أنه غير جدير بالثقة بتةً.

ويتبدى العلم المريب عند سوكديو خلال مقالته كلها، وبخاصة عندما يستخدم التفرقة البالية بين مصطلحَىْ "دار الإسلام" و"دار الحرب" من أجل الزعم بأن

المسلمين لا يقبلون شيئا سوى الحرب أو النصر. وهذا المصطلحان هما فعلا مصطلحان قديمان مهمان، إلا أن علماء المسلمين قد ذكروا أيضا عددا من الدُّور الأخرى بين هاتين الدارين: فبعضهم يذكر ثلاثا، وبعضهم يذكر خمسا، وبعضهم يذكر سبعا. وفى العصر الحديث نجد أن أغلبية علماء المسلمين ينظرون إلى أوربا وأمريكا بوصفهما "دار صلح"، وهو ما يعنى أن المسلم بإمكانه أن تقوم بينه وبين ذلك العالم علاقات على عدة مستويات، وأنه ينبغى عليه التقيد بقانون تلك البلاد متى ما قرر الإقامة فيها أو القيام بزيارتها. وبناء على هذه التفرقة رأينا من علماء المسلمين من يُفْتِى بأن بمستطاع المسلم الخدمة فى الجيش الأمريكى حتى عندما يكون ذلك الجيش فى حرب مع الدول الإسلامية الأخرى. لكن من يَسْعَوْن فى إثارة الصراع هم وحدهم الذين يمضون فى تضليل الجمهور من خلال تضييق شُقّة العالم بحيث لا يكون هناك إلا دار الإسلام ودار الحرب.

كذلك يتضح سوء الفهم لدى سوكْدِيو عندما يتناول بالحديث مؤتمر علماء المسلمين الذى عُقِد مؤخرا بالأردن، والذى أعلن فى بيانه الأخير معارضته لتكفير المسلم، وحدَّد الشروط التى لا بد من توفرها قبل إصدار أية فتوى. وفى رأيه أن هذا من شأنه "أن يلغى الفتوى القيمة التى أصدرها علماء المسلمين فى أسبانيا باعتبار بن لادن مرتدا". ومع هذا فإن حرب البيانات التى يكفِّر فيها المسلمون بعضهم بعضا هى بالضبط ما يريده متطرفو القاعدة وأمثالهم. ذلك أنهم، بهذه الطريقة، يمكنهم الحكم بالردة على أى شخص يختلف معهم ويقتلونه. ولا ينبغى أن ننسى أن القاعدة، قبل الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م بيومين اثنين، قد اغتالت أحمد شاه مسعود. ولم تكن هذه مجرد مصادفة، بل كانت مسألة إستراتيجية مقصودة، إذ إنهم بالتخلص من أشد

المسلمين التقليديين جاذبية ومقدرة على السيطرة على النفوس فى أفغانستان قد استطاعوا التخلص من أعتى العقبات التى تمنع تشويههم للإسلام، إذ هو القائد المصدَّق الذى كان بمكنته فضح الطبيعة الزائفة لادعائهم بأنهم هم الذين يمثّلون الإسلام.

ولكى يمنع الفقهُ الإسلاميُّ التقليديُّ قَتْلَ البشر من أجل الأخطاء أو الذنوب التافهة فإنه لا يجيز لأى إنسان "حرمان" أى مسلم آخر أو تكفيره فى ذنبٍ اجترحه. وبتأكيد هذا المعنى والقضاء على أية إمكانية لتكفير المسلم فى عصرنا الحالى فإن مؤتمر الملك عبد الله قد جعل العالم أكثر أمانا. ولا يصدق هذا الكلام على المسلمين التقليديين "المعتدلين" فحسب، وهم المسلمون الوحيدون الذين يمكنهم عزل المتطرفين وحماية غير المسلمين من ثَمّ، بل يصدق أيضا على اليهود والنصارى وغيرهم، الذين يَعُدّهم القرآن (وكذلك أكابر الفقهاء القدماء من أمثال الإمام أبى حامد الغزالى) "كتابيين". الواقع أن سوكْديو يريد الإبقاء على هذا "الباب" مفتوحا كى يمكنه إخراج المسلمين الذين يبغضهم من دائرة الإيمان. إنه يريد الإبقاء على هذا "السيف" مصلتا على الرقاب، ناسيا تمام النسيان ما جاء فى إنجيل متى (٢٦/ ٥٢) من أن "كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ!".

وبالمثل يكشف سوكْديو عن عجزه التام عن فهم الفقه الإسلامى إذ يتساءل قائلا: "ألا يمكن أن يستدعى الملك عبد الله أعضاء مؤتمره إلى الاجتماع كرة أخرى ويأمرهم أن يصدروا فتوى تحرم العنف ضد غير المسلمين أيضا؟". والحق أن هذا هو ما وقع فعلا حين أعلن العلماء المذكورون أن الفتاوى التى تعضد العنف غير المبرَّر هى فتاوى تنقصها الشرعية، إذ ما من شخص يرتكب عملا من أعمال العنف باسم الإسلام

إلا ويحاول أَوَّلًا تسويغ عمله من خلال إصدار فتوى وإساءة استعمالها، وما من شخص يرتكب عملا من أعمال الإرهاب إلا وهو مقتنع أن الإرهاب الذى يمارسه له ما يسوغه. لقد أكد المؤتمر أن جميع الفتاوى لا بد أن يحكمها نظام ثلاثى من المراجعات والتوازنات الداخلية، ومن ثم كان لا بد لكل من يريد إصدار فتوى أن يكون متحليا ببعض المواصفات الشخصية والعلمية الصارمة، كما لا بد أن يتبع أحد المذاهب الثمانية المعروفة فى الفقه الإسلامى بحيث لا يجوز إصدار أية فتوى تخرج عن حدود تلك المذاهب، وهو بالضبط ما يريد المتطرفون أن يفعلوه. لقد ضم المؤتمر ما يزيد على ١٨٠ من العلماء الكبار ينتمون إلى ٤٥ بلدا إسلاميا، واستصدر ١٧ فتوى هامة تتعلق بذلك الموضوع من أعظم فقهاء المسلمين فى العالم (بما فيهم شيخ الأزهر وآية الله السيستانى والشيخ يوسف القرضاوى). وبهذا لا يكون المؤتمر قد خلع عن المتطرفين رداء الشرعية فحسب، بل (كما قال فريد زكريا فى "النيوزويك" بتاريخ ١٨/ ٦٣٠٠٥م) يكون أيضا قد "شن هجومًا جَبْهَوِيًّا على الأفكار الدينية التى يقوم عليها فكر القاعدة". وهذا، بكل تأكيد، سلاح حيوى فى الحرب ضد الإرهاب، وهو ما يستحق عليه الملك عبد الله ومؤتمره الثناء والتقريظ.

ومع ذلك فلا يبدو أن غرض سوكْدِيو هو عزل المتطرفين والقضاء عليهم، بل تتلخص رغبته فى تشويه معانى القرآن وتحريف التاريخ والإساءة إلى المسلمين المعاصرين، وذلك بغية تعضيد دعواه بأن الإرهاب والتطرف كامنان فى طبيعة الإسلام ذاته. وهذا الأسلوب هو بالضبط الطريق الذى سيؤدى بنا إلى خسران الحرب على الإرهاب. إن الحرب الحقيقية هى حرب الأفكار، والأساس الذى تقوم عليه أفكار بن لادن والزرقاوى وغيرهما هو أنهم يظنون أنهم الممثلون الحقيقيون للإسلام. وقد أكد

العلماء المسلمون التقليديون من أرجاء العالم أن مثل هذه العقائد والأعمال المنحرفة تمثل فى الواقع انتهاكا لمبادئ ذلك الدين. ونحن بتعاوننا مع أولئك العلماء التقليديين إنما نساعدهم فى تثبيت الفكر الإسلامى الوسطى التقليدى، كما نفضح أفكار المتطرفين وأعمالهم. وهذا هو أنجع الأسلحة وأكثرها مسالمة وفعالية فى الحرب ضد التفسيرات المتطرفة للإسلام. وإذا لم نستخدمه نكون قد فقدنا الموقع الأفضل فى حرب الأفكار. وبالرد على التطرف بتطرف مثله يكون سوكْدِيو ومن على شاكلته قد أعطوا المتطرفين الفرصة كى يحسموا لصالحهم الجوَّ العامَّ الذى يحدّد علاقة الأديان، ومن ثم يمكنهم أن يقرروا مجرى الأحداث أيضا. وبدلا من تزويدنا بتشخيص واقعى للتحديات التى تواجهنا والحلول السلمية الواقعية التى تصلح لها، فإنهم يريدون استغلال الموقف للعمل على طرح أفكارهم وأوهامهم المعادية للإسلام. وهم بهذا إنما يعملون لا ضد المسلمين والإسلام فحسب، بل ضد الإنسانية جمعاء بما فيها النصارى (بل ضد النصارى فى المقام الأول). نيافةَ الأب سوكْدِيو، هل نقول: إلى الأمام يا جنود النصارى؟".

والآن وبعدما أثبتنا أن النبى لم يغير سياسته مع الأيام نزولا على الظروف التى تستجد بحيث انتقل من الدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والرد بكلمة "سلام" لمن يؤذيه ويؤذى أتباعه إلى شن الحرب العدوانية على خصومه من الباب للطاق دون أن يصدر منهم أى اعتداء عليه أو على أحد من المسلمين، سواء فى ذلك الأشهر الحرم أو الأشهر غير الحرم، ورأينا كيف أن السياسة الإسلامية مع غير المسلمين هى سياسة الرحمة والصدر الواسع، واتضح لنا أن ما قاله معروف الرصافى

هو كلام يفتقر إلى الصدق والدقة والشعور بمسؤولية الكلمة، فثم سؤال هو "وماذا عن الفتوح الإسلامية التى تمت بعد وفاة الرسول عليه السلام؟".

لقد رأينا الدول الأوربية فى عصر النهضة ترسل بعثاتها ورجالها وسفنها وجيوشها لاستكشاف العالم وغزو الأراضى الجديدة، ثم تبعها الاعتداء على استقلال الدول القديمة أيضا. وفى هذا السياق استولى الأوربيون على أمريكا الشمالية كاملة واستأصلوا الهنود الحمر فى خطة شيطانية ممنهجة رغم ترحيب الهنود بهم عندما وصلوا إلى شواطئهم ظنا منهم أنهم بشر عندهم قلوب وأحاسيس وعواطف كريمة، لكن اتضح بعد فوات الأوان أنهم إنما يعاملون وحوشا لا بشرا، ثم كانت الكارثة التى لا يمكن تداركها ولا التعويض عنها، وهى مسح أمة كاملة من خريطة الحياة والأحياء واستلاب قارة كاملة مفعمة بالخيرات والنعم التى لا يتصورها متصور. ومثل ذلك ما وقع فى قارة أستراليا ونيوزيلندا. أما أمريكا الجنوبية فقد احتلت أجزاءً كبيرةً منها أسبانيا وكسحت كثيرا جدا من ثرواتها الهائلة إلى خزائنها، لكنها لم تستأصل السكان، ثم انتهى الأمر بتلك الشعوب إلى الاستقلال عن محتليهم. وقد تبع ذلك انقضاض الأوربيين على كثير من الدول الأخرى فى أفريقيا وآسيا، ومَصَّ أولئك المجرمون الخبيثون دماء تلك الشعوب التى احتلوها ونهبوا ثرواتها نهبا، وبخاصة أن كثيرا من الشعوب الأفريقية كانت متخلفة تخلفا شديدا، فعاملها الأوربيون على أنهم حيوانات لا بشر، بل ربما كانت معاملتهم للحيوانات أرحم وأكرم. كما اتخذوا منهم العبيد بالقسر وشحنوهم إلى أمريكا بالملايين فى ظروف وحشية لا تبالى عاشوا أو ماتوا، فضلا عن أنهم كانوا يضربونهم بالسياط ويشوهون أجسادهم ويقتلونهم لأقل بادرة بل بدون أية بوادر على الإطلاق فى كثير من الأحيان.

وقد فلسف الأوربيون الخبثاء هذا التوسع الاستعمارى الإجرامى بنظرية عنصرية كريهة هى "نظرية عبء الرجل الأبيض: white man burden theory"، التى سادت فى أوروبا خلال القرن التاسع عشر، ونشأت على أساسها نظرية تبرر هيمنة الرجل الأبيض، إذ قسم الفكرُ الغربىُّ البشرَ إلى أجناس عليا تتمثل فى الجنس الأوربى الأبيض، وأجناس دنيا تتمثل فى الأجناس السود والمهجنين وأمثالهم. وبناء على ذلك يمنح الرجال البيض جميع الحقوق والامتيازات بينما يبقى الرجال السود مجرد عبيد ينتمون إلى ثقافات بدائية متوحشة ومتخلفة، ولذلك كان يطلق عليهم: "البرابرة أو الهمج"، ويقع عبء تمدينهم على أكتاف الجنس الأبيض المتحضر. وبذلك تم تسويغ استعمار الشعوب البدائية أخلاقيا بوصف هذا الاستعمار هو الوسيلة الوحيدة لنقل هذه الشعوب من حالة الوحشية إلى حالة التمدن. والواقع أن هذه النظرية مجرد وسيلة خبيثة منحطة لتبرير الاستعمار والحروب الاستعمارية وتسويغ نقل أعداد كبيرة من السكان الأوروبيين إلى البلاد المستعمَرة يقطفون خيراتها ويستولون على ثرواتها فى حين تبقى شعوب تلك البلاد مجرد عبيد لهم بدون أية قيمة.

وكان رديار كبلنج، الصحفى والشاعر والقصاص البريطانى، يردد أن قومه يحملون رسالة نبيلة هى نشر الحضارة والثقافة البريطانية فى كل أنحاء العالم. وهو الذى استحدث عبارة "عبء الرجل الأبيض: The White Man's Burden"، التى استخدمها ليبرر توسع بريطانيا الاقتصادى والعسكرى فى مناطق غير البيض. أى أن الرجل الأبيض اللص والقاتل والطاغية الذى أذاق كثيرا من شعوب الأرض الهوان وقضى على شعوب بأكملها وانتهج سياسة الغدر والاحتلال والقتل والتعذيب فى تعامله مع الشعوب الأخرى التى لم يستطع محوها من الوجود إنما كان يعمل على ترقيتها

ويرحمها ويريد لها أن تسامته فى مضمار الحضارة. ومصيبة المصائب أنه يسمى ذلك: "عبئا"، أى حملا ثقيلا جَشَّمَتْه إياه الأقدار، فتَجَشَّمَه راضيا مطواعا رغم ما فيه من مسؤوليات جسام ينوء بها ظهره. يا له من صاحب قلب عطوف شفيق!

إنه يذكرنا بثعلب أحمد شوقى، الذى لبس العمامة والقفطان ومضى فى البلاد يعظ ويدعو إلى عبادة الله والامتثال لأوامره والانكفات عن نواهيه، ويحمل حملات شعواء على الخبثاء المكارين رغم أنه أمكر الماكرين وأخبث الخبيثين. وقد نظم كبلنج الاستعمارى البغيض الثقيل الظل قصيدة فى هذا الموضوع وبالعنوان المذكورآنفا. وكان مونتسكيو المتفلسف الفرنسى (ق١٨م) يستبعد تماما أن يحتوى الإهاب الأسود للإنسان الزنجى روحا أصلا، بَلْهَ أن تكون هذه الروح روحا كريمة. وهذه عبارته فى سياقها، وهى موجودة فى الفصل الخامس من الكتاب الرابع من "روح القوانين"، والترجمة ترجمتى:

"Si j'avais à soutenir le droit que nous avons eu de rendre les nègres esclaves, voici ce que je dirais: Les peuples d'Europe ayant exterminé ceux de l'Amérique, ils ont dû mettre en esclavage ceux de l'Afrique, pour s'en servir à défricher tant de terres. Le sucre serait trop cher, si l'on ne faisait travailler la plante qui le produit par des esclaves. Ceux dont il s'agit sont noirs depuis les pieds jusqu'à la tête ; et ils ont le nez si écrasé qu'il est presque impossible de les plaindre. On ne peut se mettre dans l'idée que Dieu, qui est un être très sage ait mis une âme, surtout une âme bonne, dans un corps tout noir"

وترجمتها كالآتى: "إذا كان ينبغى لى أن أسوّغ حقنا فى اتخاذ الزنوج عبيدا لنا فهذا ما سأقوله: إن الشعوب الأوربية، وقد استأصلت شعوب أمريكا، يجب عليهم استعباد الشعوب الأفريقية فى استصلاح كثير من الأراضى. ولسوف يصبح السكر غاليا غلوا باهظا إن لم نستعمل الزنوج فى زراعة النبات الذى يستخلص منه. وهؤلاء الزنوج سود

من قمة رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم، ولهم أنوف شديد الفَطَس لدرجة أننا لا يمكن أن نشفق عليهم. وليس بمستطاعنا تخيُّل أن الله، الذى هو كائنٌ جِدُّ حكيمٍ، يمكن أن يضع روحا، فضلا عن أن تكون روحا طيبة، فى جسمٍ تامِّ السواد بهذا الشكل".

فانظر إلى هذا الخبل العقلى لدى هذا المحسوب على الفلاسفة، وتعجَّبْ كما يحلو لك، وقارن بين كلام هذا العِلْج الفرنسى وبين قول سيد الأنبياء والمرسلين، الذى لا تساوى رقبة العلج الفرنسى قلامة الظفر الذى يطيره المقص من أظافر قدمه: "اسمعوا وأطيعوا وإن اسْتُعْمِل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زَبِيبَة"، "لا فَضلَ لعَرَبى على عَجَمى ولا لعَجَمى على عَرَبى، ولا لأبيضَ على أسودَ ولا لأسودَ على أبيضَ إلّا بالتَّقْوى. الناسُ من آدَمَ، وآدَمُ من تُرابٍ"، وقوله لأبى ذر حين نسى مبادئ الإسلام فى غفلة عابرة ألمت به نفخ فى أنفه الشيطان، فعير بلالا الحبشى بلونه قائلا: "يا ابن السوداء": "إنك امرؤ فيك جاهلية"، فما كان من أبى ذر إلا أن وضع خده على التراب إرضاء لبلال وتكفيرا عن الكلمة التى قفزت من فمه دون انتباه.

وقد عقب د. محمد عوض محمد على مقولة مونتسكيو بقوله: "ومن المفيد ألا نمر بعبارة منتسكيو هذه دون أن نشير إلى أنها ليست مبنية على مجرد السخرية، فإن الإشارة إلى أن الشعوب السوداء أو الحمراء لا روح لها قد كانت مظهرا من مظاهر الاستعمار الأوربى الحديث فى أوائل عهده. ورجال الدين أنفسهم لم يتورعوا عن مثل هذه النزعات. وقد كان قادة الدين فى مراحل الاستعمار الأولى بأمريكا الشمالية يشيرون إلى الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان، وكانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل، وكان من هذه الوسائل أن تُنْشَر بينهم الأمراض الجديدة التى ليس للأمريكيين الأصليين تلك المناعة منها التى اكتسبتها شعوب العالم القديم، ومن أهمها

مرض الحصبة. فكانوا يوصون بأن يمكّن الأمريكيون الهنود من الاستيلاء على الأغطية (البطاطين) التى كان يتغطى بها المصابون بالحصبة. وكانوا يرون أن هذا الإجراء مما يتفق تماما مع الدين" (د. محمد عوض محمد/ الاستعمار والمذاهب الاستعمارية/ دار المعارف/ القاهرة/ ١٩٥٧م/ ٣٨).

إن ما يهرف به علوج أوربا فى تسويغ الاستعمار وسرقة الشعوب واستعبادها واحتقارهم لألوان الزنوج وزعمهم أن الأقدار حَمَّلَتْهم عبء تحضير الأمم المتخلفة هو قمة العنصرية، إذ كيف يظن الأوربيون، الذين كانوا إلى عدة قرون قليلة مضت همجا متخلفين وفيهم كل العِبَر، كيف يظنون أن سلالتهم أعلى شأنا فى النواحى العقْلية والأخلاقية أو الثقافية من أفراد السّلالات الأخرى، ومن ثم يعتقدون أنهم يستحقّون حقوقًا وامتيازات خاصة؟ والواقع أنه ليس هناك أى دليل علْمى يُساند الدّعاوى العنصرية، ولا يعقل أن يحابى الله أقواما من خَلْقه على أقوام آخرين، فيعطيهم الذكاء والقدرة على الإبداع والابتكار والمسارعة إلى التحضر بينما يحرم الآخرين هذا كله.

ومع هذا فإن العنصرية واسعة الانتشار وسبّبت الكثير من المشكلات الرئيسية بتسويغها التمييز العنصرى والفصل الاجتماعى والنزعة الاستعمارية، وحتى الإبادة الجماعية أيضا. وفى البُلْدان التى يشكِّل فيها البيض الأكثرية نجدهم بصفة عامة يتصرفون ويفكرون بعنصرية مقيتة ضد الأقليات السّلالية أو العِرْقية. وتتضمن مثل هذه الجماعات السُّود والهنود الأمريكيين والأمريكيين المكسيكيين وسكان أستراليا الأصليين والآسيويين. وقد تعرّضت هذه الأقليات للتّعصب والتمييز فى المجالات المختلفة مثل الإسكان والتّعليم والتّوظيف. كذلك قد سيطرت أَقَلّية بيضاء فى جنوب إفريقيا على الحُكْم لسنوات طويلة، وفرضت قوانين عنصرية فى مجالات الإسكان

والتّعْليم والتوظيف كان لها تأثيرها على الغالبية العُظْمى من غير البيض. وهى السياسة المعروفة باسم سياسة التفرقة العنصرية أو الأبارتيد.

وقد وُجِدَتْ أشكالُ العنصرية منذ قديم الزمان، فقبل أكثر من ألفى عام استعْبد الإغريق والرومان الشعوبَ التى اعتبروها أدنى منهم. وظل الصينيّون، لمئات من السنين بعد رحلات ماركو بولو إلى الصين فى القرن الثالث عشر الميلادى، ينظرون إلى الغربيين على أنهم بيض همج كثيفو الشعر. وتمكن الأوروبيون فى القرن الثامن عشر وحتى أوائل القرن العشرين الميلاديين من فرض سيطرتهم على أجزاء كبيرة من آسيا وإفريقيا. وبرّر هؤلاء المستعمرون سيطرتهم على أساس أن السلالات ذات البشرة السوداء والسمراء والصفراء لابد من تمدينهم بوساطة البيض المتفوقين. وهذه المهمة التثقيفية، كما ادَّعَوْا، هى التى أصبحت تسمى: "عبء الرجل الأبيض"، أى مسؤوليته التى وكلتها إليه الأقدار عن ترقية الأجناس الأخرى المتخلفة حضاريا وثقافيا، رغم أن هذا الرجل الأبيض كان إلى وقت غير بعيد همجيا متوحشا هو أيضا. ولكنه الغرور والخداع والخبث والالتواء والأنانية مغلفة بأفخم الألفاظ وأنبل الشعارات التى يضحكون بها على العالم. وفى كل مكان من الإمبراطورية البريطانية كان الزعم الزائف بتفوق البيض يتغلغل فى معظم مجالات الحياة: ففى الهند المستعمَرة على سبيل المثال لم يكن هناك سوى قدر ضئيل جدًّا من الاختلاط بين الوطنيين الهنود والموظفين البيض. كما نظر المستوطنون البيض فى أستراليا إلى السكان الأصليين على أنهم أدنى مرتبة. ومع أن معظم السياسات الاستعمارية كانت قد انتهت فى أواسط القرن العشرين الميلادى فإن آثارها على العالم مازالت باقية إلى اليوم.

وتعتبر إبادة الجنس أعظم الآثار المتطرفة المترتبة على الكراهية العُنْصُريّة. ولقد فعل ذلك الصربُ حين أعلنت جمهورية البوسنة والهرسك المسلمة استقلالها عن جمهورية يوغوسلافيا السابقة، فقاسى أهالى البوسنة جميع أنواع الإبادة الجماعية والفردية بذريعة تطهير العرق، وقُتِل من جَرَّاء ذلك عشرات الآلاف من البوسنيين، وشُرِّد كثيرون جدا من وطنهم تحت سمع الاتحاد الأوروبى وبصره. وبلغ من فجورهم أنهم اعتدَوْا على النساء والفتيات المسلمات جنسيا بطريقة وحشية مما دفع كثيرات منهن إلى الانتحار. ومنذ زمن طويل يرزح الفلسطينيون تحت الغطرسة الصهيونية، إذ يتصور اليهود أن جنسهم هو الجنس المختار، فقتلوا أهل فلسطين التى نُكِبَتْ بهم وعذبوهم واعتقلوهم وصادروا ممتلكاتهم وانتهكوا حرماتهم تحت سمع العالم وبصره، يساندهم فى ذلك الغرب، وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية. ويمكن الرجوع فى ذلك مثلا إلى مادة "العنصرية" بـ"الموسوعة العربية العالمية". فهذا أحد الشعارات التى رفعها الغربيون فى وجه العالم لتبرير استعمارهم للدول الأخرى واستعباد شعوبها واستنزاف خيراتها والاستعلاء عليها واحتقارها.

وهناك مسوغ آخر لاجتياح الدول المجاورة، وهو مسوغ "المجال الحيوى". وتكمن وراءه نظريةٌ وَضَع أسسَها العالم الألمانى راتسل، وترتكز على أنه يحق للدول الكبرى احتلال الدول الأخرى التى تقع فى مجالها الحيوى ما دامت قدراتها أكبر من مساحتها الجغرافية، ويحل لها عندئذ استخدام القوة لتحقيق هذا الهدف. وظهرت نظرية "المجال الحيوى" للمرة الأولى على أرض الواقع بسبب الحصار الذى قامت بريطانيا بفرضه على التجارة من ألمانيا وإليها خلال الحرب العالمية الأولى، إذ أدى هذا الحصار إلى نقص حاد فى المواد الغذائية بألمانيا فى الوقت الذى كانت فيه الموارد الغذائية متوفرة

بكثرة فى المستعمرات الألمانية فى أفريقيا. ونتيجة لهذا تبلورت نظرية "المجال الحيوى" على اعتبار أن مأساة ألمانيا كان يمكن تفاديها بسهولة لو قامت بالتوسع فى أراضى روسيا شرقا لسد النقص فى مواردها الغذائية، إذ تملك روسيا الكثير من الأراضى الصالحة للزراعة، ولديها وفرة من الموارد الغذائية. وجدير بالذكر أن هذا الأمر قد حدث بالفعل قبلا حين هاجر كثير من الأوربيين إلى أمريكا بلاد الهنود الحمر حيث قاموا باستئصال الهنود وتملكوا الأراضى، فتشكلت الولايات المتحدة الأمريكية على الطابع الأوروبى، وصار الهنود الحمر فى خبر كان. وثم مثال آخر وهو تأليف أدولف هتلر عام ١٩٢٥م كتابه المشهور: "كفاحى"، الذى ضمنه فصلا بعنوان "التوجه ناحية الشرق أو السياسة الشرقية" يرتكز على نظرية "المجال الحيوى"، إذ دعا إلى ضرورة توسيع المجال الحيوى للشعب الألمانى من أجل توفير مصادر جديدة للموارد الغذائية. وقد حاولت ألمانيا بالفعل خلال الحرب العالمية الثانية إنشاء إمبراطورية استعمارية أسوة بالإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية استنادا إلى أن الدولة كائن حى مثلما ذكر العالم فردريك راتسل مع إضافة هتلرية مُفَادُها أن الدولة التى تتكيف مع المكان الذى تشغله على خريطة العالم من الطبيعى أن تتوسع لاحتلال دول أخرى. ومن أجل تحقيق هذه الغاية عمل هتلر على تشجيع الزيادة السكانية كى يستطيع الألمان شغل الأراضى التى يضمونها إلى بلادهم. وكانت نظرية "المجال الحيوى" هى السبب فى التوسع الاستعمارى للعديد من الدول بعد مرحلة الثورة الصناعية وازدياد الإنتاج، إذ برزت الحاجة إلى مصادر للمواد الخام وأسواق لتصدير المنتجات، ومن ثم برزت هذه النظرية تسويغا لاحتلال هذه الدول للدول الأخرى والتوسع على حسابها.

وبعد وصول أدولف هتلر إلى السلطة فى ألمانيا أصبحت نظرية "المجال الحيوى" المبدأ العقائدى للنازية، فقدمت النازية مبررات التوسع الألمانى فى أوروبا الشرقية والوسطى، وتضمَّن مبدأ النازية ضرورة القضاء على معظم السكان الأصليين فى تلك المناطق بما فى ذلك البولنديون والأوكرانيون والروس وسكان الدول السلافية الأخرى إما عن طريق الترحيل الجماعى إلى سيبيريا أو الموت أو الاستعباد باعتبار أن تلك الشعوب أقل شأنًا من الألمان وأنه من حقهم استعمار تلك المناطق والاستقرار فيها لأنها تمتلك أراضِيَ زراعيةً توفر لألمانيا كفايتها الغذائية. وبعد غزو هتلر لبولندا فى بداية احتلاله لأوروبا الشرقية قام بقتل أعداد كبيرة من البولنديين، وفى خريف عام ١٩٣٩م عين أحد المسؤولين الكبار لتوطيد بناء الدولة الألمانية المكلفة بتوطين الألمان فى الأراضى التى احتلها هتلر، فقام بسجن البولنديين تمهيدًا لنقلهم إلى سيبيريا بعد أن يغزو هتلر الاتحاد السوفيتى، وبعد غزو هتلر للاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٤١م وانسحاب القوات السوفيتية إلى ما وراء جبال الأورال رفض هتلر التوقف عند هذا الحد معتبرًا أن هذه الجبال ليست من الضخامة بحيث تستطيع الفصل بين العوالم الأوروبية والآسيوية، وأكد أنه فى غضون عشرين عامًا ستكون بولندا قد فُرِّغَتْ من سكانها وأُعِيد ملؤها بالمستعمرين الألمان، لكن ذلك لم يحدث لأن الألمان خسروا الحرب العالمية الثانية، وأصبحت بولندا لسنوات تابعة للاتحاد السوفيتى ثم استعادت استقلالها مع انهياره فى عام ١٩٨٩م.

وبعد الحرب العالمية الثانية وانقسام العالم إلى معسكرين: رأسمالى بقيادة أمريكا واشتراكى بزعامة الاتحاد السوفييتى بدأت الحرب الباردة بين المعسكرين: فسعى كل من القطبين الكبيرين لتوسيع مجاله الحيوى، ولكن دون استعمال الآلة العسكرية كما كان

الحال قبلا بل القوة الناعمة. وبعد انتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفيتى صار العالم اليوم تحت هيمنة إدارة دولةٍ واحدةٍ هى الولايات المتحدة، وأصبح مجالها الحيوى حيث تقوم بدور الشرطى الرقيب على أداء الدول فتحاكم وتسجن وتستجوب من يهدّد مصالحها وتوقع الاتفاقيات التى توفر لها المواد الأولية وتوقع العقود التى تجبر الدول على شراء منتجاتها وتوقع الاتّفاقيات لإقامة القواعد العسكرية لحماية كل هذه المنجزات مع إعطاء شعوب المنطقة أملا زائفا كذابا بحياةٍ أفضل من خلال الديمقراطية. وبهذا تطور مفهوم "المجال الحيوى"، وتغيرت أدوات التنفيذ، فظهرت ملامح الإنسانية والديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الأطفال وحقوق النساء وحقوق السجناء... وهكذا. وهى منظومة طويلة من الحقوق تقوم عليها جمعيات تحت السيطرة، وأصبحت سيادة الدولة بالمعنى الحقيقى غير موجودة فعليا، وأضحى معنى السيادة أن تربط مصلحة بلدك مع مصلحة دولة كبرى، إذ أصبح هذا الوضع شرا لا بد منه، والحكيم من يخرج بأقل الخسائر. وبالمثل فإن إسرائيل، عن طريق حروبها ضد الدول العربية المجاورة سواء فى ذلك حرب عام ١٩٤٨م وحرب الخامس من يونيو عام ١٩٦٧م واجتياح لبنان عامى ١٩٧٨ و١٩٨٢م، كانت تضع فى ذهنها نظرية "المجال الحيوى"، إذ قال الوزير الإسرائيلى السابق إفرايم إيتام إن جميع عرب إسرائيل والفلسطينيين يجب أن يخرجوا من الأراضى التى ضمتها إسرائيل إما بالإقناع وإما بالقوة.

وإلى جانب "عبء الرجل الأبيض" و"المجال الحيوى" هناك أيضا مقولة "تنصير العالم". ولسوف أكتفى هنا بإيراد ما قالته د. زينب عبد العزيز فى هذا الموضوع فى مقال لها منشور عام ٢٠٠٧م على المشباك، وعنوانه "هيستريا تنصير العالم- خطاب مفتوح إلى

البابا بنديكت السادس عشر"، ويجرى على النحو التالى. وسر احتفالى بهذا الخطاب أنه يبرهن من داخل الأناجيل الأربعة ومن كلام المسيح ذاته أن عملية تنصير العالم مخالفة لتبشير عيسى عليه السلام. قالت الأستاذة الدكتورة: "بمناسبة انتهاء شهر أكتوبر، شهر التنصير فى العُرْف الكنسى، ويوم التبشير العالمى، الذى يتم الاحتفال به يوم ٢١ أكتوبر، وانتهاء مؤتمر التبشير المنعقد فى مدينة نابولى من ٢١ إلى٢٣ أكتوبر، وكل ذلك فى إطار قرار "تنصير العالم" الذى فرضه مجمع الفاتيكان الثانى عام ١٩٦٥، اسمح لى أيها الأب المبجَّل أن أتناول موضوعا شديد الحساسية لم يعد أحد يجهل عواقبه، التى تتخذ أبعادًا هيستيرية استحواذية. فسواء أكانت مؤتمرات أو ندوات أو موائد مستديرة أو أيام عالمية للشباب أو تحت أية مسميات أخرى كالألعاب الأولمبية وبعثات التبشير الموجهة إلى أركان الدنيا الأربعة أو محشورة فى العتاد الحربى لجيوش الإحتلال، فلم يعد أحد لا يلحظ المبشرين وأعمالهم. إن هوس الإصرار على تنصير العالم قد تعدى أى منطق، خاصة وأنكم لا تكفون عن ترديده فى كل خطبكم تقريبًا، أن الكنيسة أولًا تبشيرية. تبشيرية استجابة للآية رقم ١٩ فى آخر إصحاح إنجيل متّى القائل: "فاذهبوا وتَلْمِذوا جميع الأمم وعَمِّدوهم باسم الأب والابن والروح القدس".

ولقد قام مجمع الفاتيكان الثانى بتجنيد كل المسيحيين فى وثيقة "إلى الأمم" لكى يساهموا فى عمليات تنصير العالم. لقد تم تجنيد ترسانة بأكملها من المؤسسات والمنظمات الرسمية وغير الحكومية وجماعات تبشيرية من الشباب، بل ومن الأطفال ومن الخلايا الكنسية التبشيرية، وكل الوسائل فى كافة المجالات فى المجتمع قد تم وضعها كسلاح للتبشير. وإن كان ذلك قد مر فى البداية بصورة غير ملحوظة فقد أعلنها البابا يوحنا بولس الثانى صراحة عام ١٩٨٢ فى مدينة شانت يقب. ومنذ ذلك

الوقت لم يحدث أن كان الهوس أكثر عُجَالة وأكثر هيستيرية لشيطنة الإسلام والمسلمين فى العالم!

وهنا اسمح لى أيها الأب المبجل أن أوضح لك أن نصوص العهد الجديد تناقض تلك الآية التى تعتمدون على نصها، ومن هنا فهى تدين كل ما يترتب عليها، وهو السبب الحقيقى للإرهاب الذى يثيره هذا التبشير! ووفقًا لنصوص العهد الجديد فإن رسالة يسوع كما يقولها شخصيًّا: "لم أُرْسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (متّى ١٥/ ٢٤)! وهو نفس ما كان قد قاله فى الإصحاح العاشر من نفس إنجيل متّى: "هؤلاء الاثنى عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلًا: إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحَرَى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (آية ٥– ٦)، وهو ما نطالع معناه أيضًا فى "أعمال الرسل"، إذ تقول: "إليكم أولًا إذ أقام الله فتاه يسوع أرسله يبارككم بِرَدّ كل واحد منكم عن شروره" (٣/ ٢٦). وذلك يعنى أن يسوع لم يُبْعَث وفقًا للنص إلا من أجل اليهود الغارقين فى الشرور لكى يبتعدوا عنها. وليست هذه الآيات وحدها التى يحتوى عليها العهد الجديد (طبعة ١٩٦٦ العربية)، فما أكثر الآيات التى تكشف عن أن يسوع كان يبشر بملكوت الله وليس بتبشير الأمم! فما أكثر المرات التى كان يؤكد فيها اقتراب موعد ذلك الملكوت. ومنها ما نطالعه فى إنجيل متّى: "وفيما أنتم ذاهبون اكْرِزوا قائلين إنه اقترب ملكوت السموات" (١٠/ ٧) أو "فإنى الحقَّ أقول لكم: لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان" (١٠/ ٢٣). بل إن إنجيل متّى به أكثر من ثلاثين آية تشير إلى تبشير يسوع بملكوت الله بخلاف ما فى الإصحاح الثالث عشر وحده من الآية ١ إلى الآية ٥٢، فكلها تتحدث عن ملكوت الله واقترابه الوشيك! بل لقد كانت سرعة اقتراب حدوث ذلك الملكوت

وشيكة إلى درجة أنه عندما ذهب الاثنا عشر حواريا فى أُولَى جولاتهم قال لهم يسوع بوضوح: "ومتى طردوكم فى هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى، فإنى الحقَّ أقول لكم: لا تكملون مُدُن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان" (متّى ١٠/ ٢٣). وحتى أثناء مثول يسوع أمام الكاهن الأكبر أثناء المحاكمة نراه يقول لهم: "وأيضًا أقول لكم: من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسًا عن يمين القوة وآتيًا على سحاب السماء" (متّى ٢٦/ ٦٤). أما إنجيل مرقس فيورد فى الإصحاح الأول كيف أن يسوع يواصل الرسالة التى بدأها يوحنا المعمدان والتبشير بنفس المضمون، إذ تقول الآية: "وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل" (١٤- ١٥). وفى الإصحاح التاسع نطالع: "وقال لهم: الحق أقول لكم: إن من القيام ها هنا قومًا لا يذوقون الموت حتى يَرَوْا ملكوت الله قد أتى بقوة". وتتكرر المقولة: "الحق أقول لكم: لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله. السماء والأرض تزولان لكن كلامى لا يزول" (مرقس ١٣/ ٣٠- ٣١). ونطالع فى إنجيل لوقا أن يسوع "لما صار النهار خرج وذهب إلى موضع خلاء وكان الجموع يفتشون عليه فجاؤوا إليه وأمسكوه لئلا يذهب عنهم. فقال لهم: إنه ينبغى لى أن أبشر المدن الأخرى أيضًا بملكوت الله لأنى لهذا قد أُرْسِلْتُ" (٤/ ٤٢- ٤٣)، وهو ما يثبت أن رسالة يسوع كما تتضح من كل هذه الآيات تنحصر، كما يقول هو، فى إعادة خراف بيت إسرائيل الضالة إلى رسالة التوحيد بالله الواحد وليس بالثالوث، وفى التبشير باقتراب ملكوت الله، الذى هو العدل والسلام والفرحة. ونطالع فى نفس إنجيل لوقا، فى بداية الإصحاح التاسع، أن يسوع قد "دعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم قوة وسلطانا على جميع الشياطين وشفاء أمراض وأرسلهم

ليكرزوا بملكوت الله ويَشْفُوا المرضى" (آية ١- ٢). وهو ما يكشف عن أنه أسند إليهم كل السلطات التى كان هو يمارسها. وفى الإصحاح العاشر يواصل نفس الوصية قائلًا: "واشفوا المرضى الذين فيها وقولوا لهم: قد اقترب منكم ملكوت الله. وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا: حتى الغبار الذى لصق بنا من مدينتكم ننفضه لكم، ولكن اعلموا هذا: إنه قد اقترب منكم ملكوت الله" (٩- ١١). وهو ما يثبت أنه لم يكن يسوع وحده الذى كان ينادى باقتراب ملكوت الله، وإنما قد أسند هذه المهمة إلى الحواريين أيضًا. وهو ما يوضح أهمية هذا الملكوت الذى يمثل أساس رسالته، ملكوت العدل والسلام والفرحة، وليس تنصير العالم. ويبدأ الإصحاح الثالث من إنجيل يوحنا بواقعة نيقوديموس الفاريسى الذى قال له: "لا أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التى أنت تعمل إن لم يكن معه الله. أجاب يسوع وقال: الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله".

وكما رأينا للتو فإن الأناجيل الأربعة تتحدث عن ملكوت الله على أنه الرسالة الأساس ليسوع، فما من إنجيل إلا وتناولها بنسب متفاوتة من الآيات. وهو ما سوف نتابعه أيضًا فى "أعمال الرسل" و"الرسائل"، التى تبدأ فى الإصحاح الأول بالإشارة إلى ما فعله يسوع وعَلَّمَه إلى اليوم الذى ارتفع فيه عندما أمضى "أربعين" يومًا بعد بعثه، كما يقولون، يتحدث عن الأمور المختصة بملكوت الله. "وهو يظهر لهم أربعين يومًا ويتكلم عن الأمور المختصة بملكوت الله" (١- ٣). ونغض الطرف هنا عن الاختلاف أو تناقض مدة بقاء يسوع على الأرض بعد بعثه عن الأناجيل المعتمدة، التى تمتد من يوم واحد إلى أربعين يومًا، وهى واحدة من الآف المتناقضات التى يزخر بها الكتاب المقدس، لكنا نكتفى بتوضيح نقطة جوهرية: أنه حتى بعد بعثه، وفقًا لـ"أعمال

الرسل" وليس أثناء حياته فقط، ظل أربعين يومًا يحدث حوارييه فقط عن الأمور المختصة بملكوت الله! بل والأدهى من ذلك تنتهى "أعمال الرسل" بالآيتين التاليتين: "وأقام بولس سنتين كاملتين فى بيت استأجره لنفسه. وكان يقبل جميع الذين يدخلون إليه كارزا بملكوت الله ومعلمًا بأمر الرب يسوع المسيح بكل مجاهرة بلا مانع" (٢٨/ ٣٠-٣١). وفى رسالته إلى أهل رومية يوضح بولس قائلًا: "لأَنْ ليس ملكوت الله أكلًا وشربًا بل هو بِرٌّ وسلامٌ وفرحٌ فى الروح القدس" (١٤/ ١٧). وفى رسالته إلى أهل كورنثوس يضيف بولس قائلًا: "أم ألستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله؟" (٦/ ٩). ويواصل السرد فى رسالته إلى أهل غلاطية معددًا أعمال الجسد الظاهرة محذرًا إياهم: "فأقول لكم عنها كما سبقت فقلت أيضًا: إن الذين يفعلون مثل هذه لا يرثون ملكوت الله" (٥/ ١٩). وفى رسالته إلى أهل أفسوس يقول: "فإنكم تعلمون هذا: أن كل زانٍ أو نجس أو طماع الذى هو عابد للأوثان ليس له ميراث فى ملكوت المسيح والله" (٥/ ٥).

ونلاحظ هنا تغييرًا واضحًا: فبعد أن واصل بولس تصعيده لعملية تأليه يسوع وجعله "ربنا يسوع" فى أقواله السابقة ها هو يسند إليه ملكوت الله ويشرك ملكية الملكوت للمسيح ولله معًا! وهو تغيير يزايد عليه بطرس فى رسالته الثانية، إذ يقول فى الإصحاح الأول: "لأنه هكذا يقدم لكم بسعةٍ دخولٌ إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدى" (الآية ١١)! فبعد أن كان يسوع يبشر بملكوت الله واصل الحواريون تصعيد أهمية يسوع، وجعلوا الملكوت شركة بين الله ويسوع، ثم تحول إلى "ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدى"! وأيًا كان صاحب ذلك الملكوت فإن هذا لا يغيّر شيئًا من أن الرسالة التى أتى من أجلها يسوع والتى أرسله الله ليحققها هى، بكل

وضوح، إعادة خراف بيت إسرائيل الضالة إلى رسالة التوحيد، والتبشير بملكوت الله، الذى اقترب مجيئه. بل والأدهى من ذلك يقول يسوع لمن عَصَوْا كلام الرب: "لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنْزَع منكم ويُعْطَى لأمةٍ تعمل أثماره" (متّى ٢١/ ٤٣).

وقبل أن ننهى هذه الجزئية لا بد لنا من لفت نظركم إلى بعض التناقضات المتعلقة بالنص وتطبيقكم له. فقد رأينا أن يسوع قد حدد قائلًا إنه لم يرسَل إلا من أجل خراف بيت إسرائيل الضالة (متّى ١٥/ ٢٤)، وكذلك فى نفس الإنجيل حينما حدد قائلًا لحوارييه: "إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (١٠/ ٥- ٦). ألا يبدو من غير المنطقى، بعد كل هذه النصوص، أن نراه يملى لحوارييه بعد "بعثه"، سواء أكان طيفًا أو تجليا، وأن يأمرهم بالذهاب ليتلمذوا جميع الأمم ويعمدوهم باسم الثالوث، وهو القائل: "إلى طريق أمم لا تمضوا"؟ ألا يعنى ذلك مخالفة لرغبة يسوع وإرادته والقيام بفرض المسيحية على العالم، خاصة وأن نص ذلك الكتاب مرتاب فى أمره بين العلماء؟ وهناك تناقض آخر بين متّى ومرقس حول نفس هذه المقولة عن التبشير بالثالوث، إذ يقول متّى إن هذا الأمر قد أُعْطِىَ للحواريين الأحد عشر فى الجليل "إلى الجبل حيث أمرهم يسوع" (٢٨/ ١٦) بينما يورد مرقس أن هذا الأمر قد أُعْطِىَ للحواريين الأحد عشر فى المنزل، إذ يقول: "أخيرًا ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام وقال لهم: اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها" (١٦/ ١٤- ١٥). أى أنه ظهر لهم فى المنزل كطيف وأوصاهم بالرسالة!

وبغض الطرف عن مثل هذا التناقض بين متّى ومرقس فى موضوع بمثل هذه الأهمية فلا نملك إلا أن نندهش من مضمون الرسالة التى أملاها: "وقال لهم: اذهبوا

إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها. من آمن واعتمد خَلَصَ. ومن لم يؤمن يُدَن". ونتجاوز هنا عن هذا "التسامح" لنرى علامات الذين يؤمنون وصفاتهم، فهم "يُخْرِجون الشياطين باسمى ويتكلمون بألسنة جديدة. يحملون حيّاتٍ وإن شربوا شيئًا مميتًا لا يضرهم ويضعون أيديهم على المرضى فيبرأون" (مرقس/ ١٥- ١٦- ١٨). ووفقًا لهذا المعيار يبدو أن هناك قلّة قليلة جدًا من المؤمنين بين المسيحيين! وتأتى "أعمال الرسل" بتناقض آخر يتعلق بالتعميد. ففى آخر الإصحاح العاشر، عندما ذهب بطرس إلى قيصرية للقاء كورنليوس، "أمر بأن يعتمدوا باسم يسوع المسيح" (١٠/ ٤٨). أى أنه وفقًا لـ"أعمال الرسل" فإن بطرس الحوارى كان يجهل أنه يتعيّن عليه التعميد "باسم الأب والابن والروح القدس". بل والأدهى من ذلك نرى فى الإصحاح الحادى عشر من "أعمال الرسل" أنه عندما "صعد بطرس إلى أورشليم خاصمه الذين من أهل الختان قائلين: إنك دخلت إلى رجال ذوى غُلْفَة وأكلت معهم" (الآية ٣). أى أنه دخل وأكل مع غير اليهود. وبدأ بطرس يحكى لهم القصة كما وردت فى الإصحاح السابق كنوع من التبرير، ثم أضاف قائلًا: "فتذكرت كلام الرب كيف قال إن يوحنا عمّد بماء وأما أنتم فستعمدون بالروح القدس" (آية ١٦). والقائل هنا فرضًا هو نفس يسوع.

ومما تقدم، وهو جِدُّ قليلٍ من كَمّ الأمثلة الواردة، نرى أن نهاية كل من إنجيل متّى ومرقس عبارة عن إضافات تمت لاحقًا. فأيًّا كانت وسيلة التعميد فذلك يثبت أنه حتى كتابة "أعمال الرسل"، وهى سابقة على كتابة الأناجيل الأربعة، لم تكن عبارة "الثالوث" موجودة أو قد تم اختلاقها بعد، وأن يسوع لم يطلب منهم تنصيركل الأمم! وذلك لأننا نطالع فى نفس الإصحاح الحادى عشر أنهم تشتتوا "إلى فينيقية وقبرص وإنطاقية وهم لا يكلمون أحدًا بالكلمة إلا اليهود فقط" (١١/ ١٩)، وهو ما يخالف عبارة يسوع بأن

يعمدوا "كل الأمم". فكيف للحواريين ألا يتحدثوا مع الوثنيين المفترض تنصيرهم بأمر يسوع، ولا يتحدثون إلا إلى اليهود أمثالهم؟ ولا يسع المجال هنا لإضافة كل ما تضمه أعمال النقد الحديثة من عدم توافق، لكننا على الأقل نشير إلى أن أغلبية النقاد، ومنهم كنسيون، يقرّون بأن نهاية كل من إنجيل متّى ومرقس عبارة عن إضافات متأخرة قام بها القديس جيروم فى آخر القرن الرابع لأن نفس الأصل المعروف باسم "كودكس سيناء" و"كودكس الفاتيكان"، ويرجعان إلى القرن الرابع، لا يتضمنان تلك الإضافة!

ونوجز كل ما تقدم بأن يسوع طوال فترة تبشيره، سواء أكانت بضعة أشهر أو ثلاث سنوات، وفقًا لأى إنجيل معتمد، وسواء بعد صلبه وبعثه كما يقولون وظهوره يومًا أو أربعين يومًا، فهو لم يَكُفَّ عن الإعلان بوضوح أنه لم يرسل إلا من أجل خراف بيت إسرائيل الضالة، ومن أجل التبشير بملكوت الله. ترى أمن ضرورةٍ لنضيف هنا أن عقيدة التثليث هذه، والتى قامت بمساواة الله بيسوع بالروح القدس، قد تم اختلاقها وفرضها فى مجمع القسطنطينية عام ٣٨١؟ فكيف نراها موجودة فى نص مكتوب فيما بين أواخر القرن الأول وبداية القرن الثانى؟ فبدلًا من ذلك الطريق الهيستيرى الضال والهادف إلى إقتلاع الإسلام والمسلمين، وبدلًا من هذه الهيستريا المضادة للإرهاب زعمًا والتى تخفى الأخطار الحقيقية السياسية المعاصرة، وأولها مسألة الفاقة الغذائية فى العالم، حيث إن هناك ٨٥٤ مليونًا من البشر يعانون من الجوع وفقًا للمدير العام لمنظة "الفاو" ألا يُعَدّ أول واجب هو العمل على إطعامهم، العمل على إنقاذهم كآدميين لهم كل الحق فى الحياة، بدلًا من أن تلوحوا لهم بالطعام بيد وتفرضوا عليهم الكتاب المقدس باليد الأخرى؟

فمثل هذا النص "المقدس" المختلَف عليه وحوله بهذا الشكل، والذى فرضه مجمع الفاتيكان الأول عام ١٨٦٩ على أن "الله هو مؤلفه"، ثم فى مجمع الفاتيكان الثانى عام ١٩٦٥ حكمت عليه أغلبية مكونة من ٢٣٤٤ كنسيا ضد ٦، ورأَوْا "أن هذه الكتب، وإن كانت تتضمن الناقص والبالى، فهى رغم ذلك تُعَدّ شهادات لعلم تربوى حقيقى"؟ إن مثل هذا النص يتطلب شيئا من "التواضع" من جانب من يمثلونه ومن جانب من يتّبعونه، وليس فَرْضَه على العالم بأى وسيلة وبأى ثمن. ويبقى سؤال يفرض نفسه فيما يتعلق بعملية التنصير، وهو "الدور الأساسى للكنيسة" كما لا تكفون عن ترديده: ترى ما هو مصير اليهود الذين منحتموهم أرضًا ليست من حقهم يقينًا بينما يعانى الشعب الفلسطينى من عملية قتل عرقى مكتومة الأصداء على مرأى ومسمع من العالم أجمع؟ ترى هل ستقومون بتنصير اليهود أيضًا أم أنهم مُعْفَوْنَ من الخلاص؟

مع التعبير عن شكرى للقراءة أرجو أن تتقبل أيها الأب المبجل تحياتى وأمنياتى بأن تتمكن من إقامة العدل الحقيقى والسلام الحقيقى والفرحة الحقيقية بعدالة تليق بمقام يسوع النبى والرسول، وتليق بالمكانة التى تحتلونها".

والآن إذا أردنا المقارنة بين الفتوح الإسلامية والغزوات الاستعمارية لاحظنا أن الإسلام لا يقول بأفضلية العرب على غير العرب، كما يظن الألمان أو الإنجليز أنهم أرقى بطبيعتهم من سواهم، بل الكل فى الإسلام سواء لأنهم جميعا لآدم، وآدم من تراب، وكلهم عباد الله ومن خَلْق الله لا يتفاضلون بجنس أو عرق أو نسب أو طبقة أو مال أو لون بل بالتقوى والعمل الصالح. على أن نفهم التقوى والعمل الصالح كما ينبغى أن يفهما فى الإسلام، وهما مراعاة المسلم لربه فى نفسه وأسرته وجيرانه ومجتمعه وأمته والإنسانية كلها وحبه للنظام والنظافة والعمل والإتقان واجتهاده فى السعى على

المعاش وتعاونه مع الآخرين ومساعدته المحتاجين، واعتزازه بكرامته ونفوره من الاستبداد والطغيان ومد اليد للسؤال... إلخ. فليست التقوى إذن تمتمة وكثرة صلاة وصيام فقط، بل الصلاة والصيام مجرد جزء منها لا يغطيها كلها ولا جزءا كبيرا منها بل جزءا محدودا ليس إلا.

والفتوح الإسلامية هى فتوح من أجل الدعوة إلى التوحيد ونبذ الأوثان وترك عبادة البشر والظواهر الطبيعية، والدعوة كذلك إلى العدالة والقيم العظيمة التى ذكرنا بعضا منها فى الفقرة السابقة وتحرير البشر من عبادة الأصنام والخوف من الكهان ومن جهلهم وبضاعتهم الزائفة وإنصاف النساء وإبراز أنهن مخلوقات من النفس التى خُلِق منها الرجال ذاتهم وأنه لا يحق للرجال أن يظلموهن أو يأكلوا حقوقهن أو يهملوهن، بل على كل أب أن يهتم بتربية ابنته مثلما يهتم بتربية ابنه، وعلى كل زوج أن يحترم زوجته وأن يصبر عليها ويتحمل عيوبها بقدر الإمكان واضعا فى ذهنه أنها تحمل كل ولد من أولاده تسعة أشهر فى بطنها متحملة الآلام والمتاعب أثناء الحمل والرضاعة والتربية الأولى. كما أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، مع التنبه إلى أن العلم فى الإسلام غير مقصور على العلوم الدينية وحدها بل يشمل كل ألوان المعارف من طبيعية ورياضية ولغوية وأدبية وسائر العلوم التجريبية والإنسانية.

وكان المسلمون يكتفون عند فتحهم البلاد بأخذ الجزية ممن لا يريد الدخول فى الإسلام ولم يكونوا يعملون على استنزاف ثروات البلاد التى يفتحونها وإبقاء أصحابها فى حمأة الجهل كى يسهل السيطرة عليهم. ويقابل الجزية عند المسلمين الزكاة والصدقات والخدمة فى الجيش مما لا يلزم غيرهم. والإسلام لا يعرف نظرية "المجال الحيوى" واستئثار المسلمين بخيرات البلاد التى يفتحونها، بل الكل أمام رزق الله

سواء. كذلك لم يعرف المسلمون إكراه الأمم المفتوحة على ترك أديانهم ومعتقداتهم والدخول فى الإسلام قسرا. وقد رأينا النبى لدن وصوله بعد الهجرة إلى يثرب يقبل اليهود فى حضن الدولة الجديدة ويسويهم فى الحقوق والواجبات بالمسلمين سواء بسواء ولم يوجب عليهم ترك يهوديتهم، وإن كان قد دعاهم إلى الإسلام شأنهم شأن أية جماعة أخرى لكن دون إجبار على اعتناقه. وهو ما جرى عليه فى تعامله مع نصارى اليمن وغيرهم. وحين فتح مكة لم يفرض على المكيين اعتناق الإسلام بل تركهم لحريتهم، وانتهى أمرهم إلى قبول دينه من تلقائهم بعدما تبين لهم انحطاط الوثنية التى كانوا يتمسكون بها تمسك البخيل اللَّحِز بأمواله.

فالإسلام لا يعرف قسر الآخرين على اعتناقه ولا يحدد فترة يضع فى خطته أن يؤسلم البشر فى الأرض خلالها كما تخطط الكنيسة لتنصير العالم كله رغم أن الإسلام دين عالمى بينما النصرانية دين قبلى خاص ببنى إسرائيل وحدهم. وهنا المفارقة العجيبة. وهذا الموقف الإسلامى يرتكز على أن الله خلق البشر مختلفين فى كل شىء بما فى ذلك الدين: "ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم"، وأن الإيمان والكفر قراران شخصيان يتخذهما الفرد بملء حريته: "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" وأن الهداية والإضلال هما بيد الله سبحانه بمعنى أنه أقام كونه على نظام محدد وقوانين معروفة ينتج عنها الإيمان والكفر على النحو الذى نشاهده فى الدنيا: "من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم"، "ولو شاء ربك لهدى الناس جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"، وأن النبى ذاته ليس من حقه إجبار أحد على الإسلام، فما هو إلا نذير يبلغ الناس دعوته لكنه لم يُمْنَح السيطرة على ضمائرهم ولا

جعله الله حفيظا أو وكيلا عليهم: "لستَ عليهم بمسيطر"، "وما أنت عليهم بوكيل"، "وما أنت عليهم بحفيظ".

ولم نر المسلمين فى أية بقعة دخلوها حاولوا البتة استئصال السكان كما فعل الأوربيون فى أمريكا وأستراليا ونيوزيلندا حيث قَضَوْا على السكان الأصليين بعشرات الملايين، ولا حاولوا تهجير أى شعب من أرضه كما كان الألمان يخططون فى دول شرق أوربا وكما صنع الأوربيون فى فلسطين حين فرغوا أجزاء كبيرة منها بكل الطرق الإجرامية ليحل فيها اليهود المستجلَبون من كل بقاع العالم، ويعملون الآن على امتلاخ الباقى من فلسطين العربية الإسلامية وتوسيع حدود الدولة الصهيونية المختلقة لتكون من النيل إلى الفرات. ولم يكن المسلمون يعاملون شعوب البلاد المفتوحة على أنهم عبيد لهم بل على أنهم إخوة تربطهم بهم وشيجة الدين، وإلا فوشيجة الإنسانية.

وإذا كان الرصافى قد أفاض القول فى الحديث عن السبايا وملك اليمين فلِمَ لَمْ يقارن بين هذا الوضع وبين ما يحدث عندما تدخل الجيوش الأخرى بلدا ما من انتشار الاغتصاب والزنا والبغاء واللقطاء مما لا تعرفه الفتوح الإسلامية؟ هنا يظهر الفرق ويتضح ما يحاول الرصافى إخفاءه. ولماذا سكت عن تجارة الرقيق التى قام بها الإنجليز حين كانوا يُغِيرون على البلاد الأفريقية لخطف البشر وشحنهم كالحيوانات بالملايين إلى أمريكا بعد اكتشافها للعمل عبيدا لا قيمة لهم هناك دون أى اهتمام بموتهم أو حياتهم، إذ كان من يموت منهم أثناء الرحلة المشؤومة من بلادهم إلى أمريكا، وكانت أعداد الموتى حينئذ بالآلاف المؤلفة، يقذفون به إلى قاع البحر والمحيط دون أن تختلج فيهم عاطفة بشرية أو حيوانية. كما كانوا يتعاملون معم بالسياط أو بالقتل لا يعرفون لغة أخرى غيرها فى التفاهم حسبما نعرف جميعا؟ أما فى الإسلام فأكتفى فى هذا السياق بما

أكده الرسول من أن الرقيق هم إخواننا، ومن ثم ينبغى أن نُطْعِمهم مما نَطْعَم ونُلْبِسهم مما نَلْبَس، وأنه لدن موته عليه الصلاة والسلام أوصى بالنساء والرقيق خيرا، وأنه اهتبل كل فرصة لتحرير الرقيق كما هو الحال عند إيذائهم وعند حنث اليمين وعند رغبة الرجوع فى الظهار مثلا. ومن أقواله الشامخة فى هذا السبيل، وكل ما يقوله صلى الله عليه وسلم رائع وشامخ: "من كانت له جارية فأحسن أدبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران اثنان".

كذلك لا يعرف المسلمون هدم المدن وإحراقها ونشر الخراب فى أى بلد دخلوه ولا الفتك بجميع سكانه كما يأمر العهد القديم اليهود بذلك وكما رأينا النصارى يصنعونه فى بيت المقدس أيام الحروب الصليبية مثلا وكما صنع الفرنسيون فى حملتهم على مصر، وكما فعلوا عند احتلالهم للجزائر إذ قضوا على مليون على الأقل من أهاليها بكل إجرام وبرود ووحشية، وكما كان الألمان ينوون فعله فى البلاد التى خططوا لضمها إلى بلادهم واحتجان خيراتها لهم. كذلك لم يعرف الإسلام نشر الرذائل فى البلاد التى يفتحها أتباعه كما صنع الإنجليز حين تسللوا إلى الصين متاجرين قبل عدة قرون، إذ نشروا بينهم الأفيون ودمروا حياتهم واجتنَوْا ثروات هائلة حراما لا تعد ولا تحصى من وراء هذه السلعة الشيطانية البشعة التى فرضوها عليهم فرضا وأَغْرَوْهم بها إغراءً، فصار الصينيون متبلدين كسالى بل فى حكم الأموات لا يمكنهم أن يعملوا فضلا، عن أن يَتَحَدَّوُا العوائقَ والعقباتِ التى تقف فى طريقهم.

رأى معروف الرصافى فى القرآن

فى الكتاب الذى بين أيدينا فصل خاص بالقرآن، وهذا الفصل يبدأ بتعريف الرصافى للقرآن بأنه "اسم لكتاب أنزله الله على محمد بواسطة جبريل، وهو فى الأصل مصدر لـ"قرأت" كـ"القراءة"، فسمى الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر. وهذا أصح ما قيل فى وجه تسمية كتاب الله بـ"القرآن"..." (ص٥٥١). وهذا كلام جميل لا مُشَاحَّة فيه إلا من حيث اللغة لمن يريد المجادلة فى أصل اشتقاق اللفظ فيرى أنه مشتق من "ق ر ن"، وإن كنت أرى مع المؤلف أنه مشتق من "ق ر أ" لا من "ق ر ن". لكن الرصافى سرعان ما ينقلب على وجهه قائلا فى ذات الصفحة إن محمدا أيام خلوته فى غار حراء كان يقلّب الفكر فى الصورة الأسلوبية التى ينبغى أن يصوغ فيها القرآن وهل ينبغى أن يكون نثرا أو شعرا، فقر قراره على الوضع الأسلوبى الذى عليه القرآن مما لم يكن للعرب به عهد، فلا هو من الشعر المنظوم ولا من النثر المسجوع، إذ جعله جملا تنتهى بفواصل سواء انتهى معنى الكلام مع الفاصلة أو امتد بعدها. وواضح أن هذا الكلام يصادم ما قاله فى أول الفصل من أن القرآن هو كلام الله ونزل على محمد من خلال جبريل. وهو ما يعنى أن فكر الرصافى متبلبل: فهو يغازل القارئ المسلم فى بداية الكلام ثم يباغته بحقيقة رأيه فى موضوع القرآن متوقعا أن يبتلع القارئ المسكين الطعم. ولكن لا، فالتناقض صارخ، والرأى الأخير هو الرأى الذى يتسق مع اتجاه الكتاب كله.

فالرصافى يرى أن القرآن صناعة محمدية أخذت وقتا حتى استقر محمد على القالب الأسلوبى الذى صبه فيه. وحين ناقش مسألة معرفة محمد الشعر قال: "وسواء كان محمد يحسن قرض الشعر أم لا يحسنه..." بما يعنى أنه لا يؤمن بما جاء فى القرآن من

أن الله لم يعلمه الشعر ولا ينبغى له أن ينظم الشعر. وهذا طبيعى من الرصافى، فهو يرى أن محمدا داهية كبير وأن كل شىء فى القرآن والإسلام إنما هو من تخطيطه وتأليفه، وليس ثمة شىء نزل عليه من السماء. وقد كرر هذا مرارا وبطرق مختلفة. ومن رأيه أيضا أن محمدا بذكائه ودهائه لم ينظم قرآنه شعرا لأنه يعلم أنه إذا ما جعله شعرا منظوما فلن يكون حينئذ إلا كأحد الشعراء الذين يفوقون الحصر فى عصره ولن يكون له التأثير اللازم فى النفوس مثلما لم يكن لأشعار زيد بن عمرو بن نفيل وأمية ابن أبى الصلت.

وغريب أن يقول الرصافى ما قال، فإن القرآن رغم ذلك كله قد اتُّهِم بأنه شِعْرٌ مرة، وبأنه كهانة أخرى، وبأنه ثمرة الجنون مرة ثالثة، ولم يؤمن به العرب إلا بعد اللَّتَيَّا والَّتِى، وكان إيمانهم فى نهاية المطاف بسبب استبسال النبى فى تبليغه وتحمله الأذى وصبره على المكاره والسخرية والتهكم والتآمر على حياته ومطاردة أتباعه على الدوام، وإبدائه هو وإعادته فى عرض مبادئ دعوته وقِيَمها دون كلل أو ملل. فما رأى الرصافى فى هذا؟ وهو نفسه قال إن العرب لم تقبل على الإسلام إقبالا واسعا إلا بعد انتصاره. وهو ما يضرب ما قاله عن أسلوب القرآن فى الصميم. أما تَرْكُه بابَ شاعرية النبى مفتوحا بما من شأنه التشكيك فيما قاله القرآن مرارا فى هذا الموضوع من أن الله سبحانه لم يعلِّم رسوله الشعر ولا ينبغى له أن ينظمه فهو حيلة متهافتة، إذ لو كان النبى شاعرا فأين شعره قبل الدعوة أو بعدها؟ ومن قال إن الشعر ليس له تأثير على العرب؟ ترى لم كان الممدوحون يسارعون إلى إعطاء الشاعر ما وفد عليهم ومدحهم من أجله؟ ولم يا ترى كان العرب يطيرون إلى القتال طيرانا متى استفزهم شاعر إلى ذلك؟ ولم كذلك أحجم كثير من العرب عن الإيمان بدعوة محمد بسبب ما نظمه فى هجائه هذا الشاعر أو ذاك؟ ألا إنه الشعر. ثم كيف عرف محمد أنه لو دعاهم إلى دينه شعرا أنهم لا يستجيبون

بينما يستجيبون إذا صاغ دعوته على النمط القرآنى الذى بين أيدينا؟ أين الدليل يا شاعرنا المتبلبل المتهافت؟ إن هذا الأمر يستلزم أن يكون محمد قد جرب هذا الأسلوب معهم من قبل فنجح فيه، وهو ما لم يحدث البتة. إن محمدا لم يكن شاعرا، وهذا هو فصل الخطاب. كما أن الشعر نتاج شخصى، أى يقوله الشاعر من لدنه، ولا ينزل عليه من السماء.

كذلك فإن السبب فى عدم معاداة العرب لزيد بن عمرو بن نفيل وأمية هو أنهما لم يصطدما بهم ولا طلبا منهم تغيير نمط حياتهم وقَلْب أوضاعها رأسا على عقب كما طالبهم القرآن ولا قالا بأن العرب هم كغير العرب وأن الأسود كالأبيض وأن العبيد هم كالسادة مجرد عباد من عباد الله ولا فضل لأى من الفريق على الآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح ولاناديا بتحريم القِمَار والربا والزنا والخمر والعصبية القبلية ولا حثاهم على النظام والطهارة واستعمال العقل والسعى فى طلب العلم ولا نبهاهم إلى وجوب معاملة النساء بالحسنى لأنهن مخلوقات من ذات النفس التى خُلِق منها الرجال، فهن شقائقهم ولا أفهماهم أنهم سوف يفتحون العالم... إلى آخر ما جاء به محمد من قيم ومبادئ ونبوءات. الواقع أن كل ما قالاه لا يعدو أن يكون تأملات فى السماء والأرض وعبرة الحياة، وليس فيه جهاد للنفس وكفاح للشهوات والعصبيات والخرافات التى تلبست بالذهن العربى آنذاك.

سيقول البعض: ولكن القرشيين اتهموا الرسول بالشعر، وهذا معناه أنه شاعر. والجواب أن هذا الكلام هو جزء من الحرب الدعائية لتحطيم معنويات الرسول وفض الناس من حوله. والدليل على ذلك أنهم لم يثبتوا على تلك التهمة بل كانوا يقولونها مرة، ويقولون إنه كاهن مرة أخرى، ويقولون إنه مجنون مرة ثالثة. وهم فى اتهامهم له بأنه

شاعر هو، كاتهامهم إياه بأنه كاهن ومجنون، كلام فارغ، إذ لا توجد فيه عليه السلام أية صفة من صفات الكاهن ولا المجنون: فالكاهن كان يُؤْتَى ولا يَأْتِي هو الناس، وكان يأخذ أجرا على كهانته، وكان يتكهن فى معابد الأوثان ويعبد تلك الأوثان كسائر قومه، وكان يزعم الاتصال بالجن ومعرفة الغيب، وكان يقول كلاما غامضا يحتمل أكثر من تفسير تشبُّهًا بالثعلب حين يصنع جحرا، إذ يجعل له مسارب وأبوابا عدة حتى لا يستطيع أحد أن يمسك به. فقد كانوا يصبون كلامهم فى أسلوب غامض يمكنهم عند الفشل أن يقولوا إنهم لم يكونوا يقصدون به هذا بل شيئا آخر. كما لم نسمع بأن أحدا من العرب تهكم على كاهن أو شتمه أو طارده فى الشوارع أو وضع الأوساخ أو الأشواك مثلا أمام بيته أو خنقه أو أعد خطة لقتله كما فعلوا مع محمد عليه السلام. ثم لو كان محمد كاهنا يدعى الاتصال بالجن فكيف نفسر حملة القرآن على الجن والشياطين والذين يزعمون الاتصال بالجن والشياطين؟

وبالمثل لم يكن محمد مجنونا. وهل يقول المجنون كلاما كالقرآن فيه توحيد الله والحملة على الأوثان والدعوة إلى الأخلاق الكريمة والحث على رحمة اليتيم والتذكير بالحكم النبيلة والتحذير من مَغَبَّة تطفيف الكيل والموازين وأكل الربا ولعب الميسر؟ ثم لو كان مجنونا فكيف سكتوا عنه قبلا أربعين عاما ثم ما إن شرع يغاديهم ويماسيهم بهذا الكلام البديع حتى تذكروا فجأة أنه مجنون؟ وما علامة الجنون يا ترى؟ هل يمسك بالحجارة ويقذفهم بها دون سبب؟ هل يخلع ثيابه فى الطريق العام؟ هل يقول كلاما مفككا غير مترابط كما يفعل المجانين؟ هل يمشى فى ثياب قذرة ممزقة، وشعره هائش أو متلبد، ولم يعرف جسده الماء لشهور وربما لسنوات؟ هل عيناه زائغتان، ونظراته مشتتة

هنا وهناك؟ وأخيرا لا آخرا أفلو كان مجنونا أكان أهله يتركونه فى الشارع ولا يحبسوه ويقيدوه حتى لا يجلب عليهم العار والشنار ويجعل سمعتهم مضغة فى الأفواه؟

وعلى كل حال فالعرب لم يكونوا من الجهل والغباء بحيث يظنون ولو للحظة واحدة أن القرآن يشبه شعر امرئ القيس أو عنترة أو طرفة أو زهير أو سفيان بن الحارث. ولو كانوا يقصدون هذا لكانوا قد واجهوه بالشعر الذى يقوله ويجرى على أوزانهم وقوافيهم. لكنهم لم يفعلوا، وما كانوا ليفعلوا لأنه لم يكن شاعرا. كما أنه لو كان شاعرا حسبما يزعمون فلم يا ترى يتعرضون له بالأذى ويسخرون منه ويتهكمون؟ هل سمع أحد بأن العرب كانت تفعل ذلك مع الشعراء فى هذا العصر أو فى أى عصر آخر؟ بل إنهم لم يضطهدوا مثلا أمية بن أبى الصلت نفسه، وشعره يدور حول مظاهر قدرة الله وبعض ما عند أهل الأديان السابقة، ولم يكن شعرا اعتياديا؟

إن محمدا لم يكن شاعرا ولا خطيبا، وليس له شعر على الإطلاق لا قبل الإسلام ولا بعده، أما الخُطَب فلا نعرف له شيئا منها قبل البعثة، وأما بعدها فله خطب وأحاديث كثيرة. ومع هذا فإن أسلوبه فى الخطابة والأحاديث يختلف عن أسلوب القرآن تمام الاختلاف. ولسوف نرى هذا بعد قليل. وليست المسألة ذكاء ودهاء منه صلى الله عليه وسلم بل مسألة اصطفاء إلهى له ليكون رسولا إلى البشر طُرًّا. إن كل الدلائل تقول بأعلى صوت وأقوى برهان بأن القرآن ليس من تأليف محمد كما يزعم الرصافى وغيره بل هو وحى من الله سبحانه.

وأول فرق بين القرآن وكلام النبى هو أن كلام النبى يعكس عقليته ومشاعره ومواقفه بخلاف القرآن فإنه لا يعكس شيئا من ذلك بتاتا. فعلى سبيل المثال سُمِّىَ العام الذى ماتت فيه خديجة وأبو طالب: عام الحزن. وفى غزوة بدر سمعناه يبتهل ويتضرع

فى حرارة لاهبة إلى ربه أن ينصر الإسلام وأهله وألا يكتب عليهم الخذلان والهزيمة، وإلا فلن يُعْبَد سبحانه فى الأرض بعد اليوم إذا هلك المسلمون. وحين قُتِل عمه حمزة فى أحد وتم التمثيل بجسده الشريف حَزِن عليه السلام حزنا بالغا، وكان يوما يعلم الله به. وعندما تزوج عائشة تحدث عن الرؤيا التى رآها فيها وهى فى سَرَقَةٍ من حرير. وحينما تنشز قبيلة على عهد قطعته على نفسها تجاه الرسول والمسلمين كان يدعو عليها. ويوم أرادت عائشة أن تقلل من شأن خديجة بعد وفاتها ورؤيتها له صلى الله عليه وسلم يبرّ أحبابها جاء رده عليها ردا شديدا ملجما مما جعلها تحذر أن تفتح هذا الموضوع مرة أخرى. وحين مات ابنه إبراهيم بكى وتألم ألما شديدا وقال وهو يتوجع: إن القلب ليفجع، وإن العين لتدمع، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون.

ولكن تَعَالَوْا نبحث فى القرآن، فلن نجد شيئا من هذا مثلما لن نجد فخرا بالانتصار المؤزَّر العجيب على قريش فى بدر ولا قعقعة الفرح لدن فتح مكة. نعم بكل تأكيد لن نجد فى القرآن أحزانا ولا أفراحا فى أية مناسبة ولا فخرا ولا انتشاء بل صوت الله القدير ذى المشيئة الشاملة والنعم الكاملة والمتصرف فى الكون كله، فما من شىء فى الدنيا إلا ومقاليده فى يده جل جلاله. إن القرآن يعكس الجبروت والكبرياء من جهة، وكذلك الرحمة الإلهية من جهة أخرى. ويتميز أسلوبه بالجلال، فمتى ما دخلتَ القرآن شعرتَ للتو أنك فى حضرة عظيمة لا ضعف فيها ولا تضعضع ولا تردد ولا خوف ولا قلق ولا حزن ولا فرح، حضرة أعلى من كل شىء فى الكون. وحين يُسْأَل النبىُّ عن الغيب فى مسألة ما فإنه يجيب بأنه مجرد عبد لله ورسول من رسله، وأن الله وحده هو من يعلم الغيب. بل إن القرآن ليحوى نصوصا تعاتب النبى وتشتد فى محاسبته على

أشياء تبدو لنا غير ذات قيمة، لكنها عند الله هامة أشد الأهمية لأن محمدا رسول، ومن ثم كانت السيئة بالنسبة له حسنة عند المقربين.

ومعروف أن القرآن يستعمل فى كثير من الأحيان ضمير الجمع فى كلام المولى سبحانه عن نفسه. فلو كان القرآن من تأليف محمد وكان محمد يؤمن بوحدة الوجود كما يزعم الرصافى فكيف لم يفلت لسان محمد ولو مرة فيستعمل هذا الضمير لنفسه فى الأحاديث والخطب، وبخاصة فى المدينة من باب استعمال الحكام وكبار رجال الدولة هذا الضمير لأنفسهم؟ وكذلك لو كان القرآن من تأليف محمد فكيف لم يَسْهُ محمد ولو مرة يتيمة فيتكلم عن نفسه فى أحاديثه وخطبه على أنه هو الله مثلما فعل الحلاج وغير الحلاج من أَفَّاقى الصوفية زاعمين أنهم قد فَنُوا عن أنفسهم فى الذات الإلهية، فيقول الواحد منهم مثلا: "سبحانى سبحانى! ما أعظم شانى!" أو "ما فى الجبة إلا الله"... وهكذا. ولكنهم حين يقدَّمون للعقاب يفيقون فى الحال ويَنْسَوْن ما كانوا يهرفون به من المزاعم الكاذبة الإلحادية فيسترحمون ويستعطفون ويتذللون؟ إن الإنسان إذا ما تعود على استعمال لفظ أو عبارة أو تركيب أو صيغة أو بنية لغوية أو صورة بلاغية فإنه لا يملك لسانه فى كثير من الأحيان عن ترديد ذلك حتى لو كان بعيدا عن السياق الصحيح له مما يسمى فى علم النفس بـ"فلتات اللسان" و"الارتباط الشرطى". لكننا لو فَلَّيْنا كلام الرسول عليه السلام تفليةً لما وجدنا شيئا من ذلك على الإطلاق. وهذا يدل على أنه ليس صاحب القرآن أبدا بل هو مجرد مبلغ له، إذ لا يعقل أن يحافظ على توازنه التعبيرى والنفسى والعقلى طوال ثلاثة وعشرين عاما فلا ينزلق لسانه فى كلامه الشخصى إلى شىء مما هو منسوب إلى الله فى القرآن، بل هو دائما أبدا العبد الخاضع لربه

العانى له الراجى رحمته الخاشى غضبه المتوقِّى سَخَطَه المبتهل إليه الداعى إياه الآمل منه الرزقَ والعافيةَ والنصرَ والأمانَ والسكينةَ.

وثم النبوءات الصادقة التى ذكرها القرآن سواء ما تحقق منها فى حياة الرسول عليه السلام أو ما وقع بعد مماته، وهذه لا يمكن أن يتنبأها بشر. ومن ذلك نبوءته قبل الهجرة بفوز الروم على الفرس فى بضع سنين بعد هزيمتهم على أيدى الفرس، ونبوءته بانتصار الإسلام على الدين كله منذ السنوات الأولى للدعوة إلى آخر حياة الرسول رغم ما كان أعداؤه يحشدونه من قوات بشرية وعتاد وينفقونه من أموال ويتحزبون عليه ويتعاونون ضده ويضيقون عليه الخناق والحصار ويعملون كل ما فى مستطاعهم لتشويهه وإفقاد الناس الثقة فيه. ومن ذلك أيضا نبوءته بعصمة الله لرسوله من الناس فلا يقدر أحد منهم على قتله، ونبوءته بأنه سيدخل ومعه المسلمون المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ومقصرين دون أى خوف، وقد وقع ذلك فى العام التالى بعد الحديبية كما نبأهم القرآن بالحرف. وهناك النبوءة التى أخبر بها النبى أصحابه من لدن رب العزة بأنهم سوف يفتحون القسطنطينية، وقد فتحوها بعد هذا بأزمان. ومنها وصفه للمسلمين بأنهم سيأتى عليهم يوم يكونون فيه غثاء كغثاء السيل رغم كثرة عددهم فلا يقيم لهم أعداؤهم وزنا ولا يعرفون لهم قيمة وينظرون إليهم بكل احتقار وتكبر بسبب تركهم الجهاد واستسلامهم لحب الدنيا وحرصهم عليها ونسيانهم الآخرة. وقد تحقق هذا ونراه بأم أعيننا طوال القرون الأخيرة. وثم نبوءته بإخبار من ربه بأن هناك معركة ستكون بين المسلمين واليهود بعد أزمان طوال، وهو ما حدث بعد أربعة عشر قرنا، وما زلنا فى أتونها حتى الآن... إلخ. فهذا كله يبرهن برهنة ساطعة على أن القرآن هو كلام الله وأن محمدا هو رسول الله.

ومن الناحية الأسلوبية تنقسم كل سورة قرآنية إلى آيات. والآية عبارة عن جزء صغير من الكلام قد يكون جملة أو جزءا من جملة، وقد يكون عدة جمل. ويكثر مجيء الآيات أجزاء من الجُمَل فى قصار السور المكية: "وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ"، "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ"، "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيسِّرُهُ لِلْيسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيسِّرُهُ لِلْعُسْرَى". أما النوع الثالث المكون من عدة جمل فمثاله الآية التالية من سورة "البقرة": "يا أَيهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَاينْتُمْ بِدَينٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيكْتُبْ بَينَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيكْتُبْ وَلْيمْلِلِ الَّذِى عَلَيهِ الْحَقُّ وَلْيتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يبْخَسْ مِنْهُ شَيئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يسْتَطِيعُ أَنْ يمِلَّ هُوَ فَلْيمْلِلْ وَلِيهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَينِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يكُونَا رَجُلَينِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَينَكُمْ فَلَيسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايعْتُمْ وَلَا يضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شىء عَلِيمٌ". أما النوع الأول فهو كثير يلقاه القارئ فى كل مكان من القرآن.

ومعروف أن القرآن حريص على إنهاء كل آية من آياته تقريبا بفاصلة، وهذه الفاصلة تجعل للكلام طعما شامخا عجيبا. وقد حاول مؤلفو الإنجيل المسجوع مضاهاة

الفواصل القرآنية، بيد أنهم قد أفسدوا الأمر أيما إفساد، وجاء كلامهم سمجا مثلهم. ولو كان محمد قرأ كتب اليهود والنصارى لسار على خطواتهم، لكن الأمر انقلب، فرأينا النصارى فى الآونة الأخيرة يقلدون القرآن ويصوغون جمله وفقراته بحيث تنتهى بسجعة ظنا منهم أنهم بذلك يضفون عليه شيئا من الجلال ويخدعون به عوام المسلمين، وهو ما يضرب زعم الرصافى فى أنه صلى الله عليه وسلم كان مطلعا على الكتاب المقدس وتأثر به. والفواصل القرآنية تعمل فى العادة على التذكير بالله وصفاته وبالمبادئ القويمة والأخلاق الجميلة وما إلى هذا. وبعضها يتكرر بنصه من سورة إلى سورة، أو بصيغة قريبة. وقد تكون السورة كلها مسجوعة على روى واحد، وهذا فى السور القصيرة. وقد تكون متنوعة السجعات. وقد تكون كلها مسجوعة على حرف واحد مع الخروج على هذا الحرف فى فاصلة واحدة أو فاصلتين أو عدة فواصل قليلة. ومع هذا فكثيرا ما تكون تلك الفواصل على روى مقارب فى مخرج الكلام للحرف الذى يدور عليه سجع سائر السورة. وهذا كله لا تعرفه الأحاديث والخطب النبوية.

ومما يميز الأسلوب القرآنى أيضا أن كل سورة من سوره تبدأ بالبسملة. وهذا أمر ينفرد به القرآن، ولا نجد مثيلا له فى التوراة أو الأناجيل ولا فى أحاديث النبى وخطبه الشريفة، وإن كنا فى الفترة الأخيرة قد رأينا نسخة من العهد الجديد يبدأ كل باب منها بالبسملة على غرار القرآن، ويستعين مؤلفو هذا الإنجيل بعبارات القرآن وتراكيبه وصوره عَلَّهُمْ يروّجونه بين غوغاء المسلمين وجهلائهم.

وهناك طائفة من السور المكية تبدأ ببعض حروف الألفباء مما يسمونه: "الحروف المقطَّعة". وهو شىء لا نقابله أبدا فى الأحاديث والخطب المحمدية بل ولا فى خطب الجاهليين وأقاصيصهم. وقد أريقت فى محاولة تفسير معناها أحبار كثيرة، وشهدت

الدراسات القرآنية نظريات متعددة لهذا التفسير، وأتى المستشرقون فى ذلك بالعجب العجاب: فمن قائل إنها علامات موسيقية مع أنه لا يوجد فى أية رواية أو نص شعرى أو نثرى فى الجاهلية أو فى الإسلام ما يفيد أن العرب عرفوا الرموز الموسيقية. ثم لماذا يتكرر الرمز الواحد بنصه فى مفتتح أكثر من سورة رغم اختلاف بعضها عن بعض؟ وهل كان المسلمون يلحّنون القرآن؟ فمَنْ مِنَ الصحابة يا ترى كان يضع الألحان؟ ومن كان يغنى؟ وأين؟ ومتى؟ ومِنْ قائل إنها رموز لأسماء الصحابة الذين كانوا يمتلكون هذه النسخة أو تلك. لكنْ فَشِل أصحاب تلك النظرية فى التوفيق بين الرمز واسم الصحابى الذى كانوا يقترحونه، ودعك من الاعتساف الشنيع فى التوفيق بين الحرف الواحد من هذه الحروف وأسماءٍ تعد بالعشرات. وفى المسلمين من يرى أنها اختصارات لعبارات تتعلق بالله سبحانه: فـ"ألم" مثلا معناها "أنا الله المهيمن". لكن من قال إن هذا هو المعنى المراد؟ ولماذا لم يقل الوحى ذلك مباشرة؟

و"لعل" أقرب تفسيرات هذه الحروف إلى الوجاهة أنها إشارة إلى كون القرآن مؤلفا من تلك الحروف نفسها التى يعرفها كل العرب ويستعملونها فى لغتهم، ومع ذلك فإنهم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن. ويعضد هذا التفسير أن تلك الحروف متبوعة فى كل الأحوال تقريبا بـ عبارة مثل "ذلك الكتاب" بما يعنى أن ذلك الكتاب مكون من "أ ل م" مثلا. وقد كتب رشاد خليفة مدعى النبوة فى توسان بأمريكا قبل عدة عقود أن الحروف التى تبدأ بها سورة من السور هى أكثر الحروف دورانا بتلك السورة، وبنفس الترتيب التى جاءت به فى مطلع السورة. وقد زاد فزعم أن كل حرف من تلك الحروف يتكرر بين حروف السورة التى أتى بها بمضاعفات الرقم ١٩. وقد رد عليه وفَنَّدَ كلامَه بعضُ الكتاب المسلمين، وبرهنوا على أن ما يقوله لا يقوم على

أساس سليم بل على التصنع والتنطع، موضحين أنه إنما قال ذلك واعتسف التطبيق اعتسافا كى يبرز الرقم ١٩ المقدس عند البهائيين إبرازا شديدا. المهم فى ذلك كله أن أحاديث النبى وخطبه تخلو تماما من هذه السمة. فكيف لم يَزِلّ لسانُ النبى ولو مرة واحدة فيورد مثل تلك الحروف فى أول بعض أحاديثه أو خطبه لو كان هو مؤلف القرآن؟

وهناك ألفاظ ترددت كثيرا فى الحديث لارتباطها بعصر الرسول وبيئته ارتباطا شديدا ولم ترد فى القرآن. والمفروض، لو أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة مصدرهما واحد، أن تكون الألفاظ المهمة المنتشرة فى أحدهما موجودة بنفس الوفرة تقريبا فى الآخر ما دام العصر الذى ينتميان إليه واحدا، والبيئة هى نفس البيئة، والظروف الاجتماعية والمهاد العقلى والنفسى هما هما، والمخاطَبون هم هم، والغاية هى الغاية، وما دامت الموضوعات التى يعالجانها واحدة، وليس من فاصل زمنى بينهما، إذ القرآن مثلا لم يكن من نتاج فترة الشباب، بينما الأحاديث من نتاج فترة الكهولة، بل كان النصان متلازمين زمنيا يسيران جنبا إلى جنب فى الثلاث والعشرين سنة الأخيرة من حياة الرسول. لكنْ لوحظ أن كثيرا من الألفاظ الموجودة بوفرة فى الأحاديث والمرتبطة بالحياة اليومية والحياة الاجتماعية والنشاط الحربى والبيئة الطبيعية والعبادة والدين، لا وجود لها فى القرآن. ولو كان محمد عليه السلام هو مؤلف القرآن لغلبه لسانه على الأقل الذى تعوّد على ترديد هذه الألفاظ، ولشقَّتْ هذه الألفاظ طريقها بالقوة إلى النص القرآنى.

ومن ذلك أسماء ألوان كثيرة من الطعام والشراب كالأَقِط والزبد والجبن والدُّبَّاء والحَيْس والدقيق والسمن والسَّوِيق والقَدِيد والثَّرِيد والبِتْع والبُسْر والتمر والزبيب

والزَّهْو والفَضِيخ والمِزْر والنبيذ والغُبَيْرَاء. كذلك لم يذكر من وجبات الطعام فى القرآن سوى الغَدَاء، أما فى الأحاديث فقد ذكرت كل تلك الوجبات من فَطُور وغَدَاء وعَشَاء وسَحُور. ومن أوانى الطعام والشراب لا يذكر القرآن سوى الكأس، بخلاف الأحاديث، التى تقابلنا فيها الصحفة والبُرْمة والقصعة والقدح والقَعْب. وبالمثل يخلو القرآن من ألفاظ الشِّبَع والرِّى على عكس الأحاديث، التى تذكرها. وبالنسبة للملابس لا نجد فى كتاب الله سوى القميص والسرابيل والنعلين فى حين نقابل فى أحاديث الرسول الرداء مثلا والإزار والبُرْد والبُرْنُس والقميص والكساء والأطهار والشَّعار والدثار والقباطِى والقَسِّى والجبة والحُلَل والسراويل والثياب والعمائم والقلانس والخف والعباءة والمناديل والعمامة. ويتصل بالملابس مسائل الزينة والخضاب والطيب والمُشْط والمرآة والكحل والأَلُوَّة والخَلُوق والطيب والأصباغ كالوَرْس والزعفران، والطَّوْق والخُرْص والقُرْط والقلادة والمجامر، وكل ذلك متوافر فى الأحاديث وغير متوافر فى القرآن الكريم. فعادة ما يكتفى القرآن فى كل ذلك بكلمة "الزينة" و"الحُلِى".

وفى القرآن لا نرى من أسماء أيام الأسبوع سوى السبت والجمعة، بينما الأحاديث تذكر أيام الأسبوع كلها. ونفس الشىء ينطبق على شهور السنة، إذ ليس فى القرآن إلا رمضان بينما نرى فى الأحاديث الشهور جميعا. وبالنسبة للمقاييس لا يوجد فى القرآن سوى القنطار والذراع، أما فى الحديث فهناك الباع والشِّبْر والمِيل والفرسخ والقيراط. والشىء نفسه ينطبق على الموازين، فحيث نجد فى الأحاديث النشّ، وهو نصف الأوقية، والأوقية والرطل والقنطار والكِفَّة والصاع والمُدّ والعَرَق، وهو ستون صاعا، والفَرْق، وهو ستة عشر رطلا، والقدح والوَسْق والمُدْى، فإننا لا نجد شيئا من ذلك فى القرآن المجيد.

فإذا انتقلنا إلى البيئة الطبيعية لم نجد فى القرآن مثلا كلمات "البادية والفلاة والصحراء والرمال والتلال والثلج" فى الوقت الذى نجدها مذكورة فى الأحاديث الشريفة. ويتعلق بالبيئة فى بلاد العرب الخصب والجدب، وهما لفظان غير موجودين فى كتاب الله بينما هما موجودان فى حديثه صلى الله عليه وسلم. ومن الناحية الاجتماعية لا نرى فى القرآن كلمات "الحَسَب والعِرْض والشرف والغيرة والمدح والهجاء والغزل والعيادة (للمرضى) والنياحة واللطم والجنازة والدفن".

وفى مجال الحرب نرى الأحاديث تذكر الجيش والسرية والساقة واللواء والنَّبْل والمِجَنّ والسيف والرمح والسهم والنُّشَّاب والمِغْفَر والتُّرْس والدرع والبيضة بينما لم يرد من ذلك فى القرآن إلا "الرماح" فى ميدان الصيد لا الحرب وإلا "القوسين" فى مجال المسافات لا القتال. وفى المجال الدينى لا تقابلنا كلمة "نية" ولا أى من مشتقاتها فى القرآن رغم أهميتها فى ديننا لأن كل شىء فيه مبنى على النية والقصد على حين تتردد فى الحديث، ومثلها كلمة "الوضوء" و"النقاء" و"النظافة" و"المستحَمّ" و"الغَمْس" و"السواك" و"التشهد" و"الخطيب" و"الخطبة" و"التلبية" و"الأضحية" و"الأمير".

وهناك كلمات وردت فى القرآن والحديث كليهما لكن بخصوصية فى أحدهما لا توجد فى الآخر ككلمة"بأس"، التى وردت فى القرآن بمعنى "الحرب" ووردت فى الحديث بهذا المعنى أيضا، وكذلك فى عبارة "لا بأس" بمعنى "لا مانع" مثلا، وككلمة "بارَكَ"، التى لم تأت فى القرآن دعائية بل خبرية، أما فى الحديث فوردت بالمعنيين كليهما. ومما لم يرد فى القرآن وورد فى الحديث كلمة "حَقَرَ" و"اختلس" و"احتكر" و"استخار" و"غَبَطَ" و"أفلس" و"انتهك" و"هَوَّنَ" و"الحُمَّى" و"الرُّقْية" و"التميمة" و"الثناء"، وكلمة "الجُبْن" و"الخادم" و"الداء" و"الدواء" و"الرخصة" و"الشبهة" و"الرفق"

و"المسألة" و"الستر" و"الشرط" و"الصحة" و"الصنف" و"الضالَّة" و"المَظْلَمة" و"العتق" و"العرس" و"العافية" و"الغش" و"الفُحْش" و"العنف" و"المنزلة" و"الهم".

وثم كلمات تكرر مجيئها فى السنة جمعا كـ"أرضون" و"أمناء" و"بهائم" و"حقوق" و"أخلاق" و"أرزاق" و"أرواح" و"صبيان" و"صفوف" و"فِتَن" و"أقوام"، ولم ترد فى القرآن إلا مفردة: "أرض" و"أمين" و"بهيمة" و"حق" و"رزق" و"روح" و"صبى" و"صفّ" و"فتنة" و"قوم"، وكلمات أتت فى السنة مفردة مثل "بَرَكة" و"إصبع" و"ثوب" و"خُلُق" و"ظلمة" و"وثن" و"صالحة"، ولكنها لم تأت فى القرآن إلا جمعا: "بركات" و"أصابع" و"ثياب" و"ظلمات" و"أوثان" و"صالحات". كذلك تكررت فى السنة كثيرا كلمة "ابن آدم"، على حين لم يرد فى القرآن إلا "(يا) بنى آدم".

وهناك ثنائيات حديثية لا وجود لها فى القرآن المجيد كـ"أجر ووزر" و"آجل وعاجل" و"بُغْض وحُبّ" و"جِدّ وهزل" و"خزائن ومفاتيح" و"الدماء والأموال" و"دينار ودرهم" و"سؤال وعطاء" و"صَبَرَ واحتسب" و"ظَهْر وبَطْن" و"العهد والميثاق" و"غَنِم وسَلِمَ" و"وَصَل وأرحام" و"وَفَّى ووَعَد". وهناك أيضا كلمات وردت فى الحديث بمعان ليست لها فى القرآن الكريم مثل "الإمام" فى الصلاة وبمعنى الحاكم، و"حدود" بمعنى العقوبات الكبيرة المنصوص عليها فى الخمر والزنا وما إلى ذلك، و"احتسب" بمعنى أن يفعل المؤمن الشىء يبتغى به وجه ربه الكريم أو تقع به المصيبة فيصبر طمعا فى الأجر الإلهى. وفى الحديث تقابلنا كلمة "خِيَار" مرات بينما فى القرآن لا نرى سوى "أخيار"، ومثلها "شِرَار" و"أشرار"، ومثلها كلمة "رب" بمعنى "مالك" كـ"رب المال ورب الحائط ورب الغنم" مثلا. وفى القرآن نجد "سفك الدماء" بجمع "الدماء" ولا نجد "سفك دم فلان" كما فى الأحاديث النبوية. وفى القرآن "سكرة

الموت"، وليس فيه "سكرات الموت"، التى تقابلنا مرارا فى الحديث. وفى الحديث تلقانا مرارا كلمة "سنة" مضافة إلى "النبى" بينما فى القرآن لا نجد سوى "سنة الله" تصريحا أو ضمنا. ومن هذا الوادى أن "الطعن" المذكور فى القرآن هو الطعن فى الدين ولا يستعمل فى الطعن الجسدى كما استعملته الأحاديث. ومن هذا الباب أيضا أن كلمة "طَهُور" لم تستعمل فى القرآن إلا صفة أما فى الحديث فقد استعملت أيضا بمعنى ما يتطهر به الإنسان من ماء أو تراب. ومثلها كلمة "عظيم"، التى لم تستعمل قط فى القرآن إلا صفة على عكس الأحاديث، التى استعملتها أيضا اسما كـ"عظيم الروم" مثلا، بالإضافة إلى أنها لم ترد فى القرآن مجموعة، بينما تقابلنا فى الأحاديث بصيغة الجمع. وفى القرآن استعملت بضع مرات كلمة "عِبَاد" الجمع مضافة إلى ياء المتكلم ولم تضف فيه قط مفردة إلى ذلك الضمير بخلاف الأحاديث. كذلك فكلمة "قلم" لم تأت فى القرآن بمعنى الأداة التى تكتب بها أعمال العباد عند الله أو "قلم" القضاء والقدر. وفى القرآن لا يستخدم الفعل: "هَمَّ" إلا فى الشروع فى ارتكاب خطإ، أما فى الحديث فكثيرا ما استخدم فى الشروع فى ارتكاب الخير والصواب. وفى القرآن لم يرد "الوطء" بمعنى الجماع، أما فى الأحاديث فقد ورد مرارا فى هذا المعنى.

كذلك تكرر فى القرآن المجيد تعبيرات مثل "مثوى الكافرين/ المتكبرين/ الظالمين" وَصْفًا للنار، ولم ترد فى حدود انتباهى فى الأحاديث. ومثلها "فأصبحوا فى دارهم/ ديارهم جاثمين" و"يجادل فى (آيات) الله" و"جنات تجرى من تحتها الأنهار" و"إن الله يحب المقسطين/ المحسنين/ المتقين" و"إن الله لا يحب الكافرين/ الخائنين/ المعتدين" على حين تكرر فى الحديث "إن الله يحب الرفق/ الحياء والستر/ الوتر"، بينما لم يقع الفعل "(الله) يحب" على اسم معنوى. كذلك ليس فى القرآن عبارة "ذو مَحْرَم" أو

"ذوات محرم"، أما فى الحديث فموجودة. وعلى نفس الشاكلة نجد فى الأحاديث "حق الله/ حق الطريق/ حق العباد/ حق المؤمن كذا وكذا"، و"ذمة الله (وذمة رسوله)"، و"ألا/ أما تَرْضَي/ تَرْضَيْنَ/ تَرْضَوْن أن...؟"، و"رغم أنف"، و"ألا تعجبون إلي/ مِنْ"، و"مَنْ سَرَّه أن..."، و"مَسَّ طِيبًا"، و"أَلَا أُعَلِّمك...؟"، و"حديث عهد"، و"كفى بالأمر إثما أن..."، ولكننا لا نجد ذلك فى كتاب الله. ولا يعرف القرآن عبارة "لا حول ولا قوة إلا بالله" و"رحم الله فلانا/ القوم الفلانيين" و"صلة الرحم"، و"ستره الله/ ستر (الله) عليه"، و"عذاب القبر" فى حين يعرفها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفى الأحاديث تكرر الأمر بأنْ "خالِفوا القوم الفلانيين" مما لم يرد فى كتاب الله. وعلى العكس من ذلك نجد فى كتاب الله عبارات مثل "متاعا/ متعناهم إلى حين"، و"لهم خزى فى الحياة الدنيا/ لهم فى الدنيا خزى"، و"خسروا أنفسهم"، و"لا تتبعوا/ يتبع خطوات الشيطان"، و"عبادك/ عبادنا/ عباد الله المخلصين"، و"لا خوف عليهم ولا هم يحزنون"، و"ذلك أدنى أن..."، و"سحر مبين"، و"أَلَمْ تَرَ أنّ/ إلي/ كيف...؟"/ "ألا تَرَوْن...؟"/ "ولو ترى إذ..."، و"الله سريع الحساب"، و"سلطان مبين/ سلطانا مبينا"، و"مَسَّه الضُّرّ"، و"فى ضلال مبين"، و"فى طغيانهم يَعْمَهون"، وكذلك "وإلى الله تُرْجَع الأمور"/ "وإليه (إلينا/ إلى ربكم) تُرْجَعون (يُرْجَعون)"/ "ثم إلى ربكم (إلى الله/ إليه/ إلينا) مَرْجِعكم (مرجعهم)"، و"آمن وعمل صالحا/ آمنوا وعملوا الصالحات"، و"يَبْسُط الرزق لمن يشاء (من عباده) ويَقْدِر (له)"، وأيضا "وما أدراك ما...؟"، و"إن الله عليم بذات الصدور"، و"مصدِّقًا لما بين يديه/ تصديقَ الذى بين يديه"، ولا يقابلنا ذلك فى الأحاديث النبوية فى حدود انتباهى. وفى القرآن تجمع "خطوة" على "خطوات"، ولم تجمع فيه قط على "خُطًا"، أما فى الأحاديث فقد ورد

الجمع: "خُطًا". وعلى نفس الشاكلة نجد فى القرآن "هل أدلكم على...؟" و"هل أنبئكم ب...؟" بينما نجد فى الحديث "ألا أدلكم على...؟" و"ألا أخبركم ب...؟". وبنفس الأسلوب نجد فى القرآن عبارة "على سفر"، وفى الحديث الشريف "فى سفر".

وثم تراكيب غير قليلة تقابلنا فى الأحاديث النبوية الكريمة ولا تقابلنا فى القرآن الكريم، ومنها "ألا و..." كقوله عليه السلام: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. ألا وقول الزور". وهذا مجرد مثال واحد من أمثلة كثيرة. وبالمثل نجد أن القرآن لا يستخدم "أمَا" الاستفتاحية بخلاف الحديث الشريف كقوله صلى الله عليه وسلم: "أمَا إنها لا تعدو إلا إلى خيبر". ومن تلك التراكيب التى وردت فى الحديث ولم تأت فى كتاب الله "إياك و..." التحذيرية: "إياكم والغلوّ فى الدين". ومن التراكيب الواردة فى كلام النبى ولم ترد فى كتاب الله أيضا قوله صلى الله عليه وسلم وما يجرى مجراه: "أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة"، وكذلك التركيب الذى جرى عليه الحديث التالى والذى يدل على حكم شرعى: "لا سَبْق إلا فى خُفٍّ أو حافر أو نصل". ولدينا أيضا التركيب الذى جاء عليه الحديث الآتى: "أَخْوَف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط". وهو مكوَّن من أفعل تفضيل فى بداية الكلام (مبتدأ أو اسمَ "إنَّ" تليه "ما المصدرية" وبعدها الفعل "يكون" أو فعلٌ مضارع من نفس مادة أفعل التفضيل، أو المصدر الصريح منه... إلخ). ومثله تركيب الجملة التالية: "أفضل الأعمال الحب فى الله". وكذلك التركيب التالى: "ما من عبد بات على طهور... إلا...". وبناؤه كالآتى: "ما من+ اسم نكرة+ نعت (جملة فعلية فى معنى الشرط غالبا) + إلا + فعل". وبالمثل هناك التركيب الموجود فى الحديث الآتى: "بينما أنا نائم رأيت الناس"، وقد تزاد فيه "إذ" قبل الفعل: "بينما أنا على بئر إذ جاءنى أبو بكر". وأيضا هذا

التركيب المصبوب فيه الحديث التالى: "كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أَبَى". وكذلك تركيب الحديث الذى يقول: "لا يزال المؤمن مُعْنِقا صالحا ما لم يُصِبْ دَمًا حراما" والذى يتكون من جملة خبرية مشتملة فى ثناياها على "ما" المصدرية الظرفية غير المصاحبة للفعل "دام" أو "شاء". ويقترب منه تركيب الحديث التالى: "العبد آمنٌ من عذاب الله... ما استغفر الله". ومن تلك التراكيب "لا فَعَلَ" الدعائية كقوله عليه الصلاة والسلام: "لا صام من صام الأبد" و"لا أربح الله تجارتك"، و"عليك(بـ) بكذا"، بالباء، أى الزموه: "عليك بذكر الله وتلاوة القرآن". كذلك لم يأت فى القرآن تركيب "رُبّ+ مبتدأ+ خبر" على عكس الأحاديث التى تكرر استعمالها لهذا التركيب، مثل "رب مبلَّغ أَوْعَى/ أحفظ من سامع"، "رب أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأَبَرّه". كذلك تكرر فى الأحاديث تعريف بعض الصفات بغير ما هو متعارف عليه، إما بتخصيصها جدا أو بنقلها من مجالها المادى إلى المجال المعنوى الأخلاقى، مثل قوله عليه السلام: "الكيِّس من دان نفسه وعَمِل لما بعد الموت"، "ليس الشديد بالصُّرَعة. إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب". ومن تلك التراكيب أيضا أن القرآن لم ترد فيه "هَلّا" التحضيضية قط كما فى قوله عليه السلام: "هلا انتفعتم بجلدها" ولا "أَلَا" التحضيضية ومعها فعل ماض كما فى الحديث التالى وأشباهه: "أفلا جعلتَه فوق الطعام حتى يراه الناس؟". وبالمثل لم يحدث أن استُعْمِلت "لعلّ" فى القرآن ودخلت "أنْ" على خبرها كما فى الحديث التالى وأمثاله: "لعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين". ومن التراكيب الحديثية التى ليس لها نظير فى القرآن استخدام الفعل: "أوشك/ يوشك": "يوشك الأمم أن تداعى عليكم"، أما القرآن فإنه يستعمل "كاد/ يكاد". ومن تلك التراكيب الحديثية غير الموجودة فى القرآن أيضا التركيب التالى القائم

على إيراد جملة ثم تكريرها مع قلب ترتيب ما فيها من كلام، ومن ذلك: "اللّهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت" و"لا تُنْكَح الكبرى على الصغرى، ولا الصغرى على الكبرى".

ومن تلك التراكيب الحديثية التى لم ترد فى القرآن "ليَحْدُثَنّ كذا أو ليقعنّ كيت": "لينتهُنّ عن ذلك أو لتُخْطَفَنّ أبصارهم". وهذا التركيب (كما هو واضح) يدل على أنه إن لم يحدث كذا فلسوف يقع كذا. أما فى القرآن فيجرى التركيب على النحو التالى: "لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا". وعند ترديد النظر بين شواهد القرآن وشواهد الحديث نجد أنه على حين أن المهدَّد به فى الشواهد الحديثية التى عثرت عليها يُذْكَر فى آخر الكلام فإنه فى القرآن يُذْكَر أوّلا باطراد. ومن التراكيب الحديثية ما يلى: "لولا أنها أُطْفِئَتْ بالماء مرتين ما انتفعتم" حيث إن المبتدأ فى جملة شرط "لولا" فى القرآن إذا كان مصدرا مؤوّلا جاء هذا المصدر دائما مكونا من "أنْ" المخفّفة من الثقيلة وبعدها فعل ماضٍ مثل "وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا"، اللّهم إلا فى حالة واحدة جاء فيها الفعل مضارعا وهى "وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ". ولم يأت هذا المصدر قط مكونا من "أنَّ" المشددة واسمها وخبرها على عكس ما وجدته من شواهد غير قليلة فى الأحاديث النبوية، ومنها الحديث المار ذكره.

كذلك فى الحديث نجد أن ما بعد "ولو" فى قوله صلى الله عليه وسلم: "تصدَّقوا ولو بشِقّ تمرة" يمثل الحد الأدنى على عكس قوله تعالى: "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروجٍ مشيَّدة" حيث يمثل ما بعد "ولو" الحد الأعلى. وهناك أمثلة أخرى على هذا الفرق. كذلك ثم أحاديث نبوية شريفة تستخدم "وإِنْ" بمعنى "ولو"، وهو ما

لا وجود له فى القرآن، مثل قوله عليه السلام مثلا: "والله إنى رسول الله وإِنْ كذبتمونى". وفى التركيبين التاليين نجد أن الفرق بين التركيب القرآنى والتركيب الحديثى يتلخص فى أن الأخير يبدأ بلام الابتداء بينما يعرى عنها التركيب الأول: "وأَنْ تصوموا خيرٌ لكم"، و"لَأَنْ يؤدب الرجل ولده خيرٌ له من أن يتصدق بنصف صاع".

ومن سمات الأسلوب القرآنى أيضا التى لا تعرفها الأحاديث والخطب النبوية القَسَم بعناصر الطبيعة: "والذاريات ذَرْوًا * فالحاملات وِقْرًا * فالجاريات يُسْرًا..."، "والطُّور *... * والسقف المرفوع * والبحر المسجور..."، "والنجم إذا هَوَى..."، "فلا أُقْسِم بمواقع النجوم..."، "كلا والقمر * والليل إذ أَدْبَر * والصبح إذا أَسْفَر..."، و"المُرْسَلات عُرْفًا * فالعاصفات عَصْفًا..."، "فلا أقسم بالخُنَّس * الجوارى الكُنَّس * والليل إذا عَسْعَس * والصبح إذا تنفَّس..."، "فلا أُقْسِم بالشَّفَق * والليل وما وَسَق * والقمر إذا اتسق..."، "والسماء ذات البروج"، "والسماء والطارق"، "والسماء ذات الرَّجْع * والأرض ذات الصَّدْع"، "والفجر * وليالٍ عَشْرٍ *... * والليلِ إذا يسْرِ"، "والشمسِ وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلّاها * واليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طَحَاها..."، "والضحى * والليل إذا سَجَا..."، و"التين والزيتون * وطُورِ سِينِين...".

ثم إن القسم بغير الله فى القرآن ليس مقصورا على مظاهر الطبيعة من سماء وأرض ونجوم وليل ونهار... إلخ بل ورد فيه أيضا القسم بـ"الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ"، وبيوم القيامة: "لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ"، وبـ"الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ"، وبمكة: "لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ"، "وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ"، وبالقرآن: "ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ"، "ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ"، وبالنفس: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا"، و"لَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ"، وبالقلم

والكتابة: "وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ"، وبالعصر: "وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا"، وبالبيت المعمور: "وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ"، وبالعدد: "وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ"، وبالخيل: "وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا"، وبالملائكة: "وَالصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا".

أما ما انفردت به السنة دون القرآن فمنه هذا القَسَم الذى كثيرا ما كان النبى عليه الصلاة والسلام يردده: "والذى نفسى (أو "والذى نفس محمد") بيده"، ومثله هذا القسم: "فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب..."، وكذلك: "والذى فلق الحبّة وبرأ النسمة" وأيضا "ورب الكعبة"، "ورب محمد"، "فوالذى بعث محمدا بالحقّ"، "وَايْم الله"، "لا ومقلِّب القلوب". وقد لوحظ أن القرآن لا يستعمل مادة "حَلَفَ" إلا فى مقام "الحِنْث"، إذ استخدم اشتقاقات هذه المادة ثلاث عشرة مرة كلها فى الحنث. أما فى الحديث فإن مادة "الحلف" لا ترتبط دائمًا بالحنث، وهو ما يميزه عن القرآن. وها هى ذى بعض المواضع التى وردت فيها هذه المادة فى الحديث الشريف غير مرتبطة بالحنث أو الكذب: "فإذا حلف أحدكم فليحلف بالله أو ليصمت"، "من حلف فاستثنى فهو بالخيار"، "إذا حلفتَ بالكعبة فاحلف برب الكعبة"...

وهناك أسلوب "إذ"، التى تأتى فى القرآن فى بداية موضوع أو قصة ما مسبوقة بـ"واو" أو عارية عنها، ويفسرها المفسرون بـ"اذكر"، ولعل أقرب شىء إلى معناها هو "تَنَبَّهْ إلى الموضوع التالى، أو إليك هذه القصة لتتمعن فيها"، وهذا الأسلوب لا وجود له فى الحديث الشريف: "وإذ قال ربك للملائكة: إنى جاعل فى الأرض خليفة"، "وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ، فأتمّهُنّ"، "وإذ قالت أمة منهم: لِمَ تعظون قوما اللهُ مُهْلِكُهم

أو معذِّبُهم عذابا شديدا؟ قالوا: معذرةً إلى ربكم، ولعلهم يتقون"، "إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت، إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين". ولو كان القرآن من تأليف محمد لظهرت هذه السمة فى أحاديثه وخطبه، لكننا نبحث فيها عن شىء من ذلك فلا نجد.

كذلك فى القرآن سمةٌ أسلوبية فريدة لا بالنسبة للحديث النبوى وحده بل أيضًا بالنسبة للكتاب المقدس، الذى طالما اتُّهِم عليه السلام بأنه اعتمد عليه كثيرا فى تأليف قرآنه، وهى أن أسماء الأشخاص (فيما عدا الأنبياء) بما فى ذلك أسماء معاصريه عليه السلام، سواء من الصحابة أو من الكفار، ومن العرب أو من الأعاجم، بل أيضًا أسماء المدن والقرى والمواضع بوجه عام، تكاد أن تنعدم فى القرآن. إنه يقول مثلا: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ"، ويقول: "سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا" وكذلك: "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ"، و"إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا"، وأيضًا: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا". ومثله قوله تعالى: "وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى"، وكذلك: "وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ"، وأيضا "عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءهُ الْأَعْمَى"... إلخ، وذلك من غير أن يذكر اسم الشخص أو الجماعة أو المواضع المعنيّة مكتفيا بذكر بعض صفاته أو صفاتها... وهكذا.

ومما يميز أسلوب القرآن عن نظيره الحديثى كذلك أنه ليس فى القرآن ذكر لبَوْلٍ أو بِرَازٍ أو رَوْث أو بصاق أو قيء أو ذَكَرٍ أو اسْتٍ أو ختان أو تقبيل أو مفاخذة أو جماع... إلخ، على خلاف الأحاديث التى طرقت هذه الموضوعات واستعملت هذه الألفاظ.

ولست أقصد أن النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن يراعى المشاعر الحساسة، إنما هى ضرورة الحياة والتشريع. وهو عليه السلام كان أبعد ما يكون عن اللغو والفحش، إلا أنه كان مضطرا إلى طرق هذه الموضوعات ليعلّم أتباعه أمور حياتهم ودينهم. والعبرة على كل حال بالقصد والسياق. ولكن الغريب العجيب مع ذلك كله أن القرآن، برغم هذه الضرورة، قد ابتعد تماما عن هذه الألفاظ والعبارات. وهذه أمثلة من أحاديث الرسول على ما أقول: "لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأة فى دبرها"، "إذا مسَّ أحدُكم ذَكَره فليتوضأ"، "إذا بال أحدكم فَلْيَنْتُرْ ذَكَرَه ثلاث مرات"، "فلولا مخافة الله لبزقتُ فى وجهه"، "إذا كان أحدكم فى المسجد فوجد ريحا بين أليتيه..."، "لا تستنجوا بعظم ولا ببعرة"، "العائد فى هِبَته كالكلب يقيء ثم يعود فى قيئه"، "من أصابه مَذْى فلينصرف فليتوضأ"، "قال (رسول الله): أَنِكْتَها؟ لا يُكَنِّى"...

ومما لوحظ أيضا بين القرآن والحديث من اختلافٍ أسلوبى الاختلافُ بين القَصَص القرآنى والقصص الحديثى. فبالنسبة إلى طريقة افتتاح القصة قد استقريتُ الأسلوب الذى يجرى عليه كل من القرآن والحديث فى استهلال قصصه فوجدت أن القرآن قد يستهل قصصه بـ"واتْلُ عليهم نبأ..." أو "واضرب لهم مثلا..." أو "هل أتاك حديث/ نبأ...؟" أو "أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ..." أو "ألم تر إلى.../ كيف...؟" أو "واذكر (فى الكتاب)...". كذلك استُهِلَّ عدد من القصص القرآنى بفعل من مادة "سأل"، مثل "وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا"، "واَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا...".كما يبتدئ كثير من القصص القرآنى بـ"إذ" مثل "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً". وقد تُكَرَّر "إذ" هذه مع كل حدث أو مرحلة هامة فى القصة كما فى

قصة بنى إسرائيل الوادرة فى سورة "البقرة" وكما فى قصة إبراهيم وإسماعيل فى نفس السورة أيضًا، وقد يقتصر تكرارها على بعض الأحداث والمواقف دون بعض كما فى بعض أجزاء من قصة بنى إسرائيل الموجودة فى سورة "الأعراف" وكما فى قصة تآمر القرشيين على رسولنا عليه الصلاة والسلام فى سورة "الأنفال" وتكذيبهم له.

أما الحديث النبوى فالملاحظ أنه لم يفتتح أيا من قصصه بواحدة من هذه الافتتاحات القرآنية، بل يبتدئ كثيرا منها بقوله عليه السلام: "كان فيمن قبلكم..." أو عبارة مشابهة. ومثل هذه الطريقة فى الكثرة وفى عدم استخدام القرآن لها ابتداءُ عدد من القصص النبوى بكلمة "بينما/ بينا". ومما لوحظ أيضًا فى قصص الحديث أنه لم يرد فيها قصة كاملة لأى نبى على عكس القرآن، الذى تكرر فيه ذلك، وهو من الشهرة بحيث لا يحتاج المرء إلى الاستدلال عليه. وكذلك لا يعرف الحديث إيراد عدة قصص متتالية يأخذ بعضها برقاب بعض. وهى ظاهرة من ظواهر القصص القرآنى، إذ كثيرا ما تتوالى قصص نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب... أو بعضها. ليس ذلك فقط، بل إن كثيرا من هذه القصص تتشابه إلى حد كبير فى استهلالها وختامها وعباراتها، أى فى القالب الفنّى الذى تُقَدَّم فيه.

وبالمثل ساقت لنا الأحاديث النبوية المشرَّفة طائفة من القصص لم ترد فى القرآن بل ولا تشبه قصصه، كقصة أبى زرع وأم زرع، وقصة الأقرع والأعمى والأبرص، وقصة الرجل الذى قتل تسعة وتسعين ثم كمّلهم مائة، وقصة الثلاثة الذين أووا إلى كهف فأغلقت صخرةٌ عليهم بابَه. وتدخل فى هذا قصة الإسراء والمعراج، التى لم يرد منها فى القرآن إلا إشارة سريعة إلى إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وإشارة أخرى مثلها إلى عروج النبى إلى سِدْرة المنتهى.

ومما يتميز به القَصَص النبوى أيضًا أن الرسول عليه السلام أحيانا ما يحكى ما سيحدث له ولبعض الأنبياء أو لبعض أصحابه فى الآخرة كما فى حديثه عن الصعقة التى تأخذ الناس يوم القيامة والتى حينما يفيق منها يجد موسى عليه السلام باطشا بجوار العرش، وكما فى كلامه عن استشفاع الخلق ببعض من سبقه من إخوانه الأنبياء وانتهاء الأمر بأن تمَّت الشفاعة على يديه هو عليه السلام، وكما فى مقارنته بين عدد أتباعه وعدد أتباع الأنبياء الآخرين، وكما فى كلامه عن حوضه، الذى رأى بعضا من أتباعه يُذَادون عنه، فسأل عن سبب ذلك، فقيل له: "إنك لا تدرى ماذا أحدثوا بعدك"، وحديثه عن قصر عمر فى الجنة وكلامه فى هذا السياق عن غيرة الفاروق رضى الله عنه وأرضاه.

ومن سمات القصص القرآنى التى ينفرد بها عن القصص الحديثى الفجواتُ التى تقفز بها القصة فوق فترة زمنية قد تقصر وقد تطول أو فوق بعض المشاهد... إلخ. ومن الامثلة فى هذا المضمار ما جاء فى قصة زكريا فى سورة "مريم" حين دعا ذلك النبى الكريم ربّه أن يهبه وليّا، فبشره الله بغلام اسمه يحيى، فسأل ربّه أن يجعل له آية، فجعل آيته ألا يكلم الناس ثلاث ليال، فخرج على قومه من المحراب وأشار إليهم أن يسبحوا ربَّهم، وفجأة نجد القرآن يقول: "يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا" قافزا بذلك فوق ما وقع من أحداث ومشاهد بين إشارة زكريا لقومه بتسبيح الله وبين نضج يحيى وتأهّله لأخذ الكتاب بقوة، وهى فترة زمنية طويلة.

وبعد هذه الرحلة هل يعقل أن تكون له عليه السلام فى مسألة الأسلوب شخصيتان منفصلتان كل هذا الانفصال؟ إنَّ ذلك غير ممكن لأنه مخالف لطبيعة الأمور، وبخاصة أن القرآن كان فى معظم الأحوال ينزل فور سؤال أو حادثة فلا يكون هناك

وقت يُذْكَر بين سبب النزول وبين الوحى يمكن أن يتعلل به المتعللون فى القول بأن محمدا كان يتعمل فى تأليف القرآن تعمّلا يباعد بينه وبين أسلوب الأحاديث. ثم لماذا يحرص على أن يخالف بين أسلوب القرآن وأسلوبه فى الأحاديث؟ ألكيلا يقول الكفار إن القرآن هو كلامه؟ ولكنهم قالوها فِلمَ لَمْ يقل لهم: ولكن أسلوب كلامى يختلف عن أسلوب القرآن؟ ثم قبل ذَلك هل كانت مسألة اختلاف الأساليب تبعا لاختلاف الشخص أو اختلاف ظروف الشخص الواحد موجودة فى العقول فى ذلك الوقت المبكر؟ وحتى لو أغضينا عن كل ذلك أكان يمكن أن ينجح محمد فى إخفاء شخصيته تماما من القرآن على هذا النحو على مدى ثلاثة وعشرين عاما، وفى ظروف مزعجة من شأنها أن تفسد كل تخطيط وتصنع؟ ثم إن محمدا عليه السلام لا يمكن أن يكون من ذلك النوع من الرجال، إذ كان الصدق يَنْضَح من شخصيته وسلوكه نَضْحا. وحتى لو افترضنا المستحيل وقلنا إنه كان متصنعا متكلفا، أكان لديه كمبيوتر يغذيه بكل كلمة أو عبارة أو صورة يقولها على مدى تلك السنين الطوال ثم يستشيره فى كل مرة يريد أن يعلن فيها وحيا يجب أن ينسبه إلى السماء حتى يتجنب هذه العبارات وتلك الألفاظ فلا يضمّنها هذا الوحى؟ وأخيرا ألفت نظر القارئ إلى أن هذه الملاحظات الموجزة جدا متاحة بشكل موسع ومفصل جدا مع الشواهد الكثيرة فى كتابى: "القرآن والحديث- مقارنة أسلوبية".

والآن وبعد ما قلناه فى التفرقة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث نجد أنه لا معنى لما يقوله الرصافى (ص١٦٢ وما بعدها) من أنه قد اتضح أن الوحى هو كلام محمد عن تفكير واجتهاد وأنه إن كان قوله هذا كفرا عند المتدينين، بما يعنى أنه لا يرى نفسه متدينا، فليكفِّروه كما يشاؤون، فهو لا يبالى. وكذلك لا معنى لما سيقوله الرصافى

بعد ذلك (ص٥٨٦، ٥٨٨، ٥٨٩) من أن الذى نزل على محمد من القرآن إنما هو معانيه، أما الألفاظ فمن عنده هو. وهذا الكلام لا يتسق مع ما تبين لنا من اختلاف الأسلوب بين القرآن والأحاديث اختلافا جذريا لا سبيل معه إلى الالتقاء بينهما بحال. ثم مضى الرصافى قائلا إن فريقا من علماء الدين المسلمين يرى أن كل ما كان يتكلم به محمد بعد البعثة هو وحى من الله لم ينطق فيه عن الهوى بما فى ذلك كلامه مع نسائه أو فى السوق أو فى الطريق أو مع أصحابه، وهو ما يراه كاتبنا غلوا مفرطا واعتقادا مضحكا. ويستمر فيقول إن محمدا قد نطق عن الهوى مراتٍ منها قَسَمُه، حين مثَّلتْ هند بنت عتبة بجثة عمه حمزة عقب وقعة أحد، أن يمثّل بسبعين من المشركين حين يمكنه الله منهم ثم رجوعه فيما أقسم عليه. ومما نطق فيه النبى عن الهوى فى نظر الرصافى الأرعن استثناؤه هبار بن الأسود من العفو العام الذى أطلقه على كل المكيين يوم فتح مكة إذ كان قد أمر أصحابه أن يقتلوا هبارا حين يَرَوْنه، ثم لما وفد هبار عليه فى المدينة بعد اختفائه يوم الفتح وأعلن دخوله فى الإسلام عفا عنه. كما اتهم الرصافى النبى صلى الله عليه وسلم بأنه نطق عن الهوى حين مدح الأصنام فى سورة "النجم" ثم حذف المديح الذى قاله فيها.

فأما آيات الغرانيق فقد أبطلنا قصتها تماما فى موضع آخر من هذا الكتاب فلا حاجة بنا إلى تناولها هنا كرة أخرى. وأما كلامه فى السوق ومع زوجاته وأصحابه فى أمور الحياة اليومية الاعتيادية فليس مما ينطبق عليه قوله سبحانه: "وما ينطق عن الهوى"، بل الذى ينطبق عليه هذا القول هو القرآن الكريم، إذ كان المشركون يتهمونه بأنه لا يتلقى القرآن من لدن الحكيم الخبير بل يمليه عليه هواه، فنفى الله عنه ذلك، ومن ثم فليس المقصود أن كل ما قاله الرسول هو وحى تلقاه من ربه وأنه لا يمكن أن

يتسرب السهو أو النسيان أو العاطفة إليه بل المراد بهذا هو القرآن لا غير. وعلى هذا فإن قَسَمه عليه السلام بأن يمثل بجثث سبعين أو أقل أو أكثر من المشركين حين يظفره الله بهم لا يدخل فى ذلك، بل هذا شعور فطرى يدور فى نفوس البشر جميعا، لكن يحسب له صلى الله عليه وسلم أنه نزل فى الحال على نهى الوحى له عن التمادى فى الانتقام، وهو دليل على مصداقيته فى أمر النبوة. لقد انفعل عليه السلام وقال ما قال بناء على ما شعر به من ألم وحزن فظيع، لكن الله سبحانه نهاه عن ذلك، فانتهى. ولو لم يكن نبيا ما تراجع عن قراره حتى لا يهتز مركزه عند الناس سواء تابعوه أو الكافرون به. وأما هبار فقد جاء مسلما وانخلع عن الكفر، والإسلام يجب ما قبله. والرسول لم يقل: "اقتلوه حتى لو دخل الإسلام" بل كان المقصود قتله وهو كافر. لكنه حين اعتنق دين الله لم يعد هناك موضع لمعاقبته. فلم ينطق الرسول عن الهوى، بل نزل على أمر الله سبحانه بأن من دخل الإسلام فقد بدأ حياته من جديد، ولا ينبغى أن يؤاخَذ بشىء مما سبق.

كذلك فالرصافى يرى أن الفاصلة كان لها تأثير على اللفظة المفردة وعلى التركيب كله فى كثير من الأحيان. ليس ذلك فحسب، إذ هو يعيب على القرآن أن بعض فواصله قلقة فى موضعها، وكان ينبغى أن تتغير. بل إنه اقترح هذا التغيير فى بعض الأمثلة. وهو يرجع هذا العيب إلى حرص محمد، كما يقول، على التزام الفاصلة (ص٥٦١). وهذا غريب، إذ قد ذكر أن القرآن لا يلتزم بالفواصل التزاما صارما بل يخرج عن الاتساق فيها كثيرا (ص٥٦٠). فكيف نوفق بين هذا وذاك؟ لا ريب أن القارئ الكريم يتفق معنا فى أن الرصافى مشوش الفكر مضطرب الرأى ويقول بالشىء ونقيضه دون أن يتنبه لذلك أو مع تنبهه له لكنه يتعامى حتى يربك عقل القارئ ويبلبله. وعلى هذا فلو كان فى الفواصل عيوب كما يقول فكيف فات ذلك محمدا، ومحمد قد أبدع فى أسلوب القرآن

وإجرائه على الفواصل وجعل لنفسه هامشا من الحرية فى الخروج عليها حتى لا يضطر إلى الدخول فى المضايق؟

ومع هذا فلنغض الطرف عن تناقض الرصافى ولنناقشه فيما قال: فهو فى قوله تعالى فى سورة "سَبَأ" مخاطبا الملائكة يوم القيامة بشأن الكفار وعبادتهم إياهم: "أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟" يرى أن الفاصلة اضطرت محمدا إلى التقديم والتأخير على أساس أن الكلام كان هكذا فى الأصل: "أهؤلاء كانوا يعبدونكم؟". ومعنى ملاحظته هذه أن محمدا قد تنكب الصراط السوى وأربك الجملة دون داع سوى مراعاة الفاصلة. وفاته أن التقديم هنا سببه الاهتمام بالمفعول، الذى هو الملائكة، وأن عبادة الكفار لهم جعلتهم يقدمونهم على عبادة الله سبحانه، فضلا عن أن السؤال فى الآية هو عن عبادة الملائكة بالذات لا عن عبادة أى معبود لهم آخرمن الأصنام مثلا، إذ هذا هو الذى يهم فى هذا السياق ما دام الكلام موجها إلى الملائكة. كما فات الرصافى أن سورة "سبأ" متنوعة الفواصل. أى أن محمدا كان يستطيع أن يلتزم التركيب الأصلى دون أن يقع فى أى محذور. وهذا لو أنه هو مؤلف القرآن، ولكننى أتابع المؤلف جريا على قول العامة فى أمثالهم: ابق مع الكذاب حتى باب الدار. ومثل ذلك قوله إن التقديم والتأخير فى قوله سبحانه فى سورة "القمر": "ولقد جاء آلَ فرعون النُّذُرُ" هو لمراعاة الفاصلة. ولا بأس بمراعاة الفاصلة بالمناسبة، لكن المشكلة هى أن يترتب على مراعاة الفاصلة ركاكة أو ارتكاب خطإ نحوى أو ما إلى ذلك، وهو ما لم يحدث هنا، إذ المراد بهذا التقديم والتأخير هو التركيز على أن النذر إنما جاءت لآل فرعون بالذات أو بالدرجة الأولى. ومرة أخرى ما كان محمد ليرتكب أمرًا إِدًّا ولا أمرا غير إِدٍّ لو كان كَسَرَ الفاصلةَ هنا كما هو الحال فى معظم سورالقرآن الكريم. والرصافى نفسه قد قال ذلك كما مر بيانه. أما فى قوله: "فلله

الآخرةُ والأولى" فليس للرصافى أى متعلق هنا بانتقاد الآية، إذ كلا التركيبين سليم ولا عيب فيه، فالواو مجرد عاطفة ولا تفيد تقديما ولاتأخيرا فى الزمان أو فى المكان أو فى الرتبة كما هو معروف فى النحو. وأما قوله، عن التقديم فى آية سورة "طه": "فأوجس فى نفسه خيفةً موسى"، إن الضمير فى "نفسه" مقدم على ما يفسره، وكأن هذا عيب فى تركيب الكلام، مع أنه لا عيب هناك ولا يحزنون، فالضمير وإن عاد على متأخر فى اللفظ فهذا المتأخر فى اللفظ متقدم فى الرتبة، فلا خطأ فيه. وأما ملاحظته على قوله جل جلاله فى سورة "الإسراء": "ونُخْرِج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا" بأن أصل الكلام: "كتابا منشورا يلقاه" لكن حدث تقديم وتأخير فالرد عليه من أيسر ما يمكن، إذ يكون المقصود أنه سوف يَلْقَى الكتابَ فى حالة نشر لا طى. أى أن "منشورا" هو حال لا صفة، أو تكون كل من "يلقاه" و"منشورا" صفة. ولا مشكلة من ثم. والعجيب أنه قال بهذين الإعرابين مضيفا أننا فى هذه الحالة لا يكون عندنا تقديم وتأخير. إذن فلماذا إثارة الضجة؟

وهو يقول بأن سبب حذف الياء من "نُذُرِ" و"عقابِ" و"المتعالِ" و"التَّنَادِ" فى قوله تعالى على الترتيب: "فكيف كان عذابى ونذرِ"، و"فكيف كان عقابِ"، و"عالمُ الغيب والشهادة الكبيرُ المتعالِ"، و"إنى أخاف عليكم يوم التنادِ" هو مراعاة الفاصلة، والطبيعى أن تُثْبَت ولا تُحْذَف. وجَهِلَ أن حذف الياء فى هذه المواضع على اختلاف أنواعها هو لغة من لغات العرب. فالقرآن إذن فى هذا الحذف إنما يستغل إمكانات اللغة العجيبة ولا يحطم قواعدها. وهو ما يقال أيضا فى قوله: "والفجر ❋ وليالٍ عَشْر ❋ والشفع والوتر ❋ والليل إذا يَسْرِ"، إذ هو يرى أن محمدا حذف الياء من "يَسْرِ" رغم عدم انجزامها، مراعاة للفاصلة. أى أنه اجترح خطأ لغويا. ولكن كان ينبغى للرصافى

أن يقرأ النحو جيدا فيعرف أن بعض العرب كانوا يجزمون بـ"إذا" وأن بعضا منهم آخرين كانوا يحذفون الياء فى مثل هذا الموضع. والدليل على ما نقول هو قوله تعالى فى سورة "البقرة": "أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ" وقوله سبحانه فى سورة "الكهف": "ذلك ما كنا نَبْغِ" وقوله جل جلاله فى سورة "الشورى": "ومن آياته الجوارِ فى البحر كالأعلام"، إذ جاء الحذف فى درج الكلام لا فى الفواصل. ولو كان شىء من هذا خطأً ما فوَّته المشركون ولا المنافقون ولا اليهود، بل لشنعوا على محمد وعلى قرآنه هذا الذى تحداهم به. ولو كان به خطأ أو ركاكة أو تهافت لما كان ردهم على ذلك التحدى: "لو نشاء لقلنا مثل هذا" بل كان "كيف تتحدانا يا محمد بهذا الكتاب الركيك الخاطئ؟ أما تخجل؟". وهو (ص٥٦٢) يرى أن "قوارير" الأولى فى قوله عَزَّ مِنْ قائل من سورة "الإنسان": "كانت قواريرا * قواريرا من فضة قدَّروها تقديرا" كان يجب أن تمنع من الصرف لولا الفاصلة. لكن من قال إنها منونة هنا؟ إنها ألف الإطلاق ليس إلا. وهى نفسها الألف فى قوله تعالى من سورة "الأحزاب": "وتظنون بالله الظنونا"، "وأطعنا الرسولا"، "فأضلونا السبيلا". وقد قلنا أكثر من مرة، وقال هو أيضا، إن القرآن كثيرا ما يخرج على الفاصلة من آن لآخر. فكان القرآن يستطيع أن يحذف الألف دونها مشاكل. وقد فعلها القرآن فى سورة "الفرقان"، وكل حروف رويها ممدودة بالألف ما عدا قوله فى الآية السابعة عشرة: "أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل"، فخالف بين هذه الفاصلة وسائر فواصل السورة الست والسبعين مع أنها يمكن أن تزاد فيها ألف الإطلاق دون أية مشاكل لأنها منصوبة. وبالمناسبة فقد وردت هذه الكلمة، ولكن من غير "أل"، سبع مرات (الآيات ٩، ٢٧، ٣٤، ٤٢، ٤٤، ٥٧) فى نفس السورة فاصلةً بألف الإطلاق، وهو ما يعنى أن المسألة ليست قيودا حديدية كما يتصور الرصافى خطأً.

ومن ذلك قوله إن مراعاة الفاصلة فى قوله تعالى من سورة "يوسف": "إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتُهم لى ساجدين" قد أدت إلى إجراء غير العاقل، وهو الكواكب والشمس والقمر، مجرى العاقل. ونَسِىَ أو تناسَى أن السجود، كما نعرفه، لا يكون إلا من العقلاء، فلذلك عَقَّلها يوسف. كما أن يوسف، من خلال معرفته بتأويل الأحلام، عرف أنها رمز على البشر: أبويه وإخوته، فلذلك عقَّلها بهذا المعنى كذلك. وهناك شىء اسمه "التشخيص" فى البلاغة، فلذلك عقلها بهذا الاعتبار أيضا. وفى قوله من سورة "الشعراء": "إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين" ملحظ بلاغى، إذ المقصود أن أعناقهم، جراء قوة الآية، سوف تدرك جلال الألوهية كالعقلاء سواء بسواء فتخضع لذلك الجلال، فلذلك عاملتها الآية معاملة العقلاء. كما أن "العنق" الجماعة من الناس، و"الأعناق" الرؤساء. ومن ثم فليس للرصافى متعلَّق على الآية بأى سبيل. وبالنسبة لقوله سبحانه عن نفسه: "والذى أخرج المرعى * فجعله غُثَاءً أَحْوَى" نراه يؤكد أن أصل الكلام هو "والذى أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء" لأن "أحوى" هى حال من "المرعى" لا صفة لـ"غثاء". لماذا؟ لا يجيبنا الرصافى. ومراده من هذا كله هو رمى الآية بالتفكك والركاكة. ورغم أنفه فـ"أحوى" صفة لـ"غثاء"، وليشرب من لا يعجبه هذا الإعراب من البحر، أىّ بحر يعجبه، فالبحار كثيرة.

ومن مراعاة الفاصلة لديه قوله تعالى فى سورة "المزمل": "واذكر اسم ربك وتبتَّلْ إليه تبتيلا"، إذ كان ينبغى، حسب كلامه، أن يقال: "وتبتل إليه تبتُّلًا" لكن مراعاة الفاصلة أدى إلى استخدام "تبتيلا" عوضا عن "تبتلا" (ص٥٦٦). ولكن ما قوله فيما يذكره "لسان العرب" من أن "التَّبَتُّلُ: الانقطاع عن الدنيا إلى الله تعالى، وكذلك

التبتيل"؟ وعلى هذا فلا مشكلة ما دامت الصيغتان المصدريتان شيئا واحدا. أى أن اللغة تقدم لمستعملها إمكانين، فماذا على المستعمل لو قبل الهدية واستعمل صيغة أخرى غير متوقعة، ولكنها صحيحة تغنى عن الصيغة المتروكة، فيكون قد اصطاد عصفورين بحجر واحد؟ كذلك نجده يعد قوله تعالى فى سورة "التين والزيتون": "وطور سينين * وهذا البلد الأمين" تغييرا فى بنية الكلمة لأجل الفاصلة، إذ الأصل هو "وطور سينا/ سيناء" كما قال (ص٥٦٦). ولكن كان ينبغى أن يرجع إلى المعاجم حتى يعرف أن فى هذا الاسم عدة صيغ كما جاء فى "القاموس المحيط" و"مختار الصحاح". وهذه عبارة الفيروزابادى نصا: "طُورُ سِينينَ وسِيناءَ، وسَيْناءُ، وسِينا: جبلٌ بالشام"، وهو ما قاله الرازى بالمعنى. وإذن فإن إثارة الرصافى لهذه المشكلة اعتراك فى غير معترَك. ومعروف أن أسماء الأعلام الأجنبية يكون لها فى كثير من الحالات عدة صيغ. ولو رجعنا إلى قاموس أكسفورد الكبير مثلا فى اسم "محمد" لوجدنا الصيغ التالية لنفس الاسم: " Macamethe, Machamete, Mac-, Makomete, Makamete, Machomete, Machomet, Machamyte, Macomit(e, -yt)e, Mahomet(t)e, -ite, Mahumet, Mahomet. See also Mahound, maumet". وعندنا أيضا "Mehemet" التركية، و"محمدوف" فى روسيا، و"مامادو" فى أفريقيا. فما الذى يمكنه أن يقول فى ذلك؟ كان ينبغى أن يتواضع ويسأل ليعرف أكثر، أما أن يطير بالقليل الشحيح الذى عنده مبتهجا سعيدا كأنه أمسك بالذئب من ذيله فهو لا يصح ولا يليق. إن كلامه لهو أشبه بكلام المبشرين المتسرعين إلى المكايدة جهلا وتنطعا. وهذا أقل ما يمكن أن يقال فى تصرفه هذا.

وفى الصفحة رقم ٥٦٧ نراه يرمى بالقلق فى موضعها عبارة "ذِكْرَى الدار" فى قوله تعالى من سورة "ص" عن بعض الأنبياء الكرام: "إنا أخلصناهم بخالصةٍ ذِكْرَى الدار"،

فيورد ما قاله الزمخشرى فى تفسيرها من أن المراد هو "ذكراهم الآخرة أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها أو هو الثناء الجميل فى الدنيا ولسان الصدق الذى ليس لغيرهم" ثم يرفض الرأى الأول لأنه، كما يقول، "لا يساعد عليه اللفظ ولا يدل عليه السياق"، كما لا يرضيه الرأى الثانى رغم أنه "يناسب المقام أكثر من الأول"، ويرى فى النهاية أنه "كان الأحسن أن يقول: "إنا أخلصناهم بخالصة الذكر الجميل" وأن يترك هذه الفاصلة مكتفيا بالفاصلة التى بعدها: "وإنهم عندنا لمن المُصْطَفَيْن الأخيار"، فتكون حينئذ الآيتان آية واحدة. والواقع أن القرآن حين يستعمل "الدار" فى هذا السياق وأمثاله يكون الكلام عن الآخرة، التى لها فى القرآن عدة أسماء، وهى "دار الآخرة، الدار الآخرة، دار السلام، دار المُقَامة، دار الخلد، دار المتقين، عاقبة الدار، عقبى الدار"، وهذا للناجين. والمقصود بوجه عام هو الجنة. أما الكفار المعاندون فلهم "سوء الدار"، أى الجحيم. ولم يحدث أن استعملت "الدار" فى القرآن للحياة الدنيا. ولقد اختص الله سبحانه أنبياءه جميعا بالدعوة إلى الإيمان بالآخرة وتذكير الناس بها. ومدار الإيمان فى الدين بعد الإيمان بالله هو الإيمان بالآخرة، إذ لو وضع البشر الآخرة فى عقولهم وقلوبهم وحساباتهم لاستقاموا وقل شرهم وكثر خيرهم وصلحت دنياهم، وبصلاح دنياهم تصلح أخراهم. ويكفى أن يقول القرآن: "وإن الدار الآخرة لهى الحيوان"، أى الحياة الحقيقية الخالدة، حتى نفهم أن "الدار" إذا أطلقت فى سياقنا هذا كان معناها "الآخرة" كما أن "الكتاب" إذا أطلق فى الثقافة الدينية الإسلامية فالمقصود كتاب الله، وإذا أطلق فى مجال الدراسات النحوية العربية كان كتابَ سيبويه على ما هو معروف.

ومما يقول إنه قد رُوعِيَ فيه الفاصلةُ قوله جل شأنه فى سورة "محمد": "ولنبلونَّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم". على أنه لم يكتف بالقول بأن

عبارة "ونبلو أخباركم" قد جيء بها مراعاة للفاصلة بل فتح البرجل هذه المرة ونسى نفسه وركبه الغرور فعاب الآية كلها. قال: "أى نسمع ما يُحْكَى ويُخْبَر به وما يقوله الناس عنكم. ولا يخفى أنه بعد أن يبلوهم فيعلم المجاهدين منهم والصابرين لم تبق حاجة إلى سماع أخبارهم وما يقوله الناس عنهم. ولكن الفاصلة هى التى أتت بالجملة الأخيرة. وهى، كما تراها، قلقة غير متمكنة فى المعنى المراد. على أن الآية كلها ليست مما يليق أن يقوله علام الغيوب" (ص٥٦٧). والرصافى هنا عامى التفكير ضيق الأفق يتعامل مع الله كأنه يتعامل مع فرد من البشر، فهو يظن أنه سبحانه يتسقط الأخبار ويحرص على سماع القيل والقال مما يتبادله الناس من أخبار المسلمين. وهذا أشبه ما يكون بآلهة الوثنيين. أَوَمعقولٌ أن الرصافى لا يعرف أن المقصود هو أن الله عز وجل يضع عباده فى المواقف المختلفة للابتلاء وإظهار ما عندهم من إيمان أو كفر، ومن صلاح أو فساد، ومن مسارعة إلى الجهاد أو تقاعس عنه؟ فهذا عن قوله: "ولَنَبْلُوَنَّكم حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين". وأما قوله: "ونبلو أخباركم" فليس معناه أن نفتح آذاننا لنلتقط ما يتداوله الناس من أخباركم وآراءهم فيكم وفيما تعملون، بل المراد هو أنه سبحانه ينظر فيما عمل عباده، وهم هنا المؤمنون، ليجازيهم على قدر إنجازاتهم. فالأخبار هنا هى أعمالهم وطريقة أدائهم فى الجهاد فى سبيل الله لا كلام فلان وعلان عنهم. وبطبيعة الحال فإن الله غنى عن الابتلاء بكل أشكاله وألوانه، ولكنْ هكذا اقتضت حكمته ومشيئته، وبخاصة أنه يخاطبنا بلغتنا، ولغتنا تجرى على هذا الشكل. وقد قال سبحانه: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم". ترى هل كان من الصعب على مبدع القرآن، أيا كان، أن يقول مثلا: "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين

منكم وصُبَّاركم (جمع "صابر")" أو "ولنبلونكم حتى نعلم مجاهديكم وصُبَّاركم" متخلصا بهذه الطريقة من العبارة الأخيرة التى لا تعجب عبقرينا الرصافى، خيبه الله؟

ويبقى تطاوله على القرآن واتهامه للآية الفلانية أو العِلَّانية بأنها لا تليق بأن تكون صادرة عن علام الغيوب. لقد نسى ما قاله فى أول الكتاب من أنه لا فرق بين الله والكون، فكله شىء واحد، وإن محمدا عرف أنه لا ينفصل عن الله ولا ينفصل الله عنه، ولهذا قال فى سورة "الأنفال" مثلا: "وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى". والآن يا عمنا الرصافى إذا كانت هناك وحدة وجود كما تقول، وكان كلام محمد فى القرآن هو كلام الله بصفتهما شيئا واحدا، فكيف تعيب الكلام الذى تؤمن أنه من عند الله؟ بل إنه لمن المفترض أن يكون كلام الرصافى أيضا هو كلام الله، اللّٰهم إلا إذا زعم أنه هو بالذات لا ينضوى فى وحدة الوجود لأن على رأسه ريشة، وهو ما لا يمكن أن يزعمه، وإلا انتقض كل ما يقوله فى هذا الموضوع. وبناء عليه فإن القرآن هو كلام الله، وانتقاد الرصافى للقرآن هو أيضا كلام الله. فما معنى هذا؟ معناه أن الله يقول القرآن من هنا ثم يستدير من هنا فيعيبه وينتقده. ولكن ما دام سبحانه لا يعجبه قرآنه فلماذا لم يسوّه جيدا قبل أن يخرجه لنا؟ ومعنى هذا أنه عز وجل لا يتميز عنا ولا يمتاز علينا إذ هو، كما نرى، لا يستطيع أن ينجز شيئا كاملا بل لا بد أن يعيد النظر فيما ينجزه لتصويب ما فيه من أخطاء وإصلاح ما فيه من عيوب وتقويم ما فيه من عوج مثلما نفعل نحن بالضبط فيما نعمله ونؤديه. لكن أيمكن أن ينقسم الله على نفسه فيقول وينتقد ما يقول؟ فمن إذن يصلح أخطاء الله، وهو كل شىء فى الوجود؟ هل من يصلح تلك الأخطاء هو معروف الرصافى؟ لكن هل معروف الرصافى خارج عن وحدة الوجود؟ هذا لا يمكن أن يكون. وهو ما ينطبق علىَّ أنا أيضا، فأنا داخل فى وحدة الوجود بدورى. ومن ثم فإن

خلافاتنا هنا تذكرنا بما يقوله العامة من أن المصارين يتعارك بعضها مع بعض، وفى النهاية يتصالحون ويتصافحون، وصافٍ يا لبن! حليب يا قشدة! كذلك هناك الجمهور القارئ السامع لما نقول وننتقد ونختلف، وهو أيضا داخل فى وحدة الوجود، ولكن على نحو سلبى، فهو يتلقى فقط ليس إلا. أى أن الله يقول ثم ينتقد ما يقول ثم ينتقد انتقاده لما قال ثم إنه فى أثناء هذا كله يقف أو يجلس ويشاهد ويسمع ما يجرى طول الوقت. ومن ذلك يتضح أن الرصافى مضطرب الفكر مبلبل العقل لا يستطيع أن يبلور رأيا صلبا يستحق الاهتمام. ثم ألم يقل إن معانى القرآن هى من عند الله؟ فكيف يرى أن بعض عباراته لا تستحق أن تكون منه؟ إننا لو حذفناها كما يقترح لحذفنا بعض معانى القرآن التى هى من عند الله. أليس كذلك؟ واضح أن أفكار الرصافى أفكارٌ فَطِيرة.

وبنفس الطريقة من الغرور والادعاء الفارغ من العلم والذوق الأدبى السليم يؤكد أن عبارة "والله لا يهدى القوم الظالمين"، التى تنتهى بها الآية التاسعة عشرة من سورة "التوبة": "أجعلتم سِقَاية الحاجّ وعمارةَ المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين" عبارة زائدة لا تؤدى شيئا فى الجملة ويُسْتَحْسَن حذفُها، فقد انتهى الكلام عندها، ولكن لما رأى محمد أن نهاية الكلام بهذا ا لشكل لا يتسق مع الفواصل السابقة قام بإضافة هذه العبارة لتحقيق التوافق الموسيقى. ولكن لِمَ يا ترى لَمْ يُعِدْ محمدٌ النظرَ فى نهاية الآية ويعمل على التوفيق الموسيقى بينها وبين الآيات المتقدمة عليها بدلا من استجلاب عبارة لمجرد الحشو لا معنى لها؟ وهل كان عند محمد الوقت ليفكر فى صياغة الكلام على هذا النحو، وقد كانت تأخذه الغفوة التى ينفصل فيها عن العالم المرئى وينفتح

وعيه على العالم الغيبى فلا تكون لديه الفرصة لتركيب الكلام على راحته والأخذ والرد مع نفسه بالطريقة التى يتوهمها الرصافى؟

كذلك يأخذ الرصافى على الآية أنها تقارن بين عملٍ (هو سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام) وبين طائفة من البشر (هم المؤمنون بالله واليوم الآخر المجاهدون فى سبيل الله)، والمفروض أن تكون المقارنة بين متماثلين، وإلا كان علينا أن نقدر محذوفا فنقول إن المقصود هو إما "أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله..." وإما "أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجهاد من جاهد فى سبيل الله"، وهو ما ينزل بقيمة الكلام لأن الكلام الذى يحتاج إلى تقدير أقل فى البلاغة من الكلام الذى لا يحتاج إلى مثل هذا التقدير. وفى كلام الرصافى هذا أكثر من خطإ: فأولا من قال إن الكلام الذى يحتاج إلى تقدير أقل فى البلاغة من نظيره الذى لا يحتاج؟ إن هذا من شأنه أن يحول الكلام إلى مستوى كلام الأطفال الصغار البادئين بتعلم اللغة والذين لا بد أن تَذْكُر لهم كل شىء حين تخاطبهم حتى يفهموا عنك ما تريد. إن كثيرا من الكلام هو من النوع الأول الذى يحتوى على تقدير محذوف. فمثلا نقول لمن يحاول عبور الشارع دون أن يلتفت حوله، ومن ثم يوشك أن تصدمه سيارة مسرعة: السيارة! ونقصد "انتبه للسيارة القادمة من خلفك أو من شمالك مثلا حتى لا تصدمك". والطبيعى أن يكون هناك حذف، وإلا فلو أكملنا الجملة كما يريد الرصافى منا لكانت السيارة قد فرمت صاحبنا وانتهى أمره ولم يعد للكلام معنى. وحين نسأل ابننا: "من ضربك؟" فإنه يقول: "فلان" ولا يقول: "الذى ضربنى هو فلان"، وإلا كان الكلام حشوا وكأنه يخاطب قومًا بُلْهًا لا يفهمون إلا إذا أعاد لهم فى الجواب الكلامَ كله. إن حلاوة الكلام فى هذين المثالين وأشباههما متركزة

فى الحذف الذى لا يعجب صاحبنا الرصافى. وفى البلاغة باب كبير اسمه "الذكر والحذف"، لكن الرصافى يركب رأسه ويعاند رغبةً منه فى تخطئة القرآن حتى يقال إنه أفضل من محمد. ولو حاسبنا شِعْرَه بهذه الطريقة فلسوف ننزل به إلى القاع لأنه فى معظمه كأى شعر آخر يقوم على كثير من الحذف والتقدير. ليس ذلك فقط بل إن أشعاره لتزخر بألفاظ وعبارات تحتاج إلى شرح، ومن ثم فهى ليست بليغة بمقياسه هذا الغريب. وعلى ذلك فشعره بهذه الطريقة يستحق أن ينزل إلى ما تحت القاع. إن الرصافى هنا لا يستطيع التمييز بين الأسلوب العلمى الذى لا بد أن يكون واضحا كالشمس فى رائعة النهار وأن يخلو من أية كلمة أو عبارة يمكن أن يكون لها أكثر من معنى وألا يحتوى على كلام محذوف مقدر بخلاف الأسلوب الأدبى، الذى يكثر فيه الحذف والصور والغموض المثير للخيال ويدفع القارئ إلى تشغيل عقله بدلا من التلقى السلبى وهو فاتر كسلان. والآن انظر روعة الحذف فى قول الشاعر:

نحـــن بـــما عنـــدنا، وأنـــت بـــما عنــدك راضٍ، والـرأىُ مختلـفُ

ولو قال كما يريد صاحبنا الرصافى: "نحن بما عندنا من الرأى راضون، وأنت بما عندك من الرأى راض، ولكن الرأى عندنا مختلف عن الرأى عندك" لكان الكلام عاديا جدا لا يترك شيئا لخيال القارئ وعقله كى يشارك فى اكتمال خلق الصورة والعبارة، ولَفَقَدَ بهجتَه ورونقَه. والطريف أن الرصافى (ص٥٩٩) قد استشهد بهذا البيت على أن كل طَرَفٍ فى أى نقاش دينى لا يمكن أن يتزحزح عما يؤمن به مهما أتيتَه بأسطع البراهين وأعظم الحجج، ولم يجد كاتبنا فى البيت شيئا يمكن أن يعيبه به، وإلا لما توانى عن عيبه والزراية عليه، فهو لا يكاد يعجبه العجب ولا الصيام فى رجب. وبالمثل لو أن عمرو بن كلثوم فى بيته البديع من نونيته المشهورة:

وكـأسٍ قــد شربــتُ ببعلبــكٍّ وأخــرى فى دمــشق وقاصرينـا

قال بدلا من ذلك تجنبا للحذوف التى فيه: "وكم من الكؤوس قد شربتها ببعلبك، وكم من الكؤوس الأخرى قد شربتها فى دمشق، وكم من الكؤوس قد شربتها أيضا فى قاصرين" لذهبتْ روعته. ثم كيف ينسى الرصافى أنه فى انتقاده أسلوب القرآن فإنه لا ينتقد محمدا بل ينتقد الله نفسه باعتبار "أن محمدا لم يَصُغ الكلام إذ صاغه، ولكن الله صاغ"، وذلك على منوال "وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى" طبقا لتفسيره هو نفسه للقرآن وقوله بوحدة الوجود؟ وشىء ثالث شديد الأهمية ويتعلق بالحساسية التعبيرية والنقدية لم يلتفت إليه الرصافى فى غمرة عناده وحذلقته وتنطعه، ألا وهو أن من يسقون الحجيج ويعمرون المسجد الحرام لا يفعلون ذلك من قلوبهم تقربا إلى ربهم بل يؤدونه تأدية شكلية ابتغاء السمعة، فكأنه عمل لا صاحب له بخلاف الإيمان بالله واليوم الآخر الصادر من أعماق القلوب ويراد به وجه الله، فهو عملُ بشرٍ يحسون ويؤمنون بربهم ويرجُون ثوابه ويَخْشَوْن التقصير والتعرض لعقابه. أى أن الله قد أهمل ذكر سُقَاة الحجيج وعُمَّار المسجد الحرام فلم يُقِمْ لهم وزنا لأنهم لم يقصدوا وجهه الكريم سبحانه.

وأخيرا وليس آخرا لقد نسى أو جهل الرصافى أن الجمل التى تنتهى بها كثير من الآيات مثل "والله لا يهدى القوم الظالمين" تؤدى دورا خطيرا فى تثبيت المعانى الدينية الجوهرية العقيدية والخلقية والسلوكية فى نفس قارئ القرآن وحَقْنها فى عروقه كى تجرى فيها مجرى الدم بحيث يكون المسلم على ذُكْرٍ منها دائما لا ينساها أبدا بل يتنفسها تنفسا. أما قوله إن مثل تلك العبارات التى تأتى فى أواخر الآيات إنما جىء بها لمجرد الفصل فهو كلام غير مسؤول لأن القرآن، كما وضحنا مرارا، كثيرا ما يأتى بفاصلة لا

تتسق مع الفواصل التى حولها بما يدل على أن الأمر ليس أمر اضطرار كما يريد الرصافى أن يقنعنا. وهو نفسه قد رصد ذلك فى كتاب الله وأثبته فى كتابه، فلِمَ التملُّص مما لاحظه بنفسه وقرَّره وسجَّله كتابة فى "الشخصية المحمدية"؟

إن القرآن لا يعجب الرصافى رغم أن هذا القرآن هو الذى جعل من أمة العرب البدوية المتخلفة التى لا تعرف من أمر الحضارة شيئا أمة عزيزة كريمة واثقة من نفسها فتحت العالم وغيرت مسار التاريخ وكونت إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف تستعمل شعوبُها الكثيرةُ لغتَها وتعتنق دينَها وتتمسك بكثير من تقاليدها وتهب مجاهدة فى سبيل الله تنشر الدين الذى أتاهم عن طريقها، أما الرصافى فهو لا يستطيع السيطرة على نفسه فيتهالك على المومسات والخمر والغلمان ويمد يده للشحاتة من الآخرين، ثم يأنس فى نفسه الجرأة على انتقاد الرسول الكريم العظيم والقرآن المجيد الذى نزل عليه من السماء. يا للعجب العُجَاب!

وأما قول الرصافى إن عبارة "والله عليم حكيم" فى الآية رقم ١٠٦ من سورة "التوبة": "وآخرون مُرْجَوْن لأمر الله إمّا يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم" هى العبارة التى سأل عبد الله بن سعد بن أبى السَّرْح النبى عليه السلام: أهى "والله عليم حكيم" أم هل هى "والله غفور رحيم"؟ وإن الرسول رد عليه بأن هذه مثل تلك لا فرق بينهما، وأيَّتَهما كتبتَ كان صحيحا فهو كلام غير صحيح. ذلك أن الروايةَ المذكورة خاصةٌ بالوحى المكى إن كانت صحيحة أصلا، أما سورة "التوبة" فهى من الوحى المدنى. وهذه هى الرواية كما أوردها ابن تيمية فى "الصارم المسلول"، وجاء فى موقع "الدرر السنية" أن إسنادها ليس بثقة: "عن عبد الله بن عباس عن ابن أبى سرحٍ أنَّه كان تكلَّمَ بالإسلام، وكان يكتبُ لرسولِ اللهِ صلّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فى بعضِ

الأحايينِ، فإذا أملى عليهِ "عَزِيزٌ حَكِيمٌ "كتبَ "غَفُورٌ رَحِيمٌ" فيقولُ رسولُ اللهِ صلّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: هذا وذاكَ سواء. فلمّا نزلَتْ: "وَلَقَدْ خَلَقْنا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِين" أملاها عليهِ، فلمّا انتهى إلى قولِه: "خَلْقًا آخَرَ" عجِبَ عبدُ اللهِ بنُ سعدٍ فقال: "تَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ" فقال رسولُ اللهِ صلّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: كذا أُنزِلَتْ علَى، فاكتبْها. فشكَّ حينئذٍ وقال: لَإِنْ كان محمَّدٌ صادقًا لقد أُوحِىَ إلىَّ كما أُوحِىَ إليهِ، ولئن كان كاذبًا لقد قلتُ كما قال. فنزلَت هذه الآية". وهذا حدث، كما قلت، فى مكة، ويؤكده الكلام المتعلق بقوله عز شأنه: "فتبارك الله أحسن الخالقين"، إذ هو نهاية آية من آيات سورة "المؤمنون"، والسورة كلها مكية بما فى ذلك الآية والفاصلة المذكورتان. وتعليقى على ذلك هو كالآتى: فلتكن الرواية خاصة بنهاية الآية المدنية من سورة "التوبة" أو بسورة من السور المكية، فما المشكلة عند الرصافى، وهو الذى يقول بوحدة الوجود بما يعنى أننا نحن البشر داخلون فى تلك الوحدة، وما يصدر عنا هو صادر عن الله؟ أولسنا نحن والله شيئا واحدا كما تقول وحدة الوجود؟ فلماذا يثير الرصافى الضجة إذن حول الآية؟ أتراه يقول بالشىء ثم يستدير فيسخر من لازمه؟ ألا إن أمره لغريب أشد الغرابة.

أما الرواية المذكورة فلا تثبت على حال: فتارة يقال إن المقصود مسيلمة الكذاب، وتارة يقال إنه الأسود العنسى. وكل ذلك مرفوض لأنهما لم يتنبآ ويزعما هذا الزعم إلا فى أواخر حياة النبى بالمدينة، بينما قوله تعالى فى سورة "الأنعام": "ومن أظلم ممن كَذَب على الله أو قال أُوحِىَ إلىَّ ولم يُوحَ إليه شىء ومن قال سأُنْزِل مثلما أَنْزَل اللهُ..."، وهو الكلام الذى يشير فيما يقولون إلى ابن أبى سرح، هو من الوحى المكى. وفى رأى ابن عاشور أن تلك كلها ادعاءات أريد بها السخرية من النبى، ولم يقع شىء مما نسب إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح. وروى القرطبى لدن حديثه عن آية "الأنعام" أن المراد

بقَوْله تعالى: "وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ "هو عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِى سَرْحٍ، الَّذِى كَانَ يَكْتُبُ الْوَحْى لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالْمُشْرِكِينَ. وَسَبَبُ ذَلِكَ فِيمَا ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِى فى "الْمُؤْمِنُونَ": "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ" دَعَاهُ النَّبِى صلى الله عليه وسلم فَأَمْلَاهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا انْتَهَى إلى قَوْلِهِ: "ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقًا آخَرَ" عَجِبَ عَبْدُ اللَّهِ فِى تَفْصِيلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ فَقَالَ: "فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ"، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: وَهَكَذَا أُنْزِلَتْ عَلَى. فَشَكَّ عَبْدُ اللَّهِ حِينَئِذٍ وَقَالَ: لَئِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا لقد أُوحِى إلى كما أُوحِىَ إليه، ولين كَانَ كَاذِبًا لَقَدْ قُلْتُ كَمَا قَالَ. فَارْتَدَّ عَنِ الإسلام وَلَحِقَ بِالْمُشْرِكِينَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: "وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ". رَوَاهُ الْكَلْبِى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِى شرَحْبِيلُ قَالَ: نَزَلَتْ فِى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِى سَرْحٍ "وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ". ارْتَدَّ عَنِ الإسلام، فَلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ أَمَرَ بِقَتْلِهِ وَقَتْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَطَلٍ وَمَقِيسِ بْنِ صُبَابَةَ وَلَوْ وُجِدُوا تَحْتَ أَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، فَفَرَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِى سَرْحٍ إلى عُثْمَانَ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ أَخَاهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ، أَرْضَعَتْ أُمُّهُ عُثْمَانَ، فَغَيَّبَهُ عُثْمَانُ حَتَّى أَتَى بِهِ رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَعْدَ مَا اطْمَأَنَّ أَهْلُ مَكَّةَ فَاسْتَأْمَنَهُ لَهُ، فَصَمَتَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ: نَعَمْ. فَلَمَّا انْصَرَفَ عُثْمَانُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: مَا صَمَتُّ إِلَّا لِيَقُومَ إِلَيْهِ بَعْضُكُمْ فَيَضْرِبَ عنقه. فقال رجل من الأنصار: فهلا أَوْمَأْتَ إِلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: إن النَّبِىَّ لَا يَنْبَغِى أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ. قَالَ أَبُو عُمَرَ: وَأَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِى سَرْحٍ أَيَّامَ الْفَتْحِ، فَحَسُنَ إسلامهُ، وَلَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ مَا يُنْكَرُ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ. وَهُوَ أَحَدُ النُّجَبَاءِ الْعُقَلَاءِ الْكُرَمَاءِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَفَارِسُ بَنِى عَامِرِ بْنِ لُؤَى الْمَعْدُودُ فِيهِمْ، ثُمَّ وَلَّاهُ عُثْمَانُ بَعْدَ ذَلِكَ مِصْرَ سَنَةَ

خَمْسٍ وَعِشْرِينَ. وَفُتِحَ عَلَى يَدَيْهِ إِفْرِيقِيَّةُ سَنَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، وَغَزَا مِنْهَا الْأَسَاوِدَ مِنْ أَرْضِ النُّوبَةِ سَنَةَ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ، وَهُوَ هادَنَهم الهدنةَ الباقية إلى اليوم. وَغَزَا الصَّوَارِى مِنْ أَرْضِ الرُّومِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ وفَادَاتِهِ مَنَعَهُ ابْنُ أَبِى حُذَيْفَةَ مِنْ دُخُولِ الْفُسْطَاطِ، فَمَضَى إلى عَسْقَلَانَ فَأَقَامَ فِيهَا حَتَّى قُتِلَ عُثْمَانُ رَضِى اللَّهُ عَنْهُ. وَقِيلَ: بَلْ أَقَامَ بِالرَّمْلَةِ حَتَّى مَاتَ فَارًّا مِنَ الْفِتْنَةِ. وَدَعَا رَبَّهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَاتِمَةَ عَمَلِى صَلَاةَ الصُّبْحِ. فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى فَقَرَأَ فِى الرَّكْعَةِ الْأُولَى بِـ"أُمِّ الْقُرْآنِ" وَ"الْعَادِيَاتِ"، وَفِى الثَّانِيَةِ بِـ"أُمِّ الْقُرْآنِ" وَسُورَةٍ، ثُمَّ سَلَّمَ عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ ذَهَبَ يُسَلِّمُ عَنْ يَسَارِهِ، فَقَبَضَ اللَّهُ رُوحَهُ. ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ يَزِيدُ بْنُ أَبِى حَبِيبٍ وَغَيْرُهُ. وَلَمْ يُبَايِعْ لِعَلِى وَلَا لِمُعَاوِيَةَ رَضِى اللَّهُ عَنْهُمَا. وَكَانَتْ وَفَاتُهُ قَبْلَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ عَلَى مُعَاوِيَةَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ تُوُفِّىَ بِإِفْرِيقِيَّةَ. وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ تُوُفِّى بِعَسْقَلَانَ سَنَةَ سِتٍّ أَوْ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ. وَقِيلَ: سَنَةَ سِتٍّ وَثَلَاثِينَ".

والآن كيف يقول النبى يا ترى ما قال، وهو الذى أكد لنا أن الإسلام يَجُبّ ما قبله؟ ومتى جاء النبيَّ أيُّ شخصٍ معلنا إسلامه وأراد معاقبته على ما كان منه قبل اعتناقه دين الله وإيمانه بنبوة رسول الله وأن القرآن هو وحى من عند الله؟ وكيف يكون جهاد بن أبى سرح العظيم فى نشر الإسلام وخدمته على هذا النحو الذى ذكره القرطبى والذى يدل على إيمان عميق راسخ، ثم يقال إنه المقصود بآية سورة "الأنعام"؟ كذلك لو كانت الرواية صحيحة لكان حريا بالنبى أن يقول له متسائلا حين أتاه مسلما: "وأين الوحى الذى أُوحِىَ إليك؟ وأين الذى أنزلتَه مثلما أنزل الله؟" حتى يزيل من النفوس الشكوك التى يمكن أن تكون حاكت فيها جراء ما صنعه ابن أبى سرح حين قال ما قال عن الوحى وأنه قادر على الإتيان بمثله، وذلك مثل صنيعه صلى الله عليه وسلم مع قريبه أبى سفيان بن الحارث، الذى كان ينظم الشعر فى الهجوم على الإسلام

ورسوله، ثم أتى النبيَّ يعلن إسلامه عند فتح مكة وأنشده فى إسلامه واعتذاره مما سلف منه:

لعَمْـرُك إنــى يــومَ أحمــل رايــةً　　لِتَغْلِـبَ خيـلُ الـلات خيـلَ محمـدِ
لَكــالمظلِم الحــيران أظلــم ليلُــه　　فهـذا أوانِـى حـين أُهْـدَى فأهتـدى
هــدانِىَ هــادٍ غــير نفــسى ودلَّنــى　　عـلى الله مَــنْ طَرَّدُتـه كـل مَطْـرَدِ
أصــدّ وأنــأَى جاهــدًا عــن محمــد　　وأُدْعَـى، وإن لم أنتـسبْ مـن محمـد

فقال له عليه السلام وهو يضربه على صدره: "أنت طَرَّدْتَنى كل مَطْرَد؟". أنا إذن مع ابن عاشور فى أن الأمر كله لا يعدو أن يكون كلاما ساخرا لا علاقة له بالواقع. ولقد قال الكفار: "لو نشاء لقلنا مثل هذا"، أى مثل القرآن، ومع هذا لم يشاؤوا ولم يحاولوا. فالكلام كله مجرد دعاوى تهكمية وجزء من الحرب الدعائية ضد الوحى والرسول عليه السلام.

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فأحب أن أبين للناس أن الرصافى ليس ذا عقلية ناقدة سليمة حتى مع أشد الروايات إغراقا فى اللامنطق، إذ نراه يقبلها ما دامت تؤدى غرضه من العيب على كل ما يتعلق بالقرآن وبالنبى. قال (ص٥٧١- ٥٧٢): "وفى "الإتقان": عن عكرمة قال: كان المشركون يقولون: سورة "البقرة" وسورة "العنكبوت" يستهزئون بها، فنزل "إنا كفيناك المستهزئين". فيفهم من هذا أن التسمية كانت مبعثا لاستهزاء المشركين. ولذلك قال صاحب "الإتقان": وقد كره بعضهم أن يقال: "سورة كذا" لما رواه الطبرانى والبيهقى عن أنس مرفوعا: لا تقولوا: سورة "البقرة" ولا سورة "آل عمران" ولا سورة "النساء"، ولكن قولوا: السورة التى تُذْكَر فيها البقرة، والتى يُذْكَر فيها آل عمران. وكذا القرآن كله". وهو يمضى مؤكدا هذه

الرواية قائلا إن "ابن الجوزى قد ادعى أن هذا الحديث موضوع. وما أدرى لماذا يكون موضوعا وهو معقول، وليس فيه ما يخالف الكتاب ولا السنة". ولست أريد أن أقف أمام قوله إن هذه الرواية لا تخالف القرآن ولا الحديث، ولكن أحب أن أبين ما فيها من لامنطق، إذ كيف يستهزئ المشركون بسورة "البقرة" المدنية وينزل الله سبحانه فى هذا الاستهزاء آية فى سورة "الحِجْر" المكية، أى قبل الهنا بسنة بل بسنوات؟ وكان ينبغى أن ينبه كاتبَنا المعاندَ المتمردَ اعتراضُ ابن الجوزى على الرواية إلى ما فيها من لامنطق، لكن الرصافى لم يزدد على اعتراض ابن الجوزى إلا عُتُوًّا فى تصديق اللامنطق. وهو نفسه ما لاحظناه عليه حين صدق الرواية المتعلقة بفاصلة "والله عليم حكيم" المدنية وكيف أنها كانت سببا فى تشكك ابن أبى سرح بمكة فى نبوة محمد.

وفى الصفحتين التاسعة والستين والسبعين بعد المائة يعيب الرصافى جملة الفاصلة فى قوله تعالى من سورة "الأحزاب": "يا نساء النبى مَنْ يَأْتِ منكنَّ بفاحشة مبيِّنةٍ يضاعَفْ لها ا لعذابُ ضِعْفَيْن وكان ذلك على الله يسيرا" قائلا إنها "قلقة نافرة لا تُنَاسِب ما تقدمها من الكلام، وإنما جِيءَ بها لتكون فاصلة ليس إلا. ولا ريب أن مضاعفة العذاب ليست من الأمور التى تصعب على أحد من الناس فضلا عن الله، الذى هو قادر قهار شديد العقاب، فلا يناسب أن يقال: "وكان ذلك على الله يسيرا"، وإنما يناسب أن يقال ذلك عند ذكر أمر يعجز عنه كل قادر سوى الله". ومن الواضح الساطع الوضوح أنه لم يفهم مغزى الفاصلة واتجاهها. فليس المراد أن الله ينفى صعوبة معاقبة زوجات الرسول بل المراد أن كونهن زوجات نبيِّه وصَفِيِّه لا يمنع أبدا أن يعاقَبْن بل سوف ينزل بهن العقاب فى الحال دون أى اعتبار لنبوة زوجهن. وبالمثل فإن زعم الرصافى أن هذه الفاصلة لا تناسب ما تقدمها من كلام هو زعم متهافت، وإلا فإن لم

تكن مناسبة لقوله عزشأنه فى بداية الآية: "مَنْ يَأْتِ منكن بفاحشةٍ مبيِّنةٍ يضاعَفْ لها العذاب ضِعْفَيْن" فلن تكون هناك مناسبة بين أى موضوعين. واضح أن الرصافى لا يجد شيئا يقوله، فهو يهلوس.

وعلى نفس الشاكلة يرى أن الفاصلة فى قوله جل ذكره من سورة "الإسراء": "وإنْ مِنْ شىءٍ إلا يسبِّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحَهم إنه كان حليما غفورا" غير موفقة إذ لا تناسب بينها وبين تسبيح الأشياء كلها لربها. ولا أدرى كيف غاب عنه أن المراد هو تنبيه البشر العصاة إلى أنه سبحانه وتعالى حليم غفور، ولولا حلمه وغفرانه لأنزل بهم العقاب الصارم لعنادهم وكفرانهم فى الوقت الذى تسبِّح بحمد الله كل المخلوقات ما عداهم. ثم سيان بعد هذا أن يكون تسبيحُ الأشياء لربها وحمدُها إياه بلسان الحال أو بلسان المقال على نحو لا يدركه سوى ربها، الذى خلقها ومكنها من التسبيح بتلك اللغة التى لا يعرفها سواه سبحانه. فالكلام عن حلم الله وغفرانه للبشر لا للأشياء كما توهم الرصافى تسرعا منه لإشباع شهوته فى النيل من رسول الله، الذى أثنى عليه فى بداية الكتاب ثناء عظيما ضخما هائلا تظاهرا منه بأنه يقدِّره ويعرف له فضله وعبقريته، لكنه كلما مضى فى الكتاب نَزَّتْ نفسه بما فيها من قيح الكره له صلى الله عليه وسلم والحقد عليه. ولو لم يكن مبغضا للنبى ما عاب القرآن ولا أيا من تصرفاته بكلمة واحدة ما دام يؤمن بوحدة الوجود، التى تقتضى أن ما يفعله الرسول أو أى منا هو فعل الله لا فعل أى شخص منا. لكن الرصافى يمكر ويتخابث، ولكن على من؟ إن مكره وخباثته ظاهران للعيان، وإن شماتته بالرسول والقرآن لشماتةٌ فِجَّةٌ غيرُ مستساغة.

ومِنْ تعلُّق الرصافى بكل ما يرى أنه يسىء إلى القرآن والنبى تصديقه ما جاء فى "الإتقان" من روايات تقول إنه كانت هناك سورتان تسميان: "سورة الخَلْع وسورة

الحَفْد". ونص الأولى: "اللّٰهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثنى عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك"، وأما سورة "الحفد" فنصها: "اللّٰهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد نخشى عذابك ونرجو رحمتك إن عذابك بالكفار ملحق" (ص٥٧٦).

ومن أول نظرة نقول، ونحن موقنون بصحة ما نقول، إن هذه السطور لا تمتّ بأية وشيجة للقرآن الكريم، فالمنطق العقلى والتاريخى والنفسى لا يقبلها بتاتا، كما أن الروايات التى أوردت هذين النصين ترفض هى نفسها مثل هذا الزعم حسبما سنبين بعد قليل. علاوة على أن الأسلوب فيهما ليس هو الأسلوب القرآنى، ولا اللفتات هى اللفتات، ولا الروح هى الروح.

ونبدأ بالروايات. ولقد فتشت عن تينك السورتين فى كتب الحديث التسعة الرئيسية: البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وأبى داود وابن ماجة والدارمى ومسند أحمد وموطأ مالك، فلم أجدهما. وأذكر أننى، وأنا صغير، كنت أحفظهما على أنهما من القنوت ليس إلا. والحق أنهما لا يمكن أن تكونا شيئا آخر سوى هذا. ولا أظن أنهما كانتا فى مصحف أُبَىّ بن كعب أو غيره، إذ لا يُعْقَل أن ينفرد أحد الصحابة دونهم جميعا بإثبات سورتين لا يعرفهما سائر المسلمين، وبخاصة إذا علمنا أن جمع القرآن كان يعتمد على أن يكون هناك شاهدان من الصحابة لكل نص، علاوة على مظاهرة الكتابة عند ذاك للذاكرة. فهل يُعْقَل أن يستمر أُبَىٌّ أو غير أُبَىٍّ رغم ذلك فى التمسك بظنه هو وحده بكون هذين النصين سورتين قرآنيتين ويهمل آراء سائر الصحابة؟ وهذا لو كان للرواية وجه، وهو ما لا أظنه أبدا!

وقد أورد السجستانى فى كتابه: "المصاحف" رواية تقول إن أُبَيًّا اشترك فى كتابة المصحف الذى تم جمعه أيام أبى بكر، إذ كان رجال يُمْلُون عليه فيكتب (دار الكتب العلمية/ بيروت/ ١٥، وهو ما نجده أيضا فى "مسند أحمد" فى حديث أبى العالية الرياحى عن أُبَىّ بن كعب رضى الله عنه)، كما أورد (ص ٣٣- ٣٤) أكثر من رواية بأنه كان واحدا من اللجنة التى عينها عثمان لجمع الناس على مصحفٍ واحدٍ إمامٍ خشية الفتنة. ونفس الشىء نجده فى "فتح البارى بشرح صحيح البخارى" أثناء شرح الحديث الخاص بكتابة المصحف الأمّ على عهد عثمان، إذ يذكر ابن حجر نقلا عن ابن أبى داود من طريق محمد بن سيرين أن عثمان رضى الله عنه "جمع اثنى عشر رجلا من قريش والأنصار، منهم أُبَى بن كعب". وفى "الصاحبى" لابن فارس رواية عن هانئ قال: "كنت عند عثمان رضى الله تعالى عنه، وهم يعرضون المصاحف، فأرسلنى بكَتِف شاه إلى أُبَى بن كعب فِيهَا "لَمْ يَتَسَنَّ" و"فأَمْهِل الكافرين" و"لا تبديل للخلق"، قال: فدعا بالدّواة فمحا إحدى اللامين وكتب "لخلق الله" ومحا "فأمهل" وكتب "فَمَهِّل" وكتب "لَمْ يَتَسَنَّهْ": ألحقَ فِيهَا هاءً". فلو كانت فى مصحفه تَانِكَ السورتان لقد كان يعتقد إذن أنهما قرآن فعلا، فلماذا لم يثر هذه المسألة على أعين الناس حينها وآذانهم؟ ولو كان فعل لكان قد رُوِىَ هذا الذى فعل. أليس كذلك؟ أمّا، ولم يصلنا شىء عن هذا، فمعناه أنه لم يُثِر الأمر وأنه لم يكن يعتقد أن هاتين السورتين من القرآن فعلا، إذ لا يُعْقَل أنه كان يؤمن بأنهما سورتان قرآنيتان ثم يسكت فلا يفاتح إخوانه الصحابة فى مثل ذلك الموضوع الخطير، فإما أقنعهم وإما أقنعوه! وقد ألقى أبو الحسن الأشعرى الضوء على جانب مهم فى تلك المسألة بقوله: "قد رأيت أنا مصحف أَنَسٍ بالبصرة عند قومٍ من ولدِه، فوجدتُه مساويًا لمصحف الجماعة، وكان ولد أنسٍ يروى أنه خَطُّ أَنَسٍ وإملاء أُبَىِّ

بن كعب". أما إيراد بعض علمائنا القدامى لمثل تلك الروايات فإن دلّ على شىء فعلى أنهم كانوا لا يتحرجون فى أمور العلم والبحث، بل كانوا يوردون كل شىء يصلهم، عارفين أن العقل الإسلامى قادر على تمحيصه وإنزاله منزله الصحيح. لقد كانوا فى الواقع أوفياء لمنهج الحياد فكانوا يثبتون كل ما يقع لهم دون خشية، وإن لم نشاطرهم موقفهم ذاك رغم كل شىء.

أما ما كتبه أحد القراء الأفاضل تعليقا على هذه الفقرات فى نسختها الأولى فى موقع "ملتقى أهل التفسير" بقوله: "حقيقة أن ما وصل إليه الشيخ الفاضل إبراهيم عوض من أن هاتين السورتين استقر الحال على القنوت بهما فى النصف الثانى من رمضان أوافقه عليه لصحة الحديث بذلك عن سيدنا عمر رضى الله عنه كما عند ابن خزيمة. إلا أن ترجيح أنهما ليستا من القرآن فهذا محل نظر، بل الراجح كما ذهب إليه جماعة من العلماء أنهما من القرآن وأنهما مما نُسِخ لفظا وحكما. وكيف يستجيز سيدنا أُبَى وغيره من الصحابة كتابتهما فى المصحف، وهما ليستا من القرآن؟ قال العلامة الشنقيطى (مالكى) فى "أضواء البيان": ومثال نَسْخ الكتاب بالسُّنّة نسخ آية عشر رضعات تلاوةً وحكمًا بالسنة المتواترة، ونسخ سورة "الخلع" وسورة "الحفد" تلاوةً وحكمًا بالسُّنّة المتواترة. وسورة "الخلع" وسورة "الحفد" هما القنوت فى الصبح عند المالكية. وقد أوضح صاحب "الدر المنثور" وغيره تحقيق أنهما كانتا سورتين من كتاب الله ثم نُسِخَتا. وقال الشيخ أحمد الطحاوى (حنفى) فى حاشيته على "مراقى الفلاح": ذكر السيوطى أن دعاء القنوت من جملة الذى أنزله الله على النبى صلى الله عليه وسلم، وكانا سورتين، كلّ سورة ببسملة وفواصل: إحداهما تسمى: سورة "الخلع"، وهى: بسم الله الرحمن الرحيم اللّهم إنا نستعينك... إلى قوله: من يكفرك. والأخرى تسمى: سورة "الحفد"،

وهى: بسم الله الرحمن الرحيم اللّهم إياك نعبد... إلى: ملحق. وقد اختلفت الصحابة فى نَسْخهما، وكتبهما أُبَى فى مصحفه، فعِدّة سور القرآن عنده مائة وست عشرة سورة. وقال الشيخ زكريا الأنصارى (شافعى) فى "البهجة الوردية": وَرَأَيْتُ فِي رِسَالَةِ الإِمَامِ السُّيُوطِي أَنَّهُ كَانَ سُورَتَيْنِ أَنْزَلَهُمَا اللَّهُ كُلُّ وَاحِدَةٍ بِبَسْمَلَةٍ: تَنْتَهِى الأُولَى الْمُسَمَّاةُ: سُورَةَ "الْخَلْعِ" بِـ"يَفْجُرُكَ"، وَمَبْدَأُ الثَّانِيَةِ الْمُسَمَّاةِ: سُورَةَ "الْحَفْدِ": "إِيَّاكَ". ثُمَّ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ فِيهِمَا هَلْ نُسِخَا أَمْ لا، حَتَّى كَتَبَهُمَا بَعْضُهُمْ فِي مُصْحَفٍ فَجَعَلَ عَدَدَ السُّوَرِ مِائَةً وَسِتَّ عَشْرَة سُورَةً. والله أعلم"، فرغم سعادتى به لدلالته على اهتمام القراء بالمسألة المطروحة فى تلك الدراسة ذلك الاهتمام العلمى الراقى وكذلك لنجاحه فى تحريك عقلى، فهو غير مقنع للأسباب التالية:

فأولا: كيف يقال إن السورتين قد نُسِخَتا لفظا، وهما ما زالتا موجودتين بألفاظهما؟ إن هذا كمن يقول: "سعيد غائبٌ حاضرٌ"، أو "حيٌّ ميتٌ" مثلا، وهو ما لا يجوز فى شرعة العقل. ثم ما معنى أنهما نُسِخَتا حكما؟ إنهما لا تتعرضان لمسألة تشريعية حتى يمكن أن يقال إن الحكم التشريعى الذى كان فيهما قد تغير. ومعروف أنه لا نسخ فى مسائل الاعتقادات والتاريخ، ويلحق بهما الأدعية، والسورتان منها. وعلى أية حال فما زلنا ندعو بالسورتين ولم يقل أحد إن الدعاء بهما أصبح لاغيا، فما القول إذن؟ وثانيا: كيف يقال إنهما قد نُسِختا، ومع ذلك يستمر أُبَىٌّ فى إثباتهما بمصحفه؟ والعجيب أن يستدل بعض العلماء على قرآنيتهما من وجودهما فى مصحف ذلك الصحابى الكريم، وكان الأحرى أن يتعجبوا من بقائهما فيه رغم ذلك بدلا من استدلالهم بهذا البقاء على أنهما من القرآن! وثالثا: هل من المعقول أن تُنْسَخ السورتان ولا يدور بين الصحابة أخذ ورد حول إبقاء أُبَىٍّ عليهما فى نسخته، بل يمرّ الأمر مرور الكرام، وكأن أمرهما من

الهوان بمكان؟ ألا إن ذلك لأمرٌ غريبٌ وبعيدٌ جِدُّ بعيدٍ! ورابعا: إذا كان هذان النصان فى البداية قرآنا، فيا ترى ما حكمهما الآن؟ ألا يزالان قرآنا؟ إذن فهما لم يُنْسَخا؟ أم لم يعودا قرآنا؟ فكيف ننظر إليهما الآن إذن من ناحية الإعجاز مثلا؟ أما فتئا معجزين رغم زوال قرآنيتهما عنهما؟ كيف، ولا مُعْجِز من الكلام إلا القرآن؟ أم نقول إنهما قد زالت عنهما تلك الإعجازية؟ فكيف؟ نعم كيف يسع المسلمَ الزعمُ بأن كلام الله قد تحول وزالت عنه طبيعته التى كانت له؟ أم نقول إنهما لم يبقيا كلاما من كلام الله؟ ألا إن ذلك لخطيرٌ جِدُّ خطيرٍ! وخامسا: فإن الرد على التساؤل الهام الذى طرحه المعلق الكريم قائلا: كيف يستجيز سيدنا أبى وغيره من الصحابة كتابتهما فى المصحف، وهما ليستا من القرآن؟ هو تساؤل لا يقل بل يزيد عنه أهمية، ألا وهو: وكيف يستجيز سائر الصحابة عدم إثباتهما فى مصاحفهم وهما من القرآن؟ وبهذا نعود إلى ما قلتُه آنفا من أنه ليس من المقبول منطقا ولا عقلا ولا شرعا أن نأخذ برأى أُبَىّ بن كعب وحده ونهمل آراء الصحابة أجمعين، وعلى رأسهم اللجنتان اللتان كُلِّفَتا فى عهد أبى بكر وعثمان بجمع القرآن! وهذا لو كان ثمة وجه لتلك الرواية القائلة بأن أبيا كان يثبتهما فى مصحفه، وهو ما قلت إننى غير مقتنع به. وقد وجدت ابن قتيبة يذهب إلى ما ذهبت إليه هنا، إذ عبر عن رأيه فى "تأويل مشكل القرآن" بقوله: "لا نقول إن أُبَيًّا رحمة الله عليه أصاب وحده، وأخطأ المهاجرون والأنصار كلهم رضوان الله عليهم، ولكن نقول: ذهب أُبَىٌّ فى دعاء القنوت إلى أنه من القرآن لأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به فى الصلاة دعاء دائما، فظن أنه من القرآن، وأقام على ظنه ومخالفة الصحابة".

واضح أن النصين لا يخرجان عن أن يكونا قنوتا كان عمر أو علىّ يقنت به بعد القيام من الركوع، أو عقب الانتهاء من قراءة السورة التى بعد الفاتحة وقبل أن يركع.

ومعروف أن المسلمين لا يقنتون فى صلاتهم بالقرآن! وحتى لو ضَرَبْنا عن كل ما سبق صَفْحًا وقلنا إن الرواية صحيحة وإن أُبَيًّا كان رغم ذلك يعتقد أن هذين النصين سورتان قرآنيتان فعلا على عكس ما كان الصحابة جميعا يؤمنون فإن هذا لا يعدو أن يكون اجتهادا منه لا يُلْزِم غيره، ومن ثم لا يمكن أن نأخذ بها لديه ونهمل موقف الصحابة على بَكْرَة أبيهم، إذ ليس هذا من المنهج العلمى ولا المنطق العقلى فى شىء.

وقد قرأت فى "المصنَّف" لابن أبى شيبة تحت عنوان "مَا يَدْعُو بِهِ فِى قُنُوتِ الْفَجْرِ" عدة روايات تدل على أن هذين النصين ليسا إلا قنوتا، ومنها الروايات الثلاث التالية التى تغنينا عن ذكر سائرها: "حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ أَبِى لَيْلَى عَنْ عَطَاءٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: صَلَّيْت خَلْفَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ الْغَدَاةَ فَقَالَ فِى قُنُوتِهِ: اللَّهُمَّ إنَّا نَسْتَعِينُك وَنَسْتَغْفِرُك، وَنُثْنِى عَلَيْك الْخَيْرَ وَلا نَكْفُرُك، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ. اللَّهُمَّ إيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَك نُصَلِّى وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْك نَسْعَى وَنَحْفِدُ، وَنَرْجُو رَحْمَتَك وَنَخْشَى عَذَابَك، إنَّ عَذَابَك بِالْكُفَّارِ مُلْحِق"، "حَدَّثَنَا وَكِيعٌ قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِى ثَابِتٍ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سُوَيْد الْكَاهِلِى أَنَّ عَلِيًّا قَنَتَ فِى الْفَجْرِ بِهَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ: اللَّهُمَّ إنَّا نَسْتَعِينُك وَنَسْتَغْفِرُك، وَنُثْنِى عَلَيْك الْخَيْرَ وَلا نَكْفُرُك، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ. اللَّهُمَّ إيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَك نُصَلِّى وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْك نَسْعَى وَنَحْفِدُ، نَرْجُو رَحْمَتَك وَنَخْشَى عَذَابَك، إنَّ عَذَابَك الْجِدَّ بِالْكُفَّارِ مُلْحِقٌ"، "حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ قَالَ: أَخْبَرَنَا حُصَيْنٌ قَالَ: صَلَّيْت الْغَدَاةَ ذَاتَ يَوْمٍ، وَصَلَّى خَلْفِى عُثْمَانُ بْنُ زِيَادٍ قَالَ: فَقَنَتُّ فِى صَلاةِ الصُّبْحِ قَالَ: فَلَمَّا قَضَيْتُ صَلاتِى قَالَ لِى: مَا قُلْتَ فِى قُنُوتِك؟ قَالَ: فَقُلْتُ: ذَكَرْتُ هَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إنَّا نَسْتَعِينُك وَنَسْتَغْفِرُك، وَنُثْنِى عَلَيْك الْخَيْرَ كُلَّهُ وَلا نَكْفُرُك، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ. اللَّهُمَّ إيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَك نُصَلِّى وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْك نَسْعَى وَنَحْفِدُ، نَرْجُو

رَحْمَتَك وَنَخْشَى عَذَابَك. إنَّ عَذَابَك الْجِدَّ بِالْكُفَّارِ مُلْحِقٌ. فَقَالَ عُثْمَانُ: كَذَا كَانَ يَصْنَعُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّان".

كما قرأت فى كتاب "التدوين فى أخبار قزوين" للإمام الرافعى أن هذين النصين قنوت من القنوت: "محمد بن أحمد بن جابارة أبو سليمان الجابارى القزوينى سمع أبا طلحة الخطيب فى "الطوالات" لأبى الحسن القطان بسماع الخطيب منه: أنبا أبو محمد الحارث بن محمد بن أبى أسامة: ثنا يزيد بن هارون: أنبأ أبان بن أبى عياش قال: سألت أنس بن مالك رضى الله عنه عن الكلام فى القنوت، فقال: اللّٰهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثنى عليك الخير ولا نكفرك، ونؤمن بك ونخلع ونترك من يفجرك، اللّٰهم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، ونرجو رحمتك ونخشى عذابك الجد، إن عذابك بالكافرين ملحق. اللّٰهم عذب الكفرة، وألق فى قلوبهم الرعب، وخالف بين كلمتهم، وأنزل عليهم رِجْزَك وعذابك. اللّٰهم عذب الكفرة أهل الكتاب الذين يصدون عن سبيلك، ويكذّبون رسلك ويجحدون بآياتك، ويجعلون معك إلهًا لا إله غيرك. اللّٰهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، وأصلحهم واستصلحهم وألف بين قلوبهم وأصلح ذات بينهم، واجعل فى قلوبهم الإيمان والحكمة وثبّتْهم على ملة رسولك، وأَوْزِعْهم أن يشكروا نعمتك التى أنعمت عليهم، وأن يوفوا بعهدك الذى عاهدتهم عليه، وانصرهم على عدوهم وعدوك إله الحق. قال أنس: والله إِنْ أُنْزِلَتا إلا من السماء".

وفى الإصدار العاشر من "تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم" فى موقع "الدرر السنية" بحثت أيضا عن هذين النصين فوجدت أنهما، كما قلت وكما جاء فى الكتابين السابقين، لا يزيدان عن أن يكونا قنوتا. وهذا حديث من

الأحاديث التى عثرت عليها فى هذا الصدد، وكلها تجرى على نفس المنوال: "أن عمر رضى الله عنه قنت بعد الركوع فقال: اللّهم اغفر لنا وللمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، وألِّفْ بين قلوبهم، وأصلح ذات بينهم، وانصرهم على عدوك وعدوهم. اللّهم العن كفرة أهل الكتاب، الذين يصدون عن سبيلك، ويكذبون رسلك، ويقاتلون أولياءك. اللّهم خالف بين كلمتهم، وزلزل أقدامهم، وأنزل بهم بأسك الذى لا ترده عن القوم المجرمين. بسم الله الرحمن الرحيم، اللّهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثنى عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك. بسم الله الرحمن الرحيم، اللّهم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، ولك نسعى ونحفد، ونخشى عذابك الجد، ونرجو رحمتك، إن عذابك بالكافرين ملحق" (الراوى: عبيد بن عمير. خلاصة الدرجة: صحيح موصول. المحدث: البيهقى. المصدر: السنن الكبرى).

والآن نأتى إلى التحليل الأسلوبى رغم أن المنطق واتجاه الأحداث وتحليل الروايات يكفى تماما فى الحكم باستبعاد انتماء هذين النصين للقرآن المجيد دون نقض أو إبرام: وأول شىء نقوله فى هذا الصدد هو أن كلمة "اللّهم" التى افْتُتِحت بها السورة الأولى المزعومة قد وردت فى القرآن خمس مرات لم تأت أى منها فى بداية أية سورة بتاتا.

ثانى شىء: لم يحدث أن ابتدأت أية سورة قرآنية بمناداة الله، وإنما بمناداة البشر: "يا أيها الناس"، "يا أيها الذين آمنوا"، "يا أيها المُزَّمِّل"، "يا أيها المُدَّثِّر".

ثالث شىء: لم تأت كلمة "اللّهم" فى أية سورة إلا وسبقتها كلمة تدل على "القول" لفظا أو معنى. وهذه هى المرات الخمس المذكورة نسوقها أمام القارئ ليكون على بينة خالصة مما نقول واطمئنان تام إليه: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شىء

قَدِيرٌ" (آل عمران/ ٢٦). "قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ" (المائدة/ ١١٤). "وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" (الأنفال/ ٣٢). "دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (يونس/ ١٠). "قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" (الزمر/ ٤٦).

رابع شيء: لم يرد بعد النداء بكلمة "اللّهم" فى القرآن أى ضمير، فضلا عن أن يكون هذا الضمير منفصلا كـ"إياك" (كما فى السورة الأولى المزعومة: "اللّهم إياك نعبد") أو "إنّ" الناسخة (كما فى السورة المزعومة الأخرى: "اللّهم إنا نستعينك ونستغفرك").

خامسا: لا يوجد فى القرآن كله الفعل: "نُصَلِّ" أبدا، بل الذى فيه هو "صَلَّى"، "تُصَلِّ"، "يُصَلّوا"، "يُصَلّون"، "يُصَلِّي"، "صَلِّ"، "صَلُّوا".

سادسا: لم يحدث فى القرآن أن تَقَدَّم حرفُ الجر على الفعل الدال على الصلاة كما فى سورة "الحفد"، بل المشاهد أنه إذا كان هناك حرف جر فإنه يأتى بعد ذلك الفعل، أو تُذْكَر الصلاة مطلقة دون حرف جر أصلا. وهذه هى الشواهد القرآنية: "فلا صدَّق ولا صلَّى * ولكنْ كذَّبَ وتولَّى" (القيامة/ ٣١- ٣٢). "وذَكَر اسْمَ ربِّه فصلَّى" (الأعلى/ ١٥). "أرأيتَ الذى يَنْهَى * عبدًا إذا صلَّى" (العلق/ ٩- ١٠). "ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره" (التوبة/ ٨٤). "ولْتَأْتِ طائفةٌ أخرى لم يُصَلُّوا فلْيُصَلُّوا معك" (النساء/ ١٠٢). "إن الله وملائكته يُصَلُّون على النبىّ يا أيها الذين آمنوا

صَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليما" (الأحزاب/ ٥٦). "هو الذى يُصَلِّى عليكم وملائكتُه ليُخْرِجَكم من الظلمات إلى النور" (الأحزاب/ ٤٣). "خذ من أموالهم صدقةً تطهِّرهم وتزكِّيهم بها وصَلِّ عليهم" (التوبة/ ١٠٣). "إنّا أعطيناك الكَوْثَر * فصَلِّ لربك وانْحَرْ" (الكوثر/ ١ – ٢).

سابعا: ليس فى القرآن الفعل "نسْعَى" أبدا، بل الذى فيه هو "سعى"، "سَعَوْا"، "تَسْعَى"، "تَسْعَوْن"، "يَسْعَوْن". وشواهد ما نقول موجودة فى المواضع التالية: البقرة/ ١١٤، ٢٠٥، والإسراء/ ١٩، والنجم/ ٣٩، والنازعات/ ٣٥، والحج/ ٥١، وسبأ/ ٥، وطه/ ١٥، ٢٠، ٦٦، والقصص/ ٢٠، ويس/ ٢٠، والحديد/ ١٢، والتحريم/ ٨، والنازعات/ ٢٢، وعبس/ ٨، والمائدة/ ٣٣، ٦٤، وسبأ/ ٣٨، والجمعة/ ٦.

ثامنا: لم يأت الفعل "سعى" فى القرآن (فى أى زمن أو فى أية صيغة) مسبوقا بحرف جر ومجروره كما هو الحال هنا: "وإليك نسعى ونحفد". كما أن حرف الجر الغالب مجيئه معه هو "فى"، وليس "إلى" الموجود فى السورة الموهومة التى بين أيدينا.

تاسعا: ثم إنه فى المرة اليتيمة التى جاء بعده الحرف: "إلى" لم يدخل هذا الحرف على اسم الله أو ضميره، بل على كلمة "الذكر": "فاسْعَوْا إلى ذِكْر الله وذَرُوا البيع" (الجمعة/ ٩). وكما تلاحظ فالفعل هنا فعلُ أمرٍ لا مضارعٌ كما هو فى الجملة التى معنا.

عاشرا: وفوق ذلك فالسعى فى القرآن غالبا ما يكون فى الخراب والفساد والمعاجزة كما فى البقرة/ ١١٤، ٢٠٥، والمائدة/ ٣٣، ٦٤، والحج/ ٥١، وسبأ/ ٥، ٣٨ على سبيل القول الصريح، وكما فى الكهف/ ١٠٤، والنازعات/ ٢٢ على سبيل التضمين، أما فى الخير فأقل من ذلك، كما أن ذكر الخير فى معظم الأحيان ضمنى لا صريح.

حادى عشر: ولو ذهبنا نفتش فى القرآن من أوله إلى آخره فلن نعثر على الفعل "يحفد" فى أى زمن من الأزمان أو أية صيغة من الصيغ. بل لا وجود لمادة "ح ف د" فيه على الإطلاق، اللّهم إلا كلمة "حَفَدَة" (النحل/ ٧٢)، وهم أبناء الأبناء، وهذا شىء مختلف عما نحن فيه، ومعناه الإسراع. أى أن مجىء ذلك الفعل فى سورة "الحَفْد" المدَّعاة هو أمر شاذ كسائر ما يتعلق بتلك السورة حسبما تبيِّن هذه الدراسة.

ثانى عشر: رغم ورود الفعل "رجا- يرجو" فى القرآن ٢٢ مرة، فإنه لم يأت قط مضارعا مسندا إلى ضمير المتكلمين: "نرجو" كما هو الحال هنا. والشواهد متاحة لمن يريد فى المواضع التالية: القصص/ ٨٦، والنساء/ ١٠٤، ونوح/ ١٣، والإسراء/ ٢٨، والكهف/ ١١٠، والعنكبوت/ ٥، والأحزاب/ ٢١، والزمر/ ٩، والممتحنة/ ٦، والبقرة/ ٢١٨، والنساء/ ١٠٤، ويونس/ ٧، ١١، ١٥، والإسراء/ ٥٧، والنور/ ٦٠، والفرقان/ ٢١، ٤٠، وفاطر/ ٢٩، والجاثية/ ١٤، والنبأ/ ٢٧، والعنكبوت/ ٣٦.

ثالث عشر: لم تقع كلمة "رَحْمَتك" فى المرات الثلاث التى تكررت فيها فى القرآن مفعولا به مباشرا قط كما هو وَضْعها فى سورة "الحفد"، بل كانت فى كل تلك المرات مجرورة بحرف جر. كما أنها لم تقترن فى أى من تلك المرات بفعل الرجاء على أى وضع من الأوضاع: "قال رب اغفر لى ولأخى وأَدْخِلْنا فى رحمتك" (الأعراف/ ١٥١)، "ونجِّنا برحمتك من القوم الكافرين" (يونس/ ٨٦)، "وأَدْخِلْنى برحمتك فى عبادك الصالحين" (النمل/ ١٩).

رابع عشر: لم يأت الفعل: "نخشى" فى القرآن سوى مرة واحدة: "يقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة" (المائدة/ ٥٢)، وقد أتى على لسان المنافقين المذبذبين لا على لسان المؤمنين الموقنين. كما أنه لم يقع على العذاب، بل على إصابتهم بدائرة، فضلا عن

أن المفعول به الذى وقع عليه فى الآية القرآنية كان مصدرا مؤولا بالصريح: "أن تصيبنا دائرة" لا مصدرا صريحا: "عذابك" كما فى عبارة "سورة الحفد" المزعومة. وأكثر من ذلك أنه لم يحدث أن وقع الفعل: "خَشِيَ- يخشَى" فى أية صورة منه على "العذاب" فى كتاب الله بتاتا.

خامس عشر: مع أن كلمة "عذاب" قد تكررت فى القرآن المجيد بضع مئات من المرات: نكرةً ومعرَّفةً بـ"أل" ومضافةً، فلَمْ يتصادف أن جاءت مضافة إلى "كاف الخطاب" قط كما هو وَضْعها هنا.

سادس عشر: لم يحدث البتة أن اقترن الرجاء والخشية فى كتاب الله كما هو الحال فى قول المبتهلين فى السورة الموهومة التى بين أيدينا: "نرجو رحمتك، ونخشى عذابك".

سابع عشر: لم يأت فى القرآن متعلِّق لخبر "إنّ" أو "أنّ" الداخلة على كلمة "عذاب"، فضلا عن أن يكون سابقا على ذلك الخبر كما هو الحال فى الجملة الأخيرة من السورة الموهومة التى نحن بصددها هنا: "إن عذابك بالكفار ملحق". هذا، وإذا كانت كلمة "عذاب" قد وردت خبرا لـ"إنّ"، و"أنّ" و"لكنّ" فى الشواهد التالية: "ولَإِنْ كفرتم إنّ عذابى لَشديد" (إبراهيم/ ٧)، "وأنّ عذابى هو العذاب الأليم" (الحجر/ ٥٠)، "إن عذاب ربك كان محذورا" (الإسراء/ ٥٧)، "إن عذابها كان غَرَاما" (الفرقان/ ٦٥)، "ذلكم فذُوقُوه وأنّ للكافرين عذابَ النار" (الأنفال/ ١٤)، "إنّا قد أُوحِيَ إلينا أن العذاب على من كَذَّب وتولَّى" (طه/ ٤٨)، "ولكنّ عذابَ الله شديد" (الحج/ ٢)، "إن عذاب ربك لَوَاقع" (الطور/ ٧)، "إن عذاب ربهم غير مأمون" (المعارج/ ٣٨)، فلن تجد للخبر فى أى منها متعلقا أصلا، فضلا عن أن يكون متعلق الخبر متقدما عليه كما هو الحال هنا.

ثامن عشر: وأما بالنسبة لاسم المفعول "مُلْحَق" الواقع خبرا لـ"إن" فى جملتنا الحالية فلا وجود له فى القرآن فى أى موضع منه. كذلك لم يحدث أن وقع فعل من أفعال "الإلحاق" فى القرآن على العذاب قط، بل على ذرية المؤمنين أو على المؤمنين أو على الشركاء الذين كان الكفار يعبدونهم مع الله، أما على العذاب فلا: "قل أَرُونِىَ الذين أَلْحَقْتم به شركاء" (سبأ/ ٢٧)، "والذين آمنوا واتَّبَعَتْهم ذريتُهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذريتَهم" (الطور/ ٢١)، "توفَّنى مُسْلِمًا وأَلْحِقْنى بالصالحين" (يوسف/ ١٠١)، "ربِّ هَبْ لى حُكْمًا وأَلْحِقْنى بالصالحين" (الشعراء/ ٨٣).

تاسع عشر: جاء الفعل: "استعان" فى القرآن فى تصريفاته المختلفة أربع مرات، ومع ذلك لم يحدث أن خلا مفعوله المتأخر عنه من "باء" الجر: "واستعينوا بالصبر والصلاة" (البقرة/ ٤٥)، "استعينوا بالصبر والصلاة" (البقرة/ ١٥٢)، "استعينوا بالله واصبروا" (الأعراف/ ١٣٨)، كما لم يحدث أن جاء هذا المفعول ضميرا إلا مرة واحدة تقدم فيها المفعول على الفعل، ومن ثم كان ضميرا منفصلا لا متصلا (هكذا: "إياك نعبد وإياك نستعين")، على عكس الوضع تماما من هذا وذاك فى الجملة الأولى من السورة المزعومة الثانية: (هكذا: "اللّهم إنا نستعينك").

عشرين: وكذلك لم يتفق أن اقترنت الاستعانة بالاستغفار فى القرآن قط كما هو الأمر فى الجملة التى نحن أمامها: "نستعينك ونستغفرك".

حاديًا وعشرين: لم يقع أن استُعْمِل الفعل "استغفَر" فى كتاب الله الكريم مضارعا مسندا إلى ضمير جماعة المتكلمين بتاتا أو جاء مفعوله "كاف خطاب" قط كما فى الجملة الحالية: "نستغفرك".

ثانيًا وعشرين: برغم ورود كلمة "الحمد" واشتقاقاتها فى القرآن نحو سبعين مرة، فإن كلمة "الثناء" المقتربة منها فى المعنى إلى حد بعيد والمشتق منها الفعل: "نُثْنِى" فى الجملة الثالثة من سورة "الخلع" التى نحن بصددها هنا (وهى: "ونُثْنِى عليك ولا نَكْفُرك")، هذه الكلمة غائبة تماما عن كتاب الله هى وكل مشتقاتها.

ثالثا وعشرين: بالنسبة لجملة "نَكْفُرك" نقول إنه قد ورد الفعل المضارع: "يَكْفُر" فى القرآن الكريم بتصريفات مختلفة ما يقرب من ستين مرة، ومع هذا لم يحدث أن أُسْنِد هذا الفعل إلى ضمير جماعة المتكلمين فى أية مرة منها. كما لم يحدث أن توصَّل ذلك الفعل إلى مفعوله مباشرة دون "باء الجر" كما هو الحال هنا، اللّٰهم إلا مرة واحدة أتى فيها مبنيا للمجهول ووقع على ضمير الغائب لا المخاطب وكان ذلك الضمير عائدا على عمل الإنسان لا على الله سبحانه، وهو ما يختلف فيه مع الجملة التى نحن بصددها اختلافا تاما. وهذا هو الشاهد القرآنى اليتيم: "وما يَفْعَلوا من خير فلن يُكْفَروه" (آل عمران/ ١١٥).

رابعا وعشرين: ليس فى القرآن كله كلمة "خَلْع" التى تدور عليها السورة المدَّعاة وعُنْوِنَتْ بها، بل ليس فيه من ذات المادة إلا فعل الأمر: "اخلع": "فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدَّس طُوًى" (طه/ ١٢)، وهو خطاب من الله لواحد من البشر هو موسى عليه السلام، وليس خطابا من البشر له عز وجل كما فى الجملة التى يدور الكلام عليها حاليًّا والتى ورد فيها الفعل مضارعًا لا أَمْرًا مع ذلك. كما أن الخلع فى الآية القرآنية حقيقى، بخلافه فى آية السورة المزعومة، إذ معناه فيها مجازى كما هو واضح.

خامسا وعشرين: لم يرد الفعل المضارع: "نترك" فى كتاب الله سوى مرة واحدة وقع فيها مفعوله اسما موصولا غير عاقل عائدا على الأصنام التى يعبدها آباء المتكلمين

الكافرين: "قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا" (هود/ ٨٧)، لا اسما موصولا عاقلا عائدا على من يَفْجُر الله سبحانه كما هو الوضع فى الجملة التى بين أيدينا: "ونخلع ونترك من يَفْجُرك".

سادسا وعشرين: على الرغم من مجىء مشتقات مادة "ت ر ك" نيفا وأربعين مرة فى القرآن المجيد لم يحدث أن أتى الاسم الموصول: "مَنْ" مفعولا لأى من هذه المشتقات كما هو الوضع فى الجملة التى معنا الآن: "ونترك من يَفْجُرك".

سابعا وعشرين: لا يوجد الفعل: "نَفْجُر" (مضارعا مسندا إلى جماعة المتكلمين وبمعنى "الفُجُور" لا التفجير) فى القرآن المجيد أبدا. كما أن الفعل: "يَفْجُر" (المضارع المسند لضمير الغائب المفرد المذكَّر) الذى ورد فيه مرة واحدة لا غير لم يُذْكَر معه مفعول به، فضلا عن أن يكون المفعول به مفعولا مباشرا: "بل يريد الإنسان ليَفْجُر أمامه" (القيامة/ ٥)، بَلْهَ أن يكون ذلك الضمير عائدا على الله جل وعلا كما هو الحال معنا الآن.

والآن يستطيع القراء الكرام أن يَرَوْا معنا بكل وضوح وجلاء أن هذين النصين لا علاقة لهما من قريب أو من بعيد بالقرآن من ناحية الأسلوب والروح أيضا، فبصماتهما اللغوية والذوقية ليست هى بصمات الأسلوب القرآنى كما هو بَيِّن، مثلما رَأَوْا قبلًا أنهما لا يمكن أن يكونا من القرآن بحكم المنطق العقلى وبناءً على تحليل الروايات.

وفى الصفحتين رقم ٥٩٧ و٥٨١ نرى معروف الرصافى يفرك يديه حبورا وهو يستشهد بالحكايات التى يقول أصحابها إن فى القرآن نصوصا سقطت منه وضاعت. ومن ذلك القول بأن سورة "الأحزاب" كانت أطول مما هى عليه الآن كثيرا، ومنها آية "والشيخ والشيخ إذا زنيا فارجموهما البتة..."، وهى الآية التى يستند إليها القائلون

برجم الزانى المُحْصَن ولا يكتفون بالجَلْد رغم أن القرآن ليس فيه رَجْمٌ بل جَلْدٌ. وأحب أن أزيد الرصافى من الشعر بيتا مما يحبُّه من الأبيات التى تتحدث عن ضياع نصوص من القرآن، فهو مما يحب الحديث فيه والشماتة فى المسلمين بسببه، وأقول له إن هناك من يستندون فى الرجم أيضا على الرواية التالية المنسوبة إلى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: "لقد نزلت آيةُ الرَّجْمِ ورضاعةُ الكبيرِ عَشْرًا، ولقد كان فى صحيفةٍ تحتَ سريرى. فلمَّا ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ وتشاغلنا بموتِهِ دخلَ داجنٌ فأَكَلَها". ولن أدخل فى مسألة الإسناد والجرح والتعديل بل سوف أتناولها بالمنطق المجرد وبالنظر إلى الأوضاع التاريخية والاجتماعية التى أحاطت بتلك الحادثة إن كانت قد وقعت فعلا ولم تكن من صنع خيال بعض الناس.

فإذا أتينا إلى مناقشة هذه الرواية فأول شىء نتناوله هو قولها إن الداجن قد أكلت الورقة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعنى ذلك أن القرآن لم يحفظ كما ينبغى على النقيض مما تعهد به الله سبحانه. فكيف لم يهج المسلمون للواقعة وتركوها تمر وكأن أمرا جللا لم يقع ينسف هذا التعهد من الأساس؟ لقد كان الأحرى بهم أن تتزلزل الأرض تحت أقدامهم. لكننا ننظر فلا نرى انفعالا ولا ضجة ولا غضبا وكأن نصا قرآنيا لم يضع فى بطن الداجن إلى الأبد. وأين عمر مثلا من تلك المصيبة وقت حدوثها أو وقت علمه بها؟ أتراه كان سيلوذ بالصمت، وهو الغيور العنيف الذى لا تأخذه فى الله لومة لائم، ولا يبالى بأحد متى كان هناك خطأ أو تقصير؟ فهل هذا مما يعقله العاقلون؟

الغريب أن يسكت عمر حتى يموت أبو بكر ويتولى هو الخلافة بعده ثم يوشك أن يموت، وهنا وهنا فقط يتذكر عمر قصة اختفاء نص الرجم حسبما تقول الحكاية

التالية: "لما صدر عمر بن الخطاب من مِنًى أناخ بالأبطح، ثم كوَّم كومة بطحاء ثم طرح عليها رداءه واستلقى، ثم مد يديه إلى السماء فقال: اللّهم كبرتْ سنى، وضعفتْ قوتى، وانتشرتْ رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرِّط. ثم قَدِم المدينةَ فخطب الناس فقال: أيها الناس، قد سُنَّتْ لكم السنن، وفُرِضَت الفرائض، وتُرِكْتُمْ على الواضحة إلا أن تضلّوا بالناس يمينا وشمالا. وضرب بإحدى يديه على الأخرى ثم قال: إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن يقول قائل: لا نجد حَدَّين فى كتاب الله. فقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد رجمنا. والذى نفسى بيده لولا أن يقول الناس: "زاد عمر بن الخطاب فى كتاب الله" لكتبتُها: "الشيخ والشيخة فارجموهما ألبتة"، فإنا قد قرأناها. قال مالك: قال يحيى بن سعيد: قال سعيد بن المسيب: فما انسلخ ذو الحجة حتى قُتِل عمر رحمه الله".

فهل نصدق أن عمر كان يعلم أن هذه آية من القرآن ثم يخشى أن يعيدها إلى كتاب الله؟ ترى ما الذى منعه من ذلك؟ تقول الحكاية: لقد خاف أن يقول المسلمون عنه: زاد فى القرآن. فهل صحيح أنه لو كتبها فى المصحف سيكون قد زاد شيئا على القرآن؟ بطبيعة الحال لا، لأنها فعلا من القرآن حسب الرواية التى بأيدينا. ثم لقد صرح أمام المسلمين بأنها من القرآن، فهل أنكر عليه أحد ذلك؟ لا. فلم الخوف إذن من الانتقال إلى الخطوة التالية وكتابتها، ونحن نعرف أن الكتابة ليست شيئا آخر غير القول، ولكن مُثْبَتًا فى ورق؟ فهل هناك فرق بين هذا وذاك؟ وهل كان عمر وحده هو الذى يعرف أن هناك نصا قرآنيا برجم الشيخ والشيخة الزانيين؟ طبعا لا. فلماذا لم يستشهد بمن يشاطرونه هذه المعرفة ليحسم الأمر ويعيد كتابة الآية فى موضعها؟

ترى هل يمكن أن يهمل عمر اختفاء نص قرآنى طوال هاتيك السنين دون أن يَحْرَج ضميرُه فيعيش خالى البال وكأن شيئا لم يكن؟ فما الذى جد يا ترى فجعله يتذكر الأمر بغتة ويخشى توابعه؟ إن معنى هذا أن عمر قد مات وهو يعرف أن هناك نصا قرآنيا ضاع، ولا سبيل لإعادته إلى مقرّه، ولم ير فى هذا ما ينبغى تصحيحه. فهل هذا مما يتقبله عقل عاقل؟ لقد كان عمر أشجع من هذا وأحزم وأعزم، ولم يكن ممن يعملون للمعترضين حسابا متى اقتنع بشىء. لقد أوقف مثلا سهم المؤلَّفة قلوبهم بعد أن قَوِىَ الإسلام دون أن يتردد لحظة. ومن قبلُ حين أراد الهجرة من مكة رأيناه يذهب إلى الكعبة حيث كانت قريش تعقد مجالسها فيصارحهم بنيته متحديا إياهم بقوله: من أراد أن تثكله أمه أو تترمل زوجته أو ييتم ولده فليلقنى وراء هذا الوادى. كما اعترض فى البداية على نصوص معاهدة الحديبية رغم موافقة الرسول عليها.

ترى هل يمكن عمر، الذى يثور لمثل ما ثار له فى الرواية التالية على قلة شأن المسألة بالقياس إلى موضوعنا الحالى، أن يكون موقفه من هذا الموضوع الخطير بهذا الهدوء بل بهذا البرود؟ تقول الرواية على لسانه: "سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرأ سورةَ "الفرقان" فى حياة رسول الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقْرِئْنيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كذلك، فكدتُ أساورُه فى الصلاة، فانتظرتُه حتى سلَّم، ثم لَبَّبْتُه بردائِه أو بردائى، فقلتُ: من أقرأك هذه السورةَ؟ قال: أقرأنيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. قلتُ له: كذبتَ. فواللهِ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنى هذه السورةَ التى سمعتُك تقرؤها. فانطلقتُ أقوده إلى رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنى سمعتُ هذا يقرأ بسورة "الفرقانِ" على حروفٍ لم تُقْرِئْنيها، وأنت أقرأتنى سورةَ "الفرقانِ". فقال رسول الله

صلى الله عليهِ وسلَّمَ: أَرْسِلْه يا عمرُ. اقرأْ يا هشامُ. فقرأ عليه القراءةَ التى سمعتُه يقرؤها، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: هكذا أُنْزِلَتْ. ثم قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: اقرأْ يا عمرُ. فقرأتُ، فقال: هكذا أُنْزِلَتْ. ثم قال: إنَّ هذا القرآنَ أُنْزِل على سبعةِ أحرفٍ، فاقرؤوا ما تيسَّر منه".

ثم لماذا لم يفصح عمر عما فى نفسه بخصوص رجم الشيخين حين تجرد زيد بن ثابت لجمع القرآن فى عهد الصديق بناء على اقتراحه هو نفسه خوفا من ضياع شىء من الكتاب المجيد بسبب استحرار القتل فى صفوف قُرّاء القرآن فى حروب الردة؟ لماذا لم يقل، بعدما انتهى زيد من مهمته، إن هناك نَصًّا فاتَ زيدا أن يضعه فى المصحف؟ لقد كان عمر، كما قلت آنفا، رجل حزم وعزم، فلم يكن ليضيع تلك الفرصة ويضيع معها تلك الآية. أَوَبعدما انتهى زيد واللجنة التى كانت معه من عملها، ومرت على ذلك أعوام وأعوام، يأتى عمر فى الوقت الضائع ويتذكر أن هناك آية قرآنية سقطت من كتاب الله، ثم لايكتفى بهذا بل يعلن عن خشيته من إعادتها إلى موضعها؟ لقد كان إيمانه وحصافته جديرين بأن يجعلاه يسلك سبيلا أقوم من هذا رشدا، أو ما دام يخشى العوام إلى هذا الحد لقد كان ينبغى أن يتكتم الأمر حتى لا يثير فتنة بين المسلمين بتذكيرهم أن الله لم يحفظ قرآنه خلافا لما وعد به. الواقع أن تصرف عمر معناه أنه أراد تجنب الفتنة بإشعالها. فهل يمكن أن تكون هذه هى شخصية عمر؟

وهذه هى رواية جمع زيد للقرآن فى عهد أبى بكر، وموقف عمر من ذلك الجمع، وهو موقف يتناقض مع موقفه الذى نحن بصدده تمام التناقض، إذ كيف يكون حريصا على ألا يضيع شىء من النص القرآنى هناك، ولا يبالى بذلك هنا؟ لقد أقر زيد ولجنته آخر سورة "التوبة" رغم أنهم لم يجدوه إلا عند أبى خُزَيْمَة. فلماذا يا ترى لم ينبر عمر

ويقول: وأنا أيضا عندى آية ينبغى ضمها إلى كتاب الله؟ ولا أظن شهادة عمر أقل من شهادة أبى خزيمة. وهذا لو لم تكن هذه الآية لدى أحد سواه، وهو أمر مستبعد. يقول زيد بن ثابت فى الرواية المذكورة: "أرسَل إلى أبو بكرٍ مَقْتَلَ أهلِ اليمامةِ، فإذا عمرُ بنُ الخطابِ عِندَه. قال أبو بكرٍ رضى اللهُ عنه: إنَّ عُمَرَ أتانى فقال: إنَّ القتلَ قدِ اسْتَحَرَّ يومَ اليمامةِ بقُرَّاءِ القرآنِ، وإنى أخشى أن يستَحِرَّ القتلُ بالقُرَّاءِ بالمواطنِ، فيذهَب كثيرٌ منَ القرآنِ. وإنى أرى أن تَأمُرَ بجمعِ القرآنِ. قلتُ لعُمَرَ: كيف تفعَلُ شيئًا لم يفعلْه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قال عُمَرُ: هذا واللهِ خيرٌ. فلم يزَلْ عُمَرُ يراجِعُنى حتى شرَح اللهُ صدرى لذلك، ورأيتُ فى ذلك الذى رأى عُمَرُ. قال زيدٌ: قال أبو بكرٍ: إنك رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نَتَّهِمُك. وقد كنتَ تَكتُبُ الوحى لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتتبَّعِ القرآنَ فاجمَعْه. فواللهِ لو كلَّفونى نقلَ جبلٍ من الجبالِ ما كان أثقلَ علىَّ مما أمَرنى به من جمعِ القرآنِ. قلتُ: كيف تفعلونَ شيئًا لم يفعَلْه رسولُ اللهِ؟ قال: هو واللهِ خيرٌ. فلم يزَلْ أبو بكرٍ يراجِعُنى حتى شرَح اللهُ صدرى للذى شرَح له صدرَ أبى بكرٍ وعُمَرَ رضى اللهُ عنهما، فتتبَّعتُ القرآنَ أَجْمَعُه منَ العُسُبِ واللِّخافِ وصدورِ الرجالِ حتى وجَدتُ آخِرَ سورةِ "التوبةِ" معَ أبى خُزَيْمَةَ الأنصارى، لم أجِدْها معَ أحدٍ غيرِه: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّمْ"... حتى خاتِمةِ "بَرَاءَة". فكانَتِ الصُّحُف عِندَ أبى بكر حتى توفَّاه اللهُ، ثم عندَ عُمَرَ حياتَه، ثم عِندَ حفصةَ بنتِ عُمَرَ رضى اللهُ عنه".

لقد كان المسلمون يهيجون لما هو أقل من هذا بمراحل كاختلافهم حول طريقة نطق بعض الألفاظ طبقا لاختلاف القراءات وخوف عمر من افتتان المسلمين بذلك وتفكيره فى جمعهم على مصحف واحد. كما ثار المسلمون على عثمان لجمعه القرآن مرة أخرى فى عدد من المصاحف والتخلص مما عداها رغبة منه فى ألا يختلف المسلمون

اختلافا يهدد وحدتهم. فكيف إذن تَلَقَّوْا تلك الواقعة بأعصاب باردة إلى هذا الحد؟ ثم كيف عرفت عائشة أن الداجن قد أكل الورقة؟ إذا كانت قد رأت ما حدث فكيف لم تتدخل وتمنع الداجن من العَيْث فى القرآن فسادا؟ وإذا لم تكن قد شاهدت شيئا فكيف عرفت بما حدث؟ ثم إن النبى قد غُسِّل وكُفِّن فى حجرة عائشة، التى كانت الورقة المذكورة مدسوسة تحت الفراش فيها. فكيف دخلت الداجن تلك الغرفة الصغيرة وأكلت الورقة المقدسة، وزوجات النبى وبنته وقريباته على الأقل هناك، والنبى ممدد على الفراش، دون أن تنهر إحداهن الداجن عن فراش النبى والعبث تحته؟ يستحيل أن يحدث هذا، فهن أكبر من أن تصيبهن هذه البلادة.

ونحن نعرف أن النبى لم يكن له سرير كسُرُرِنا الآن مرتفع عن الأرض بل مجرد حشية أو حصير يوضع عليها، فكيف يمد الداجن فمه تحت الحصير؟ بل كيف يمكن أن يضع النبى أو عائشة الورقة القرآنية فى ذلك الموضع الغريب؟ وهل كان من عادة العرب أن يضعوا أوراقهم، إن كان عند أحدهم شىء منها، على الأرض تحت الفراش؟ الحق أنى لم أسمع بمثل تلك الواقعة فى تلك العصور. لقد كان الورق فى عصر الجاهلية والنبوة من الندرة بحيث أتصور أنه كان يعامل معاملة الذهب والجواهر النفيسة. فكيف تُعَامَل ورقةٌ فيها نص قرآنى بهذه اللامبالاة؟ ثم من أدرى عائشة بأن ما ضاع من القرآن هو هذان النصان فقط؟ سيقال إن المسلمين كانوا يحفظون القرآن، وإنهم قد تنبهوا إلى ضياع هذين النصين. فكيف لم يعيدوا النصين الضائعين إلى القرآن إذن ما داموا يحفظونهما؟ هل غَلَّ أحدٌ يدَهم عن ذلك؟ وهذا إن كانت هناك نسخة واحدة فقط من ذينك النصين.

ثم هل تظنون أن اليهود والنصارى كانوا ليسكتوا على ما حدث فلا يقيموا الدنيا ويقعدوها شماتة فى الدين الجديد الذى يهدد دينيهم ويزيد فيتهممهم بالعبث فى نصوصهما؟ وهناك أيضا المنافقون الكارهون فى أعماقهم للإسلام، وكذلك المرتدون، الذين انتهزوا وفاة النبى ونكصوا على أعقابهم وخرجوا من دينه خروجا كاملا أو جزئيا، واتبع بعضهم أنبياء زائفين من قبائلهم. أتراهم كانوا يهملون تلك الواقعة فلا يستغلوها فى محاربة الدين الجديد وتسويغ خروجهم منه باعتبار أن الله لم يحفظ قرآنه كما وعد، ومن ثم فإن الأمر يبعث على الريبة والتشكك؟

ثم إن الروايات الأخرى تقول إن الرجم فى النص المفقود خاص بالشيخ والشيخة، إذ يقول: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة". ومعنى ذلك أن الرجم لا يسرى على الشبان والرجال والكهول بل على الشيوخ فقط. لكن هل الشيوخ مِنْ عنف الشهوة بما يجعل القرآن يخصهم دون سائر الزناة بهذا الحكم الشديد كى يردعهم؟ ثم كيف نحدد العمر الذى تبدأ به الشيخوخة؟ وهل كل الشيوخ سواء؟ إن منهم القوى الذى لم تخمد فيه الشهوة، ومنهم المتداعى الأركان المحتاج إلى من يحمله. فماذا نفعل؟ وقبل ذلك ما الذى منع المسلمين يا ترى من رد ذلك النص إلى المصحف ما داموا يحفظونه على هذا النحو؟ وفوق هذا فتلك أول رواية وآخرها تتحدث عن حفظ رسول الله قرآنا مكتوبا تحت فراشه. ألا إن هذا كله لغريب!

ثم لماذا يقضى الله بضياع نص من كتابه رغم تعهده بحفظه ثم الإبقاء مع هذا على الحكم الذى يتضمنه ذلك النص؟ يا له من أمر مربك! يبدو أن من اخترع هذا الحديث ونسبه للرسول إنما أراد أن يسوغ حكم رجم الزانى، الذى لم يرد رغم خطورته فى القرآن. لكن اختراعه لم يكن محبوكا البتة. وعلى ذكر "البتة" ليس فى القرآن كلمة "البتة"

أبدا، تلك الكلمة التى انفرد النص المذكور بورودها فيه. بل ليس فى القرآن أية كلمة مشتقة من الجذر: "ب ت ت". وهو ما يعضد إنكارى أن يكون ذلك النص آية محذوفة من كتاب الله. وبالمثل ليس فى القرآن كلمة "الشيخة" أبدا. وهذا مُعَضِّدٌ آخر. كذلك ليس فى القرآن فى الآيتين اللتين تشبهان هذه فى التركيب أداة شرط مثل "إذا زنيا". وهاتان هما الآيتان المرادتان: "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما"، "الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة". ثم إن فى القرآن نصا خاصا بالزناة يقول: "الزانيةُ والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة". فكيف يكون هناك نص آخر فى القرآن بحكم آخر؟ إن هذا إما أن يربك المسلمين فيتساءلوا: أى الحكمين هو الحكم الصحيح؟ وإما أن يقولوا: إن حكم الرجم خاص بالشيوخ والشيخات، وحكم الجلد لمن دونهما. فكما يرى القارئ فإن هذه الروايات تربك كل شىء أيما إرباك. ومن هذا نجد أن ما قاله الرصافى هو كلام متهافت لا يقوم على أساس.

ومما كتبه الرصافى فى هذا الموضوع وهويطير فرحا وشماتة (ص٥٨١): "وفى "الإتقان" أيضا قال: حدثنا ابن أبى مريم عن نافع بن عمر الجمحى: حدثنى ابن أبى مليكة عن المسور بن مخرمة قال: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف: ألم تجد فيما أُنْزِل علينا أنْ "جاهِدوا كما جاهدتم أول مرة" فإنا لا نجدها؟ قال: أُسْقِطَتْ فيما أُسْقِط من القرآن. وقال: حدثنا ابن أبى مريم عن ابن لهيعة عن يزيد بن عمرو المعافرى عن أبى سفيان الكلاعى أن مسلمة بن مخلد الأنصارى قال لهم ذات يوم: أخبِرونى بآيتين فى القرآن لم تكتبا فى المصحف. فلم يخبروه، وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك، فقال ابن مسلمة: إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا أبشروا أنتم المفلحون. والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم

أولئك لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون". ولكن ما معنى "جاهِدوا كما جاهدتم أول مرة"؟ ومن المخاطب بها؟ وفى أية ظروف قيل لهم ذلك؟ وهل يا ترى توقَّف الجهاد فى سبيل الله أيام الرسول حتى لينزل وحى يقول ذلك للمسلمين حاثا لهم على استئنافه من جديد؟ فمتى كان ذلك يا ترى؟ وما أول مرة تلك التى يشير إليها النص؟

أما النص الآخر فواضح أنه خليط غير متجانس من الآية الثانية والسبعين من سورة "الأنفال" والآيتين السابعة والثامنة من سورة "الحشر" والآية الأخيرة من سورة "الممتحنة" والآية السابعة عشرة من سورة "السجدة" والآية الثلاثين من سورة "فصلت" بما يذكرنا بقولهم فى السخرية من المعانى والألفاظ التى لا رابط بينها: "سمك، لبن، تمر هندى". ترى هل كل ما صنعه الأنصار من أجل المهاجرين هو أنهم جادلوا مشركى مكة بينما المهاجرون هم الذين جاهدوا وحدهم؟ فمتى كان ذلك يا ترى؟ وفوق ذلك فلم ترد "ألا" الاستفتاحية فى القرآن قط قبل فعل أمر كما هو الحال هنا، وكذلك لم يرد بعدها أية كلمة مشتقة من "البشارة". ثم فى أية سورة كانت هاتان الآيتان موجودتين؟ لا يعقل أنهما كانتا موجودتين فى الفضاء الخارجى دون أن يكون لهما عنوان فى المصحف كما يفهم من الحكاية المضحكة. ومع هذا كله فإن الرصافى يتجاهل جميع هذه الملاحظات والاعتراضات لغرض فى نفس يعقوب، وهو الزراية على القرآن وعلى النبى محمد، الذى بدأ الرصافى كتابه مشيدا به بوصفه أعظم إنسان، ثم شرع ينتقده ويقلل من شأنه بعد ذلك بكل وسيلة مستطاعة.

وإليك أيها القارئ نصا آخر من "الإتقان" ساقه الرصافى فى الصفحة الثمانين بعد المائة، وهو أدخل فى باب "سمك، لبن، تمر هندى"، إذ لا تجانس فيه بل جملة من

الشرق، وأخرى من الغرب. يقول النص: "وأخرج الحاكم فى المستدرك عن أبى بن كعب قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن. فقرأ: "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين"، ومِنْ بقيّتها: لوأن ابن آدم سأل واديا من مال فأُعْطِيَه سأل ثانيًا، وإن سأل ثانيًا فأُعْطِيَه سأل ثالثًا، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذاتَ الدين عند الله الحنيفيةُ غير اليهودية ولا النصرنية، ومن يعمل خيرًا فلن يُكْفَرَه"، علاوةعلى أن الكلام عن الوادى والواديين والثلاثة إنما هو حديث معروف ينسب للرسول صلى الله عليه وسلم، فما الذى أتى به إلى القرآن؟ ثم كيف يقول الله لرسوله: اقرإ القرآن على أُبَىّ؟ هل هناك نصوص قرآنية ليست للبشر جميعا ولا حتى للمسلمين كلهم بل لأُبِىٍّ وحده؟ ولم يا ترى؟ هذه أول مرة وآخر مرة نسمع مثل هذا الكلام. وإلى جانب ذلك فليست كلمات "ذات الدين، والحنيفية واليهودية والنصرانية" من المعجم القرآنى. إنما وردت عبارة "ذات الدين" فى حديث نبوى وصفا للفتاة أو المرأة التى ينبغى أن يضعها نُصْبَ عينيه المسلمُ الذى يريد أن يتزوج، وأما لفظتا "اليهودية" و"النصرانية" فلم تأتيا فى أى حديث بمعنى "الديانة اليهودية" و"الديانة النصرانية" بل بمعنى "المرأة اليهودية" و"المرأة النصرانية" أو "اليهود" و"النصارى" جميعا.

كذلك يتهم الرصافى عثمانَ بأنه أسقط نصوصا قرآنية متعددة. ومع هذا لم يستطع أن يذكر السبب الذى حمل الصحابى الجليل على أى من هذه الحذوف، وليس من المعقول أن يُقْدِم رضى الله عنه على ذلك الفعل لعبا ولهوا وإشباعا لميل إلى العبث عنده. فعثمان أجلّ من هذا وأكرم. وكان هناك علىّ وعائشة وكثير جدا من الصحابة الكبار، فلِمَ يا ترى سكتوا على هذا العبث بنصوص الكتاب الكريم؟ وأما ما سقط فى حياة

النبى فيعزوه الرصافى إلى أن النبى كان يؤلف أحيانا نصوصا قرآنية رديئة، فيسقطها لأنها لا تعجبه. وأقول: لِمَ يا ترى لم يتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم معروف الرصافى لا صلى الله عليه ولا سلم مستشارا بلاغيا وأسلوبيا له يعرض عليه ما يصوغه من القرآن أولا بأول قبل إذاعته على الناس، فيعطيه الرصافى الإذن بنشره أو يأمره بكتمانه، ولا من شاف ولا من درى، وذلك بدلا من الفضائح التى كشفها الرصافى بعد كل تلك هاتيك القرون، وسَمَّعَ بسببها بالقرآن من يساوى ومن لا يساوى.

ولمثل هذا التواصل بين الأجيال المتباعدة اخترع هربرت جورج ويلز آلة الزمن، فكان بمكنة الرصافى متى اسْتُدْعِىَ إلى عصر النبوة أن يركب آلة ويلز ويهرع بها إلى ذلك الزمن فيراجع النص القرآنى المراد أخذ رأيه فيه ثم يعود بخير وسلامة إلى مهجعه فيجده دافئا كما تركه لأن الرحلة وتأدية المهمة لا تأخذان وقتا من عبقرينا المبدع. لكن هل يصلح الرصافى للقيام بهذه المهمة الكريمة الجليلة، وهو ما نعرف خلقه وسلوكه المشين وعلاقاته بالمومسات والغلمان؟ لا أظن أنه يصلح لذلك ولو تطهر بمِلْء البحار والأنهار والمحيطات التى فى الأرض، والأمطار التى تهطل من السماء!

وأما النص التالى، وقد أورده الرصافى من "الإتقان" كذلك: "وأخرج الطبرانى فى "الكبير" عن ابن عمر قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانا يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له فقال: إنها مما نُسِخ، فَالْهُوَا عنها" فهو أشبه بالفازورة التى تقول: "أوتوبيس كام رايح فين؟". وهذا من باب الحكايات المسلية المضحكة، ولا علاقة له بالعلم ولا بالعلماء. ولا بأس أن نذكّر الرصافى مرة أخرى بما قاله من أن ما يفعله محمد هو ما يفعله الله فى الحقيقة، وهو ما ينبغى أن ينسحب أيضا

على ما يقوله. وعلى ذلك فلا معنى لسخرية الرصافى وزرايته على هذه النصوص لأنها، حسب مفهوم وحدة الوجود الذى يقول به، هى لله لا لمحمد، والله هو الذى حدفها. فلماذا التهكم والشماتة؟ أيصح أن يتهكم على الله ويشمت فيه؟

ولا يتوقف الرصافى هنا بل يزيد قائلا إن محمدا قد كتب إلى هرقل كلاما فى الرسالة التى بعث بها إليه يدعوه إلى الإسلام سنة ست من الهجرة، وذلك قوله: "يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون"، ثم لما قدم عليه وَفْدُ نجران سنة تسع جعل هذا الكلام قرآنا بعدما زاد فى أوله: "قل". والواقع أنه ليس من لغة الرسول عليه السلام هذه العبارة: "يا أهل الكتاب"، إذ فحصتُ مئات الأحاديث فى موقع "الدرر السنية"، وفيها الأحاديث من كل لون، فلم أعثر فيها جميعا على ذلك النداء بتاتا فى كلام للرسول نفسه ما عدا هذه الرسالة. كما أنه عليه السلام إنما يخاطب فى تلك الرسالة قيصر ويقول له: إلى قيصر عظيم الروم، فلِمَ يعود فيقول له: "يا أهل الكتاب"، وهو إنما بَعَثَ بالرسالة إليه فقط وأعطاه حقه من لقب التوقير حسبما تقتضى اللياقة، فلِمَ يشركُ معه رعاياه وسائر النصارى فى العالم، والكلام كله فى الرسالة موجه إليه وحده ليس إلا؟ كذلك لو كان الرسول قد كتب هذا الكلام ابتداءً لقيصر ولم يقتبسه من القرآن لقال له: "يا عظيم الروم، تعال إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن توليتَ فاشهد بأننا مسلمون". أما الكلام الموجود فى الرسالة فهو مقتبس من القرآن، فبقى على حاله كما هو بضمائر الجمع وبنداء "يا أهل الكتاب" الذى تكرر فى القرآن ولم يرد فى كلامه صلى الله عليه وسلم الشخصى كما وضحنا آنفا، وكذلك بعبارة

"فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" بما فيها من ضمير جمع الغائب رغم أنه يخاطب قيصر، وهو مفرد مخاطب. وقد سبق فى نفس الرسالة أن قال له صلى الله عليه وسلم: "فإن توليتَ فعليك إثم الأَريسيِّين" بضمير المخاطب المفرد، فلم يتنكب هذا الأسلوب فجأة ويقول: "فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون"؟ كذلك لم ترد هذه العبارة الأخيرة فى أى كلام للرسول غير رسالته إلى هرقل. ولو كانت من تأليفه لكان حريا أن تتكرر فى أحاديثه ولَمَا اقتصر ورودها على الرسالة المذكورة.

وبالمناسبة فقد ورد فى أسباب نزول الآية أقاويل متعددة، وليست كلها فى أنها خاصة بوفد نجران. ومن الممكن أن يكون نصارى نجران قد قدموا على النبى قبل عام الوفود، ونزلت فيهم الآية مع غيرها من آيات "آل عمران"، واقتبسها النبى فى رسالته إلى هرقل كما هى حسبما يقتضى اقتباس آيات القرآن. هكذا ينبغى أن نتناول الموضوع لا على النحو الذى تناولها به الرصافى، الذى يلغى حاسته النقدية تماما كلما ظن أن النص الذى أمامه يسىء أو يمكن توظيفه فى الإساءة إلى القرآن والنبى عليه السلام، وهيهات! وبعيدا عن هذا كله فإنك، يا معروف يا رصافى يا عبقرى يا من لم تلدك ولادة، قد وصفت محمدا بالدهاء الشديد الذى ليس كمثله دهاء ولا ذكاء ولا تخطيط ولا براعة، فكيف يقع محمد فى هذه الغلطة الساذجة ويعطى واحدا مثلك الفرصة ليكشف كل أستاره التى كان يتوارى خلفها؟

ومع هذا كله نرى الرصافى فى موضع آخر من كتابه (ص٥٩٧ فصاعدا) يقول بأن القرآن هو إلهام من الله، وإنْ قَصَر هذا الإلهامَ على المعانى، أما الأسلوب فهو من محمد. أى أنه قد نسف بنفسه كل ما قاله فى مواضع كثيرة من الكتاب وأدار كتابه عليه إدارةً من أن القرآن هو من لدن محمد، لكن محمدا كان طوال الوقت يكذب زاعما أنه

من لدن الله سبحانه، وهو كذب يساوى الصدق عند الرصافى ما دام فى مصلحة عامة، بل هو الصدق كل الصدق. بل إنه (ص٦١٤- ٦١٥) ليعد هذه الآية فى الذروة العليا من البلاغة مؤكدًا أن محمدا قد أُمِر (من الله طبعا) أن يدعو الناس إلى ربه بالحكمة، ومُقْسِمًا أن الحكمة الناصعة البيضاء تتجلى من خلال الآية بوجهها الواضح المنير الذى لا ملامح فيه سوى إرادة الخير للناس، إذ هى تدعوهم بصفاء عبارتها الخالية من كل عنف وغلظة إلى كلمة واحدة تتضمن وحدة الإله المعبود، وليس مقصودها من وحدة إلههم إلا وحدتهم وتساويهم فى الحقوق وارتباط بعضهم ببعض بروابط الأخوة فى حياتهم الاجتماعية، وأنها تدعو الناس إلى التحرر من أية عبودية إلا عبوديتهم لله ولا تطلب ممن يسمعها ولا يستجيب لها إلا الشهادة بأنهم قبلوها واستمسكوا بها وأسلموا أمرهم إليها. ثم يختم شهادته فى الآية قائلا: "فأى كلمة أعظم وأنصع من هذه الحكمة؟ وأى كلام أبلغ من هذا الكلام الذى معناه إلى النفس أسبق من لفظه إلى السمع؟ وهل البلاغة شىء غير هذا؟".

وفى مبحث إعجاز القرآن (ص٦٠٨ وما بعدها) نرى الرصافى يهاجم عقيدة الإعجاز القرآنى ويرمى من يقولون بها بأنهم لا يتكلمون عن تدبر وتفكير، فإن الاعتقاد يغشى عقولهم ويلغيها ويجعلهم منحازين إلى القول به دون أن يكون هناك ما يستندون إليه أو يستدعى قولهم بذلك، إذ قد صارت هذه العقيدة عقيدة دينية لا مبحثا فنيا أدبيا كما يقول. ويرمى الباقلانى بأنه من كبار المرائين وأنه طلب بكتابه فى هذا الموضوع الدنيا وما فيها لا الحقيقة. ويمضى فيقول إنه لم يكن هناك أية حرية فكرية أو قولية فى العالم الإسلامى، بل كان الخَلَف يردد ما يقوله السلف دون أن يحكّموا عقولهم أو أذواقهم فيما يقولون، فهو كلام محفوظ يُرَدَّد على علاته خوفا من السلطة ومن علماء

الدين ومن المجتمع. وهو يؤكد أن الأمر ما زال حتى الآن يجرى على هذا النحو ضاربا المثال بكتاب د. محمد حسين هيكل فى السيرة النبوية، الذى يلح على أنه لم يكن حرا فيما كتب بل كان يخشى الأزهر ورجاله. فالرياء فى كل مكان. وهو يرد على من يقول بوجود معارضين للقرآن وللقول بإعجازه بأن الناس تتهمهم بالكفر والزندقة، والدولة تُنْزِل بهم عقوبة القتل. ويزيد فيقول إنه لو كانت هناك حرية فكرية لوَصَلَنا ما قاله خصوم محمد فيه وفى القرآن وما قاله أمثال مسيلمة فى معارضتهم للقرآن، ولَكُنَّا استطعنا تكوين فكرة سليمة حول موضوع الإعجاز. وقد اتهم هنا ابن هشام بأنه قتل سيرة ابن إسحاق قتلا وحشيا. يريد أن يقول إن ابن إسحاق صور النبى وقص سيرة حياته بما يفضح ما يقوله المسلمون من نبوته وإعجاز الكتاب الذى أتى به، لكن ابن هشام حذف هذا كله.

هذه خلاصة لما قاله الرصافى فى القضية التى نحن بصددها. وواضح ما فى كلامه من غمز وهمز ولمز، فهو يريد أن يقول إن القرآن لا معجز ولا يحزنون، بل إن القول بإعجازه هو مجرد كلام لا يتمتع أصحابه بمصداقية لأنهم ناس مراؤون منافقون لا يقولون ما فى قلوبهم من رأى سيئ فيه، ولو كان قد وَصَلَنا ما قاله الكفار فى معارضة القرآن لعرفْنا كيف أن معارضته سهلة ممكنة. لكن المسلمين أراحوا أنفسهم بحذف كل ما لا يتمشى مع عقيدة الإعجاز القرآنى. ولكن كيف عرف أن سيرة ابن إسحاق كانت تتضمن هذا الذى يتخيله مما يتصور أنه يفضح حقيقة النبى عليه السلام ما دامت سيرة ابن إسحاق غير موجودة فى يده؟ أتراه يشم على ظهر يده؟ ومن المضحك أنه يرى أن كل من يقول بإعجاز القرآن منافق، وأن كل من يكذِّب به صادق القول حر التفكير واسع الأفق. ولكن ما مقياس حرية التفكير وسعة الأفق؟ المقياس هو مهاجمة القرآن

والنزول به عن مرتبة الإعجاز. فإذا قلتَ له: لقد كانت الدواعى متوافرة للمشركين وغير المشركين لمحاولة معارضته ردا على تحديه لهم مرارا، ولكنهم لم يعارضوه، كان رده أنه لم يصلنا ما قالوه أو كتبوه فى هذا السبيل. وهنا نقول له: لقد سجل القرآن شتائمهم للرسول والمسلمين ومحاولة تنقصهم للقرآن الكريم، وسجلتْ ذلك كتب السيرة والأحاديث والتاريخ والأدب. وهو يعرف ذلك جيدا، لكنه يتجاهل هذا. ولكن ما معنى إشادته بالزنادقة وخَسْفه الأرض بالمؤمنين بالقرآن المدافعين عنه؟ معناه فى رأيى أنه واحد من الزنادقة الذين لا يعجبهم شىء فى الإسلام، وإن تظاهر بالثناء على بعض ما فيه. فهو ثناء من وراء القلب كما هو واضح. كما أنه لن يقتنع بأى دفاع عن الإسلام والإعجاز القرآنى، إذ من يفعلون ذلك هم، فى نظره، ناس مراؤون يريدون أكل الدنيا بالدين. أى أن الناس جميعا مراؤون حاشاه هو وأمثاله ممن يكرهون القرآن ويعاندون الحقائق ويلجّون فى الكفر والطغيان مهما حاولوا تغطية هذه الكراهية بكلمة طيبة هنا أو هناك على سبيل الرياء.

وأولا كيف لم يصلنا ما قاله الكفار فى القرآن، وقد ذكر القرآن قولهم حين تحداهم: "لو نشاء لقلنا مثل هذا"، وقولهم: "اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم"، وقولهم: "إن هذا إلا أساطير الأولين"، وقولهم: "أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا"، وقولهم: "لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلكم تغلبون"، وقولهم: "لولا نُزِّل عليه القرآنُ جملةً واحدة"، وقولهم عن الرسول إنه كاهن وساحر وشاعر وكذاب، وقول اليهود ساخرين من الله حين حث القرآن على إقراض الله قرضا حسنا: "إن الله فقير ونحن أغنياء"، وقولهم: "يد الله مغلولة"، وقولهم لمشركى قريش إنهم بوثنيتهم "أهدى من الذين آمنوا

سبيلا"، وقول نصارى نجران لبعض الصحابة: كيف تكون مريم أخت هارون وبينهما كل هذا البعد التاريخى؟ ورد الرسول على ذلك بأنهم كانوا يسمون بأسماء صلحائهم؟ كذلك أورد المؤرخون وكتاب السيرة وغيرهم ما قاله مسيلمة من الوحى الذى كان يزعم أنه أُوحِىَ إليه كقوله: "لقد أنعم الله علَى الحبلى. أخرج منها نسمةً تسعى. من بين صفَاقٍ وحَشا" وقوله: "والطاحنات طحنا. والعاجنات عجنا. والخابزات خَبْزا. والثاردات ثَرْدا. واللاقمات لَقْما". و"العَيِّنَة بَيِّنَة" كما يقول التجار فى الأسواق. إلا أن الرصافى المتنمر يعلق على هذا قائلا: "هذا الذى وصل إلينا من كلامه. ولوأنهم (أى الكتاب المسلمين) ذكروا لنا كل ما قاله لجاز أن نحكم غير هذا الحكم" (ص٦٠٢). يعنى: فلربما كنا حكمنا بأن وحى مسيلمة أفضل من قرآن محمد أو على الأقل: يماثله ويضاهيه، ويثبت أن ما يقوله القرآن من أنه لا يمكن أحدا أن يأتى بشىء مماثل له هو ادعاء فارغ لا قيمة له. ذلك أن النصوص التى أتَوْا بها هى مجرد تقليد لأسلوب القرآن سخيف، ولو أتوا بنصوص أخرى فمن المحتمل أن نجد فيها إبداعا لا تقليد فيه يتفوق به على القرآن. فهذا ما يعنيه كلام الرصافى، الذى بدأ كتابه بالمديح العظيم للنبى، لكنه فى كل انعطافة من انعطافات الكتاب يعمل على النيل منه ومن قرآنه بكل سبيل، ولكن تحت ستارة من الدخان التى يحاول أن يغطى بها ما يقول وما يعمل.

كذلك لم تهمل كتب التاريخ والأدب والدين أخبار المعترضين على القرآن وردت عليهم سواء كانوا ذوى خلفية إسلامية أو من ديانات أخرى. وهذا معروف لكل من لديه أدنى معرفة بالتراث العربى والإسلامى. وأخبار الزنادقة وأسماؤهم وأقوالهم متاحة فى الكتب القديمة. وللدكتور عبد الرحمن بدوى وغيره دراسات فى هذا الموضوع. وقد تناول العبد لله الاتهامات التى وجهت بالزندقة إلى ابن المقفع وبشار بن

برد وأبى العلاء والشهرستانى مثلا ووجدتُ أن هذه الاتهامات لا تقوم على أساس. ولى فى هذا الموضوع كتب مستقلة أو فصول مبثوثة فى بعض كتبى الأخرى. ولى كذلك إعادة كتابة لموضوعات رسالة الجاحظ فى "الرد على النصارى" من وجهة نظر عصرية. وبالمثل هناك أشعار لشعراء مكة الوثنيين وشعراء المدينة من يهود، وفيها تطاول على الرسول والمسلمين، وشعرغير قليل لأُمَيَّة، ومعظمه إشارات موجزة سريعة عن السماوات والأرض وما فيها من دلائل على قدرة الله، وعن قصص الحيوان الخرافية وما إلى ذلك. لكن الرصافى يرى أن ما وصل إلينا منها نزر يسير، "ولو أنهم ذكروا لنا ذلك لكنا على بصيرة فى الحكم بينهم وبين محمد أكثر مما نحن اليوم" حسبما قال (ص٦٠١- ٦٠٢). ولو كان هناك موقف متعمَّد من أشعار هؤلاء الشعراء المعادين للإسلام ما قال ابن عبد البر مثلا فى "الاستيعاب" عن أبى سفيان بن الحارث إنه "من الشعراء المطبوعين"، ولما روى الرواة أن النبى عليه السلام كان يستمع إلى شعر أمية ويستزيد منه ويقول إنه رجل آمن لسانه وكفر قلبه، ولما أوردوا شعر كعب بن الأشرف المفحش فى زوجة العباس عم النبى عليه السلام، ولما خطر لهم مجرد خطور أن يجرى على ألسنتهم شعر يوصف فيه النبى بأنه "مذمَّم" بدلا من "محمد". ثم ما القول بأن معظم هؤلاء قد دخلوا الإسلام، وأن أمية كان فى طريقه للقدوم على الرسول يعلن إسلامه، لكن قريشا صدته وأبلغته أن بعض أقاربه من المكيين قد جُنْدِلوا فى غزوة بدر، فغلبه حقده الذى كان يستشعره فى أعماق قلبه تجاه الرسول وصَدَّ عنه بعدما كان قاب نصف قوس من النجاة. بل إنى لأرى أن القول بتأثر شعره بالقرآن هو الأقرب إلى المنطق إلا إذا ثبت أن شعره المشابه للقرآن منحول عليه فى الإسلام. وفى ضوء هذا أفسر قول الرسول فيه إن لسانه قد آمن بينما كفر قلبه. أى أنه يردد ما يقوله

القرآن كما هو أو مع بعض الاختلافات غير المهمة. وبالمناسبة لقد أورد الرواة قصيدته العنيفة فى قتلى بدر من المشركين يرثيهم رثاء لاهبا ويحرض على الانتقام لهم. ولو كانت هناك سياسة فى تجاهل مثل تلك الأشعار ما احتفظ المسلمون بمثل تلك القصيدة.

ويتساءل الرصافى: أين سيرة ابن إسحاق؟ ظنا منه أن فيها فضائح للقرآن وللرسول شطبها ابن هشام وأفسدها بل قتلها قتلا كما قال. وقد ظهرت سيرة ابن إسحاق وسير أخرى سابقة عليها، وليس فى أى منها ما يوهمه كلام الرصافى، الذى من الواضح أنه يعمل بكل سبيل على التشكيك فى قيمة القرآن ونيات الرسول عليه السلام، وإنْ غَلَّف هذا الميلَ الآثمَ عنده ببعض المديح الذى يعقبه هجوم عنيف واتهامات سخيفة مُزْجَاة. ومما تساءل عنه الرصافى أيضا كتاب "الدامغ" لابن الراوندى، وكثير مما قاله ابن الراوندى قد نقله ابن الجوزى فى كتابه: "المنتظم" لم يجد فى ذلك تحرجا أو تأثما، وأخبرنا أنه اطلع على بقية كتبه رغم مرور أكثر من مائتى عام على وفاته. وهناك كتاب "الانتصار" للخياط فى الرد على ابن الراوندى. بل لقد جُمِعَت واسْتُقْصِيَت آراء ابن الراواندى فى المراجع العربية الحديثة فى كتاب من جزأين للدكتور عبد الكريم الأعسم. ومعنى هذا أن الكتاب لم يُطْمَس من الوجود كما يوهم كلام الرصافى. ولدينا كتاب "أعلام النبوة"، الذى يردّ فيه أبو حاتم الرازى على أبى بكر الرازى. ومعنى هذا أن كلام الزنادقة لم يُتَجَاهل ولم يُعْدَم بل بقى متاحا لكل من يريد أن يقرأ. ولنفترض أن الكتب الإلحادية التراثية التى تشكك فى القرآن قد محيت كلها محوا رغم أن هذا غير ممكن، فهل محيت كتب غير المسلمين من مبشرين ومستشرقين ويهود وهندوس، تلك التى تهاجم الإسلام ورسوله وكتابه الكريم وتعتمد فى ذلك على

ما كتبه أمثال أولئك الملاحدة المنتمين للإسلام؟ وللعبد لله كتب غير قليلة فى الرد على النصارى واليهود والمستشرقين الذين ينتقدون الإسلام والقرآن ويوجهون أبشع الاتهامات إلى الرسول محمد عليه السلام لا أُخْفِى شيئا مما قالوه بل أُعْطِيهم الفرصة كاملة بعرض آرائهم بالتفصيل وبكل الوضوح والأمانة. ولا أعلم من نفسى فى هذا الموضوع رياء ولا نفاقا بل أقبل على هذا العمل وأنا أعرف أنه سيكون عائقا لى عن نيل ما أستحق من نشر كتبى على غير حسابى وعن نيل أية جائزة أو تسنم أى منصب. ثم هذا هو كتاب الرصافى فى النيل من النبى محمد ومن القرآن تنشره إحدى أشهر دور النشر حاليا وتباهى به وتجد لذة فى الترويج له والإشادة بصاحبه، ويملكها ناس ينتمون إلى الإسلام. ولا أذكر أنى قرأت فتوى قديما بتجاهل مثل تلك الكتب وحرمة قراءتها.

ويصف الرصافى من يدافعون عن الإسلام بأنهم مراؤون وبأنهم من الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، وهو تعميم سخيف ورقيع، وإلا فمعنى هذا أنه لا يوجد مسلم خالص الضمير فى إسلامه البتة على وجه الأرض بل ملايين من المنافقين. وهذا خبل عقلى ونفسى ينبغى أن يعالَج منه الرصافى. ولكن ماذا يقول عن المسلمين الأوائل الذين نبذوا وثنية أمتهم واعتنقوا الإسلام؟ لم يا ترى لم يصفهم بحرية الفكر؟ أم ترى حرية الفكر عنده هى للكفار فقط؟ بل ماذا يرى فى من يتمسكون بدينهم فى المجتمعات التى تعادى الإسلام وتؤذى المسلمين وتعمل على محوهم محوا من الوجود كأسبانيا غداة القضاء على الدولة الإسلامية هناك وكما كان الحال فى الاتحاد السوفييتى قبل انهياره وكما هو الوضع الآن فى الصين وغيرها، بل كما هو الحال فى بعض الدول الديمقراطية كفرنسا والدانمرك التى يجد المسلمون فيها عنتا شديدا؟ ثم لماذا نذهب بعيدا، وقد كان التمسك بالإسلام فى تركيا الكمالية مصيبة كبيرة

تنزل على رأس المسلمين المحبين لدينهم، وتركيا بلد مسلم كان قبل عدة عقود موطن عاصمة الخلافة الإسلامية لقرون؟ وقد تعرض الرصافى ذاته للأذى بسبب عمامته قبل أن يتعلمن ويلحد، فاضطر إلى تغيير ملابسه وارتداء الملابس الأوربية، بل والانتقال من الإيمان والتدين إلى الضفة الأخرى. وفى بعض البلاد الإسلامية الآن تضييق على من يتحمسون لدينهم واتهام لهم بالإرهاب وصراخ مزعج من وسائل الإعلام ضدهم وتحريض مستمر عليهم وحرمان لهم من كثير من الفرص فى الوقت الذى تعطَى فيه المناصب والجوائز وتُسَلَّط الأضواء على كارهى الإسلام أو على الأقل: الفاترى المشاعر نحوه.

وينطلق الرصافى فى سبيله جامحا يهوّن من شأن الإسلام والقرآن دائما فيقول إن المسلمين "يهوّلون بإعجاز القرآن كل التهويل، ولكنهم لا يستطيعون أن يذكروا لهذه المعجزة العظمى أثرا بينا فى نجاح الدعوة الإسلامية، إذ لا مِرْيَةَ فى أن الدعوة الإسلامية إنما نجحت بالسيف لا بمعجزة القرآن" (ص٦٠٧). ونجعل نقطة انطلاقنا آخر كلام الرصافى، ونتساءل: ولماذا نجحت الدعوة الإسلامية بالسيف، وكان سيفها آنئذ قصيرا وكليلا بينما سيوف الكفار واليهود أكثر وأصرم وأطول، بالإضافة إلى أن جنود خصوم محمد كانوا أكبر عددا بما لا يقاس على ما هو معروف؟ وكيف لم تستطع سيوف الكفر وجنوده أن يقضوا على المسلمين وهم عُزْلٌ محاصرون لا يمثلون إلا أقلية لا يؤبَه بها؟ لقد أنزلوا بهم الويلات فضربوهم وشتموهم وآذَوْهم وعذبوهم وضيقوا عليهم وسجنوهم وقتلوهم، فلِمَ يا ترى لم يفلحوا أمام صلابتهم وتمسكهم الخارق بدينهم؟ ولماذا لم يصبر المشركون واليهود على وثنيتهم ويهوديتهم فى وجه سيف الإسلام كما فعل المسلمون أيام ضعفهم وهوانهم مع الفارق الرهيب بين الحالين كما وضحنا؟ ومن

أين لمحمد، وهو بمكة لم يؤمن به سوى زِعْنِفة ضئيلة، كل تلك الثقة التى تجيش بها آيات القرآن فى أن دينه سوف ينتصر ولسوف ينهزم الكفر أمام ذلك الدين بل سوف ينتشر هذا الدين بطول الأرض وعرضها؟ إن أعداءه لم يألوا أى جهد ولم يدخروا أى وسع ولم يتركوا أى سلاح ولم يهملوا أية وسيلة فى حربهم إياه، فلماذا فشلوا هم وفاز هو؟ ولماذا نجح دينه ورسب دينهم رغم الفوارق الهائلة فى العدد والعدة والمال والخيول وفى كل شىء؟ إنه الإيمان يا رصافى، خيبة الله عليك!

ثم لماذا استطاع المسلمون أن يفتحوا العالم إذا كان الأمر أمر سيف؟ أكان الفرس مجردين من السيوف؟ أكان الروم ضعفاء عاجزين يقابلون من يصفعهم على وجوههم وخدودهم اليمنى واليسرى بإدارة أقفائهم كيما ينالها نصيبها هى أيضا من الصك والصفع؟ أكانوا كلما أخذ المسلمون منهم ثيابهم زادوا فأعطوهم دورهم وحقولهم وممتلكاتهم؟ أكانوا كلما فتح المسلمون بلدا من بلدان إمبراطوريتهم انقلبوا فتنازلوا لهم عن عشرة بلاد حوله؟ ما كل هذا السخف الذى يتساخفه الرصافى يا ألله؟ إذا كان المسلمون مجرد ناس طامعين فى الدنيا وأسلموا تحت رهبة السيف فكيف انتصروا على قوم لا يقلون عنهم طمعا فى زخارف الحياة ومعهم من السلاح والجند ما ليس مع المسلمين منه ولا العُشْر ولا الواحد على المائة؟ ترى كيف استطاع هؤلاء البدو القضاء فى سنوات معدودات على أكبر إمبراطوريتين فى العالم آنذاك وأشدها قوة وتحضرا وعلما ومالا؟ لقد وقف هؤلاء العرب أنفسهم قبيل ذلك فى وجه دين محمد ففشلوا وانقلبوا مهزومين، لكنهم حين لاذوا براية محمد تغير الوضع وصاروا يهزمون من يحاربونهم. فلماذا؟ سيقول الرصافى إنه الطمع فى الجنة وملذاتها وحورها العين. ولكن متى كان الطمع فى الآجل ينتصر على الطمع فى العاجل ما لم يكن هناك إيمان حقيقى بالله سبحانه

وبرسوله يخالط الدم والعظام واللحم والأعصاب والفكر والمشاعر والحركة من الإنسان؟ هذا ما يتجاهله الرصافى ويلف ويدور حتى لا يصطدم به ويقر بالحقائق التى يعرفها جيدا، لكن انحرافه عن الخلق القويم والسلوك الكريم بعد ذهابه إلى تركيا وتحوله إلى معكسر الملاحدة وأشباههم ومغامسته للمومسات والغلمان هو الذى طغى على عقله فأفقده التفكير الصائب وصار يتخبط كالسمكة وقعت فى الشبكة لا تدرى لها سبيلا للخروج.

ولكن الرصافى ينكر كل ذلك ويتمسك بهلاهيل المنطق والفكر، فيقول مثلا إن أكثر المسلمين لم يكونوا يخرجون للحرب إلا رغبة فى الغنيمة (ص٦١٠). فلنفترض أن هذا الكلام صحيح، فلم يا ترى لم يغلب الكفار المسلمين ويغنموا ما فى أيدى المسلمين ويحرزوا نساءهم أيام كان للكفار اليد العليا سلاحا وجنودا وأموالا ورؤساءَ عتاةً ما دامت الغاية هنا وهناك الحصول على الغنيمة؟ ثم لا يكتفى الرصافى بهذا التنطع بل ينطلق زاعما أن إسلام المسلمين لم يكن قائما فى معظم الحالات منذ أول يوم فى الدعوة على أساس متين: فقد أسلمت خديجة وعلى وزيد بن حارثة بالتبعية دون تفكير لأنهم كانوا يعيشون فى بيته، فلم يكن أمامهم سوى الإيمان به (ص٦١٠- ٦١١). وهنا نتساءل: ولماذا أسلم أبناء الكفار دون أبويهم وعلى رغم أنف قبائلهم؟ ولماذا أسلم العبيد وتحملوا الأذى من أسيادهم ولم يفلح الضرب والتعذيب والإهانة فى ثَنْيِهم عن إسلامهم، الذى اعتنقوه وأعلنوه؟ ثم هل أسلمت خديجة دون تفكير؟ لقد قالت لزوجها حين أبلغها بما رآه وسمعه فى الغار أول الوحى إنه لا يمكن أن يخزيه الله أبدا لأنه يتحلى بكريم الشمائل. ثم مرة أخرى لم تكتف بهذا بل ذهبت به إلى ورقة بن نوفل، الذى سمع من محمد ما وقع، وكان رأيه أن هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى.

فإسلام خديجة لم يكن إسلاما بالتبعية كما قال الرصافى. قد يصلح هذا التفسير مع على وزيد، لكنه إن صح عند دخولهما الإسلام فإنه قد لا يصلح فى تفسير بقائهما مسلمين طوال حياتهما. ولدينا الرصافى نفسه، فقد انحرف وانجرف بعدما كبر ولم يستمر على ما كان عليه من خلق ودين أيام كان تلميذا للآلوسى، فكيف بقى الصحابيان الصغيران على إسلامهما الأول رغم ما مرت به الدعوة، وبخاصة فى مكة، من أهوال ومتاعب ومصاعب، ورغم الحروب المعنوية وحروب السلاح الكثيرة التى من شأنها أن تجعل الشخص يعيد التفكير فيما آمن به حتى لو زادته هذه الإعادة تمسكا بما هو عليه وتحمسا له؟

كما أسلم حمزة، فى تفسير الرصافى، حَمِيَّةً لابن أخيه حين بلغه أن أبا جهل تطاول عليه، فذهب وضربه بالقوس على رأسه وأعلن أنه منذ الآن على دين محمد (ص٦١١). فليكن. فهل كانت حمية الكفار لذويهم أضعف من حمية حمزة؟ وكم من حالة تسببت فيها تلك الحمية فى إسلام من أسلم؟ ولماذا لم تحمل الحمية أبا لهب وأبا طالب وكل أقارب الرسول كأبى سفيان بن الحارث الشاعر على الدخول فى دعوته؟ على أن الرصافى يبرز أنه ندم على تسرعه فى إعلانه الدخول فى دين ابن أخيه وقضى ليلة ليلاء حتى أصبح الصباح فقصد محمدا وحكى له ما وقع كله، وسأله أن يحدثه عن دينه، ففعل فوجد لكلامه فى قلبه وعقله قبولا. أى أن الحمية لم تستمر بل سرعان ما انقلبت ندما وأسفا، ولم يستقر على إيمانه الجديد إلا بسماع القرآن والتدبر فى آياته. وكان ينبغى أن يذكره الرصافى ضمن من فكر وقدر ثم اختار الإسلام عن بصيرة. لكن الرصافى لا يريد هذا بل يريد إثارة الشكوك والرِّيَب فى دين محمد عليه السلام وحَسْب.

أما أبو ذر الغفارى فيصف الرصافى إيمانه بأنه إيمان فطرى إذ كان يتعبد ويصلى لله قبل معرفته بمحمد، ولما بلغة خبر نبوته ذهب إليه وأعلن إسلامه قبل أن يكلمه محمد بأى شيء (ص٦١٢). ولست أدرى كيف يكون إيمان إنسان إيمانا فطريا، أىْ فطرةً فى نفسه وُلِد بها دون أن يكون له فى الأمر شىء. فلم يا ترى لم يكن إيمانه هذا الفطرى إيمانا بالأوثان كسائر الناس من حوله، وكله إيمان؟ الواقع أنه لا بد أن يكون قد فكر وتأمل وانتهى به الأمر إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له، ولما زارمحمدا وألفى ما يدعو إليه متوافقا مع ما انتهى إليه تفكيره وعقله آمن به. هذا هو وضع المسألة على وجهها الصحيح. وفى قصة إسلامه أن الأمر قد تم على هذا النحو، إذ لقى الرسولَ وسأله عن طبيعة دينه، فأجابه، فأعجب بالإسلام وشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وكان أرسل أخاه أنيسا أولا إلى مكة قبل ذلك ليأتيه بخبر النبى وما يدعو إليه حتى ينظر فيه، فلما عاد أخوه وأخبره بأن محمدا يدعو إلى الله وإلى مكارم الأخلاق لم يكتف بهذا بل ذهب بنفسه لمقابلة النبى والسماع منه مباشرة حتى اقتنع بأنه نبى. فأبو ذر إذن لم يكن إيمانه بالسذاجة التى يصورها الرصافى بل أراد، رضى الله عنه، إقامة إسلامه على أساس متين صلب، وكان له ما كان.

وهناك أبو طلحة، الذى كان كافرا وتقدم طالبا يد أم سليم، فاشترطت قبل أن تقبله زوجا أن يسلم، فأسلم. فسمى الرصافى إيمان أبى طلحة: إيمانا نكاحيا (ص٦١٢). وهذه قصة تلك الخِطْبَة: "عن أنس بن مالك: خطب أبو طلحةَ أمَّ سليمٍ، فقالت: واللهِ ما مِثْلُك يا أبا طلحةَ يُرَدُّ. ولكنك رجلٌ كافرٌ، وأنا امرأةٌ مسلمةٌ، ولا يحلُّ لى أن أتزوجَك. فإن تُسْلِمْ فذاك مهرى، وما أسألُك غيرَه. فأسلمَ، فكان ذلك مَهْرَها". وكعادته يحرف الرصافى النص إلى ما يريد من التشنيع مصورا أبا طلحة على أنه لم يسلم

اقتناعا بمبادئ الإسلام وقيمه بل طمعا فى أم سليم. والحكاية تدل من جهة على إخلاص أم سليم للدين الجديد، ومن الجهة الأخرى على أن أبا سليم كان مستعدا لاعتناق الإسلام، ولم يكن هذا الاستعداد بحاجة إلى أكثر مما حدث كى يتحول على أرض الواقع إلى حقيقة. ولولا أنه كان مستعدا لهذا التحول لما رضى بشرط أم سليم ولابتعد عنها، وفى غيرها من النساء متسع. بل كان يمكن أيضا أن يدخل فى الإسلام من أجل أم سليم لكن يبقى قلبه على الكفر وينضم إلى عصابة النفاق فى المدينة. ولكى نفهم المشهد فهما سليما ينبغى أن نعرف أن هذه الزيجة قد تمت فى أول الهجرة قبل أن ينتشر الإسلام على نطاق واسع فى المدينة. فلهذا كان هناك كفار لم يسلموا بعد، ومنهم أبو طلحة، ولم يكن أبو طلحة شذوذا على القاعدة فى ذلك الوقت المبكر من دخول الإسلام يثرب.

وهذه بعض أخبار ذلك الصحابى فى الإسلام أسوقها لكى نعرف أكان إيمانه إيمانا نكاحيا حسب تعريفات الرصافى الهازلة المضحكة أم كان إيمانا صادرا من القلب: "كانَ ابْنٌ لأَبِى طَلْحَةَ يَشْتَكِى، فَخَرَجَ أَبُو طَلْحَةَ، فَقُبِضَ الصَّبِى، فَلَمّا رَجَعَ أَبُو طَلْحَةَ قالَ: ما فَعَلَ ابْنِى؟ قالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: هو أَسْكَنُ ممّا كانَ. فَقَرَّبَتْ إلَيْهِ العَشاءَ فَتَعَشَّى، ثُمَّ أَصابَ منها، فَلَمّا فَرَغَ قالَتْ: وارُوا الصَّبِى. فَلَمّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتى رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فأَخْبَرَهُ، فَقالَ: أَعْرَسْتُمُ اللَّيْلَةَ؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: اللَّهُمَّ بارِكْ لهما. فَوَلَدَتْ غُلامًا، فَقالَ لى أَبُو طَلْحَةَ: احْمِلْهُ حتّى تَأْتِى به النبى صلى الله عليه وسلم. فأتى به النبى صلى الله عليه وسلم، وَبَعَثَتْ معهُ بتَمَراتٍ، فأَخَذَهُ النبى صلى الله عليه وسلم فَقالَ: أَمعهُ شىء؟ قالوا: نَعَمْ، تَمَراتٌ. فأَخَذَها النبى صلى الله عليه وسلم فَمَضَغَها، ثُمَّ أَخَذَها مِن فِيهِ، فَجَعَلَها فى فِى الصَّبِى ثُمَّ حَنَّكَهُ، وَسَمّاهُ: عَبْدَ اللَّه". "كانَ أبو طلحةَ أكثرَ الأنصارِ

بالمدينةِ مالًا، وكانَ أحبَّ أموالِهِ إليهِ بيرُحاءَ، وَكانت مستقبِلةَ المسجدِ، وكانَ النبى يدخلُها ويشربُ من ماءٍ فيها طيِّبٍ. قال أَنَسٌ: فلمّا نزلتْ "لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ" قال أبو طلحةَ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ يقولُ: "لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ"، وإنَّ أحبَّ أموالى إلى بيرُحاءَ، وإنَّها صدقه للهِ أرجو بها برَّها وذُخرَها عندَ اللهِ تعالى. فضَعْها يا رسولَ اللهِ حيثُ أراكَ اللهُ. فقالَ النبى: بَخٍ بَخٍ! ذاكَ مالٌ رابحٌ! ذاكَ مالٌ رابحٌ! وقد سَمِعْتُ. وأنا أرى أن تجعلَها فى الأقرَبينَ. فقال أبو طلحَةَ: أفعل يا رسولَ اللهِ. فقسَّمَها أبو طلحةَ فى أقاربِهِ وبَنى عمِّه". "كان أبو طَلْحةَ بيْنَ يَدَى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وكان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَرفَعُ رَأسَهُ مِن خَلْفِهِ يَنظُرُ إلى مَواقِعِ نَبْلِهِ، فيَتَطاوَلُ أبو طَلْحةَ بِصَدرِه يَقى به رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ويقولُ: يا رسولَ اللهِ، نَحْرى دونَ نَحْرِكَ". "عن أنس بن مالك: كُنْتُ أَسْقِى أبا عُبَيْدَةَ وأَبا طَلْحَةَ وأُبَى بنَ كَعْبٍ مِن فَضِيخِ زَهْوٍ وتَمْرٍ، فَجاءَهُمْ آتٍ فقالَ: إنَّ الخَمْرَ قدْ حُرِّمَتْ. فقالَ أبو طَلْحَةَ: قُمْ يا أَنَسُ فأهْرِقْها. فأهْرَقْتُها". "كان أبو طَلْحةَ لا يُكثِرُ الصَّوْمَ على عهدِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فلمّا ماتَ النَّبى صلى الله عليه وسلم كان لا يُفطِرُ إلّا فى سَفَرٍ أو مرَضٍ". "مات أبو طلحةَ غازيًا فى البحر". فهل إيمان مثل ذلك الرجل يصح أن يوصف بأنه إيمان نكاحى؟ لكن الرصافى يهمل هذا كله ولا يلتفت إليه عامدا متعمدا كى يقلل من شأن إيمان أبى طلحة. واضح أن فى عقل الرصافى خللا سببه الانحراف العقيدى والخلقى واستسلامه لشهواته الوضيعة النتنة.

ويقول كاتبنا عن إيمان أهل مكة جميعا عند الفتح إنه إيمان قهرى (ص٦١٢)، بمعنى أنهم لم يكن أمامهم إلا الدخول فى الإسلام مع أن النبى تركهم لأنفسهم دون أن يقهرهم على اعتناق دينه. كما تجاهل كاتبنا الموقف الكريم العظيم الذى وقفه النبى صلى

الله عليه وسلم من أهل مكة بعدما انتصر عليهم فلم يقل أو يفعل شيئا من شأنه إهانتهم أو إيلامهم بل قال: من دخل داره فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. بل إنه عفا عنهم كلهم تقريبا قائلا: اذهبوا، فأنتم الطلقاء. ولم يعاتب أو يقرّع أو يعاقب ولو بشطر كلمة، ولم يفتح مغاليق الماضى بأى حال. فهذا الموقف النبيل الذى استثار إعجاب المستشرقين والمبشرين أنفسهم وشهدوا أنه أمرلم يعرفه التاريخ لا من قبل ولا من بعد جعل معظم المكيين يسلمون من تلقاء أنفسهم، وبخاصة أنهم رأَوْا بأم أعينهم صدق القرآن حين كرر أن الإسلام منتصر منتصر مهما أعدوا واستعدوا وأنفقوا وحاربوا وخططوا. ولا ينبغى أن ننسى أن مشركى مكة كان من الطبيعى جدا بعد كل تلك السنين الكثيرة أن يعوا حلاوة الإسلام وعظمة مبادئه، إذ لا يعقل أن يظلوا جميعا بعد كل تلك المصادمات والاحتكاكات على تخلفهم العقيدى والأخلاقى والسلوكى والمعاملاتى والذوقى وكأن دينا جديدا لم يكن، أو نبيا منهم لم يبعث، وبخاصة أن رفعة شأنه وشأن دينه هى رفعة لهم كما أفهمهم القرآن منذ الفترة المكية. لكن الرصافى يغلق عينيه إغلاقا حتى لا يرى المشهد ويفهمه ويقدر أبعاده كما ينبغى أن يُفْهَم وتُقَدَّر أبعاده، فزعم أن كل أهل مكة قد أسلموا فى تلك المناسبة قهرا.

ترى لو كان الأمر كما يقول فلماذا لم يحاول رؤساؤهم معاودة الكرة، ولم تكن الجزيرة العربية قد أسلمت كلها بعد، ومن ثم فمن الممكن أن يجدوا أعوانا لهم على حرب محمد؟ بل لقد كان من الممكن أيضا أن يهربوا إلى الروم أو الفرس ويستنجدوا بهم، ولسوف يجدون عندهم العون لقمع تلك الدولة النابتة المؤسسة على دين يصادم دينهم ويعمل على أن يحل محله. ولقد كان اليهود الذين أجلاهم محمد عن يثرب وخيبر

قُمَناء أن ينبروا لمساعدتهم فى لملمة شعثهم والهبوب من جديد لمحاربة محمد ودينه. كما أن معظم بلاد العرب كان لا يزال على دين الوثنية، وبالتالى يمكن الاستعانة بهم على قتال محمد. لكن من الواضح أن معنوياتهم كانت قد تحطمت وبان لهم أن نجم الإسلام فى سعود، ونجمهم قد أفل واختفى إلى غير رجعة، وأن الحق لم يكن فى صفهم بل فى صف محمد وأنْ قد آن الأوان إذن للدخول فى السلم والإسلام. أى أن ما قاله الرصافى هو أوهام ضالة مضللة ودعاوى عنيدة بلا برهان.

ومن غرام كاتبنا بالتصنيف القائم على غير أساس اعتبارُه إسلام المغيرة بن شعبة إيمانا جنائيا (ص٦١٢- ٦١٣). ومن "المنتظم فى تاريخ الملوك" لابن الجوزى نورد هذا النص، وهو تفصيل لما أورده الرصافى موجزا من "السيرة الحلبية" لما وقع من المغيرة وله مما استدعى من الرصافى تسمية إسلامه: "إيمانا جنائيا"، والكلام على لسان المغيرة ذاته: "كنا قومًا من العرب متمسكين بديننا، ونحن سَدَنَةُ اللات، فأجمع نفر من بنى مالك الوفودَ على المقوقس وأهدَوْا له هدايا، فأجمعْنا الخروج معهم، فاستشرت عمى عروة بن مسعود، فنهانى وقال: ليس معك من بنى أبيك أحد. فأبيت إلا الخروج معهم، وليس معهم أحد من الأحلاف غيرى، حتى دخلنا الإسكندرية، فإذا المقوقس فى مجلس مطل على البحر، فركبت زورقًا حتى حاذيت مجلسه، فنظر إلَىَّ فأنكرنى وأمر من يسألنى: من أنا؟ وما أريد؟ فسألنى المأمور، فأخبرته بأمرنا وقدومنا عليه، فأمَرَنا أن ننزل فى الكنيسة، وأجرى علينا ضيافة ثم دعانا فدخلنا عليه، فنظر إلى رأس بنى مالك فأدناه إليه فأجلسه معه ثم سأله: أكل القوم من بنى مالك؟ قال: نعم إلا رجلًا واحدًا من الأحلاف. فعرَّفه إياى، فكنتُ أهون القوم عليه. ووضعوا هداياهم بين يديه، فسُرَّ بها وأمر بقبضها، وأمر لهم بجوائز وفضل بعضهم على بعض وقصَّر بى وأعطانى شيئًا

قليلًا لا ذكر له. وخرجنا، وأقبلتْ بنو مالك يشترون لأهليهم وهم مسرورون، ولم يعرض على رجل منهم مواساة، وخرجوا وحملوا معهم الخمر، فكانوا يشربون وأشرب معهم. وتأبى نفسى أن ينصرفوا إلى الطائف بما أصابوا وما حباهم المَلِك، ويخبرون قومى بتقصيره بى وازدرائه إياى، فأجمعت على قتلهم. فلما كنا بِبُسَاق تمارضتُ وعصبتُ رأسى، فقالوا لى: مالك؟ قلت: أُصْدَع. فوضعوا شرابهم ودَعَوْنى، فقلت: رأسى يُصْدَع، ولكنى أجلس فأسقيكم. فلم ينكروا شيئًا، فجعلت أسقيهم وأشرب القدح بعد القدح، فلما دبت الكأس فيهم اشْتَهَوُا الشراب، فجعلت أصرف لهم وأترع الكأس، فيشربون ولا يدرون، فأهمدتْهم الكأس حتى ناموا ما يعقلون، فوثبت إليهم فقتلتهم جميعًا وأخذت جميع ما كان معهم، فقدمت على النبى صلى الله عليه وسلم، فأجده جالسًا فى المسجد مع أصحابه، وعلى ثياب سفرى، فسلمت بسلام الإسلام، فنظر إلىَّ أبو بكر بن أبى قحافة، وكان بى عارفًا، فقال: ابن أخى عروة؟ قلت: نعم، جئت أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذى هداك للإسلام. فقال أبو بكر: أمن مصر أقبلتم؟ قلت: نعم. قال: فما فعل المالكيون الذين كانوا معك؟ قلت: كان بينى وبينهم بعض ما يكون بين العرب ونحن على دين الشرك، فقتلتهم وأخذت أسلابهم وجئت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخمِّسها أو يرى فيها رأيه. فإنما هى غنيمة من مشركين، وأنا مسلم مصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إسلامك فنقبله، ولا آخذ من أموالهم شيئًا ولا أُخَمِّسه لأن هذا غدر، والغدر لا خير فيه. قال: فأخذنى ما قَرُبَ وما بَعُدَ، وقلت: يا رسول الله، إنما قتلتهم وأنا على دين قومى، ثم أسلمتُ حيث دخلت عليك الساعة. قال: فإن الإسلام يَجُبّ ما قَبْلَه. قال: وكان قد

قتل منهم ثلاثة عشر إنسانًا، فبلغ ذلك ثقيفًا، فتداعَوْا للقتال ثم اصطلحوا على أن يحمل عنى عروة بن مسعود ثلاث عشرة دية".

وأنا لا أدرى معنى الإيمان الجنائى فى ضوء ما قرأناه الآن. ترى أكان فى الإيمان الذى أعلنه المغيرة جناية على أحد؟ أبدا، إذ هو لم يأت إلى النبى ويتفق معه على الدخول فى دينه ونيل العفو عن كفره السابق لقاء قتل أولئك الرجال الثلاثة عشر، بل هو قتلهم لسبب خاص به لا علاقة له بالإسلام ثم دخل الإسلام لدن وصوله إلى المدينة والتقائه بالنبى عليه السلام. فما دخل إيمان المغيرة بما صنع برجال قومه؟ وهل كان على النبى أن يرده من حيث أتى؟ ولكن لماذا، ولم تكن بين الرسول وبين قومه معاهدة توجب ذلك كما حدث بعد هذا فى صلح الحديبية؟ ثم إن الإسلام يجب ما قبله، فلا معنى لمجادلته فى ذلك. وأغلب الظن أنه كان قد عزم على الإسلام قبل أن يرتكب ما ارتكب فى حق من حقروه وحطوا من شأنه وأهانوه إهانة لم يجد لها من شفاء لنفسه إلا أن يقتلهم. ثم قتلهم وهو ينوى ألا يرجع إلى الطائف بل أن يدخل الإسلام. وأغلب الظن أنه، حتى لو لم يقتلهم، لكان قد ذهب إلى رسول الله وأعلن إسلامه. وأيا ما تكن حقيقة الأمر فإنه لا صلة بين القتل وبين دخوله الإسلام. فالأمران منفصلان كما شرحتُ ووضحتُ. وجهاد ذلك الصحابى وبلاؤه فى سبيل الله وجميع تصرفاته فى الإسلام بعد هذا قتالا وإدارة ونصحا لدين الله كل ذلك يبرهن على إخلاصه فى إعلان انضمامه للدين الجديد.

وأما إيمان سودة بنت زمعة زوجة النبى عليه السلام فيصنفه كاتبنا على أنه إيمانٌ بَلَاهِىٌّ (ص٦١٣). أستغفر الله، إذ معنى هذا أن أم المؤمنين سودة فى نظر الرصافى بلهاء، وأن إيمانها يقوم على تلك البلاهة لا على العقل والتفكير. وهذا هو الحديث الذى اعتمد عليه الرصافى فى ذلك: "عن سودة بنت زمعة أم المؤمنين عنِ النَّبى صلى الله عليه

وسلم أَنَّه دَفَعَ إِلى سَوْدَةَ بنتِ زَمْعَةَ أسيرًا، فأقبَلَ يَئِنُّ باللَّيلِ، فقالت له: ما لكَ تَئِنُّ؟ فشَكا أَلَمَ القِدِّ، فأَرْخَتْ مِن كِتافِه. فلمّا نامَتْ أخرَجَ يدَه وهرَبَ، فلمّا أصبَحَ النَّبى صلى الله عليه وسلم دعا به، فأُعلِمَ بشأنِه، فقال النَّبى صلى الله عليه وسلم: اللَّهمَّ اقطَعْ يدَيْها. فرفَعَتْ سَوْدةُ يدَيْها تتوَقَّعُ الإجابةَ وأنْ يقطَعَ اللهُ يدَيْها، فقال النَّبى صلى الله عليه وسلم: إنِّى سألتُ اللهَ أنْ يجعَلَ لعنتى ودعائى على مَن لا يستحِقُّ مِن أهلى رحمةً لأنِّى بشَرٌ أغضَبُ كما تغضَبُ البشر. فلْتَرُدَّ سَوْدةُ يدَيْها". ولا شك أن ما قاله الرصافى لا يصح، إذ ليست هذه الحادثة السبب فى إيمانها أصلا، بل حدثت الواقعة بعد إسلامها بزمن طويل. ومن الجهة الأخرى فإن تصرفها عقب دعاء الرسول عليها إنما يدل على إيمان حقيقى به صلى الله عليه وسلم حتى لقد ظنت أن دعاءه عليها دعاء مستجاب فرفعت يديها تتوقع أن يتحقق ما دعا به الرسول عليه السلام. ولا ينبغى أن يفوتنا ما فى ذلك من برهان قوى على صدق النبى حتى لتتوقع زوجته تحقُّق دعائه عليها. والزوجة تعرف من أمر زوجها ما لا يعرفه غيرها من الرجال والنساء، فهى ألصق الناس به وتراه فى مباذله وهو يتصرف بحريته وتلقائيته، إذ هو فى بيته آخذ راحته تماما. ولو كانت تشك فيه أدنى شك ما فعلت ذلك. لكن الرصافى يتجاهل هذا ويرد إيمانها كله إلى البلاهة، وما الأبله إلا هو.

ويبقى التصنيف الأخير حسب تصنيفات الرصافى، وهو الإيمان الكيدى. وقد ضرب له مثلا من إيمان عبد الله بن سلام الحبر اليهودى. وواضح أن الرصافى لا يريد أن يترك مؤمنا دون أن يلطخه ويشوه سيرته ونيته ويثير حوله الشكوك. والكيد فى إيمان ابن سلام حسب الرصافى هو أنه لم يدخل الإسلام اقتناعا، بل دخله ليكيد له ولأتباعه (ص٦١٣). وقد رأينا الرصافى يرجع انتشار الإسلام على نطاق واسع إلى السيف

والقهر. ومن لم يدخل الإسلام سيفا وقهرا فلا بد أن يكون هناك سبب مسىء حمله على الدخول فى ذلك الدين، ولا يمكن أن يكون قد أحب دين محمد عن اقتناع وتأثر جميل بما يشتمل عليه من مبادئ قويمة وقيم كريمة. على كل حال تعالَوْا لنعرف الظروف التى دخل فيها ابن سلام دين محمد عليه السلام والكيفية التى أعلن إسلامه بها، ولسوف نرى أن كل شىء فى ذلك السياق يشير إلى عكس ما يريد الرصافى أن يوهم قراءه به.

ففى "السيرة النبوية" لابن هشام: "قال ابن إسحاق: وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثنى بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم، وكان حَبْرًا عالمًا، قال: لما سمعتُ برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفتُ صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكَّف له، فكنت مُسِرًّا لذلك صامتًا عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة. فلما نزل بقُبَاء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها، وعمتى خالدة ابنة الحارث تحتى جالسة. فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كَبَّرْتُ، فقالت لى عمتى حين سمعتْ تكبيرى: خيَّبك الله! والله لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادما ما زِدْتَ. قال: فقلت لها: أى عَمَّة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه. بُعِث بما بُعِثَ به. فقالت: أى ابن أخى، أهو النبى الذى كنا نُخْبَر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قال: فقلت لها: نعم. قال: فقالت: فذاك إذن. قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمتُ، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم، فأسلموا. قال: وكتمتُ إسلامى من يهود ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قومٌ بُهُتٌ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيِّبنى عنهم ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى. فإنهم إن علموا به بَهَتُونى وعابونى. قال: فأدخلنى رسول الله صلى

الله عليه وسلم فى بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وساءلوه، ثم قال لهم: أيُّ رجلٍ الحصينُ بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا. قال: فلما فرغوا من قولهم خرجتُ عليهم فقلتُ لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به. فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله. تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته. فإنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأومن به وأصدقه وأعرفه. فقالوا:كذبْتَ. ثم وقعوا بى. قال: فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قومٌ بُهُتٌ أهل غدر وكذب وفجور؟ قال: فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى، وأسلمتْ عمتى خالدة بنت الحارث، فحسن إسلامها".

فابن سلام أعلن إسلامه أول مقدم النبى إلى يثرب، ولم يكن قد حدث شىء بعد مما صنعه اليهود من إعلان العداء للإسلام ونبيه ومن التآمر عليه ومن السخرية بالمسلمين وعبادتهم وكتابهم. فكيف يقال إن ابن سلام قد أسلم كيدا للدين الجديد؟ كما أن الطريقة التى تم بها إسلامه لا تدل على أن فى الأمر مكيدة. وقد رأينا سب قومه له حين عرفوا أنه أسلم بعدما كانوا يثنون عليه ثناء عظيما بوصفه حبرا ذا مكانة كبيرة بينهم. والحديث التالى يرينا كيف كان يقف من اليهود وكذبهم وتدليسهم على طول الخط: "عن عبدالله بن عمر أنَّ اليَهودَ جاؤُوا إلى رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فذَكَروا أنَّ رَجلًا منهم وامرأةً زَنَيَا، فقال لهم رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما تَجِدونَ فى التَّوراةِ فى شأنِ الرجْمِ؟ فقالوا: نَفضَحُهم، ويُجْلَدونَ. فقال عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ: كَذَبْتم. إنَّ فيها الرجْمَ. فأَتَوْا بالتَّوراةِ، فنَشَروها، فوضَعَ أحَدُهم يَدَه على آيةِ الرجْمِ فقرَأَ ما بعدَها وما قبلَها، فقال عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ: ارفَعْ يَدَكَ. فرفَعَ يَدَه، فإذا فيها

آيةُ الرَّجْمِ. قالوا: صَدَقَ يا محمَّدُ. فيها آيةُ الرجْمِ. فأَمَرَ بهما رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ فرُجِما".

وكنا نود لو أن الرصافى قد أورد لنا ما يدل على أن ابن سلام كان يكيد للإسلام. أما إطلاق الاتهام على عواهنه فغير مفهوم ولا مقبول. وعلى كل فقد شهد مع عمر بن الخطاب فتح بيت المقدس والجابية. ولما حكم عثمان بن عفان صار من أنصاره ومؤيديه، وعندما قُتِل عثمان بايع عليا بالخلافة. وفى أيام الفتنة بين معاوية وعلى رضى الله عنهما اعتزل وجلس فى بيته. وروى عن النبى أحاديث، وروى عنه جماعة. وتوفى بالمدينة المنورة فى السنة الثالثة والأربعين من الهجرة.

وبعد هذا كله يعود الرصافى من جديد إلى شِنْشِنَته المبغضة للإسلام إذ يقول كرة أخرى إن الإسلام إنما انتشر بالسيف، والدليل على ذلك أن العرب ارتدت عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم (ص٦١٣). ولكن الذين ارتدوا لم يكونوا هم العرب جميعا بل جزءا من المسلمين فقط، وهؤلاء لم يرتدوا عن الإيمان بالله ورسوله بل أرادوا ألا يخرجوا الزكاة، وبعضهم آمن بنبى من قومه كما هو الحال مع كل من أتباع مسيلمة وأتباع الأسود العنسى وأتباع طليحة الأسدى. أما سائر المسلمين فقد ثبتوا على دينهم كاملا مؤدين كل فرائضه ومعطين الزكاة عن طيب خاطر استجابة لما قاله لهم ربهم فى القرآن وعلى لسان الرسول. فكيف يا ترى يغلِّب الرصافى المرتدين على المخلصين المتمسكين بإيمانهم ويجعل المرتدين يرتدون عن الإسلام جميعه بينما لم يكن الأمر كذلك؟ من البين أن الرصافى يعتمد التدليس أسلوبا فى تناول تاريخ الإسلام الأول وشخصية الرسول وطبيعة إيمان الصحابة.

وهذا ما قالته مادة "حروب الردة" فى "الموسوعة العربية العالمية" عن هذا الموضوع: "من الحقائق الأساسية المستمدَّة من المصادر الأصلية حول هذه الفتنة أنها لم تكن شاملة لكل الناس، بل إن هناك قبائل وقادة وجماعات وأفرادًا تمسكوا بدينهم فى كل منطقة من المناطق التى ظهرت فيها ردّة، وكان لهم جهد كبير فى إخماد فتنة الردّة فى مناطقهم. فقد ثبت على الإسلام فى الحجاز زمن فتنة الرِّدَّة المكيِّون والثقفيُّون والمدنيون، واتفق على هذا المؤرخون. وثبتت القبائل المقيمة بين مكة والمدينة والطائف على إسلامها، مثل مُزَيْنة وغِفَار وجُهَيْنة وبَلِى وبعض أشجع وأسلم وعَبْس وطوائف من بنى سليم وجماعة من بنى ذُبْيان وطَيِّئ وهُذَيْل وأهل السراة وبَجِيلة وخثعم وبنى كلب وبنى كعب وبنى عامر بن صَعْصَعة.

ولم تتابع كل أسد وغَطَفان المرتدَّ طليحة الأسدى، بل ثبتت جماعات منها على الإسلام. وثبت الأبناء مُوَلَّدُو الفرس باليمن، وعلى رأسهم فيروز الديلمى وداذويه وجشنس، واستنهضوا القبائل والجماعات والأفراد الذين بَقُوا على إسلامهم لحرب الأسود العَنْسِى. ونهض معهم جماعة من بنى عقيل بن ربيعة وجماعة من عك والنَّخْع وجعض والسكون والسكاسك وزبيد، وأشخاص أمثال فروة بن مسيك. كل هؤلاء تآزروا فى إخماد فتنة العنسى فى حياة الرسول وقبل وصول جيش أبى بكر إليهم بقيادة المهاجر بن أبى أُمَيَّة وعِكْرِمة بن أبى جهل.

وثبت كثير من بطون وأفراد ورؤساء بنى تميم، ووقفوا فى وجه مالك بن نُوَيْرَة وسَجَاح التميمية المتنبئة، وردُّوها عن فكرة غزو المدينة عاصمة الدولة الإسلامية. وكان من أولئك الثابتين على الإسلام بنو يربوع بزعامة ابن قعنب والرباب وعوف والأبناء بزعامة الزِّبْرِقان بن بدر وبنو عمرو وخضم بزعامة صفوان بن صفوان وسبرة

بن عمرو. وكان ممن وقف من أهل اليمامة ضد مُسَيْلِمة الكذَّاب وساند خالدَ بنَ الوليد فى حربه ضد مسيلمة ثمامةُ بن أُثَال وقومُه بنو سحيم وغيرهم ومجاعة بن مرارة وسارية ابن عامر ومعمر بن كلاب وابن عمرو اليشكرى وعمر بن ضابئ اليشكرى وعامر بن مطرفة ورهطه. ووقفت الجماعة الإسلامية فى عمان مع أميرها جيفر وأخيه عباد ضد ذى التاج لقيط بن مالك الأزدى متنبِّئ عمان حتى أدركهم حُذَيْفة بن محصن الغلفانى وعرفجة بن هرثمة البارقى وعكرمة بن أبى جهل، وهم من قواد الألوية التى عقدها الخليفة أبو بكر لقتال المرتدين. وثبت بنو جديد وبنو ناجية بزعامة الخريت بن راشد، وبنو عبد القيس بقيادة سيحان بن صوحان، وأهل تبالة من أرض كعب بن ربيعة.

وثبت على الإسلام فى البحرين الجارود بن عمرو العبدى مع قومه بنى عبد القيس، وقيس بن عاصم المنقرى وعفيف بن المنذر وعتبة بن النهاسى بن بكر بن وائل وعامر بن عبد الأسود ومسمع وحفصة التميمى وغيرهم، وآزروا جميعًا العلاء بن الحضرمى قائد جيش الخلافة. وثبت فى حضرموت أميرهم زياد بن لبيد الأنصارى البياضى وامرؤ القيس بن عابس الكندى وبنو قتيرة من كنْدة وشرحبيل بن السمط وابنه وعدى بن عوف الكندى وأبضعة بن مالك من أبناء ملوك كندة وعفيف بن معديكرب من رؤساء كندة، وثور بن مالك ومعاوية بن الجون الكندى ومعاوية بن عمرو. وثبت على الإسلام فى مهرة بنو شخراة بزعامة شخريت، وبعض بنى محارب وأهل المناطق المحيطة بمهرة أمثال أهل النجد ورياض الروضة والسّاحل والجزائر والمر واللبان وجيروت وظهور الشحر والصبرات وغيرهم، وساعدوا عكرمة فى حربه ضد مرتدى قومهم فى هذه المناطق. وثبت فى مناطق شمالى الجزيزة العربية بنو شيبان من بنى بكر بن وائل بزعامة المثنَّى بن حارثة الشيبانى وبنو عذرة بزعامة معاوية العُذْرِىّ.

وهكذا يتضح لنا أن العرب المسلمين لم يرتدّوا جميعًا عن الإسلام، بل ثبتت عليه الأكثرية وتمكنت من القضاء على الفتنة فى مهدها لتنطلق الأمة الإسلامية بعدها فى ميادين الجهاد والفتح ونشر قيم الإسلام بعد إزالة الطواغيت والعوائق التى كانت تحول بين الناس والدخول فى الدين العظيم. وقد وحَّدت هذه الحروب كلمة المسلمين وجعلتهم يلتفون حول أبى بكر الصديق، وقويت بذلك خلافته، وصقلت مواهبَ العرب العسكرية، وطهرت نفوسَ من ارتدَّ منهم وعاد للإسلام، وجعلتهم يكفِّرون عن ذنوبهم بالصدق فى الجهاد فى ميادين الفتوح الإسلامية المختلفة".

وفى مبحث "بلاغة القرآن" (ص٦١٤ فصاعدا) يكتب الرصافى أن فى القرآن نصوصا بليغة ونصوصا أخرى تخلو من البلاغة، فضلا عن النصوص الخاطئة التى تصادم المنطق. وبعد أن ضرب بعض الأمثلة من الكتاب الكريم على ما تتسم به بعض نصوصه من بلاغة عالية شرع فى إيراد طائفة من الآيات يرى أنها تفتقر إلى البلاغة والمنطق. ومن هذه الآيات قوله تعالى فى سورة "الإسراء": "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا"، الذى يقول فيه: "إن ظاهر هذه الآية غير معقول: أولا لأن الله أمر المترفين بأن يفسقوا ففسقوا، وذلك لا يجوز لأن فعل القبيح مستحيل على الله، فقد جاء فى القرآن قوله: "قل إن الله لا يأمر بالفحشاء". ثانيا إذا كان هو الذى أمرهم أن يفسقوا كان فسقهم طاعة له وامتثالا لأمره، فكيف يستحقون الإهلاك؟ ثالثا إن الإهلاك بالتدمير قد شمل أهل القرية كلهم، وإنما المجرمون منهم هم المترفون الذين هم يمثلون الأقلية من الناس فى كل زمان ومكان. وليس هذا من العدل، والله يأمر بالعدل والإحسان" (ص٦١٦). ثم يستمر فيشير إلى أن هناك قراءة أخرى للآية تصحح المعنى من بعض الوجوه، وهى

قراءة "أَمَّرْنا مترفيها"، أى جعلناهم أمراء، إذ الأمراء مسببو الهلاك لمن يحكمونهم. وهو يرى أن الذى حمل القراء على القول بهذه القراءة هو أن معنى القراءة الأخرى غير معقول، كما أن القراءات لديه ليست توقيفية بل كان القراء، كما يقول، يقرأون حينذاك بالمعنى، وكل ما صح به المعنى فهو قرآن عندهم (ص٦١٦- ٦١٧).

وتعليقى على ذلك أن القرآن أحيانا ما يركز على مسؤولية كل شخص وجماعة عن أعمالهما التى يأتونها كى يعرف الناس أن هناك حسابا وثوابا وعقابا فيكفوا أيديهم عن الشر ويطلقوها فى عمل الخير ويستقيموا ويستمسكوا بالهدى والرشاد خشية من الله وحسابه وطمعا فى رضاه وثوابه. وتارة يركز على أن كل شىء هو بإرادة الله، الذى نظم كونه على أساس من القوانين المطردة حتى لا يظن ظان أن رؤساء الكفر وقادته وزعماءه حين يرتكبون المعاصى يرتكبونها رغم مشيئة الله. فيريد الله سبحانه أن يقول إن كل شىء فى الكون إنما يقع بعلمه سبحانه وإرادته فلا يستطيع أحد كائنا من كان أن يراغم ربه بل الكل فى قبضته عز وجل مع إعطاء كل إنسان مقدارا من الحرية محدودا، وهو ما سوف يحاسب عليه. فالأمر كله، كما نرى، هو أمر الله، ولا شىء يخرج عن سلطانه وسيطرته. وعلى هذا فإنه عز شأنه هو من أَمَّر الأمراء بمعنى أن نظامه الذى أرساه فى الكون والمجتمعات البشرية هو الذى يؤدى إلى هذا، وهو نفسه النظام الذى يترتب عليه أن يفسد المترفون المجتمع بترفهم وفجورهم الشنيع وبصمت باقى الأمة عليهم ورضاهم بما يجترحون من فواحش ومظالم لا يعترضون عليها ولا يحاولون محاربتها بل يستسلمون لها ولمجترحيها. أى أن هذا هو النظام الذى وضعه الله، وهو يؤدى إلى انهيار المجتمعات متى ما توافرت شروط الهلاك، وهى ظهور المترفين وفسقهم وصمت الشعوب عن هذا الفسوق واستسلامهم له وانجرافهم أمام تياره. وكما أن الأشرار

يبذلون جهودهم للاستيلاء على ما ليس من حقهم لقد كان يجب على الشعب أن يكون يقظا فيكافح هذا الفسق ويعوقه دفاعا عن حقه فى الحياة الكريمة التى تليق بالبشر الكرام، وإلا فَلْيَصْلَ نار الظلم والجبروت ما دام لا يهتم بالدفاع عن حقوقه. خلاصة القول أن هناك مستويين للنظر فى هذه المسألة: المستوى المطلق، وفيه يبدوكل شىء فى قبضة الله جل وعلا، ويتم التركيز فيه على إفهام الخلق والمشركين بالذات أن سلطته سبحانه شاملة بما فى ذلك الحرية النسبية المعطاة للبشر، والمستوى النسبى البشرى، ويتم فيه التركيز على هذه الحرية النسبية وما يترتب عليها من مسؤولية لكى يجتهد الشخص لبلوغ ما يريد وتأدية واجباته والابتعاد عن الشر والأذى والعصيان.

والرصافى (ص٦١٨) يعترض على قوله تعالى فى سورة "الفرقان": "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا"، وحجته أن الظل متحرك بحركة الأرض أمام الشمس، فلا يمكن من ثم أن يسكن الظل بل لا بد من حركته زيادة ونقصانا. فهو يرى أن سكون الظل مستحيل، وإرادة الله لا تتعلق بالمستحيل. ولكن ما يقوله الرصافى إنما يتعلق بالوضع الحالى لنظام الكون. ولو شاء الله أن ينظم كونه على وضع آخر يكون فيه الظل ساكنا لكان له ما شاء. وفى القرآن أن الأرض سوف تُبَدَّل غير الأرض والسماوات يوم القيامة، فيكون هناك كون بنظام آخر بحيث لا يحتاج الإنسان فى الجنة إلى عمل كى يحصل على الطعام والشراب والاستمتاع بالجنس الآخر ولا يكون هناك قلق ولا ملل ولا خصومة بين البشر ولا أمراض ولا آلام ولا شيخوخة ولا موت ولا حاجة إلى دخول الحمام ولا مغص ولا صنان ولا بزاق ولا حيض ولا نفاس ولا حمل ولا ولادة ولا خروج من الجنة. وهذا كله مخالف لقوانين كوننا الحالى على الأرض. والله لا يخضع لأية مشيئة ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء. فهو سبحانه لو

كان قد شاء أن يلامس الورق النار فلا يشتعل لكان ما شاء، ولو شاء أن يطير الإنسان فى الفضاء بدون طائرة لطار، ولو شاء أن يسقط الشخص من حالق فلا ينزل إلى الأرض بل يبقى عالقا فى الفضاء أو يرتطم بالأرض لكن دون أن يصاب أو يتألم لكان ما أراده الله سبحانه. وهذا مثل قوله تعالى فى سورة "الشورى": "ومن آياته الجوارِ فى البحر كالأعلام إن يشأ يُسْكِنِ الريحَ فيَظْلَلْن رَوَاكِدَ على ظهره". بل إنى لأزيد فأقول: ولو شاء سبحانه أن تتحرك الرياح ولا تتحرك السفن الجوارى بل تظل رواكد على ظهر البحر لكان له ما شاء. إننا نظن أن الكون على وضعه هذا حتمى. نعم هو حتمى لنا، أما بالنسبة إلى الله خالقه ومجريه على هذا الوضع فليس بحتمى، إذ هو قادر على أن يخلق نظاما جديدا غير النظام الذى ألفناه وظنناه خالدا أبديا غير قابل للتغيير. والغزالى أبو حامد وبعض فلاسفة أوربا فى العصر الحديث تبعا له يقولون بهذا.

كما يعترض كاتبنا (ص٦١٨- ٦١٩) على قول الحق تبارك وتعالى فى سورة "النمل": "ولقد آتينا داودَ وسليمانَ عِلْمًا وقالا الحمد الذى فضَّلَنا على كثير من عباده المؤمنين"، إذ كان ينبغى أن يقال: "فقالا: الحمد لله" بفاء السببية على اعتبار أن الشكر مترتب على إتيانهما العلم، فكان ينبغى أن تستعمل فاء السببة لا واو العطف. ولا أدرى ولست إخال أدرى ما وجه انبغاء استعمال الفاء هنا. هل هذا فرمان جديد أصدره الرصافى فلا يحق لله، أو لمحمد إن قلنا إن محمدا هو مؤلف القرآن كما يزعم الرصافى كاذبا، أن يقول: "وقالا: الحمد لله" عوضا عن "فقالا: الحمد لله"؟ ألم يدر فى ذهن ذلك المستبد أن يكون المقصود أن داود وسليمان كانا يشكران الله سبحانه سواء آتاهما أو لم يؤتهما شيئا، على أساس أن الشكر طبيعة فيهما لا يحتاج إلى مثير كى يثار، ولهذا عطف ولم يركز على العلة والمعلول؟ وأما ما قاله الرصافى ردا على ما كتبه الزمخشرى فى

هذا الموضوع ونعته له بأنه كلام فارغ فلا نُعَنِّى نفسنا به بل نتركه يقول فى المفسر الكبير ما يريد لعله يرتاح من الحكة التى تنتابه كلما جاء ذكر بلاغة القرآن، وهيهات أن يرتاح.

وفى قوله عز شأنه فى سورة "القصص" عن المشركين: "ولولا أنْ تصيبَهم مصيبةٌ بما قدمت أيديهم فيقولوا ربَّنا لولا أرسلتَ إلينا رسولا فنَتَّبِعَ آياتك ونكونَ من المؤمنين" يعيب خلو الآية من جواب "لولا" لأنه لا مقتضى لهذا الحذف، وفاته أننا حتى فى حديثنا اليومى الاعتيادى كثيرا ما نقول مثلا لشاب أساء الأدب معنا وأردنا أن نُقرِّعه فنقول: "آه! لولا أنك ابن فلان الرجل المحترم!" دون أن نكمل الجملة، ونقصد "لَكُنَّا نكَّلنا بك تنكيلا" مثلا. وكثير من كلامنا الملفوظ والمكتوب يقوم على الحذف. فنحن لا نكاد نستعمل أداة نداء عند دعاء الأشخاص، بل نكتفى بقولنا: "محمد" مثلا بمعنى "يا محمد". وعندما كنا صغارا كانت هناك عبارة يستعملها الناس فى القرية حين يكونون فى خطر ولا أحد قريب منهم يمكن أن يمد إليهم بد العون، ويريدون من الآخرين أن يهبوا لنجدتهم من ذئبٍ صائل أو لصٍّ قاهر أو حريقٍ مدمر، وهى عبارة "يا خَلْق هُوه"، أى "تعالوا إلىَّ وأسرعوا يا ناس وأنقذونى مما أنا فيه، فأنا أوشك أن أهلك". وحين نسمع قارئا مبدعا يقرأ القرآن أو مغنيا ساحرا يطربنا أو نشاهد لاعب كرة يمتعنا بتسديداته أو تمريراته للكرة أو مغازلاته ومراوغته للخصوم والنفوذ من بينهم بالكرة ببراعة وفن فإننا نهتف قائلين: "الله". والمعنى "فليبارك الله فى فلان لكذا وكذا" أو "يا ألله بارك فى فلان الفلانى لكيت وكيت"... وهكذا. وفى القرآن كثيرا ما نجد جواب "لولا" هذه محذوفا، وليست هذه هى المرة الوحيدة التى حذف فيه ذلك الجواب. فهو إذن أسلوب قرآنى. ولو كان فى ذلك الأسلوب أى مأخذ لانبرى الكفار

ساخرين متهكمين على محمد لأن القرآن الذى جاء به يتحداهم أن يأتوا ولو بسورة من مثله رغم ما فيه من عيوب طبقا لتساخف الرصافى السمج.

أما معنى الآية الذى حير الرصافى فيمكن القول بأنه كالآتى: "ومنعًا لأن/ وتجنبًا لأن/ ولكيلا/ وحتى لا تصيبكم مصيبة فتتحججوا بأننا لم نرسل إليكم رسولا يهديكم فقد أرسلنا إليكم محمدا ليقوم بهذه المهمة". وأنا منذ صغرى أفهمها على هذا النحو بناء على قوله تعالى فى سورة "النساء": "رسلا مُبَشِّرين ومُنْذِرين لئلا يكونَ للناس على الله حجةٌ بعد الرسل"، وقوله فى سورة "الإسراء": "وما كنا مُعَذِّبين حتى نبعث رسولا"، وقوله فى سورة "طه": "ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى"، ولا داعى لكل تلك الضجة الرصافية السخيفة! وكذلك لا معنى لهذا التنطع الذى يتنطعه الرصافى فى تخطئته للقرآن، فهو يعتمد هنا على ذوقه ونحوه العصرى، وهما لا يسعفاننا دائما أمام النصوص القديمة، فما بالنا بنصوص القرآن، التى حتى لو قلنا إنها من تأليف محمد فينبغى أن نفهم ونعى ونستوعب أن محمدا رجل عربى أصيل، وكلامه يُحْتَذَى به كما يحتذى بكلام امرئ القيس وطرفة وزهير والأعشى والنابغة والأعراب الحفاة شبه العراة الذين كان يقصدهم علماء اللغة ليأخذوا عنهم ويستخلصوا قواعد النحو والصرف من أقوالهم، دعك من أننا إزاء نص إلهى كيفما كانت طريقة إيحائه لمحمد صلى الله عليه وسلم؟ وأما معركة الرصافى مع الزمخشرى بخصوص توجيه هذه الآية فلا دخل لى فيها أيضا.

ومرة أخرى لا يفهم الرصافى مرمى الكلام فى القرآن الكريم فى قوله تعالى من سورة "القصص": "قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليلَ سَرْمَدًا إلى يوم القيامة مَنْ إلهٌ

غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون"، إذ يقول إن سرمدية الليل أو النهار مستحيلة، ومن ثم فالآية معيبة فى نظره الكليل (ص٦٢٠). ذلك أنه يفترض أنه لا وجود لأى نظام كونى آخر غير الذى نحن فيه. ومعنى هذا أنه يتصور أن هذا النظام مفروض على الله من قوة لا قبل له بها، وبالتالى فإنه لا يستطيع لهذا النظام نقضا ولا تبديلا، وكأن الله واحد من البشر محدود القدرة والإرادة لا يتحرك إلا فى نطاق شديد الضيق بالمكان الذى هو فيه ولا يستطيع أن يتحرر من إسار القيود الكثيرة التى تثقله. وفاته أن الله يتحدث عن إمكانية وجود وضع مختلف للكون يكون الليل فيه أو النهار سرمدا. وليس فى هذا ما يستحيل عليه سبحانه، فهو المطلَق وجودا وقدرة وقوة ومشيئة، ولو أراد أن يكون الكون قائما على نظام آخر وقوانين مختلفة لكان ما أراده جل وعلا. وحينئذ لا يمكن أن يغير هذا النظام أحد. وقد استعمل لفظة "إله" لا على أساس أن هناك آلهة أخرى غير الله، إذ لو كانت هناك آلهة أخرى إلى جانب الله لما كان هو ولا هم آلهة بل مخلوقات مثلنا محدودة، بل على أساس قول المشركين عن الأوثان إنها آلهة. وهم يعرفون عز المعرفة أن آلهتهم هذه أعجز من ذبابة. فهذا هو معنى الآية، ولا موضع فى فهمها لما يهرف به الرصافى، الذى يتصور أنه يمكنه التعنت مع الله وكأنه يقارع مخلوقا ضعيفا عاجزا على شاكلته. الواقع أن كلام الرصافى فى تحليل الآية يدل على اضطراب فى العقل والفهم والتصور وعدم التمييز بين الخالق والمخلوق. وأما قوله فى آخر التحليل (نفس الصفحة): "بقى هنا شيء آخر، وهو أنه كان الأَوْلَى أن يقول فى الآية الأُولَى: "مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بنهار تتصرفون فيه" ليطابق قوله فى الآية الثانية: "من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه". وقد اعتذر الزمخشرى فى

"الكشاف" عن هذا بما لا طائل فيه". والأمر هنا مداره على الذوق، وهو يرى هذا، ونحن لا نرى ما يراه، ونقول إن القرآن ليس حريصا دائما على التناظر الصارم بل كثيرا ما يخرج عنه ليعطى القارئ الشعور بالحرية والطلاقة والطرافة.

وفى الصفحة الحادية والعشرين بعد الستمائة يلفت انتباهنا إلى قوله عز شأنه فى سورة"العنكبوت": "قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلقُ ثم الله ينشئُ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير" واصفا العبارة بأنها غير مستقيمة لأنه لا حاجة للإنسان إلى السير فى الأرض بل يكفيه التأمل وهو فى مكانه، وبخاصة أن الدين قد وضح له كيف بدأ خلق البشر وخلق الكون جميعا. ثم تكلم عن العلم واكتشافاته ووجوب الاكتفاء بما قاله العلماء، وكأن العلماء لزموا بيوتهم فلم يسيروا فى أرجاء الكرة الأرضية ويشاهدوا ويلمسوا ويسمعوا ويشموا ويفكروا ويحملوا معهم أدواتهم ومقاييسهم ويستخلصوا النتائج. إن الرصافى يتصور أن مجرد التأمل البسيط الساذج يكفى فى فهم حقائق الحياة وأسرارها. لقد مضى ذلك الزمن الذى كان البشر يظنون فيه أن الفكر التأملى السطحى فى الملكوت كاف لاكتساب العلم، وصار واجبا على العالم أن يخرج إلى الحياة ويتنقل هنا وهناك ويحصل على العينات ويخضعها للتجربة مستعينا بعدد من العلوم الأخرى. وهو فى كل ذلك لا بد له من التحرك والضرب فى الأقطار والغوص فى البحار والطيران فى السماء واختراق الصحراوات والتغلغل فى الغابات ودرس الحقول والصخور والبراكين والآبار والماء والنار والهواء وأجناس المخلوقات الحية من بشر وحيوان مستأنس ومتوحش وطيور وأسماك وفراشات وديدان وزواحف ونباتات وأشجار. ومعروف أن كل جنس من هذه الكائنات يشتمل على مئات الأنواع، وكل نوع له خصائصه التى تميزه عن غيره، وله وظائفه، وله فوائده ومضاره... إلخ.

فكيف لا يجب على الإنسان أن يسير فى الأرض ليتعلم ويعلم ويرى الخلق كيف يبدأ فى كل كائن وكيف يتطور وكيف يضمحل وينتهى ويفنى ثم يظهر من جديد ليبدأ رحلة أخرى من الخلق؟ وبهذا، وبهذا وحده، يمكن الاجتهاد فى محاولة الوصول إلى الكيفية التى بدأ بها الخلق. وهناك نظريات متعددة فى ذلك، ومع الأيام من الممكن أن نصل إلى شىء آكد. وهكذا يتقدم العلم وتتسع دائرة معارفنا وتنمو وتكبر بدءا من المعرفة بالأشياء والأحياء الصغيرة إلى الخلق الأول. الإسلام ينبهنا إلى حتمية استخدام منهج ا لملاحظة والتجريب والاحتكاك المباشر بالمخلوقات لا البقاء على مبعدة منها. فبهذا البعد لا يمكن أن يكون هناك علم بشىء، فضلا عن الوصول إلى الكيفية التى بدأ بها الخلق.

وفى سورة "العنكبوت" يتوقف الرصافى أمام قوله جل شأنه: "وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولىٍّ ولا نصير"، الذى يرى أنه (أنه من؟ لا يقول. وطبعا هو يرى أنه محمد وليس الله رغم كل ما قاله عن وحدة الوجود وأن محمدا ملهم من الله) يخاطب به أناسا يعيشون على الأرض ويموتون فيها، فكان يجب، بناء على توجيه الرصافى لله أو لمحمد أو للوجود الواحد الذى هو الله أو لكل ذلك، حَيَّره الله كما حيَّرَنا، كان يجب أن يقول: "وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا من فى السماء"، وإن أضاف أنه يمكن افتراض أن يكون المعنى "وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى ا لسماء لو فرضنا أنكم فيها" أو يكون المقصود بالسماء الحصون والبروج الذاهبة عاليا فى السماء، لكنه يستدير فيقول إن هذا كله نُبُوٌّ عن البلاغة (ص٦٢١). والرصافى هنا يتصور أن الإنسان ماضيا وحاضرا ومستقبلا لا عيش له إلا على الأرض. وهذا ضِيقٌ فى الأفق وفى الخيال. وها نحن الآن نرى بأم أعيننا سفن الفضاء،

وفيها بعض البشر، تصل إلى القمر وتكرر هذا مرارا، ووصلت منذ أسابيع إلى المريخ ولكن دون بشر، ولسوف يطير البشر إليه بمشيئة الله كما طاروا من قبل إلى القمر. فهلا لزم الرصافى حدوده ولم يصادر على المستقبل؟ ثم ألا يعرف أن القرآن يخاطب الجن والإنس؟ فهل يستطيع أن يقطع بأنه ليس هناك جن فى السماء؟ ثم إن المعنى يمكن أن يكون كالتالى: "وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا حتى فى السماء إن استطعتم الهروب إليها والصعود فيها"؟ والمقصود أن الأسداد مضروبة عليكم فلا تستطيعون أن تهربوا من الله وعقابه إن أراد معاقبتكم على كفركم وعنادكم وعصيانكم، فأنتم أينما ذهبتم فى قبضته جل وعلا. وفى سورة "الرحمن" يخاطب سبحانه الإنس والجن: "يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفُذوا من أقطار السماوات والأرض فانفُذوا لا تنفُذون إلا بسلطان". وأنت بالخيار: فإما أخذتها على التحدى، وإما أخذتها على أنها مما يمكن أن يقع ولكن بسلطان من الله يفيضه على عباده كما أفاض عليهم من سلطان العلم والقدرة على الابتكار والاختراع ما مكَّنهم من صنع سفن الفضاء والوصول بها إلى القمر ثم محاولة الوصول بها إلى المريخ ثم غير المريخ فيما يقبل من الأيام.

وعلى هذا فزعم الرصافى أن الآية بحاجة إلى إصلاح هو تجاوز سخيف لحدوده وقدراته سببه أفقه الضيق وخياله الكسيح. وهناك أغنية يغنيها فريد الأطرش وشادية ويقول فيها مخاطبا إياها بأسلوب المذكر كما هو الحال فى كثير من قصائدنا وأغانينا: "تطلعْ م الارض اطلعْ لَكْ. تنزلْ م السما أنزلْ لَكْ"، ولا طلوع ولا نزول، ولكن المعنى مفهوم، وهو أنه قادر للوصول إليها أينما كانت لا يمنعه من ذلك شىء فى الأرض ولا فى السماء، ولن تستطيع أن تهرب منه مهما فعلتْ. ولو كان الرصافى بتنطعه

معنا وسمع هذه الأغنية لانشغل، بإصلاح ما فيها من خلل بلاغى كما يتصور بمخه الكَنِز، عن حلاوة إبداعها وخيالها المحلق وفكاهتها الصافية.

ومن سورة "المائدة" يقف الرصافى أمام آية "يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهَكم وأيديَكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسِكم، وأرجلَكم إلى الكعبين" ويرى أنها مربكة وتَعْرَى عن البلاغة لهذا السبب، فقد اختلف القراء فيها: فمنهم من يفتح لام "أرجلكم" على اعتبار أن الكلمة معطوفة على "وجوهكم"، ومن ثم فإن الأرجل تغسل، ومنهم من يكسر لامها على اعتبار أنها معطوفة على "رؤوسكم"، ومن ثم فإنها تمسح مثلما تمسح الرؤوس. وفى رأيه أنها كان ينبغى أن تأتى على النحو التالى: "فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم" حتى نقضى على هذا الاختلاف فى القراءة والفهم ما دام الأمر هنا أمر تشريع، إذ يجب أن يكون الكلام واضحا لا يثير بلبلة (ص٦٢٥- ٦٢٧).

وأولا أحب أن أداعب الرصافى وأقول له: إنك يا شاعرنا وكاتبنا لا تصلى ولا تعترف بالقرآن بأنه من عند الله، ومفهومك عن الألوهية مضطرب وغريب لا يتمشى مع القرآن ولا مع أحاديث الرسول، وهذا إن اعترفت به رسولا أصلا. فما دام الأمر كذلك فما الذى يشغلك فى أمر هذا التشريع وكأنه أربك حياتك وعقلك وقلبك وضميرك على حين أنت بعيد كل البعد عن هذا كله؟ ثانيا إن ترتيب الأعضاء فى الآية هو ترتيب تطهيرها فى الوضوء: الوجه أولا ثم اليدان ثم الرأس ثم الرجلان، فلهذا لم يأخذ سبحانه باقتراحك. فنرجو ألا تغضب. ثم إن العربية إنما يميزها عن كثير جدا جدا من اللغات ما تتحلى به من إعراب يسمح لها بأن تكسر سين "رؤوسكم" فنفهم أنها تُمْسَح، ثم تفتح لام "أرجلكم" فنفهم أنها معطوفة على "وجوهكم وأيديكم"

المنصوبتين، وأنها من ثم تغسل كما تغسل الوجوه والأيدى، وأن جملة "وامسحوا برؤوسكم" هى جملة اعتراضية إعرابيا إذا صح القول، ومن هنا يرانى القارئ قد وضعتها بين فاصلتين إيذانا بأنها اعتراض. أم إننا نفاخر بلغتنا بأن فيها إعرابا يسمح لنا بترتيب الكلمات داخل الجمل والفقرات بمرونة أعظم وأجمل وأكرم من إمكانات معظم لغات العالم، ثم يضيق صدرنا لدى استغلال تلك الإمكانية التى نتمدح بها فى لغتنا؟

إن هذا يفكرنى بحرص الريفيين الآن فى مصر على أن يشترى العريس غسالتين اثنتين للعروس التى لم يكن فى بيت أبيها غسالات البتة لنفاجأ بأنها لا تستعمل هذه ولا تلك بل تغسل هدومها وهدوم الأسرة بيديها كما كانت تفعل فى بيت أبيها وأمها. ودعنا من العرائس اللاتى يشترط أهلو الواحدة منهن على العريس أن يشترى لها كاتوبين اثنين فى عين العدو بينما ربة الصون والعفاف لا تعرف الكتابة ولا القراءة ولا تميز الألف من كوز الذرة. ومن ذلك أيضا أن مصر تتمتع بأضخم قدر من الآثار التاريخية والفنية العظيمة فى العالم بفارق رهيب، ومع هذا فدخلنا من السياحة لا يبلغ دخل دول لا تتمتع ولا بنصف أو ربع أو ثمن آثارنا. وأخيرا فلربما أراد القرآن أن يعلمنا من خلال هذه المسألة البسيطة غير ذات الخطورة أن الاختلاف فى الإسلام مقبول ومعمول حسابه وأن المسلمين ينبغى أن يتقبلوه تقبلا حسنا وألا يتخاصموا جَرَّاءَه بل تكون صدورهم واسعة فيفعل كل منهم ما يفهمه من النص ما دام العلماء قد فسروه على نحوين مختلفين وألا يكون فى قلوبهم حرج حين يرون من حولهم ينهجون نهجا غير نهجهم حتى إذا كان هناك خلاف أكبر من خلاف الفهم الخاص بهذه الآية وأمثاله من الخلافات الصغيرة تسامحوا بشأنه وتركوا غيرهم وما اقتنع به عقله وضميره دون أن

يكبّروا الأمر ويعطوه حجما أضخم من حجمه. وهذا معنًى فى غاية الأهمية لم يلتفت إليه الرصافى، الذى لم يكن يتوضأ أو يصلى أو يصوم أو يعف عن الزنا واللواط وكان يرى أن نسبة الزناة فى المجتمع ٩٩٪ وأن اللواط منتشر جدا حتى لكثيرا ما يقع من المتزوجين (ص٣٩٥- ٣٩٦)، ولكنها الرغبة الآثمة السخيفة فى المشاغبة وإحداث اللغط ليس غير.

والرصافى يرى أن قوله تعالى فى سورة "الأنعام" عن المشركين المعاندين: "ولوأننا نزّلنا إليهم الملائكةَ وكلَّمهم الموتى وحشرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلًا ما كان لِيُؤْمِنُوا إلا أن يشاءَ اللهُ ولكنَّ أكثرَهم يجهلون" مناقض لقوله فى نفس السورة على سبيل الاستنكار عليهم: "وقال الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمنا مِنْ شىء كذلك كذّب الذين مِنْ قَبْلِهم حتى ذاقوا بأسَنا"، إذ كيف يستنكر على المشركين أن يردوا هدايتهم وضلالهم إلى الله مع أن الله قال ذلك فى الآية الأولى؟ ثم كيف يعود القرآن بعد قليل فى نفس السورة فيقول: "قل فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالغةُ فلَوْ شاءَ لَهَدَاكم أجمعين" معارضا ما قاله للمشركين قبيل ذلك؟ (ص٦٢٧- ٦٢٨). والواقع أن التفسير الصحيح لمثل تلك الآيات يستلزم جَمْعَها كلَّها ورَبْطَ بعضها ببعض. ذلك أن هناك مواضع فى القرآن تستلزم التركيز على جانب من هذه المسألة، ومواضع أخرى تسلتزم التركيز على جانب آخر. فمثلا يقول المولى سبحانه فى سورة "الكهف": "مَنْ يَهْدِ اللهُ فهو المُهْتَدِ، ومن يُضْلِلْ فلن تجدَ له وليًّا مُرْشِدًا". والمعنى أن كل شىء فى قبضة الله تعالى لا يستطيع مخلوق أن يخرج عنها. فالدنيا كلها خاضعة للقوانين الإلهية، التى متى تجمع عدد معين منها تَرَتَّب عليه هداية (س) من الناس، ومتى تجمع عدد آخر منها نتج عنه ضلال (ص) من البشر. وما دام الخلق هو خلق الله، وما دامت القوانين هى قوانين

الله، فإن النتائج تسند إلى الله فيقال: هدى الله فلانا، وأضل الله علانا، رغم أن الله قد منح فلانا وعلانا وترتانا قدرا من الحرية سيتم الحساب على أساسه. فإن كان القَدْر كافيا ليتجنب الشخص الإثم وارتكبه رغم هذا عاقبه الله سبحانه. وأما إن كان مغلوبا على أمره لأن عوامل اجتراح الذنب أقوى من عوامل تعويقه كان الشخص فى رحمة الله سبحانه، لأنه لا يكلِّف اللهُ نفسا إلا وسعها.

وهذه طريقة القرآن، فهو يسند المشيئة إلى البشر فى كل مراحل حياتهم: إذ كانت لهم مشيئة فى الجنة الأولى قبل الهبوط، ولهم مشيئة هنا فى الدنيا، وسوف تكون لهم مشيئة فى الآخرة. والآيات فى ذلك كثيرة، وهو ما فصلت فيه القول فى كتابى عن سورة "الرعد". لكن المشيئة البشرية تقع داخل المشيئة الإلهية الكبرى التى لا يفلت منها شىء ولا حتى مشيئة البشر تلك التى كتبها الله لعباده والتى بمقتضاها يستطيع البشر عمل الكثير رغم أنها مشيئة موهوبة، لكنها حرة مع ذلك. ومن هنا ترى القرآن أحيانا يتحدث عن أن الهدى والإضلال من الله عز وجل، وأحيانا يرجعهما إلى مشيئة الإنسان. وهذا صحيح، وذاك أيضا صحيح. والعبرة بالزاوية التى ننظر منها إلى الأمر: فمن زاوية المطلق وبنظرة طائر نقول: الله هو الهادى المُضِلّ. ومن زاوية النسبى نقول إن الإنسان هو الذى يقرر الهداية أو الضلال.

وعلى هذا فقبل أن يقفز أحدٌ لَدُنْ قراءته آيةً تقول إن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء قائلا إن هذا معناه أن الكون يقوم على الجبر المطلق أسارع أنا فأعيد القول مرة أخرى إن هذه المشيئة الإلهية المطلقة اقتضت أن تكون هناك مشيئة بشرية محدودة تنضوى فيها انضواءً، وبناء على تلك المشيئة المحدودة سوف يكون الحساب. وبالمناسبة فهذه المشيئة البشرية النسبية هى التى صنعت كل الحضارات التى نعرفها منذ أيام آدم

وحواء إلى يومنا هذا، وسوف تصنع الحضارات القادمة من هنا حتى يوم القيامة. ومن هنا نستطيع أن نفهم أمر الرسول لنا بأنه إذا قامت القيامة وفى يد أحدنا فسيلة فليغرسها، إذ البشر مطالبون دائما فى الإسلام ببذل جهودهم فى ذكاء وعزم وإخلاص ودراسة وعلم، وعلى الله الباقى. وعلىَّ أن أسعى، وليس علىَّ إدراكُ النجاحِ كما يقول كشاجم أحد شعراء بنى حمدان فى حلب. والسعى هنا معناه أن آخذ كل احتياطات النجاح والفلاح لا أن أفعل الأمر كُلّشِنْكان، والسلام، وإلا لم يتناغم فعلنا مع الكون المنظم المقنن الذى يجرى فيه كل شىء بقدر معين لا على نحو عشوائى.

وحتى حينما نقرأ قوله تعالى فى سورة "الحج" عن الشيطان: "كُتِبَ عليه أنه مَنْ تَوَلَّاه فأنه يُضِلّه ويَهْدِيه إلى عذاب السعير": فالمعنى أن هذه طبيعته لا أن الله فرض عليه ذلك فرضا. فالله لا يمكن أن يكره أحدا على الكفر أو العصيان، تعالى الله عن الظلم والإجبار، بل المعنى هو أن خيوط الكون كلها فى يده سبحانه، ولا ينبغى من ثم أن يظن ظان أنه بكفره أو تمرده قد خرج عن نطاق السلطان الإلهى وأنه سبحانه لا يستطيع أن يصنع له شيئا. لقد خلق الله الكون بكل ما فيه ومن فيه، وأجراه على نظام وقوانين معينة، ومن بينها ذلك المقدار المحدود من المشيئة البشرية، وهو ما يجرى على إبليس كذلك، فله هو أيضا مشيئة، ولكن الله يريد ألا يتصور متصور أن إبليس متمردٌ عاتٍ خارجٌ عن السيطرة الربانية، فلهذا يقول إن الشيطان قد كُتِب عليه كذا وكذا. أى أن النظام الذى يسير عليه الشر فى الدنيا يؤدى إلى أن من أصاخ إلى صوت الشيطان وصَدَّقه وصار من أوليائه، أى تولَّى الشيطانَ، فإن الشيطان يضله ويأخذ بيده إلى جهنم حيث يَصْلَى عذابَ السعير، وأن من يمارس حريته وقدرته على التمييز والاختيار وينأى بنفسه عنه فأنه سبحانه يأخذ بيده إلى الجنة، أى أن العوامل المساعدة على الخير تكون فى

صفه وتعمل لصالحه فينجو، وهذا بفضل اختياره وممارسته لحريته وعدم انصياعه فى غباء وانغلاق ذهن إلى وسوسات الشر الشيطانية فى نفسه.

كذلك لا يعجب الرصافى فى قوله سبحانه من سورة "آل عمران": "وكَأَيِّنْ من نبيٍّ قاتَلَ معه رِبِّيُّون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين" أن الآية لم تكتف بذكر الوهن بل زادت عليها الضعف والاستكانة، والأفضل فى رأيه الإيجاز والاكتفاء بواحدة فقط من هذه الكلمات (ص٦٣١). وكعادته يجادل المفسرين الذين يحاولون توجيه الآية، وهو ما لا أهتم به، بل أُدْلِى بدلوى أنا مباشرة. وعلى هذا أقول: من يا ترى قال إن الإيجاز دائما هو البلاغة؟ إن لكل كلام سياقا خاصا به، وقد يستلزم هذا السياق الإيجاز، وقد يستلزم الإطناب، وقد يستلزم المساواة فلا إيجاز ولا إطناب. أما القول بأن البلاغة نمط واحد فهذه سطحية فى الفهم والتذوق. ألم يسمع الرصافى القول القائل: "لكل مقام مقال"؟ وهل هو فى شعره ونثره يجرى على الإيجاز دائما؟ يقينًا ليصيرنّ الكلام بهذه الطريقة فاترا لا روح فيه، أو يكون كلاما علميا لا يثير خيالا ولا يستحث عاطفة ولا يدفع إلى تأوهات الإعجاب والافتتان ولا يستفز إلى الإنجاز والفعل. والوهن والضعف والاستكانة درجات وليست مترادفات كما يفهم الرصافى، فالمترادفات فى الغالب وهم فى بعض الأذهان كذهن الرصافى، وإنما الكلمات المسماة بـ"المترادفة" هى فى الغالب معانٍ لأوجهٍ أو درجاتٍ مختلفةٍ من الفكرة أو الشعور أو الشىء، فأراد القرآن أن ينفى الضعف بكل درجاته وضروبه عن الرِّبِّيِّين ورسولهم، فقال إنهم لم يتزعزعوا نفسيا ولم يعترهم ضعف عن المواجهة ومن ثم لم يستكينوا ويستسلموا بل حاربوا برجولة وبطولة رغم كل ما أصابهم فى سبيل الله. وحتى لو كانت الألفاظ مترادفة بالمعنى الشائع، أى لها نفس

المعنى بالضبط، أفلا يعرف الرصافى أن تكرار المعنى من شأنه تأكيد الفكرة وتثبيتها فى النفس واستحثاث المستمع أو القارئ وشحنه بقوة العزيمة وبالروح القتالية؟ ألا إن الرصافى لَمُتَحَكِّمٌ فى غير متحكَّم، ويسعى إلى تخطئة القرآن بكل سبيل. والعجيب أنه يكرر أن المسلمين كانوا يقرأون القرآن بالمعنى، وكله عندهم قرآن. فإذا كان الأمر كذلك حسب دعواه فلم يا ترى يجهد نفسه فى إظهار ضعف كثير من آيات القرآن بلاغيا؟ ألـم يكن من الأحرى أن يعزو ضعفها البلاغى إلى أنها لم تبق على حالها الأول، وبالتالى فليس محمد ولا السماء مسؤولة عن هذا الضعف البلاغى؟ لكن متى كان الرصافى يحكِّم عقله فيما يكتب فى كتابه هذا؟ إنْ هو إلا موتور تنزُّ نفسه بغضا لمحمد وللقرآن، فلهذا نراه يسارع إلى نكش النص القرآنى بإبرة بحثا عن العيوب التى لا وجود لها إلا فى عقله المرتبك المضطرب. ترى أيقول أى شخص عنده ذرة من الذوق الأدبى إن تكرير المعنى بدرجاته المختلفة فى الآية التالية من سورة "التوبة" دليل على ضعف البلاغة: "قاتِلوهم يعذِّبْهم الله بأيديكم ويُخْزِهم وينصرْكم عليهم ويَشْفِ صدورَ قوم مؤمنين * ويُذْهِبْ غيظَ قلوبهم"؟ ألا قاتل الله عمى القلب وانغلاق البصيرة وفساد الذوق!

أما فى النص التالى فلسوف نراه يتنكر لـما افتتح به الكتابَ الذى بين أيدينا، وهو أنه لا يصدق شيئا من التاريخ تقريبا وأن محمدا هو الوحيد الذى أتى بالتوحيد الصافى على عكس النصرانية واليهودية. ووَجْهُ تنكُّره لهذا الذى قال يتمثل فى تخطئته لـما جاء فى القرآن عن سليمان من أنه نبى، إذ هو عند اليهود ملك ليس إلا (ص٦٣١). وهذا الذى يستند إليه الرصافى فى الإنكار على محمد هو التاريخ الذى كتبه بنو إسرائيل فى العهد القديم، فكيف يصدِّق هذا التاريخ ويتخذه متكأً له فى تخطئة محمد، وبخاصة أن

العلماء عندهم وعندنا لم يتركوا شيئا أساسيا فى العهد القديم إلا وأظهروا خطأه ومجافاته للعقل وللتاريخ، علاوة على ما تبين للجميع من التناقضات الكثيرة الهائلة التى يعج بها؟ ثم ألم يقل إن كذب محمد هو الصدق بعينه؟ فلنفترض أن سليمان لم يكن نبيا، لكن محمدا خلع عليه النبوة، ألم يكن حريا بالرصافى أن يقبل كذب محمد ويرفض صدق اليهود بناء على القاعدة التى أرساها فى أول كتابه مما شرحناه فى فصل آخر من هذا الكتاب الذى بيد القارئ؟ بل لماذا يشغل نفسه بهذا الموضوع أصلا، وهو يؤكد أن الصدق والكذب إنما يقاسان بما يحقق الأول من مصلحة وما يترتب على الثانى من مفسدة حتى لو كان الصدق كذبا فى الواقع، وكان الكذب صدقا فيه، وهو يرى أن كل ما قاله محمد قد قاله لمصلحة قومه ومصلحة البشرية؟

وكلنا يعلم أن العهد القديم، الذى يحاكَم القرآنُ هنا إليه، يفيض بما لا يمكن عاقلا أن يصدق وقوعه: لنأخذ ما قاله العهد القديم عن الله سبحانه من أنه كان يتمشى فى الجنة عندما هبت ريح النهار. فهل الله يتمشى كما يتمشى البشر؟ والعهد القديم هو نفسه ينسب البنات فى بداية الخلق للناس، والأولاد لله. فهل هذا مما يعقله عاقل؟ والعهد القديم يروى عن مصارعة بين يعقوب والله استمرت طوال الليل وكتَّف فيها يعقوبُ اللهَ تكتيفةً صَعُبَ على الله التفلفص منها إلا باللَّتَيَّا والتى، ولم يطلقه إلا بعد أن استجاب لطلبه وباركه. فهل هذا مما يدخل العقل؟ والعهد القديم يصور نوحا على أنه كرَّام يزرع العنب ويعصره خمرا ويشرب منها حتى يسكر وينطرح أرضا وتظهر سوأته، ويصور إبراهيم كأنه ديوث يترك زوجته لأبيمالك يفعل بها ما يشاء جبنا منه وفزعا ويرضى بقطيع المواشى الذى وهبه له مقابل سارة، التى كذب بشأنها وقال إنها أخته ليسهِّل للملك الاستيلاء عليها منه دون أن يؤذيه لو قال له إنها زوجته، ويصور لوطا

وهو يزنى ببنتيه بعدما سقتاه خمرا، ويجعل من موسى قاتلا عامدا متعمدا، ومِنْ هارون صانعا للعجل الذى عبده قومه خلال غياب أخيه موسى فى لقاء ربه فوق الجبل، ويصور داود زانيا مجرما يعتدى على عرض قائده أوريا الحثى ويأمر بقتله حتى تخلو الزوجة له، ويصور سليمان خانعا لزوجاته الوثنيات فيَنْصِب لهن الأوثان فى بيته يعبدنها بمباركة ورضا منه، وينسب إليه سِفْرا شهوانيا لا يكتبه أعرق الشعراء فى الرجس والعرى... إلخ إلخ. فكيف يمكن أن يصدق من فى رأسه ذرة من عقلٍ ما يقوله هذا السفر بشأن سليمان من أنه كان ملكا ليس إلا؟ ترى لماذا يخلع محمد عليه النبوة بافتراض أن محمدا هو مؤلف القرآن حسبما يهرف به الرصافى؟ ألم يتهم الرصافى النبى بأنه كان مطلعا على كتب اليهود والنصارى؟ فكيف بالله يخرج النبى عن النص ويقول شيئا عن سليمان يعاكس ما قاله عنه ذلك الكتاب؟ أرجو أن يدلنا أحد على السبب الذى دفع محمدا إلى ذلك؟

ولا ننس ما قاله عبد الله بن سلام لنبينا صلى الله عليه وسلم عن اليهود، وهم قومه ويعرفهم جيدا وكان أحدَ أحبارهم، من أنهم قومٌ بُهُتٌ، أى كذابون يبهتون الآخرين بما ليس فيهم، ومنهم عبد الله بن سلام نفسه، فقد أثْنَوْا عليه وعلى آبائه ثناء عظيما حين سألهم الرسول عنه، واستبعدوا أن يعتنق الإسلام استبعادا تاما، لكنهم حين خرج من الغرفة التى كان مختبئا فيها وأنبأهم أنه قد أسلم انقلبوا عليه فى الحال وقالوا فيه أفظع مما قال مالك فى الخمر، فعندئذ قال للرسول عليه السلام: ألم أقل إنهم قومٌ بُهُتٌ؟ لقد بَهَتُوا أنبياءهم وصوروهم صورا منحطة كما أشرنا قبل قليل، وكشطوا النبوة عن بعضهم. كذلك فالعهد القديم حافل باللعنات التى كانت تنصب عليهم من

أنبيائهم ومن ربهم ذاته لصلابة رقابهم وقسوة قلوبهم وقتلهم فريقا من نبييهم ومسارعتهم إلى الوثنية فى كل منعطف من منعطفات تاريخهم.

وقد قرأت، فى موقع "Quora"، بقلم أحد خريجى جامعة ليدز أن النصارى ينظرون إلى سليمان على أنه ملك، وأن هذا هو دوره الأساسى فى التاريخ. ومع هذا فإنه يُعَدّ أيضا مؤلفا لعدد من أسفار الكتاب المقدس، وهو ما يجعله نبيا، وأنه من الممكن أيضا اعتباره نبويا فى بعض علاقاته بالآخرين، وإن لم يكن هناك كثير من معرفة الغيب المستقبلى. أما المسلمون فينظرون إليه بالدرجة الأولى بوصفه نبيا، وبالدرجة الثانية بوصفه ملكا. ومع هذا فإن تعريف النبى فى الإسلام يختلف عنه فى النصرانية. وهذا نص ما كتب الخريج المذكور بالإنجليزية:

Samuel Knight
BA Hons from University of Leeds (2012)
Answered 2 years ago

Christians tend to refer to Soloman as a king, and this is his primary role in history, however he is also considered to have written several chapters of the Bible, therefore making him a prophet in the God's word speaking sense. It is also possible to view him as prophetic in some of his interactions with others. However, there isn't much 'predicting the future' prophecy.

Muslims regard Soloman as primarily a prophet and secondarily a king. However, the Islamic definition of prophet is different from the Christian one.

People from most other Faiths and beliefs tend to be more sceptical of his prophetic nature.

ويقول معلق آخر من خريجى جامعة روتجز إن سليمان يعد واحدا من الثمانية والأربعين نبيا يهوديا، وإن عنده المصادر الخاصة بذلك لمن يطلبها منه:

Mark Langer
studied at Rutgers University
Answered 2 years ago · Author has 1.3K answers and 396.8K answer views

Originally Answered: Is King Solomon of the Bible regarded as prophet?

Yes, he is included in the definitive list of the 48 Jewish prophets. I can cite sources if anyone wishes.

وقد أورد موقع "Jewish Virtual Library" قائمة بهؤلاء الثمانية والأربعين نبيا يهوديا تحت عنوان "Ancient Jewish History: List of Jewish Prophets".

وهذه هى، وتحتوى على اسمى داود وسليمان. ولا ينبغى أن يفوتنا ما فى النص من حديث عن عدد الأنبياء الحقيقى حسب التلمود إذ يجعلهم أكثر من خمسة ملايين، أما الثمانية والأربعون فهم الأنبياء الذين أتوا برسالة للأجيال القادمة لا لجيلهم فقط:

The Talmud (Megillah 14a) says that there had been twice as many prophets as the number of people who left Egypt (2,600,000), but only those whose messages were for future generations were recorded. This count was 48 male and 7 female Prophets.

Of course, there is much debate about who is included in the list. Rashi (Megillah 3a) suggests that Daniel wasn't a prophet and should be replaced by Shemaia, who told Rehavam not to go to war with Yeravam and the northern kingdom. Rabbein Hananel and the Vilna Gaon start from Moshe and add in the sons of Korach.

Rashi also comments that "two [of the prophets] I don't know," refering to numbers 47 and 48. Another commentator says the missing two prophets are Oded and Hanani Haroeh.

7 Female Prophets

1. Sarah
2. Miriam
3. Devorah
4. Hannah (mother of Shmuel)
5. Avigail (who became a wife of King David)
6. Huldah (from the time of Jeremiah)
7. Esther

46 Male Prophets

1. Abraham	12. Nosson	24. Hoshea	36. Jeremiah
2. Isaac	13. King David	25. Amos	37. Ezekiel
3. Jacob	14. King	26. Micha	38. Daniel
4. Moses		27. Elijah	

5. Aaron
6. Joshua
7. Pinchas
8. Elkanah
9. Eli
10. Samuel
11. Gad

Solomon
15. Aidoin the Golah
16. Micha Ben Yamla
17. Ovadiah
18. Achiah Hashiloni
19. Yehu Ben Hanani
20. Azaryah Ben Oded
21. Haziel from Bnei Masni
22. Eliezer his cousin
23. Morishah

28. Elisha
29. Yonah Ben Amitai
30. Yeshayah
31. Joel
32. Nachum
33. Habakuk
34. Zephaniah
35. Uriah

39. Baruch
40. Neriah
41. Sharyah
42. Machsiyah
43. Hagai
44. Zechariah
45. Malachi
46. Mordechai

Sources: Blackman, Philip. Introduction to Tractate Sanhedrin of the Mishnah. New York: The Judaica Press, 1963; Dimont, Max. Jews, Jews, God and History. New York: The New American Library, 1962; Encyclopedia Judaica "Sanhedrin". Jerusalem: Keter Publishing House, 1971; Kung, Hans. Judaism. New York: Crossroad, 1992; Seltzer, Robert M. Jewish People, Jewish Thought. New York: Macmillian Publishing Co, 1980.

وبالمثل ينتقد الرصافى النبىَّ محمدا عليه السلام، الذى هو عنده مؤلف القرآن، لأنه أسند بعض المعجزات إلى سليمان رغم عدم ورودها فى العهد القديم كما هو الحال فى معرفته بلغات الطير والنمل وتسخير الريح له والجن والشياطين (ص٦٣٢ وما يليها). والحق أن من يتأمل ما قاله القرآن عن موضوع المعجزات التى وقعت على أيدى الأنبياء السابقين لا يمكن أن يتهم محمدا بأنه نبى كاذب. كيف؟ إن محمدا لو لم يكن نبيا صادقا أنزل الله عليه الوحى وكلفه بتبليغ رسالة القرآن لما أسند أية معجزة إلى أى نبى قبله. لماذا؟ حتى لا يضع نفسه فى مأزق ويصبح لزاما عليه أن يأتى هو أيضا بمعجزات

كمعجزاتهم ويحرج نفسه أمام قومه، الذى كانوا يطالبونه بالمعجزات فيقول لهم: "سبحان ربى! هل كنت إلا بشرا رسولا؟". فلِمَ يا ترى يذكر المعجزات لإخوانه الأنبياء السابقين فى الوقت الذى يقول إنه ليس لديه أية معجزات؟ بل لماذا يرسم القرآن لهم جميعا صورا ناصعة بينما كتابهم المقدس يصورهم صورا مجرمة؟ ألم يكن أَقْمَنَ بمحمد أن يُبْقِىَ صورَهم كما هى فى العهد القديم حتى تكون صورته بينهم هى الصورة الوحيدة الناصعة ما دام لم يقتل ولم يزن ولم يمارس الفاحشة مع المحارم ولم يتزوج وثنية ولم تدخل الأصنام بيته ولم يؤلف نشيدا كنشيد سليمان العهرى المفحش... إلخ، ومن ثم لا يستطيع أحد أن يفتح فمه زاريًا عليه فى أى شىء؟

وتبقى المعجزات، والعهد القديم مفعم بتلك المعجزات، فليس لأحد أن يتحذلق هنا ويتهم القرآن بذكرها وكأنه اخترعها اختراعا ما دام اليهود لم يذكروها. ونحن لو طبقنا ما تعودنا عليه منذ معجزات المسيح من عدم وقوع معجزات بعد ذلك واطراد القوانين الكونية منذ ألفى سنة دون تخلف لكذبنا بالمعجزات لمجرد أن البشرية طوال تلك الفترة لم تشاهد شيئا منها. لكننا نؤمن بأن القرآن من عند الله لا بالعاطفة بل بفحص النص القرآنى والتدقيق فى سيرة محمد مما فصلتُه فى عدد من كتبى واختصرت كثيرا منه فى هذا الفصل، ومن ثم فما دام القرآن يقول إنه كانت هناك معجزات فلا بد أنه كانت هناك معجزات، وبخاصة أنه كان من مصلحة محمد نفى تلك المعجزات من جذورها، ومن يعترض عليه فَلْيُرِنا أنه كانت هناك معجزات، وهيهات، فالمعجزات ذهبت مع التاريخ القديم وليس لبعثها من سبيل. لقد انطوت صفحاتها مع انطواء صفحات الماضى، ولم يعد أحد يستطيع استعادتها لامتحانها وفحصها والوصول إلى

شىء بشأنها. وعلى هذا فلنترك هذه الصفحة، فقد انتهى عصر المعجزات، ولا يستطيع أحد أن يقول فيها من الناحية الواقعية التجريبية كلمةً لا تصديقا ولا تكذيبا.

أما عن علاقة سليمان عليه السلام بالجن والشياطين فتقول مادة "Solomon" فى "A Dictionary of the Bible" لجيمس هستنجز وآخرين إن يوسيفوس قد تحدث عنه بوصفه ساحرا قديرا وإن هذا الاعتقاد كان سائدا فى عصره بين اليهود، وربما بين غيرهم أيضا، وإنّ سمعته فى الشرق كانت تقوم على أنه ساحر يسخّر قوى الطبيعة والحيوانات والعفاريت والجن، وإن أصل هذا الكلام موجود فى الترجومين الخاصين بسفرى "الجامعة وأستير". وبالمناسبة فإن المادة التى نحن فيها الآن تنفى عن سليمان كثيرا مما ينسب إليه فى العهد القديم من أمثال ومزامير، وتنكر أن يكون "نشيد الإنشاد" له أصلاً. وفى مادة "Solomon" من "The Legends of the Jews" للويس جينزبرج نقرأ أن مملكة سليمان لم تكن مقصورة على البشر بل كانت تضم أيضا الشياطين والأرواح والأشباح الليلية والطيور والحيوانات، وأنه كانت لديه القدرة على فهم لغات الوحش والطير، وأنها كانت تتحاكم إليه، وأن الشياطين قد أعانوه فى بناء الهيكل. وهو مانجده أيضا فى نفس المادة بـ"Jewish Encyclopedia".

كما تقول المادة الخاصة به فى " The Pictorial Dictionary of the Holy Bible" لصاحبه William Goodhugh إن الروايات الشرقية المتعلقة بلقائه بملكة سبإ تذكر ما حباه الله به من ذكاء استطاع أن يستخدم بوساطته الملائكة والشياطين والحيوانات، وأنه حين كان يقود جيشه كانت طيور الجو تشكل جزءا من خَدَمه وتبسط أجنحتها على هيئة مظلة تحميه من حرارة الشمس وأنه سمع من أحد هذه الطيور، وهو الطائر أبو طيط، قصته عن ملكة سبإ، التى استدعاها، فأتت على الفور واختبرته مرارا

فألفته نبيا حقيقيا، ثم بعد ذلك نبذتْ ما كانت عليه من شرك واعتنقت الدين الصحيح، الذى لم يغب منذ ذلك الحين عن بلادها. ويقول الأحبار أيضا إن سليمان قد كتب عددا من النصوص عن السحر دفنت معه لتحمى أى إنسان من التعرض للأخطار التى واجهها هو جراء تعامله مع الشياطين.

ولا يعجب الرصافى قوله سبحانه: "سَنَفْرُغ لكم أيها الثَّقَلان" على أساس أن الله ليس مشغولا حتى يقول فى تهديده للإنس والجن إنه سيفرغ لهم، فالله لا يشغله شىء عن شىء (ص٦٣٥). ونحن نوافقه على أن الله لا يشغله شىء عن شىء، ولكننا لا نوافقه على انتقاده للآية، وإلا لانتقدنا قول القرآن إنه سبحانه قد استوى على العرش، ووَضَع يده فوق أيدى المسلمين فى الحديبية حين عاهدوا النبى على قتال المشركين، وخطَّأناه حين تحدث عن وجهه وعينه عز وجل، وتساءل عمن سوف يُقْرِضه تعالى قرضا حسنا... إلخ. وهذه كلها مجازات، والمسلم يعلم أن المقصود تقريب المعانى لا التعبير الحرفى عن الأمر. وليس كل الناس يفهمون أو يؤثر فيهم الكلام المجرد المغسول الخالى من التشبيهات والاستعارات والمجازات والكنايات. وقد وقف الرصافى ذاته أمام قول بعضهم عن لسان حسان إنه لو وضعه على صخر لفلقه أو شعر لحلقه، مادحا هذا الكلام قائلا إنه من المجاز، والمجاز بطبيعته حسن (ص٣٩٠).

كما يعترض على مجىء آية "فبأى آلاء ربكما تكذبان"بعد التهديد والوعيد أحيانا كقوله: "فيومئذ لا يُسْأَل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ * فبأى آلاء ربكما تكذبان * يُعْرَف المجرمون بسيماهم فيُؤْخَذ بالنواصى والأقدام..."، وكان ينبغى فى رأيه ألا تأتى إلا بعد آيات النعم فقط كقوله: "ولمن خاف مَقَامَ ربِّه جنتان * فبأىِّ آلاء ربكما تكذبان * ذَوَاتَا أفنان * فبأى آلاء ربكما تكذِّبان" لأن الآية تستنكر التكذيب بالنعم، فكان يجب أن تأتى

بعد الآيات التى تذكر النعم فقط، أما بعد الآيات التى تذكر العقوبة فكان ينبغى أن تكون نص الآية: "فبأى عقوبات ربكما تكذبان" (ص٦٣٦- ٦٣٧). وفاته أن التساؤل هنا تساؤل استنكارى، فهو يناسب الحالين لأن الكفار يكفرون بالنعم فيستنكر الله عليهم هذا الكفران، ويهددهم الله تعالى بالعذاب، فتأتى الآية تذكيرا لهم بأنهم إنما استحقوا التهديد والوعيد جراء تكذيبهم بالنعم وعدم الشكر عليها. والرصافى على كل حال يستنكر كثرة تكرار الآية، جاهلا أن هذا التكرار إنما هو بمثابة نخس متصل وتقريع منهمر وانتهار مستمر لا يتوقف إلا مع توقف السورة، وهو يذكرنى برجل خرج من بيته فانهمرت عليه الحجارة من كل مكان، فلا يستطيع تقدما ولا تأخرا ولا الزوغان يمينا أو يسارا لأن الحجارة تنصب عليه من كل جانب، فلا يملك إلا التوقف فى مكانه لا يريم. وفى الشعر العربى مثل هذا التكرا لكن لا يصل إلى هذه الدرجة التى تخيل للمستمع المخاطب بها أنه محاصر من كل اتجاه فلا مهرب له من الحجارة المتساقطة عليه. وهذا مما انفرد به القرآن. ولو وجد المشركون واليهود والمنافقون والنصارى عيبا فيه ما سكتوا بل لانتقدوا وعابوا وتهكموا وجعلوه مادة للسخرية. لكنهم كانوا، رغم عداوتهم وكفرهم بمحمد ودينه وقرآنه، عقلاء فى هذه النقطة. لقد قالوا إنه كاهن، وقالوا إنه ساحر، وقالوا إنه كذاب، وقالوا وقالوا وقالوا، لكنهم لم يعيبوا أسلوب القرآن البتة، بل كل ما ردوا به هو أنهم لو يشاؤون لقالوا مثل هذا، ثم لم يقولوا.

ولا أستطيع فى هذا السياق أن أنسى النهاية التى ختم بها نجيب محفوظ روايته: "ميرامار" حين رأى عامر بحيرى الصحفى المخضرم الذى كان يسكن البنسيون أن الأمور فى هذا البنسيون الذى ربما يمثل مصر قد انتهت كلها إلى الإحباط، فوجد نفسه، وقد جاش قلبه بالأحزان، يمسك بالمصحف ويفتحه كالعادة على سورة "الرحمن"

يبلسم بها جروحه الروحية ويستعيد بها انتعاشة نفسه وعزاء قلبه. قال الرجل بعد حواره مع زهرة التى كانت مطمع جميع نزلاء البنسيون تقريبا وظنوا أنها صيد سهل بوصفها خادمة لهم وفتاة أمية جاهلة فقيرة لا أهل لها، لكنها كانت أقوى من الطامعين فيها جميعا فلم يستطع أحد منهم أن ينال منها منالا، قال صحفينا المسن: "وكعادتى لدى جيشان الصدر هرعت إلى سورة "الرحمن"، فرحت أتلو: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآَنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ". وأذكر أن صوت عماد حمدى، الذى قام بدور عامر بحيرى، كان يأتينا نحن مشاهدى الفلم قرب أواخر ستينات القرن الماضى من أنحاء قاعة السينما فخما جليلا وهو يتلو آيات السورة المجيدة. وقد توقفت الرواية عند آية "فبأى آلاء ربكما تكذبان" الأولى، وهو ما يشير إلى أن سائر السورة تجرى على تكرار هذه الآية بين كل آية وأخرى تقريبا.

وأخيرا أقول ضاحكا مستغربا: خيبك الله يا معروف يا رصافى أنت والأستاذ الجامعى السخيف الذى يعلن فى كل محاضرة لطلابه أن الآية ركيكة، وتكرارها مزعج! هل هناك أحد عنده ذرة من الذوق السليم يعيب تكرار هذه الآية على هذا النحو الرائع البديع فى السورة الكريمة؟ ولقد شَغَّلْتُ الآن الفيلم على اليوتيوب وذهبت إلى نهايته واستمعت من جديد إلى صوت عماد حمدى وهو فى الشرفة يشاهد شادية وعبد المنعم إبراهيم وقد تفاهما على أن يتزوجا ويعيشا ويكافحا معا مصاعب الحياة ومضيا متجاورين متحابين بعد أن كانت لا تستجيب له من قبل وتراه غير جدير بالزواج منها

إلا إذا تطور وتنجَّر، فتطور وتنجر إكراما لخاطرها وتعبيرا عن تعلقه بها ورغبته فى الزواج منها بكل وسيلة، فجاشت نفسى أنا أيضا وتحركت عيناى، لكنى كبحت دموعى.

والعجيب الغريب فى أمر معروف الرصافى صاحب العقل السطحى والفكر المضطرب، وكل أمره عجيب غريب، أنه يعود بعدما انتقد كثيرا من آيات القرآن وعابها وحكم عليها بالضعف والافتقار إلى البلاغة والإقناع وإحكام التركيب والقدرة على تحريك النفوس ومخالفة الواقع، يعود فينكر أن يكون فى القرآن شىء غير بليغ بل كله بليغ معجز، وكل ما فى الأمر أن هذا الإعجاز درجات. فسورة كسورة "أبى لهب" لا يمكن أن تساوى فى البلاغة قوله تعالى من سورة "هود": "وقيل يا أرضُ ابلعى ماءك ويا سماءُ أَقْلِعى وغِيضَ الماءُ وقُضِيَ الأمرُ واستوتْ على الجُودِيّ وقيل بُعْدًا للقوم الظالمين" مثلا كما يقول أحد الشعراء الفرس حسبما ذكر لنا. وبالمثل أنكر أن يكون فى كلام البشر ما يمكن أن يسامت القرآن. هكذا قال وأكد وكرر بعبارات مترادفة (ص٤٦١- ٤٦٢). ومن البين الساطع البيان أن عقل الرجل مضطرب. ولست أعرف أى شيطان حمله على الدخول فى هذا الموضوع وهو غير مؤهل له لأن عقله مفكك يفتقر إلى التماسك والرؤية الواحدة، فكثيرا ما يقول كلاما هنا ينقضه هناك، ويكذب ويلف ويدور... وهلم جرا.

ومرة أخرى ألـم يقل الرصافى إن محمدا قد تنبه إلى وحدة الوجود وإنه هو والله شىء واحد كما هو الحال حين وجه الخطاب إلى نفسه فى الآية التالية من سورة "الأنفال": "وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى"؟ ألـم يقل الرصافى هذا فى معرض الثناء على محمد؟ أليس يلزم عن هذا أن محمدا حين يقول ما يقول فإنه لا يقول شيئا بل

القائل هو الله؟ وما دام القائل هو الله فكيف يعيب الرصافى القرآن؟ ثم ألم يمر بنا آنفا إسناده ما يقوله القرآن إلى الإلهام الإلهى؟ فكيف تواتيه نفسه على انتقاد ما أُلْهِمَه محمد من الله؟ ألا يرى القارئ أن الرصافى يتخبط كالدجاجة المذبوحة دون جدوى وأنه، مثلَ الدجاجة المذبوحة، سوف يفقد دمه كله فى هذا التخبط؟

ويستمر الرصافى فى العيب على الورد الجميل الساطع الرائحة فلا يجد ما يعيبه به إلا القول بأنه أحمر الخدين وأن عطره قوى يسكر. قال فى الآية التالية: "قل أتنبِّئون اللهَ بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض" إن الإشارة إلى أن الله لا يعلم شيئا فى الكون أمر لا يليق، وفيه سوء تعبير، فالناس حين تنبئ أحدا بشىء فمعناه أنه لم يكن يعرفه، وهذا لا يجوز على الله، ومن ثم كان سوء أدب (ص٦٣٧- ٦٣٨). ولكننا نحن المسلمين نعرف أنه سبحانه يحيط بكل شىء علما كما يقول القرآن فى أكثر من موضع، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوت ولا فى الأرض، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة أو خمسة أو سبعة إلا وهو رابعهم وسادسهم وثامنهم على الترتيب، وهلم جرا. إذن فلا يمكن أن يُشْتَمّ من الآية المذكورة أى معنى مسىء إلى الله سبحانه، وبخاصة أن قائلها هو الله ذاته، وهو سبحانه لا يمكن أن يسىء إلى نفسه. إذن فماذا؟ إذن فمعنى الآية المذكورة هو أن كون الأوثان شفعاء للمشركين عند الله أمر لا وجود له أصلا، ومن ثم فلا يتعلق به علم. وهذه طبيعة اللغة، والقرآن يفسر بعضه بعضا، ولا يصح لأى أحد امتلاخ آية أو عبارة أو كلمة وعزلها عن بقية الكتاب الكريم وتفسيرها على هواه. وإذا كان الرصافى يأخذه الأدب العالى على غير العادة فيتأفف مما يظن أنه إساءة أدب مع الله مع أن الله هو المتحدث فيا ترى ماذا يقول عن قوله

سبحانه: "من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا" و"إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"؟ أيقول إن هذا كفر مبين؟ لا أدرى أين يُذْهَب بعقول بعض الناس؟ إن اليهود الرقعاء قالوا، حين سمعوا آية القرض الحَسَن، إن الله فقير ونحن أغنياء. أيكون الواحد منا رقيعا كاليهود، وهم قومٌ بُهُتٌ لا يخجلون ولسانهم سفيه، فيفسر الآية المذكورة كما فسرها الرصافى؟

ومن هذا القبيل تحليله لقوله تعالى: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم"، فهو يرى أنه لا يليق أبدا أن نقول إن الله لا يعلم الأمر إلا بعد وقوعه. ذلك أن "لَمَّا" معناها أن الله لم يكن يعلم حتى ذلك الوقت المجاهدين منهم، ولكن يمكن أن يعلم بعد أن يعملوا ما يستحقون به أن يكونوا مجاهدين (ص٨٣٨). ومعروف أن الله سبحانه هو خالق الزمان والمكان، وعليه فإن الزمان والمكان لا يشكلان بالنسبة له أى عائق، فهو أزلى أبدى يحوى الزمان والمكان ولا يحويانه. لكن اللغة تجرى فى القرآن على النحو الذى تجرى عليه على ألسن البشر، وإلا فلسوف يكون كثير جدا من نصوص القرآن والحديث ونصوص الأدب الرائع العظيم هدفا للانتقاد والمنتقدين بكل سهولة ويسر. ومعنى الآية هو "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يتبين منكم المجاهدون ممن لم يجاهدوا؟". والمقصود الإنجاز، وإلا فلو كان الجزاء بما يعلمه الله قبل وقوع الحدث لدخل البشر الجنة والنار دون عمل ودون حساب.

ترى كيف يقرأ الرصافى الحديث التالى مثلا؟ هل سينجو من لسانه السليط؟ لا أظن. فمن الواضح أن ذوقه يحتاج إلى ترميم، وعناده يلزمه سَحْجٌ وتنعيمٌ حتى تستقيم أموره: ف"عن أبى هريرة: إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يَومَ القِيامَةِ: يا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قالَ: يا رَبِّ، كيفَ أعُودُكَ، وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ قالَ: أما عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِى

فُلانًا مَرِضَ، فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أما عَلِمْتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِى عِنْدَهُ؟ يا ابْنَ آدَمَ، اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِى. قالَ: يا رَبِّ، وكيفَ أُطْعِمُكَ، وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ قالَ: أما عَلِمْتَ أنَّه اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِى فُلانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أما عَلِمْتَ أنَّكَ لو أطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدِى؟ يا ابْنَ آدَمَ، اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِى. قالَ: يا رَبِّ، كيفَ أسْقِيكَ، وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ قالَ: اسْتَسْقاكَ عَبْدِى فُلانٌ، فَلَمْ تَسْقِهِ. أما إنَّكَ لو سَقَيْتَهُ وجَدْتَ ذلكَ عِنْدِى"، أو الحديث الآتى: "ويُضرَبُ جِسرٌ على جَهنَّمَ. قال النَّبى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فأكونُ أوَّلَ مَن يجُوزُه، ودعوةُ الرُّسلِ يومَئذٍ: اللَّهمَّ سلِّمْ سلِّمْ. وبه كلاليبُ مِثْلُ شَوكِ السَّعدانِ. هل تدرونَ شَوكَ السَّعدانِ؟ قالوا: نَعم يا رسولَ اللهِ. قال: فإنَّها مِثلُ شَوكِ السَّعدانِ، غيرَ أنَّه لا يَعْلَمُ قدرَ عِظَمِها إلَّا اللهُ، فتخطَفُ النَّاسَ بأعمالِهم: فمنهم المُوبَقُ بعمَلِه، ومنهم المُخَرْدَلُ ثمَّ ينجو. حتَّى إذا فرَغ اللهُ مِن القضاءِ بَيْنَ عبادِه وأراد أنْ يُخرِجَ مِن النَّارِ مَنْ أراد ممَّن كان يشهَدُ ألّا إلهَ إلَّا اللهُ أمَر اللهُ الملائكةَ أنْ يُخرِجوهم، فيعرفونَهم بعلامةِ آثارِ السُّجودِ. قال: وحرَّم اللهُ على النَّارِ أنْ تأكُلَ مِن ابنِ آدَمَ أثَرَ السُّجودِ. قال: فيُخرِجونهم قد امتُحِشوا فيُصَبُّ عليهم ماءٌ يُقالُ له: ماءُ الحياة، فينبُتونَ نباتَ الحبَّةِ فى حَميلِ السَّيلِ. قال: ويبقى رجُلٌ مُقْبِلٌ بوجهِه على النَّارِ فيقولُ: يا ربِّ، قد قشَبنى ريحُها، وأحرَقنى ذُكاؤُها، فاصْرِفْ وجهى عنِ النَّارِ. فلا يزالُ يدعو، فيقولُ اللهُ جلَّ وعلا: فلعلِّى إنْ أعطَيْتُكَ ذلكَ أنْ تسألَنى غيرَه؟ فيقولُ: لا وعزَّتِكَ لا أسألُكَ غيرَه. فيصرِفُ وجهَه عنِ النَّارِ، ثمَّ يقولُ بعدَ ذلكَ: يا ربِّ، قَرِّبْنى إلى بابِ الجنَّةِ. فيقولُ جلَّ وعلا: أليس قد زعَمْتَ ألَّا تسألَنى غيرَه؟ وَيْلَكَ يا ابنَ آدَمَ! ما أغدرَكَ! فلا يزالُ يدعو، فيقولُ جلَّ وعلا: فلعلَّكَ إنْ أعطَيْتُكَ ذلكَ أنْ تسألَنى غيرَه؟ فيقولُ: لا وعِزَّتِكَ لا أسألُكَ غيرَه. ويُعْطِى اللهَ مِن عهودٍ ومواثيقَ ألَّا يسألَه غيرَه، فيُقرِّبُه إلى بابِ الجنَّة. فلمَّا قرَّبه

منها انفَهَقَتْ له الجنَّةُ، فإذا رأى ما فيها سكَت ما شاء اللهُ أنْ يسكُتَ ثمَّ يقولُ: يا ربِّ، أدخِلْنى الجنَّةَ. فيقولُ جلَّ وعلا: أليس قد زعَمْتَ ألَّا تسألَنى غيرَه؟ وَيْلَكَ يا ابنَ آدَمَ! ما أغدَرَكَ! فيقولُ: يا ربِّ، لا تجعَلْنى أشقى خَلْقِكَ. قال: فلا يزالُ يدعو حتَّى يضحَكَ جلَّ وعلا. فإذا ضحِك منه أذِن له بالدُّخولِ دخولِ الجنَّةِ. فإذا دخَل قيل له: تمَنَّ كذا، وتَمَنَّ كذا. فيتمنَّى حتَّى تنقطِعَ به الأمانى، فيقولُ جلَّ وعلا: هو لكَ، ومِثْلُه معه (قال أبو سعيدٍ: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: هو لكَ وعشَرةُ أمثالِه...). وذلك الرَّجُلُ آخِرُ أهلِ الجنَّةِ دخولًا". أما أنا فأشعر بالجيشان والنشوة وأنا أقرأ مثل هذين الحديثين العجيبين وأحس أنه لا يوجد أى حاجز بينى وبين ربى سبحانه وأنه قريب منى وأمتلئ بالإحساس به، وذلك من حلاوة التصوير وبراعته.

ومما يعيبه الرصافى على أسلوب القرآن قوله تعالى فى سورة "الأعراف": "هذه ناقة الله لكم آية"، إذ من العيب عنده وسوء الأدب أن تضاف الناقة إلى الله (٦٣٨– ٦٣٩). ولست أدرى سوء الأدب فى ذلك، فالله سبحانه أكبر من هذا الذى يظنه الرصافى. ونحن البشر والحيوانات والنباتات والجمادات والأفكار والمعانى كلنا من خلق الله سبحانه ومن عمل يديه الكريمتين. فمن هذه الناحية لا يوجد أى سوء أدب فى الأمر. والقرآن على كل حال ليس قائل هذه ا لعبارة بل يحكى ما قاله صالح لقومه. بالضبط مثلما لا ينبغى أن يُخَطَّأ القرآن لأنه أورد عبارة "يا أخت هارون" مقصودا بها مريم أم عيسى، إذ ليس القرآن هو قائلها بل مجرد حاك لها على لسان بنى إسرائيل. فإن كان ثم خطأ فهو خطأ قومها لا خطأ القرآن، الذى كان دوره حكاية ما قيل. ولقد أثبتُّ إثباتا حاسما جازما قاطعا أن إطلاق أخت هارون على مريم يخلو من أى خطإ، وذلك من الكتاب المقدس ذاته، إذ تقول "دائرة المعارف الكتابية" إن كلمة "أخت" تستعمل فى

ذلك الكتاب بضعة عشر استعمالا ينطبق منها نسبة غير قليلة على عبارة "يا أخت هارون".

ومع هذا كله فلسوف أضرب عن ذلك صفحا وننظر من جديد إلى عبارة "ناقة الله"، فنرى أن المراد الإشارة إلى كونها ليست مملوكة لأحد، ولم تحمل بها وتلدها ناقة أخرى بل أتت مباشرة من عند الله، فضلا عن أنها ليست للركوب والحلب والذبح، بل خلقها الله لاختبار ثمود: فإن نجحوا ولم يمسوها بسوء نَجَوْا من العقاب، وإن تعرضوا لها بالأذى وذبحوها كان فى ذلك نهايتهم وأَخَذَهم عذابٌ عظيم، وهو ما حصل. فهذا سبب إضافة هذه "الناقة" بالذات إلى الله. ولقد قال الله سبحانه فى سورة "يس": "أولم يروا إلى ما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون"، فتحدث سبحانه عن يديه وعمله بتينك اليدين أنعاما. وهذه العبارة أشد من "ناقة الله" بالاعتبار الذى أثار ضجته الرصافى، وليس فيها مع ذلك أية إساءة أدب. إن الرصافى يخلط هنا بين الله وبين بعض الناس، الذين قد يتأففون من نسبة الناقة إليهم. إن ربنا سبحانه أكبر من هذه الاعتبارات.

أما ما يقوله الرصافى فى المثال التالى (ص٦٣٩- ٦٤٠) فقد دار فى ذهنى منذ عقود، إذ قلت إن الرد القرآنى على اتهام المشركين للنبى بأنه يعلمه غلام رومى يشتغل بالحدادة بأن هذا الرومى لغته أعجمية، بينما لغة القرآن لسان عربى مبين، هذا الرد يمكن الرد عليه بدوره بأن ذلك الرومى يقدم للنبى المضامين، فيقوم النبى بصوغها فى لغة عربية مبينة. لكن اعترض هذا الاتهام الحقائق التالية: أن هذا الحداد الرومى قد أسلم. فكيف نكون نحن ملكيين أكثر من الملك؟ لقد أسلم الرجل الذى اتُّهِم النبىُّ بالتعلم على يديه، فماذا نريد تكذيبا أشد من ذلك؟ ثم إن هذا الرومى كان غلاما لأحد

المشركين، فلماذا لم يحضره ويحضر محمدا معه ويقوم الرومى بفضح النبى أمام القرشيين فيقضى على دعواه النبوة، وتنتهى الزوبعة، ولا يستطيع الرومى أن يخالف عن أمر سيده أبدا مهما كان الأمر لو كان قد أمره بمواجهة محمد وتكذيبه والشهادة عليه بأنه يتعلم منه ما يحكيه من قصص فى القرآن؟ لكن هذا لم يحدث بل حدث العكس، إذ أسلم الرومى وأعطى الجميع خازوقا كبيرا لأنه لو كان يعلّم النبى ثم رآه يدعى النبوة أفكان يسكت فضلا عن أن يؤمن به؟ يمينا لقد كان سيقول له: تعال يا محمد. أيصح هذا الذى فعلت؟ لقد علمناك الشحاتة، فسَبَقْتَنا إلى الأبواب! كذلك لو كان هناك معنى لهذا الاعتراض الذى اعترض به الرصافى على رد القرآن، وكان قد دار فى ذهنى أنا أيضا كما أشرت، لكان المشركون قد رددوه وخطَّأوا به الدليل القرآنى. لكنهم لم يفعلوا ولم يفتحوا هذا الموضوع رغم يسره عليهم. ثم إن أسلوب القرآن غير أسلوب النبى تماما كما وضحت آنفا، وبالتالى فتهمة أخذ النبى المضامين من الغلام الرومى وصياغتها بأسلوبه هو تهمة فائلة فاشلة. كذلك فإن القصص التى يوردها القرآن عن أنبياء الكتاب المقدس تختلف اختلافات جذرية عنها فى ذلك الكتاب كما وضحت قبلا، فكيف نعلل هذا؟ إن الغلام الرومى، بافتراض أنه علم النبى، لا يمكن أن يكون قد نبهه إلى هذه الاختلافات لأنها من نتاج الإسلام ولا يعرفها النصارى ولا يقولون بها وإلا لم يعودوا نصارى. كذلك فإن القرآن ليس كله قصصا بل القصص عنصر واحد من عناصره لا غير كما نعرف جميعا، وهناك العقائد والأخلاق والمبادئ والتشريعات والتعليق على الأحداث الحية التى تقع فى مكة وغير مكة مما لا وجود له فى الكتاب المقدس. وعلى هذا فمعنى الآية التى لا يمكن أن يكون لها معنى سواه هو أن الغلام الرومى أعجمى اللسان فلا يمكنه تعليم أحد شيئا مع هذا العجز عن الإبانة فى

العربية، التى لا يعرف منها سوى بعض الكلمات والعبارات التى يحتاجها فى عمله فينطقها محرفة مشوهة يقضى بها حاجته من حرفته، وهذا كل ما هنالك. فإن كان محمد يجلس إليه كما تقول الحكاية فقد كان يجلس إليه يتسلى بمشاهدته وهو يمارس الحدادة كما كنا نفعل قديما حين يأتى الحدادون الجوالون إلى قريتنا فى صغرنا، فيذهب الناس ويجلسون بجوارهم ليشاهدوهم وهم ينفخون الكير ويطرقون الحديد المشتعل بالمطرقة يسوونه بالشكل الذى يريدون، إذ لم يكن بالقرية حدادون من أهلها، فلهذا كان مجىء الحدادين كل عدة سنوات أمرا مثيرا.

ويمضى الرصافى فى التطاول والزراية على لغة القرآن دون أدنى حق، إنما هو العناد والسلام، فيقول إن قوله تعالى مخاطبا نوحا وهو يصنع السفينة التى سوف تحمله وتنقذه هو والمؤمنين به من الغرق: "واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مُغْرَقون * ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأٌ من قومه سخِروا منه..." قد جاء فى مقام غضب وعظمة، فكان الأنسب أن يقال: "واصنع الفلك بحفظنا وكلاءتنا وبأمرنا" أو نحو ذلك، أو يكتفى بـ"واصنع الفلك بوحينا" (ص٦٤٠). ولا أدرى كيف فات الرصافى أن "بأعيننا" فيها كل شىء مما يريد ومما لم يتبنه إليه، ومعناها أننا نراك ونحفظك ونقوم على أمرك ونعصمك من كل سوء ولا نتركك تخطئ فى صناعة السفينة بل نرشدك ونهديك ولا يمكن أحدا أن ينال منك شيئا. وكثيرا ما نعبّر بالعين عن الحب والحرص والحراسة من الأذى وشدة الاهتمام. والكلام هنا عن نوح، فالله تعالى يريه حبه له وعصمته إياه من أى أذى أو من تأثير أية سخرية عليه. وواضح أن الرصافى يريد الشغب، والسلام. وما أسخف هذا الاعتراض، الذى أوردته لا لأنه يحتاج إلى رد، بل لأُرِىَ القارئَ سخف ما يأتيه الرصافى فى انتقاد أسلوب القرآن.

كذلك أخذ الرصافى على الآية ذاتها استعمالها الفعل المضارع فى "ويصنع الفلك"، وكان المفروض فى رأيه أن يقال: "وصَنَعَ الفلك" حتى يكون متسقا مع "وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه"، إذ الماضى هو المستخدم هنا. ولكن أيعقل أن يفوت الرصافى أن المضارع يحيل الحدث الماضى إلى حدث حى وكأننا نراه الآن أمام أعيننا، علاوة على دلالته على الاستمرارية، وهو المقصود، أما "صَنَعَ" فمعناها أنه انتهى من صنع السفينة، وليس هذا هو المراد، وإلا فكيف يسخرون منه وهو قد انتهى من عملها؟ وإذا كان قد انتهى من عملها فكيف ظل بين ظَهْرَانَىْ قومه يتلقى منهم السخرية؟ إنه لو كان صنع السفينة لكان قد ملأها من كل حَىٍّ زوجين اثنين وأبحر بها فى الفيضان العاتى ولَمَا كان هناك مجال لسَخَرٍ أو تهكم. والغريب أن الرصافى نفسه قد أقر بأن الفعل المضارع هنا يدل على حكاية الماضى كأنه حاضر أمامنا، لكنه اقترح فى هذا الحالة أن يقال: "ويصنع الفلك وكلما يمر عليه ملأ من قومه يسخرون منه" غير واع ركاكة العبارة المقترحة جراء شهوته العارمة فى انتقاد القرآن، وإلا فهل استعمل أحد من شعراء تلك العصور المضارع فعلا وجوابا للشرط معا بعد "كلما"؟ ودعنا ممن يصرون أن يكون فعل الشرط وجوابه بعد "كلما" فعلين ماضيين. بل لو أن شاعرا أو كاتبا جرى على هذا التركيب المقترح فى عصرنا لكان الكلام قلقا ثقيلا على النفس. كذلك لا بد أن أنبه إلى أنه لو كان فى الكلام ركاكة كما يزعم الرصافى ما سكت أعداء محمد ولصبوا عليه دلاء تهكمهم طوال الوقت، فقد كانوا يسخرون من كل شىء، فلم تركوا السخرية من لغة القرآن بالذات رغم تحديه لهم أن يأتوا بمثله؟ أتكون فى أيديهم هذه الفرص الثمينة التى يستخرجها الرصافى فيسكتوا هم ويأتى هو فى آخر الزمان فيسخر ويتهكم ويعيب وينتقد؟ خيبة الله عليه!

ومع ذلك كله فها هو ذا تأبط شرا فى مقطوعة له عن الغول يصنع صنيع الآية القرآنية، فيستخدم المضارع فى حكاية حدث مضى، جنبا إلى جنب مع الفعل الماضى:

أَلا مَـــنْ مُبلِـــغٌ فِتيـــانَ فَهْـــمٍ   بِـما لاقَيْـتُ عِنـدَ رَحَـى بِطـانِ؟

بِــأَنّى قَــد لَقِيــتُ الغــولَ تَهْـوِى   بِـسَهْبٍ كالـصحيفةِ صَحْـصَحانِ

فَقُلْــتُ لَهَــا: كِلانــا نِـضْوُ أَيْــنٍ   أَخـــو سَــفَرٍ، فَخَــلِّى لى مَكــانى

فَــشَدَّت شَــدَّةً نحــوى فَــأَهْوَى   لَهَـــا كَفِّـــى بِمَـــصقولٍ يَمانِـــى

فَأَضرِبُهــا بِــلا دَهَــشٍ، فَخَــرَّت   صَريعًـــا لِليَـــدَيْنِ وَلِلجِـــرانِ

فَقالَــت: عُــدْ. فَقُلْــتُ لَهَـا: رُوَيْـدًا   مَكانَــكِ. إِنَّنــى ثَبْــتُ الجَنــانِ

فَلَــم أَنفَـــكَّ مُتَّكِئًــا لَــدَيْها   لِأَنظُــرَ مُــصْبِحًا مــاذا أَتــانى

إذا عَيْنــــانِ فى رَأسٍ قَبـــيحٍ   كَــرَأسِ الهِـرِّ مَــشْقوقِ اللِــسانِ

وَســاقا مُخْــدَجٍ وَشَــواةُ كَلــبٍ   وَثَــوبٌ مِـــن عَبــاءٍ أَو شَـــنانِ

وهذه أبيات للرصافى نفسه استعمل فيها المضارع لسرد أحداث ماضية، إلى جانب الفعل الماضى:

رُبّ يـــوم وردتُ دجلـــةَ فيـــه   مَـــوْرِدًا خاليًـــا عـــن الـــوُرّادِ

حيــث ينــصبّ فى ســكونٍ عميــق   ماؤهـــا لاثـــمًا ضـــفاف الـــوادى

وهبـــوب النـــسيم يكتـــب فى المـــا   ء ســــطورًا مهتـــزّةً فى اطِّـــرادِ

يَمَّحـــى بعـــضُها، ويظهـــر بعـــضٌ   فهـــى تنـــساب بـــين خـــافٍ وبـــادِ

وتـــئنّ الميـــاه لى بخريـــرٍ   كـــأنين الـــسقيم للعُـــوّاد

قمـــتُ فى وجههـــا أردّد طـــرفى   ســـاكتًا، والـــضمير منّـــى ينـــادى

واقفًـــا تحـــت سرحـــةٍ نـــاح فيهـــا   طـــائر فـــوق غـــصنها الميّـــادِ

منشدًا فى النواح شعرًا غَرِيزِ ... يًّاحزينًا كأنه إنشادى
جاوبتْه أفنانُها بأنينٍ ... من حفيف الأوراق والأعواد

وهو ما نجده فى الأبيات التالية له أيضا:

إنَّ حياة المرء ما عاش تُرَى ... أحوالُها مختلفاتٍ فى الرُّؤى
كالنَّهَرِ الجارى الذى تغيَّرتْ ... أوضاعه فى الأرض كلَّما جرى
فهو لدى المنبع ضحْضاحٌ، وفى ... مَصَبِّه تلقاه بحرًا قد طَمَا
بيناه يجرى فى الثَّرَى مُنعطفًا ... ذا بواديه تمطَّى واستوى
طورًا كأسياف الوغَى مُنْحنيًا ... فى الأرض ينساب، وطورًا كالقنا
وربما عادت مجاريه به ... راجعةً من حيث جاءَ القهقَرَى
وربما صادف غوطًا فانهوى ... فيه وقد خرَّ خريرًا ورغا
والماءُ فيه قد يُرَى منبسطًا ... وتارةً منزويًا فوق الثرى
وتارة تلقاه فى مَشْجَرةٍ ... يجرى، وأخرى بين أصلاد الصفا

* * *

وإنما العمر شبابٌ، فإذا ... زال فحزن وشقاءٌ وضنَى
ما كان أحلى العيشَ لو أنَّ الفتى ... لم يجدِ الشيبُ إليه مُخْتَطَى
ليت الفتى كالبدر فى النشأة إذ ... عاد هلالًا كل شهر فنَما!
أَو ليته كالشجر النابت إذ ... يورق فى الصيف ويَعْرَى فى الشتا!
أو ليت هذا الشيب، إن كان ولا ... بُدَّ من الشيب، أتى قبل الصبا

كذلك تلبَّث الرصافى إزاء قوله سبحانه فى سورة "يوسف" حين كان عليه السلام فى السجن، فطلب من أحد رفاقه المسجونين أنه متى رجع إلى عمله فى القصر ساقيا

للملك أن يَذْكُره عند ربه، أى سيده ملك البلاد، لكنه نسى وقتا طويلا بلغ عدة سنين: "وقال للذى ظن أنه ناجٍ منهما اذكرنى عند ربِّك فأنساه الشيطانُ ذِكْرَ ربه فَلَبِثَ فى السجن بِضْعَ سنين"، وقد انتقد كاتبنا صياغة العبارة على هذا النحو لأن الأمر، حسبما يقول، كان يحتاج استعمال كلمة "تذكير" لا "ذكر"، ناسيا أن الكلمة الأخيرة تعنى ما يريد أيضا. ففى المعاجم: "ذكر للعالمين: أى تذكرة لجميع خلق الله"، وفيها أيضا أن "الذّكْر هو القرآن الكريم لما فيه من تذكرة النَّاس بآخرتهم ومصالح دنياهم". فالذكر، كما نرى، هو أن نَذْكُر الشىء فى عقولنا أو بألسنتنا، وكذلك أن نذكّر به الآخرين. وعلى هذا فـ"أنساه الشيطان ذكر ربه"، أى أنساه أن يذكِّر الملكَ بأمر يوسف. فلا مشكلة إذن فى الآية كما زعم الرصافى.

وهناك تفسير آخر رفضه الرصافى أيضا تحكما وتنطعا، وهو أن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه، فطلب مساعدة الساقى ووضع أمله فيه، ونسى فى غمرة ضيقه وكربه التنبه إلى أن الأمر كله فى يد ربه سبحانه وحده، وأن الخلق جميعا بل الكون كله فى قبضته جل وعلا. وفى رأيى أن كلا التفسيرين مقبولان ومرادان جميعا، فيوسف نَسِىَ ذِكْرَ ربه ووضَع أمله فى الساقى، والساقى نسى تذكير الملك، فكان أنْ بَقِىَ عليه السلام فى السجن بضع سنين. وهذه سمة من سمات النص القرآنى: أن يكون للعبارة أو الكلمة أحيانا أكثر من معنى لأن الموقف يقبل هذا المعنى وذاك. ومثل ذلك قوله تعالى عن القرآن فى سورة "الزخرف" مخاطبا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم: "وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك"، فالقرآن تذكرة لقوم النبى بأن يعملوا كذا وينتهوا عن كذا، فإذا أطاعوا صاروا مذكورين فى التاريخ، وهو ما حدث إذ قد جعلهم الإسلام سادة أصحاب

إمبراطورية وحضارة عظيمة اشتهر بها ذكرهم أيما اشتهار. إذن فكتاب الله تذكيرٌ وذِكْرٌ معا.

ومن هذا القبيل قوله عز وجل فى أول سورة "الرعد": "الله الذى رفع السماواتِ بغير عَمَدٍ ترونها" حيث يجوز أن يكون المعنى أن السماوات ليست لها أعمدة، وها أنتم أولاء ترونها مرفوعة بغير أعمدة. وهذا مما لا يمكن أحدا نكرانه. لكن يمكن أن يكون المعنى أيضا أنها مرفوعة لا بأعمدة ترونها بل بأعمدة غير مرئية، وهى القوانين التى تجعل كل نجم وكل كوكب مرفوعا فى السماء دون أن يسقط. فالعبارة لها معنيان كما نرى. والمعنى الأول يناسب عرب المبعث، الذين كانت معرفتهم العلمية متدنية تمام التدنى، أما المعنى الثانى فيناسب عقولنا الحديثة التى عرفت من أسرار الكون وقوانينه ما لم يكن للعرب به علم ولا عهد. وكلا المعنيين صحيح.

ومن ذلك أيضا اعتراض النصارى، حسبما ذكر الجاحظ فى رسالته: "الرد على النصارى"، على القرآن لنفيه نبوة النساء لأن كتابهم المقدس قد ذكر عددا من النبيات الإسرائيليات، فكيف يقول القرآن: "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم" جاعلا الأنبياء جميعا من الرجال؟ وقد رددت على هذا الاعتراض فى كتابى: "مع الجاحظ فى رسالة الرد على النصارى" فبينت أن النساء لا يمكن أن يكن نبيات، ومن ثم فلا خطأ فى قول القرآن إن كل الأنبياء السابقين على محمد عليه السلام كانوا من الرجال، أى الذكور. ثم لوافترضنا جدلا أنه كانت هناك نبيات من النساء فالقرآن لم يخطئ هنا أيضا لأن كلمة "رجال" تعنى البشر من رجال ونساء، إذ مؤنث "رجل"هو "رَجُلَة"، فـ"رجال" تعنى الرجال والنساء" كما تعنى كلمة "الكلاب" الذكور والإناث

من هذه الحيوانات، ومثلها كلمات "الفيران والأغربة والأرانب والقطط والقنافذ والأسماك... إلخ".

ثم إن سياق الآية لم يكن سياق نفى لنبوة النساء بل سياق رد على المشركين المتعنتين الذين كانوا يريدون أن يكون الرسول من الملائكة، فرد القرآن عليهم بأن جميع الرسل كانوا من الرجال لا من الملائكة مستخدما، كما ترى، كلمة لها معنيان: أن الرسل بشر، ويمكن فى نفس الوقت أيضا أن يكون المقصود هو أنهم كانوا كلهم ذكورا. وهذا إذا كانت نبيات الكتاب المقدس هن من اختراع مؤلفيه، وهو ما أميل إليه. ومن هذا كله يرى القارئ أن القرآن بكلمة واحدة عبر عن معنيين، فأسلوبه فى مثل هذه المواضع مكتنز اكتنازا شديدا، وأن الأسداد مضروبة على الرصافى لا يمكنه النفاذ منها مهما جعجع وولول.

وبالمثل ينتقد الرصافى قوله تعالى فى سورة "الجن": "وأَنْ لَوِ استقاموا على الطريقة لَأَسْقَيْناهم ماءً غَدَقًا * لِنفتنهم فيه" قائلا إن إسقاءهم الماء الغدق معناه أن الطريقة التى سوف يستقيمون عليها هى طريقة الطاعة، لكن ذكر الفتنة معناه أنهم سوف يعذَّبون، وأن الطريقة التى استقاموا عليها هى طريقة العصيان أو على الأقل: هذا معنى من المعنيين اللذين تدل عليهما الآية. أى أن الآية تدل على معنيين اثنين دون أن نستطيع الجزم: أى المعنيين هو المراد. وهذا ضد البلاغة (ص٦٤١- ٦٤٢). والواقع أن قوله تعالى: "استقاموا على الطريقة" معناها طريقة الإيمان والطاعة، وإلا فكيف تكون استقامة مع الكفر والعصيان؟ وعلى ذلك فالفتنة هى اختبارهم لِيُعْلَم هل يَبْقَوْن على ما كانوا عليه من طاعة وإيمان أم ينحرفون مع تطاول الزمن. والآية واضحة بغض النظر عما قال فيها هذا المفسر أو ذاك. وهنا يمكن الاستئناس بقوله جل جلاله فى سورة

"الحديد": "ألم يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكر الله وما نَزَلَ من الحق ولا يكونوا كالذين أُوتُوا الكتابَ من قبلُ فطال عليهم الأمدُ فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون". فطول الأمد كثيرا ما يلهى ويَحْرِف البشر بعيدا عن الطريق القويم الذى كانوا سائرين فيه.

وفى قوله عز شأنه فى سورة "الواقعة" مخاطبا الكفار، والكلام عن الشخص المحتضَر منهم وهو يخرج أنفاسه الأخيرة: "فلولا إذا بلغتِ الحلقومَ * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقربُ إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إنْ كنتم غير مَدِينين * تَرْجِعونها إن كنتم صادقين" يقول كاتبنا إن الآية معقدة ومرتبكة ومربكة، وكان ينبغى أن يكون الكلام كالآتى: إن كنتم صادقين فلولا ترجعونها (أى الروح) إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين (أى إن كنتم تنكرون أن يدينكم الله يوم الدين) وأنتم حينئذ تنظرون (إلى المحتضَر) ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون". وأولا أحب أن أنبه القراء إلى أن الكلام المحصور بين قوسين هو مجرد شرح من عنده لا يضمنه الآية. وثانيا وجه اعتراضه أن الضمير فى "بلغت الحلقوم" هو للروح مع أنه لم يسبق ذكراسم ظاهر يعود عليه هذا الضمير، إذ هو موجود حسب كلامه فى "ترجعونها". وهذا تخبط من الرصافى، إذ إن "ترجعونها" هى مثل "بلغت الحلقوم" تتضمن أيضا ضميرا لا اسما ظاهرا. ومن ثم فكلامه لا يحل المشكلة فى شىء. وهذا إن كانت هناك مشكلة، فالكفار والمؤمنون والجن الأزرق والأحمر وكل مخلوق عنده عقل يعرف أن الضمير فى "ترجعونها" هو للروح، وفى "ونحن أقرب إليه منكم" هو للمحتضر. ولولا أن ما نقوله هنا صحيح لهاج الكفار وغير الكفار عند نزول هذه الآية. كما أن المقصود بـ"مدينين" هو أن الروح عطية من الله يستردها متى شاء، فأنتم مدينون بها له سبحانه

ولم تأتوا بها من عندكم، ومن ثم لا تستطيعون إرجاعها حين تكون بسبيلها إلى مفارقة البدن، وليس المعنى أنهم سوف يدانون يوم القيامة، أى يحاسبون. كما أن ترتيب الرصافى للآية كما اقترحه لا يحل مشكلة الضمير فى "ونحن أقرب إليه منكم"، إذ لا وجود لاسم ظاهر يعود عليه هذا الضمير فى كلامه هو أيضا. والواقع أنه خلق مشكلة من لامشكلة، فالناس كلهم يعرفون أن المقصود هو الإنسان فى النزع الأخير، ولا يمكن أحدا أن يفهم الآية على غير ذلك رغم عدم وجود ضمير. كما أن ترتيبه المقترح للآية قد أزال ما فيها من سلاسة وجمال وشوَّه وجهها الفاتن السحّار ولم يقدم حلا للمشكلة المزعومة فى الضميرين غير العائدين على اسمين ظاهرين. منك لله يا رصافى! لقد فهمتَ الكلام خطأً، وجئتَ تكحِّلها فأعميتَها. وبالمناسبة فالضمير فى "تكحّلها" و"أعميتها" لا يعود على اسم ظاهر فى المثل الشعبى، لكن المراد منه واضح تمام الوضوح، وهو الفتاة أو المرأة.

وهو هنا يذكرنى بالمستشرق الفرنسى جاك بيرك فى ترجمته لقوله تعالى من سورة "الرحمن": "كلُّ من عليها فانٍ"، إذ ظن أن المقصود كل من على السفن الجوارى التى سبق ذكرها قبيل هذه الآية، وكأن كل من على السفن سوف يغرقون، وهو ما لا يحدث إلا نادرا جدا، إذ المغرقون من ركاب السفن قليلون قلة شديدة بالنسبة لمن يصلون بسلام إلى غايتهم، وفاته أن المراد كل من على الأرض فان. والعرب تفهم ذلك دون أن يسبق الضمير الموجود فى "عليها" اسم ظاهر للأرض. وإذا كان المستشرق الأعجمى يضطرب أمام هذه الآية فكيف يرتبك الرصافى ويدخلنا ويدخل نفسه فى متاهات وتنطعات ما أنزل الله بها من سلطان أمام آية "الواقعة"، وهو عربى وشاعر معروف، وليس مستشرقا أعجميا لا يعرف بلاغة لغة الضاد؟

ترى ما المشكلة هنا، وهى مثل قولهم فى الإنجليزية والفرنسية مثلا على الترتيب: "It rains, Il pleut" حيث لا يوجد ما يعود عليه الضمير فى العبارتين، وهو مفهوم تلقائيا دون أدنى جهد منا بمعنى "السماء تمطر"، ومثلها تعبيرهم عن نزول الثلج باللغتين المذكورتين: "It snows, Il neige"، وهو ما ينطبق أيضا على جملة " Il y a ..." حيث لم يسبق ما يعود عليه الضمير، ورغم هذا فالمقصود هو الإشارة إلى "وجود" الشىء الفلانى أو العلانى. وأخيرا فإن الرصافى المتمرد المعاند لوجه العناد والتمرد يفعل نفس ما فعله القرآن فى بيته التالى من قصيدة "كلمة معتبر" العينية حيث لا يعود الضمير فى "حشرجتْ" على شىء متقدم عليه. ومع هذا فالكون كله يعرف أن المقصود هو أن الروح قد حشرجت. أى أن الرصافى يعيب شيئا فى القرآن هو يمارسه بتلقائية تامة لأنه لا عيب فيه، بل العيب فى عناده وكفرانه وتبجحه:

وما عسى تُغْنِى، وقد حَشْرَجَتْ، ندامةٌ؟ ليست إذن تنفعُ

وفى الهامش نقرأ ما يلى: "الضمير راجع للروح. والحشرجة: الغرغرة عند الموت". فانظر أيها القارئ إلى هذا العناد الغبى الكافر. يعيب على القرآن ما لا يمكن أن يعاب، ثم هو يستعمل نفس التعبير تقريبا، وبنفس التركيب دون أدنى فرق! ومن قبله بأزمان طوال قال حاتم الطائى:

أماوى، ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجتْ يوما وضاق بها الصدرُ؟

وقال قطرى بن الفجاءة الخارجى:

أَقولُ لَها وَقَد طارَت شَعَاعًا مِنَ الأَبطالِ: وَيحَكَ! لَن تُراعِى

أى طارت نفسى وتفرقت هلعا. وتقول العرب حين ينزل المطر: "أرسلتْ" دون أن يذكروا الفاعل أو المفعول لأنهم يفهمون من تلقاء أنفسهم أن المقصود: "أرسلت السماءُ المطرَ". وعندما يستشهد المسلم بنص من القرآن فإنه يقول: "قال تعالى، أو قال عز شأنه"مثلا دون ذكر الفاعل، وهو الله سبحانه. ومشهور قولنا: "فيها ونعمت" كما فى الحديث التالى: "من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت"، أى "ونعمت الخصلة". ونحن الآن متى ما سئلنا عن أحوالنا كان جوابنا: "نحمده"، أى نحمد الله، دون أن يكون هناك شىء يعود عليه الضمير فى "نحمده".

وبالمناسبة فلو كان هذا التركيب القرآنى خاطئا أكان القرآن يستعمله مرة أخرى فى سورة "القيامة": "كلا إذا بلغت التراقى * وقيل مَنْ راقٍ * وظَنَّ أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المَسَاق" ثم مرة ثالثة فى سورة "ص"، وإن كان الفاعل هذه المرة مختلفا، وهو الشمس، وذلك فى قوله تعالى عن سليمان وحبه للخيل وشغفه باستعراضها: "إذْ عُرِضَ عليه بالعشىّ الصافناتُ الجِيَاد * فقال إنى أحببتُ حُبَّ الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحِجَاب"، أى سقطت الشمس فى الأفق الغربى واختفت عن الأنظار، ثم مرة رابعة فى سورة "القَدْر"، والكلام عن القرآن: "إنا أنزلناه فى ليلة القدر"، ومرة خامسة فى سورة "النبأ"، والكلام عن المشركين: "عَمَّ يتساءلون"، ومرة ثالثة فى سورة "عبس"، والمقصود رسول الله عليه السلام: "عبس وتولى * أن جاءه الأعمى"؟ وهل كان المشركون يسكتون لو كان ثم عيب فى الكلام؟

وفى خلق السماوات والأرض يزعم الرصافى أن محمدا أخذ بنظرية بطليموس القائلة بأن الأرض مركز الكون. ولكن أين فى القرآن ذلك؟ وكيف لمحمد أن يعرف هذه النظرية، وهو من أمة أمية لا مدارس ولا كتب ولا دراسة فيها ولا صلة لها

ببطليموس ولا بالإغريق البتة؟ ثم يمضى الرصافى قائلا إن الأيام الستة التى خلقت فيها السماوات والأرض هى أيام كأيامنا هنا على الكرة الأرضية، أى أن كل يوم يستغرق أربعا وعشرين ساعة. ولكن أين فى القرآن ذلك؟ إن الرصافى يقلب الأمر رأسا على عقب فيجعل كتب التفسير عِيَارًا على القرآن، وكتب التفسير القديمة تقول بذلك، ومن ثم نراه يخطِّئ القرآن بناء عليها. والقرآن يقول بصريح العبارة إن اليوم عند الله يختلف عنه عندنا. فنحن نعيش على الأرض، ويومنا هو مجموع الليل والنهار لمرة واحدة، أما اليوم عند الله فيختلف حسب السياق الذى يرد فيه: فقد يساوى ألف سنة من سنواتنا، وقد يساوى خمسين ألف سنة كما جاء مثلا فى سورتى "السجدة" و"المعارج" على الترتيب. إنه سبحانه مطلق، وهو يحتوى الزمان والمكان ولا يحتويانه. وكلام المفسرين القدامى لا يلزم القرآن فى شىء. ومن تناقضاتهم فى ذلك أنهم يقولون مثلا إن الشمس خلقت فى اليوم الفلانى من أيام الأسبوع مع أن أيام الأسبوع إنما خلقت بعد خلق الشمس. وإذا كانت عبارة "أيام العرب" تدل على الحروب التى خاضها بعضهم ضد بعض، وكانت بعض هذه الحروب قد استمرت سنوات كحرب عبس وذبيان، التى يقال إنها ظلت مشتعلة أربعين عاما، فما بالنا بـ"أيام الله"؟

ومن حق الرصافى أن يرمى كلام العهد القديم فى هذا الموضوع بأنه خرافة، إذ أيام الخلق فيه هى كأيامنا هذه على الأرض، كل يوم فيها مكون من ليل ونهار، وساعاته أربع وعشرون. أما أن يسحب هذا الوصف على القرآن فهو تهوُّرٌ وتَغَشْمُرٌ. وهذا كلام سِفْر "التكوين" فى هذا الموضوع: "(الإصحاح الأول:) ١فِى الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. ٢وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. ٣وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ. ٤وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ.

وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. ٥وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلاً. وَكَانَ مَسَاءٌ
وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا. ٦وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ جَلَدٌ فِى وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلاً بَيْنَ
مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ». ٧فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِى تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِى فَوْقَ
الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ. ٨وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا.

٩وَقَالَ اللهُ: «لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ الْيَابِسَةُ». وَكَانَ
كَذلِكَ. ١٠وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ
حَسَنٌ. ١١وَقَالَ اللهُ: «لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا
كَجِنْسِهِ، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. ١٢فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ
بِزْرًا كَجِنْسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. ١٣وَكَانَ
مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالِثًا.

١٤وَقَالَ اللهُ: «لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِى جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ
لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ. ١٥وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِى جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ».
وَكَانَ كَذلِكَ. ١٦فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ
الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. ١٧وَجَعَلَهَا اللهُ فِى جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ،
١٨وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ.
١٩وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا رَابِعًا.

٢٠وَقَالَ اللهُ: «لِتَفِضِ الْمِيَاهُ زَحَّافَاتٍ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ، وَلْيَطِرْ طَيْرٌ فَوْقَ الأَرْضِ
عَلَى وَجْهِ جَلَدِ السَّمَاءِ». ٢١فَخَلَقَ اللهُ التَّنَانِينَ الْعِظَامَ، وَكُلَّ ذَوَاتِ الأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الدَّبَّابَةِ
الَّتِى فَاضَتْ بِهَا الْمِيَاهُ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلَّ طَائِرٍ ذِى جَنَاحٍ كَجِنْسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ

حَسَنٌ. ٢٢وبَارَكَهَا اللهُ قَائِلًا: «أَثْمِرِى وَاكْثُرِى وَامْلإِى الْمِيَاهَ فِى الْبِحَارِ. وَلْيَكْثُرِ الطَّيْرُ
عَلَى الأَرْضِ». ٢٣وكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا خَامِسًا.

٢٤وَقَالَ اللهُ: «لِتُخْرِجِ الأَرْضُ ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجِنْسِهَا: بَهَائِمَ، وَدَبَّابَاتٍ،
وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا». وَكَانَ كَذلِكَ. ٢٥فَعَمِلَ اللهُ وُحُوشَ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا،
وَالْبَهَائِمَ كَأَجْنَاسِهَا، وَجَمِيعَ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ.
٢٦وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى
طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِى تَدِبُّ عَلَى
الأَرْضِ». ٢٧فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى
خَلَقَهُمْ. ٢٨وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا،
وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ».
٢٩وَقَالَ اللهُ: «إِنِّى قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْلٍ يُبْزِرُ بِزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ
ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا. ٣٠وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ
دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَامًا». وَكَانَ كَذلِكَ.

٣١وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا
سَادِسًا.

(الإصحَاحُ الثَّانِى:) ١فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا. ٢وَفَرَغَ اللهُ فِى
الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِى عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِى الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِى عَمِلَ.
٣وَبَارَكَ اللهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ، لأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِى عَمِلَ اللهُ
خَالِقًا".

هذا ما قاله العهد القديم، فهل قال القرآن شيئا من ذلك؟ وعلى هذا فما زعمه الرصافى من أن محمدا كان يقدس التوراة، ومن ثم ردد ما قاله ذلك الكتاب، فهو كذب صراح، فلا محمد كان يقدس العهد القديم ولا هو ردد شيئا مما يقوله ذلك الكتاب، بل اتهم اليهود بأنهم نسوا من كتابهم أشياء وتلاعبوا بأشياء أخرى. وقد بينا فى هذا الفصل أن ما قاله القرآن يختلف عما قاله العهد القديم فى أشياء كثيرة من الاعتقادات وسير أنبياء بنى إسرائيل والتاريخ والحساب وما إلى ذلك وضربنا أمثلة على هذا كله. ومن عجب أن الرصافى بعد قليل يؤكد أن محمدا حين يذكر أن السماء كانت دخانا فهو يطابق العلم فى عصرنا ويقول شيئا لم يكن أحد يعرفه فى العصور القديمة. فمن أين يا ترى حصل محمد على تلك المعلومة، وهى لم تكن معروفة لأحد من البشر آنذاك؟ والرصافى فى غمرة غروره الغبى يزعم أن القرآن، حين قال إن اليوم عند الله قد يكون ألفا من أعوامنا الأرضية أو خمسين ألفا، إنما يقصد أن اليوم الواحد من أيام الله فى خلق السماوات والأرض مكونة من ألف عام أو من خمسين ألفا، فى حين أن القرآن لم يقل ذلك قط، وإنما أراد ضرب المثل على أن اليوم عند الله يختلف عنه عندنا وأنه يختلف حسب السياق الذى يرد فيه. وهذا كل ما هنالك. فالرصافى يسىء الفهم أو يتعمد ذلك ثم يرمى القرآن بالخطإ.

ويتهم الرصافى القرآن كذلك بأنه أخطأ عندما قال إن الأرض خلقت قبل السماوات. ترى أين ذلك فى القرآن؟ إنه يشير إلى قوله تعالى: "خلق الأرضَ فى يومين... * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سماوات فى يومين...". فأين فى النص الكريم أن السماوات خلقت بعد الأرض؟ إن الكلام هنا هو عن تسوية السماوات فى أربعة أيام لا

عن خلقها، فقد خُلِقَتْ قبل ذلك، إذ كانت موجودة على هيئة دخان قبل هذا كما هو واضح من الآيات. كذلك فإن قوله تعالى عن السماء: "وما لها من فروج" لا يعنى كما يزعم الرصافى أن محمدا كان يعتقد بأن السماء سقف متصل لا فتق فيها ولا صدع، بل يعنى أنها محكمة التركيب وأنها متلاحمة بأجرامها والقوانين التى تسير عليها. ومما قاله الرصافى أيضا أن القرآن، حينما يقرر أنه لولا الجبال لمالت الأرض واضطربت، قد أخطأ وأن العكس هو الصحيح، ففى رأيه أن وجود الجبال يتسبب فى اضطراب الأرض لأنها تفسد توازنها. والسؤال هو: وها هى ذى الجبال منتشرة على كوكبنا، ولم يحدث له بحمد الله اضطراب.

وهذا تعليق "المنتخب فى تفسير القرآن الكريم" على الآية ٣١ من سورة "الأنبياء": "وجعلنا فى الأرض رَوَاسِىَ أن تَمِيدَ بهم وجعلنا فيها فِجَاجًا سُبُلًا لعلهم يهتدون: لما كان باطن الأرض منصهرا سائلا فلو فرضنا أن الجبال وُضِعَتْ فى بعض نواحى الكرة الأرضية كأنها صخور هائلة مرتفعة فإن ثقلها قد يؤدِّى بالقشرة الأرضية أن تميد أو تنثنى أو تتصدع. لذلك جعل جل شأنه الجبال رواسى، أى ذات جذور ممتدة داخل القشرة الأرضية إلى أعماق كبيرة تتناسب مع ارتفاعها. فهى كأنها أوتاد. كما جعل كثافة هذه الارتفاعات والجذور أقل من كثافة القشرة المحيطة بها. كل ذلك حتى يتوزع الضغط على القشرة العميقة بحيث يكون مساويا فى جميع أنحائها فلا تميد أو تتصدع لأن التوزيع التماثلى للأثقال على سطح كروى يكاد لا يحدث تأثيرا يذكر.

وقد أثبت العلم الحديث أن توزيع اليابس والماء على الأرض ووجود سلاسل الجبال عليها مما يحقق الوضع الذى عليه الأرض. وقد ثبت أن الجبال الثقيلة دائما أسفلها مواد هشة وخفيفة وأن تحت المحيطات توجد المواد الثقيلة الوزن. وبذلك

تتوزع الأوزان على مختلف الكرة الأرضية. وهذا التوزيع الذى أساسه الجبال دائما قُصِدَ به حفظ توازن الكرة الأرضية. ولما ارتفعت الجبال حدثت السهول والوديان والممرات بين الجبال وشواطئ البحار والمحيطات والهضبات، وكانت سبلا وطرقا".

أما المَيَلان الذى يفهمه الرصافى وكأن المخلوقات تقع حينئذ من فوق الأرض فهو فهم مضحك، إذ الميلان بالنسبة إلى ماذا؟ إن الأرض جرم معلق فى الفضاء يدور حول نفسه وحول الشمس فى نفس الوقت، ولا يمكن أن تميل بالمعنى الذى فهمه كاتبنا. إن القرآن إنما يتحدث عن "مَيَدان" لا "مَيَلان" كما وهم الرصافى حتى إنه أورد قوله عز شأنه فى الآية الخامسة عشرة من سورة "النحل" هكذا: "وألقى فى الأرض رواسى أن تميل بكم"، وهذا ليس قرآنا بل القرآن هو "أن تميد بكم".

والرصافى، حين يجمع التفصيلات الخاصة بخلق السماوات والأرض فى قوله تعالى من سورة "فُصِّلَتْ"، يجد أن حاصل الجمع أكثر من ستة أيام. وهو نفسه ما نقرؤه فى تفسير الشيخ الشعراوى من العصر الحديث مثلا. وهذه حسبة خاطئة، إذ القائلون بها يخلطون بين خلق السماوات والأرض وبين تسوية هذا الأمر أو ذاك فيهما بعد الخلق مما لا ينبغى أن يدخل فى عملية الخلق، ومن ثم لا يصح إدخال تلك التسويات فى الحساب، فالخلق شىء، والتسوية شىء آخر.

وهذا ما قاله الشيخ الشعراوى وتعليقى عليه. وهو موجود فى كتابى: "خواطر على الخواطر- مع الشعراوى فى تفسيره". قال: "والحق يقول: "خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيامٍ" (الأعراف/ ٥٤)... وتلك هى الآيات المحكمات فى القرآن بالنسبة لزمن الخلق: ستة أيام. ولكن آية التفصيل للخلق جاءت فى ظاهر الأمر أنها ثمانية أيام. اقرأ معى: "قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يوْمَينِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ

أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّمَآءِ وَهِى دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَينَا طَآئِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يوْمَينِ" (فصلت/ ٩-١٢). والظاهر من آية التفصيل أنها ثمانية أيام، أما آيات الإجمال فكلها تقول: إنها ستة أيام، ومن هذه النقطة دخل المستشرقون، وادَّعَوْا زورًا أن القرآن فيه اختلاف، وحاولوا أن يجعلوها ضجة عالية.

ونقول: إنه سبحانه خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان. فالمراد أن ذلك حصل وتم فى تتمة أربعة أيام، ويضم إليها خلق السماوات فى يومين فيكون عدد الأيام التى تم فيها خلق السماوات والأرض ستة أيام، أو نحمل المفصل على المجمل، فحين يقول الحق: "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيامٍ" (الأعراف/ ٥٤)، فهل خَلْق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب الزمن الممتد؟ إن ربنا يخلق بـ"كُنْ"، ونحن البشر على حسب قدرتنا لنخلق شيئًا، وكل عملية نقوم بها تأخذ زمنًا، لكن من يخلق بكلمة "كن" فالأمر بالنسبة له هين جدا سبحانه وتعالى. لكن لماذا جاء الخلق فى ستة أيام؟ نعلم أن هناك فرقًا بين ميلاد الشىء وبين تهيئته للميلاد.

وكنا قد ضربنا المثل سابقا، ولله المثل الأعلى، بصانع الزبادى، الذى يأتى بأكواب اللبن الدافئ، ثم يضع فى كل منها جزءا من خميرة الزبادى، ويضع تلك الأكواب فى الجو المناسب. فهل يؤدى هذا الرجل عملًا لمدة اثنتى عشرة ساعة فى كل كوب، وهى المدة اللازمة لتخمُّر الكوب؟ طبعًا لا، فقد اكتفى بأن فى كل كوب عناصر التخمر لتتفاعل بذاتها إلى أن تنضج. ولننظر إلى خلق الجنين من تزاوج بويضة وحيوان منوى.

ويأخذ الأمر تسعة شهور، وسبحانه جل جلاله لا يعمل فى خلق الجنين تسعة شهور، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته. إذن فخلق الله السماوات والأرض فى ستة أيام لا يعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق، بل قال سبحانه: "كن"، وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام".

هذا ما قاله الشيخ. ونأتى إلى موضوع الستة الأيام التى خلق الله فيها السماوات والأرض. ولست أرى أى تناقض بين النصين اللذين أوردهما فضيلته: فالأرض خلقت فى يومين. هذا صحيح. أما تشكيل رواسيها ومباركتها وتقدير أقواتها فى أربعة أيام فهذا لا يدخل فى خلق الأرض كما هو واضح، ولا علاقة له بحسبة الأيام الستة على الإطلاق، فالأرض كانت قد خلقت وانتهى الأمر. ثم يبقى اليومان اللذان قضى فيهما الله السماء سبع سماوات. وهما أيضا لا يدخلان فى حسبة الأيام الستة لأن السماء لم تخلق فيهما، إذ كانت السماء موجودة، وكل ما حدث أن الله سبحانه قد استوى إليها وأمرها هى والأرض أن تأتياه طوعا أو كرها. وهو ما يدل على أنها كانت كالأرض موجودة قبل ذلك. أى أن اليومين هما مسألة تنظيم ليس إلا. إذن فهذا النص لا يذكر من أيام الخلق الستة سوى يومى خلق الأرض فحسب.

وفى آخر تحليلنا لهذه المسألة نتساءل: ألم يقل الرصافى إن ما قاله محمد رغم ما فيه من أخطاء وأكاذيب هو الحق كل الحق لأن المقصود به المصلحة العامة، فلم يا ترى يحرص الرصافى على فضح تلك الأخطاء والأكاذيب، وفضحها يفسد الغاية العظمى من ورائها، وهى المنفعة العامة؟ أما أنا فأرى أن الرصافى حين قال ما قال فى مدح محمد عليه السلام فى أول كتابه إنما كان يخدرنا بهذا المديح حتى إذا ما خَطَّأه وجعل من نفسه

مصححا للقرآن وزاريا عليه وساخرا من معلومات محمد بَلَغْنا له ذلك كله. ولكن هيهات، فاللعبة مكشوفة تمام الانكشاف ولا تنطلى على أحد منا. إن الرصافى يكره محمدا لأنه يقول بحرمانية الخمر والزنا واللواط وينفّر أشد التنفير من مد اليد للآخرين استجداء للطعام والملبس والمال، وكل ذلك كان منغمسا فيه الرصافى حتى شعر رأسه. أما القول بغير ذلك فبهلوانية لا تجوز على العقول. ويجد القارئ كلام الرصافى فى هذه القضية فى الصفحة رقم٦٥٠ وما بعدها من كتابه عن "الشخصية المحمدية".

ومن القضايا التى عالجها الرصافى فى كتابه كذلك قضية التفاوت فى الرزق وجعل الناس درجات بعضها فوق بعض. فهو يستغرب أن يميز الله بين البشر فى الفقر والغنى لكى يبلوهم ويختبرهم، وكان المفروض أن يساوى بينهم فى الرزق حتى يكون الابتلاء عادلا. وهو يسخر من الله سبحانه ويصوره وكأنه رجل غنى يبرر التفاوت بين البشر فى المال ويؤكد أنه وضع طبيعى حتى لا يزاحمه أحد فى غناه ويفكر فى الثورة على هذا الوضع (ص٦٦٣ فصاعدا). ولا شك أن ثم تفاوتا بين المخلوقات فى كل شيء، ومنهم البشر لا البشر وحدهم، ولكن فلنركز كلامنها هنا على البشر، فهم من يهموننا بوصفنا جزءا منهم. لكن لا بد أن نعرف أن فهم الرصافى للرزق هنا فهم ضيق، فالرزق ليس مالا فحسب ولا التفاوت منحصر فى الفقر والغنى بل يشمل كل شيء بما فى ذلك الجمال والذكاء والدهاء والهمة والذوق والحساسية والنبل وحب الخير والبراعة فى اللعب والإبداع الأدبى والعلمى والطموح والنشاط وحب العمل والإنتاج... إلخ إن كان لذلك من آخر.

وأنا أقر وأعترف أننى لا أعرف السبب فى قيام الحياة على هذا التفاوت، ولا أظن أحدا يستطيع أن يبرره. وكل البشر، سواء الناس العاديون أو الفلاسفة الكبار أو

المصلحون العظام، قد وقفوا أمام ذلك التفاوت حائرين ولم يستطع أحد أن يقضى عليه. وقد حاولت دول أو زعمت أنها يمكنها التخلص منه، فانهارت ولم يختف هذا التفاوت. وأقصى ما يمكن عمله هو حث المتفوقين على النظر بعين الرأفة والعطف والتعاون والمعاونة إلى من لم تسعدهم الأقدار بالتفوق، وحض أصحاب الرزق القليل على العمل والاجتهاد للتخلص من وضعهم السيئ أو الصبر عند الفشل فى التغلب على هذا الوضع والنهوض من جديد لاستئناف المحاولة. وهو ما عمله القرآن الكريم والحديث الشريف.

والرصافى هنا يتنمر للرسول محمد بوصفه مؤلف القرآن، ولا أدرى معنى ولا مغزى ولا جدوى لهذا التنمر، فليس محمد مسؤولا عنه ولا أُخِذ رأيه فى ذلك ولا أُخِذ رأى أى من البشر بل كلنا جئنا إلى الحياة فألفيناها هكذا، وإلا فليرنا الرصافى شطارته، وقد كان أعجز من أن يحل مشكلته هو فى هذا التفاوت، فكان يمد يده فى أخريات حياته إلى معارفه المحظوظين كى يوافوه بما يحتاجه من المال والطعام والملابس بينما هو منصرف إلى البغايا والغلمان والخمر. نعم إن تفاوت الناس فى أرزاقهم المختلفة من أكبر المحركات لهم إلى العمل والحركة والاجتهاد والتنافس، أى إلى الاشتراك فى صنع الحضارة والتقدم، لكن قد يردّ البعض بأن هذا هو الوضع الحالى للحياة والأحياء، ولو أراد الله سبحانه ألا يكون هناك تفاوت أصلا ويكون رغم ذلك نشاطٌ وحركةٌ وإبداعٌ وتنافسٌ فى الخيرات لكان كما شاء، بل لو أنه سبحانه خلقنا مكفيين حاجاتنا دون حركة أو عمل أو حتى تفكير لكان له عز وجل ما أراد. لكن هذا باب من أبواب الأمانى، أما الواقع فهو أن هناك تفاوتا فى الأرزاق بين المخلوقات جميعا لا بين البشرفحسب. وعلينا أن نتعامل مع هذا الواقع لا أن نذهب وراء الأوهام فى بيداء الخيال نظن أن باستطاعتنا

تغيير أوضاع الحياة ومحو التمايز بين الناس فى الرزق والمواهب. والقرآن لم يزخرف لنا الواقع ويَكْذِبُنا ويضلّنا عن حقيقته بل أكد أن الإنسان قد خُلِق فى كَبَدٍ ومشقة، ودلنا على مفاتيح تخفيف ذلك الكبد وتلك المشقة، أما القضاء عليهما قضاء مبرما فلا يتم فى هذه الدنيا. وأنت بالخيار: إن شئتَ عملتَ واجتهدت وحاولت ذلك التخفيف، وإن شئت كَسِلْتَ وتقبلتَ الأوضاع كما هى دون محاولة للتغيير. وعليك أن تتحمل نتيجة موقفك وعملك فى الحالين.

وقد تناول العقاد مثلا هذه القضية فى مقال له بمجلة "الأزهر" (رجب ١٣٨٣هـ- ديسمبر ١٩٦٣م) عنوانه "براهين الإيمان من طريق براهين الشكوك"، فقال: "إذا كان وجود الخالق يستلزم خلو الخلق من النقص والعذاب فلنجتهد فى تصور العالم على هذه الصورة، فلا نلبث أن نفهم أنها هى المستحيل بعينه على كل فرض من الفروض. أولًا كيف يمكن أن يكون المخلوق كاملًا كمال الخالق الذى لا يعوزه شىء من الأشياء؟ ذلك هو المستحيل الذى لا تتعلق به إرادة الله، ولا يجوز لنا أن نتطلبه من قدرة الله لأن قدرة الله التى لا نهاية لها هى التى توجب أن يكون المخلوق المحدود بزمانه ومكانه دون ذلك، وتمنع أن يوجد فى التصور إله كامل مخلوق إلى جانب الإله الكامل الخالق لجميع الأشياء. ولنعتسف التصور إن استطعنا فنقدر أن المخلوقات يمكن أن توجد ناقصة، وأن تكون مع نقصها سعيدة لا ترجو شيئًا، ولا يفوتها رجاء ترجوه إذا جاز هذا فى حق الكائن السعيد الظافر بكل ما يريد. فهل توجد هذه المخلوقات السعيدة دفعة واحدة بلا ولادة ولا نمو ولا وقوف بالنمو عند حد محدود؟ وإذا وجدت هذه المخلوقات السعيدة فهل تكون سعادتها من نوع واحد لا فرق فيه بين هذا المخلوق وذلك المخلوق كأنها نسخة مكررة فى جميع الصفات والأحوال؟ وهل

تتم لها سعادتها بغير مجهود منها وغير سبب من بواعث نفوسها وبغير فرق بين من ولد بالأمس ومن يتبعه فى الميلاد؟ وهل يتبعه ذلك التابع فى الميلاد صغيرًا يشعر بالنقص أو لا يشعر به ولا يشعر بها عداه؟ أما إذا تفرقت هذه المخلوقات فى أنواع السعادة فكيف تتفرق دون أن يكون هذا المخلوق مستمتعًا بمزية ليست للآخرين من المخلوقات؟ وهل تكون المخلوقات جيلًا واحدًا ثم يكون هذا الانفراد بالخلق إنصافًا للأجيال التى تظهر بعد العدم على سنة التتابع بين الوالدين والمولودين؟ إن خطأ الشك الذى يقوم على افتراض العالم على صورة من هذه الصور هو أظهر الأخطاء بعد النظر اليسير. فكمال المخلوقات لا يدل على وجود المنفرد بالكمال المطلق الذى لا يتكرر ولا يقبل التكرار. بل نقص المخلوقات هو الذى يدل على ذلك الكمال على كل وجه قابل للتصور والتقدير. وإذا تصورنا الخلق بهذه الصورة التى لا صورة غيرها فى الإمكان فمن اليسير أن نفهم كيف نرجو شيئًا لا يتحقق، وكيف نجهل ما نرجوه، ولا ندرى بكل ما يضمره الغيب لنا من عواقب هذا الرجاء".

والذين يتمنَّوْن أن لو كانت المخلوقات سعيدة لا يريدون أن تكون تلك المخلوقات كاملة مطلقة القدرة والإرادة لا تحتاج إلى من يوفر لها السعادة بل كل ما يريدونه هو خلو حياتهم من بواعث الألم وألوان الشقاء بفضل الله وقدرته ورحمته وكرمه. فهم كانوا وسوف يظلون عبادا له عز وجل يحصلون على سعادتهم وراحة بالهم منه لا من ذواتهم، فهم فى أول المطاف وآخره مخلوقون لا خالقون، ولا يتمتعون بالسعادة المنشودة من عند أنفسهم بل من ربهم ورب العالمين مثلما أن هذا الكون الهائل العظيم مخلوق له سبحانه، ويقوم ويدور ويتحرك طبقا لقوانين مطردة أودعها فيه الخالق الكريم، ولا يمكن أن يبقى طرفة عين لو تخلى عنه الله جل وعز. فهل هناك مانع

أن تمضى حياة المخلوقات على نظام مطرد هو من خلق الله أيضا مثلما أن المخلوقات هى من صنعه سبحانه وإبداعه، ويكفل لها هذا النظام حياة بلا قلق ولا عداوة ولا صراع، فتعيش فى بُلَهْنِيَةٍ لا تتألم ولا تحزن ولا تخاف ولا تملّ ولا تضيق مثلا؟ هذا ما أفهمه، ولا يدور فى الذهن أبدا أن تكون المخلوقات آلهة إلى جانب الإله الأوحد جل وعلا، فهذا هو المستحيل لا الحياة الخالية من الآلام والمنغصات، إذ الإله لا يمكن أن يكون إلا واحدا أحدا، بل مخلوقات غير مستقلة بنفسها ولا تحصِّل السعادة من ذاتها بل كرما من الله ورحمة تخلو تماما من أى جبروت وشدة.

لكن لحكمة ما لا ندريها خلق الله كونه على الأساس الذى نعرفه ونحس به طوال الوقت ونسعد به ونشقى، ونطمئن ونقلق، ونفرح ونحزن، ونحيا ونموت، ونتعاون ونتصارع، ونتسالم ونتحارب، ونسعى وراء رزقنا فننجح أحيانا فى توفير الرزق الوفير ونفشل أحيانا فنضيق ونتوتر... وهكذا. لكن هناك، كما أقول دائما، حكمة خفية فيما نحن فيه فى هذه الدنيا لم يطلع عليها أحد ولا يمكن أحدا تغييرها إلا الله سبحانه بالنسبة لمن سيدخلون الجنة فى الحياة الآخرة. وليس أمامنا سوى التعامل مع هذا الكون وذلك النظام الذى يسير عليه مجتهدين فى تحصيل أسباب السعادة وتجنب أسباب الشقاء بكل ما نستطيع وبأكبر قدر فى الأولى وأقل قدر فى الثانية إلى أن نلقى الله بعد الموت وكلنا أمل فى غفرانه وبره ولطفه وجنته فلا نكون من أهل النار والعذاب حتى لو كانت النارستفنى ويتحول البشر جميعا إلى الجنة فى ختام الأمر.

وأمام قوله تعالى فى سورة "الفرقان": "وهو الذى مَرَجَ البحرين هذا عذبٌ فراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وجعل بينهما برزخا وحِجْرًا محجورا" يقف الرصافى مكذبا به لما يراه من اختلاط الماء العذب بالماء الملح عند مصبات الأنهار فى البحار كما هو الحال عند

التقاء ماء دجلة والفرات بماء خليج العرب، والتقاء ماء النيل بماء البحر المتوسط. صحيح أن الماءين يبقيان منفصلين لبعض الوقت ولمسافة فى داخل البحر المالح، لكنهما فى النهاية لا بد أن يختلطا. ومن هنا جاء تساؤله: فكيف يقول القرآن إن بينهما برزخا وحجرا محجورا، أى أنهما لا يمتزجان بل يظل كل منهما على حالته: هذا ملح أجاج، وهذا عذب فرات إلى ما لانهاية؟ هذه محصَّلة حديث الرصافى عن هذه الآية (ص٦٦٨- ٦٦٩). وقد وقف العبد لله أمام هذه الآية عام ١٩٨٦م فى كتابىَّ: "مصدر القرآن" و"موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم" بعدما قرأت ما قاله بعض علماء المسلمين فى العصر الحديث عن وجود تمايز بين الماءين لمسافة غير قصيرة من البحر المالح الذى يصب فيه النهر العذب.

قلت ما نصه: "وثمة آية أخرى أرانى، رغم عدم تخصصى فى أى من العلوم الطبيعية، مضطرا إلى أن أخالف، فى تفسيرها، الدكتور بوكاى، الذى يكرر، فى كتابه عن العلم فى القرآن والكتاب المقدس، كلام المفسرين القدامى. وهذه الآية هى: "وهو الذى مرج البحرين: هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا". وفى تفسيرها يقول د. بوكاى: "معروفة تلك الظاهرة التى كثيرا ما تشاهَد عن عدم الاختلاط الفورى لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة. ويرى البعض أن القرآن يشير إليها لعلاقتها بمصب نهرى دجلة والفرات، اللذين يشكلان بالتقائهما بحرا، إذا جاز القول، طوله أكثر من ١٥٠كم، هو شط العرب. وفى الخليج ينتج تأثير المد ظاهرة طيبة هى انحسار الماء العذب إلى داخل الأراضى، وذلك يضمن ريا طيبا". والحقيقة أن هذا التفسير غير مقنع: فمن الناحية اللغوية يصعب علىَّ أن أوافق العالم الفرنسى ومفسرينا القدامى على أن أداة التعريف فى "البحرين" هنا هى للعهد، الذى

قيل على أساسه إن "البحرين" المذكورين هما دجلة والفرات. إن الآيات السابقة تتحدث عن الظل (الظلام) والرياح والماء والأنعام والأناسى، وهى مفاهيم عامة لا تشير إلى ظلام بعينه ولا رياح بعينها ولا ماء معين ولا أنعام ولا أناسى مخصوصة، فلم يقال إذن إن "البحرين" هنا هما بحران معينان (دجلة والفرات)؟ إن السياق الذى وردت فيه هذه الكلمة هو سياق عام، ومن ثم فإن بلاغة الكلام تقتضى أن يكون "البحران" أيضا هما "النهر والبحر" بإطلاق، أى أن "أل" فيهما هى "أل" الجنس لا العهد. فهذا من ناحية اللغة والبلاغة. وفضلا عن ذلك فإن ماء النهر، مهما توغل بقوة اندفاعه إلى مدى بعيد فى داخل البحر أو المحيط، يختلط فى النهاية بمائهما، ومن ثم فظاهر الأمر أن النهر يبغى فى البداية على البحر (عندما شق ماءَه الملحَ وأزاحه عن طريقه) ليعود البحر فيبغى فى النهاية عليه (عندما اختلط ماؤه العذب بماء البحر الملح الذى أفقده خاصية العذوبة وأعطاه بدلا منها ملوحته)، فأين البرزخ إذن والحجر المحجور؟ أما "المنتخب فى تفسير القرآن" فإنه يقول فى هامش خصصه للتعليق على هذه الآية إنها ربما "تشير إلى نعمة الله على عباده بعدم اختلاط الماء الملح المتسرب من البحار فى الصخور القريبة من الشاطئ بالماء العذب المتسرب إليها من البر اختلاطا تاما، بل إنهما يلتقيان مجرد تلاق: يطفو العذب منهما فوق الملح كأن بينهما برزخا يمنع بغى أحدهما على الآخر وحجرا محجورا، أى حاجزا خفيا مستورا لا نراه". لكنْ ثم نقطة هامة يبدو لى أن كاتبى هذا التعليق، على رغم جدته وطرافته (بالنسبة لى على الأقل)، قد أغفلوها، إذ إن الماء العذب والماء الملح اللذين يلتقيان فى الشقوق على هذا النحو لا يمكن تسميتهما بحرين. ثم إذا كان الماءان فى هذه الظروف لا يلتقيان، فإنهما فى عرض البحر والمحيط يلتقيان ويتمازجان ويصبحان فى النهاية ماء واحدا كما قلنا من

قبل. يبدو لى، والله أعلم، أن البرزخ المذكور فى هذه الآية هو القوانين التى بمقتضاها بقى كل من الماء العذب والملح كل هذه الدهور المتطاولة التى لا يعلم مداها إلا الله، وسيبقيان إلى أن يرث الله الأرض والسماوات موجودين. فالأنهار تصب فى البحار والمحيطات، وكان المفروض، لو أن الأمر انتهى عند هذا الحد، أن يختلط الماءان اختلاطا دائما، فلا ينفصلان بعد ذلك أبدا، ويصبح كل الماء الموجود على سطح الأرض ماء ملحا. بيد أن التقدير الإلهى قد شاء أن يقوم البَخْرُ بحمل الماء من البحار والمحيطات، فتسوقه الرياح ليسقط على الجبال وينحدر إلى الأنهار ماء عذبا كما كان، وهكذا دواليك. وهكذا أيضا يبقى الماء العذب والماء الملح، ويتعايش البحران دون أن يبغى أحدهما على الآخر ويقضى عليه. فهذا هو البرزخ وهذا هو الحجر المحجور، فيما أفهم، والله أعلم.

كما يبدو لى أن هذه الآية، إلى جانب امتنانها على العباد بهذه النعمة الإلهية، تتضمن معنى مجازيا، إذ أظن أن المقصود بالماء العذب هنا المؤمنون، وبالماء الملح الكافرون. والمعنى هو أن الإيمان والكفر سيبقيان إلى آخر الدهر لا يستطيع أحدهما أن يقضى على الآخر تماما. والذى دعانى إلى هذا التفسير هو ما فهمته من أولى الآيات التى تتحدث عن ظواهر الطبيعة فى السياق الذى وردت فيه آيتنا هذه، والآية التى أشير إليها هى: "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل، ولو شاء لجعله ساكنا، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا * ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا". أما المعنى المجازى الذى لمحته فيها، بجانب معناها الظاهرى، فهو أن الله يطمئن الرسول إلى أن كفر قومه، المرموز إليه هنا بالظل (أى الظلام)، إن كان الآن ممدودا فإن الله قابضه رويدا رويدا، ومُبْزِغ شمس الإيمان عما قليل. والذى أوحى إلىَّ بهذا المعنى هو السياق الذى وردت فيه هذه الآية هى وآية

"وهو الذى مرج البحرين..."، فقد كان المولى سبحانه يتكلم عن الأمم السابقة التى كذبت برسلها عنادا وطغيانا، فأهلكها الله بعد أن كانت مستعزة بقوتها وانتشار سلطانها، فبدت لى النقلة إلى الحديث عن بعض الظواهر الطبيعية غير مفهومة إلا فى ضوء هذا المعنى المجازى".

والمشكلة عند الرصافى وأمثاله أنه حَرْفِىٌّ لا يُعْمِل عقلَه بل يبحث عن الأخطاء والمشاكل حتى يثبت لنا أنه عالِمٌ نِحْرِيرٌ يستطيع أن يكذّب محمدا ويخطّئ القرآن، الذى أتى به زاعما كما يقول الرصافى أنه رسول مع أنه لا رسول ولا يحزنون. ولقد تحدث القرآن فى مواضع متعددة منه عن الحواجز غير المادية، ومنها نفهم أن البرزخ والحجر المحجور ليسا بالضرورة من حجارة أو حديد. قال تعالى مخاطبا نبيه محمدا فى سورة "الإسراء": "فإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا * وجعلنا على قلوبهم أَكِنَّةً أن يَفْقَهوه وفى آذانهم وَقْرًا". وليست هناك حُجُبٌ أو أَكِنَّةٌ ماديةٌ ولا فى آذانهم وَقْر، فقد كانوا يفهمون ما يقول ويسمعونه جيدا ثم يسخرون منه ويتهمونه بسببه، لكن عقولهم لا تفكر فيه على النحو السليم بل كان عنادهم يقف عقبة فى طريق اقتناعهم واهتدائهم إلى الحق والنور. وقال تعالى أيضا عن المشركين فى سورة "فُصِّلَتْ": "وقالوا قلوبُنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب". وقال سبحانه فى سورة "البقرة" عن المشركين أيضا: "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة". وقال عن اليهود فى نفس السورة: "وقالوا قلوبنا غُلْفٌ بل لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا". حتى البرزخ الذى يمنع الموتى من العودة إلى الحياة لتصحيح أخطائهم التى اقترفوها فى الدنيا ليس برزخا ماديا كأسوار السجون مثلا ذات الأسلاك الشائكة والتى يقف عليها جنود معهم

البنادق لإطلاق النار على من يحاول القفز والهروب، بل هو يمثل مرحلة من مراحل وجود الإنسان هى مرحلة ما بعد الموت. لهذا ذهب ذهنى إلى تفسير البرزخ والحجر المحجور بين الماءين بأنهما إشارة إلى القوانين الكونية التى تكفل بقاء الماءين طول الوقت دون أن يجور أحدهما على الآخر.

ويبدى الرصافى دهشته واستغرابه لقول القرآن المجيد فى سورتى "البقرة" و"التحريم" عن نار الجحيم: "وَقودها الناس والحجارة" معترضا بأن البشر يمكن أن يكونوا وقودا لأنهم قابلون للاشتعال والاحتراق بينما الحجارة لا. ولم يكتف بهذا بل كعادته سخر من المفسرين الذين حاولوا توجيه الكلام فى الآية (ص٦٦٩- ٦٧١). وقد فات الرصافى، لرعونته وتعجله وغروره وتعالمه، أن قوانين الكون فى العالم الآخر تختلف عنها فى عالمنا الدنيوى كما وضح القرآن والحديث فى نصوص متعددة. وأى إنسان عنده ذرة من الفهم يعقل هذا. ترى كيف يمكن فى ظل القوانين الكونية الحالية أن تتجدد جلود الأجساد بعدما تحترق وتتفحم كما نقرأ فى الآية التالية من سورة "النساء": "إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدَّلْناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب" أو أن يستمر حرق الكفار دون توقف فلا يموتون حسبما نقرأ فى قوله تعالى عنهم وهم يصرخون فى الجحيم: "ونادَوْا يا مالك لِيَقْضِ علينا ربك قال إنكم ماكثون"؟ أما الحجارة فأرى أنها إيماءة إلى الأصنام والأوثان التى كانوا يعبدونها فأراد الله أن يفهمهم أنها لن تنفعهم هناك بشىء، وإلا لقد كان الأولى بها أن تنفع نفسها.

ثم لا أدرى كيف غفل الرصافى عن أن البشر بهذا المعنى ليسوا وقودا بل هم يحترقون بالنار ذات الوقود، كما أن الحجارة والصخور تشتعل وتذوب وتسيل مثلما

يحدث عند ثوران البراكين وقذفها بالحمم، التى هى صخور سائلة والتى قد تستمر فى الزحف على الأرض لعدة أميال، وتسمى بالإنجليزية: "molten lava"، وعندما تتجمد وتستحيل كتلا من الصخر تسمى المنطقة التى تنتشر فيها هذه الكتل فى لغة الضاد بـ"الحَرَّة". وهذا ما كتبه معجم وبستر (فى طبعته المشهورة عام ١٩١٣م) عن ذلك الموضوع تحت عنوان "lava": " (n.) The melted rock ejected by a volcano from its top or fissured sides. It flows out in streams sometimes miles in length. It also issues from fissures in the earth's surface, and forms beds covering many square miles, as in the Northwestern United States".

ولا تتوقف مشاغبات الرصافى عند هذا الحد بل يمضى هامزا لامزا مشيرا إلى أن الكلام عن النار بهذه الطريقة وذِكْر الصخور فى هذا السياق هو صدى لحياة العرب وحرارة جوهم الحارق وشُحّ الماء، بينما تشير أوصاف الجنان إلى النعم التى تتمتع بها بلاد الروم وفارس بما فيها من مياه وخضرة وجو منعش بديع. أى أنه لا جنة ولا نار بل أحلامٌ شاغَلَ بها محمدٌ قومَه وأوهمهم بأنها ستكون فى الآخرة، ولا آخرة ولا دياولو. والطريف أنه تكلم عن ثوران البراكين فى بلاد العرب قديما ونشوء الحَرَّات نتيجة لهذا. ولو كان ما يقوله فى تعليل انتشار الإسلام بين العرب صحيحا، مع أن الأغلبية الساحقة منهم ظلت نائية عنه لا تستجيب له أعواما كثيرة بل وتحاربه بغية القضاء عليه واستئصاله، فكيف يعلل انتشار الإسلام فى البلاد ذات المياه والخضرة والجو الجميل كمصر وأسبانيا والعراق والشام وبلاد فارس وما بعدها فى أواسط آسيا والهند والصين وبلاد الترك مثلا، وانتشاره الآن بهدوء فى أوربا وأمريكا حتى بين السياسيين والفنانين والمفكرين واللاعبين رغم تخلف المسلمين وتقدم تلك البلاد علينا بالسنين الضوئية

ورغم أن كل شىء فينا من شأنه تنفير الناس من كل ما يتعلق بنا؟ إنها رحمة الله ومشيئته.

ومن الحديث عن الجحيم وأهواله إلى الحديث عن آدم والملائكة وإبليس فى قصة الخلق الأول. والرصافى يعترض على كل شىء ورد فى هذه القصة فى مواضعها المختلفة من القرآن الكريم: فإبليس عنده كان من الملائكة فعصى ربه رغم أن الله يقول إنه من الجن ومخلوق من نار، ورغم تأكيد القرآن أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ومن هنا يرفض الرصافى أن يكون الاستثناء منقطعا فى قوله سبحانه عن الملائكة وإبليس وموقفهما من السجود لآدم لدن أمره لهم بذلك: "فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين" مع أنه فى ظل ما قلناه من أن إبليس كان من الجن وخُلِق من نار، بينما الملائكة ليست من الجن ولا خلقت من نار، لا يمكن أن يكون الاستثناء متصلا بل منقطعا. أما إذا أراد الرصافى الاستمرار فى الشغب فليقل إن "إلا" هنا بمعنى "لكنّ" وليهدأ وليسترح.

وأما قوله إنه من الظلم البين أن يعلِّم الله آدم الأسماء كلها ولا يعلِّمها الملائكة ثم يجرى للطرفين امتحانا ينجح فيه آدم ولا يستطيع الإجابة عليه الملائكة لأن الله لم يعلمهم شيئا من الموضوع الذى ستأتى فيه أسئلة الامتحان (ص٦٧٦- ٦٨٥ باختصار شديد وتركيز على القضايا الأساسية فى الموضوع) فلو كان الأمر كذلك لكان فعلا ضد العدل والمساواة فى الفرص كما يقول. وقد فكرت فى ذلك الأمر منذ عقود، وكنت وما زلت أفهمه على أن الله قد عَلَّم كلا من الملائكة والبشر على النحو الذى يكفل قيام كل منهم بمهمته فى الحياة بما يتفق وطبيعته. لقد علم الملائكة بمعنى أنه لقنهم ما علمهم إياه تلقينا وبرمجهم على وضع معين، فهم يطيعون الله وينفذون ما برمجهم عليه لا

يخرجون عنه قِيدَ شعره، أما البشر فلم يلقنهم أو يبرمجهم على وضع معين بل وهب لهم قدرات وإمكانات كثيرة وأفاض عليهم قدرا من الحرية يبدو قليلا وضيقا لكنهم ينجزون به ما يبدو وكأنه معجزات، ألا وهو هذه الحضارة التى أنشأها الإنسان منذ خطا خطواته الأولى فى الحياة حتى الآن وما بعد الآن إلى يوم النفخ فى الصور.

والكلام فى النصوص القرآنية حسبما أفهمه هو عن الملائكة والبشر والشيطان، وهو ممثل قوى الشر فى الكون، وليس عن آدم الشخص ولا عن إبليس وحده بل عن قوى التعلم والتجريب والتطلع إلى التقدم من جهة، وقوى الشهوات بما ينطوى فيها من نفع أو أذى من الجهة الأخرى. والمقصود بطلب إبليس إنظارَه إلى يوم يبعثون هو، فيما أفهم، أن الإنسان قد بُثَّتْ فيه الشهوات الباعثة له على الحركة والتعلم والتقدم كشهوة الطعام والجنس والتميز على الآخرين والفضول وحب التجربة، فيظل الإنسان طوال التاريخ البشرى فى شد وجذب بين المثال الأعلى ووسوسات الشيطان إلى أن يلقى ربه وتنتهى مسيرة الحضارة وينهدم الكون ليحل محله كون جديد على أسس وقوانين جديدة فى الحياة الآخرة. هذا ما أفهمه من النصوص القرآنية، وإلا فإذا كان المقصود آدم الإنسان الأول فلِمَ يعلّمه الله كل شىء فى الدنيا، وهو لم يكن محتاجا إلى أن يعرف سوى بعض الأمور المحدودة التى تناسب حياته البدائية؟ ولماذا يحفظ معاجم اللغات كلها منذ خلق إلى أن تفنى الدنيا؟ ترى ماذا يفعل بها؟ إن هذا عبث فى عبث، تعالى الله عن ذلك!

وهل يظن ظانٌّ أن الله سبحانه قد علم آدم والملائكة كما نعلِّم طلابنا ونسقيهم العلم سقيا، ثم أحضرهما وأحضر إبليس معهما، وجلسوا يتداولون ويختلفون، ويعقد امتحانا لآدم والملائكة بعد أن يكون قد علَّم هذا كل شىء، وعلَّم هؤلاء بعض الأشياء

التى لا تسمن ولا تغنى من جوع وتضمن لآدم الانتصار عليهم بالضربة القاضية من أول لحظة؟ وهل تظن أن الملائكة حين استغربت خلق الله خليفة فى الأرض كانت وقحة فى هذا الاستغراب كما يقول الرصافى؟ الذى أفهمه أن الله عز شأنه أراد خلق كائن قادر، بما وهبه جل وعلا من قدرات وإمكانات، على صنع الحضارة وتطويرها بما يؤدى إلى نموها وزيادة تشابكاتها وتعقيداتها فى كل عصر ومصر، فى حين كانت الملائكة تظن أن فى وجودها الكفاية، إذ هى تسبح الله وتقدسه، فتساءلت عن لزوم خلق الإنسان ببراءة لا بوقاحة كما يقول الرصافى ظنا منه أنها تعاند وتتمرد وتغتر وتتجاوزحدودها مثله.

أما كيف دخل إبليس الجنة بعدما طرد منها فالجواب على ذلك السؤال هو بدوره سؤال، وهو: ومن قال إن إبليس طرد من الجنة؟ إن فى القرآن أمرا له بالخروج منها مذؤوما مدحورا، ولم تكن الجنة ولا أمر الله الملائكة بالسجود لآدم قد ذكرا بعد، فكيف نفهم أن الخروج هنا هو الخروج من الجنة؟ ولم لا يكون هو الخروج من مقام التكريم الذى انتهكه بالعصيان؟ لقد ذكرت الجنة بعد هذا وذكر معها خداع الشيطان لآدم وحواء. ومن ثم فلست أرى أى داع للتساؤل عن الكيفية التى استطاع بها إبليس دخول الجنة للوسوسة لأبينا الأول. على أن المسألة فيما أتصور وأرى هى على كل حال مسألة رمزية لا حرفية واقعية.

وقد بثثت هذا الرأى فى بعض كتبى. وطلابى، كما رأيت بنفسى، لا يقتنعون بما أقول بل يرون أن الله علم آدم الشخص كل الأسماء فى الحياة، فأضيف أنا قائلا: ولماذا الأسماء فقط دون الأفعال والحروف والظروف؟ إن اللغة لا تقوم ولا تصلح بالأسماء وحدها بل لا بد لها من أفعال وحروف وظروف، وإلا لم يكن لها من معنى. ثم

أسألهم: ترى ما الذى سيفعله آدم بكل هذه الأسماء وفى جميع اللغات البشرية فى كل العصور والأماكن، وقد كانت لغته محدودة جدا جدا تبعا لبدائية حياته، إذ كان أول إنسان فى الكون فلم يكن بحاجة إلا إلى طائفة صغيرة من الألفاظ يسيِّر بها أموره المغرقة فى البساطة والسذاجة؟ إن كلا منا الآن مهما كان اتساع علمه وعمقه لا يعرف من لغته القومية سوى بضعة آلاف كلمة ليس إلا مع أن العربية تزيد عن مليون من الكلمات، فما بالنا لو كان على آدم أن يعرف كل الكلمات فى كل اللغات منذ بداية الخلق إلى يوم القيامة؟ إن هذا لا يمكن أن يكون أبدا حتى لو انطبقت السماء على الأرض. ولماذا يختص الله آدم وحده بهذه الميزة ولا تتكرر مع أحد من أبنائه وأحفاده؟ وما المغزى؟ وما السر؟ وما الحاجة إليه؟

ثم أقول ضاحكا وجادا فى ذات الوقت: إننا فى قسم اللغة العربية نحاول أن نعلمكم لغتكم القومية التى هى فى الوقت نفسه لغة القرآن فنحاضركم فى النحو والصرف والبلاغة والأدب والتاريخ والقرآن والحديث، ثم بعد أربع سنوات، ودعونا من السنوات الطوال التى أنفقتموها فى المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية فى المدارس وفى مراكز الدروس الخصوصية حيث الطبل والزمر والرقص والتصفيق والزغاريد وشغل الحواة، وحيث ترديد المعلومات وراء المدرس ترديدا ببغائيا أبله، وبعد ذلك كله ننظر فنجد النتيجة مخيبة للآمال تخييبا تاما. وهذه نتيجة تعليمكم لغة واحدة، فكيف بتعليم كل لغات البشر فى كل العصور والأماكن لشخص واحد لا يحتاج شيئا من ذلك كله؟ لكن طلابى لا يسلمون أبدا بما أقول ويصرون على أن يفهموا الآيات الكريمة فهما حرفيا، فأسكت عاجزا أمام تصلبهم، وأتساءل فيما بينى وبين نفسى: أفلا يمكن أن يكون أبناؤنا وبناتنا فى الجامعة أفهم منا وأوسع علما وأقدر على

التفسير الصحيح للقرآن، وبخاصة أنهم تعلموا فى مراكز الدروس الخصوصية على نغمات الطبل والمزمار، وعلى تلوى الراقصة اللولبيبة التى تلتف حول رقبتها أفعى ضخمة يا ليتها تلدغها أو تعصر عنقها وتخلصنا منها، وعلى دوران الدراويش كالخذاريف وهم يحركون بأيدهم فوق رؤوسهم التنورة التى تشبه المظلة؟ ممكن جدا.

وبالنسبة إلى قصة الخلق يقول معروف الرصافى (ص٦٧٧) إن هذه القصة مذكورة فى التوراة، فانتقلت منها إلى القرآن بشىء من التصرف فى وضعها. وهأنذا أولا أسوق هذه القصة كما وردت فى الإصحاح الثانى والثالث من سفر "التكوين" بالعهد القديم: "(الإصحاح الثانى) ٧وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً. ٨وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِى جَبَلَهُ. ٩وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. ١٠وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِى الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ: ١١اِسْمُ الْوَاحِدِ فِيشُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الذَّهَبُ. ١٢وَذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ. هُنَاكَ الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزْعِ. ١٣وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِى جِيحُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. ١٤وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّالِثِ حِدَّاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِى شَرْقِى أَشُّورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابعُ الْفُرَاتُ.

١٥وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِى جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. ١٦وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلًا: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا، ١٧وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ». ١٨وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ». ١٩وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ، فَأَحْضَرَهَا إلى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا، وَكُلُّ مَا

دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. ٢٠فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءٍ جَمِيعَ الْبَهَائِمِ وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَجَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ. ٢١فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. ٢٢وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِى أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلى آدَمَ. ٢٣فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِى وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِى. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ». ٢٤لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. ٢٥وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ.

(الإصحاحُ الثَّالِثُ) ١وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِى عَمِلَهَا الرَّبُّ الإِلهُ، فَقَالَتْ لِلْمَرْأَةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لاَ تَأْكُلاَ مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» ٢فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، ٣وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِى فِى وَسَطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَمَسَّاهُ لِئَلاَّ تَمُوتَا». ٤فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! ٥بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ». ٦فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. ٧فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تِينٍ وَصَنَعَا لأَنْفُسِهِمَا مَآزِرَ.

٨وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِى الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِى وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ٩فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟». ١٠فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِى الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّى عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». ١١فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِى أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟» ١٢فَقَالَ آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِى جَعَلْتَهَا مَعِى هِىَ أَعْطَتْنِى مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ».

١٣فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هذَا الَّذِى فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِى
فَأَكَلْتُ». ١٤فَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ لِلْحَيَّةِ: «لأَنَّكِ فَعَلْتِ هذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ
وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكِ تَسْعَيْنَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكِ. ١٥وَأَضَعُ
عَدَاوَةً بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكِ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكِ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ
عَقِبَهُ». ١٦وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تكْثِيرًا أُكَثِّرُ أَتْعَابَ حَبَلِكِ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلاَدًا. وَإِلَى رَجُلِكِ
يَكُونُ اشْتِيَاقُكِ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكِ». ١٧وَقَالَ لآدَمَ: «لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ
وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِى أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ
تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. ١٨وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ.
١٩بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِى أُخِذْتَ مِنْهَا. لأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى
تُرَابٍ تَعُودُ».

٢٠وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَّاءَ» لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَى. ٢١وَصَنَعَ الرَّبُّ الإِلهُ لآدَمَ
وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا. ٢٢وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ
مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا
إِلَى الأَبَدِ». ٢٣فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِى أُخِذَ مِنْهَا.
٢٤فَطَرَدَ الإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِى جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ
شَجَرَةِ الْحَيَاةِ".

وبعد قراءتنا ما ورد فى العهد القديم عن قصة آدم نلاحظ الآتى: فى القرآن الكريم اجتزأ سبحانه وتعالى بذكر الجنة، أما فى العهد القديم فقد حدد موقعها بأنها أنشئت فى عدن على الأرض وسيق إليها نهر انقسم فيها أربعة أنهار لسقياها، ومنها الفرات، وليس ذلك فى القصة القرآنية. وتنص القصة الكتابية على أن آدم كان يعمل فى

الجنة بخلاف ما فى القرآن من أنه كان يأكل ويشرب منها ما يشاء دون عمل أو تعب. وفى القصة الكتابية سميت الشجرة التى حرم على آدم الأكل منها بأنها شجرة معرفة الخير والشر، أما فى القرآن فشجرة دون تحديد. أما إن كان لا بد من تسميتها فهى، فيما أرى، شجرة المعصية. وفى القصة الكتابية أحضر الله لآدم كل الحيوانات والطيور ليرى ماذا يطلق عليها من أسماء، أما فى القصة القرآنية فقد علمه الله الأسماء كلها دون تحديد بحيوانات أو طيور بل أطلقها إطلاقا، وعجزت الملائكة عما استطاعه آدم، ويخلو العهد القديم فى هذا السياق من الملائكة. وفى العهد القديم أن الله أخذ حواء من ضلعه، أما فى القرآن فهناك نفس واحدة خلق الله منها زوجها: آدم وحواء. وفى القصة الكتابية نجد أن الحية قد أغرت حواء بالأكل من شحرة معرفة الخير والشر، وأغرت حواءُ بدورها آدمَ. وهذا غير ما تقوله قصة القرآن من أن الشيطان هو الذى وسوس لهما جميعا وأغراهما فاستجابا له، وإن كان القرآن يختم القصة بأن آدم "عصى ربه فغوى"، فالاثنان أكلا من الشجرة وخالفا نهى ربهما، لكن "العصيان" لم يسند بهذا اللفظ إلا لآدم وحده، وهو ما أفهم منه أن المقصود الجنس البشرى. وأيا ما يكن الأمر فإن القرآن لا يلقى تبعة الخروج من البلهنية التى كانا يمرحان فيها بكل حرية واستمتاع وسعادة على حواء بل على آدم مهما كان المقصود بـ"آدم" هنا.

وفى القصة الكتابية يتمشى الله فى الجنة عند هبوب ريح النهار، وإن لم يكن مفهوما المراد من "ريح النهار" هذه، وينادى آدم وزوجته، اللذين اختفيا منه، فلم يعرف مكان اختبائهما. وليس لهذا وجود فى القرآن. وحين سأل الله آدم: لماذا عصيت؟ رد بأن المرأة هى التى أغوته، لترد هذه بدورها بأن الحية هى التى أعطتها من الشجرة فأكلت. وهذا لا وجود له فى القصة القرآنية. وفى القصة الكتابية يلعن الله الحية ويقضى

عليها بالمشى على بطنها وبأكل التراب طول حياتها عقابا لها على ما فعلت، وأن تكون بينها وبين المرأة عداوة، وكذلك بين نسليهما، كما يلعن الأرض بسبب آدم، ويخبره بأنه قدر عليه الشقاء سعيا وراء لقمة العيش. ثم صنع لهما أقمصة من جلد، وهو ما لا وجود لشىء منه فى القرآن.

وفى النهاية حسب رواية العهد القديم يعاقبهما الله بالإخراج من الجنة جَرَّاءَ أكل الإنسان من شجرة معرفة الخير والشر فصار كواحد من الآلهة، وخوفا من أن يأكل من شجرة الحياة أيضا فيكون من الخالدين. وعاش الإنسان بعد طرده من الجنة شرقيها، وأنشأ الله لهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة. وهذا كله لا تعرفه القصة القرآنية، التى تخلو من لعن الأرض أو الخشية من خلود الإنسان كالآلهة بأكله من شجرة الخلد. وفى القرآن ليس هناك ذكر لشجرة الخلد إلا على لسان الشيطان الكاذب، الذى خدع أبوينا فقال لهما عن الشجرة المحرمة إنها شجرة الخلد، فلما أكلا منها انكشفت سوآتهما، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وكانت النتيجة أن طردا من الجنة. كذلك لم تكن هذه الشجرة المحرمة هى شجرة معرفة الخير من الشر بل شجرة أراد الله سبحانه أن يرى هل سيطيعه آدم وحواء فلا يأكلا منها أم هل سيعصيانه فيصيخا السمع للشيطان ويعملا عكس ما أمرهما به جل وعلا. كما أن الحية لا تعادى المرأة وحدها بل البشر جميعا، مثلما ليست هى وحدها التى تؤذى الإنسان بل يشاركها فى ذلك ويتفوق عليها كثير من المخلوقات كالحيوانات المتوحشة والعقارب والديدان والنباتات والأسماك السامة والتماسيح وأسماك القرش والأخاطيب والجراثيم والمكروبات والفيروسات، فضلا عن معاداة الإنسان لأخيه الإنسان، والأمم للأمم، والجماعات للجماعات... وهكذا.

ثم إذا كانت الجنة فى الأرض ونحن نسكن شرقيها ويدخل أحد أنهار الأرض فيها فالمفروض أن نراها فى أى وقت نشاء، ولكن عبثا نبحث فى الأرض عن الجنة فلا نجدها البتة. كذلك من قال إن الحية تأكل التراب؟ تقول "الويكيبيديا" تحت عنوان "ثعبان": "الثعبان أو الأفعى أو الحية هو حيوان زاحف من ذوات الدم البارد... من آكلات اللحوم يتواجد منه على الأرض ٢٧٠٠ نوع تنتشر فى جميع القارات عدا قارة أنتاركتيكا، وهى تتواجد بمختلف الأطوال من ١٠سم للثعابين الصغيرة إلى عدة أمتار للثعابين الكبيرة... معظم أنواع الثعابين غير سامة، أما الأنواع السامة فتستخدم السمية بشكل أساسى لقتل الفريسة أو إخضاعها أو للدفاع عن نفسها، إذ إن كمية قليلة من سم الثعبان كافية لإحداث أضرار شديدة للضحية أو حتى التسبب بالموت للإنسان". بل إن العلماء ليستخرجون من سم الثعابين مصلا يستعمل للشفاء من لدغاتها.

وكيف يصوَّر الله فى العهد القديم وكأنه مالك أطيان يتمشى فى نسيم العصر يستعرض حقوله، ولا يعرف أين اختبأ منه أحد أُجَرَائه، ويفقد أعصابه ويلعن الأرض رغم أنْ ليس لها فيما حدث ذنب؟ ثم ما دخل الحية فى الأمر؟ لقد أرجع القرآن المعصية إلى وسوسة الشيطان، التى تثير الشهوات والغرائز، ولم يردد كلام الخرافات والأساطير. كما لم يُلْقِ بالمسؤولية على كتف حواء وحدها حسبما جاء فى العهد القديم، بل عليها هى وآدم جميعا، وإن كان عند استعمال كلمة "المعصية" قد أورد اسم آدم فقط كما ذكرنا. من هذا كله نرى أن ما قاله الرصافى من أن القرآن قد أخذ القصة من العهد القديم مع بعض التصرف هو كلام خاطئ تماما، فالجوان مختلفان ما بين جو أسطورى فى القصة الكتابية وجو منطقى فى القصة القرآنية يليق بجلال الله وبصلته بعباده على عكس العهد

القديم، الذى صوره سبحانه صورة لا تليق أبدا بربوبيته وكماله وجلاله حسبما وضحنا. ثم إن القصة الكتابية تخلو من أمر الله ملائكته بالسجود لآدم وطاعتهم أمر ربهم وتمرد إبليس ورفضه ذلك السجود بحجة أنه من نار بينما آدم من الطين، وإصراره على العصيان حتى يوم الدين. وبالمثل تخلو من إنباء الله لآدم وزوجته بأن البشر سيكونون أعداء لبعضهم البعض وأن الأرض ستكون لهم مستقرا ومتاعا إلى حين.

كما أن الله قد تاب على آدم واجتباه وهَدَى، وباتت الخطيئة التى اجترحها بأكله من الشجرة المحرمة كأن لم تكن، وبدأ صفحة جديدة تخلوتماما من وراثة الخطيئة، ومِنْ ثَمَّ فليس فى القرآن موضع للقول ببنوة أحد لله يرسله أبوه كى يموت على الصليب فداء للبشرية. لقد أُخْرِج آدم وحواء من الجنة عقابا لهما على عصيانهما، وانتهى الأمر هنا، وعليهما من الآن أن يراعيا أوامر الله ونواهيه: فإن أطاعا جوزيا بالإحسان إحسانا، وإن عصيا نالا عقابهما. على أن نعرف أن الخطأ ملاصق للطبيعة البشرية، وأن الله سوف يراعى ذلك عند الحساب، وأنه يجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى ما شاء سبحانه، بينما يجزى على السيئة بمثلها، وكثيرا ما يعفو عنها بل قد يغفر الذنوب جميعا، ويكفى أن يتوب الإنسان مخلصا حتى يتوب الله عليه وكأن شيئا لم يكن... إلخ. إذن فالقرآن إنما صحح كثيرا من الأخطاء فى قصة آدم فى العهد القديم ونقاها من الخرافات والأساطير واللامنطق والأغلاط العلمية، ولم يتصرف فيها بعض التصرف كما قال معروف الرصافى جهلا وكذبا ومناكفة ومكايدة، بل أنشأ عقيدة مختلفة عاد بها إلى مقطع الحق والصواب.

وفى قصة المسيح وما يقوله النصارى من أنه ابن الله (ص٦٨٥- ٦٨٩) يعلق الرصافى بأن محمدا ظن أن النصارى يقولون ببنوة ناشئة من زواج وأنه ابن له من

صلبه، ولم يتنبه إلى أنهم إنما يقولون بأنه كلمة الله وروحه، وهذا ما قاله القرآن فى سورة "آل عمران"، ومن ثم فلا فرق بين عقيدة النصارى وعقيدة المسلمين فى المسيح. وهذا الذى يقوله الرصافى تدليس أو جهل شنيع، فالنصارى يقولون عن مريم إنها أم الإله، ويقولون عن المسيح إنه الله. وهذا القول الأخير مسطور على غلاف العهد الجديد إذ مكتوب فيه "إنجيل ربنا يسوع المسيح". وفى مادة "المسيح" فى "دائرة المعارف الكتابية" نجد العنوان مكتوبا كالتالى: "المسيح- الرب يسوع المسيح"، وتكرر فى متن المادة وكثير من المواد الأخرى عبارة "الرب يسوع" و"الرب" مقصودا بها عيسى عليه السلام مرات جد كثيرة. ولو كانت تسميته بالابن عندهم مجرد تعبير عن التكريم فهل يقبل النصارى هذا التفسير؟ وهل يرضون أن نقول عن أى واحد من المتقين، بل هل يوافقون على وصف أى من الأنبياء الآخرين بأنه ابن الله بنفس المعنى الذى يقصدونه حين يصفون عيسى بأنه ابن الله؟ وإذا كانت البنوة مجرد تكريم فهل يسكتون إذا ما قلنا إن المسيح عبد الله ورسوله المكرم من الله ولا نقول إنه ابن الله؟ إن الرصافى يقول قولا لم يقله أحد من قبله، وهو يلقيه بكل عشوائية ولامبالاة. وهو يتجاهل قول النصارى إن الله قد أرسل بابنه الوحيد إلى الأرض ليموت على الصليب كى يفتدى البشرية من خطيئة أبيهم آدم. تقول عقيدة الكنيسة فى المسيح: "وفقا لقانون الإيمان هو ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوى الأب فى الجوهر الذى على يده صار كل شىء، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ووُلِد من مريم العذراء وصار إنسانا وصُلِب عِوَضَنا فى عهد بيلاطس البنطى، وتألم ومات ودُفِن وقام فى اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد إلى السماء وجلس على يمين الله

الأب، وأيضا سيأتى بمجده العظيم ليدين الأحياء والأموات، الذى ليس لملكه انقضاء، الذى هو بنفسه الله الابن أى الله المتجسد والمتحد بالإنسان". فما قول سيدنا الرصافى فى هذا؟

أما قوله إن المسيح فى القرآن هو كلمة من الله وروح منه، وإن هذا هو نفسه ما يقوله النصارى فهو خلط للأوراق واستبلاه. ذلك أن قول القرآن هذا معناه أنه خلق بكلمة "كن" فكان، أى أنه مخلوق لله وليس ابنا له يشاركه فى الألوهية، وأما قوله إنه روح منه فهو نفسه ما قاله القرآن عن آدم. ففيما يخص أنه "كلمة من الله" يقول تعالى فى سورة "آل عمران": "إن مَثَل عيسى عند الله كمَثَلِ آدمَ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون". وأما ما يخص كونه روحا من الله أفلم يقرأ الرصافى قوله تعالى فى سورة "الحِجْر": "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ"؟ فهل يقبل النصارى هذا؟ إن قبلوه وقالوا إن المسيح كلمة من الله وروح منه كما أن آدم كلمة من الله وروح منه لما كان بيننا وبينهم مشاكل. ولكن هيهات ثم هيهات أن يقبلوا القول بذلك ولو انطبقت السماء على الأرض. ومرة أخرى نرى الرصافى يتباله فى موضع لا يقبل التباله على الإطلاق فيقول إن المسلمين يقولون بالتثليث مثلما يقول النصارى سوى أنهم يزيدون عليهم أنه رسول من عند الله، فهم من ثم ليسوا مُثَلِّثة فقط بل مُرَبِّعة. وأتحداه أن يستخرج من القرآن أى تثليث أو تربيع أو تخميس. أما ما يزعمه من أن القرآن يقول بأن عيسى ابن لله ولكن بأسلوب آخر، وهو أنه كلمة الله، كما قال إن الروح القدس هو روح الله فهذا تدليس خطير، فقد عرفنا أن الكلمة هى كلمة "كن"، التى يخلق بها الله كل شىء ويقدّره ويقضيه. كما أن الروح القدس ليس خاصا بالمسيح

بل أيد الله به النبى محمدا بل وأيد المسلمين به أيضا. قال تعالى فى سورة "النحل": "قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ"، وقال فى نهاية سورة "المجادلة": "لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ". على أن الروح القدس عند النصارى ليس مؤيدا للمسيح بل هو الأقنوم الثالث من أقانيم الألوهية، وهذا يتعارض تمام التعارض مع عقيدة القرآن فى الألوهية وفى المسيح وفى جبريل جميعا، إذ جبريل مجرد ملاك ينزل بالوحى من عند الله إلى نبيه، ولا صلة له بأقانيم النصارى: "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ". فالعقيدتان مختلفتان اختلافا جذريا على عكس ما يهرف به الرصافى بخفة وميوعة. وقد قال الرصافى ذاته فى بداية الكتاب إن توحيد محمد أرقى وأنقى من توحيد النصارى لأنهم يؤمنون بأن المسيح هو ابن الله. فما الذى عدا مما بدا؟ ولماذا انتكس هذا المخلوق على عقله ولحس ما كان قد قاله من قبل؟ واضح أن الخمر لحست عقله.

ومن الغرائب التى يعج بها الكتاب وتدل على أن الرصافى ليس محكم العقل أنه (ص١٢٩)، خلال حديثه عن عبد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبى سفيان وأحد المهاجرين إلى الحبشة بعد أن تنصر وكان يغيظ المسلمين بقوله لهم: "فقَّحْنا وصأصأتم"، أى استطعنا إبصار الحقيقة وما زلتم تلتمسونها فلا تصيبونها، قد علق قائلا: "وما أدرى لماذا يقول لهم: وأنتم تلتمسون البصر، مع أنهم فتحوا أيضا مثله، بل الحقيقة عكس ما

يقوله، فإنه هو الذى صأصأ، وهم الذين فتحوا لأنهم فروا من الوثنية ودخلوا فى دين الإسلام، الذى لا يقبل الشرك بوجه من الوجوه، فهم إلى الله أقرب منه. أما هو فدخل فى النصرانية، التى فيها من الشرك رائحة فواحة بالأب والابن وروح القدس. فأى الفريقين صأصأ؟ وأيهما فتَّح؟ ولعل ابن جحش كان لم يزل للوثنية أثر فى نفسه، لذلك رأى فى النصرانية ما يلائمه أكثر من دين الإسلام، فقال ما قال". وواضح بل ساطع الوضوح مدى التناقض الفظيع فى كلام الرصافى من موضع إلى موضع، فهو يقول فى موضع إن الإسلام يقول بتثليث النصارى بل يقول بالتربيع، أى أن الإسلام يزيد على النصرانية فى وثنيتها، وها هو ذا هنا يقول فى الموضع الحالى إن الإسلام لا يقبل الشرك بوجه من الوجوه، بينما النصرانية فيها من الشرك رائحة فواحة جراء ما فيها من تثليث الأب والابن والروح القدس.

وأخيرا كيف يتفلحس الرصافى ويتهم المسلمين بالسذاجة حين يتساءلون أين كان أبو المسيح حين صُلِب؟ أى لماذا لم يتقدم وينقذه من هذا المصير التاعس البائس البشع؟ وتكمن سذاجتهم، فى نظر هذا المتفلحس، فى أنهم يَنْسَوْن أن عقيدة النصارى تقوم على الصلب، إذ أنزل الله ابنه كى يموت على الصيب فداء للبشرية من خطيئتها الأولى (ص٦٨٩– ٦٩٠). والرصافى هنا إما جاهل أو مداور. فقد قال قبلا إن المسيح عند النصارى لا يختلف عنه عند المسلمين، والآن نراه ينسى هذا ويقر بأنه ابن لله نزل من السماء ليفدى البشرية بالموت على الصليب. هذه واحدة، أما الثانية فهى أن المسلمين ليسوا أول من تساءل: أين كان أبوه وقتما وُضِع على الصليب ومَسْمَرَ الرومانُ يديه وقدميه؟ ولماذا لم يخفّ لإنقاذه؟ بل المسيح نفسه هو من تساءل هذا التساؤل عند تثبيته على الصليب إذ صرخ نحو السماء قائلا: إلهى إلهى، لماذا تركتنى؟ وهذه الصيحة

ليس لها من معنى سوى أنه لم ينزل لفداء البشرية من خطيئتها الأولى بالموت على الصليب، لأنه لو كان قد نزل من أجل هذه المهمة، وكان إلها أو ابنا للإله، فكيف يصرخ ويستنجد رغم أن الله لو استجاب له لفسدت الحكاية كلها من أولها إلى آخرها وصار إنزاله إلى الأرض لعب عيال ليس لهم كلمة يحترمونها بل يتراجعون ويحرنون عن تأدية المهمة التى كلفوا بها؟ وعلى هذا فللمرة الثالثة أو الرابعة نجدنا مجبرين على القول بأن الرصافى جاهل كبير أو مدلس خطير.

ومرة أخرى لا يتوقف الرصافى هنا بل يضيف أن أحدا قبل محمد لم ينكر صلب المسيح أو يقل بأن المصلوب شخص آخر أُلْقِىَ عليه شَبَهُه، ونجى الله المسيح من ذلك المصير. ثم مضى فتحذلق قائلا إن محمدا ظن أن الصلب يسىء إلى السيد المسيح، فلذلك أنكره وقال إن شبهه أُلْقِىَ على شخص آخر، إذ تصور أن إنكار الصلب سوف يجذب إليه النصارى ويدخلهم فى الإسلام (ص٦٨٩- ٦٩١). أى أن محمدا أخطأ خطأ فادحا وأتى بشىء ما أنزل الله به من سلطان فأفسد الأمر إفسادا شنيعا. وهذا كلام فارغ، فقد كان هناك من ينكر صلب المسيح قبل النبى بقرون. فمثلا فى مقال بعنوان "إنجيل توما الأبوكريفى الأقوال والطفولة" بـ"الموقع الرسمى للدكتور غالى، وهو موقع نصرانى: https://drghaly.com/articles/display/12225" نقرأ ما يلى: "قبل أن ندرس ما يسمى بـ"إنجيل توما" يجب ان ندرس ما يسمى: "الغنوسية". الغنوسيّة حركة دينية فلسفية من قبل الميلاد، وتعنى "جنوسيس"، أى المعرفة أو حب المعرفة (gnosis)، وتجمع تحت مظلتها فرقًا مختلفة تتباين فى بعض مبادئها، وتتفق فى بعضها الآخر... ومن المعروف عن مبادئ هذه الحركة الدينية: عندما انتشرت المسيحية أعجب بها كثير من الغنوسيين لسموها وأعجبوا بشخص المسيح وتعاليمه

واعتبروه هو كما لقبه يوحنا: "اللوغوس"، ولكن بطريقة خطإ، فان اللوغوس فى مفهومهم ليس الله بل أحد الأيونات الذى يخلص الأرواح الخيرة من محبسها فى الأجساد. وبدأ الغنوسيون يأخذون الكثير من المسيحية فقط مما يناسب فكرهم مع تغيير فى بعض المبادئ المسيحية، وهو لأنهم يعتقدون أن الجسد شر، وهو فقط محبس للروح، لهذا المسيح لم يأخذ جسد شر، ولكن كان جسدا هلاميا، وأيضا فكرة أن المصلوب هو شبه المسيح. وكما يبدو فقد تأثرت النظرة الإسلامية بهذه الحركة فى مفهومها لصلب المسيح. غير أن تعليم الشبيه فى الغنوسية كان يرمى إلى غرض يختلف عما يرمى إليه الدين الإسلامى. فالغنوسية، أو بعض فرقها على الأقل، رأت أن المسيح، وهو إله أو أيون متجسِّد، لا يمكن أن يتعرّض للصّلب لأن جسده يختلف عن أجساد البشر. لهذا يتعذر أن يكون المصلوب هو جسد المسيح. أما الإسلام الذى ينظر إلى المسيح فقط كنَبِىٍّ فلا ينكر عملية الصلب، ولكنه ينكر أن المصلوب كان المسيح، ليس على أساس طبيعة جسده، إنما على أساس أن المسيح لم يصلب إطلاقًا بل رُفِع إلى السماء بقدرة الله قبل أن يتمكن أعداؤه من القبض عليه، وأوقع الله شبهه على آخر، فحلّ محله".

وفى موقع "معرفة" وتحت عنوان "نقاش: صلب المسيح" بقلم أحد النصارى يقول: "تنبئنا المصادر التاريخية أن أسطورة الشبه هذه كما أشار إليها القرآن لم تكن أمرًا مستحدثًا، بل سبق لهراطقة المسيحية فى القرون الستة الأولى الميلادية أن نادَوْا بمثل هذه البدعة. فهذه فرقة البازيليديسيين الغنوسية تدّعى أن سمعان القيروانى، الذى حمل الصليب عن المسيح عندما أَعْيَا، رَضِى أن يُصْلَب عوضًا عن المسيح، فألقى الله عليه شَبَهَه، فصارت هيئته مثل هيئة المسيح وتمَّ صلبه. وكذلك قال الدوكيتيون إن المسيح لم

يُصْلَب مطلقًا. إنما بدا أو تراءى لليهود أنهم صلبوه. والواقع أن اسم الدوكيتيين مشتق من فعل يونانى معناه "يظهر" أو "يتراءى"، وهو رمز لمجمل عقيدتهم فى الصلب. ولم تندثر بدعة عدم صلب المسيح فى سياق تاريخ الكنيسة بل ظلت تطل برأسها بين الفينة والفينة بين الأوساط المسيحية على أيدى أفراد أو جماعات متفرقة من دعاة المعرفة. ففى سنة ١٨٥م ادّعت طائفة هرطوقية من نسل كهنة طيبة الذين اعتنقوا المسيحية أنه "حاشا للمسيح أن يُصْلَب، بل رُفِع إلى السماء سالمًا". وفى سنة ٣٧٠م ظهرت إحدى الفرق الغنوسية الهرموسية التى أنكرت صلب المسيح وقالت: "إنه لم يُصْلَب بل شُبِّه للناظرين أنهم صلبوه". وفى سنة ٥٢٠م فرّ ساويرس أسقف سوريا إلى الإسكندرية فوجد فيها فئة من الفلاسفة يعلّمون أن المسيح لم يُصْلَب بل شُبِّه للناس أنهم صلبوه. وفى سنة ٥٦٠م أنكر الراهب تيودورس طبيعة المسيح البشرية، وبالتالى أنكر صلبه. وفى سنة ٦١٠م شرع الأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص ينادى مدعيًا بأن المسيح لم يصلب بل شُبِّه للناظرين أنهم صلبوه. ومن جملة الذين نادَوْا بنظرية الشبيه أيضًا مانى المتنبّئ الفارسى (٢٧م)، فقد ادّعى أن يسوع هو ابن أرملة، وأن الذى صُلِب هو ابن أرملة نايين الذى كان المسيح قد أقامه من بين الأموات. ونقرأ فى تقليدٍ مَانَوِى آخرَ أن الشيطان، الذى سعى فى صلب المسيح، وقع فى حفرة مؤامرته وصُلِب مكانه.

يتضح من هذا العرض التاريخى الموجز أن بدعتى الشبه وإنكار صلب المسيح قد أخذهما الإسلام عن الهرطقات المسيحية، ولا سيما أن هذه الهرطقات كانت شائعة فى عصر ظهور الإسلام، وفى شبه الجزيرة العربية بالذات، بين الفرق الغنوسية التى لم تُقِم حجتها على الوقائع التاريخية أو المستندات الرسمية، بل كانت وليدة تصورات شخصية تدور فى جوهرها حول طبيعة جسد المسيح. بل إننا نجد أن مجمع القسطنطينية الذى

انعقد فى سنة ٣٨١م قد أرسل المطران غريغورى النيقى لزيارة الكنائس فى العربية والقدس التى انفجرت فيها النزاعات وهددتها الانقسامات".

وفى مجلة "المنار" عدد المحرم ١٣٢١هـ- مايو ١٩٠٣م، وتحت عنوان "دعوى صلب المسيح"، يتحدث محمد رشيد رضا عن محاورة حول صلب المسيح ورد ذكرها فى الجريدة البروتستانية مقتبسا بعضا مما ذكرته تلك الجريدة، وهذا نصه: "اعلم، أيها القارئ العزيز، أن عبارة القرآن: "وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ" (النساء/ ١٥٧) منقولة عن بقايا فرقة صغيرة من النصارى قد مَرَقَتْ عن الحق يقال لها: الدوسيتيين، الذين اعتقدوا بلاهوت المسيح تمامًا كما تعتقد النصارى اليوم ومن البدء، ولكنهم أنكروا ناسوته وزعموا أن الجسد الذى ظهر به المسيح إنما كان صورة فقط لا حقيقة له أشبه بالظل والخيال، وأوَّلُوا الآيات الإنجيلية التى تثبت كون جسده كسائر الأجساد ما عدا الخطيَّة فقالوا عن نموه فى القامة: ما كان ينمو ولكن شُبِّه لهم، وعن تناوله الطعام قالوا: ما كان يأكل ولا يشرب ولكن شبه لهم، وعن نومه وسائر أعماله الجسدية المشار إليها فى الإنجيل قالوا: لم تكن حقيقية بل شبهت لهم، وعن صلبه وموته قالوا: "ما صلبوه وما قتلوه ولكن شبه لهم". فمحمد، إذ سمع مقالتهم بصلب المسيح صورة دون الحقيقة ولم يكن يعلم المبدأ الذى ترتب عليه هذا القول، بادر بالمصادقة عليه رغبة فى تنزيه المسيح عن الموت المهين ونكاية فى اليهود. والدليل على ذلك أن مقالة التشبيه هذه لا يمكن أن تخطر مباشرة على بال عاقل ما لم يكن لها مبدأ كالذى ذكرناه".

وجاء فى إنجيل بطرس على لسان بطرس: "رأيته يبدو كأنهم يمسكون به، وقلت: ما هذا الذى أراه يا سيد؟ هل هو أنت حقًا من يأخذون؟ أم أنهم يدقون قَدَمَىْ ويَدَىْ شخصٍ آخر؟ قال لى المخلص: من يُدْخِلون المسامير فى يديه وقدميه هو البديل، فهم

يضعون الذى بقى فى شَبَهه فى العار! انظر إلىَّ، وانظر إليه". وفى كتاب "سيت الأكبر"، وهو من مخطوطات نجع حمادى، نقرأ على لسان المسيح: "كان شخص آخر هو الذى شرب المرارة والخل، لم أكن أنا. كان آخَرُ هو الذى حمل الصليب فوق كتفيه. كان آخَرُ هو الذى وضعوا تاج الشوك على رأسه، وكنت أنا مبتهجًا فى العُلَا أضحك لجهلهم". أما إنجيل برنابا فيذكر أن يهوذا جاء مع الجند ليدلهم على مكان المسيح مقابل ثلاثين من الفضة، وأن التلاميذ كانوا نيامًا، وأنهم هربوا لما استيقظوا ورَأَوُا الجند، وأن يهوذا قد أُخِذ إلى رئيس الكهنة، الذى سأله إن كان هو المسيح، وعرضه على الوالى الذى كان يريد إطلاق سراحه لقناعته ببراءة المقبوض عليه، لكن الجموع رفضت ذلك، وأن الملائكة أخرجت المسيح سالمًا وصعدت به إلى السماء، وأنه عاد بعد ذلك واجتمع بتلاميذه، وأخبرهم بحقيقة ما حصل، وبأنه نجا وأن الذى صُلِب ودُفِن هو يهوذا الأسخريوطى.

وهناك كثير من الفِرَق المسيحية التى تُنكِر حدوث واقعة صلب المسيح. ومِن تلك الفِرق الباسيليديون، والكورنثيون، والكاربوكرايتيون، والساطرينوسية، والماركيونية، والبارديسيانية، والسيرنثيون، والبارسكاليونية، والبولسية، والماينسية، والتايتانيسيون، والدوسيتية، والمارسيونية، والفلنطانيائية، والهرمسيون. ومن أهم الفِرق المنكِرة لصلب المسيح الباسيليديون، الذين نقل عنهم كل من سيوس والمفسِّر جورج سايل القول بنجاة المسيح وأنَّ المصلوب هو سمعان القيروانى، وسماه بعضهم: سيمون السيرناى. وثمة فِرَقٌ نصرانية أخرى قالت بأنَّ المسيح (ع) نجا من الصلب وأنه رفع إلى السماء، ومنهم الروسيتية والمرسيونية والفلنطنيائية. وقد استمر إنكار

صلب المسيح لاحقًا أيضًا، فكان مِن المنكِرين الراهب تيودورس (٥٦٠م)، والأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص (٦١٠م)، وغيرهم".

ومن هذا كله يتبين أن ما قاله الرصافى فى موضوع الصلب فى القرآن من أن محمدا هو أول من أنكر الصلب هو جهل أو كذب لا مُشَاحَّة فى ذلك. وطبعا لا يمكن أن يكون الرسول عليه السلام قد أخذ إنكار الصلب عن هذه الفرقة أو ذلك الإنجيل، فإنه لم يكن يعرف شيئا عن أى إنجيل أو أية فرقة نصرانية. ولو كان هناك دليل على هذا أو ذاك فليزودنا به زاعم ذلك الزعم كما قلنا وتحدينا مرارا.

ثم ينتقل الرصافى إلى قصة العبد الصالح وموسى (ص٦٩٥- ٦٩٦)، فيسخر من أن العبد الصالح، حين خرق السفينة التى ركبا فيها فى أول طريقهما، برر ذلك بأن وراءهم ملكا يأخذ كل سفينة غصبا، ومن ثم أراد أن يعيب السفينة حتى لا يصادرها الملك لحسابه ويحرم أصحابها المساكين الرزق الذى تدره عليهم. وسر سخره هو أن الخرق الذى أحدثه العبد الصالح فى السفينة، والذى لا بد أن يكون فى موضع من أحد جانبيها أعلى من سطح الماء لا فى قعرها وإلا لغرقت فى الحال، هذا الخرق لن يمنع الملك من مصادرتها، ومعنى ذلك أن مغزى القصة الذى يكمن فى أننا لو اطلعنا على الغيب لاخترنا الواقع مغزًى لا معنى له. وفات هذا الأحمق أن الملك لا يتنزل إلى مستوى السفن التى امتدت إليها يد الخراب والتشويه. وهذا مفهوم من المنطق بالضرورة، لكن الأحمق الذى بدأ كتابه بالثناء العظيم على النبى الكريم ما ترك فرصة إلا وحول دفة تهكماته وسخرياته نحو محمد ونحو القرآن، الذى يزعم أنه من تأليف محمد لا من عند الله. ومن عجب بعد هذا كله أن يقول الرصافى شيئا مختلفا فى نفس الموضوع بعد عدة صفحات (ص٧١١)، وذلك حين علق على ما يقال من أن هناك

قراءة قرآنية للآية تقول: "وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا"، إذ كتب "وبهذه الزيادة إصلاح لمعنى الآية، فبها يستقيم المعنى، وإلا لم يبق معنى لخرق السفينة إذا كان الملك يأخذ كل سفينة غصبا". أى أنه لحس ما قاله فى اعتراضه على خرق العبد الصالح للسفينة من أن الملك سوف يأخذها حتى بعد خرقها. وواضح أن المهم لديه هو مسارعته إلى اعتناق كل ما يسىء إلى القرآن ويشكك فيه.

ومن قصة السفينة وأصحابها المساكين إلى قصة الغلام الذى قتله العبد الصالح (ص٦٩٦). وقد أثارت القصة عجبى فى بدايات تسعينات القرن الماضى حين كنت أقرأ سورة "الكهف" ذات ليلة فى مدينة الطائف، فكأنى أرى القصة لأول مرة، فاستغربت وتساءلت: إن هذه القصة، لو فهمنا أن العبد الصالح رجل من البشر، يمكن أن تفتح الباب أمام كل مجرم يريد أن يقتل إنسانا فيتحجج بأن العبد الصالح قتل غلاما ليجنب أبويه ما سوف يكبدهما من شقاء حين يكبر، وأنه هو قد سار على نهج العبد الصالح وقتل من قتل لإراحة أبويه أو الناس بوجه عام من شره، وبالتالى ليس عليه من حرج ولا معنى لعقابه. وبرق فى ذهنى خاطر هو: ألا يمكن أن يكون العبد الصالح هو ملك الموت مثلا؟ وفى اليوم التالى خطر لى أن أراجع تفسير المودوى المترجم إلى الإنجليزية، وكان موجودا فى مكتبة كلية التربية، التى أعمل بها هناك، فألفيت العالم الكبير يقول أيضا بأن العبد الصالح ملاك، لكنه تناول الموضوع تناولا مفصلا وأجاب على كل الاعتراضات التى يمكن أن يثيرها من لا يقبل هذا التفسير. والعجيب أنه تساءل نفس التساؤل الذى خطر ببالى.

وبالمناسبة فالقرآن لم يقل إن العبد الصالح هو الخضر، ومن ثم لا مانع أن يكون "العبد الصالح" ملكا من الملائكة. وكثيرا ما يتساءل الواحد منا عن الحكمة فى أن يفرم

القطار طفلا فى أُولَيَات حياته فيحطم قلب أبويه، ولو كُشِف عنا حجاب المستقبل ورأينا بأعيننا أن ذلك الطفل حين يكبر سوف يحيل حياة أبويه جحيما لا يطاق وسوف يرتكب من الجرائم ما يوصله لحبل المشنقة مثلا. فأراد الله سبحانه أن يفهمنا نحن أصحاب البلوى أنه ينبغى لنا الصبر فى مثل تلك الحال، لأننا إن علمنا ما سوف يحدث لو لم تقع هذه الفاجعة لما بَخَعْنا أنفسنا حزنًا جَرَّاءها. لكن الرصافى يمضى ساخرا فيقترح أن يقتل الله الأبناء الفلانيين والآباء العلانيين (لناسٍ سَمَّاهم) خشية أن يصير الابن ابتلاء على الأب لا يطاق، والعكس بالعكس، متجاهلا أن القصة التى حكاها القرآن إنما هى مجرد مثل نتعزى به وليس المقصود أن نذهب فنطبقها على كل غلام أو أب يقابلنا فى الحياة. والواقع أن ما يقترحه الرصافى ساخرا ليس إلا دليلا على حماقته.

وبعد قصة العبد الصالح، الذى يطلق عليه الرصافى: "الخضر" طبقا لما هو شائع رغم أن القرآن لم يُسَمِّه، وهو ما أحب أن ألتزم به، بعد قصة ذلك العبد الصالح تأتى قصة ذى القرنين، الذى يسميه الرصافى دون تردد: "الإسكندر" رغم أن القرآن لم يأت بسيرة الإسكندر من قريب أو من بعيد. وهو يعترض على إيراد القرآن للقصة تحت حجة أن الإسكندر كان أبعد ما يكون عن الصورة النقية التى قدم القرآن ذا القرنين بها إلينا، إذ كان غازيا عاتيا ليست له غايات نبيلة ولا تصرفات رحيمة إزاء الشعوب التى غزا بلادها وفتحها كالتى كان يتصرفها ذو القرنين، بل كان جبارا مدمرا على شاكلة التتار (ص٦٩٦– ٦٩٨).

والمعنى وراء هذا الاعتراض هو تخطئة القرآن، إذ كيف يصور القرآن الإسكندر المقدونى مصلحا كريما وفاتحا رحيما يعمل على مصلحة العباد الذين يفتح بلادهم فى حين أن الإسكندر كان على العكس من ذلك تماما؟ أى أن الرصافى قد فرض أن

الإسكندر هو ذو القرنين، ثم انقلب يخطِّئ القرآن بناء على هذا الافتراض الذى لا علاقة له بالقرآن. فهو يخلق المشكلة ثم يحلها على حساب سمعة القرآن. وليس فى القرآن ولا فى الحديث أن ذا القرنين هو الإسكندر، فلم يكن لكاتبنا اللوذعى الهمام الحق فى القول بأنه الفاتح المقدونى بل كان عليه الالتزام بأنه ذو القرنين ليس إلا. وعلى هذا فليس لما قاله فى الاعتراض على القرآن محل من الإعراب.

وبعد هذا تأتى حكاية الشمس التى وجدها ذو القرنين تغرب فى عينٍ حَمِئَةٍ. ونقل الرصافى النص التالى من "كشاف" الزمخشرى: "كان ابن عباس عند معاوية، فقرأ معاوية: "حامية"، فقال ابن عباس: "حَمِئَة". فقال معاوية لعبد الله بن عمرو: كيف تقرأ؟ قال: كما يقرأ أمير المؤمنين. ثم وجه إلى كعب الأحبار: كيف تجد الشمس تغرب؟ قال: فى ماء وطين. كذلك نجده فى التوراة. وروى: "فى ثأط"، فوافق قول ابن عباس، وكان ثمة رجل، فأنشد قول تبع:

فرأى مغيب الشّمس عند مآبها فى عين ذى خلب وثاط حرمد

أى فى عين ماء ذى طين وحمإ أسود". ثم عقب الرصافى قائلا: "فإنْ صَدَقَ كعب الأحبار، وما أظنه صادقا، فى قوله: "كذلك نجده فى التوراة" فغروب الشمس فى عين حمئة خرافة توراتية. وكعب الأحبار هذا يهودى أسلم كإسلام عبد الله بن سلام وغيره ممن أسلم من اليهود الذين لم يسلموا إلا لكيد المسلمين وإضلالهم بمثل هذه الخرافات المذكورة فى كتب التفسير وأحاديث القصاص، وهى مما دسه هؤلاء على المسلمين فى أقوالهم"، ثم مضى فذكر ما يُتَّهم به ابن سبإٍ اليهودى من إثارة الفتنة التى قتل فيها عثمان وأنه أول من سب أبا بكر وعمر واتهمهما بالعدوان على حق على رضى الله عن الجميع، وأَلَّه ختن النبى عليه السلام... إلخ (ص٦٩٨- ٧٠٠). والمهم فى هذا كله رَمْى

الرصافى القرآنَ بأنه يردد الخرافات، ثم سواء بعد ذلك أن تكون تلك القصة المقول بأنها خرافة موجودة فى التوراة أو لا، فقد أورد القرآن الخرافات زاعما أنها حقائق حسب كلام الرصافى. هذا هو مغزى كل ذلك اللف والدوران الذى قام به الكاتب المداور. وهذه القصة هى مما يشغب بها النصارى على القرآن الكريم ويَقْرِفونه بسببها بأنه كتاب خرافات.

والآية محل النقاس الحالى هى قوله تعالى: "حَتَّى إِذَا بَلَغَ (أى ذو القرنين) مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا...". ومن المعروف فى كتب اللغة أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، بمعنى أن هناك توسعا فى استعمالها، بل إن فى اللغة توسعات كثيرة فى غير حروف الجر أيضا، وإن لم تكن هذه التوسعات دون ضوابط حتى لو لم نستطع فى بعض الأحيان أن نتنبه لها، أو على الأقل حتى لو لم نتفق عليها. وقد تُسَمَّى هذه التوسعات بـ"المجاز"، وهو ما يعنى أن الكلام لا ينبغى أن يؤخذ على ظاهره أو حرفيته. وهذا معروف عند دارسى اللغات. ولْنأخذ حرف الجرّ: "فى" (الموجود فى الآية) لنرى ماذا يقول النحاة فى استعمالاته: فهم يقولون إنه يُسْتَخْدَم فى عشرة معانٍ: الأول الظرفية زمانًا أو مكانًا، حقيقةً أو مجازًا، ومن الزمانية: "حضرتُ إلى الاجتماع فى العاشرة مساء"، ومن المكانية: "سكنتُ فى هذا البيت أعواما طوالا". الثانى المصاحبة، نحو قوله تعالى: "ادخلوا فى أُمَمٍ"، أى بمصاحبتها (الأعراف/ ٣٨). الثالث التعليل، نحو: "فذَلِكُم الذى لُمْتُنَّنِى فيه"، أى بسببه (يوسف/ ٣٢). الرابع الاستعلاء، نحو قوله تعالى: "ولأُصَلِّبَنَّكم فى جذوع النخل"، أى عليها (طه/ ٧١). الخامس مرادفة الباء، نحو: "فلان بصير فى الموضوع الفلانى"، أى بصير به. السادس مرادفة "إلى"، نحو قوله تعالى: "فرَدّوا أيديهم فى أفواههم"، أى مَدَّ الكفار أيديهم إلى

أفواه الرسل ليمنعوهم من الدعوة إلى الهدى والنور (إبراهيم/ ٩). السابع مرادفة "مِنْ". الثامن المقايسة، وهى الداخلة بين مفضولٍ سابقٍ وفاضلٍ لاحقٍ، كما فى قوله سبحانه: "فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل"، أى أن متاع الحياة الدنيا بالقياس إلى الآخرة قليل (التوبة/ ٣٨). التاسع التعويض، كما فى قولنا: "دفعتُ فى هذا الكتاب عشرين جنيها". العاشر التوكيد، وأجازه بعضهم فى قوله تعالى: "وقال: اركبوا فيها"، أى أن الركوب لا يكون إلا فى السفينة، ولذلك لا ضرورة للنص على ذلك إلا من باب التوكيد (انظر فى ذلك مثلا "مغنى اللبيب" لابن هشام).

وفى القرآن الكريم نقرأ قوله عز وجل: "يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموت" (البقرة/ ١٩)، والمقصود أن كلا منهم يضع طرف إصبع واحدة من أصابعه عند فتحة الأذن، لا فى داخلها. ونقرأ: "وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة" (البقرة/ ٣٠)، وطبعا لم يجعل المولى الإنسان خليفة فى الأرض، أى فى باطنها، بل على سطحها. ونقرأ: "وأُشْرِبوا فى قلوبهم العِجْل بكفرهم" (البقرة/ ٩٣)، وليس المقصود العجل نفسه بل عبادته، وهى لا تُشْرَب ولا تدخل فى القلب بالمعنى الذى نعرفه. ونقرأ: "قل: أتحاجّوننا فى الله، وهو ربنا وربكم؟" (البقرة/ ١٣٩)، أى أتحاجّوننا بشأن الله؟ ونقرأ: "قد نرى تقلُّب وجهك فى السماء، فلنولينَّك قِبْلَةً ترضاها" (البقرة/ ١٤٤)، أى صوب نواحى السماء، وليس فى السماء فعلا. ونقرأ: "ليس البِرَّ أن تُوَلُّوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب، ولكن البِرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حُبّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب" (البقرة/ ١٧٧)، والإنسان لا ينفق ماله فى الرقاب، بل يعتق به الرقاب. ونقرأ: "يا أيها الذين آمنوا، كُتِب عليكم القِصَاص فى القتلى" (البقرة/ ١٧٨)،

أى مقابل جريمة القتل وتعويضا لأهل القتيل. ونقرأ: "وإذا تولَّى سَعَى فى الأرض ليُفْسِد فيها" (البقرة/ ٢٠٥)، أى فوق سطحها. ونقرأ:"هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظُلَلٍ من الغمام والملائكةُ وقُضِى الأمر؟" (البقرة/ ٢١٧)، أى يقع بهم عقاب الله فى هيئة ظلل من الغمام. ونقرأ: "والذين يُتَوَفَّوْن منكم ويَذَرُون أزواجا وصيةً لأزواجهم متاعًا إلى الحَوْل غيرَ إخراج. فإن خَرَجْنَ فلا جُنَاحَ عليكم فى ما فعلن فى أنفسهن من معروف" (البقرة/ ٢٣٤)، أى فعلن بأنفسهن. ونقرأ: "وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظةً وتفصيلًا لكل شىء" (الأعراف/ ١٤٥)، أى على الألواح. ونقرأ: "وإذ يُرِيكُمُوهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقلِّلكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا" (الأنفال/ ٤٤)، أى أمام أعينكم وأعينهم. ونقرأ: "يا أيها النبى، قل لمن فى أيديكم من الأسرى..." (الأنفال/ ٧٠)، ولا يمكن إنسانا أن يكون فى يد إنسان آخر بالمعنى الحرفى كما هو واضح. ونقرأ: "الذين كانت أعينهم فى غطاءٍ عن ذِكْرِى" (الكهف/ ١٠١)، والعيون لا تكون فى الغطاء، بل تحت الغطاء. ونقرأ: "وأَذِّنْ فى الناس بالحج يأتوك رجالا" (الحج/ ٢٧)، أى أذِّن بحيث يسمعك الناس. ونقرأ: "... وتقلُّبَك فى الساجدين" (الشعراء/ ٢١٩)، أى معهم. ونقرأ: "فإذا أُوذِى فى الله جَعَل فتنةَ الناس كعذاب الله" (العنكبوت/ ١٠)، أى أُوذِىَ بسبب إيمانه بالله. ونقرأ: "لقد كان لسبإٍ فى مسكنهم آيةٌ: جنتان عن يمينٍ وشِمال" (سبأ/ ١٥)، والجنتان لم تكونا فى مسكن سبإ، بل حول مساكنهم أو قريبا منها. ونقرأ: "أَوَمَنْ يُنَشَّا فى الحِلْيَة وهو فى الخصام غير مُبِين؟" (الزخرف/ ١٨)، والنساء لا ينشأن فى الحلية بل مرتديات لها ومستمتعات بها. ونقرأ: "إن المتقين فى جنّات ونَهَر" (القمر/ ٩٤)، والمتقون فى الآخرة سيكونون فعلا فى الجِنَان، لكنهم بكل تأكيد لن يكونوا فى الأنهار، بل ستجرى الأنهار فى الجِنَان. ونقرأ:

"فى سِدْرٍ مخضود" (الواقعة/ ٢٨)، وهم لن يكونوا فى الجنة فى شجر السِّدْر، بل سيأكلون منه. ونقرأ: "أولئك كَتَب فى قلوبهم الإيمان" (المجادلة/ ٢٢)، ولا كتابة فى القلوب بالمعنى الظاهرى بطبيعة الحال ولا حتى فوقها. ونقرأ: "ثُمَّ فى سلسلةٍ ذَرْعُها سبعون ذراعا فاسلكوه" (الحاقة/ ٣٢)، أى اربطوه بها. ونقرأ: "فى جِيدها حبلٌ من مَسَد" (المسد/ ٥)، أى حَوْل جيدها... وهكذا.

وفى الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى أمثلة كثيرة على ما نقول، وهو أمر طبيعى، فهذه هى طبيعة اللغة، سواء فى كتاب الله أو فى كلام أهل الكتاب أو فى أى كلام آخر. وهذه بعض الأمثلة من الكتاب المذكور: "كل شجر البرية لم يكن بعد فى الارض" (تكوين/ ٢/ ٥)، "وكان قايين عاملا فى الأرض" (تكوين/ ٤/ ٢)، "وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب" (تكوين/ ٦/ ٨)، "كان نوح رجلا بارا كاملا فى أجياله" (تكوين/ ٦/ ٩)، "تُنْجِح طريقى الذى أنا سالك فيه" (تكوين/ ٢٤/ ٤٢)، "فوضعت الخزامة فى أنفها" (تكوين/ ٢٤/ ٤٧)، "فأحب إسحق عيسو لأن فى فمه صيدا" (تكوين/ ٢٥/ ٢٨)، "فتعاظم الرجل وكان يتزايد فى التعاظم" (تكوين/ ٢٦/ ١٣)، "فالآن يا ابنى اسمع لقولى فى ما أنا آمرك به" (تكوين/ ٢٧/ ٨)، "ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض" (تكوين/ ٢٨/ ١٤)، "وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله فى يد يوسف وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب فى عنقه" (تكوين/ ٤١/ ٤٢)، "فتقدموا إلى الرجل الذى على بيت يوسف وكلموه فى باب البيت" (تكوين/ ٤٣/ ١٩)، "أليس هذا هو الذى يشرب سيدى فيه؟" (تكوين/ ٤٤/ ٥)، "وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم فى العجلات التى أرسل فرعون لحمله" (تكوين/ ٤٦/ ٥)، "ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبِن وفى كل عمل فى

الحقل" (خروج/ ١/ ١٤)، "خرج إلى إخوته لينظر فى أثقالهم" (خروج/ ٢/ ١١)، "ما بالُكنّ أسرعتُنّ فى المجيء اليوم؟" (خروج/ ٢/ ١٨)، "وقال الرب لموسى: عندما تذهب لترجع إلى مصر انظر جميع العجائب التى جعلتها فى يدك واصنعها قدام فرعون" (خروج/ ٤/ ٢١)، "فذهب والتقاه فى جبل الله وقبّله" (خروج/ ٤/ ٢٧)، "هما اللذان كَلّما فرعون ملك مصر فى إخراج بنى إسرائيل من مصر" (خروج/ ٦/ ٢٧)، " الدمامل كانت فى العرّافين وفى كل المصريين" (خروج/ ٩/ ١١)، "تخبر فى مسامع ابنك وابن ابنك بما فعلتُه فى مصر وبآياتى التى صنعتها بينهم" (خروج/ ١٠/ ٢)... إلخ، وهى بالمئات، إن لم تكن بالألوف.

ومن هنا كان من السهل أن ندرك معنى قول القرطبى مثلا فى الآية المذكورة: "وَيَجُوز أَنْ تَكُون الشَّمْس تَغِيب وَرَاءَهَا (أى وراء العَيْن الحَمِئَة) أَوْ مَعَهَا أَوْ عِنْدهَا، فَيُقَام حَرْف الصِّفَة مَقَام صَاحِبه". يقصد أن حروف الجر يمكن أن ينوب بعضها عن بعض، بمعنى أن يُسْتَعْمَل بعضها فى مكان بعضها الآخر. وفى نفس المجرى يجرى ما نجده عند البغوى وأبى حيان، إذ نقرأ فى تفسير الأول نقلا عن القتيبى أنه بجوز أن يكون المعنى هو أنه كان "عند الشمس" أو "فى رأى العين" عينٌ حمئةٌ، أما الثانى فقد ذكر أن بعض البغداديين يفسر قوله تعالى: "فى عين حمئة" بمعنى "عند عين حمئة".

بل إن فى الكتاب المقدس عبارات كثيرة من نوع الآية القرآنية التى بين أيدينا بل أَوْغَل فى مضمار الاستخدامات المجازية، ويقرؤها هؤلاء الذين يرددون تخطئة القرآن كما تفعل الببغاوات الغبية، لكن دون فهم أو تمييز، ومن ثم لا يخطر فى بالهم أن يقفوا ويتدبروا ويفكروا فى أمر هذا التشابه فى الاستعمالات الأسلوبية وأنه مسألة عادية جدا لأنه هكذا كانت اللغة وهكذا ستظل إلى يوم يبعثون. وهم فى هذا كالكلب الذى ربّاه

صاحبه على نباح المارة وعضِّهم، فكلما رأى شخصا مارًّا من أمام البيت نبحه وعضه دون تفكير. لنأخذ مثلا الشواهد التالية: "أما هما فى عبر الأردن وراء طريق غروب الشمس فى أرض الكنعانيين..." (تثنية/ ١١/ ٣٠)، "هكذا يبيد جميع أعدائك يا رب. وأحباؤه كخروج الشمس فى جبروتها" (قضاة/ ٥/ ٣١)، "هكذا قال الرب: هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهنّ لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس" (صموئيل ٢/ ١٢/ ١١)، "وقلت لهما: لا تفتح أبواب أورشليم حتى تَحْمَى الشمس" (نحميا/ ٧/ ٣)، "قدام الشمس يمتد اسمه" (مزامير/ ٧٢/ ١٧)، "ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس" (الجامعة/ ٤/ ١)، "ويخجل القمر وتَخْزَى الشمس" (إشعيا/ ٢٤/ ٢٣)، "وأظلمت الشمس وانشقّ حجاب الهيكل من وسطه" (لوقا/ ٢٣/ ٤٤)، "إنك قد طردتنى اليوم عن وجه الأرض ومِنْ وجْهك أختفِى وأكون تائها وهاربا فى الأرض. فيكون كل من وجدنى يقتلنى" (تكوين/ ٤/ ١٤)، "وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلما" (تكوين/ ٦/ ١١)، "الآن قم اخرج من هذه الأرض" (تكوين/ ٣١/ ١٣)، "وأدخلكم إلى الأرض التى رفعت يدى أن أعطيها لإبراهيم" (خروج/ ٦/ ٨)، "واستراحت الأرض من الحرب" (يشوع/ ١٤/ ١٥)، "دور يمضى ودور يجيء والأرض قائمة إلى الأبد" (جامعة/ ١/ ٤)، "فوجدها ملاكُ الرب على عين الماء فى البرية. على العين التى فى طريق شور" (تكوين/ ١٦/ ٧). ومن الواضح أن هذا كله على خلاف الواقع وينبغى ألا يأخذه القارئ مأخذا حرفيا، وإلا لم يكن للكلام معنى: فمثلا ليس هناك للشمس تحتٌ ولا فوقٌ، وإنما هو تعبير بشرى، فنحن أينما كنا على الأرض نتصور أن الشمس فوقنا، ومن ثم فنحن تحتها، على حين أنه لو كان الأمر

كذلك لكان ينبغى إذن أن نكون "فوق" الشمس بعد ستة أشهر من ذلك حين تدور الأرض نصف دورتها السنوية، وهذا لا يصير. كذلك ليس للشمس عين (ولا أذن ولا أنف) أصلا حتى نكون أوْ لا نكون فى عينها، كما أنها ليس لها طريق تسير فيه على الأرض، ودَعْك من أننا يمكن أن نسير نحن فيه أيضا. وبالنسبة لقول قابيل إنه هرب فى الأرض، فهو مجرد تعبير بشرى، وإلا فقولنا: "فى الأرض" إنما يعنى حرفيا: "داخل الأرض"، وهو ما لا يقصده قابيل ولا أى إنسان آخر فى مثل وضعه... وهكذا.

وقبل كل ذلك فإن الكلام هنا ليس كلاما فى علم الطبيعة أو الجغرافيا أو الجيولوجيا، بل هو كلام أدبى يقوم فى جانب منه على التعبيرات المجازية والتجسيدية والتشخيصية وما إلى ذلك. باختصار: هذه هى طبيعة اللغة. فالحرف: "فى" فى الآية الكريمة لا يعنى "داخل العين الحمئة" لأن الآيات القرآنية التى تذكر الشمس (كما سنوضح لاحقا) تتحدث عنها على أنها جِرْمٌ موجودٌ فى الفضاء لا يغادره أبدا، بل يعنى أنه قد تصادف وقوع غروب الشمس حين كان ذو القرنين فى ذلك المكان قريبا من العين الحمئة، وإنْ كان ما شاهده بعينه يوحى أنها قد غربت فى تلك العين. وحتى لو قيل إنها لم تغرب فى العين بل وراء العين أو عند العين أو ما إلى ذلك فإن هذا كله لا يصح من الناحية العلمية، فالشمس لا تبتعد ولا تختفى، بل الأرض هى التى تتحرك حولها، فتبدو الشمس وكأنها هى التى تغيب.

وقد عثرت أثناء تقليبى فى المشباك بمن يقول معترضا على الآية إن مثل هذا التوجيه كان يمكن أن يكون مقبولا لو أن الآية قالت إن ذا القرنين "رأى" أو "شاهد" الشمس تغرب فى العين، أمّا والآية تقول إنه "وجدها" تغرب فى عينٍ حمِئةٍ فمعنى هذا أن المقصود هو أنها كانت تغرب فى العين فعلا. وقد جعلنى هذا أفكر فى استعمال هذا

الفعل فى مثل ذلك السياق فى العربية لأرى أهو حقا لا يعنى إلا أن الأمر هو كذلك فى الواقع لا فى حسبان الشخص وإدراكه بغضّ النظر عما إذا كان هذا هو الواقع فعلا أو لا. وقد تبين لى أن الأمر ليس كما ذهب إليه ذلك المعترض الذى سمى نفسه: "جوتاما بوذا"، فنحن مثلا عندما يُسْأَل الواحد منا السؤال التالى عن صحته: "كيف تجدك اليوم؟" (أى "كيف حالك؟") يجيب قائلا: "أجدنى بخير وعافية"، وقد يكون هذا القائل مريضا لكنه لا يدرى لأن أعراض المرض ليست من الوضوح أو لأنه من الاندماج فى حياته اليومية بحيث لا يتنبه لحالته الصحية الحقيقية. وبالمثل يمكن أن يقول الواحد منا، صادقا فيما يظن، إنه وجد فلانا يضرب ابنه عند البيت، بينما الحقيقة أنه كان يداعبه أو كان يضرب ابن الجيران مثلا، لكن المتكلم توهم الأمر كما قال. كذلك فالمصاب بعمى الألوان قد يقول إنه وجد البطيخة التى اشتراها خضراء على عكس ما أكد له البائع، ثم يكون العيب فى الشارى لا فى البائع ولا فى البطيخة. أما المتنبى فى قوله:

ومـن يَـكُ ذا فـمٍ مُـرٍّ مـريضٍ   يجـدْ مُـرًّا بـه المـاءَ الـزُّلالا

فقد كفانا مؤنة التوضيح بأنّ وجْداننا الشىء على وضعٍ ما لا يعنى بالضرورة أنه على هذا الوضع فى الحقيقة والواقع. وفى القرآن مثلا: "فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقضّ فأقامه" (الكهف/ ٧٧)، وليس هناك فى أى مكان فى الدنيا جدار عنده إرادة: لا للانقضاض ولا للبقاء على وضعه الذى هو عليه، لأن الجدران من الجمادات لا من الكائنات الحية ذوات الإرادة. كذلك فعندنا أيضا قوله عز شأنه: "والذين كفروا أعمالُهم كسرابٍ بقِيعَةٍ يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفّاه حسابه" (النور/ ٣٩)، ولا يمكن القول أبدا بأن الآية على معناها الحرفى، فالله سبحانه

لا ينحصر وجوده فى مكان من الأمكنة، بل الكون كله مكانا وزمانا وكائنات فى قبضته عز وجل، ومن ثم لا يمكن أن ينحصر وجوده عند السراب، وهذا من البداهة بمكان لأنه سبحانه وتعالى هو المطلق الذى لا يحده حد.

والطريف أن بعض المفسرين الذين رجعت إليهم بعد ذلك قد وجدتهم يقولون إنه لو كانت الآية قالت إن الشمس "كانت تغرب" فى العين فعلا لكان ثم سبيل لانتقادها، أما قولها إن ذا القرنين "وجدها تغرب" فى العين فمعناه أن ذلك هو إدراكه للأمر لا حقيقته الخارجية. ومن هؤلاء البيضاوى، وهذه عبارته: "ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن فى مطمح بصره غير الماء، ولذلك قال: وجدها تغرب، ولم يقل: كانت تغرب"، وهذا الذى قاله أولئك المفسرون هو الصواب.

وفى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى شىء مثل ذلك، ومنه هذا الشاهدان: "وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب" (تكوين/ ٦/ ٨)، "فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية. على العين التى فى طريق شور" (تكوين/ ١٦/ ٧). فالنعمة لا توجد فى عين الرب على سبيل الحقيقة، فضلا عن أن الله لا يمكن أن يُرَى ولا أن تُرَى عينه (إن قلنا إن له سبحانه عينا لكنها ليست كأعيننا). كما أن المرأة التى وجدها ملاك الرب لم تكن "على" العين، بل "عند" العين. أى أن الحقيقة الخارجية فى كلا الشاهدين لم تكن على حَرْفِيّة ما جاء فى العبارتين.

وعلى هذا النحو يمكننا أن نقرأ الشواهد الشعرية التالية: قال الأسعر الجعفى:

إِنّــى وَجَــدْتُ الخَيْــلَ عِــزًّا ظــاهِرًا   تُنْجِـى مِـنَ الغُمَّـى وَيَكْـشِفنَ الـدُّجَى

وقال الحارث بن عباد:

وَامْتَرَتْـــهُ الجَنُـــوبُ حَتّـــى إِذا مـــا   وَجَـــدَتْ فَـــوْدَهُ عَلَيهـــا ثَقـــيلا

وقال امرؤ القيس:

أَلَم تَرَيانى كُلَّما جِئْتُ طارِقًا وَجَدْتُ بِها طيبًا وَإِنْ لَم تطَيَّبِ؟

وقال الدحداحة الفقيمية:

مِنْ مَعْشَرٍ وجدتهم لئاما

وقال حاتم الطائى:

إِذا أَوطَنَ القَومُ البُيوتَ وَجَدْتَهُم عُماةً عَنِ الأَخبارِ خُرْقَ المَكاسِبِ

وقال سلامة بن جندل:

فَإِن يَكُ محمودٌ أَباكَ فَإِنَّنا وَجَدْناكَ منسوبًا إِلى الخَيرِ أَرْوَعا

وقال النابغة الذبيانى:

متى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلى ضَوءِ نارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عِندَها خَيْرُ مُوقِدِ

وقال مالك بن عمرو:

متى تفخَرْ بزَرْعَةَ أو بحجْرٍ تجدْ فخرا يطيرُ به السناءُ

وقال الحصين بن الحمام الفزارى:

تَأَخَّرتُ أَستَبْقى الحَياةَ فَلَم أَجِدْ لِنَفْسِى حَياةً مِثلَ أَن أَتَقَدَّما

ذلك أن وِجْدانك الشىء على وضع من الأوضاع إنما يعنى إدراكك له على هذا الوضع رؤيةً أو سماعًا أو شمًّا أو لمسًا أو شعورًا باطنيًّا أو استدلالا عقليًّا كما فى العبارات التالية: "نظرتُ فوجدتُه قائما"، أو "حينما اقتربتُ من الحجرة وجدتُه يغنى"، أو "قرّبت الزهرة من أنفى فوجدتها مسكيّة العبير"، أو "احتكت يدى بالحائط فوجدته خشن الملمس"، أو "وجدتُ وقع إهانته لى عنيفا"، أو "أعاد العلماء النظر فى هيئة الأرض

فوجدوها أقرب إلى شكل الكرة"، ثم سواء عليك بعد هذا أكان هو فعلا فى الواقع والحقيقة كذلك أم لا.

وفى ضوء ما قلناه نقرأ قول الزبيدى صاحب "تاج العروس": "وقال المُصَنّف فى البصائرِ نقلًا عن أَبى القاسم الأَصبهانى: الوُجُودُ أَضْرُبٌ: وُجُودٌ بِإِحْدى الحَوَاسِّ الخَمْسِ نحو: وَجَدْتُ زَيْدًا وَوَجَدْتُ طَعْمَه ورائحتَه وصَوتَه وخُشُونَتَه، ووجُودٌ بِقُوَّةِ الشَّهْوَةِ نحو: وَجَدْتُ الشبع، ووجودٌ أَيَّده الغضب كوجود الحَرْبِ والسَّخَطِ، ووُجُودٌ بالعَقْل أَو بِوسَاطَة العَقْلِ كمَعْرِفَة الله تعالى ومَعْرِفَة النُّبُوَّةِ. وما نُسِب إلى الله تعالى مِن الوُجُود فبمَعْنَى العِلْمِ المُجَرَّدِ، إذ كان اللهُ تعالى مُنَزَّهًا عن الوَصْفِ بالجَوَارِحِ والآلاتِ نحو قولِه تعالى: "وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ"، وكذا المعدوم يقال على ضِدّ هذه الأَوْجُهِ. ويُعَبَّر عن التَمَكُّنِ من الشىء بالوُجُودِ نحو "فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ" أَى حَيْثُ رَأَيْتُمُوهُم، وقوله تعالى: "إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ"، وقوله: "وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ للشَّمْسِ" وقوله: "وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ"، ووجود بالبصيرة، وكذا قوله: "وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا" وقوله: "فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتيَمَّمُوا"، أَى إِن لم تَقْدِروا على الماءِ".

ولقد كفانا مؤنة المضىّ أبعد من ذلك (على كفايته فى حد ذاته) كاتبان ألّفا بحثا عثرت عليه فى المشباك بعنوان: "Islam and the Setting of the Sun: Examining the traditional Muslim View of the Sun's Orbit" يهاجمان فيه القرآن ويزعمان أن الرسول حين قال ما قال فى الآية التى نحن بإزائها هنا إنما كان يقصد فعلا أن الشمس تغرب فى عينٍ حمئةٍ على حرفية معناها، ومع هذا فقد بدءا كلامهما بالقول بما معناه أن تعبيرا مثل التعبير الذى فى الآية الكريمة لا يدل بالضرورة على أن

صاحبه قد اجترح خطأ علميا أو أنه يعتقد أن الشمس تغرب فعلا فى العين. ثم أضافا أننا، حتى فى عصرنا هذا حيث يعرف الجميع تمامًا أن الشمس فى الواقع لا تشرق ولا تغرب، ما زلنا نقول إنها تشرق وتغرب. والكاتبان هما: Sam Shamounn و Jochen Katz، وهذا نَصّ ما قالاه:

"we do need to make it clear that statements about the sun rising or setting do not, in and of themselves, prove that a person or author held to erroneous scientific views, or made a scientific error. One can legitimately argue that the person or author in question is using everyday speech, ordinary language, or what is called phenomenological language. From the vantage point of the person who is viewing the sun from the earth, the sun does indeed appear to be rising and setting. In fact, even today with all our advanced scientific knowledge we still refer to sunrise and sunset. Hence, an ancient book or writer may have not intended to convey actual scientific phenomena when describing the sun as rising or setting any more than today's meteorologists, or newscasters, are speaking scientifically when referring to the rising and setting of the sun".

وقد أخذتُ أنقّر فى النصوص الإنجليزية والفرنسية الموجودة فى المشباك حتى عثرتُ على طائفة من الشواهد النثرية والشعرية يتحدث فيها أصحابها لا على أن الشمس تشرق وتغرب فحسب، بل عن سقوطها أو غوصها أو غروبها فى البحر أو فى السهل أو ما إلى هذا. وإلى القارئ عينةً مما وجدته من تلك النصوص: " Alone stood I atop a little hill, And beheld the light-blue sea lying still, And saw the sun go down into the sea" (من قصيدة بعنوان "AN EPISTLE" لـ (Numaldasan)، "The sun sinks down into the sea" (من رواية "The Water-Babies" لـCharles Kingsley)، "The Sun came up upon the left, out of the sea came he! And he shone bright, and on the right Went down into the sea" (من قصيدة "The Rime of the Ancient Mariner" لكوليردج)، "The red sun going down into the sea at Scheveningen" (من

Letter from Theo van Gogh to Vincent Gogh van Auvers-sur-Oise, " The Light " (من مقال "The sun sank slowly into the sea ،30 June (1890" Just then the sun plunged into the sea" it ،(Rockyلـ "Of The Setting Sun popped out from behind the gray cloud screen that had obscured the (sun- فى موقع "Taps for three war buddies" (من مقال بعنوان "fiery dis L'ILE DES " (من "...le soleil descendre dans l'ocean ،herald.com" Le soleil, disparu dans la mer, avait " ،(لأناتول فرانس "PINGOUIN laissé le ciel tout rouge, et cette lueur saignait aussi sur les grandes Spectacle " ،(لجى دى موباسان "En Bretagne " (من "pierres, nos voisine "saisissant, que le soleil couchant dans ces dunes impressionnantes On comprend aussi " ،(Roger Vacheresseلـ "RAID EN LIBYE" (من مقال que la blessure de Réginald a quelque chose du Soleil plongeant dans le comte de لـ "LES CHANTS DE MALDOROR" (من "la me .(Lautréamont

هذا، ومن معانى "العين" فى العربية (فيما يهمنا هنا) حسبما جاء فى "لسان العرب": "عين الماء. والعين: التى يخرج منه الماء. والعين: ينبوع الماء الذى ينبع من الأرض ويجرى... ويقال: غارت عين الماء. وعين الركية: مَفْجَر مائها ومنبعها. وفى الحديث: "خير المال عينٌ ساهرةٌ لعينٍ نائمة"، أراد عين الماء التى تجرى ولا تنقطع ليلا ونهارا، وعين صاحبها نائمة، فجعل السهر مثلا لجريها... وعين القناة: مصب مائها... والعين من السحاب: ما أقبل من ناحية القبلة وعن يمينها، يعنى قبلة العراق... وفى الحديث: إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عينٌ غديقة... والعين: مطر أيام لا يُقْلِع، وقيل: هو المطر يدوم خمسة أيام أو ستة أو أكثر لا يُقْلِع، قال الراعى:

وأنـــآء حـــى تحـــت عـــينٍ مطـــيرةٍ عظـــام البيـــوت ينزلـــون الروابيـــا

... والعين: الناحية". وعلى هذا فعندما يقول "عبد الفادى" المبشر النصرانى مؤلف كتاب "هل القرآن معصوم؟" إن القرآن، بناء على ما جاء فى تفسير البيضاوى، يذكر أن الشمس تغرب فى بئرٍ، فإننا نعرف فى الحال أنه يتكلم بلسان الكذب والجهل: فأما الجهل فلأن المسألة، حسبما رأينا فى "لسان العرب"، أوسع من ذلك كثيرا بحيث تَصْدُق كلمة "العين" على البحر والسحاب والمطر أيضا. ولذلك وجدنا من المترجمين من يترجمها بمعنى "بحر" أو "بحيرة". وأما الكذب فلأن البيضاوى لم يقل هذا، بل قال: "حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عينٍ حمئةٍ: "ذات حمأ"، من "حَمِئَتِ البئر" إذا صارت ذات حمأة. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر: "حامية"، أى حارة، ولا تنافى بينهما لجواز أن تكون العين جامعة للوصفين، أو "حَمِيَة" على أن ياءها مقلوبة عن الهمزة لكسر ما قبلها. ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن فى مطمح بصره غير الماء. ولذلك قال: "وجدها تغرب"، ولم يقل: "كانت تغرب"...". فكما ترى ليس فى البيضاوى أنها غربت فى بئر، بل كل ما فعله المفسر الكبير أنه اتخذ من "البئر" مثالا لشرح كلمة "حمئة"، لكنه لم يقل قط إن معنى "العين" هو "البئر"، بل قال ما نصه: "لعل ذا القرنين قد بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك". وحتى لو قال ذلك فإن كلامه يبقى مجرد اجتهاد منه قد يصح أو لا يصح، ولا يجوز حمله على القرآن أبدا، وبخاصة أن كثيرا من المفسرين كذلك لم يفسروا العين بهذا المعنى. بيد أننا هنا بصدد جماعة من الطَّغَام البُلَداء الرُّقَعاء الذين كل همهم هو الشَّغْب بجهل ورعونة، إذ هم فى واقع الأمر وحقيقته لا يعرفون فى الموضوع الذى يتناولونه شيئا ذا بال، ومع هذا نراهم يتطاولون على القرآن الكريم! فيا للعجب! إن الواحد من هؤلاء الطَّغَام يتصور، وهو

يتناول الكلام فى كتاب الله، أنه بصدد كراسة تعبير لطفل فى المرحلة الابتدائية، بل إن معلوماته هو نفسه لا تزيد بحال عن معلومات طفل فى تلك المرحلة كما بينته للقراء الكرام فى كتابى: "عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين"، الذى فَنَّدْتُ فيه كلام هذا الجاهل!

وهأنذا أسوق أمام القارئ الكريم بعض ما جاء فى كتب التفسير القديمة: ففى القرطبى مثلا: "وَقَالَ الْقَفَّال: قَالَ بَعْض الْعُلَمَاء: لَيْسَ الْمُرَاد أَنَّهُ انْتَهَى إلى الشَّمْس مَغْرِبًا وَمَشْرِقًا ووَصَلَ إلى جِرْمهَا وَمَسَّهَا، لأَنَّهَا تَدُور مَعَ السَّمَاء حَوْل الأَرْض مِنْ غَيْر أَنْ تَلْتَصِق بِالأَرْضِ، وَهِى أَعْظَم مِنْ أَنْ تَدْخُل فِى عَيْن مِنْ عُيُون الأَرْض، بَلْ هِى أَكْبَر مِنْ الأَرْض أَضْعَافًا مُضَاعَفَة، بَلْ الْمُرَاد أَنَّهُ انْتَهَى إلى آخِر الْعِمَارَة مِنْ جِهَة الْمَغْرِب وَمِنْ جِهَة الْمَشْرِق، فَوَجَدَهَا فِى رَأْى الْعَيْن تَغْرُب فِى عَيْن حَمِئَة، كَمَا أَنَّا نُشَاهِدهَا فِى الأَرْض الْمَلْسَاء كَأَنَّهَا تَدْخُل فِى الأَرْض. وَلِهَذَا قَالَ: "وَجَدَهَا تَطْلُع عَلَى قَوْم لَمْ نَجْعَل لَهُمْ مِنْ دُونهَا سِتْرًا"، وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهَا تَطْلُع عَلَيْهِمْ بِأَنْ تُمَاسّهُمْ وَتُلاصِقهُمْ، بَلْ أَرَادَ أَنَّهُمْ أَوَّل مَنْ تَطْلُع عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الْقُتَبِى: وَيَجُوز أَنْ تَكُون هَذِهِ الْعَيْن مِنْ الْبَحْر، وَيَجُوز أَنْ تَكُون الشَّمْس تَغِيب وَرَاءَهَا أَوْ مَعَهَا أَوْ عِنْدهَا، فَيُقَام حَرْف الصِّفَة مَقَام صَاحِبه. وَاَللَّه أَعْلَم". وفى ابن كثير: "وَقَوْله: "حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِب الشَّمْس"، أَى فَسَلَكَ طَرِيقًا حَتَّى وَصَلَ إلى أَقْصَى مَا يُسْلَك فِيهِ مِنْ الأَرْض مِنْ نَاحِيَة الْمَغْرِب، وَهُوَ مَغْرِب الأَرْض. وَأَمَّا الْوُصُول إلى مَغْرِب الشَّمْس مِنْ السَّمَاء فَمُتَعَذِّر، وَمَا يَذْكُرهُ أَصْحَاب الْقَصَص وَالأَخْبَار مِنْ أَنَّهُ سَارَ فِى الأَرْض مُدَّة، وَالشَّمْس تَغْرُب مِنْ وَرَائِهِ، فَشىء لا حَقِيقَة لَهُ. وَأَكْثَر ذَلِكَ مِنْ خُرَافَات أَهْل الْكِتَاب وَاخْتِلاق زَنَادِقَتهمْ وَكَذِبهمْ. وَقَوْله: "وَجَدَهَا تَغْرُب فِى عَيْن حَمِئَة"، أَى رَأَى الشَّمْس فِى مَنْظَره تَغْرُب فِى الْبَحْر الْمُحِيط. وَهَذَا شَأْن كُلّ مَن انْتَهَى إلى

سَاحِله يَرَاهَا كَأَنَّهَا تَغْرُب فِيه، وَهِي لا تُفَارِق الْفَلَك الرَّابع الَّذِى هِى مُثْبَتَة فِيهِ لا تُفَارِقهُ". وفى الجلالين: "..."حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِب الشَّمْس": مَوْضِع غُرُوبهَا "وَجَدَهَا تَغْرُب فِي عَيْن حَمِئَة": ذَات حَمْأَة، وَهِي الطِّين الأَسْوَد. وَغُرُوبهَا فِي الْعَيْن: فِي رَأْى الْعَيْن، وَإِلاّ فَهِى أَعْظَم مِنْ الدُّنْيَا". وأرجو ألا يغيب عن ناظر القارئ الحصيف كيف أن ابن كثير يلقى باللوم فى أمر التفسيرات الخرافية فى الآية على زنادقة أهل الكتاب وكذابيهم، مما يدل على أن القوم هم هكذا من قديم لم تتغير شِنْشِنَتهم، وأن فريقا من علمائنا كانوا واعين بالدور الشرير الذى كانوا يضطلعون به لتضليل المسلمين بإسرائيلياتهم، وكانوا يعملون على فضح سخفهم ومؤامراتهم.

أما الرازى فإنى أود أن نقف معه قليلا لنرى كم يبلغ جهل عبد الفادى وتدليسه هو وأشباهه، إذ إن مفسرنا العظيم قد أشبع القول فى هذا الموضوع بما يكفى لقطع لسان كل كذاب. قال عليه رضوان الله: "حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذِّب وإما أن تتخذ فيهم حُسْنا * قال: أما من ظَلَم فسوف نعذبه ثم يُرَدّ إلى ربه فيعذبه عذابا نُكْرا * وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاءً الحُسْنَى وسنقول له من أمرنا يُسْرا * ثم أَتْبَعَ سببا": اعلم أن المعنى أنه أراد بلوغ المغرب فأتبع سببا يوصله إليه حتى بلغه. أما قوله: "وجدها تغرب فى عينٍ حَمِئَة" ففيه مباحث: الأول: قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم "فى عين حامية" بالألف من غير همزة، أى حارة... وهى قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عامر، والباقون: "حمئة"، وهى قراءة ابن عباس... واعلم أنه لا تنافى بين "الحمئة" و"الحامية"، فجائز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعا. البحث الثانى: أنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها، ولا شك أن الشمس فى الفلك، وأيضا قال: "ووجد

عندها قوما"، ومعلوم أن جلوس قوم فى قرب الشمس غير موجود، وأيضا الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة، فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون الأرض؟ إذا ثبت هذا فنقول: تأويل قوله: "تغرب فى عين حمئة" من وجوه. الأول أن ذا القرنين لما بلغ موضعها فى المغرب ولم يبق بعده شىء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب فى عينٍ وهدةٍ مظلمةٍ، وإن لم تكن كذلك فى الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب فى البحر إذا لم ير الشط، وهى فى الحقيقة تغيب وراء البحر. هذا هو التأويل الذى ذكره أبو على الجُبّائى فى تفسيره. الثانى أن للجانب الغربى من الأرض مساكن يحيط البحر بها، فالناظر إلى الشمس يتخيل كأنها تغيب فى تلك البحار. ولا شك أن البحار الغربية قوية السخونة فهى حامية، وهى أيضا حمئة لكثرة ما فيها من الحمأة السوداء والماء. فقوله: "تغرب فى عين حمئة" إشارة إلى أن الجانب الغربى من الأرض قد أحاط به البحر، وهو موضع شديد السخونة. الثالث: قال أهل الأخبار: إن الشمس تغيب فى عين كثيرة الماء والحمأة، وهذا فى غاية البعد، وذلك لأنا إذا رصدنا كسوفا قمريا فإذا اعتبرناه ورأينا أن المغربيين قالوا: "حصل هذا الكسوف فى أول الليل"، ورأينا المشرقيين قالوا: "حصل فى أول النهار"، فعلمنا أن أول الليل عند أهل المغرب هو أول النهار الثانى عند أهل المشرق، بل ذلك الوقت الذى هو أول الليل عندنا فهو وقت العصر فى بلد، ووقت الظهر فى بلد آخر، ووقت الضحوة فى بلد ثالث، ووقت طلوع الشمس فى بلد رابع، ونصف الليل فى بلد خامس. وإذا كانت هذه الأحوال معلومة بعد الاستقراء والاعتبار، وعلمنا أن الشمس طالعة ظاهرة فى كل هذه الأوقات كان الذى يقال إنها تغيب فى الطين والحمأة كلاما على خلاف اليقين. وكلام الله تعالى مبرًّأ عن هذه التهمة، فلم يبق إلا أن يُصَار إلى التأويل الذى ذكرناه. ثم قال تعالى: "ووجد

عندها قوما". الضمير فى قوله: "عندها" إلى ماذا يعود؟ فيه قولان: الأول: أنه عائد إلى الشمس، ويكون التأنيث للشمس لأن الإنسان لما تخيل أن الشمس تغرب هناك كان سكان هذا الموضع كأنهم سكنوا بالقرب من الشمس. والقول الثانى: أن يكون الضمير عائدا إلى العين الحامية، وعلى هذا القول فالتأويل ما ذكرناه".

ومع هذا كله يريد الكاتبان المذكوران آنفا (Sam Shamoun وJochen Katz) أن يعيدانا مرة أخرى إلى المربع رقم واحد، إذ يقولان إن مؤلف القرآن (يقصدان بالطبع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام) قد ذكر أن ذا القرنين وجد الشمس تغرب فى عين حمئة، ولم يقل إنها كانت تبدو له كذلك. وهذا رغم قولهما إننا لا نزال حتى الآن، ورغم كل التقدم العلمى والفلكى والجغرافى، نقول إن الشمس تشرق وتغرب، ولم يقولا إن على الواحد منا أن يوضح أن الأمر إنما يبدو فقط كذلك. فلماذا الكيل بمكيالين هنا؟ ترى أى خبث هذا الذى أتياه حين أرادا فى البداية أن يتظاهرا بالموضوعية والحياد والبراءة كى يخدّرا القارئ ويوهماه أنهما لا يريدان بالقرآن شرا ولا تدليسا، ثم سرعان ما يستديران بعد ذلك ويلعقان ما قالاه؟ وبالمناسبة فهذه هى نفسها الخطة التى جرى عليها معروف الرصافى فى كتابه الذى نحن بصدده.

ثم يمضيان فيقولان إن القرآن يؤكد أن ذا القرنين قد بلغ فعلا المكان الذى تغرب فيه الشمس، وهو ما لا وجود له على الأرض، مما لا معنى له البتة إلا أن مؤلف القرآن قد ارتكب خطأ علميا فاحشا بظنِّه أن القصة الخرافية التى وصلت إلى سمعه هى حقيقة تاريخية: "However, the Quran goes beyond what is possible in phenomenological language when it states that Zul-Qarnain reached the place where the sun sets, i.e. the Quran is speaking of a human being who traveled to the place of the setting of the sun. Such a statement is wrong in any kind of language, since such a place does not exist on this earth. This is a serious error that was introduced into

the Quran because the author mistook a legend to be literal and historical truth". أى أنهما يريان أن كلمة "مغرب الشمس" لا تعنى إلا مكان غروب الشمس، وأن معنى الكلام لا يمكن أن يكون إلا ما رأياه.

فلننظر إذن فى هذا الكلام لنرى نحن أيضا مبلغه من العلم أو الجهل: فأما أن "غروب الشمس" لا تعنى هنا إلا المكان الذى تغرب فيه الشمس فهو كلامٌ غبىٌّ كصاحبيه، إذ إن صيغة "مَفْعِل" (التى جاءت عليها كلمة "مَغْرِب") قد تعنى المكان، أو قد تعنى الزمان، أو قد تعنى المصدرية، وهو ما يجده القارئ فى كتب الصرف والنحو فى بابَىِ "اسم الزمان والمكان" و"المصدر الميمى". أى أن الآية قد يكون معناها أن ذا القرنين قد بلغ مكان غروب الشمس أو أن يكون قد بلغ زمان غروبها، إذ البلوغ كما يقع على المكان فإنه يقع على الزمان أيضا (فضلًا عن الأشياء والأشخاص). جاء فى مادة "بلغ" من "تاج العروس": "بَلَغَ المَكَانَ بُلُوغًا بالضَّمِّ: وَصَلَ إليْهِ وانْتَهَى، ومنْهُ قوْلُه تعالى: لَمْ تَكُونُوا بالغِيهِ إلا بشِقِّ الأنْفُسِ. أو بَلَغَه: شارَفَ عليْهِ، ومنه قولُه تعالى: فإذا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ. أى قارَبْنَهُ. وقالَ أبو القاسِمِ فى "المُفْرَداتِ": البُلُوغُ والإبْلاغُ: الانْتِهَاءُ إلى أقْصَى المَقْصِدِ والمُنْتَهَى مَكَانًا كان أو زَمانًا أو أمْرًا منَ الأمُورِ المُقَدَّرَةِ. ورُبَّمَا يُعَبَّرُ بِهِ عن المُشارَفَةِ عليهِ، وإن لم يُنْتَهَ إليْهِ. فمنَ الانْتِهَاءِ: "حتى إذا بَلَغَ أشُدَّهُ وبَلَغ أرْبَعِينَ سنَةً"، و"ما هُمْ ببالغِيه"، "فلما بَلَغَ مَعَهُ السَّعْى"، و"لَعَلِّى أبْلُغُ الأسْبابَ"، و"أيْمانٌ عَلَيْنَا بالِغَةٌ"، أى مُنْتَهِيَةٌ فى التَّوْكيدِ. وأمّا قَوْلُه: "فإذا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ فأمْسِكُوهُنَّ بمَعْرُوفٍ" فللمُشارَفَةِ، فإنّهَا إذا انْتَهَتْ إلى أقْصَى الأجَلِ لا يَصِحُّ للزَّوْجِ مُراجَعَتُهَا وإمْسَاكُها. وبَلَغَ الغُلامُ: أدْرَكَ وبَلَغَ فى الجَوْدَةِ مَبْلَغًا كما فى "العُبَابِ"، وفى "المُحْكَمِ": أى احْتَلَمَ، كأنَّهُ بَلَغَ وَقْتَ الكِتابِ عليْهِ والتَّكْليفِ، وكذلكَ: بَلَغَتِ الجارِيَةُ...".

فإذا كان بلوغ الزمان (أو حتى بلوغ الحدث، أى المصدر) هو المقصود فى الآية الكريمة فلا مشكلة، إذ سيقال حينئذ إن ذا القرنين حين أتى عليه وقت المغرب قد وجد كذا وكذا. لكن ماذا لو كان مكان غروب الشمس هو المراد؟ والجواب هو أن الكاتبين أنفسهما قد ذكرا ما معناه أنه لا غضاضة فى أن يقول المتكلم حتى فى عصرنا هذا إن الشمس قد غربت فى البحر أو فى السهل أو فيما وراء الجبل...إلخ. فهذا إذن هو مغرب الشمس طبقا لما تجيزه اللغة الظاهراتية (phenomenological language) حسب تعبيرهما، وعليه فإنه يجوز أيضا أن يقال إن فلانا أو علانا أو ترتانا قد بلغ مغرب الشمس، أى وصل إلى البحر أو الجبل أو السهل الذى رآها تغرب عنده. وعلى هذا أيضا فلا مشكلة! وأنا أحيلهما إلى ما سقتُه فى هذا المقال من تعبيرات مشابهة فى الكتاب المقدس، ومنها ما هو أبعد من الآية القرآنية فى انتجاع هذه الاستعمالات المجازية! وبالمناسبة فقد تكرر الفعل "بَلَغَ" فى صيغتى الماضى والمضارع هنا سبع مرات، وهو ما لم يتحقق لأية سورة أخرى غيرها. كما تعددت صيغة "مَفْعِل" فيها: "مسجِد، موعِد (مرتين)، مَوْبِق، مصرِف، مَوْئِل".

والعجيب أنهما يُورِدان بعد ذلك عددا من النصوص القرآنية المجيدة التى تتحدث عن لزوم الشمس والقمر مسارا سماويا دائما لا يخرجان عنه، وهو ما يعضد ما قلناه من أن الأمر فى قصة ذى القرنين إنما هو استعمالٌ مجازىٌّ أو وَصْفٌ لما كان يظنه ذلك الرجل فى نفسه بخصوص غروب الشمس لا لما وقع فعلا خارج ذاته لأن القرآن يؤكد وجود مسارات سماوية دائمة لهذين الجِرْمَيْن، بَيْدَ أنهما كعادتهما يحاولان عبثا لَىَ الآيات الكريمة عن معناها كى تدل على ما يريدان هما على سبيل القسر والتعنت! وعلى هذا فقولهما إنه إذا كان المفسرون المسلمون يشرحون الآية القرآنية بما يصرفها عن

معناها الحرفى فذلك لأنهم يعرفون أن الشمس أكبر من الأرض، ومن ثم يستحيل أن تسعها أى عين فيها، ولأنهم أيضا يؤمنون بعصمة القرآن مما يدفعهم من البداية إلى تأويل الآية بحيث لا تدل على أن ثمة خطأ علميا قد ارتُكِب هنا، أكرر أن قول المؤلفين هذا هو قول متهافت بناء على ما أورداه هما أنفسهما من آيات قرآنية تنص على أن لكل من الشمس والقمر مسارا فلكيا دائما لا يفارقه، ومن ثم كان من المضحك أن نتمسك بحرفية المعنى فى الآية المذكورة بعد كل الذى قلناه وقالاه هما أيضا.

وإلى القارئ شيئا من النصوص القرآنية التى تبين أن هناك مسارا سماويا دائما للشمس والقمر: "فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا" (أى بنظام وحساب دقيق: الأنعام/ ٩٦)، "هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ (يونس/ ٥)، "وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَار" (إبراهيم/ ٣٣)، "وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى" (لقمان/ ٢٩)، "لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَار" (يس/ ٤٠)، "وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا" (أى فى السماوات السبع)، "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ" (أى خُلِعَتْ من مسارها يوم القيامة، بما يعنى أنها لا تفارق هذا المسار قبل ذلك الحين: التكوير/ ١).

وقد صادفتُ بحثا فى المشباك بعنوان " Orbits of Earth, Moon, & Sun: 18 RELEVANT VERSES REGARDING THE SUN'S & MOON'S: ORBIT, ROTATION AND LIFE" لكاتب وقَّع باسم "Frank" يستشهد بهذه الآيات وأمثالها على ما قلناه هنا، ويردّ من خلالها على من يتهمون القرآن بأن ثمة أخطاء علمية فى حديثه عن الشمس والقمر والأجرام السماوية. ثم إنه يؤكد أيضا أننا ما زلنا نقول حتى الآن إن "الشمس غربت فى البحر" كما جاء فى الآية التى يدور حولها هذا

المقال: " we still use expressions such as the sun set into the sea, as is used in verse 18:86". وفى النهاية أحب أن أقول للقارئ إن هناك وجها آخر فى تفسير الآية الكريمة يجنِّبها كل هذا اللغط رأيت ابن حزم فى كتابه العبقرى العظيم: "الفِصَل فى الملل والنِّحَل" يقول به ويرفض كل ما سواه، وهو أن الذى كان فى "عينٍ حمئةٍ" ليس هو الشمس، بل ذو القرنين نفسه. والمعنى حينئذ هو أن الرجل قد أدركه المغرب (أو أدرك هو المغرب) وهو فى العين الحمئة. وتركيب الجملة يسمح بهذا بشىء غير قليل من الوجاهة، وإن لم يكن هو المعنى الذى يتبادر للذهن للوهلة الأولى. وشِبْه جملة "فى عين حمئة" فى هذه الحالة سيكون ظرفًا متعلقًا بفاعل "وجدها" وليس بالمفعول، أى أنه يصور حال ذى القرنين لا الشمس، وإن كان من المفسرين من يرفض هذا التوجيه كأبى حيان فى "البحر المحيط"، إذ يرى فيه لونا من التعسف. وسأضرب لهذا التركيب مثلا أَبْسَط يوضح ما أقول، فمثلا لو قلنا: "ضرب سعيدٌ رشادًا واقفا" لجاز أن يكون المعنى هو أن سعيدا ضرب رشادا، وسعيد واقف، أو أن يكون المعنى هو أن سعيدا ضرب رشادا، ورشاد واقف. والسياق هو الذى يوضح ما يراد.

على أن جراب الحاوى المسمى: "معروف الرصافى" لا يزال مفعما بالكتاكيت والثعابين والحبال والبَيْض مما يخرجه الحواة من أكمامهم وأفواههم أو يأتون به من الهواء، فنراه يدخل فى موضوع القراءات مؤكدا طوال الوقت أن القرآن لا يُشْتَرَط فيه أن يقرأه المسلم بالنص بل بأية طريقة تدل على المعنى، والسلام. وهو يورد هنا روايات لا تدخل العقل حتى لو أحال فيها على أعلم العلماء وحتى لو كانت روايات اتُّخِذ فيها أقصى درجات الحيطة والحذر، وهو ما لا يتحقق فيه شىء من ذلك. إنْ هى فى معظمها إلا حكايات مضحكة من الواضح أنها صُنِعَتْ صناعةً وأريد بها التفكهة. بالله عليك يا

قارئى العزيز أتظن أن هناك من يعجز من البشر لا من العرب وحدهم أن ينطق كلمة "الأثيم" ولا يمكنه أن ينطقها إلا "اليتيم"؟ بالله عليك ما وجه العلاقة نطقيا بين "الأثيم واليتيم"؟ لو أنه قال إنه لا يستطيع نطق الثاء فيقلبها سينا لكان مفهوما، أما أن يقلب الكلمة كلها من "أثيم" إلى "يتيم" فهذه طرفة أريد بها الترويح عن النفس. وتقول الرواية فى النهاية إن المعلِّم هنا، وهو ابن مسعود، اقترح عليه أن يقول بدلا من ذلك "الفاجر". وهو، كما ترى، كلام لا يدخل عقل صرصور، لكن الرصافى يطير به طيرانا كأنه وقع على كنز مع أنه يرفض روايات أخرى ذات ثقل فى الإقناع لمجرد أنها لا تسىء إلى النبى ولا القرآن، ويأتى من عنده بدلا منها بتفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان تنال منه صلى الله عليه وسلم ومن القرآن الذى نزل عليه.

لقد كان على ابن مسعود، ما دام فى الأمر سعة على هذا النحو غير المقبول منطقا، أن يرضى منه بـ"الأسيم" مثلا لأن هذا هو ما يقدر عليه، وفى الإسلام لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وإن كان من الصعب علىَّ الاقتناع بأن عربيا يعجز عن نطق الثاء. إن المصريين مثلا فى العصر الحديث يميلون إلى جعل الثاء سينا فى كلامهم اليومى لكنهم ما إن يبدأون فى قراءة القرآن حتى يلتزموا بنطق الثاء على النحو الصحيح مخرجين ألسنتهم فيها. فكيف يريدنا الرصافى تصديق مثل تلك الحكاية المضحكة؟ ثم ما دام الرجل قارئ الآية عاجزا عن نطق الثاء فكيف يا ترى تصرف فى نطق آلاف الثاءات الأخرى التى فى القرآن؟ هل اقترح عليه ابن مسعود بدائل عنها مثلما اقترح عليه كلمة "الفاجر" عوضا عن كلمة "الأثيم"؟ إن هذا لو حدث لوجدنا قرآنات لا حصر لها تختلف اختلافا رهيبا عن القرآن الذى نزل من السماء. لكننا ننظر فنجد أن المصحف

باق على ما هو عليه، اللّهم إلا الاختلافات الطبيعية بين اللهجات من مد وقصر، وإدغام وفك، وتفخيم وترقيق، وتشديد وتسهيل مثلا.

وإلى القارئ طرفة أخرى طار بها الرصافى، وهى لا تدخل العقل أبدا، بل أراها مزحة من أحد الظرفاء واسعى الذمة من الأعراب الأجلاف ممن فى دينهم دغل أراد بها إضحاك الموجودين: يروى أن أعرابيا قرأ سورة "الزلزلة"، ولما وصل إلى آيتيها الأخيرتين قال: "فمن يعمل مثقال ذرة شرا يره ❊ ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره"، ولما ووجه بأنه قدم الشر وأخر الخير قال لامباليا:

خـذا بطـن هَرْشَـى أو قفاهـا، فـإنما كـلا جـانِبَىْ هَرْشَـى لهـنَّ طريـقُ

والمعنى المراد هو: لا تحبّكوها هكذا بل كونوا متبحبحين (ص٧٠٤). ولا يمكن أن يكون هذا كلاما حقيقيا بل هى طرفة تفنن فيها مؤلفها أو ملفقها حتى يضحك القراء. و"هَرْشَى" ثَنِيَّة فى طريق مكة قريبة من الجُحْفة يُرَى منها البحر، ولها طريقان، فكل من سلك واحدا منهما أفضى به إلى نفس الموضع. وبالمناسبة فالحكاية قد رويت بأكثر من نسخة ومع أكثر من آية قرآنية، مما يعضد ما أقول من أنها مصنوعة للإضحاك. وما أكثر مثل تلك الروايات فى "أخبار الحمقى" لابن الجوزى. ولنلاحظ إطلاق ابن الجوزى اسم "الحمقى" على أبطال تلك الحكايات ومغزى ذلك. وهى مجرد روايات مضحكة جمعها ابن الجوزى ونسقها وفصلها فصولا.

ومن تلك الطُّرَف، لكنها هذه المرة طرفة سخيفة، أن على بن أبى طالب وابن الزبير وجماعة قرأوا قوله تعالى: "عندها جَنَّة المأوى"، أى عند سدرة المنتهى التى رأى الرسول عندها جبريل، على أنها "جَنَّهُ المأوى"، أى سَتَرَه المأوى. وتتساءل عبثا: كيف يستره المأوى؟ ويستره ممن؟ ولماذا يستره أصلا؟ وقيل فى تفسير هذا السخف إن كلمة

"جنة" و"جَنَّةٌ" فى الخط واحد (ص٧٠٥). الله أكبر. ترى أيمكن أن يقع واحد كعلى مثلا فى مثل ذلك الخطإ، وقد كان من أقرب الناس إلى النبى، فهو ختنه، وهو بطل كبير من أبطال الإسلام، وهو العالم النحرير؟ وهل كان على يأخذ القرآن مكتوبا دون أن يكون قد حفظه من قبل؟ فماذا ترك للآخرين الذين ليسوا قريبين من النبى ولا كان لهم من العلم مثله؟ وإذا كان هذا ممكنا لقد كان ينبغى أن يكون بين يدينا من القَرّائين أصناف وأصناف، فما أكثر الكلمات المتشابهة خطا فى القرآن. وإذا أضفنا كل الكلمات التى يمكن الخلط بينها سوى المنتهية بهاء مقفولة أو تاء مقفولة لقلنا على القرآن: يا رحمن يا رحيم! ولكان قد انتهى أمره من أزمان طوال. لكننا ننظر فنجد المصحف كما هو ما عدا الاختلافات البسيطة فى اللهجات التى تعود الناس عليها وصعب على ألسنتهم الإقلاع عنها.

ومن الطرائف السخيفة أيضا فى هذا المجال ما قيل من أن الصواب فى قوله تعالى: "أفلم ييأس الذين آمنوا أنْ لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعا؟" هو "أفلم يتبين الذين آمنوا أنْ لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعا؟" لكن كاتب المصحف كان ناعسا فكتبها مستوية السينات (ص٧١٠). وكعادة الرصافى ترك كل التعليلات فى كتابة "يتبيَّن" بصورة "ييأس" وشَبَطَ فى هذه لأنها تتناغم مع الحكة النفسية التى تعتريه فى هذا الكتاب. ولكن هل أسنان كلمة "يتبين" مساوية فى العدد لأسنان كلمة "ييأس"؟ وهل الكلمتان ذواتا شكل واحد؟ وإذا كان الكاتب ساعتئذ ناعسا فهل كان المملى أيضا ناعسا، فتركه يمضى فى الكتابة وهو يراه مرهقا لا يستطيع أن يقيم وجهه فيسقط منه كل لحظة؟ فإذا عرفنا أن الأمر لم يكن يقتصر على عضوين لكتابة القرآن بل على لجنة من عدة أفراد اتضح لنا أن الأمر سخف فى سخف. ثم هل كان المصحف المراد كتابته هو نسخة واحدة؟ لقد

كان مطلوبا عدة نسخ، فكيف أتت كل النسخ بـ"ييأس" بدلا من "يتبين"؟ هل كان الكاتب كلما أتى إلى هذه الكلمة بالذات غلبه النعاس؟ لكن لمَ؟ هل كانوا قد رشوا عليها مخدرا بحيث إذا ما اقترب منها فقد وعيه؟ أعطونى عقلكم بالله عليكم. ثم هل كان المسلمون كلهم لا يحفظون القرآن بل يأخذونه من الصحف المكتوبة؟ أَىُّ خَبَلٍ هذا؟ والمضحك، حتى تكتمل الرواية فصولا، أنهم ينسبون هذا التعليل إلى ابن عباس مرة واحدة، ابن عباس ابن عم النبى! ويجعلونه يقول هذا الكلام المضحك لكنه لا يطالب بتصحيح خطإ الناسخ بل يتقبل الأمر على علاته، وكأنه ليس أمر وحى سماوى.

كما نسبوا إلى عائشة القول بأن ذلك خطأ من الكاتب. وبمثل ما عَقَّبْنا به على الكلام المنسوب إلى ابن عباس نعقِّب على هذا الكلام المَعْزُوّ إلى أم المؤمنين. وأما مسارعة الرصافى إلى القول بأن البيت الذى استشهد به المفسرون على أن "ييأس" هى بمعنى "يعلم" عند بعض القبائل العربية بيت مصنوع من أجل تبرير هذه الكلمة، وهو ما يعنى أنه يكذّب البيت ويرى أن الآية حدث فيها خطأ وثبت هذا الخطأ، ولم يفكر أحد فى إصلاحه، وهذه شنشنته كما لاحظت وكررت القول به هنا، أما البيت المقصود فقد نسبه العلماء إلى صاحبه، ثم لم يكتفوا بهذا بل أضافوا إليه بيتين آخرين، مما يتبين معه أن اتهام الرصافى للبيت والآية هو ثمرة لما فى نفسه من مرض ومرارة وبغض تجاه القرآن. وهذه هى الأبيات الثلاثة فى سياقها كما وردت فى "البحر المحيط" لأبى حيان: "واليَأْسُ: القُنُوطُ فى الشىء، وهو هُنا فى قَوْلِ الأَكْثَرِينَ بِمَعْنى العِلْمِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَلَمْ يَعْلَمِ الَّذِينَ آمَنُوا؟ قالَ القاسِمُ بْنُ مَعْنٍ: هى لُغَةُ هَوازِنَ. وقالَ ابْنُ الكَلْبِى: هى لُغَةُ حَى مِنَ النَّخَعِ. وأَنْشَدُوا عَلى ذَلِكَ لِسُحَيْمِ بْنِ وثِيلٍ الرِّياحِى:

أَقُولُ لَهُم بِالشِّعْبِ إذْ يَيْسِرُونَنِى: أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّى ابْنُ فارِسِ زَهْدَمِ؟

وقالَ رَبَاحُ بْنُ عَدِى:

أَلَـمْ يَيْـأسِ الأَقْـوامُ أَنِّـى أنـا ابْنُـهُ وإنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ العَشِيرَةِ نائِيا؟

وقالَ آخَرُ:

حَتّـى إذا يَـئِسَ الرُّمـاةُ وأرْسَـلُوا غُـضْفًا دَواجِـنَ قـافِلًا أعْـصامُها

أى إذا عَلِمُوا أنْ لَيْسَ وجْهٌ إلّا الَّذِى رَأَوْا".

وبالنسبة لما يقال من أن أحد الصحابة كان يقرأ آية من الآيات بزيادة كلمة فيها عن بقية القراءات فإننا نتساءل: كيف يشذ الصحابى الكريم عن سائر إخوانه بل عن سائر المسلمين ثم يظل متعنتا ومتمسكا بقراءته المخالفة للجميع؟ هل يمكن أن يدور فى ذهن هذا الصحابى أنه وحده على الحق، وبقية الناس على الباطل؟ لو صحت هذه الروايات فلا أظن الأمر أكثر من تصور الصحابى الكريم مرة أن القراءة التى فى ذهنه صحيحة، لكنه سرعان ما يعود إلى التحليق مع سرب المسلمين أو أن الكلمة أوالعبارة الزائدة هى تفسير للآية ليس إلا، كما هو الحال مع قراءة "الذى علَّم الخط بالقلم" المنسوبة لابن الزبير، وقراءة "ليس عليكم جُنَاحٌ أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج" المنسوبة لابن عباس، وقراءة "تبت يدا أبى لهب وقد تَبَّ" المعزوة إلى ابن مسعود، وقراءة "النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم وأزواجه أمهاتهم" المعزوَّة له أيضا، وإن كانت القراءة تكذِّب نفسها بنفسها لأنه يترتب عليها عدم زواج النبى عليه السلام بأية امرأة مسلمة بل عليه، إذا أراد الزواج، أن يأخذ ما يريد من نساء غير المؤمنين. وهو ما يكذبه التاريخ. ومثل ذلك قراءة "إن الساعة آتية أكاد أخفيها من نفسى" المنسوبة إلى أُبَىٍّ بمعنى "فكيف أظهركم عليها؟"، إذ من المضحك تصور إخفاء الإنسان شيئا عن نفسه، فما بالكم برب العالمين؟ هذا كلام لا يليق أبدا بالله جل وعلا.

وبالمثل فإن قراءة "حتى إذا افرنقع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم" بدلا من "حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم..." مستبعَدة، إذ الفعل: "افرنقع" ليس من المعجم القرآنى ولا حتى الحديثى. وكل ما وجدته فى كتب التراث هو الحكاية التالية التى وردت فى تلك الكتب على أشكال شتى يمكن إيجازها فى أن أحد اللغويين المتقعرين اجتمع عليه الناس لأذًى وقع به، فلما أفاق من غاشيته قال لمن تجمعوا حوله: مالكم تكأكأتم علىَّ تَكَأْكُؤَكم على ذى جِنَّة؟ افرنقعوا. أى تفرقوا عنى. فقال القوم ساخرين: دعوه، فإن شيطانه يتكلم الهندية. وهو سياق مضحك نعوذ بالله أن يكون للقرآن به أية صلة على الإطلاق.

وفى نهاية المطاف يتساءل الرصافى: هل كانت لمحمد معجزة؟ ثم يرد قائلا إن القرآن نفسه، كلما اقترح عليه الكفار الإتيان بمعجزة، كان رده أنه لا يستطيع الإتيان بما يريدون، فضلا عن أنه لا يعلم الغيب، وإن المسلمين رغم ذلك أضافوا إليه كثيرا جدا من المعجزات التى لاحقيقة لها والتى يتسم كثير منها بالسخف. ولعل البعض يتصور أنه سوف يذكر القرآن بوصفه المعجزة الوحيدة التى جاء بها محمد، لكنه لم يفعل. وهذا أمر طبيعى بعدما انتقد القرآن كما رأينا واعترض على كثير من استعمالاته واتهمه بالركاكة فى كثير من الأحيان، وبالغموض فى أحيان أخرى، بل لقد رأيناه يقترح تعديله فى غير قليل من الحالات. وما دام الأمر كذلك فإن الكتاب الكريم لا يمثل فى نظره أية معجزة، وبخاصة أننا قد رأيناه يؤكد أن محمدا هو مؤلف القرآن، وأن ادعاءه أنه من عند الله هو كادعائه النبوة: كلاهما غير صحيح بل كذب، لكن بما أن محمدا كان يرمى إلى مصلحة قومه ومصلحة العالم فالكذب هنا هو الصدق بعينه. وقد طرحنا بدورنا سؤالا مهما هو: إذا كان كذب محمد هو الصدق فلم كان الرصافى حريصا على تكذيبه وكشف عوراته هنا وهناك؟ إن هذا من شأنه إفساد كل شىء لأن الناس متى عرفت أنه

كذاب ومعيب تبددت الهالة التى كانت تحيط به وانصرف الناس عنه... إلى آخر ما قلناه فى الرد عليه طوال هذا الفصل.

إذن أين معجزة محمد لدى الرصافى؟ معجزته أنه استطاع بالقرآن (الذى زعم صلى الله عليه وسلم كذبا أنه من عند الله) وبالسيف (الذى أكره به العرب والأمم الأخرى على اعتناق دينه) أن ينتصر على أعدائه وينشر دينه فى غضون فترة شديدة القصر مما لم يحدث فى التاريخ. وقد سبق أن رددنا على كل زعم من هذين بالتفصيل. أما نحن فنقول إن القرآن هو المعجزة الأولى للنبى عليه السلام، ولولا الإسلام ما استطاع أن ينجز هذا الذى أنجز. لقد كان القرآن هو سلاحه فى وجه كل أعدائه منذ اللحظةالأولى إلى آخر نفس فى حياته بل كان هو السلاح الذى انتصر به رجاله الكرام بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى عليه السلام. وقد تحدى القرآن المشركين أن يأتوا بسورة من مثله، لكن الرصافى يكذّب محمدا هنا ويرى أن القرآن ليس بذلك الكتاب المعجز حسبما رأينا طوال هذا الفصل، وهو ما خالفناه تماما بشأنه وبينا أن القرآن لا يمكن أن يكون من تأليف محمد لا مضمونا ولا أسلوبا، وأطلنا القول فى ذلك. والغريب أن الرصافى يقول رغم كل هذا إن فى القرآن كلاما لا يمكن أن يقوله إلا الله (ص٦٣٦). فإذا كان الأمر كذلك فهلا آمن بأن هذا الكلام هو من عند الله مثلما نفى عن بعض الآيات أن تكون منه سبحانه؟ أليس هذا هو ما يقوله المنطق؟ لكن متى كان الرصافى يحترم المنطق؟ وأما من ناحية المعجزات المادية فنحن مع الرصافى فى أن القرآن لم يستجب لاقتراحات الكفار على محمد صلى الله عليه السلام إتيانهم بمعجزة. لكن هل هذا معناه أنه عليه السلام لم يأت فعلا بأية معجزة؟ إن القرآن يقول فى هذا السبيل إن

المعجزات عند الله لا عند محمد، وإنها لم تأت بنتيجة مع الأمم السابقة، وإنه لو استجابت السماء لهم وأنزلت عليهم آية فلن يؤمنوا.

بيد أن هذا الرد إن كان يعنى أنه من غير الممكن نزول معجزات جوابا على طلب المشركين فإنه لايعنى بالضرورة ألا تنزل على النبى معجزات لتثبيت قلب المؤمنين أو إيناسهم. كما أن فى القرآن، حسبما وضحنا، إنباء ببعض أمور الغيب. وليس فى هذا أى تناقض مع تأكيده صلى الله عليه وسلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، إذ كان الله هو الذى ينبئه به ولا يَعْلَمه هو من لدن نفسه كما هو الحال فى تأكيده فى مطلع سورة "الروم"، عقيب هزيمة الروم أمام الفرس فى الفترة المكية، أن الروم سوف تنتصر عليهم فى بضع سنين، وهو ما وقع، وكسب المسلمون الرهان كما هو معروف. وفى القرآن تأكيد متكرر لا ينتهى منذ وقت مبكر من الدعوة المحمدية أن الإسلام سوف ينتصر على كل أعدائه وعلى الدين كله، وهو أيضا ما حصل. وقد أقر الرصافى بهذا الانتصار وجعله معجزة محمد الوحيدة، بينما نقول نحن إن السبيل إلى ذلك الانتصار هو القرآن. وإذا كان محمد هو محور كل شىء لدى الرصافى فلا يصح أن ننسى أن محمدا وحده، وهو الرجل الأمى من قوم أميين متخلفين ليس فى أيديهم أية إمكانات سياسية ولا اقتصادية ولا علمية ولا عسكرية تكفُل له ولدينه الانتصار فى أى صراع مع الدول الكبرى التى دخل معها فى معارك وحروب، لم يكن قادرا على أن ينجز شيئا مما أنجزه هو ودينه لولا أن الله اصطفاه وكلفه بالنبوة وعضده ووعده بالفوز المبين وبانسياح دينه فى الأرض كلها رغم كل المعوقات والعقبات. كما أن القرآن قد أنبأه عليه السلام أن الله عاصِمُه من الناس ولن يستطيع أحد أن يَمَسَّ حياته بسوء، فكان أن صرف حراسَه الليليين قائلا إنه لم تعد

هناك حاجة إلى حراسته لأن الله قد عصمه. وقد عصمه الله فعلا ولم يستطع أحد أن يناله بسوء رغم كثرة الأعداء ومحاولاتهم اغتياله.

ثم هناك الأحاديث التى تنبأت بفتح فارس والروم والأحاديث التى تتكلم عن انطواء الأرض أمام الإسلام. ولدينا فتح القسطنطينية، وهو إنجاز جلل تم بعد تنبئه صلى الله عليه وسلم به بعدة قرون، وبعد أن سُجِّلَت الأحاديث كتابة فلا يمكن أحدا أن يزعم أن تلك النبوءة من تأليف المسلمين بعدما فتحت القسطنطينية ولم يعد هناك مجال للقول بأن الله قد أطلع نبيه على ذلك، فتحدث به إلى أصحابه. وبالمثل هناك قوله إنه سيأتى على أمته زمان تتداعى عليها الأمم رغم كثرة أعدادها، إذ ستكون حينئذ، كما وصفها عليه السلام، غثاء كغثاء السيل. وهو ما نشهده ونقاسيه منذ عدة قرون دون أن نعرف لنا مخرجا رغم بلوغ عددنا ما يقارب المليارين. فما الذى يجعل محمدا يتنبأ بذلك فى وقت كان الإسلام فيه فى أوج توهجه وتألقه؟ وهذه الغثائية قد تحققت فعلا ولا تزال، وجاء تحققها بعد تسجيل الأحاديث كتابة بزمن طويل، ومن ثم ليس بمقدور أحد الزعم بأن المسلمين قد لفقوها بعد وقوعها. كذلك هناك نبوءته عن صراعنا مع يهود فى مقبل الزمان بعدما طويت تماما صفحة اليهود وصراعهم مع المسلمين بهزيمة ساحقة لهم. فكيف يمد محمد بصره عبر القرون المتناوحة ويتنبأ بأن هناك صراعا آخر جديدا مع اليهود سوف تُنْشَر صفحته بعد زمن طويل؟ ورغم هذا كله فلا هو ولا نحن ندعى أنه كان يعلم الغيب، إنما هو إخبار الله سبحانه وتعالى له. وهناك قوله صلى الله عليه وسلم، وفى أوج سطوع شمس الإسلام ووسط تنبؤاته عن انتصاره وانتشاره فى العالمين، إن المسلمين سوف يقتفون خطا الأمم السابقة ويقلدونهم تقليدا أعمى حتى لو أنهم دخلوا جحْر ضَبٍّ لدخلوه وراءهم. وهذا أيضا مما يعرفه القاصى والدانى،

ونراه فى كل شىء حولنا الآن حتى فى هجوم كثير جدا منا على الإسلام والرسول تقليدا منهم للمستشرقين والمبشرين، بل حتى فى النقد الأدبى، فنحن دائما ما ننتظر حتى يروج بين الغربيين منهج فى النقد جديد، وحينئذ نهلل له ونطبل ونشرع فى التصايح بأنه لا أبدع ولا أروع. ثم إذا ما ترك الغربيون هذا المنهج وانتقلوا منه إلى غيره تبعناهم فى تركه واتباع غيره وبنفس الحماسة. وفى مجال الملابس ما إن ظهرت مثلا بدعة السراويل الممزقة حتى صار الشباب المسلم يحرص على شرائها وارتدائها بعدما كان لُبْسُها مَعَرَّة يتقيها الناس جميعا بكل وسيلة.

ترى كيف يستطيع رجل أمى من أمة أمية متخلفة فى مضمار الحضارة ولا تتمتع بأية إمكانات للظهور على مسرح التاريخ أن تتسع رؤيته لتشمل العالم البشرى بكل أبعاده فى الزمان والمكان، والتاريخ بعوامله المختلفة، فيأتينا فى أحاديثه بمثل تلك النبوءات الخطيرة وغير المتوقعة بل التى لا تخطر فى ظروف النطق بها على البال البتة. وهذه نصوص الأحاديث المذكورة: "لَتفتحُنَّ القسطنطينية، ولَنِعْمَ الأميرُ أميرها، ولَنِعْمَ الجيش ذلك الجيش". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُوشِكُ أن تَدَاعَى عليكم الأممُ من كلِّ أُفُقٍ كما تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها. قيل: يا رسولَ اللهِ، فمِن قِلَّةٍ يَوْمَئِذٍ؟ قال: لا، ولكنكم غُثَاءٌ كغُثَاءِ السَّيْلِ. يُجْعَلُ الْوَهَنُ فى قلوبِكم، ويُنْزَعُ الرُّعْبُ من قلوبِ عَدُوِّكم لِحُبِّكُمُ الدنيا وكَراهِيَتِكُم الموتَ". "لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم شِبْرًا بشِبْرٍ، وذراعًا بذراعٍ، حتّى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدَخَلْتُمُوه".

والغريب المريب بعد ذلك كله أن الرصافى يعلن ارتيابه الحاد الجامح فى كل من آمن من أهل الكتاب ومن أهل البلاد التى فتحها المسلمون ويتهمهم بالحقد على الدين الجديد والحرص على إشاعة الانشقاقات وإثارة الفتن بين المسلمين مع عجزه عن

تقديم أية أدلة على تلك الاتهامات الهوجاء التى تنشر الشك بين القوميات الإسلامية، بينما هو بطول الكتاب وعرضه ينشر الريبة فى القرآن وفى شخصية النبى عليه السلام ويتهمه بالكذب والجهل وترديد خرافات الكتاب المقدس والتلمود، وبالدهاء والخداع. وقد وقف وقفة متأنية عند عبد الله بن سلام، الذى أسلم على يد النبى، والذى لجأ إلى خطة طريفة أراد بها ونجح فى أن يرينا نفاق اليهود واسوداد قلوبهم وانغلاق عقولهم وكذبهم وجرأتهم فى توزيع الاتهامات الظالمة على من لا يرضَوْن عنه وقدرتهم على تغيير آرائهم فى لحظة تبعا لأهوائهم وترتيبه الأمر على هذا النحو مع النبى عليه السلام، فيأتى فضيلة الشيخ الموقر الجليل معروف الرصافى لا قدس الله روحه فينهال على الرجل تشكيكا وجزما بأنه رجل منافق ينطوى قلبه على بغض الإسلام بما يعنى أنه نجح فى خداع النبى عليه الصلاة والسلام لا عند إعلانه اعتناق الدين الجديد فقط بل طوال حياته صلى الله عليه وسلم، وذلك كله دون أن يشفع تشكيكاته فى الصحابى الكريم بأى دليل. إن هى إلا تخرصات وانتقال من مقدمات إلى غير نتائجها بالمرة والجزم بصحتها والإحالة إلى ذكائه وخبرته فى فهم الرجل والحكم الصادق الدقيق عليه وعلى عقيدته وأخلاقه والقدرة على التدسس إلى ما يخفيه باطنه. ونحن من جهتنا نشكك فى الرصافى ولا نحتاج إلى التدسس إلى باطنه، فقد قرأنا كتابه من جهة وألفيناه لا يحترم المنطق والعقل بل ينثر الاتهامات والتشكيكات فى كل شخص وكل شىء بما فى ذلك النبى والقرآن والصحابة والمسلمون من البلاد المفتوحة، وبهذا أحال الدنيا جمعاء سوادا قاتما ما عداه هو وأخلاقه ونفسيته المريضة التى يريد أن يقنعنا أنها هى الشىء الوحيد المستقيم فى هذه الحياة رغم كل ما أجمع عليه من يعرفونه من أصدقاء ومعارف وزملاء من أنه فى الشق الثانى من مسيرته العُمْرِيّة قد انقلبت حياته

وتصرفاته وأخلاقه رأسا على عقب، وأنه ساكَنَ المومسات فى حارتهن ردحا فى أواخر عمره وكان يقضى لبانته منهن كلما قَرِمَ إلى لحمهن، وما كان أكثر ما يَقْرَم إليه، فضلا عن ممارسته اللواط، وإدمانه الخمر والميسر ومد يده إلى معارفه ليمدوه بالطعام والملابس وما إلى ذلك.

وثم نقطة أخرى تعامل معها الرصافى، كما تعامل مع كل النقاط التى تناولها فى هذا الكتاب، بخفة ورعونة وتسرع لا يليق بمن يدرس موضوعا خطيرا كهذا، وهى دعواه أن القرآن، بعيدا عن قصص الأنبياء والأمم السابقة، لا يتناول سوى أمرين اثنين لا غير يبدئ فيهما ويعيد دائما أبدا: وحدة الإله وترك الشرك ونفى الأنداد من جهة، والحياة الأخرى وما يتعلق بها من البعث بعد الموت والجزاء والجنة وجهنم من جهة ثانية (ص١٤٠). وهذا خطأ محض وكذب صراح، إذ القرآن لا يتوقف عند هذين الأمرين بل هناك العمل الصالح، الذى بلغ من أهميته وخطورته قوله صلى الله عليه وسلم عنه: "ليس الإيمان بالتمنى، ولكنْ ما وَقَرَ فى القلب وصَدَّقه العمل". وهناك الجانب العبادى من صلاة وصيام وزكاة وحج وما يتعلق بكل عبادة من هذه العبادات من تفصيلات ودقائق. وهناك الجانب الأخلاقى من صدق ووفاء بالوعد وعدل وتواضع ونظام ونظافة ووفاء بالكيل والميزان وشهادة بالحق ورحمة بالمكسورين من أيتام وفقراء وعجزة وأقارب ومساعدة لهم... إلخ. كذلك هناك الجانب السياسى من شورى وعدل ومساواة وحرص على تولية الصالحين لأى منصب قيادى وعلى توفير مستوى معيشة كريم لكل فرد فى المجتمع. وهناك الجانب التشريعى الموزع على ميادين التجارة والزراعة والإجارة والسَّلَم والحرب والزواج والطلاق والزنا والقمار والخمر والطعام... وهناك أيضا النصوص التى تركز على العلم ووجوب إعمال العقل

والابتكار والإبداع والإتقان والإنتاج... والآيات التى تعالج كل نقطة من هذه النقاط كثيرة ومتكررة. فكيف تجاهلها الرصافى هذا التجاهل الشائن المَشِين؟

وبالنسبة لعقيدة الدار الآخرة نلفى الرصافى يتضارب بين سطر وآخر. فهو يقول إن عرب الجاهلية كانوا ينكرون البعث بعد الموت وجادلوا فيه محمدا بغلظة وعنف. ثم يعود فيقول إن فكرة الدار الآخرة لها أصل فى ا لأديان السابقة، وإن كان على شكل مختلف عما جاء به محمد، فيجوز القول بأنه استمد أصل الفكرة منها ثم توسع فيها بما لم يسبق له أو يلحق به مثيل فى خيالات البشر، وهو ما يدل على رحابة خياله الواسع. ثم يعود فيقول إن فكرة الآخرة كانت موجودة عند العرب قبل محمد. ثم يورد لنا قصة تدل، من وجهة نظره الكليلة، على ما يقول ملخَّصُها أن عبد المطلب جَدَّ محمدٍ كان يقول: "لن يخرج من الدنيا ظَلُوم حتى يُنْتَقَم منه وتصيبَه عقوبة" إلى أن هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة، فقيل لعبد المطلب فى ذلك، ففكر وقال: "والله إن وراء هذه الدار دارا يُجْزَى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقَب فيها المسىء بإساءته". ثم يمضى فينقل كلاما من "السيرة الحلبية" لكعب بن لؤى يقول فيه: "الأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين. فصِلُوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم وثَمِّروا أموالكم. الدار أمامكم، والظن غير ما تقولون". والمعنى أن هناك آخرة على عكس ما تقولون. كما ورد ذكر الآخرة فى شعر الحنفاء كزيد بن عمرو بن نُفَيْل وأمية. أى أن فكرة الآخرة كانت موجودة عند عرب الجاهلية لا كلهم بل عند أفراد منهم فقط (ص١٤٢- ١٤٣). وأحب أن أقف عند كلام عبد المطلب الأول عن اطراد وقوع الجزاء فى الدنيا ثم تغييره لهذا الكلام بناء على ما استجد له من معلومة مختلفة. فهل كان عبد المطلب من السذاجة بحيث يظن أن كل ظلم لا بد أن

يجازَى عنه صاحبه على الأرض؟ أَوَقَدِ استقصى أحوال الدنيا وأعمال العباد جميعا فى كل بلاد العالم فألفاها كلها يتم الجزاء عنها فى الدنيا؟ هل كل قاتل كان يُقْتَل؟ هل كل سارق كان يُسْرَق؟ هل كل مستبد كان يُسْتَبَدّ به؟ هل كل مخلف للوعد كان يُخْلَف له وعد بقدر ما أخلف من وعود؟ هل كل شاتم كان يُشْتَم؟ فأين كان ذلك يا ترى حتى لو حصرنا أنفسنا فى بلاد العرب وفى عصر عبد المطلب بل حتى لو حصرنا أنفسنا فى مكة وحدها لمدة أسبوع مثلا بل لمدة يوم؟ ثم أكانت مكة وبلاد العرب من الطهارة والنقاء الخلقى بحيث لم توجَد فيها حالة واحدة من الظلم لم يجازَ صاحبها عليها ووجدوا هذه الحالة فى الشام؟ ولكن كيف تم رصد تلك الحالة الشامية يا ربى؟ واضح أن الرصافى مضطرب المنطق ساذج التفكير، وإن ظن أنه فيلسوف كبير.

ثم بعد هذا كله يعود فيلسوفنا الأغبر فيقول إن الناس كانوا منذ قديم الزمان يرون أن المظلومين أكثر من الظالمين فى كل زمان ومكان، وأن الظالمين يمرحون منعمين فى الدنيا ثم يموتون دون أن يتلقوا عقابا. كما أن الناس قد لاحظوا أن أكثرهم يعيش فى بؤس وشقاء، والأقلين يتنعمون بعيش رغيد، وأن هذا ينافى العدل. كذلك فالإنسان بطبيعته يحب الخلود وينفر من الهلاك التام. ولهذا كله لجأ البشر إلى الاعتقاد فى الدار الآخرة. ثم يتفلحس رصافينا واصفا الدار الآخرة وما يعتقده الإنسان من وقوع الجزاء فيها بـ"المحال"، وداعيا البشر إلى أن ينهضوا ويحققوا العدل ويجازوا الظالم بأنفسهم فى هذه الدنيا بدلا من التعلق بأذيال الوهم المستحيل (ص١٤٣). ومعنى هذا أن الناس كانت تؤمن بأن هناك حياة بعد الموت. هذا ما يقوله كلامه السابق بكل وضوح وصراحة. لكن واقع الأمر يكذّب كل هذا الذى يقول، فقد وقف المشركون فى وجه الدعوة الإسلامية وصاحبها مكذبين بما كان يقوله عن وجود دار أخرى بعد

الموت يكافَأ فيها المحسن عن إحسانه، ويعاقَب فيها المسىء على إساءته، ويسخرون منه سخرية فظيعة ويتهمونه بالجنون. فليعلل لنا فيلسوفنا هذا التناقض بين ما يقول وبين الواقع الذى يخزق عينه وعيون كل معاند كفار. ثم لماذا يا ترى، حين جَدَّ الجِدُّ، اكتفى الرصافى بمد يده لمن يساوى ومن لا يساوى طالبا منهم المال والطعام والشراب والملبس دون حياء ولم يفكر فى الدعوة إلى الثورة الشعبية وإصلاح الأحوال متقدما الصفوف؟ ثم هل لنا فى ضوء كلامه هذا أن نفهم أنه كان يمارس الزنا مع البغايا واللواط مع الغلمان ويشرب الخمر ويلعب القمار ويلازم بيته كالحِلْس لا يعمل ولا يسعى وراء الرزق لأنه كان يؤمن بعدم وجود آخرة؟ أحسب أن الإجابة لا يمكن أن تكون إلا بـ"نعم". ولكن ثم سؤالا يقتضيه وصفه العالم الآخر بالمحال، ألا وهو: من يا ترى وضع التطلع إلى تحقيق العدل وحب الخلود فى نفوس البشر فى الوقت الذى لا يتحقق فيه شىء من ذلك فى الحياة الدنيا؟ إنه الله بطبيعة الحال، وهو دائم التصريح بأنه يؤمن بالله وأن الله هو كل شىء. فكيف يغرس الله التطلع إلى العدل وحب الخلود فى نفوسنا نحن البشر، وفى نفس الوقت يُخْلِى كونه من إمكان تحقيق ذلك؟ الا إن هذا عبث سخيف تعالى الله عنه. ومع هذا فإن كاتبنا يؤكد هذا العبث والسخف ويمضى بضمير خفيف كأنه لم يقل أو يفعل شيئًا إِدًّا.

وفى النهاية أقول ما قلته فى الفصل الخاص بنفى الرصافى لنبوة محمد من أنه من العجيب أن نرى الرصافى فى وصيته الأخيرة يؤكد أنه "مسلم مؤمن بالله ورسوله محمد بن عبد الله إيمانا صادقا لا أرائى فيه ولا أداجى، إلا أنى خالفت المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يرونها من الدين، وليست منه إلا بمنزلة القشور من اللباب، ولا يهمنى من الدين إلا جوهره الخالص وغايته المطلوبة التى هى الوصول إلى شىء من السعادة

فى الحياة الدنيوية الاجتماعية والحياة الأخروية ما أمكن الوصول إليه من ذلك بترك الشرور وبعمل الصالحات. وكل ما عدا ذلك من أمور الدين فهو وسيلة إليه وواسطة له ليس إلا" (مصطفى على/ الرصافى/ ١- صلتى به، وصيته، مؤلفاته/ مكتبة المثنى/ بغداد / ١٩٤٨م/ ٤٣- ٤٤). وهذا غريب أشد الغرابة وأفدحها وكذب أبلق لا يمكن ستره ولا رتقه، فالرجل لا يؤمن بمحمد نبيا على الإطلاق كما وضحنا بل يؤكد أنه اخترع الدين والوحى اختراعا وزعم أن الله قد اختاره بينما لم يختره ولا أرسله لأحد، بالإضافة إلى أنه كثيرا ما يخطّئ لغته ومضمونه ويركّكه ويسخر منه، وفوق هذا لا يؤمن بالآخرة ولا بالحساب والثواب والعقاب. فكيف يزعم أنه مسلم؟ هذا، ولا أريد أن أشير إلى إيمانه بوحدة الوجود، فقد يقال إن هذا هو فهمه للألوهية، أى إنه مؤمن بالله على أية حال. فليكن، أما الإيمان بنبوة محمد وبالقرآن وباليوم الآخر وبالجنة والنار فإنه لا يؤمن بشىء من ذلك بل يزعم أن محمدا هو من لفق حكاية البعث والجنة والنار وما فيهما من المتع وألوان العذاب. وربما جَرَّأَه على كتابة هذه الوصية معرفتُه أن أحدا لم يطلع على "شخصية محمد" خارج الدائرة التى يطمئن إلى أنها لن تفشى سر الكتاب وما فيه من بلايا ورزايا. أنا لا أصادر حريته ولا حرية أحد غيره فى الاعتقاد بما يرى، لكنى لا أحب هذه المناورة والمداورة، ولا أحب الدفاع المقيت الذى انبرى له مصطفى على فى كتابه المذكور لتحسين صورته ومخادعة القراء عن حقيقة أمره.

الفهرست